

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم



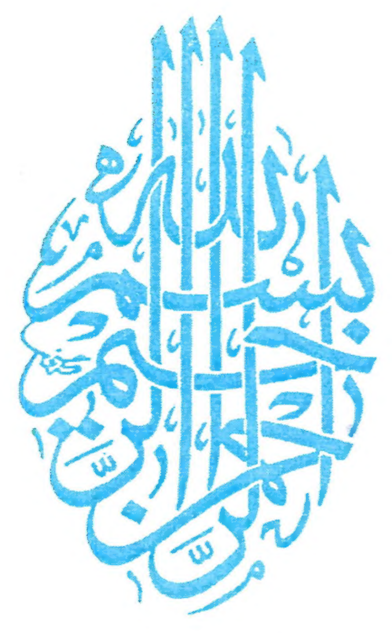
المجلد الثالث

الأمة العربية : الأوج والإزدهار

القسم الأول

التطور السياسي

تونس 2006



إن الآراء والأفكار التي تنشر بأسماء كتابها

لا تحمل بالضرورة وجهة نظر المنظمة

الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

المجلد الثالث : الأمة العربية : الأوج والازدهار

القسم الأول : التطور السياسي

تونس - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 2006

(612 ص)

(ISBN 978-9973-15-206-0)

المقدمـــــــــة

يعالج المجلد الثالث تاريخ الأمة العربية في مرحلة الأوج والإزدهار في العصر العبـــاسي الأول، الذي ترامت فيه أطراف دار الإسلام من قلب القارة الأسيوية شرقاً حتي الساحل الغربي لإفريقيا في المغرب الأقصي. ومن بحر قزوين وبلاد القوقاز وجنوب الأناضول وجزر البحر المتوسط وصقلية والأندلس شمالاً ، حتي وادي السند وبحر العرب وبلاد السودان جنوباً. فضمت دار الإســـــلام شعوباً متعددي الأعراق والثقافات، اعتنق منهم الإسلام من اختار الدين الحنيف بإرادته الحرة دون قسر أو إكراه، وبقي منهم علي دينه من أراد ليدخل في زمرة أهل الذمة .

وكان من الطبيعي أنْ يؤدي هذا الإتســــاع الكبيـــر في رقعـــــة دار الإسلام، وذلك التنوع والتعدد في الشعوب والثقافات، إلي البحث عن أطر سياسية جديدة تتيح مساحة أوسع للمشاركة السياسية من تلك التي أتاحها الأمويون ، فكانت الثورة التي قضت علي ملك الأمويين ، ومكنت بني العباسي من إقامة صرح دولتهم التي تحققت فيها شراكة العرب والموالي في السلطة حيناً، واستبداد الموالي بالسلطة أحياناً، وتحول الخلافة إلي مجرد سلطة سيادية إسمية ، بينما ملك العسكر – الذين جاءوا من شعوب قلب آسيا : الأتراك والديلم وغيرهم – زمام السلطة في حاضرة الدولة.

يتناول المجلد الثالث 315 عاماً من تاريخ الأمة تبدأ بالثورة العباسية (129 هــ / 747 م)، وتنتهي بدخول السلاجقة بغداد (447 هــ / 1055 م) . وهو عصر جمع بين تنوع الأحداث السياسية وتشابكها، إزدهار الحضارة الإسلامية، وتأثيرها البالغ في الحضارة الإنسانية ، لذلك رأت اللجنة العلمية أن يصدر هذا المجلد علي قسمين : أولهما يختص بالتطور السياسي وثانيهما يختص بالتطور الحضاري.

وفي القســم الأول " التطور السياسي " ، تم تقسيم التطور علي مدار العصر العباسي الأول إلي ثلاثة أطوار ، يعبر كل طور منها عن مرحلة بذاتها ذات سمات محددة ، واخْتص كل فصل من الفصول الثلاثة الأولي من هذا القسم بمعالجة طور من تلك الأطوار في سياق زمني . أما الفصل الرابع والأخير، فقد خصص لدراسة النظم والمؤسسات المتصلة بالحكم والإدارة من منظور التطور ، لإرتباطها الوثيق بالتطور السياسي .

فالطور الأول يبدأ بنجاح الثورة العباسية وإرتقاء العباسيين الخلافة (132 هــ / 750 م) ويتناول بالدراسة التطور السياسي للخلافة العباسية حتي أواسط القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، بما في ذلك العلاقات

الخارجية مع بلاد الجوار الإقليمي ، ويعرض الفصل الأول – الذي خصص لهذا الطور – لأهم حركات المعارضة الداخلية ذات الطابع السياسي والعرقي والديني، وأثرها في مسار ذلك الطور من تاريخ الأمة .

ويمثل الطور الثاني القرن الذي يقع بين أواسط الثالث وأواسط الرابع الهجريين/ أواسط القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وهو عصر هيمنة العسكر علي السلطة. ويعالج الفصل الثاني – المخصص لهذا الطور – الخلافة العباسية واستخدام الأتراك، ويتتبع تطور الخلافة العباسية في النصف الثاني من القرن الثالث الذي طغت فيه سلطة قادة العسكر من الأتراك علي سلطة الخليفة، وما شاب السلطة المركزية من وهن ساعد علي قيام الكيانات المستقلة التي تفاوت ارتباطها بالخلافة في بغداد شكلاً وموضوعاً، وتأرجحت بين التبعية الإسمية ، والاستقلال ، وظهور أسر حاكمة تعاقب أفرادها علي حكم تلك الدويلات . ويعالج الفصل الدعوة العلوية في المغرب وقيام الدولة الفاطمية قبيل ختام القرن الثالث الهجري.

أما الطور الثالث والأخير، فيلقي الضوء علي القرن الأخير من ذلك العصر الذي يقع بين أواسط القرنين الرابع والخامس الهجريين/ أواسط القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين. ويتناول الفصل الثالث – الذي خصص لدراسة هذا الطور – الخلافة العباسية في ظل سيطرة البويهيين علي مقاليد الأمور في حاضرة الدولة حتي دخول السلاجقة بغداد (447هـ / 1055 م) ، كما يتناول الخلافة الأموية في الأندلس (316 – 422 هـ / 928 – 1031 م) ، ويدرس الفصل الكيانات المستقلة في الجزيرة العربية (اليمن وعمان والحجاز) .

ويعالج الفصل الرابع النظم ومؤسسات الحكم وتطورها ، فيلقي الضوء علي الخلافة ، والوزارة ، والحجابة ، متناولاً ظروف نشأة كل منها، ومجال اختصاصها وصلاحياتها، وعلاقتها ببعضها البعض، وما أصابها من تطور علي مر ذلك العصر. كذلك يعالج الفصل الدواوين المختلفة، وظروف نشأة كل منها، ودائرة اختصاصه، ويقدم إطلالة علي الجيش ومكوناته من الوحدات والأفراد. كما يتناول الفصل القضاء والحسبة ، ونظام الضرائب .

وهكذا جاءت فصول القسم الأول من المجلد الثالث محددة لإطار التطور السياسي في العصر العباسي الأول. ويبقي القسم الثاني الخاص بالتطور الحضاري ليعالج مختلف مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في مرحلة الأوج والإزدهار بمختلف مكوناتها المادية والعلمية والفكرية والثقافية .

المشرف العام: الأستاذ الدكتور/ المنجى بوسنينة
المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المشاركون فى التأليف (على وفق ترتيب الأبحاث)

1 – أ . د . فاروق عمر فوزى	(العراق)	جامعة السلطان قابوس/عمان
2 – أ . د . بهجة كامل عبد اللطيف	(العراق)	جامعة بغداد
3 – أ . د . محمد بن عبد القادر خريسات	(الأردن)	الجامعة الأردنية
4 – أ . د . إدريس صالح الحرير	(ليبيا)	جامعة قاريونس
5 – أ . د . فرحات الدشراوي	(تونس)	الجامعة التونسية
6 – أ . د . عبد الجبار ناحي	(العراق)	جامعة بغداد
7 – أ . د . سهيل زكار	(سوريا)	جامعة دمشق
8 – أ . د . راضي دغفوس	(تونس)	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية–جامعة تونس
9 – أ . د . موفق سالم نورى	(العراق)	جامعة الموصل
10 – أ . د . حسين أمين	(العراق)	جامعة بغداد
11 – أ . د . نبيلة عبد المنعم داوود	(العراق)	مركز إحياء التراث العربى–جامعة بغداد
12 – أ . د . بشير رمضان التليسي	(ليبيا)	جامعة طرابلس
13 – أ . د . صالح خلف الحمارنة	(الأردن)	الجامعة الأردنية

المراجعة العلمية والتحرير النهائى : أ . د . إدريس الحرير
أ . د . بهجة كامل عبد اللطيف
أ . د . راضي دغفوس

المراجعة اللغوية : أ . د . عبد الفتاح سيد سليم
كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

المدير التنفيذي : الأستاذ / وجدي عباس محمود
مستشار المدير العام للمنظمة

القسم الأول

التطور السياسي فى الوطن العربى

الفصل الأول : الطور الأول

(من سنة 132هـ/ 750م إلى

سنة 218 هـ/ 833 م)

1- الثورة العباسية وارتقاء العباسيين الخلافة

2- التطور السياسي للخلافة

3- أهم حركات المعارضة الداخلية

- الحزبية
- الفارسية
- الزندقة
- الشعوبية

4- العلاقات الخارجية (الروم ...)

1) الثورة العباسية وارتقاء العباسيين للخلافة

مقدمة:

كانت الثورة العباسية التي أعلنت في خراسان في 25 رمضان سنة 129هـ الموافق 9حزيران (يونيه) سنة 747م نقطة تحول كبيرة في تاريخ المجتمع العربي الإسلامي، إذ أدت إلى تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية وغيّرت العديد من المفاهيم والنظم السائدة، وأعطت زخماً لتبلور نظم ومؤسسات أخرى كانت موجودة في العصر الأموي.

لقد نالت الثورة العباسية اهتمام المؤرخين المسلمين الأوائل منهم والمحدثين، وقد جاء هؤلاء بآراء وتفاسير متباينة حول طبيعة هذه الثورة وأهدافها الدينية والسياسية والاجتماعية، ولسنا هنا بصدد التفصيل في ذلك، ولكننا نقول إن الثورة العباسية لا يمكن أن ترتضي لنفسها تلك التفاسير الإقليمية أو العنصرية الضيقة التي نادى بها بعض المؤرخين، وإن إعادة تقويم الروايات التاريخية في مصادرنا التراثية توصلنا إلى التفسير القائل بأن هذه الثورة قامت على أساس تحالف متين بين كل الفئات المتذمرة من سياسة الأمويين، سواء أكانت تلك الفئات عربية أم غير عربية. أما قوتها الضاربة فكانت تتكون من قبائل عربية استقرت في خراسان. وغدا تذمر هؤلاء العرب من أهل خراسان - سواء أكانوا من المقاتلة أو المستقرين كانت- الشرارة الأولى التي أنذرت بتفجير الثورة، كما كانت في الوقت نفسه حافزاً لتكثيف الجهد من قبل الدعاة العباسيين لكسب أكبر عدد ممكن من العرب وغير العرب. كما خاطبت الشعارات التي رفعتها كل الفئات والتكتلات ومنها الموالي ، إلا أن دور هؤلاء لا يمكن أن يقارن بدور العرب.

أ) أطوار الدعوة العباسية :

لقد مرت الدعوة العباسية بدورين رئيسيين هما:

- الدور السري : وهو فترة الإعداد، وتبدأ من حوالي سنة 97 هـ أو سنة 98هـ/ سنة 715م أو سنة 716م، ولم تتبلور تنظيماتها إلا بعد تسلم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قيادتها بعد وفاة والده علي العباسي سنة 118 هـ/ سنة 736م. ويعد المؤرخون محمد بن علي العباسي المؤسس الحقيقي للدعوة. والمعروف أن علاقة محمد بن علي العباسي كانت وطيدة بأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية العلوي. وكان هذا الأخير يرأس منظمة سرية معارضة للأمويين سميت بالهاشمية نسبة إليه. وقد أوصى أبو هاشم قُبيْل وفاته برئاسة هذه المنظمة لمحمد بن علي العباسي، وبهذا انتقل غالبية أتباع أبي هاشم عبد الله إلى محمد بن علي العباسي، وغدت الحركة السرية الهاشمية حركة عباسية صرفة، وتشكلت النواة الثورية للدعوة العباسية تحت زعامة محمد بن علي العباسي.

ولم يمض وقت طويل حتى قرر محمد بن علي العباسي أن ينقل مركز نشاط الدعوة إلى خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة في العراق كحلقة ارتباط بين مرو (قاعدة خراسان) والحميمة في الأردن مقر الإمام محمد العباسي. ولقد كان اختيار الإمام محمد العباسي لخراسان موفقاً، ويبدو أنه كان مدركاً لميول الأقاليم الإسلامية ونزعاتها السياسية. فخراسان على حد قوله: "عليكم بأهل خراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر والصدور السليمة والقلوب الفارغة التي لم تتقسمها الأهواء... وبعد فإني أتطلع إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق" .

إن الدوافع التي أشار إليها الإمام العباسي تعد دوافع مهمة لتبرير اختيار خراسان. ولكن يمكن القول أيضاً بأن ذلك الإقليم كان موطن المقاتلة العرب الذين مرستهم الحرب الطويلة مع الترك في بلاد ما وراء النهر، والذين عبَّرُوا عن عدم رضاهم عن سياسة الأمويين العسكرية والمالية. وفي رواية تاريخية ما يسند هذا الرأي حيث تشير إلى ذلك بصراحة فتقول "في خراسان جمجمة العرب وفرسانها".

على أن الطريق لم يكن سهلاً أمام الدعاة، فقد جابهت الدعوة انتكاسات هزتها، مثل حركة خداش، وهو عمار بن يزيد الذي انحرف عن تعاليم الإسلام ونادى بآراء متطرفة، فتبرأ منه الإمام العباسي، وأمر أتباعه بقطع صلتهم به.

- الدور العلني للدعوة : وهو الدور الذي يبدأ بإعلان الثورة سنة 129هـ/747م على يد إبراهيم بن محمد بن علي العباسي الذي يعرف تاريخياً باسم (إبراهيم الإمام). وكان هذا الأخير قد تسلّم قيادة الدعوة بعد وفاة أبيه محمد بن علي العباسي سنة 125هـ / 742-743م، وبتسلمه زعامة الدعوة بدأ وجه جديد وفعّال في سير الدعوة، فقد حث دعاته على انتهاز الأوضاع المتدهورة في خراسان. وقد أدرك نقيب النقباء في خراسان سليمان بن كثير الخزاعي أهمية العرب في خراسان، ونجح في كسب جديع بن علي الكرماني- شيخ اليمانية وحلفائهم من القيسية وكذلك مواليهم- إلى الدعوة. وكان هؤلاء جميعاً يتُوقُون إلى أمر يجمعهم فكانت الدعوة العباسية هي ذلك الأمر الذي نجح في كسبهم، "فتحركت الدعوة، يدعو اليمانيُّ من الشيعة (العباسية) اليمانيَّ والربعيُّ الربعيَّ والمضريُّ المضريَّ، حتى كثر من استجاب لهم". وبناء على طلب سليمان بن كثير الخزاعي إلى الإمام إبراهيم العباسي أن يرسل من يمثله في خراسان عند إعلان الثورة اختار الإمام مولاه أبا مسلم الخراسانيَّ ليمثله في خراسان. على أن شخصية أبي مسلم قد أصبحت أسطورة نُسِجَتْ حولها الروايات المختلقة، ولاسيما بعد

مقتله سنة 137هـ/ 754م، إذ بالغت بعض الروايات فأظهرته بمظهر المحرك الوحيد للثورة العباسية، مع أن النصوص التاريخية الموثوق بها تؤكد أن المسؤولية كانت مشتركة بين النقباء والدعاة وبقي سليمان الخزاعي المتكلم باسم الدعوة، والمفاوض مع شيوخ القبائل ووالي خراسان الأموي نصر بن سيار. وحين أرسل إبراهيم الإمام أبا مسلم إلى خراسان أوصاه بوصية إختلف الإخباريون والمؤرخون في نصها، ومهما يكن من أمر فإننا نرى أن عبارات من الوصية قد وُضعت أو حُرِّفت من جانب أعداء الدعوة العباسية التشويه أهداف الدعوة وخطها العربي-الإسلامي وتنفير العرب من الانضمام إليها.

وحين عقد مجلس النقباء اجتماعه تقرر إعلان الثورة في مرو، لأنها على حد قول أحدهم: كان "بها خلق كثير من إخواننا، وبها السلطان قد وهن أمره . ومتى يقْوَ بها أمرنا يقْوَ في غيرها "، وقد تم الاتفاق على التقاء أنصار الدعوة في مرو في يوم عيد الفطر سنة 129هـ/746م. وساعد الوضع المتدهور في خراسان- بسبب التراع بين أتباع والي الأمويين نصر بن سيار وأتباع جديع الكرماني شيخ قبائل الأزد اليمانية الدعاة العباسيين- على تركيز جهودهم، وهكذا انتشر خبر الدعوة العباسية وأقبلت شيعة الدعوة من كل جانب إلى مرو، وقد كثر جمعهم، ونصبوا أعلامهم، ونشروا راياتهم.

ثم ازدادت الحالة السياسية في خراسان تعقيداً بظهور أطراف سياسية جديدة، مثل شيبانابنسلمة الحروري الخارجي، وعبد الله بن معاوية الطالبي، إلا أن قادة الدعوة العباسية عملوا بفطنة وذكاء، ونجحوا في إبعاد التكتلات القبلية والسياسية الأخرى عن نصر بن سيار والي الأمويين الذي غدا شبه معزول فاضطره ذلك إلى الاستنجاد بالخليفة الأموي مروان بن محمد خصوصا بعد أن يئس من مساعدة والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة. وقد جاء في رسالة نصر: " كتبتُ إلي أمير المؤمنين و لم يبق مني شيء على عدو أمير المؤمنين، لا في رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي، ولو كنت أمددتني بألف فارس من أهل الشام لاكتفيت بهم، ولقطعت دابر القوم الظالمين".

ومع هذا لم يستجب الخليفة له بسرعة، وغدت الدعوة العباسية تسيطر على مرو وقراها وعلى هيرات (هراة) وأبيورد والعديد من القرى الأخرى. ثم تقدم أتباع العباسيين باتجاه نيسابور، بعد أن تركها نصر، وانسحب إلى همذان، ولكنه لم يصلها إذ مات في الطريق في 12 من ربيع الأول سنة 131هـ/ تشرين الأول 748م وجاءت أوامر إبراهيم للإمام بتعيين قحطبة بن شبيب الطائي قائداً للقوات العباسية المتقدمة في بلاد فارس.

باتجاه العراق، وتوجه قحطبة الطائي بقواته نحو جرجان وسيطر عليها بعد معركة قوية قتل فيها القائد الأموي نباتة بن حنظلة، وأتبعها بمعركة فاصلة مع قوات الأمويين بقيادة عامر بن ضبارة قرب أصفهان في 23 من رجب 131هـ/شباط 749م كانت نتيجتها انتصار أنصار الدعوة العباسية ومقتل القائد الأموي ابن ضبارة. وفي حركة سريعة أصبحت القوات العباسية داخل العراق حيث كان الداعية العباسي أبو سلمة الخلال وزير آل محمد في الكوفة يُعِدُّ الجو السياسي لاستقبالها. وفي الطريق إلى الكوفة احتدم القتال بين قوات قحطبة الطائي وقوات يزيد بن عمر بن هبيرة الوالي الأموي في المحرم 132هـ/27 آب سنة 749م قرب الفلوجة على شاطىء الفرات حيث كانت المعركة سجالاً بين الطرفين، انسحب بعدها الجيش الأموي إلى واسط واعتصم بها. أما قحطبة الطائي قائد القوات العباسية فقد قتل في المعركة أو غرق في الفرات. ومهما يكن من أمر فقد كان من نتائج المعركة إعلان الكوفة ولاءها للدعوة الهاشمية، ودخل وزير آل محمد أبو سلمة الخلال مسجد الكوفة محاطاً بقادة الدعوة وخطب في الناس واعداً إياهم بالخير الكثير وزيادة العطاء دون أن يصرح باسم الإمام.

والواقع أن الدعوة كانت في هذا الوقت قد أصيبت بنكسة كبيرة هي مقتل إبراهيم الإمام زعيم الدعوة الذي أوصلها بحزمه وكفاءته إلى تلك الدرجة من النجاح، وكان إبراهيم قد اعتُقل بالحميمة بإيعاز من الأمويين، ونقل إلى حران حيث سجن حتى لاقى حتفه من المحرم من سنة 132ه/آب 749م. وكان إبراهيم الإمام قد أوصى بزعامة الدعوة لأخيه أبي العباس عبد الله بن محمد من بعده.

2) التطور السياسي للخلافة العباسية(132-218هـ/750-833م)

كان أبو العباس عبد الله بن محمد (السفاح فيما بعد) قد هرب من الحميمة في بلاد الشام بعد اعتقال أخيه إبراهيم فتوجه نحو الكوفة بالعراق في المحرم أو صفر من سنة 132هـ/آب أو أيلول سنة 749م، وقد بويع بالخلافة في ربيع الأول (تشرين الأول) من السنة نفسها. وفي الخطبة الأولى التي ألقاها الخليفة أبو العباس بعد مبايعته في مسجد الكوفة أكد أن الدعوة العباسية قامت من أجل الإسلام، وأنها تهدف إلى تحقيق العدالة للمظلومين، منددا بسياسات الأمويين، مؤكداً حق العباسيين بالحكم باعتبارهم أقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم، محذراً المتطرفين المناهضين للدولة الجديدة، واعداً الأنصار والمؤيدين بالخير العميم، منهياً خطبته بقوله: "فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير". ثم تلاه عمه داود بن علي وأكد على الأسس نفسها التي أشار إليها الخليفة السفاح.

باعتلاء الخليفة أبو العباس السفاح الحكم (132هـ/ 749م-136هـ/ 754م) انتقل مركز الخلافة من بلاد الشام إلى العراق. ولعل هذا القول يظهر أن العباسيين كانوا مقتنعين بأن العراق هو الإقليم المناسب لكي يكون مركزاً لهم ولأنصارهم لأسباب سياسية واقتصادية، فالعراق منبع القبائل التي هاجرت إلى خراسان، وانضمت إلى الدعوة العباسية هناك. ثم إن العراق كان حاضرة لإمبراطوريات عديدة قبل الإسلام، وذلك يؤهله أن يكون مركزاً حضارياً لدولة جديدة. ولا بدّ أن نذكر التحول الاقتصادي للعراق خلال هذه الفترة وازدهار العراق التجاري، لوقوعه على طريق القوافل بين الشرق والغرب.

ثم إن العباسيين الأوائل لم يستقروا في الكوفة، ولم يتخذوا قراراً حول العاصمة، بل ظلوا يتأرجحون في خياراتهم من مكان إلى آخر لاعتبارات غالباً ما كانت سياسية. فقد انتقل أبو العباس من قصر ابن هبيرة إلى هاشمية الكوفة ثم إلى هاشمية الأنبار.

كان على أبي العباس السفاح أن يواجه مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الذي كان قد تخندق في موقع حصين بين دجلة والزاب الكبير جنوبي الموصل. وكان عبد الله بن علي عم الخليفة السفاح قائداً للجيش العباسي، ويبدو أن القوتين كانتا متكافئتين في العدد، أما في المعنويات والاستعداد للقتال فقد كانت المعارك العديدة التي خاضها مروان بن محمد قد أنهكت الجند الأموي. وقد استمرت معركة الزاب الحاسمة زُهاء عشرة أيام، وانتهت بخسارة مروان وانسحابه باتجاه الموصل التي لم تفتح أبوابها له فاضطر إلى المسير باتجاه بلاد الشام ثم فلسطين فمصر يتبعه عبد الصمد بن علي مع قلة من الجيش العباسي حتى لقي مصيره المحتوم في دير بقرية بوصير في الصعيد (ذي الحجة 132هـ/ تموز 750م). وبمقتل مروان ابن محمد سقطت الخلافة الأموية واستسلمت البقية الباقية من المدن التي كانت لا تزال صامدة في العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام وأنحاء أخرى مترقبة مصير الخليفة الأموي. وكانت واسط والبصرة من المدن التي صمدت في وجه العباسيين، فقد حصّن يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري والي الأمويين الأخير على العراق نفسه في واسط فحاصره الأمير العباسي عبد الله بن محمد (أبو جعفر المنصور فيما بعد) ودام الحصار أحد عشر شهراً، ولم يستسلم ابن هبيرة حتى سمع نبأ مقتل مروان بن محمد فلم يعد هناك مبرر لاستمرار المقاومة والحرب. ومع أن العباسيين منحوه الأمان قتل بعد ذلك بفترة قصيرة مع عدد من أتباعه. وفي البصرة اعتصم واليها سلم بن قتيبة الباهلي، وحارب الوالي العباسي الجديد سفيان بن معاوية المهلبي حتى جاءه الخبر بمقتل يزيد بن عمر ومروان

بن محمد، فترك البصرة إلى الحجاز. ولعل انتفاضة الموصل في مواجهة العباسيين الأوائل سنة 133هـ/ سنة 751م من أوائل ردود الفعل العنيفة ضد سياسة الدولة الجديدة. وكان في الموصل قبائل عربية معروفة بولائها للأمويين رغم معارضتهم لسياسة مروان بن محمد، كما كان في الموصل فئات من الخوارج، ولكن ما إن عين أبو العباس السفاح والياً جديداً للموصل هو محمد بن صول مولى خثعم حتى امتعض أهل الموصل من هذا الاختيار. ولم يعالج الخليفة الأمر بحكمة وروية فرغم عزله للوالي ابن صول لم يعين والياً كُفْءاً فأدى ذلك إلى استمرار الأزمة واعتقال بعض مشايخ الموصل ثم قتلهم، فتطور الموقف إلى صدام راح ضحيته آلاف في مجزرة رهيبة، ثم كان على الخليفة أبي العباس أن يواجه مشكلة انحراف أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال الداعية العباسي في الكوفة في أثناء فترة الدعوة السرية ووزير آل محمد قبل تأسيس الدولة وبعده. لقد كانت علاقة الخلال قوية بإبراهيم الإمام وما إن سمع بمقتله حتى انحرف عن الخط العباسي واتصل بثلاث شخصيات علوية أبرزها جعفر بن محمد (الصادق) عارضاً عليهم الخلافة. ولكن خطته فشلت بسبب قوة التنظيم العباسي الذي كشف الخطة وسارع إلى بيعة أبي العباس فأُسْقِط في يد الخلال الذي سارع إلى بيعة الخليفة العباسي الجديد مقدماً اعتذاره. ولعل السبب الرئيس الذي دفع الخلال إلى هذا الموقف بعد ثلاثين سنة في خدمة الدعوة العباسية هو طموحه السياسي ورغبته في الاحتفاظ بموقع قوي في الدولة الجديدة، فخطط لترشيح علوي ضعيف يختاره بنفسه لمنصب الخلافة، فيكون أبو سلمة الخلال المدبر الحقيقي للدولة، وليس للعلوي غير الاسم فقط. لقد أمهل أبو العباس وزيره الخلال ولكنه لم يهمله، فقد لقي حتفه بعد فترة وجيزة بسبب هذا الموقف.

لم يمض وقت طويل حتى أدرك العباسيون الأوائل أن الفتن والاضطرابات في بلاد فارس بدأت تنذر بالخطر، فمنذ عهد أبي العباس السفاح واجهت الخلافة حركات متطرفة في جيوب متفرقة في خراسان، ولعل أولها الحركة الراوندية بزعامة عبد الله الراوندي، ثم جابهت الخلافة حركة أخرى في خراسان هي حركة بهافريد المجوسية في نيسابور، ولم يجد العباسيون صعوبة في القضاء عليها في مهدها، وعدا هذا وذاك بدرت من أبي مسلم الخراساني والي خراسان الجديد بوادر تمردية طموحة، إذ أراد توسيع نفوذه على حساب السلطة المركزية العباسية في العراق، فضم أقاليم جديدة في بلاد فارس إلى نفوذه، كما قتل العديد من الدعاة العباسيين العرب الذين رأى فيهم منافسين محتملين له. ولكن المناسبة لم تكن مواتية بعد، في نظر أبي العباس، للتخلص من أبي مسلم.

وفي عهد الخليفة أبي العباس وقعت حادثة نهر أبي فطرس سنة 132هـ/750م بفلسطين حين دعى والي الشام عبد الله بن علي العباسي عدداً من الأمويين إلى وليمة في أحد القلاع الرومانية، ثم أمر جنده بقتلهم عن آخرهم. ويبدو أن الخليفة لم يكن على علم بالحادثة، ويصعب علينا أن نتصور أن أبا العباس المعروف بسياسته التوفيقية مع المعارضين يصدر أمراً بذلك، ويعزز هذا الرأي أن الخليفة حذر واليه على بلاد الشام وأمره ألا يقتل أموياً إلا بإذن من السلطة المركزية. ثم إن عبد الله بن علي العباسي كان معروفاً بميله إلى مثل هذه الأعمال المثيرة، مثل نبش قبور بعض خلفاء بني أمية انتقاماً وثأراً لبني هاشم وكذلك نهب دمشق لمدة ثلاثة أيام بعد دخول الجيش العباسي فيها. وإذا كان الخليفة أبو العباس بريئاً من أحداث بلاد الشام فإنه لم يكن بريئاً مما وقع لبعض الأمويين وعلى رأسهم سليمان بن هشام ابن عبد الملك وهو أحد المعارضين لمروان بن محمد، في البلاط العباسي بالعراق. فقد عُدّ سليمان بن هشام ذا نفوذ وقوة وقتل مع بعض أتباعه. ولعل أهم هذه الأحداث انتفاضات القبائل في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ضد العباسيين الأوائل، ولا بدّ أن نشير هنا إلى أن أهل الشام والجزيرة الفراتية عموماً لم يكونوا ضد الأمويين، بل إن بعضهم كان ضد مروان بن محمد الذي اعتبر مغتصباً للخلافة بالقوة من أصحابها الشرعيين، وقد دفعه هذا الموقف إلى اتباع سياسة الملاحقة بدل التسامح، وسياسة العصبية القبلية بدل سياسة التوازن، فرمى أنفه في أحضان القيسية وأبعد اليمانية. وهكذا شهد عهد أبي العباس والعهود التي تلته عدداً من الحركات في بلاد الشام اختلطت فيها العوامل السياسية بالأساطير والتنبؤات حول السفياني.

ورغم أن الخليفة أبا العباس هاجم في خطبته الأولى بالكوفة أنصار العلويين ووصفهم بالسبئية الضلال فإن هدفه كان منصباً على الغلاة المتطرفين، ولذلك فإن سياسته تجاه المعتدلين من أتباع جعفر الصادق الحسيني وعبد الله بن الحسن الحسني كانت مرنة وتوفيقية حيث تَقرَّبَ من الشخصيات العلوية المتنفذة ودعاها إلى العراق، ولذلك لم تحدث حركة علوية ضد العباسيين خلال عهده القصير، ولا ننسىَ أن القيادة العلوية كانت مشتتة، و لم يجتمع ولاء أنصار العلويين على زعيم معين.

وربما تأرجحت خيارات أبي العباس حول ولاية العهد في بداية الأمر إلا أن وصيته المكتوبة ثبتت قراره أن يكون أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد خليفة من بعده، ثم يعقبه ابن أخيه عيسى ابن موسى بن محمد.

يُعدّ أبو جعفر المنصور الذي تولى الخلافة يوم الأحد 13 ذي الحجة سنة 136هـ/ 9 تموز

سنة 745م المؤسس الحقيقي للدولة العباسية وباني عزها وقوتها، فهو "الذي أصّل الدولة وضبط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس واخترع أشياء..." وفي رأي آخر ولاة الأمويين على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة: " ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر وأنكر ولا أشد تيقظاً من المنصور". والواقع أن التاريخ يشهد بأن المنصور استطاع أن يقضي على كل الأخطار المحدقة بالدولة الجديدة، فقد قضى على الراوندية في هاشمية الكوفة عمه عبد الله بن علي في بلاد الشام، وتخلص من خطر أبي مسلم الخراساني، ثم أخمد حركتي محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله الحسني وحركات الفرس والخوارج. وكان في الوقت نفسه يولي اهتماماً لبناء الدولة وإعمار البلاد، فقد استحدث عاصمة جديدة (مدينة السلام بغداد) حيث استمر بناؤها من 145هـ/762م حتى 149هـ/766م غربي دجلة ثم أمر سنة 151هـ/769م ببناء الرصافة شرقي دجلة، وأمر ابنه محمد المهدي بالانتقال إليها وتعميرها، وشهد عهده كذلك تحولاً نوعياً في الإدارة المركزية والنظم فقد تبلورت صلاحيات الدواوين واختصاصاتها وطبّقت المركزية الإدارية كعلاج للانحلال الإداري في أواخر عهد الأمويين وشرع المنصور يؤسس جيشًا نظاميًا يرتبط بالولاء للدولة.

إن الأخطار والمشاكل التي جابهت الخلافة العباسية في العراق في عهد الخليفة المؤسس المنصور كانت عديدة وذات طبيعة متنوعة، ولكن المنصور بدهائه وحكمته وبُعد نظره وتدابيره البارعة استطاع أن يتخلص منها الواحدة بعد الأخرى.

والمعلوم أن عم الخليفة عبد الله بن علي نافس المنصور على الخلافة وأعلن حركته في بلاد الشام، فأحدث انشقاقاً خطيراً في البيت العباسي في وقت كانوا أحوج ما يكونون فيه إلى التلاحم. واستغل أهل الشام والجزيرة الفراتية هذا التمرد ليعبّروا عن تذمرهم من الدولة العباسية. وقد عاجله المنصور بإرسال عدد من الجيوش بإمرة أبي مسلم الخراساني وعدد من القادة العرب فخسر عبد الله بن علي الحرب، وهرب إلى البصرة، واختفى عند واليها سليمان بن علي العباسي الذي طلب له الأمان فمنحه الخليفة ما أراد ولكنه سجنه بعد ذلك ومات في السجن في ظروف غامضة سنة 147هـ/765م. ثم جاء دور أبي مسلم الخراساني الذي عدّ نفسه صانع الدولة الجديدة كما أصبح أقوى شخصية سياسية في خراسان بعد تخلصه من رجالات الدعوة العباسية العرب أمثال سليمان بن كثير الخزاعي وعلي بن جديع الكرماني الأزدي وغيرهم. وقد أدرك أبو جعفر المنصور مدى نفوذ أبي مسلم الخراساني حين زار خراسان في عهد أخيه أبي العباس وقال للخليفة بعد عودته:

"لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله". ويبدو أن إرسال المنصور أبا مسلم الخراساني لحرب عبد الله بن علي العباسي كان سياسة بارعة ثَـنَتْهُ عن السفر إلى خراسان، مقر ولايته ومصدر قوته، بعد أن أتم فريضة الحج. ولا شك أن أيا من الطرفين سيربح المعركة سواء أكان عبد الله بن علي أم أبا مسلم الخراساني فهو كسب للمنصور، لأنه عند ذاك سيتخلص من أحد أعدائه. وقد قرر أبو مسلم العودة إلى خراسان بعد القضاء على تمرد عبد الله ابن علي، ولكن المنصور عاجله بسلسلة جديدة من المناورات السياسية كشفت عن دهاء الخليفة ورباطة جأشه أمام غرور أبي مسلم وعدم سيطرته على نفسه فلم يجد في نهاية المطاف خياراً سوى مقابلة الخليفة في المدائن التي كان المنصور قد عسكر فيها. وفي المدائن عاصمة الفرس الساسانيين القديمة كان الخليفة قد أعد جماعة من حرسه الخاص للتخلص من أبي مسلم الخراساني. ويبدو لنا أن العامل الرئيس لقتل أبي مسلم في 25 شعبان 137هـ/ شباط 755م كان تعاظم نفوذه بحيث تعارضت صلاحياته وصلاحيات الخليفة، ويعكس هذا قول المنصور له: "لقد ارتقيت مرتقًى صعباً" ويظهر المعنى نفسه في كلام المنصور مع الأمير عيسى بن موسى العباسي، وفي خطبته في الناس بعد مقتل أبي مسلم مباشرة.

لم تكن جهود الخليفة المؤسس أبي جعفر المنصور في تثبيت سلطة الدولة مقتصرة على التصدي للحركات المناهضة، بل كانت مساعيه في صقل البناء والإعمار والحضارة مشهودة. كان المنصور عازماً على بناء عاصمة جديدة دائمة تكون مقراً للعباسيين ومركزاً لأنصارهم وجهازهم الإداري. واهتم في اختيار الموقع اهتماماً واضحاً حيث قام بارتياد عدة أماكن في العراق والجزيرة الفراتية حتى وقع اختياره أخيراً على موقع بغداد. وقد لخص أهميتها في نظره بقوله: "هذا موقع معسكر صالح". أما أهميتها الاقتصادية فتظهر من قول الخليفة أيضاً: "... وإنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي. ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد فيه المؤونة.."، واهتم المنصور كذلك بالناحية الصحية من حيث طيب الموقع وصحة هوائه صيفاً وشتاءاً. وبعد أن اطمئن المنصور إلى الموضع كتب إلى الآفاق يطلب المهندسين والحرفيين، وأعلن البدء بالتنفيذ سنة 145هـ/762م بقوله: "بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين". ثم قال: "ابنوا على بركة الله". وقد أعطانا اليعقوبي والخطيب البغدادي فكرة واضحة عن تصميم المدينة وتخطيطها من حيث تصميمها الدائري وأسوارها الثلاثة وأبوابها الأربعة وسككها ودورها وقصر الخليفة والمسجد الجامع والدواوين

وكانت المنطقة السكنية للناس تقع بين السور الأعظم (الثاني) والسور الثالث. ولأسباب أمنية أمر المنصور سنة 157هـ/سنة 774م بإخراج الأسواق من المدينة المدورة إلى الكرخ. وفي السنة التالية أمر ببناء قصر جديد خارج المدينة المدورة على ضفاف دجلة هو قصر الخلد. وحين اكتمل إعمار الجانب الغربي ولم يعد فيه مجال للتوسع وكذلك لأسباب عسكرية وأمنية أمر المنصور باستيطان الجانب الشرقي (الرصافة) منذ سنة 148هـ/ 765م مع أن العديد من الروايات تشير إلى تاريخ بنائها سنة 151هـ/768م، وليسهل الاتصال بين الجانبين أمر المنصور بعقد الجسر الكبير. ورغم كثرة الأموال التي صرفها المنصور على البناء فقد كان حاكماً عملياً مقتصداً في النفقات غير مسرف في أمور مظهرية لا أهمية لها كما كان يفعل الإغريق والرومان. وإذا ما تفحصنا سكان بغداد تبين لنا مدى التنوع السكاني والاختلاف بين ثقافات المستوطنين الأوائل، ولكن هذه الجماعات كانت ترتبط برباط واحد هو الولاء للدولة الجديدة. وقد استطاع المنصور أن يحقق التوازن بين هذه الشرائح الاجتماعية من خلال تأكيده على القيم والمبادئ العربية الإسلامية. والواقع أن العباسيين الأوائل عموماً اتبعوا سياسة السلم التي شجعت على تطور الحياة الاقتصادية وازدهارها وشجّعوا المثل الحضرية، فظهرت أهمية فئات اجتماعية جديدة شاركت العرب في المجتمع الجديد. وكان من أهم أهداف إنشاء المدينة المدورة أن تكون مركزاً إدارياً للدولة مع استيعابها للدواوين المركزية، ولعل أوضح إشارة وردتنا عن الدواوين في هذه الفترة هي إشارة اليعقوبي حيث قال: " وحول الرحبة تدور منازل أولاد المنصور الأصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الأحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات ". أما الهدف الرئيس الآخر من بناء مدينة السلام فكان إيجاد قاعدة عسكرية لإيواء المقاتلة من أهل خراسان وغالبيتهم من العرب وهم نواة الجيش النظامي المحترف للدولة الجديدة، وقد استقروا في داخل المدينة وفي أرباضها. وشكل المنصور فرقاً أخرى من اليمانية والمضرية والربعية، كما وضع حامية عسكرية تحت قيادة الأمير محمد المهدي في عسكر المهدي (الرصافة) وبذلك حقق إمكانية ضرب أحد العسكريين بالآخر في حالة تمرّده.

وقد أدرك المنصور أهمية القضاء في تحقيق العدالة والأمن للمجتمع فعظّم مرتبة القضاة، واعتبر القاضي أحد الأركان الأربعة الذين لا يصلح السلطان بدونهم، واشترط فيه أن يكون عادلاً لا تأخذه في الله لومة لائم. ويبدو من روايات تاريخية

أن المنصور كان أول خليفة، يستقضي القضاة بنفسه. كما لم يؤيد المنصور مذهباً فقهياً معيناً، و لم يجبر القضاة على الحكم مقتصرا على مذهب معين بل تركهم أحراراً فيما يتبعون من مذاهب، وإن أغْرى الإمام مالك بن أنس بتقنين تشريع موحد تسير عليه الأمة. ومما يدل على اهتمام المنصور بأحوال السوق أن أول إشارة ترد كانت عن المحتسب في عصر العباسيين الأوائل سنة 157هـ/773م أي في عهده، حيث عين أبا زكريا بن عبد الله محتسباً على أسواق بغداد وعاصم الأحول محتسباً في الكوفة، وكان المنصور ينظر في ظلامات الناس إلا أن الجديد في الأمر هو تعيينه موظفاً رسمياً يتولى مهمة المظالم هو الحسن ابن عمارة، وكانت مهمته رفع الظُّلامات إلى الخليفة بعد ترتيبها. ومما يدل على اهتمام المنصور بالأمن الداخلي إشارة اليعقوبي إلى وجود سقيفة لصاحب الشرطة في الرحبة الداخلية لمدينة السلام قرب قصر باب الذهب، كما كانت أول سكة بين باب البصرة وباب الكوفة في بغداد سكة الشرطة، وربما كانت مقرّاً لشرطة بغداد. قال الخليفة في مناسبة من المناسبات: "إنما تحتاج العامة إلى ثلاث خلال ... إذا أقيم لهم من ينظر في أحكامهم فينصف بعضهم من بعض، ويؤمن سبيلهم حتى لا يخافوا في ليلهم ولا نهارهم، ويسدّ ثغورهم وأطرافهم حتى لا يجيئهم عدوهم، وقد فعلنا ذلك بهم". وفي هذا إشارة واضحة إلى دور الشرطة في استقرار المجتمع . ومما له علاقة بأمن الدولة واستقرارها ديوان البريد الذي كان له ديوان مركزي في بغداد في عهد المنصور وكان لا يزال في تلك الحقبة مؤسسة رسمية لخدمة الدولة فقط. كما تطورت مهماته من نقل الرسائل والتعليمات إلى مهمة الاستخبارات على كل مرافق الدولة ودواوينها في الولايات، ولذلك سمّاه أحد المستشرقين (الشرطة السرية)، ويوضح الطبري مهمة صاحب البريد بقوله: " إن ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته بسعر كل مأكول، وبكل ما يقضي به القضاة من نواحيهم، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد بيت المال من المال، وكل حدث، وكانوا إذا صلوا المغرب يكتبون إليه بما كان في كل ليلة". و لم يتورع صاحب البريد من الكتابة عن تصرف ولي العهد المهدي إلى الخليفة المنصور.

كان المنصور يرغب في حفظ الخلافة في نسله، وكان الأمير محمد من أبنائه المفضّلين لديه. وتشير كل الدلائل إلى أن الخليفة كان يعدّه لولاية العهد، إذ ربّاه تربية جيدة، وعهد إليه بالعديد من المسؤوليات الإدارية والعسكرية ورفع من مترلته بين الناس ولقّبه بالمهدي، وقد أخذت البيعة للمهدي بولاية العهد سنة 151هـ/768م بعد جهد كبير بذله المنصور لإقناع عيسى بن موسى بالتنازل عن حقه الشرعي.

بويع محمد المهدي بالخلافة في 6 من ذي الحجة سنة 158هـ/ تشرين الأول سنة 775م، وتميزت خلافته التي دامت حتى سنة 169هـ/سنة 785م بالاستقرار السياسي النسبي والازدهار الاقتصادي، وكانت سياسته تتسم غالباً بالمرونة والتسامح والوفاق. فقد خفّف أو أزال العديد من الإجراءات التي اتخذت في عهد أبيه، وأغدق الأموال والهبات على الرعية، فكان عهده عهد رخاء جعله محبّباً إلى الخاص والعام بعد أن أمّن الخائف وأنصف المظلوم. حاول المهدي أن يكسب المعارضة, وكان اختياره ليعقوب بن داود وزيراً له دلالة أكيدة على رغبته في بناء الجسور مع العلويين الذين لم يثقوا بيعقوب و لم يستسيغوا سياسة الوفاق.

وقد تحرك الخوارج في أنحاء مختلفة من الدولة. كما عبّرت المعارضة الفارسية عن مشاعرها في عهد المهدي إلا أن أهم ما اشتهر به هذا الأخير هو تجرده لمقاومة حركة الزندقة فشجّع العديد من الكتّاب للرد عليهم ومناظرتهم. وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم أسماء العديد من الكتّاب الذين ألفوا في الدفاع عن الزندقة أو ضدها، ولكن أغلب كتبهم فقدت. وفي فترة تالية برز المعتزلة مدافعين عن الإسلام، ويصور لنا (كتاب الاحتجاج) للخياط المعتزلي صوراً من المناقشات التي كانت تطرح على بساط المناقشة. كما أمر المهدي بعض الفقهاء لتصنيف قائمة موثوق بها عن أسماء الفرق المنحرفة عن الدين (أصحاب الأهواء) ليعرفوا من الناس. ومما يرتبط بالزندقة حركة أخرى ظهرت بوادرها في أواخر العصر الأموي واستمرت في العصر العباسي وهي ما أطلق عليها بـ(الحركة الشعوبية). إلا أن المفكرين الموالين للنزعة العربية الإسلامية-وعلى رأسهم الجاحظ وابن قتيبة والتوحيدي والثعالبي وغيرهم كثير - ردوا على الشعوبيين وكشفوا زيفهم وتعصبهم وضيق أفقهم الفكري، فكان صراعاً لتقرير مصير الثقافة والقيم: هل ستكون عربية - إسلامية أم ساسانية ؟ وكان الانتصار للمثقفين الموالين للعروبة والإسلام.

ولعل الظاهرة الشعوبية تدل على مدى روح التسامح والمرونة التي اتسم بها المجتمع الإسلامي إذ اتسع المجال لهؤلاء الكتّاب والمثقفين الفرص لتولّي الوظائف الإدارية والترويج لآرائهم، رغم تعصبهم الذي تجاوز الحد على حد مايقول الجاحظ وابن قتيبة.

لقد كان للاستقرار العام أثره الملحوظ في تطور مؤسسات الدولة وتقدم المجتمع حضارياً، فقد توسعت بغداد وامتدت العمارة إلى أطرافها واستكملت الرصافة شرقي دجلة وازدهرت. وبرزت دواوين جديدة استجابة لحاجات الدولة والرعيّة. واهتم المهدي بالنظر في المظالم والعدالة

وبنى دوراً للمرضى والمجذومين. وبرزت المعالم الرئيسة لمؤسسة الوزارة في هذا العهد بعد أن لم يكن للوزراء نفوذ في عهد المنصور. كما اهتم المهدي بالجهاد في سبيل الله واتسعت حملات الصوافي والشواتي في عهده. وفي ولاية العهد اتّبع المهدي سياسة والده في الرفع من شأن أولاده، فقد أجبر ولي العهد عيسى بن موسى، سنة 159هـ/776م على التنازل لابنه موسى ثم عيّن ابنه هارون لولاية العهد الثانية بتأثير زوجته الخيزران التي جعلته في أواخر أيامه أن يجعل ولاية العهد الأولى لهارون بدل موسى، ولكنه فشل في محاولته هذه أمام رفض موسى ومؤيديه، وتوفي المهدي في طريقه إلى جرجان لإقناع موسى بذلك.

تولى موسى الهادي الخلافة في 22 محرم سنة 169هـ/آب 785م وكان بعيداً عن العراق، ولكن هارون تصرّف بحكمة حين أخذ البيعة لأخيه موسى في بغداد، وأرسل شارات الخلافة إليه. وقد دعت الخيزران إلى اجتماع حضره الربيع بن يونس (نائب الخليفة المهدي في بغداد) وبعض البرامكة، وتقرر دفع عطاء سنتين للجند لضمان ولائهم. وأكدت البيعة بالخلافة للهادي وولاية العهد لهارون. و لم يلبث الهادي أن وصل بغداد في 20 صفر من السنة نفسها، وسيطر على الأمور بقوة، واضعاً مؤيديه في مراكز الدولة الحساسة مبعداً كل الذين شجعوا أباه في مسألة إبعاده عن ولاية العهد. ولعل سياسته خلال مدّة حكمه القصيرة والتي لم تدم أكثر من سنة واحدة تتصف بمطاردة الزنادقة واستمرار الاضطرابات في طبرستان وأرمينيا وجورجيا في المشرق.

لقد قدّم لنا الرواة تفاسير عديدة ولكنها مبتورة أو غامضة عن موت الهادي المفاجئ في ربيع الأول سنة 170هـ/ أيلول 786م ويبدو أن مؤامرة دبرت له في البلاط اشتركت فيها الخيزران والبرامكة لغرض التخلص منه بسرعة بعد أن عزم على استبدال أخيه هارون من ولاية العهد والتخلص من مؤيديه. لقد حاول الهادي أن يباشر الحكم بنفسه، ولكن مراكز القوى حالت دون ذلك، ووقع الهادي ضحية محاولته هذه.

جاء الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/786-809م) بعد أخيه الهادي حيث بويع بالخلافة في ربيع الأول / أيلول من السنة التي مات فيها الهادي. ويعتبر الرشيد وعهده من أكثر المظاهر شهرة في تاريخ العصر العباسي الأول، لا في الأساطير الشعبية بل في روايات التاريخ كذلك. إن هذه الحقيقة أخفت شخصية الرشيد الحقيقية وضيّعت مظاهر سياساته. وتشير روايات تاريخية إلى أن الرشيد بدأ حكمه بإعطاء مربيه يحيى بن خالد البرمكي سلطات واسعة، إلا أن يحيى البرمكي كان يستشير الخيزران ويشركها معه في اتخاذ القرارات ولا يخرج عن رأيها حتى اعتبرت "الناظرة

في الأمور". كما أشرك يحيى البرمكي معه ابنيه الفضل وجعفرًا. فكانت الدواوين بيد يحيى يساعده ابنه الفضل. أما جعفر المقرّب إلى الخليفة فكان بيده الخاتم ومراقبة دور الضرب، ويشارك الرشيد في النظر بالمظالم. ومع ذلك لابدّ من عدم المبالغة في دور البرامكة، فهناك شخصيات عربية وأمراء من البيت الحاكم وشخصيات من الموالي تشترك في الحكم، ولها وزنها الذي لا يقل عن وزن البرامكة في السياسة العباسية. ثم إن سلطات البرامكة لم تستمر في الواقع أكثر من أربع سنين ذلك أن وفاة الخيزران سنة 173هـ/790م كان بداية النهاية لنفوذهم حيث سقطوا سنة 187هـ/سنة803م. وقد أورد المؤرخون الرواد كعادتهم روايات عديدة حول أسباب سقوطهم اختلطت فيها الحقائق بالشائعات والأساطير، حتى أن من المتعذر التفريق بينها. ولا بد لنا أن ننفي بدءاً أسطورة العباسة أخت الرشيد وعلاقتها بجعفر البرمكي، وكذلك الروايات التي تشير إلى زندقتهم أو ميولهم إلى العلويين. ولعل من الصواب ألا نعزو سقوطهم إلى عامل واحد بل عدة عوامل تجتمع كلها في استبدادهم بتصريف الأمور دون الخليفة وتجاوزهم لسلطاتهم الإدارية والمالية، ولا سيما أن هناك كتلة في البلاط والإدارة تتعقب خطواتهم وتحصي زلاتهم وتغري الخليفة بهم. ثم إن سقوطهم بهذه السهولة دليل على مدى قوة الخلافة العباسية وشاهد على ضعف الآراء التي تحاول أن تبرز دور البرامكة وتعطيه أكثر مما يستحق.

شهد عهد الرشيد إنجازات مهمة في ميادين البناء والحضارة، والنظم وبذل الخليفة جهداً كبيراً لتوطيد الأمن والاستقرار، كما بعث روحاً جديدة في عمليات الجهاد ضد الروم. واهتم بإقليم الثغور وإعادة تنظيمها إدارياً وعسكرياً، كما اهتم بالأسطول وشحن موانئ البحر المتوسط بالمقاتلة. لقد بدا هذا العصر عصراً ذهبياً لما تمتع به من مظاهر الحضارة والعلوم، ومع ذلك فإن بوادر التحلل السياسي لتفكك الدولة بدأت في هذا العهد حيث، فقد بعض العمال والولاة استخدام صلاحياتهم وظهرت الميول الانفصالية في المغرب والمشرق، ولم يخل عهد الرشيد من الفتن والاضطرابات.

أشار بعض المؤرخين إلى أنّ الرشيد كان يحاول اتباع خطى جده المنصور في سياساته التي اتسمت عموماً بالحزم. وإذا كانت سياسته قد تأثرت في البداية بمراكز القوى والتكتلات فقد استطاع الرشيد أن يخرج من ذلك بتجربة مفيدة جعله من أميز خلفاء عصره. فقد جعل الرشيد جماعة من شيوخ بلاد الشام ضمن خاصته المقربين إليه. كما انتدب الرشيد سنة 176هـ/792م جعفرًا البرمكي لمعالجة الاضطرابات في مصر، ثم عين هرثمة بن أعين على مصر، وقد اقترح على

الخليفة أن يطبق نظام الالتزام على خراج مصر، وبذلك يقضي على أهم أسباب الاضطرابات فيها. ونجح الرشيد في القضاء على تمرد الهيصم الهمداني في اليمن سنة 179هـ/795م. ولعل أهم أسباب القلاقل في أرمينيا طبيعة أهلها وموقع بلادهم بين دولتين متعاديتين العباسية والبيزنطية، فكانت كل منهما تستغلهم لمصلحتها. وقد عمل الرشيد على زيادة القبائل العربية المستقرة في أرمينية لتعزيز سلطة الدولة فيها .

أما في خراسان الإقليم المهم بعد العراق – والذي يزخر بالموارد البشرية والاقتصادية الكبيرة – فقد بدأت الأوضاع في التدهور لسوء اختيار الرشيد لولاتها، إذ تفاقمت الأوضاع في ولاية علي ابن عيسى بن ماهان فكان تمرّد رافع بن الليث بن نصر بن سيّار في خراسان وما وراء النهر الذي استفحل فدعا ذلك الرشيد إلى الذهاب بنفسه لقمعه سنة 193هـ/808م رغم تدهور حالته الصحية، وقد صحبه في هذه الحملة ابنه المأمون والفضل بن سهل والفضل بن الربيع في حين بقي الأمين في بغداد. ولكن الخليفة توفي في طوس قبل أن يصل إلى خراسان وترك وراءه مشكلة تخبّط في وضع الحلول لها، ألا وهي مشكلة ولاية العهد. فلم يتعظ الرشيد بعبر التاريخ القريب ولا بتجاربه المريرة مع أخيه الهادي حين أراد عزله عن ولاية العهد ووقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه أبوه، وأعطى ولاية العهد الأولى لابنه محمد الأمين والثانية لابنه عبد الله المأمون والثالثة لابنه القاسم المؤتمن، وكتب ميثاقاً محكماً بين ولاة العهد وعلقه على أستار الكعبة. كما قسّم ولايات الدولة بين الإخوة الثلاثة فكانت ولايات المغرب للأمين والمشرق للمأمون والجزيرة الفراتية والثغور والعواصم للمؤتمن فكان أول خليفة يبايع أولاده الثلاثة. وقد أدرك الرأي العام العواقب الوخيمة لهذه السياسة، وقال بعضهم " بل ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك خوفًا على الرعية ".

تولى محمد الأمين الخلافة في جمادى الآخرة / نيسان من سنة 193هـ/ سنة 809م وكان عهده الذي استمر حتى سنة 198هـ/813م حرباً أهلية بينه وبين أخيه المأمون. إن الحل الذي استقر عليه الرشيد حول ولاية العهد كان حساساً يعتمد في تطبيقه على توفر حسن النيّة وعدم تأثر الأخوين برجال البلاط وأصحاب المصالح الشخصية، وبعد موت الرشيد أصبحت الخلافة بيد الأمين ولكن دون قوة عسكرية تسندها، تلك القوة التي بدأت تتجمع في يد المأمون بخراسان. أمر الأمين بمنح الجند في بغداد عطاء سنتين، واتصل بالفضل بن الربيع وأمره بسحب الجيش الذي كان مع الرشيد والعودة به إلى بغداد كذلك، ونفذ الفضل ابن الربيع الأمر. وكان من الطبيعي أن يحدث الاحتكاك بين

الأخوين، فالأمين الخليفة لابد أن يمد سلطته على كل أقاليم الدولة، والمأمون لابد أن يتشبث بنفوذه مستنداً على ميثاق الكعبة. ومنذ البداية استشعر المأمون الخطر بسبب قرار الخليفة عودة الجيش، و لم تمض سنة واحدة حتى أمر الخليفة بالدعاء لابنه موسى بولاية العهد بعد المأمون والمؤتمن. ثم تبودلت الوفود والرسائل بين الأخوين دون جدوى. وما إن حلّت سنة 195هـ/ 812م حتى أعلن الخليفة البيعة لابنه بولاية العهد ولقّبه (الناطق بالحق) ومزّق ميثاق الكعبة.

لقد مرّت فترة كاد المأمون أن يتنازل فيها عن حقه الشرعي، ولكن الفضل بن سهل الذي كان يسانده ويقوّي من عزيمته شجعه على الصمود والصبر فعقد صلحاً مع رافع بن الليث ومع ملوك الترك، وحاول كسب أهل خراسان بتخفيض الضرائب والجلوس للمظالم. وكانت الحرب لابد أن تنشب بين الطرفين ولكن جيوش الأمين انهزمت الواحدةَ تلْوَ الأخرى. وتقدم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين من الأحواز نحو العراق، ودخلوا حدوده سنة 197هـ/812م، فأعلنت العديد من المدن ومنها مكة اعترافها بالمأمون وخلعها للأمين. وبعد حصار ضُرِبَ حول بغداد دام أربعة عشر شهراً قاوم فيه أنصار الأمين مقاومة باسلة أُسِرَ الأمين وقُتِلَ بإيعاز من جند طاهر بن الحسين، في المحرم سنة 198هـ/أيلول 812م. لم يُحسن الأمين اختيار قادته، كما أخطأ في اعتماده على أهل الشام والجزيرة الفراتية، ولا بدّ أن نحذر الدعاية المضادة التي يبثها أنصار المأمون والتي تقلل من قابليات الأمين وأنصاره، وتصفه بالمخلوع وتطلق على أنصاره، الرعاع والغوغاء والعيّارين، فقد أبلى أهل بغداد والأنبار بلاء حسناً في المعارك، وقاتلوا من سكة إلى أخرى ومن درب إلى درب، ولكن التاريخ يكتبه المنتصر في نهاية المطاف، ولابدّ أن نقرأ ما بين السطور لنجد شهادة قواد جيش المأمون على مدى تفاني وشجاعة الأمين وأنصاره.

تمّت البيعة الرسمية للمأمون في خراسان في المحرم سنة 198هـ/ أيلول سنة 812م، وأرسلت إليه شارات الخلافة من بغداد، واستمر خليفة حتى سنة 218هـ/833م، وكان عليه أن يواجه مشا دل الفتنة والحرب الأهلية التي دامت قرابة خمس سنوات. قرر المأمون، استناداً إلى مشورة الفضل بن سهل - الذي سيطر على الأمور، وغدا يلقب ذي الرئاستين- أن يستقر في مرو مركز خراسان. ولكنه واجه تحدياً قوياً من أهل بغداد خصوصًا والعراق عمومًا. ومع ذلك فقد بقي المأمون في مرو ست سنوات أخرى بعد مقتل أخيه الأمين من 198-204هـ/813-819م، وكان الفضل يحسّن له البقاء هناك ويخفي عنه تردّي الأوضاع في العراق، ولعل الفضل بن سهل كان يريد نقل مركز الدولة بصورة دائمة إلى

خراسان. كما نجح ابن سهل في تعيين أخيه الحسن والياً على العراق، وأبعد طاهر بن الحسين وهرثمة ابن أعين، وهذا يدل على مدى تأثيره على الخليفة في تلك الفترة. لقد عارض العديد من الشخصيات سياسة المأمون الخراسانية، كما عارضت الأسرة العباسية وأهل بغداد ذلك. بل إن أهل بغداد تجاوزوا الأقوال إلى الأفعال فبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة سنة 202هـ/817م ولقبوه (المبارك) وأصروا على لبس السواد شعار العباسيين التقليدي، رافضين الخضرة شعار المأمون الجديد. وكان قرار المأمون في رمضان 201هـ/آذار سنة 817م البيعة لعلي الرضا بولاية العهد قد زاد الأمور تعقيداً في بغداد ومناطق أخرى من الدولة، فقد أعلن نصر بن شبث العقيلي تمرده على المأمون في كيسوم شمالي حلب، وامتنع عن بيعة المأمون، واعتبر بقاء المأمون في خراسان تفضيلاً للعجم على العرب وقد طالت حركته وامتد نفوذه إلى الجزيرة الفراتية ثم قبل بالأمان سنة 209هـ/825م واستقر في بغداد. وكان المأمون قد شدد على بلاد الشام بسبب مساندتها للأمين، وتضاءلت ثقته بقبائلها، واستفحلت مظاهر الانفصال في عهد المأمون حيث تكونت في اليمن الإمارة الزيادية سنة 204هـ/ 819م ثم الإمارة الطاهرية بخراسان سنة 207هـ/ 822م. واستمرت الاضطرابات والفتن من القبط والجماعات القبلية في مصر، وزاد من تعقد الوضع وصول ثوار الربض من الأندلس إثر فشل حركتهم هناك ونزولهم في الإسكندرية سنة 200هـ/815م إلا أن عبد الله بن طاهر بن الحسين نجح في إعادة الاستقرار إلى مصر. ولكن ظهور القلاقل ثانية أجبر المأمون على التوجه إلى مصر سنة 217هـ/832م للتحري عن أسباب الفتن بنفسه حيث تجول في مناطق عديدة من أرض مصر مصلحاً أحوالها، كما أمر بإقامة مقياس على النيل في الدلتا.

وشهد عهد المأمون بعض الحركات الخارجية في الجزيرة الفراتية حيث تداخلت حركات الخوارج بالحركات القبلية.

لقد فاجأ المأمون الرأي العام الإسلامي في رمضان 201هـ/817م حين عيّن علي الرضا ابن موسى الكاظم ولياً للعهد، بعد أن استدعاه من الحجاز إلى خراسان، وقد اتخذ المأمون كذلك الشعار الأخضر وكتب إلى الأقاليم أنه "نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه" ولم يكن علي الرضا راغباً فيها، وقد قبلها بعد تردد، وربما بعد وعيد، ومهما قيل في دور الفضل بن سهل في هذا المشروع فإنه لم يكن ليتم لولا اقتناع المأمون به. ويبدو أن المأمون قد ملّ حالة القلق السياسي فحاول محاولة توفيقية لإيجاد كتلة تاريخية تلتف حول الخلافة وتضم تيارات

عديدة فعلّها تحقق الاستقرار والتطور. وإذا كانت الخضرة من وجهة نظر الفضل بن سهل هي شعار الفرس الساسانيين فهي من وجهة نظر المأمون شعار أهل الجنة الدال على التسامح والتوفيق والتعاطف، وهو يتمشى تماماً مع هدف الخليفة. وربما كان من الصعب تصور المأمون، وقد كافح سنوات عديدة في سبيل الوصول إلى الخلافة، أن يعطيها لقمة سائغة إلى العلويين، وينقلها بهذه السهولة من أسرته العباسية. ولعل المأمون نفسه أدرك ذلك بسرعة ورجع عن خطته هذه. ثم إن المأمون من جهة أخرى اختار من العلويين الشخصية المناسبة فقد كان علي الرضا كبير السن عازفاً عن السياسة مشغولاً مثل أسلافه الحسينيين بأمور الفقه والشريعة. ثم إن نص كتاب المأمون لم يشر إلى نقل الخلافة إلى العلويين أو أفضليتهم على العباسيين، بل أشار إلى فضل علي الرضا وورعه وأنه " أرجى للقيام بأمر الله وحقّه". و ربما أراد أن يضع أسسا جديدة لولاية العهد تعتبر أفضل بني هاشم الأحق بالخلافة حيث تلتف حوله كل الفرق والعناصر في كتلة تاريخية واحدة. وهي من جهة أخرى مناورة بارعة - عبّر عنها الخليفة نفسه لطبيبه- لكشف عزوف الرضا عن السياسة وعجزه عن خوض غمارها. وكان رد الفعل في الأقاليم قوياً خصوصًا عند أهل بغداد الذين لم يبايعوا واختاروا خليفة عباسياً جديداً و لم تحسم القضية إلا بوفاة الرضا في طوس حين كان في معيّة المأمون وهو يتجه نحو بغداد. لقد حاول بعض المؤرخين المحدثين ربط سياسة المأمون تجاه العلويين لاسيّما بيعته للرضا بمذهبه الاعتزالي وربما كان بعض رؤوس المعتزلة قد أثروا على المأمون في اختياره للرضا، على أن عبد الحي شعبان يرى أن هذه المحاولة من الخليفة كانت محاولة يائسة لم يقتنع بها أو ينخدع بها أحد سواء الخليفة أو العلويين أو المعتزلة أو أهل بغداد، وكانت هذه الفئة الأخيرة بعلمائها وعامتها معارضة لسياسة المأمون الاعتزالية- العلوية .

أصبح مذهب الاعتزال في عهد المأمون المذهب الرسمي للدولة العباسية واستمر في عهدي المعتصم والواثق. وكان العباسيون الأوائل قبل المأمون فوق المذاهب، ولا يفضلون بصورة رسمية مذهباً فقهياً على آخر، رغم ميلهم إلى أهل الحديث وتكوينهم علاقات وطيدة مع بعض الفقهاء البارزين. كان المأمون يميل إلى أهل الكلام والفلسفة ويناقشهم في المسائل الدينية، وقد أبدى إعجاباً ملحوظاً بالأدلة العقلية والنقلية للمعتزلة الذين دافعوا عن الإسلام بأساليب المنطق الجدليّ. وقد تبنى المأمون مذهبهم رسمياً في أواخر عهده في ربيع الأول سنة 218هـ/نيسان سنة 833م، وحين تسلموا الحكم تعسفوا واضطهدوا مخالفيهم فكان ما يسمى بالمحنة التي استمرت حتى مجيء

المتوكل إلى الخلافة، وكان القول بخلق القرآن أساس المحنة، ذلك أن المعتزلة تقول إن القرآن مخلوق- بمعنى ليس أزلياً- انطلاقاً من مبدأ نفي صفات المعاني عن الله تعالى. فالقرآن مخلوق لأنه مجموعة حروف وأصوات يخلقها الله تعالى، ولا يمكن اعتباره قديماً، لأنه حينذاك سيشارك الله في صفة من صفاته وهي الأزلية والقدم. ولكن أهل الحديث والعديد من الفقهاء عارضوا المعتزلة وتصلبوا في مواقفهم. وفي حين أن المعتزلة كانت تنادي بحرية الإرادة والرأي فإنها حين وصلت إلى الحكم استخدمت أسلوب الاضطهاد والتعسف تجاه مخالفيها. كان عهد المأمون حافلاً بعلماء المعتزلة، أمثال إبراهيم بن سيار النظام ومحمد بن الهذيل العلاّف وبشر بن المعتمر. وكان ثمامة ابن الأشرس وأحمد بن أبي دؤاد من ذوي النفوذ والتأثير، ولاسيّما الأخير الذي أصبح قاضي القضاة والعقل المدبّر للمحنة والمسؤول عن الاتجاه الذي ميّز فترة الخلفاء المعتزلة حيث حسّن للخليفة إصدار منشور يحمل الناس على القول بخلق القرآن، ووصل الأمر إلى حد التنكيل بالفقهاء مثل أحمد بن حنبل وغيره ودعا هذا بعضهم إلى القول بخلق القرآن تقيةً وخوفاً .

توفي المأمون في طرسوس وهو في طريقه لجهاد الروم ودفن فيها في رجب سنة 218هـ/آب سنة 833م، ولم يعالج المأمون مسألة ولاية العهد بعد موت الرضا، ولكنه في مرضه الأخير قرر أن يكون أخوه المعتصم خليفةً من بعده. ومع أن بعض قادة الجيش كانوا ميالين إلى العباس بن المأمون فإن المعتصم سيطر على الموقف بسرعة خصوصًا أن العباس نفسه أسرع في البيعة لعمّه. وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم وصية أودع فيها خلاصة تجاربه، وأمره ألاّ يغفل أمر الرعية والعوام والمسلمين عموماً.

الخاتمة:

من كل ذلك ندرك لماذا عدّ كثير من المؤرخين – قُدَامَى ومحدثين، الثورة العباسية منعطفاً مهمّاً في تاريخ الدولة الإسلامية بسبب التغيرات الجذرية التي أعقبتها في مجالات السياسة والإدارة والمجتمع والحضارة، صحيح أن عدداً من تلك التغيرات كانت قد ظهرت بوادرها في أواخر العصر الأموي ولكن الانتصار العباسي أعطى زخماً وقوة دفع جديدة لها، فأسرع في وتيرتها.

لقد كان العصر العباسي الأول عصر القوة السياسية، إذ تعاقب على مؤسسة الخلافة خلفاء أكفياء كانوا – بصورة عامة- بمستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذا العصر كان عصر الازدهار الحضاري الذي أطلق عليه (العصر الذهبي)، فقد عبر هذا العصر- من منظور حضاري اجتماعي- عن تطلعات المجتمع العربي الإسلامي واستجاب

لحاجاته الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، تلك الحاجات التي ظهرت علاماتها في أواخر العصر الأموي، فأعطاها العصر العباسي الجديد مجالاً أوسع للتعبير عن نفسها، خصوصًا أن العباسيين بصورة عامة انتهجوا سياسة سلمية شجعت على ازدهار الحياة الاقتصادية وساعدت على تمازج قطاعات اجتماعية جديدة في الحياة العامة وتناميها ومشاركتها.

3) حركات المعارضة الداخلية:

لم تختلف حركات المعارضة الرئيسة للخلافة العباسية عن تلك الحركات التي عارضت الخلافة الأموية فقد كانت الحركة الموالية للعلويين والحركة الموالية للخوارج أبرز حركتين خلال عصر العباسيين الأوائل. يضاف إليها تبلور حركة المعارضة الفارسية وخاصة غير الإسلامية وازدياد خطورتها في هذه الفترة. ثم بروز ظاهرة جديدة وهي محاولات أنصار الأمويين تنظيم حركة مناهضة للعباسيين، والثورة عليهم بين حين وآخر، خصوصًا في بلاد الشام.

ومع أن الدولة العباسية قابلت السلاح بالسلاح والقوة بالقوة، فإن كلاّ من الدولة وحركات المعارضة المختلفة استغلت كافة الوسائل المتاحة للتعبير عن موقفها ووجهة نظرها حول المسائل السياسية ولاسيّما مسألة الخلافة. وظهرت وجهات النظر هذه في كتابات الأدباء والمفكرين والفقهاء وفي خطب الخطباء وقصائد الشعراء الذين عبروا عن آراء الفئة أو الحركة التي ينتمون إليها.

وسنتكلم عن حركات المعارضة الدينية — السياسية على قدر خطورتها، ثم نتابع الكلام عن الحركات ذات الطابع الفكري الاجتماعي التي كان لها أبعاداً سياسية ودينية أيضاً مثل الزندقة والشعوبية.

- الحركات الموالية للعلويين.
- الحركات الموالية للفرس.
- الحركات الموالية للخوارج.
- الحركات الموالية للأمويين.
- الشعوبية.
- الزندقة.

أولاً: الحركات العلوية في مطالع العصر العباسي:

لا بد من الإشاره بدءاً أن ظهور التدهور السياسي في جسم الدولة الأموية حفز عدداً من رجالات بني هاشم على إظهار طموحات سياسية، وبدأ كل منهم ينظم حركة مستقلة ضد الأمويين، وكانت الفكرة الشائعة في تلك الفترة هي أن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالضرورة أن يكون فرداً معيناً من آل البيت أو فرعاً هاشمياً بعينه، بل كان من حق كل هاشمي أن

يعمل من أجل الوصول إلى الخلافة باسم أهل البيت، ولذلك ارتبطت حركة المعارضة الهاشمية خلال العصر الأموي بشخصيات هاشمية متعددة. حين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته، كان حذراً وأسند ادعاءه الخلافة إلى وصية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية كما دعا إلى "الرضا من آل البيت"، ولكن ما إن ثبت العباسيون مركزهم حتى وجدوا من الأنسب إسناد حقهم على أسس جديدة كان أولها حق القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب، وبدأوا ينظرون إلى العلويين باعتبارهم مصدر خطر على سلطتهم، وفي المقابل نظر العلويون إلى العباسيين على أنهم مبتزون للسلطة ومغتصبوها من أصحابها الشرعيين. وهكذا انشق بنو هاشم إلى عباسيين وعلويين.

ولم يكن العلويون أنفسهم متحدين أو متفقين على زعامة واحدة، وكان تشتت القيادة العلوية يعني من جملة ما يعنيه أن ولاء شيعة العلويين في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد نحو فرع علوي معين. وقد برزت في هذه الفترة شخصيتان علويتان رئيستان أولاهما جعفر بن محمد الصادق من آل الحسين وعبد الله بن الحسن المحض من آل الحسن. وكان الصادق مشغولاً بالعلم لا بالسياسة، ومسالماً لا يؤمن بشهر السلاح ضد السلطة، وقد أعطى هذا الموقف الفرصة لعبد الله ابن الحسن المحض للتحرك سياسياً، خصوصًا وأنه كان يتمتع بنفوذ كبير في المدينة المنورة، وبصفات شخصية تدل على اللباقة والكياسة وسحر اللسان. ولكن طموح عبد الله المحض لم يكن شخصياً، بل كان يطلب الخلافة لابنه محمد النفس الزكية. كما بدأ ينشر فكرة أن محمداً هو "المهدي المنتظر"على أمل أن تجذب إليه أعداداً كبيرة من الأتباع، وانتهز عبد الله المحض فرصة اجتماع الأبواء (127هـ/744م)، حيث عقدت شخصيات هاشمية مهمة اجتماعاً في الأبواء قرب مكة، فرشح ابنه محمد النفس الزكية للخلافة بعد زوالْ الأمويين ولكن الاجتماع انفض دون قرار معين، فقد عارض هذا الترشيح جعفر الصادق والعباسيون. فمن غير المعقول أن يبايع العباسيون محمداً النفس الزكية وهم يدركون أن دعوقم في خراسان تعمل بنجاح منذ سنة 98هـ/716م ولو أن العباسيين بايعوا محمداً النفس الزكية لما سكت محمد عن الإشارة إلى ذلك في رسالته المشهورة إلى المنصور145هـ/ 762م.

حاول أبو العباس عبد الله بن محمد بعد بيعته بالخلافة خلق جو من الوفاق بين فرعي بني هاشم العباسي والعلوي، ومع إدراكه وجود نشاطات علوية في الحجاز والعراق وخراسان عمل على ترضية العلويين ليعطي الدولة الجديدة فرصة لتثبيت نفسها. كما أن العلويين وأنصارهم كانوا

بحاجة إلى مزيد من الوقت ليجمعوا قواهم وينظموا أنفسهم بعدما طرأ من ظروف جديدة على المسرح السياسي بمجيء العباسيين. ولكن أبا العباس أعلنها بوضوح لا يقبل الشك أن الخلافة ستبقى بيد العباسيين، منكراً أن يكون غيرهم من بني هاشم أحق بها، وأكد داود بن علي عم الخليفة المفاهيم نفسها في خطبتيه في الكوفة ومكة. وكانت هذه الخطب من أولى المناسبات التي أكد فيها العباسيون أن حقهم بالخلافة يستند إلى "حق القرابة" من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى "حق الحرمة" باعتبارهم مسؤولين عن سقاية الحجيج في البيت الحرام. ومع ذلك انتهز عبد الله بن الحسن المحض كل فرصة خاصة في أثناء زيارته للعراق تلبية لدعوة أبي العباس ليظهر طموحه، وامتعاضه من الوضع الجديد، ومنع ابنيه محمداً وإبراهيم من البيعة حيث مكثا مختفيين عن الأنظار.

إن حالة الوفاق التي يشوبها جو الحرج لم تدم طويلاً، فلم تكن هذه السياسة توافق الخليفة العباسي الثاني أبا جعفر المنصور الذي أوضح منذ بداية تسلمه الخلافة أنه سيضرب بيد من حديد على كل حركة مناهضة للدولة الجديدة. لقد أدرك المنصور أن الحركة العلوية أصبحت رمزاً للمعارضة، ذلك لأن العناصر المستاءة، أو التي أخفق العباسيون في كسبها، نقلت ولاءها أو رفعت شعارات علوية سواء أكان ذلك بإخلاص أم بمجرد التظاهر بذلك، خصوصًا أن محمداً النفس الزكية ما زال مختفياً رافضاً البيعة للعباسيين، وأن الكثير من العناصر التي أيدته لم تؤيده باعتباره علوياً أحق من العباسيين بالخلافة، ولكن باعتباره "مهدياً منتظراً" سيحقق الآمال التي فشل العباسيون في تحقيقها. وعلى ذلك فإن أحد الدوافع البارزة للموجة الجديدة الموالية للعلويين في مطلع العصر العباسي هو فكرة المهدية وما يعلقه الضعفاء من الناس من الآمال عليها أكثر من الاعتقاد بأحقية العلويين بالخلافة.

ويبدو أن تحدي محمد النفس الزكية كان شغل الخليفة المنصور الشاغل، "فلم تكن له همة إلا طلب محمد والمسألة عنه وما يريد"، فقد زار الحجاز مرتين 136 هـ / 753 م و140 هـ/757م و144هـ/757م للحج والوقوف على الحال السياسية في المدينة المنورة. وقد أدرك المنصور أن إجراءات قوية يجب تطبيقها من "أجل أن يستخرج الثعلب [أي محمد] من جُحْره"، فأرسل عيوناً على هيئة تجار أو أعراب ليفتشوا عن محمد النفس الزكية في أحياء المدبنة المنورة وبين قبائلها. وكان المنصور دائم الاستبدال لولاة المدينة، الذين فشلوا في البحث عن محمد حتى استعمل رباح بن عثمان المرّي، فكان تعيينه بداية النهاية لتحديات النفس الزكية لأن إجراءاته أجبرت محمداً على الظهور، وكان رباح المري والي المدينة الجديد

قيسياً من بلاد الشام ينفذ أوامر الخليفة دون خشية للعواقب أو حرمة للناس، وحين وصل المدينة حذر عبد الله المحض بقوله: " أيها الشيخ إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة ولا يد سلفت إليه، والله لا لعبت بي كما لعبت بزياد وابن القسري، والله لأزهقن نفسك أو لتأتيني بابنيك محمد وإبراهيم". كما توعد أهل المدينة أن يسير بهم سيرة مسلم بن عقبة المري الشديد الوطأة عليهم، ثم سجن عدداً من العلويين والطالبيين المشكوك فيهم، وقد جلبهم المنصور معه إلى الهاشمية بعد عودته من الحج 144هـ/ 761م. وقد رويت عن مصيرهم العديد من الروايات المختلقة والحقيقية، على أن المؤكد أن بعضهم مات في السجن في ظروف غامضة ومن بينهم عبد الله بن الحسن المحض ومحمد بن عبد الله العثماني، وأطلق البعض الآخر بعد فشل حركة محمد النفس الزكية.

ومن أجل أن يبرر سياسته تجاه الحركة العلوية ويرضي" أهل خراسان" عصب الدولة العباسية، وأنصارها المخلصين، خطب المنصور خطبة طويلة فيهم أكد فيها وجهة النظر العباسية القائلة بأن أهل البيت جميعاً لهم الحق نفسه في الخلافة، وأن النجاح والقوة هما اللذان يقرران أي فرع من بني هاشم له الحق في الحكم، وقد ناضل العباسيون من أجل الخلافة فأسقطوا الأمويين بالقوة، فإن من حقهم أن يتسلموا الخلافة دون العلويين الذين حاولوا مرات عديدة وفشلوا. ولكن العلويين ردوا على دعاوى العباسيين فقالوا إن حقهم لا يستند فقط على كونهم هاشميين من آل البيت بل أنهم ينتسبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق مباشر وهو ابنته فاطمة ويظهر هذا الادعاء أول ما يظهر في الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية.

استمر محمد النفس الزكية في دعوته حتى الأول من رجب سنة 145هـ/ أيلول 762م حين أعلن ثورته التي تعد هي وحركة إبراهيم بن عبد الله الحسن في البصرة ذروة الكفاح العلوي في مطلع العصر العباسي. ويرى البعض من المؤرخين أن إعلان محمد النفس الزكية لحركته كان مفاجئاً وسابقاً لأوانه، إذ لم يتم الإعداد الكامل للثورة. وبينما يشير بعضهم إلى أن السبب المباشر لإعلان الحركة هو اعتقال أخيه موسى بن عبد الله وتسفيره إلى العراق فدعا ذلك محمد إلى الظهور وإنقاذ موسى من الاعتقال، يرى البعض الآخر أن مقتل أبيه عبد الله المحض هو الذي عجل في الظهور. ومع ذلك فهناك روايات تؤكد أن محمداً النفس الزكية اعتقد أن الوقت مناسب لأن أغلب الأقاليم- كما ظن هو-قد أيدته ، وقد أشار إلى ذلك في خطبته "والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة"، ولكن الواقع كان غير هذا، فالخليفة المنصور في محاولته إظهار محمد أمر

ولاة الأقاليم الإسلامية بمراسلته سراً والتظاهر بتأييده، بل إن الخليفة نفسه زوَّرَ رسائل على لسان القادة والولاة يعبرون عن ولائهم لمحمد. ثم إجراءات الوالي رباح المري وتحرياته الشديدة سبب القلق والإزعاج لأهل المدينة الذين طلبوا من محمد إما الظهور أو الاستسلام أو الرحيل عن بلدهم.

ولم يجد محمد النفس الزكية صعوبة في السيطرة على المدينة المنورة واعتقال واليها. وقد خطب في أهل المدينة واصفاً المنصور" بالطاغية عدو الله". ولم يدع الأمر لنفسه بدايةً بل أشار إلى أن المهاجرين والأنصار أحق بالأمر من أبي جعفر. إلا أنه لم يلبث أن أخذ البيعة لنفسه بالخلافة ثم بدأ يبحث عن التأييد في الأقاليم، فأرسل قوة إلى مكة وأوفد مبعوثين إلى اليمن وبلاد الشام ومصر.

ومن أجل أن يضع المسؤولية على عاتق محمد النفس الزكية، ومن أجل أن يكسب كذلك مزيداً من الوقت لجمع قوات عباسية دخل الخليفة أبو جعفر في سلسلة من المراسلات مع محمد النفس الزكية. وربما كانت هذه الرسائل المتبادلة أهم وأطرف وجه للعلاقات العباسية العلوية في مطلع العصر العباسي لأنها عكست آراء زعيمين متنافسين حول مسألة الخلافة وبينت وجهة نظرهما ودافعت عنها بشدة "احتجا وذهبا في الاحتجاج كل مذهب' كما كانت الرسائل ذات أهمية دعائية كبيرة لكلا الطرفين المتنازعين. فلم يكن الطرفان يتوقعان الصلح أو التنازل نتيجة لهذه المراسلات، بل إن رسالة المنصور الأولى تهدد وتتوعد قبل أن تعفو أو تمني، وكان محمد النفس الزكية يدرك ذلك حيث كتب فيما بعد لقائد الحملة العباسية الأمير عيسى بن موسى مشيراً إلى أن العباسيين لو ظنوا أنه سيقبل الوعود والامتيازات التي قدموها له لما ذكروها. ثم إن المنصور قد نجح في إجبار محمد النفس الزكية على الخروج فالخطوة التالية كانت على حد قوله "أنذره قبل قتاله"، فكان الإنذار من خلال الرسائل.

والرسائل المتبادلة بمجموعها ثلاث رسائل يذكرها الطبري والمبرد مع شيء من الاختلاف في النص، وقد تبع بقية المؤرخين أحد هذين المصدرين الرئيسين. وينفرد التبريزي بالإشارة إلى رسالة رابعة جوابية من محمد النفس الزكية إلى المنصور، غير أنها ضعيفة ومشكوك في صحتها. لقد كانت الرسالة الأولى من الخليفة إلى محمد نذيراً ببدء النزاع المسلح، لأنها في الوقت الذي تدعو فيه إلى الوفاق والسلام، تجعل ذلك السلام مستحيلاً من خلال الوعيد والتهديد. وهي كذلك تطلب من محمد النفس الزكية أكثر مما تعطيه. أما رسالة محمد الجوابية فهي — وكما أشرنا سابقاً— تؤكد على مفهوم جديد في ادعاء العلويين الخلافة، وهو كونهم من نسل فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وليس فقط أنهم من نسل علي بن أبي طالب

رضي الله عنه. كما افتخر محمد على أبي جعفر بكونه من أم عربية حرة من نسل الحسين ابن علي، ولذلك كان يسمى "صريح قريش" حيث لم يكن بين أمهاته أم ولد. ولكن افتخار محمد النفس الزكية بنسبه لم يغضب المنصور الذي كان من أم ولد بربرية، فقط بل لابد أن يكون قد لاقى امتعاضاً من الموالي في الحجاز والعراق الذين تعاطفوا مع الدعوة العلوية. كما ذكّر محمد أبا جعفر بأن جده العباس كان من بين الطرداء والطلقاء واللعناء وهي ألقاب تشير بصفة عامة إلى أولئك الذين حاربوا الرسول صلى الله عليه وسلم و لم يدخلوا الإسلام إلا بعد فتح مكة، ويختتم محمد رسالته ساخراً بالأمان الذي أعطاه المنصور له، مذكراً إياه بعدم التزامه بالأمان الذي أعطاه قبل ذلك ليزيد بن عمر بن هبيرة وعبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني.

وفي ردّه على رسالة محمد النفس الزكية لم يترك الخليفة دعوى علوية إلا ردّ عليها بدعوى عباسية، فكأنّ إجابته قد تدرجت نقطة فنقطة دون أن يهمل شيئاً من ذلك، ولعل أهم ما جاء في رسالته الجوابية محاولته ببراعة أن يدحض ادعاء محمد النفس الزكية على اعتبار أنه يستند إلى قرابة النساء موضحاً أن قرابة العمومة "العباس" أقرب من قرابة النساء "فاطمة" معتمداً على أسس شرعية وتقاليد عربية. وبالإضافة إلى حق القرابة ذكر أبو جعفر المنصور محمداً النفس الزكية بحق الحرمة حيث كان العباس مسؤولاً عن سقاية الحجيج في الكعبة، في الجاهلية والإسلام، وأن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس حين وقع الجفاف في الحجاز في عهده. وكان أبو جعفر المنصور متعمداً حين امتدح الفرع الحسيني في رسالته وفضلهم على الفرع الحسني، فجعفر الصادق وعلي زين العابدين أبناء أمهات أولاد غير عربيات، والمنصور يحاول أن يدحض فخر محمد بقرابة النساء ونقاوة الدم ويثبت مركزه باعتباره – أي المنصور– من أم غير عربية، إلا أن أهم نقطة في رسالة المنصور إنما هي حين يتكلم عن الوقائع التاريخية حيث يحقق كسباً قوياً ضد محمد النفس الزكية. يوضح المنصور أن العلويين حاولوا عدة مرات التحرك ضد الأمويين وفشلوا المرة تلو الأخرى. ثم حاول العباسيون فنجحوا. وبما أن بني هاشم أو أهل البيت عموماً لهم الحق نفسه بالخلافة فإن الذي يحقق منهم الانتصار بالقوة تكون الخلافة من حقه، وقد أكد الخليفة هذه النظرة نفسها في خطبة ألقاها على جمع من القادة وأهل بيته ومواليه حين سمع بنبأ ظهور النفس الزكية قائلاً: " أما والله لقد عجزوا عن أمر قمنا به فما شكروا القائم ولا حيوا القائم". ويبدو الخليفة وكأن بإمكانه أن يكون مثل منافسه فخوراً حين يرد في آخر الرسالة على ما ذكره محمد من

أن العباس كان من الطلقاء، فيشير إلى أن العباس خلص طالباً وعقيلاً وفداهما من الأسر، وأن العباسيين أخذوا بثأر العلويين من الأمويين.

ومرة أخرى تظهر رسائل المنصور إلى منافسه السياسي شخصيته القوية، فقد كان يتكلم بلغة الواقعي الواثق من نفسه، وكانت نبرته أكثر دقة واتزاناً وأعمق تأثيراً، لا لأن دعواه أفضل من دعوى النفس الزكية، بل لأنه كان أقل انفعالاً وأكثر هدوءاً ورباطة جأش، إضافة إلى استعماله أسلوباً تهكمياً لاذعاً في مقارعته لمحمد، حتى لكأنه ظهر أو لعله تظاهر ببراعة، دلالة على حبه واستهوائه لهذه الفرصة التي سنحت له ليجادل بها العلويين في الحسب والنسب والأولوية بالأمر والوفاء بالعهد. فكانت هذه النقاط الحساسة بالنسبة للمنصور كالأحجار في لعبة الشطرنج حيث أخذ يسقطها ببراعة واحدة واحدة شاعرا بالتلذذ والانبساط.

حين أعلن محمد النفس الزكية حركته انضم إليه أغلب العلويين والجعفريين والعقيليين والكثير من شخصيات قريش والأنصار، ورفض الصادق أن يشترك في الحركة أو يبايع النفس الزكية، وقد انضم إلى الحركة وأيدها عناصر عديدة من القبائل في أطراف المدينة المنورة، مثل جهينة ومزينة وسليم وبني بكر وأسلم وغفار. وتستعمل المصادر اصطلاح " وبيّضت القبائل" إشارة إلى معارضتها للحركة، مع أن هذا الاصطلاح قد يعطي فكرة خاطئة عن حجم التأييد، وربما يكون أقرب إلى الصواب أن يقول إن مجموعات قبلية من قبائل مختلفة انضمت إلى النفس الزكية. وقد لعب ادعاء محمد أنه "المهدي" دوراً في جلب العبيد والموالي والضعفاء إلى حركته. كما لاقت الحركة تأييداً من مجموعة من الفقهاء وأصحاب الحديث وعلى رأسهم مالك بن أنس الذي كان لفتواه بأن "ليس على مكره يمين" مغزاها السياسي في الحجاز، وهو الأمر الذي زاد من أنصار النفس الزكية. وانضم إلى محمد عناصر من الزيدية والمعتزلة الذين يؤيدون فكرة حمل السلاح مع إمام عادل ضد الظلم والاستبداد.

ومما هو جدير بالإشارة أن آل الحسن لم يعولوا على مساعدة أهل الكوفة لحركتهم. فالكوفة في تلك الفترة كانت ميولها أقرب إلى التطرف منها إلى الاعتدال، مع أنها كانت مركزاً للدعوة العلوية ولذلك ترعرع فيها العديد من الفرق المغالية، مثل المغيرية والمنصورية في نهاية العصر الأموي ومطلع العصر العباسي، كما أن الحركات العلوية في العصر الأموي أوضحت الفرق بين المساعدة الفعلية التي تتضمن الاستعداد للتضحية والفداء والعاطفة والحماس المجرد، ولهذا فإن الروايات التي تشير إلى أن هناك مائة ألف سيف مستعد للقتال إلى جانب النفس الزكية في

الكوفة لا أساس لها من الصحة ومبالغ فيها إلى حد كبير.

وهذا لا يعني عدم انضمام عناصر كوفية إلى الحركة إلا أنها كانت قليلة، وغالبيتها من الغلاة. أما مصر فقد علق عليها النفس الزكية آمالاً كبيرة، وأرسل ابنه علياً مع أحد الدعاة المدعو خالد بن سعيد السدفي، ولكن آماله خابت، لأن تأييد والي مصر للعلويين لم يكن سوى خديعة مدبرة من المنصور، ولم تتعد ميول أهل مصر للقضية العلوية العواطف، ولذلك لم يكتب لحركة خالد السدفي النجاح حين حاول جمع العون للنفس الزكية، وقد استطاع الوالي العباسي الجديد يزيد ابن حاتم المهلبي إخمادها بعد أن قتل عدداً من شيعة العلويين. وقد حاولت بعض العناصر الموالية للنفس الزكية في خراسان خلق حالة من عدم الاستقرار، ورغم محاولة الوالي العباسي عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي الذي تمرد على العباسيين رفع شعار المعارضة العلوية ولكن الوالي الجديد أبا عون الأزدي استطاع أن يسيطر على الأوضاع في هذا الإقليم.

لقد حاول محمد النفس الزكية أن يظهر العباسيين بمظهر الخارجين عن الدين، الطغاة المغتصبين، المهملين للمسؤوليات التي يفرضها عليهم منصبهم، وقد أشار مرة مقارناً بين العباسيين وأسلافهم الأمويين فقال: "والله لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم، وأن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم. وقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر" وعبر الشاعر سديف بن ميمون الذي انضم إلى محمد النفس الزكية عن موقف العلويين بقوله: "اللهم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة، وإمارتنا غلبة بعد المشورة، وعهدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة، واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة، وحكم في أبشار المسلمين أهل الذمة، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة. اللهم قد استحصد زرع الباطل وبلغ نهايته واستجمع طريده ، اللهم فافتح له يداً من الحق حاصدة تبدد شمله وتفرق أمره، ليظهر الحق في أحسن صوره وأتم نوره". وحين سمع الخليفة نبأ خروج محمد كان حينذاك في موقع بغداد يعد العدة لتخطيط المدينة فعجل العودة إلى الكوفة حيث أشار قائلاً: " أطأ أصمختهم وأقطعهم عن إمداد محمد، فإنهم سراع إلى أهل هذا البيت ". واختار ابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى لقيادة الجيش الذي أرسله إلى الحجاز، وكان عيسى يتمتع بقابليات إدارية وعسكرية معروفة، على عكس النفس الزكية الذي كانت تنقصه الخبرة العسكرية والقدرة على المناورة، فقد اختار النفس الزكية المدينة المنورة وهي في إقليم غير مناسب للثورة لأسباب بشرية واقتصادية واضحة بسبب

اعتماده على مصر في مؤونته من الحبوب. وقد شدّد النفس الزكية من الحصار الاقتصادي الذي ضربه عليه الخليفة بحفره الخندق حول المدينة، كما أرسل قوة للسيطرة على مكة في وقت كان في أشد الحاجة إلى المقاتلة لمجابهة الجيش العباسي. وأخيراً وليس آخراً فإن خطبته في أنصاره كانت غير موفقة فبدلاً من أن يشحذ هممهم أفقدهم معنوياتهم، وأحلهم من عهودهم، بل جعلهم يتوقعون الهزيمة قبل وقوع القتال، فأدى ذلك إلى انتفاض جمع منهم وتركهم المدينة مع عوائلهم، بل إن بعضهم نصح محمد النفس الزكية أو حثه على ترك المدينة إلى مصر أو البصرة أو أي مكان آخر أكثر مناسبة للثورة.

بعد وصول الجيش العباسي أطراف المدينة عسكر بالجرف في 12 رمضان 145هـ تشرين الثاني 762م، ودخل قائد الجيش عيسى بن موسى العباسي في مراسلات سرية مع بعض المتنفذين في المدينة المنورة. وحين هوجمت المدينة كان مع النفس الزكية القلة القليلة من أنصاره السابقين وأغلبهم من جهينة وبني شجاع الذين قاتلوا ببسالة فريدة، شهد بها الخليفة المنصور نفسه حين امتدح في مناسبة لاحقة ولاءهم وتفانيهم في سبيل النفس الزكية وقضيته. ومهما يكن من أمر فقد استطاع أنصار العباسيين رفع الراية السوداء على منارة مسجد المدينة قبل أن يستسلم أنصار النفس الزكية مما أدى إلى حال من الفوضى والاضطراب، و لم يستسلم النفس الزكية حتى قتل في 14 من رمضان 145هـ/760م، وقد أعقبت حركة محمد النفس الزكية الفاشلة عمليات السلب والنهب التي قام بها العبيد والرعاع، لعل من أهم أسباها الإجراءات الاقتصادية الشديدة للسلطة العباسية في المدينة، ولكن الوالي الجديد بمساعدة الأشراف والفقهاء استطاعوا السيطرة على الموقف بسرعة.

أما حركة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في البصرة فقد كان مقرراً لها أن تحدث في الوقت الذي حدثت فيه حركة أخيه النفس الزكية في المدينة المنورة، ولكن إبراهيم الحسني تأخر في إعلانها إما بسبب مرضه أو لفشله في جمع العدد الكافي من الأتباع. لقد استقر إبراهيم بن عبد الله في البصرة منذ 143هـ/760م وتحول من قبيلة إلى أخرى مختفياً عن أنظار العباسيين، وقد علق الخليفة المنصور على ذلك قائلاً: "لقد غمض عليّ أمر إبراهيم لما اشتملت عليه طفوف البصرة". والواقع أن البصرة قد تكون محلاً مناسباً للحركة من حيث موقعها، ولكنها لم تكن علوية في ميولها السياسية، فاتجاهها السياسي في مطلع العصر العباسي كان عثمانياً يدين بالكف، وبمعنى آخر يدين بالحياد في المعترك السياسي، ولعل أصدق ما يمثل موقف البصرة هو الرد الذي صدر عن أحد أشراف أهل البصرة حين دعاه إبراهيم ابن عبد الله

إلى التأييد فقال: "لا أرى القتال ولا أدين به". ولعلنا نتذكر هنا أن وصية محمد بن علي العباسي إلى دعاته تصف البصرة بأنها عثمانية محايدة كذلك. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو طابع البصرة بصورة عامة طابعاً يتصف بالتحدي وهو الطابع الذي قرره بنو تميم فهي تناهض - بتحريض من تميم - كل سلطة سواء كانت عباسية أو أموية قبلها، ولذلك فإن مؤازرة بعض الأفخاذ والقبائل لإبراهيم الحسني في البصرة لم تكن بسبب تشيع البصرة للعلويين بقدر ما كانت بسبب مناهضتها لسيطرة العباسيين أو أيّ سلطة أخرى من سيطرة مركزية. وهذه الظاهرة هي التي حيرت شارل بلا، فجعلته يقول: "إن حركة إبراهيم أكثر الحركات الشيعية في البصرة اتساعاً وأوفرها نجاحاً، وبالرغم من أن الأرقام التي يذكرها المؤرخون مبالغ فيها جداً فإن قسماً من السكان ساروا وراءه، وذلك دون أن نستطيع أن نتبين أسباب هذا التعلق الفجائي بالشيعة... إن حركة إبراهيم لم تكن سوى انتفاضة ثورية لم يكتب لها النجاح، فهي موجهة ضد العباسيين، ولكنها لم تحظ بأي تأييد للقضية العلوية..".

كان إبراهيم الحسني متردداً في الإعلان عن حركته التي تأخرت قُرابة الشهرين عن حركة أخيه في الحجاز، ولعلنا نقدر موقفه إذا أخذنا بنظر الاعتبار موقف أهل البصرة المتقلب، ولم يعلن حركته إلا بعد أن أدرك أن أي تأخير ستكون له نتائجه الخطيرة، لأن الخليفة بدأ يتحيّن الفرص لإلقاء القبض عليه، كما بدأ يعزز قواته لإرسالها إلى البصرة. إن المصادر المتيسرة لا تعيننا على تقدير التأييد الذي قدمته قبائل البصرة للحركة العلوية، كما أن تميمًا وهي أكثر القبائل أثراً في البصرة لم تكن علوية الميول، وكذلك أهل العالية، ويمكن اعتبار عبد القيس والأزد موالية للعلويين إلا أننا نستدرك ونشير إلى أن هذا التحديد غير ثابت، لأن الميول السياسية لشيوخ القبائل وأشرافها كانت تتغير بتغير المصالح والظروف السياسية المتبدلة. وهذه الظروف ربما دفعت بأفخاذ أو تكتلات قبلية إلى مساعدة إبراهيم الحسني في تلك الفترة. ومن الواضح أنه حصل على تأييد من الفئات الفقيرة والمستضعفة في البصرة وسواد العراق، وكان منهم العرب والموالي من البخارية والفرس والنبط والزط والزنج والسيابجة الذين دخلوا الإسلام والتحقوا بالقبائل هناك. إن هذه العناصر المتباينة التي أيدت حركة إبراهيم وانخرطت تحت لوائها كانت نقطة ضعف فيها، فقد كان إبراهيم الحسني متحيراً بين آراء الجماعات والعناصر التي أيدته. وتجاه هذا الوضع نراه يحاول الخروج من البصرة للتخلص من الحرج واتخاذ مكان آخر مركزاً لحركته. وقد زاد من صبغة الحركة الدينية تأييد بعض الفقهاء والمحدثين وزعماء فرق المعتزلة والزيدية لها، وكان

لهذا التأييد أثره في جذب العامة من الناس إلى إبراهيم الحسني.

ومهما يكن من أمر فإن حركة إبراهيم بن عبد الله الحسني التي هي امتداد لحركة أخيه محمد النفس الزكية تعتبر أخطر حركة جابهت أبا جعفر، فقد مدّ إبراهيم نفوذه إلى الأهواز وفارس وكسكر وواسط وقرى السواد، ولكن الخليفة استطاع بإجراءاته الشديدة أن يسيطر سيطرة تامة على الكوفة ومنع أي إمدادات قد تصل إلى إبراهيم منها. لقد تردد إبراهيم في الانقضاض على الخليفة في الكوفة حيث كان مع أبي جعفر جيش صغير، وبذلك أعطى الفرصة له ليعمل بسرعة بإصدار أوامره إلى عيسى بن موسى بالتعجيل بالرجوع إلى العراق بعد قضائه على حركة محمد النفس الزكية، وأرسل مسلم بن قتيبة الباهلي ليعزز مركز جعفر ابن سليمان العباسي في أطراف البصرة، وقد استطاع مسلم الباهلي أن يكسب قبيلته باهلة إلى جانب العباسيين. واستطاع خازم بن خزيمة التميمي أن يسيطر على الأهواز ويطرد الوالي الذي نصبه إبراهيم الحسني . قرر إبراهيم أخيراً التوجه نحو الكوفة و لم يتبعه سوى عشرة آلاف من أتباعه تقريباً، ولكنه رفض اقتراحاً بمباغتة الخليفة والقضاء عليه، وصمم على مجابهة أبي جعفر وجهاً لوجه في معركة مكشوفة، وفي باخمرى قرب الكوفة قابل جيش إبراهيم جيش عيسى بن موسى، وقد اندحر الجيش العباسي في الجولة الأولى، إلا أن صمود عيسى بن موسى وكتيبة من الجيش معه والتفاف جعفر بن سليمان العباسي من الخلف اضطر إبراهيم الحسني إلى التراجع ففسح المجال للمقاتلة من الجيش العباسي إلى التجمع ثانية بقيادة حميد ابن قحطبة الطائي، واندحر إبراهيم في الجولة الثانية وقتل بسهم طائش في 25 ذي القعدة 145هـ/ 763م. لقد استطاع أبو جعفر بحنكته وحزمه وتدابيره الشديدة أن يقضي على أخطر حركة واجهت العباسيين الأوائل، وكان الخليفة يدرك تماماً مدى خطورتها فقد أعد – كما تقول الروايات – كل شيء للهرب من الكوفة في حالة انتصار إبراهيم الحسني، وكانت خطته أن يلحق بابنه الأمير محمد المهدي في الري، ويقود الجيش العباسي الموجود هناك ليجابه به إبراهيم، وكان حرياً بالخليفة أبي جعفر بعد أن قضى على الحركات العلوية أن يلقب نفسه بـ"المنصور"، وهو لقب له دلالاته الدينية – السياسية المهدوية التنبؤية، وله جذوره التاريخية في المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده، وقد أمّل الخليفة أن يبعث في الناس الشعور بأنه "المنقذ" الذي سينشر العدل ويعيد الأمن وأن ما زعمه محمد النفس الزكية بأنه "المهدي" باطل وإلا لما نصر الله أبا جعفر عليه.

وإذا كانت مدة خلافة الخليفة العباسي الأول أبي العباس هي فترة الوفاق الودي العباسي

- العلوي الأولى، فإن عهد الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي هي فترة الوفاق الودي الثانية. والواقع أن سياسة المرونة بدأت بعد فشل حركة إبراهيم الحسني، إذ أعلن عيسى بن موسى قائد الجيش العباسي الأمان بعد انتهاء المعركة مباشرة. كما أن إجراءات والي البصرة المرنة في معاملته للمشاركين في حركة إبراهيم الحسني تدل دلالة واضحة على أن الخليفة المنصور كان مقتنعاً بأن أهل البصرة ليسوا علويين في ميولهم السياسية، وقد اقتصرت هذه التدابير على هدم بعض الدور وقطع بعض أشجار النخيل لبعض أشراف البصرة. أما الخليفة المهدي فقد حاول أن يكسب العلويين ويرضي العناصر المؤيدة لهم. ففي 160هـ/ 776م أدى المهدي فريضة الحج ووزع الهدايا والعطاء على أهل الحجاز والعلويين منهم خاصة، وأعاد الممتلكات التي صادرها المنصور وأمر بفك الحصار الاقتصادي عن الحجاز. كما أن مبادرة المهدي استيزار يعقوب ابن داود المعروف بميوله العلوية كانت خطوة أخرى في هذا الاتجاه، فقد كان الخليفة تواقاً لرجل مثل يعقوب بن داود الذي كانت ارتباطاته بالعلويين تساعد على تعقب أنشطتهم من جهة وعلى إقامة علاقات ودية معهم من جهة ثانية. واستمر المهدي في تشجيع وزيره يعقوب ومنحه سلطات سياسية واسعة وإعطاءه لقب "الأخ في الله" الذي يدل على المرتبة الكبيرة التي وصلها هذا الوزير، كما أن هذا اللقب يدل على عزم الخليفة على اتباع سياسة التوفيق مع العلويين، بل إعلان العفو عن الهاربين منهم. إلا أن العلويين لم يثقوا بيعقوب فقد اعتبروه شخصاً وصولياً استفاد من ميوله العلوية ليصل إلى السلطة. وقد فشل يعقوب في إقناع عيسى بن زيد العلوي بتسليم نفسه وهنا أخذت علاقة الخليفة بوزيره تتبدل حتى عزله وسجنه وأقصى جميع عماله عن وظائفهم. لقد كان هذا الإجراء بداية سياسة شديدة تجاه العلويين، فبدأ الخليفة يشدد على بعض الشخصيات العلوية، ولكنه لم يعش طويلاً لكي نتبين مظاهر سياسته الجديدة تجاه العلويين.

لقد اتسمت سياسة الخليفة العباسي الرابع موسى الهادي تجاه العلويين بالشدة حيث أمر بإيقاف العطاء عنهم، وحين عين عمر بن عبد الله العمري 169هـ/785م والياً على المدينة المنورة اتبع إجراءات مشددة ضد العلويين، وأمر كلاً منهم أن يكفل الآخر، وشمل هذا الإجراء شيخهم وكبيرهم الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وحدث أن سجن الوالي العباسي عدداً من العلويين بينهم الحسن بن محمد بتهمة شرب الخمر، وهي تهمة اختلف المؤرخون حولها ومن الصعب إثباتها، ويبدو من مناقشة الحسين بن علي الحسني للوالي العباسي بأن المتهمين ربما شربوا نوعاً من النبيذ. وقد أطلق سراح الحسن

بن محمد بكفالة الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن، واختفى بعد إطلاق سراحه.

إن حركة الحسين بن علي الحسني في المدينة المنورة 169هـ في 8 من ذي الحجة/ 785م لم تكن فجائية أو اعتباطية - كما يحاول بعض المؤرخين إظهارها - فإذا كانت مسألة شرب النبيذ القشة التي قصمت ظهر البعير والعامل المباشر لظهور الحسين بن علي، فإن الحركة قد سبق الإعداد لها من قبل وكانت أعداد من شيعة العلويين من الكوفة وغيرها قد وصلوا إلى الحجاز وقت الحج للاشتراك في الحركة. على أن هذه الحركة لم يكن لها عضد قوي فإن شيعة الحسين كانوا حوالي ثلاثمائة شخص على حسب تقدير الأصفهاني وخمسمائة شخص كما يقدرهم اليعقوبي، وهذا يعني قلة عددهم بالمقارنة مع أتباع العباسيين الذين يقدرهم المسعودي زهاء أربعة آلاف. أعلن الحسين بن علي حركته في المدينة المنورة داعياً إلى "الرضا من آل محمد"، وأمام قلة من تجاوبوا معه من أهل الحرمين أعلن أن أي عبد ينضم إليه يُعدّ حراً فأثار أشراف مكة الذين سألوه: عمدت إلى مماليك لم تملكهم فأعتقتهم، فبم تستحل ذلك ؟ فاضطر إلى إعادة بعض العبيد إلى مواليهم.

أرسل الخليفة الهادي محمداً بن سليمان العباسي ليأخذ زمام القيادة والتقى جيش العباسيين مع أتباع الحسين بن علي يوم التروية 8 من ذي الحجة، المصادف 11 من حزيران في وادي فخ. وقد قتل الحسين بن علي مع ما يقرب من مائة من أتباعه في مجزرة رهيبة، وهرب الباقون واختلطوا بالحجاج، وأعلن محمد بن سليمان الأمان وأمر بعدم تعقب الهاربين. وكان من بين الهاربين يحيى ابن عبد الله المحض وأخوه إدريس. أما الأول فقد قصد الديلم من بلاد فارس وثار هناك في عهد الرشيد 176هـ/792م أما الثاني فقصد المغرب، وأسس ما يسمى بإمارة الأدارسة 172هـ/788م. وأعلن الأمان لهم، ومع ذلك قتل بعض العلويين بعد أسرهم غدراً أو بعد تسليمهم لأنفسهم مخدوعين بهذا الأمان، وكان من بين الذين سلموا أنفسهم ثم قتلوا بأمر من موسى ابن عيسى العباسي الحسن بن محمد، وقد غضب الخليفة لما سمع ذلك، وأمر بمعاقبة موسى بن عيسى، وقاست كل من المدينة المنورة والكوفة من إجراءات تأديبية شديدة بسبب اشتراك بعض أهلها في حركة الحسين بن علي.

كانت سياسة الخليفة هارون الرشيد تجاه العلويين في بداية عهده تتسم بالمرونة حيث افتتح عهده برفع الحجر عنهم وإخلاء السجناء منهم وإعادتهم إلى المدينة المنورة، وقد ظهر من كان مختفياً عن الأنظار منهم، ويشير القمي إلى أن هارون الرشيد كان ييسر حاجات آل أبي طالب

وعيالهم، كما أنه أطلق سراح يعقوب ابن داود المعروف بميوله العلوية والذي سجنه الخليفة المهدي، وسمح له بالسفر إلى مكة للإقامة هناك. ومع ذلك كان الرشيد كأسلافه حذراً من تحركات العلويين، يقول الأصفهاني: "كان الرشيد معنيّا بالمسألة عن أمر آل أبي طالب وعمن له ذكر ونباهة منهم" . وقد أمر الرشيد بجلب موسى الكاظم إلى بغداد حيث مات في ظروف غامضة 183هـــ/779م، كما استطاع أن يتخلص من إدريس بن عبد الله الحسني بالسم في المغرب 177هـــ/793م.

إن حركة يحيى بن عبد الله بن الحسن هي الحركة العلوية الوحيدة في عهد الرشيد. فقد تحرك يحيى الحسني في بلاد الديلم 176هـــ/792م بعد أن نجا من الموت في معركة فخ التي شارك فيها في الحجاز، وقد أرسل الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي وأمره بقصد يحيى والجد في طلبه وبذل الأمان له إنْ قَبِلَ ذلك. وقد أثبت الفضل البرمكي براعة في الإجراءات المرنة والدبلوماسية التي مارسها فاستطاع أن يكسب صاحب الديلم الذي كان حليفاً ليحيى الحسني، وواصل كتبه إلى يحيى بالرفق والاستمالة والتحذير والترغيب والترهيب وبسط الأمل حتى أجاب يحيى إلى الصلح، ثم إن يحيى الحسني بدأ يفكر بالصلح "لما رأى من تفرق أصحابه وسوء رأيهم فيه وكثرة خلافهم عليه"، وقد اشترط أن يكتب له الخليفة أماناً بخطه وأن يشهد عليه الهاشميون والقضاة، فرضي الرشيد بالشرط، وكتب أماناً أرسله إلى يحيى، وقد قابل الرشيد يحيى بالجوائز والهدايا ولكنه بقي يراقبه عن كثب حتى شك في نشاطه المؤثر، فوضعه تحت مسؤولية جعفر البرمكي، كما استطاع الخليفة أن يجد في شخص الفقيه وهب بن وهب أبي البختري من يفتي ببطلان الأمان الذي أعطاه ليحيى الحسني الذي توفي بعد ذلك في ظروف غامضة، يختلف الرواة في وصفها حيث تختلط أخبارهم وتتشابه حول علاقات الرشيد بكل من يحيى الحسني وموسى الكاظم.

لقد كان للظروف السياسية التي مرت بها الخلافة العباسية في أثناء فترة النزاع المسلح بين الأمين والمأمون193- 198 هـــ / 809 - 814 م أثرها في تحفيز العناصر المناهضة للدولة - ومنها العلوية - للقيام بحركات في أقاليم عديدة كالعراق والحجاز واليمن، فلم يكد المأمون يتسلم الخلافة حتى جابه حركة أبي السرايا السري بن منصور الشيباني في الكوفة وسواد العراق 199هـــ/ 815م الذي ثار باسم ابن طباطبا العلوي (محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب)، وبعد نجاحه في الكوفة حاول مد سيطرته على أقاليم أخرى، فأرسل الحسين بن الحسن الأفطس

بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى مكة ومحمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب إلى المدينة وإبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق إلى اليمن، ويشير الطبري إلى "انتشار الطالبيين في البلاد ". مما يدل على النجاح الذي حققه أبو السرايا في هذه الأقاليم.

ولا تعطينا كتب التاريخ كثيراً عن شخصية أبي السرايا وسيرته، فهو من شيبان من الجزيرة الفراتية، ولكنه ليس من أشراف القوم، بل تدرج حتى لمع اسمه في جيش يزيد بن مزيد الشيباني حين حارب الخرمية وكان في معسكر الأمين في أثناء الحرب الأهلية، ولكنه سرعان ما بدل ولاءه وانحاز إلى جيش المأمون، إلا أنه بعد انتهاء الحرب لم يحصل على ما كان يطمح إليه فعاد إلى حياة الغزو والتناحر القبلي حتى وجد ضالته في ابن طباطبا الذي التقى به في الرقة، فرفع الشعار العلوي آملاً أن يحقق من خلاله طموحاته في السلطة ومتنفساً لروحه البدوية المتمردة. وقد اختلف المؤرخون في تصوير شخصية أبي السرايا فأعطاه الطبري شخصية فارس طموح مغامر في حين أسبغ عليه الأصفهاني صفة بطل شيعي. على أن حركته كانت وليدة عوامل عديدة وليس الولاء العلوي فقط، فقد عبرت هذه الحركة عن سخط أهل العراق على سياسة المأمون الخراسانية ومواقف الفضل بن سهل الفارسية، وكذلك عبرت عن ملل الناس من عدم الاستقرار السياسي ومن الفوضى، ولهذا يصفها عبد العزيز الدوري بأنها " ثورة عربية عراقية صرفة ضد سياسة العباسيين في تلك الفترة ". على أن هذه الحركة كانت دون شك تجمعاً عاماً لشيعة العلويين في العراق الطموح المتذمر من سياسة المأمون التي كادت تفقده مركزه الأول بين أقاليم الخلافة، وقد وجدت هذه الحركة في أبي السرايا ومؤهلاته السياسية والعسكرية خير زعيم وممثل.

لقد استطاع كلا الزعيمين أبي السرايا وابن طباطبا احتلال الكوفة دون إراقة دماء، وأخذ البيعة إلى (الرضا من آل محمد والعمل بكتاب الله وسنة نبيه). وحين سمع أمير العراق الحسن بن سهل بالحركة أرسل من فورهٍ القائد زهير بن المسيب على رأس جيش عباسي، ولكن أبا السرايا تمكن من دحره، وأجبره على التراجع. وتشير بعض الروايات التاريخية إلى موت ابن طباطبا المفاجئ كما تشير بعضها إلى دور أبي السرايا في موته بسبب خلاف وقع بينهما. ومهما يكن من أمر فإن الزعيم المتوفى كان قد ترك لرعيته وصية رشح فيها علي بن عبد الله العلوي لرئاسة الحركة، ولكن علياً هذا رفض أن يزج بنفسه في مغامرة سياسية حيث كان معروفاً بتقواه وبعده عن السياسة، واقترح بيعة محمد بن محمد بن زيد، وقد قبل أبو السرايا الاقتراح فكانت بيعة محمد بن محمد في الأول من

رجب 199هـ/814م. وقد اتسعت الحركة بعد أن دحر أبو السرايا قوة عباسية جديدة بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروزي، وأرسل ولاة جدداً إلى البصرة وواسط، وأرسلت أقاليم أخرى تعلن ولاءها للحركة، وتدعو أبا السرايا لإرسال ولاة إليها. وقد أجبرت هذه الظروف الصعبة الحسن بن سهل إلى الاستعانة ثانية بهرثمة بن أعين الذي كان في طريقه إلى خراسان وتوسل إليه بالعودة إلى العراق لمعالجة الوضع، ومرة أخرى تمكن هرثمة بن أعين أن يحقق النصر للعباسيين حيث وقعت في الأول من ذي القعدة معركة دموية في الكوفة استعمل فيها هرثمة السياسة والحيلة كذلك. فقد استطاع إقناع أشراف الكوفة بالتخلي عن أبي السرايا وخذلانه. وهكذا خذل أشراف الكوفة أبا السرايا كما خذلوا المختار الثقفي قبله فاضطر إلى ترك الكوفة مع عدد من أتباعه المخلصين. وبعد أن تجول في مدن عديدة قرر أبو السرايا العودة إلى موطنه الأصلي في رأس العين بالجزيرة الفراتية ومعه محمد ابن محمد بن زيد، ولكنهم أُسِروا في جلولاء، وكان مصير أبي السرايا القتل بأمر الحسن بن سهل, أما محمد بن محمد فقد أرسل إلى المأمون في مرو. وعلى أثر مقتل أبي السرايا استسلمت البصرة وأسر فيها زيد بن موسى بن جعفر الصادق، وكان زيد هذا يلقب بـــ"زيد النار" لكثرة ما حرق بالبصرة من دور بني العباس وأتباعهم" . وبهذا انتهت الحركات العلوية بالعراق في غضون ثمانية أو تسعة أشهر.

أما الحركة العلوية في الحجاز فقد كانت مرتبطة بحركة أبي السرايا بالعراق، ذلك أن أبا السرايا كان يدرك أهمية الحجاز الدينية حيث كان بإمكانه إذا سيطر على الحجاز أن ينظم حملة دعائية كبيرة لنفسه بين الحجاج القادمين من مختلف الأقاليم الإسلامية، لذلك أرسل محمد بن سليمان الحسني إلى المدينة المنورة والحسين ابن الحسن الأفطس إلى مكة وقلده إمرة الحج الذي بات على الأبواب، ولم تكن لدى الوالي العباسي في الحجاز داود ابن عيسى بن موسى رغبة في الحرب وغادر مكة إلى العراق، وبذلك دخل الحسين بن الحسن الأفطس مكة في الأول من عرفة دون قتال، وطرح على الكعبة كسوة أبي السرايا، وأزال عنها كسوة العباسيين، وأعقب ذلك عمليات مصادرة ونهب لأملاك العباسيين وأتباعهم، ولكن الأخبار سرعان ما وصلت بفشل حركة أبي السرايا في العراق، فكان على الحسين بن الأفطس اختيار شخصية علوية محترمة لزعامة حركته، ولم يكن هناك من يتمتع باحترام الناس أكثر من محمد بن جعفر الصادق الملقب بـــ"الديباج"، وكان شخصاً لامعاً في رواية الحديث وليس له ولع بالسياسة، ولكنه وافق بعد تردد على طلب الحسين الأفطس، ولقب نفسه أمير المؤمنين في السادس من ربيع الثاني

200هـ/815م، إلا أن الجيش العباسي بقيادة عيسى بن يزيد الجلودي تحرك نحو الحجاز، وفي معركة عنيفة في بئر ميمون اندحر شيعة العلويين، وطلبوا الأمان حين تدخل أشراف قريش، وأقنعوا القائد العباسي بمنح الأمان لهم، ولا تشير مصادرنا إلى مصير الحسين بن الأفطس، ولكن محمد ابن جعفر الصادق أعلن ولاءه للمأمون وأرسل إلى مرو، وبذلك عاد الحجاز إلى المأمون.

أما فقد قادها إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق، باسم الإمام ابن طباطبا وأبي السرايا. وكان استيلاء إبراهيم الحسيني على اليمن سهلة، لأن واليها العباسي إسحق بن موسى العباسي أخلى صنعاء قبل وصول إبراهيم الحسيني إليها، وليست لدينا روايات كثيرة حول حكم إبراهيم الحسيني لليمن، إلا أن بعض الروايات تشير إلى سياسته المالية الشديدة ومصادرته الممتلكات وقتله المعارضين لحركته وهذا ما دفع خصومه إلى تلقيبه بـ"الجزار". ورغم نهاية الحركة العلوية في كل من العراق والحجاز استطاع إبراهيم الحسيني أن يقاوم في اليمن بحيث امتدت حركته هناك لأكثر من سنة، بل إنه حاول أن يؤم الناس باسم الإمام العلوي في موسم الحج، ولكن عيسى بن يزيد الجلودي منعهم من ذلك.

ثم أرسل الحسن بن سهل والي العراق حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان أميراً على اليمن، فانتصر على إبراهيم الحسيني الذي انسحب من اليمن باتجاه الحجاز وسيطر على مكة. وقد حدث خلال هذه المدة تعيين المأمون لعلي الرضا ولياً للعهد، وكذلك اعترف بشرعية ولاية إبراهيم بن موسى الحسيني على مكة وأعطاه إمارة الحج، بل أعطاه كذلك إمارة اليمن، وأمر الجلودي بمساعدته في استرداد اليمن من ابن ماهان. ولكن الجلودي ماطل وتعذر من الذهاب وأعلن ابن ماهان استياءه من سياسة المأمون، إلا أن سلطة هذا الأخير في اليمن لم تستمر فقد واجه اضطرابات قبلية من قبائل عك وأشعر مكنت الجلودي من القبض عليه في صنعاء فعين المأمون محمد ابن زياد 203هـ/819م والياً على اليمن. أما إبراهيم الحسيني فقد ترك مكة إلى مرو حين استدعاه المأمون وبهذا انتهت الحركة العلوية في اليمن.

وأخيراً حاول عدد من المؤرخين المحدثين ربط سياسة المأمون الاعتزالية بميوله تجاه العلويين، فقد أظهر المستشرق برنارد لويس أن سياسة المأمون الاعتزالية كانت محاولة للتوفيق بين دعوى العباسيين ودعوى العلويين بالخلافة، لعل هذا المذهب ينجح فيما فشل فيه مذهب أهل السنة والجماعة. أما المستشرق سورديل فيرى أن هناك ارتباطات غير قليلة بين المعتزلة الأوائل والحركة العلوية المعتدلة، فقد عرف واصل بن عطاء بصداقته لمحمد ابن الحنفية وزيد بن علي، وأيد

المعتزلة حركة محمد النفس الزكية وإبراهيم الحسني فدلّ على تقارب بين وجهتي النظر المعتزلية والزيدية. وفي عهد الرشيد كان معتزلة بغداد ذوي آراء زيدية، وكان بشر بن المعتمر وثمامة بن الأشرس قد سجنا بسبب ميولهما العلوية وتأييدهما سياسة المرونة والتوفيق تجاه العلويين، والمعروف أن كلا الرجلين كانا من بين الشهود الذين وقعوا وثيقة البيعة لعلي الرضا 201هـ/817م. ولابد أن المعتزلة أوعزوا إلى الخليفة بصورة غير مباشرة دفعته إلى هذا الاختيار، إلا أننا نقر مع محمد عبد الحي شعبان بأن هذه المحاولة من جانب المأمون كانت يائسة بحيث لم يقتنع بها أو ينخدع بها طرف من الأطراف، سواء الخليفة أو العلويون أو المعتزلة أو أهل بغداد. وتؤكد الأحداث التاريخية أن الفئة الأخيرة وخاصة العامة والعلماء منهم كانت على الدوام معارضة لسياسة المأمون الاعتزالية — العلوية.

ثانيا: الحركات الفارسية في مطلع العصر العباسي :

لعل أول ظاهرة تجذب الانتباه هي كثرة الصعوبات التي واجهت العباسيين في بلاد فارس، ومهما كانت الظروف السياسية في الأقاليم الغربية فإن الخطر الحقيقي الذي هدد العباسيين في أيامهم الأولى كان متأتياً من الأقاليم الشرقية. لقد عملت الدعوة العباسية على إيقاظ المشاعر وآمال التطلع نحو مستقبل أفضل، كما بعثت فيهم روح الإحساس المرهف ففسح المجال لانطلاق الكثير من الآراء المغالية والمبادئ القديمة التي كانت متأصلة في بلاد فارس قبل الإسلام.

ومن الطبيعي أن النظام العباسي الجديد لا يمكنه أن يرضي كل الفئات التي شاركت في الدعوة العباسية، فقد كان عليه أن يختار طريقاً واحدةً من الطرق أو الخيارات المطروحة أمامه فاختار "السير على كتاب الله وسنة نبيه"–على حد قول الخليفة الأول أبي العباس– وهنا حدثت الشقة وتوسع الخلاف بين العباسيين والفرس الذين شعروا بخيبة الأمل لعدم اقتناعهم بسياسة العباسيين، أو لوجود أهداف أعمق ومطامع أوسع لهذه العناصر ترغب في إعادة القديم إلى قدمه بإحياء المجوسية وإنهاء السيطرة العربية الإسلامية. وقد أدرك بعض المؤرخين الأوائل هذا الهدف وعبروا عنه بالقول: "واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت في سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم... فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب - وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً - تعاظم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وكان من قائميهم سنباد واشنيس والمقنع وبابك وغيرهم وقبل هؤلاء رغب في ذلك عمار الملقب خداش وأبو مسلم... ثم رأوا

أن كيده على الحيلة أنجح فأظهر قوم منهم الإسلام".

لقد كانت الراوندية أول حركة فارسية يواجهها العباسيون بعد تأسيس دولتهم، فقد أثارت الراوندية الفتن والاضطرابات في جيوب متفرقة من خراسان مع بداية الدولة العباسية. والمعروف أن الراوندية هم غلاة شيعة بني العباس في أثناء الدعوة، إلا أنهم انقسموا إلى شيع وأحزاب بعد تأسيس الدولة، فمنهم من استمر في ولائه للعباسيين وهؤلاء هم "العباسية"، ومنهم من لم يعترفوا بخلافة بني العباس بل نقلوا الإمامة إلى أبي مسلم الخراساني واعتقدوا بقدسيته ونسبوا إليه المعجزات، ومنهم من اعتقد بإمامة المنصور وقدسيته، وادّعوا أنه إله وأن أبا مسلم نبيه.

و لم يكن العباسيون في البداية أشداء في سحق جماعات الراوندية وقد تهيأت لهم الفرصة للتجمع في الهاشمية بالعراق، وحين نبه أحد صحابة المنصور إلى خطورة آرائهم وتطرفها علّق بقوله: "دعهم يدخلون النار في طاعتنا على أن يدخلوا الجنة في معصيتنا". إلا أن الراوندية تمادت في الإعلان عن آرائها فألهت المنصور ونادت بقدسيته ثم تمردت عليه، فلما اعتقل الخليفة عدداً منهم كسروا باب السجن وهاجموا قصر الخليفة الذي كاد يقتل بسهم طائش لولا تواجد معن بن زائدة الشيباني إلى جانبه في تلك اللحظة الحرجة فأنقذ الموقف وسيطر على التمرد والفتنة.

إلا أن هذه الفئة من الفرس الغلاة الذين دعوا إلى عودة الديانات المجوسية استمرت في تأييدها الحركات الفارسية، أمثال حركات بهافريد وأستاذ سيس وسنباذ وإسحق الترك والمقنع وبابك الخرمي، كما انضم هؤلاء الفرس إلى حركات أخرى حدثت في بلاد فارس، مثل حركات الخوارج في سجستان وخراسان وحركات العلويين في خراسان والديلم، بل إنهم شاركوا في تمردات سياسية تزعمها عرب، مثل تمرد جهور بن مرّار العجلي وعبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ورافع ابن الليث. وبمعنى آخر كانت العناصر المتذمرة من الفرس تشارك في كل حركة مناهضة للخلافة العباسية، وهذا لا يعني بالطبع أن هؤلاء الفرس آمنوا بمبادئ تلك الحركات، بل إنهم اعتبروها وسيلة للقضاء على سلطة بغداد، ووسيلة للتنفيس عن سخطهم وتذمرهم.

وقبل الدخول في مناقشة الحركات الدينية – السياسية الفارسية نود أن نؤكد على خصائص نراها مشتركة في هذه الحركات: وربما كان أولها ظهور نزعة التوفيق حيث جمعت هذه الحركات آراءً مجوسية قديمة وخلطتها بآراء إسلامية محاولة كسب أكبر عدد ممكن من الأتباع. فكان زعماء هذه الحركات يظهرون لكل جماعة بثوب،

ويلوحون لكل كتلة بشعارات ومبادئ تستهويها. أما ثاني هذه الخصائص فهي تبشيرها بمجيء "المنقذ المنتظر" على هيئة مصلح ديني سياسي ينقذها من حالة الخيبة التي تعيش فيها ويحقق لها آمالها. و لم يكن إيجاد ذلك الرمز صعباً، ذلك أن شهرة أبي مسلم الخراساني كانت واسعة في بلاد فارس خصوصًا بعد مقتله بإيعاز من المنصور، ولذلك اتخذ منقذاً منتظراً وبطلاً شعبياً، سيعود إلى هذه الدنيا لينشر العدل ويزيل الجور ويعيد مجد بلاد فارس. وكان شعار العديد من الحركات الدينية – السياسية الثأر لأبي مسلم. وقد أدرك المنصور خطر هذه الحركات فخطب محذراً الناس بعد مقتل أبي مسلم الخراساني قائلاً: " أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسِرُّوا غش الأئمة فإنه لم يُسِرَّ أحد قَطُّ منكرة إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه، إنا لن نبخسكم حقوقكم. إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا، و لم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه" .

وعلى الرغم من وضوح الصفة الفارسية في هذه الحركات في الطبيعة والمبادئ والأهداف والمسرح الجغرافي فإنه من المبالغة اعتبارها "ثورات قومية فارسية" فقد تدخلت فيها عدة عوامل دينية واجتماعية واقتصادية ونفسية ولا يمكن الإشارة إلى عامل معين، واعتباره الدافع الفعال في تلك الحركات، كما أن هذه الحركات اقتصرت على بعض نواحي بلاد فارس دون غيرها، وجذبت قطاعات معينة من الناس ولاسيما الضعفاء دون الأمراء والدهاقين، في حين أن بعض الأمراء والدهاقين ساعد هذه الحركات لأسباب سياسية وفي حالات خاصة. وفيما يلي أشهر هذه الحركات:

– حركة بها فريد: يُعدّ بها فريد هذا من مواطني زوزان وهي مدينة تقع بين نيسابور وهرات وكانت مركزاً للثقافة والفكر. وقد جال بها فريد في البلدان، فزار ما وراء النهر، ثم انتقل إلى الصين وبقي عدة سنوات فيها، وحين رجوعه جلب معه قميصاً أخضر ثم اختفى وظهر بعد سنة مدعياً الرجعة حيث أماته الله ثم أحياه. وقد اختار بها فريد وقتاً مناسباً لبدء دعوته في خراسان فقد بدأت الاضطرابات القبلية في أواخر ولاية نصر بن سيار والي الأمويين، وقد كانت من مصلحة الدعوة العباسية تشجيع حركة بها فريد لتزيد من مشاكل الأمويين في خراسان، ولذلك لم يقف الدعاة العباسيون ضده حين ثار 129هـ/ 747م. ولكن بعد انتصار الدعوة العباسية 132هـ/729م كان لا بد لأبي مسلم الخراساني والي العباسيين أن يقضي على بها فريد، لأن وجوده

لم يكن في مصلحة الدولة العباسية الجديدة، ولا في مصلحة الدهاقين ورجال الدين المجوسي.

كان بها فريد زرادشتياً حيث اعتبر نفسه خليفة زرادشت وادعى النبوة مظهراً كتاباً باللغة الفارسية زعم أنه أوحي به إليه. إلا أن بها فريد عدل في تعاليم زرادشت فدعا إلى ترك الزمزمة عند الطعام والامتناع عن الخمرة والميتة ونبذ عادة الزواج من الأقرباء المقربين. ودعا إلى مذهب الرجعة. كما أمر أتباعه بإعطاء سبع ما لديهم من مال لتصرف على خير الجماعة والأعمال العامة. ولعل رفضه لبعض تعاليم الزرادشتية هو الذي أوقعه في الخلاف مع رجال الدين المجوسي، لأنه اعتبرهم محرفين لتعاليم زرادشت. ويبدو أن أتباعه ازدادوا، إذ تؤكد رواية تاريخية فتقول "فتبعه خلق كثير من المجوس لما تنبأ ". مما دعا أبا مسلم الخراساني إلى إخماد حركته. ولعل رواج مذهب البهافريدية بين الفرس يعود إلى محاولة بهافريد التوفيق بين بعض مبادئ الإسلام والمبادئ الزرادشتية. وقد لقيت هذه المحاولة هوى في نفوس الفرس الذين أسلموا حديثاً. ومما يؤكد أن البهافريدية زرادشتية معدلة ما ذكره البغدادي في مقارنته بين الزرادشتية والبها فريدية من أن البها فريدية على ضلالتها أحسن من الزرادشتية. ويبدو أن البهافريدية لم تنته بموت بها فريد بل استمرت في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين.

وقد قامت في بلاد فارس حركات زرادشتية أخرى مثل :

- حركة إسحق الترك الذي هرب إلى بلاد ما وراء النهر وبث مبادئه هناك 137هـ/755م، واستمرت حركته حتى 140هـ/ 758م حيث استطاع والي خراسان خالد بن إبراهيم الذهلي القضاء عليه. وفي 150هـ/767م أعلن أستاذ سيس مبادئ حركة زرادشتية جديدة في خراسان تشابه – كما يقول الشهرستاني، البهافريدية وتعتبر استمراراً لها. وقد اشتد أمره على المنصور بعدما شملت حركته خراسان ثم امتدت إلى سجستان، وذلك يدل على أن مناطق عديدة من هذه الأقاليم ظلّت محافظة على ديانتها وتقاليدها الفارسية القديمة. أما المنصور فقد أرسل تعزيزات عسكرية جديدة إلى ابنه المهدي الذي كان معسكراً بالري، وقد عين المهدي خازم بن خزيمة التميمي قائداً للقوات المشتركة الذي استطاع بعد عدة معارك أن يقتل العديد من أتباع أستاذسيس ويأسره ويسلمه للمهدي الذي أرسله إلى الخليفة المنصور فأمر بقتله.

- أما الحركات الخرمية – أي المزدكية الجديدة– في بلاد فارس فلعل أهمها في مطلع العصر

العباسي حركة سنباذ وحركة المقنع الخراساني وحركة بابك الخرمي .

كان سنباذ من إحدى قرى نيسابور بخراسان، وقد أصبح من أتباع أبي مسلم الخراساني، إذ استقدمه معه 136هـ/ 754م حين أراد الحج، وقد ترك أبو مسلم قسماً من جيشه في الري ومعه بعض الخزائن، ويبدو أن سنباذ كان في ذلك الجيش. وحين سمع سنباذ باغتيال أبي مسلم ثار طالباً بثأره، وتلقب بلقب" بيروز أصبهبذ " أي القائد المنتصر. بدأ سنباذ حركته في نيسابور والمناطق التي حولها، وقتل واليها أبا عبيد الحنفي، وسيطر على خزائن أبي مسلم الخراساني. وهنا فكر أن يلعب لعبة سياسية يكسب بواسطتها أمير طبرستان " الأصبهبذ خورشيد" فأرسل جزءا من خزائن أبي مسلم إليه، وقد أرسل له الأصبهبذ مقاتلة يقاتلون في صفوفه، ثم انضم إليه العديد من سكان الديلم والجبال وطبرستان. ومما يجذب النظر كثرة الأتباع الذين ينضمون إلى مثل هذه الحركات حيث تشير مصادرنا التاريخية إلى أرقام تبلغ عشرات الألوف من سكان بلاد فارس، ولعل بعض هذه الأرقام مبالغ فيها، إلا أن حركة سنباذ وأمثالها كانت تجذب فئات عديدة من المجتمع في أقاليم المشرق.

لقد اختلف المؤرخون وكتاب الفرق في وصف تعاليم سنباذ، على أن أغلب الروايات تتفق على أنه كان خرمياً، أي مزدكياً جديداً. ويبدو من الشعارات التي طرحها محاولته التوفيق بين مبادئ إسلامية مغالية (متطرفة) ومبادئ مزدكية، وذلك يشير إلى محاولته كسب أكبر عدد مكن من الأتباع من عناصر إسلامية وغير إسلامية فكان يخاطب كل فئة باللغة التي تفهمها وتتفق مع عقيدتها. لقد بشر سنباذ بعودة أبي مسلم الخراساني، وبشر المجوس بأن حكم العرب المسلمين صائر إلى الزوال لا محالة، وأن دولة المجوس ستعود دون ريب. ووعد أتباعه بالذهاب إلى الحجاز وهدم الكعبة. ودعا الخرمية إلى التحالف مع حركات الغلاة، فلا فرق بين تعاليم الفئتين.

تحرك سنباذ نحو العراق واحتل الري ثم اتجه نحو همذان، فأرسل له المنصور جيشاً بقيادة جهور بن مرار العجلي والتقى الجيشان بين الري وهمذان في موقعة حاسمة أبدى فيها القائد عمر بن العلاء شجاعة فائقة وهرب سنباذ ملتجئاً إلى الأصبهبذ الطبرستاني الذي رحب به أول الأمر ثم قتله بعد مدة قصيرة، لأنه أصبح مبعثاً لإثارة المشاكل مع العباسيين.

وهكذا خمدت حركة سنباذ بعد أكثر من شهرين ونصف من وقوعها ولكن أتباعه استمروا كفرقة يطلق عليها " السنباذية" في بلاد فارس حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

- ولا تختلف حركة المقنع الخراساني عن الحركات الفارسية التي سبقتها من حيث تناقض المعلومات واقتضابها حولها. فالروايات تتناقض حول بدء الحركة ولعل أصحها أنها بدأت 159هـ/ 776م في ولاية حميد بن قحطبة الطائي لخراسان. كما أن الروايات لا تتفق حول اسم المقنع وربما كان الأصح أن اسمه (هاشم) وهو من سكان إحدى القرى القريبة من مرو عاصمة خراسان. ودخل المقنع في صحبة أبي مسلم الخراساني، وغدا أحد رؤساء الجيش ومن ضمن أتباع فرقة الرزامية التي تقدس أبي مسلم. وبعد مقتل أبي مسلم انضم المقنع إلى حركة عبد الجبار ابن عبد الرحمن الأزدي ضد العباسيين، فأُسر وسجن بعد فشل الحركة، ثم أطلق سراحه بعد مدة فعاد إلى مرو.

حين بدأ المقنع تعاليمه ، أكد على جملة مظاهر لعل من أبرزها إسباغ الغموض والقدسية على شخصيته، فقد اتخذ لباساً للوجه - أي قناعاً - ليغطي بها عيوبه، إذ تصفه بعض الروايات بالقبح، كما أنه كان أعور. وكان قناعه من الحرير الأخضر وفي روايات أخرى من الذهب، ومن هنا جاءت تسميته بالمقنع. وكان يحذر أتباعه من مشاهدة وجهه مدعياً أن نوره سيحرقهم لا محالة، وحين أصر بعضهم أمر المقنع برفع عدد من المرايا لتعكس أشعة الشمس وسلطها على هؤلاء الأتباع مناديا بأن هذا هو نور المقنع فخرّوا له ساجدين.

كما لجأ المقنع إلى استخدام السحر كوسيلة لجذب الأنصار، إذ استطاع أن يظهر بدراً في السماء من خلال انعكاس شعاع القمر. يقول القزويني إنهم وجدوا في قعر بئر إناء كبيراً مملوء زيبقاً يعكس شعاع القمر إلى السماء ثانية فيبدو للناظر وكأنه قمر آخر .

إن أول ما يلفت الانتباه هو أن المقنع من فرقة الرزامية، وهي فرقة قدست أبا مسلم، واعتقدت بحلول روح الإله فيه. ويرى الشهرستاني أن المقنع ادعى الألوهية لنفسه على مخاريق أخرجها، كما نادى المقنع بالحلول والتناسخ فقال: "إن الله خلق آدم في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة إبراهيم ثم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم إلى أبي مسلم الخراساني ثم إليه " وطالب أتباعه بالسجود له.

والمعروف أن الرزامية الفرقة التي ينتمي إليها المقنع فرقة من فرق الخرمية ذات الصلة الوثيقة بالمزدكية بل إنها تعتبر تطوراً لمبادئ مزدك، كما يؤكد ذلك كتّاب الفرق. فقد أباح المقنع لأتباعه الأموال والنساء وأسقط عنهم الفرائض، لأن الدين عندهم معرفة الإمام فقط. وادعى المقنع الرجعة، ولذلك ظل أتباعه ينتظرون عودته بعد انتحاره. وقد أعطى المقنع لأتباعه الحق بقتل كل من يخالفهم في المذهب وسبي نسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم،

وهي فكرة كانت موجودة في فرق الغلاة قبل المقنعية. على أن صديغي ومن بعده موسكاتي ومستشرقين آخرين أكدوا على وجود مبدأ التوفيق والمزج بين تعاليم مجوسية قديمة ومبادئ إسلامية (متطرفة) ويرى صديغي أن الحركة المقنعية إيرانية، لأن زعيمها من تلك البلاد وأن المسرح الذي ظهرت فيه هو بلاد فارس، ولأن أتباعها كانوا إيرانيين، ولأن أهدافها كانت تشابه إلى حد كبير أهداف حركات أخرى قبلها وبعدها. وقد أكد على هذه الصفة الأخيرة العديد من المؤرخين فأبرزوا تمسك المقنعية بالروح الإيرانية (المجوسية) تمسكاً كاملاً، وكذلك تعبيرها عن مقاومة بلاد فارس للسلطة العربية الإسلامية المتمثلة بالخلافة العباسية. كما تحالف مع المقنع كل المناهضين للسلطة العباسية مثل أمير بخارى بونيات ابن تفشاده وخاقان الترك والمبيضة الخرمية في بلاد ما وراء النهر .

بدأ المقنع يوجه هجماته إلى المسلمين من بلاد ما وراء النهر، وقد أدرك الخليفة المهدي خطورة حركته فأرسل جيشاً استطاع أن يكسر شوكته دون أن يهزمه، ولكن حين تسلم معاذ بن مسلم ولاية خراسان باشر161هـ/ 777م بتنظيم هجمات مركزة على المقنعية أنهكت قواهم فتراجع المقنع إلى حصن سنام وتحصن فيه. وفي أثناء الحصار الطويل تمكن قائد الجيش العباسي الجديد سعيد الحرشي أن يستميل عدداً من القادة في جيش المقنع الذي بقي يدافع عن نفسه مع زُهاء ألفين من أتباعه. ولما أدرك المقنع أن نهايته قريبة جمع أتباعه وأخبرهم بأنه سيختفي ليعود بعد فترة ليملكهم الأرض وما فيها. وقد ألقى بنفسه وعائلته في التنور فاحترقوا جميعاً، وكان ذلك 163هـ/779م. على أن المقنعية كباقي الفرق الفارسية استمرت في بلاد ما وراء النهر حتى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

- أما البابكية (نسبة إلى بابك الخرمي) فهي حركة خرمية أخرى بدأت في عهد الخليفة العباسي المأمون، بل إنها من أكبر الحركات الخرمية وأخطرها، فقد امتدت أكثر من عقدين من الزمان، وانتشرت في أذربيجان وأرمينية إلى رقعة واسعة من بلاد فارس. وقد لقب بابك بالخرمي من بين كل المتمردين الفرس على العباسيين الأوائل. ولعل ذلك يدعونا إلى الكلام عن أصل هذا الاصطلاح. والواقع أن المؤرخين يختلفون في أصل التسمية. فمنهم من يرى أنها مشتقة من خورامه زوجة مزدك التي دعت إلى تعاليم زوجها فانجذب الناس إليها فأطلق عليهم (خرم دينية)، ويعتقد آخرون أنها تعود إلى اسم منطقة في أذربيجان في حين يرى آخرون أنها تعني الفرح والتلذذ. وينفرد ابن الأثير برواية تقول أن خرم هو الفَرَح ويرمز إلى الإباحة والدعارة والاستهتار بالجنس. ويعتمد المستشرق

بونياتوف على تفسير لغوي بحت ويرى أن أصلها من النار وعبادتها عند المجوس. ولعل أقرب التفاسير إلى الصحة ذلك الذي تبناه الخرمية أنفسهم وهو أن التسمية جاءت من معنى الدين المُفرح الباعث على السرور. وكان المزدكية – كما يؤكد صديغي – يسمون في العصر الساساني (بالخرمدينيه) ثم اختصرت في العصر الإسلامي إلى (الخرمية) ويؤيد هذا التفسير العديد من المؤرخين المتقدمين.

بدأت سيرة بابك الخرمي مع هذه الفرقة منذ 200هـ/815م حين رشحته زوجة جاويدان الزعيم السابق للحركة لقيادة الحركة بعد وفاة زوجها مدعية أن زوجها قال أن روحه ستحل في بابك، فقبل الأتباع قولها واختاروه زعيماً لهم، ولعل فيما ذكرته زوجة جاويدان حين أعلنت وصية زوجها خير دليل على طبيعة الحركة وأهدافها. قالت: "إن بابك سيبلغ بنفسه وبكم أمراً لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وأنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية ويعز ذليلكم ويرتفع به وضيعكم" . فالبابكية تهدف إلى عودة المزدكية أو مذهب متطور عنها، وتؤمن بالحلول والتناسخ وبالرجعة وانتظار المنقذ كما تقول بإباحة النساء على الرضا منهن وإباحة كل ما يلذّ للنفس ويترع إليه الطبع. وقد طوّر بابك في الخرمية فجعلها تؤمن بشهر السلاح والقتل. يقول ابن النديم: "أحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة، ولم تكن الخرمية تعرف ذلك". وكان بابك الخرمي يحرض الفلاحين على قتل أسيادهم من ملاك الأرض، ولعل هذا هو الذي دعا بارتولد للقول بأن التراع يخفي تحته مسألة الأرض. ثم إن تحالفات البابكية مع الأمراء الفرس وغيرهم المعادين للعباسيين ومع البيزنطيين أعداء الدولة الإسلامية القدماء يوضح الهدف السياسي لهذه الحركة، ألا وهو إزالة سلطان الدولة العربية الإسلامية، إذ يشير المسعودي بوضوح إلى أن هدف بابك هو "إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها" .

اعتمد بابك في كسب الأتباع على الوعد والوعيد، فقد زرع الرعب في أنحاء أذربيجان وأرمينية والجبال وأطراف الجزيرة الفراتية، وأمر أتباعه بقتل المسلمين دون تفريق بين العرب والموالي وبين الرجل والمرأة، ونتيجة لذلك الوضع رضخ العديد إلى حركته رهبة منه. بدأ يحيى بن معاذ بن مسلم والي أرمينية الذي أناط به الخليفة المأمون مسؤولية الإجهاز على بابك الخرمي 204هـ/819م إلا أن جهوده وجهود قواد آخرين لم تثمر مع بابك، بل إن البابكية توسعت إلى أماكن عديدة، وكان بابك خلال الفترة الطويلة من نشاطه العسكري والسياسي ناجحاً في خططه وذلك حدا بالمأمون إلى قيادة الجهاد ضد البيزنطيين حلفاء بابك ليتحرى بنفسه عن الوضع

العسكري حيث أدرك أن ميشيل الثاني البيزنطي كان جاداً في مساعدة بابك بالمال والسلاح كما سمح لأتباع بابك بالاستفادة من الأراضي البيزنطية كملجأ لهم في حالة تعرضهم لهجوم عباسي. ورغم أن المأمون في المقابل استغل ثورة توماس الصقلبي في الأناضول ضد الإمبراطور البيزنطي وأعانه بالسلاح والمتطوعين العرب فإن ثورة توماس هذه لم تدم طويلاً فقد أخمدت 208هـ/823م. و لم تنته حركة بابك في عهد المأمون، وقد أوصى هذا الخليفة أخاه المعتصم بضرورة القضاء على البابكية بأي ثمن فقال: "... والخرمية فأغْزُهُمْ، ذا حزامة وصرامة واكنفه بالأموال والسلاح والجنود والفرسان والرجالة، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه". وقد استطاع المعتصم بما أوتي من كفاءة في أمور الحرب أن يقضي على بابك الخرمي 222هـ/ 836م.

ثالثا: حركات الخوارج في صدر دولة بني العباس:

الرأي السائد بين المؤرخين المحدثين أنها انتهت أو ضعفت لدرجة كبيرة في نهاية عصر الأمويين ومطلع عصر العباسيين. ومع أن هذا الرأي غير صحيح فإن له مبرراته العديدة التي منها قلة معلوماتنا التاريخية عن الحركات الخارجية بصورة عامة، وأن الموجود من هذه المعلومات مبعثر بين طيات الكتب. كما أن الحركات الخارجية تركزت في مطلع العصر العباسي في أقاليم بعيدة، مثل عمان وأفريقيّة وسجستان وأطراف خراسان فلم يهتم بها مؤرخو التاريخ الحولي العام مثل الطبري الذين ركزوا اهتمامهم على الأقاليم المركزية من الخلافة العباسية. ومما يزيد في تعقيد الأمر وغموضه الخلط في استعمال اصطلاح الخوارج بحيث أطلق على كل خارج على الدولة مهما كانت عقيدته ليس فقط للدلالة على الحركات الخارجية العقائدية بل يقول الأشعري إن اسم (خارجي) يطلق على كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة. ومهما يكن من أمر فإننا سنستعرض هنا الحركات ذات الصفة الخارجية في عقيدتها وخصائصها وقادتها، فالمعروف أن الخليفة الأموي مروان بن محمد كان قد كرس كل جهوده لقمع حركات الخوارج في الجزيرة الفراتية والعراق، وقد انسحب الخوارج من الجزيرة الفراتية ووصل قسم منهم بقيادة شيبان بن سلمة الحروري (الصغير) إلى خراسان وتحالفوا مع الدعوة العباسية، ولكن بعد نجاح العباسيين في خراسان دبروا هجوماً خاطفاً على شيبان الصغير وأتباعه الذين كانوا في غالبيتهم من ربيعة، وقتل شيبان وعدد ممن معه وهرب الباقون، فكان هذا أول صدام بين أنصار العباسيين والخوارج.

لقد نظر الخوارج إلى العباسيين على أنهم مغتصبون للخلافة التي يجب أن تكون شورى بين المسلمين كافة يتقلدها من هو جدير بها. وعلى هذا فلم تكد تنقضي سنة واحدة من عهد الخليفة أبي العباس حتى تحرك الخوارج في أقاليم عديدة :

- في الجزيرة الفراتية تحرك بريكة بن حميد الشيباني، وانضم إليه أمراء من بني أمية، فأرسل أبو جعفر عبد الله بن محمد العباسي والي الجزيرة الفراتية مقاتلاً العكي الذي استطاع القضاء على حركة بريكة وقتله.

- وفي أرمينية وأذربيجان تحرك مسافر بن كثير الشيباني الذي كان من أتباع الضحاك بن قيس الشيباني أحد زعماء الخوارج في أواخر العصر الأموي، وقد استطاع القائد العباسي محمد بن صول من القضاء على حركة مسافر وقتله مع عدد من أتباعه، وفر الباقون باتجاه سجستان.

- أما في عمان في الخليج العربي فقد استطاع الخوارج الإباضية تأسيس إمارة إباضية في السنة نفسها التي تأسست فيها الخلافة العباسية بالعراق. ومن الواضح أن طبيعة عمان الجبلية تؤهلها أن تكون معقلاً للخوارج، ثم إن امتداد الصحراء على حدودها الغربية يجعلها ملجئاً في حالة الخطر.

لقد أدرك العباسيون بعد وصولهم إلى الحكم أن الضرورة تقتضي السيطرة على النقاط الحساسة التي يمر بها الطريق البحري بين العراق والعالم الخارجي، وذلك من أجل تأمين سلامة المواصلات التجارية والعسكرية. من أجل ذلك عمل الخليفة أبو العباس على تطهير عمان من الخوارج، وقد أرسل حملة برية وبحرية بقيادة خازم ابن خزيمة التميمي. وقد اصطدمت الحملة العباسية أولاً بالصفرية بقيادة شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي كان قد انسحب إلى جزيرة ابن كاوان في الخليج العربي منذ أواخر عهد مروان الثاني الأموي، وقد اندحر الصفرية في المعركة ضد العباسيين وانسحبوا إلى ساحل عمان حيث نشب القتال بين الإباضية والصفرية، وانتهى باندحار الصفرية ومقتل شيبان اليشكري. وهنا تحرك القائد العباسي خازم التميمي ونزل على شاطئ عمان وطلب من الجلندي بن مسعود الأزدي الإمام الإباضي أن يعلن ولاءه للعباسيين، ولكن الجلندي الأزدي رفض ذلك، فما كان من القائد العباسي إلا أن هاجمه وقتله وأباد معظم جيشه في معركة ضارية. على أن المعركة لم تعط نتائج إيجابية بالنسبة للعباسيين فلقد استمر ولاء معظم أهل عمان للإمامة الإباضية وكانت سلطة الوالي العباسي اسمية، ولم تشمل الإقليم كله بل شملت مناطق الساحل والمدن الرئيسية فيه وبهذا اعترف العباسيون ضمنياً بنفوذ الإمامة الإباضية في داخل عمان .

وفي عهد الخليفة المنصور لم تخل الجزيرة الفراتية من عدة حركات خارجية كان مصدرها قبيلة شيبان، ففي 137هـ/755م تحرك الملبد بن حرملة الشيباني مع ربيعة وهزم روابط الجزيرة الفراتية والموصل. وكانت حركة الملبد تحمل كل خصائص حركات الخوارج، وقد انضم إليها البدو كما تجمع حولها الخوارج الذين توافدوا من أقاليم أخرى، فزادوا من أتباع الملبد الشيباني. وحين غدت الحركة خطرة بحيث شلت السلطة العباسية في الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان أرسل المنصور خازم التميمي ونظلة النهشلي الذين ميزا أنفسهما في معارك صد خوارج عمان. وتمكنا من قتل الملبد وكثير من أتباعه. وقد وقعت سلسلة من الحركات الخارجية القصيرة العمر في إقليم الجزيرة الفراتية وتعتبر حركة حسان الهمداني 148هـ/765م دليلاً آخر على الطبيعة البدوية للخوارج فقد بدأوا حركتهم في أطراف الموصل وضواحيها، ثم نهبوا أسواق الموصل وعاثوا فساداً رغبة في الغنيمة. ولكن الحركة اضمحلت حين تركه الكثير من أتباعه، وكذلك بعض فقهاء الخوارج بسبب عصبيته القبلية. وبسبب كثرة الخوارج في الموصل وضواحيها شاور المنصور عدداً من الفقهاء، مثل أبي حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة من أجل اتخاذ إجراءات رادعة وشديدة ضد أهل الموصل الموالين للخوارج، ولكن الفقهاء أقنعوه بالعدول عن رأيه، فعين خالد بن برمك لوضع الأمور في نصابها وقهر المفسدين.

- وفي إقليم أفريقيّة كانت الحركة الخارجية أكثر نشاطاً وفعالية بسبب بعد الإقليم عن مركز الخلافة واضطراب الحالة السياسية الداخلية فيه، فرغم إقرار العباسيين لعبد الرحمن بن حبيب الفهري والياً على أفريقية إلا أن علاقته ساءت بالسلطة المركزية فدعا أبو العباس إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة أبي عون الأزدي مدعومة بحملة بحرية. ولكن الحملة لم تتعد الإقليم المصري حين توفي أبو العباس فأوقفها المنصور بسبب حاجته إلى الجند والمال لدرء الأخطار القريبة على الخلافة. وقد نشب النزاع بين الرؤوس المتنفذة من آل الفهري بتحريض من العباسيين وأدى إلى فقدان العائلة للسلطة في أفريقية حيث حل محلهم الخوارج الإباضية والصفرية الذين تمركزوا في مناطق عديدة من أفريقية والمغرب. فقد انتخب إباضية المغرب – الذين كانوا على صلة وثيقة بمركز الإباضية في البصرة – أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إماماً لهم، وقد أعلن حركته بمساعدة القبائل البربرية لواتة وهوارة ونفوسة وزناتة 140هـ/757م، ثم استولى على القيروان 141هـ/758م فظهرت أول إمامة إباضية في القسم الغربي من الخلافة. وفي الوقت نفسه أعلن أبو قرة الصفري نفسه إماماً في

تلمسان. ومن أجل أن يضع حداً للوضع المتفاقم أرسل المنصور قائده محمد بن الأشعث الخزاعي 143هـ/761م الذي استطاع دحر الإباضية وقتل زعيم أبي الخطاب والاستيلاء على طرابلس ثم على القيروان التي حصنها وبنى معسكراً جديداً فيها تحسباً من هجوم خارجي جديد. وقد شجع عدم استقرار الحالة السياسية في أفريقية إلى محاولة الخوارج الإباضية بزعامة أبي حاتم يعقوب بن لبيب حصار القيروان ثانية وقد ساعدهم في ذلك الصفرية، فأسرع المنصور بإرسال قائده عمر بن حفص العتكي المهلبي(هزارمرد) 151هـ/768م الذي جلب معه جيشاً جديداً من المشرق ليكون سنده في السيطرة على الإقليم ومطاردة الخوارج. وقد نجح عمر بن حفص في دخول القيروان، ولكنه قتل في إحدى معاركه مع الإباضية 154هـ/771م، فعاد أبو حاتم الإباضي وسيطر على القيروان مرة أخرى. وفي الوقت نفسه انسحب عبد الرحمن بن رستم نحو الغرب، وتمركز في تاهرت حيث أعلن نفسه 160هـ/776م أول إمام إباضي هناك. وبهذا انتشر الخوارج في أفريقية والمغرب رغم إجراءات الخلافة العباسية، ولم يبق أمام الخليفة المنصور إلا إثارة الحماس الديني باسم الجهاد ضد الخوارج واختار لقيادة الحملة الجديدة قائداً مهلبياً آخر - هو يزيد بن حاتم المهلبي - مقدراً دور ال المهلب في مقارعة الخوارج في العصرين الأموي والعباسي الأول. كما صرف الخليفة بسخاء على الجيش الذي بلغ تعداده حوالي خمسين ألف مقاتل، وللتأكيد على أهمية الحملة رافقها المنصور إلى مدينة القدس بفلسطين. لقد استطاع يزيد المهلبي بعد معارك عديدة من القضاء على النفوذ الخارجي في أفريقية وقتل أبي حاتم الإباضي في معركة (طرابلس) في حين انسحب أتباعه إلى مناطق الجبال البربرية، وبعد أن دخل يزيد المهلبي القيروان 155هـ/ 772م قرر أن يتعقب الخوارج في الجبال، فأثخن في جبل نفوسة وبلاد هوارة. وقد تمتعت أفريقية خلال فترة ولاية يزيد المهلبي 155-170هـ/772-786م بالاستقرار النسبي والطمأنينة.

وقد شهد عصر المنصور وربما لأول مرة ظهور حركات خارجية في بلاد فارس، وخصوصاً في سجستان وخراسان. فلقد كان الخوارج المتواجدين في بلاد فارس قبل هذا التاريخ من العرب الذين انسحبوا أمام هجمات الخليفة مروان ابن محمد الأموي ولكن الحركة الخارجية بدأت تجذب إليها الموالي من سكان بلاد فارس المحليين لأسباب عديدة، لعل منها المذهب الخارجي الذي يدعو إلى الانتخاب والشورى بين المسلمين كافة أو لأنها حركة مناهضة للخلافة المركزية اعتبرها الموالي الفرس متنفساً للتعبير عن استيائهم من سياسة الولاة العباسيين. وقد عين المنصور معن بن

زائدة الشيباني ليضع حداً للفتن الخارجية في سجستان 151هـ/768م، ولكن معن الشيباني اغتيل من قبل الخوارج، ولما يمض على وجوده سنة. ثم شهدت سجستان حركة خارجية أخرى بقيادة عامر الشيباني حيث انضم إليها الكثير من سكان سجستان المحليين، لا بسبب ولائهم للعقيدة الخارجية بل لكون الحركة معارضة لسلطة العباسيين في الإقليم. ومع أن عامر الشيباني قتل بعد فترة وجيزة من خروجه فإن الحركة الخارجية ركدت لتستفحل ثانية في سجستان وأقاليم أخرى بعد مدة ليست بالطويلة.

ولم يخل عهد المهدي من الحركات الخارجية، ففي خراسان تحرك يوسف بن إبراهيم البرم160هـ/776م، فأمر الخليفة واليه على سجستان يزيد بن مزيد الشيباني الذي كان يجابه حركة خارجية أخرى هناك بزعامة يحيى الشاري بالتوجه إلى خراسان لقمع حركة يوسف البرم الذي هاجم سياسة العباسيين، واصفاً إياها بالجور، ورافعاً شعار الخوارج (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وقد توسع نفوذ البرم وشمل عدة مدن في خراسان وجرجان، وجذبت حركته أعداداً كبيرة من السكان المحليين، ودحر عددا من الحملات العسكرية التي أرسلت لقمع حركته. ولكن يزيد الشيباني استطاع أن يوجه ضربات مميتة للخوارج، وأسر يوسف البرم، ثم أرسل إلى بغداد. وفي السنة نفسها تحرك عبد السلام بن هاشم اليشكري في الجزيرة الفراتية وشمالي بلاد الشام متخذاً مقره في قنسرين. واستمر صراعه مع الخلافة سنتين دحر خلالها عددا من القادة العباسيين. وقد تبودلت الرسائل الشديدة اللهجة بين الخليفة وعبد السلام اليشكري دون جدوى، حتى استطاع القائد شبيب ابن واج المروزي من إدراكه وقتله في قنسرين. وتتابعت حركات الخوارج بالجزيرة الفراتية حيث شهدت خروج ياسين الموصلي، الذي هزم عسكر الموصل، ومد نفوذه إلى منطقة واسعة من إقليم الجزيرة الفراتية حتى تمكن منه القائدان محمد ابن فروخ وهرثمة بن أعين، فقتل وتفرق أتباعه. ثم تلاه في الإقليم نفسه حمزة بن مالك الخزاعي الذي تحرك 169هـ/ 785م، واستطاع أن يهزم جيش العباسيين في ضواحي الموصل بمساعدة أهلها. وقد أرسلت السلطة العباسية اثنين من مواليها الذين تظاهرا بالولاء له، ثم انتهزا الفرصة واغتالاه.

كان عهد الخليفة هارون الرشيد من العهود التي شهدت العديد من الحركات الخارجية التي شملت جهات مختلفة من الخلافة العباسية، فقد تحرك الصحصح الخارجي بالموصل 171هـ/ 787م، وظهر الفضل الخارجي في نصيبين 176هـ/792م، وتحرك العطاف بن سفيان الشاري في الموصل 177هـ/793م، واستفحلت حركته، وجبى مناطق عديدة فدعا ذلك الرشيد إلى

الأمر بهدم سور الموصل 180هـ/796م، وثار الوليد بن طريف الشاري 178هـ/ 794م في الجزيرة الفراتية، وتحرك حمزة بن عبد الله بن الأزرق الشاري في سجستان 180هـ/796م، وظهرت حركات خارجية أخرى في أطراف خراسان والجزيرة الفراتية، كما عادت الإمامة الإباضية في عمان إلى قوتها منذ حوالي 177هـ/793م. واستطاعت الصمود أمام النفوذ العباسي في ساحل عمان، كما صدت هجمات القراصنة. وتعتبر هذه الفترة عصر القوة والازدهار في تاريخ الإباضية في عمان حكم خلالها خمسة أئمة حتى 237هـ/ 851م.

أما في إفريقيّة فإن وفاة الوالي يزيد بن حاتم المهلبي 171هـ/787م كانت بداية النهاية لفترة الاستقرار والأمن، فعادت الخوارج الإباضية والصفرية إلى التحرك ثانية وهو ما دعا الرشيد إلى إرسال روح بن حاتم المهلبي 171هـ/ 787م الذي كان همه إقرار الأوضاع وتهدئة الحالة، فلم يستفز الخوارج، وهذا يعني أن العباسيين قبلوا بالأمر الواقع، وهو تقسيم أفريقية والمغرب إلى مناطق نفوذ عباسية وخارجية وإدريسية علوية. بل إن تعيين الرشيد 184هـ/800م لإبراهيم ابن الأغلب التميمي والياً على أفريقية كان يعني تنازل العباسيين عما لديهم من نفوذ في الإقليم. والذي يهمنا من الحركات الخارجية في عهد الرشيد حركتان أولاهما حركة الوليد بن طريف الشاري، والثانية حركة حمزة ابن عبد الله بن الأزرق الشاري.

أما الأول فقد تحرك في الجزيرة الفراتية 177هـ/793م أو بعد ذلك بقليل، رافعاً شعار إزالة الظلم والجور حيث أنشد يقول:

أنا الوليد بن طريف الشاري
ظلمكم أخرجني من داري

وامتدت حركته اتشمل أذربيجان بل إنه – على حد قول الأزدي – دخل أرمينية كذلك، وجبى القرى والمدن، وكان ولاة المدن يفدون مدنهم بالمال. وحين "اشتدت شوكته وكثر أتباعه" أرسل إليه الرشيد قائده يزيد بن مزيد الشيباني، وطال أمد الملاحقة، فأظهر أعداء يزيد الشيباني في بلاط الرشيد أنه يماطل ويراوغ، لأن الوليد الشاري من قبيلة القائد العباسي نفسها، فأرسل إليه الرشيد رسالة شديدة يستحثه فيها على طلب الوليد الشاري. ولم يستطع يزيد الشيباني أن ينقض على الوليد الشاري إلا في 189هـ/ 795م في منطقة تقع شمالي هيت على نهر الفرات، فقتله وجماعةً من أصحابه، وقد رثت الفارعة بنت طريف التغلبي أخاها الوليد بقصائد رائعة لا تزال مضرب الأمثال. أما الرشيد فقد اعتمر شكراً لله على ما بلاه وكفاه، كما استقبل يزيد الشيباني أحسن استقبال بعد عودته إلى بغداد.

أما الثاني (حمزة بن عبد الله الشاري) فقد تحرك في سجستان 179هـ/795م، وأعلن نفسه أمير المؤمنين 181هـ/797م، وحين أحس الرشيد باستفحال الحركة كتب إلى حمزة الشاري رسالة رد عليها حمزة الشاري برسالة جوابية. أما الخليفة فيدعو في رسالته حمزة الخارجي إلى كتاب الله وسنة نبيه ويعدّه خارجاً على الجماعة الإسلامية، وبعد أن يشير إلى تجاوزات حمزة وأتباعه يعده بالأمان وإعطائهم نصيبهم من الفيء والصدقات وتطبيق العدالة. ومعنى ذلك أن الخليفة يدرك أسباب التذمر في تلك الأقاليم ويتعهد بإزالتها، وأما جواب حمزة الخارجي فيعطي صورة واضحة لموقف الخوارج من العباسيين ويعبر عن آرائهم الدينية – السياسية في الخلافة وغيرها. يجيب حمزة الخارجي على النقاط التي أثارها الخليفة نقطة فنقطة حيث لم يترك حجة جاء بها الخليفة إلا ردّ عليها بحجة مضادة، فقد سمى نفسه أمير المؤمنين، ورفض الصلح والأمان الذي أعطاه الخليفة له، وبرر محاربته لعمال الخليفة بسبب سوء سيرتهم وفسقهم، رافعاً الشعار البراق الذي رفعته العديد من الحركات في تاريخ الإسلام وهو قوله تعالى: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير". فحركته، كما أكد هو، جاءت تعبيراً عن سخط العامة الذين استغلهم وابتزهم الولاة العباسيون، ويستبعد حمزة الخارجي تطبيق العدالة فيما يتعلق بالفيء والصدقات فيقول : " فأنّى ذلك وقد فقد المسلمون عطاياهم وأرزاقهم وصدقاتهم بعد الخليفتين رضي الله عنهما [يقصد أبا بكر وعمر] فصارت تؤخذ من غير موضعها وتصرف إلى غير أهلها، والله حسيب خلقه"، ويختتم حمزة الشاري رسالته بجملة نصائح ومواعظ إلى الخليفة، رافعاً شعار الخوارج " لا حكم إلا لله، يفصل بالحق وهو خير الفاصلين".

ومع انشغال الخليفة المأمون بالحرب مع أخيه الأمين فإن أواخر عهده لم يخل من بعض الحركات الخارجية في الجزيرة الفراتية حيث تداخلت الحركات الخارجية والحركات القبلية الصرفة خلال هذه الفترة، ولاشك أن اقتضاب المعلومات في مصادرنا عن هذه الحركات تجعل من الصعوبة بمكان ترجيح العوامل القبلية على العوامل العقائدية الخارجية في أي من هذه الحركات، ومهما يكن من أمر فإن حركة مهدي بن علوان الشاري كانت حركة خارجية وقعت في الجزيرة الفراتية 203هـ/818م رغم إثارتها العصبيات القبلية واستنجادها بالأنساب والأحساب. وقد استطاع أبو إسحق المعتصم أخو الخليفة إيقاع الهزيمة به. وفي 214هـ/ 829م، تحرك بلال الشاري، فوجه إليه الخليفة ابنه العباس الذي تمكن من إخماد حركته وقتله.

ولعل ما أوضحناه يؤكد أن الحركة الخارجية خلال العصر العباسي الأول لم تنته، بل إن بعضها أقلق الخلافة العباسية، وكلفها الكثير من الجهد والمال، ولاسيما في سجستان وعمان وأفريقية والجزيرة الفراتية. كما استمرت هجمات الخوارج المباغتة والعنيفة كما كانت في العصر الأموي وخصوصًا على المدن والقرى والحواضر، وكان أثرها النفسي بارزاً على الناس هناك.

رابعا: الحركات الموالية للأمويين:

المعروف أن أهل الشام فقدوا امتيازاتهم السابقة، وغدت بلادهم إقليماً من أقاليم الدولة بعد أن كانت مركزاً لها، وقد عبر أهل الشام عن عدم رضاهم بالوضع الجديد بعدة حركات شهدتها المدن في بلاد الشام، وقابلها العباسيون بالشدة حيناً وبالمساومة حيناً آخر.

ما إن زال الحكم الأموي حتى ظهرت آمال وتطلعات جديدة لدى أهل الشام بهدف استعادة الخلافة الأموية، لقد بانت هذه الآمال على شكل ملاحم وتنبؤات ترتبط بظهور ما يسمى "السفياني المنتظر" منقذ أهل الشام من العباسيين، أما البعض الآخر فكانت حركات سياسية صرفة قام بها رؤساء القبائل وشيوخها في بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية. فقد ثار حبيب بن مرة المري في البلقاء وحوران والبثنية وبايعته قبيلة قيس وما يليها من القبائل. فتوجه إليه والي العباسيين عبد الله بن علي العباسي وحاصره، ثم اضطر إلى مهاونته للتفرغ إلى حركة أخطر وهي حركة أبي الورد مجزأة بن كوثر الكلابي وأبي محمد السفياني التي وقعت في قنسرين وحلب، وانضمت إليهما حمص وتدمر. وفي المدينة الأخيرة تجمع الكلبية حول أبي محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية،وأعلنوا أنه "السفياني المنتظر" الذي سينقذ أهل الشام من محنتهم. وفي منتصف 132هـ/ 751م ظهر وكأن مستقبل الحركة براقاً بعد اتفاق أبي محمد السفياني وأبي الورد الكلابي على تكوين جبهة موحدة حتى انتشرت الحركة في دمشق والبلقاء وقنسرين وحمص وحلب وتدمر وغيرها. لقد بدا للخليفة أبي العباس أن بلاد الشام بأجمعها انتفضت في وجه العباسيين فأسرع بإرسال تعزيزات جديدة من العراق بقيادة عمه عبد الصمد بن علي إلى واليه عبد الله بن علي العباسي. وبعد معارك عديدة كان القتال فيها سجالاً بين الطرفين، انتصر العباسيون في معركة (مرج الأخرم) في آخر 132هـ/ تموز 751م. وقد قُتل أبو الورد في المعركة في حين انسحب أبو محمد السفياني إلى تدمر ثم هرب إلى الحجاز، ولكنه أدرك وقُتل.

وكان لهذه الحركة عواقب سياسية بعيدة المدى تعدت بلاد الشام إلى الجزيرة الفراتية، فقد تجمع أنصار الأمويين حول إسحاق بن مسلم العقيلي "فبيّضوا" ونقضوا في الرقة وقرقيسيا والرها

وسميساط ودارا. وانضم إليهم البدو المستعدون للانضمام إلى أية حركة مهما كانت صفتها، كما أن تأييد محمد بن مسلمة بن عبد الملك للحركة ساعد على تزايد الأتباع الموالين لبني أمية، وقد أصبح والي الجزيرة الفراتية أبو جعفر عبد الله بن محمد العباسي في وضع حرج، فطلب تعزيزات من الخليفة الذي استجاب له، كما كتب الخليفة إلى والي الشام عبد الله بن علي العباسي بالسير بجنده لقتال إسحاق العقيلي، ولكن حركات الجزيرة الفراتية الموالية للأمويين كانت غير منظمة "وأمرهم مشتت ليس عليهم رأس يجمعهم" وقد صمد إسحق العقيلي ستة أشهر محاصراً في سميساط، ثم طلب الأمان بعد أن علم بقتل مروان بن محمد الأموي فأجابه أبو جعفر عبد الله، ثم اصطنعه فأصبح من صحابته المقربين.

وقد حدثت حركات أموية أخرى منها حركة العباس بن محمد السفياني وأبان بن معاوية المرواني في حلب وسميساط على التوالي، إلا أنها كانت ضعيفة بالمقارنة مع الحركات التي سبقتها حيث قضى عليها الوالي العباسي بسهولة. وتعتبر حركة عبد الله ابن علي العباسي (136هـ/753م)، في جانب من جوانبها، حركة أهل الشام ضد السلطة العباسية. فهي حركة من حركات أهل الشام ليست في موقعها الجغرافي فحسب، بل في العناصر التي شاركت فيها كذلك، ويظهر من رواية البلاذري أن أغلب القواد والشيوخ الذين ساندوا عبد الله العباسي والي بلاد الشام كانوا من أهل الشام الذين عملوا مع مروان الأخير. في وقت كان موقف أهل خراسان في جيشه معاكساً تماماً، إذ حذروه من الفتنة والانشقاق ونتائجهما السيئة على الدولة العباسية. ويبدو أن كلاًّ من عبد الله بن علي العباسي وأهل الشام حاول أن يستغل صاحبه لتحقيق أهدافه، فكان هدف عبد الله العباسي الوصول إلى الخلافة في حين كان هدف أهل الشام إعادة امتيازاهم السابقة وهدم الدولة العباسية. وكان على عبد الله العباسي أن يدرك أنه من الخطأ الاعتماد على أهل الشام لتحقيق مطامح عباسية. وكان الانقسام واضحاً منذ البداية بين أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة الفراتية في صفوف جيش عبد الله بن علي العباسي، وحين زادت شكوكه في أهل خراسان أمر بقتل عدة آلاف منهم، وقد أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور عدة جيوش لقتال عبد الله بن علي العباسي، ففي البداية أرسل أبا مسلم الخراساني ومعه أهل خراسان، ثم أمر الحسن بن قحطبة الطائي بقيادة جيش آخر لتعزيز أبي مسلم الخراساني ومساندته. ووزع الخليفة كتائب من الجند في النقاط الاستراتيجية على طول الطريق من العراق إلى بلاد الشام. وقد استمرت الحرب سجالاً بين الطرفين قرابة أربعة أشهر، هرب خلالها

العديد من أهل خراسان من جيش عبد الله بن علي. وفي معركة نصيبين الحاسمة اندحر أهل الشام، و لم ينتظر عبد الله بن علي لجولة أخرى، بل هرب بصحبة بعض أعوانه والمقربين إليه إلى البصرة، ملتجئاً إلى واليها أخيه سليمان بن علي العباسي حيث حصل على الأمان، ولكنه سجن ومات في ظروف غامضة 147هـ/ 764م.

واستمرت حركات الأمويين في عهد الخليفة المهدي العباسي حين تحرك 165هـ/ 781م دحية بن مصعب بن الأصبغ المرواني في صعيد مصر واستمرت حركته حتى 169هـ/ 785م فاستطاع أن يكسب قبائل تجيب والأزد إلى جانبه. وقد تمكن الفضل بن صالح بن علي العباسي في عهد الخليفة الهادي أن يقضي على الحركة ويصلب قائدها في جمادى الثاني من السنة المذكورة سابقاً. أما سبب استمرار الحركة مع فقدان عنصر الانسجام بين عناصرها فيرجع إلى ضعف السلطة وسوء سيرة الولاة في مصر الذين كانوا يفتقرون إلى تأييد فئات المجتمع والفقهاء، وكذلك قادة الجيش .

وفي عهد الخليفة الرشيد استمرت الحركات السياسية الموالية لبني أمية في بلاد الشام، حيث هاجت الفتنة في دمشق في السنوات 174هـ / 792 م و 176 هـ / 793م و180هـ/796م، وهو ما دفع الرشيد إلى تعيين جعفر البرمكي والياً على بلاد الشام، ثم تجددت الفتن 187 هـ / 802 م و 190- 191هـ/ 806-708م.

وفي عهد الأمين ظهرت194هـ/ 809م حركة سفيانية جديدة بقيادة علي ابن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب (بالعميطر) الذي تعصب لليمانية. وكان يقول: أنا ابن شيخي صفين، لانتسابه إلى العلويين من جهة الأم وقد ادعى أصحابه أنه "مهدي الله". كما تحرك في عهد المأمون سفياني آخر هو سعيد بن خالد الأموي، وادعى الخلافة لنفسه وساندته اليمانية.

وهكذا استمرت الحركات السياسية ذات الولاء الأموي جنباً إلى جنب مع الحركات الدينية السياسية المرتبطة "بالسفياني المنتظر" حتى فقدت مغزاها وأثرها، وبقيت معروفة في طيات الكتب والملاحم والقصص الشعبية. ومع أن حركة التشيع للأمويين في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي لا تدخل ضمن نطاق هذا البحث نود القول بأنها استمرت وظهرت في فرق وجماعات جديدة مناوئة للعباسيين، مثل "النابتة" وفئات من الحنابلة. وقد هاجم الجاحظ هؤلاء في العديد من كتاباته، واتهمهم بالمروق عن الدين والتمادي في الخطأ. وقد همّ الخليفة المأمون أن يصدر منشوراً 211هـ/ 826م بلعن معاوية، ولكن القاضي يحيى بن أكثم حذره من خطورة هذا القرار، لأنه

سيثير عواطف الناس وأحاسيسهم، بل إن ما أشار إليه المسعودي من اطلاعه على كتاب في طبرية 324هـ/935م عنوانه (البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوي من فضائلهم) يدل على أن مؤيدين لبني أمية ما زالوا متواجدين على المسرح السياسي.

لا بد أن نشير في ختام كلامنا عن الحركة الموالية للأمويين في مطلع العصر العباسي إلى أن الحوادث التي وقعت في بلاد الشام، مثل مجزرة نهر أبي فطرس، حيث قتل عدد من الأمراء الأمويين بإيعاز من والي العباسيين على بلاد الشام وغيرها، والتي تدل على تعسف العباسيين ونزوعهم إلى الشدة وقعت خلال الفترة الانتقالية حين كانت دولة العباسيين فتية لم تثبت جذورها بعد. ولكن ما إن هدأت النفوس حتى استعادت ذكرى الأمويين حيويتها في نفوس وألسنة أنصارهم ومواليهم الذين كانت أصواتهم مسموعة في البلاط والمجتمع، فقد كان الخليفة المنصور لا يخفي إعجابه بشخصية بعض خلفاء بني أمية وكان يرى أن هشام بن عبدالملك أفضلهم "وكان رجلهم هشام" بسبب كفايته الإدارية. ثم إن هذا الوجه من سياسة العباسيين الذي يتصف بالمرونة تجاه الأمويين يمكن ملاحظته في كتابات ابن المقفع، وهي أكثر الكتابات معاصرة لهذه الفترة، فعبد الله ابن المقفع في رسالته في الصحابة يشير على الخليفة المنصور بضرورة كسب فئة من الأمويين والاعتماد عليها. يقول بن المقفع: "أما أهل الشام فإنهم أشد الناس مؤونة، وأخوفهم عداوة وبائقة، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة، فمن الرأي أن يختص أمير المؤمنين منهم، خاصة من يرجو عنده صلاحاً، أو يعرف منه نصيحة ووفاء، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم، فقد رأينا أشباه أولئك من أهل العراق الذين استدخلهم أهل الشام... وأما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم فلَعَمْري لئن أخذوا بالحق و لم يؤخذوا به إنهم لخلقاء ألا تكون لهم نزوات ونزقات".

إن ما يذكره ابن المقفع لم يكن بالإمكان الإشارة إليه من قِبَلِ كاتب لولا أن الظروف السياسية تحبذ هذا التقارب نحو الأمويين. ثم إن محاولات الجاحظ المقارنة بين إنجازات الأمويين والعباسيين يدل بوضوح على أن الأمويين كانوا لا يزالون يتمتعون بشهرة ومنزلة بين الناس إلى درجة أن "الأمويين في غير سلطانهم أعظم كبرياء من بني هاشم في سلطانهم" على حـ قول الجاحظ.

وإذا كانت الحركات التي أشرنا إليها سابقاً قد اتخذت السلاح وسيلة في مناهضتها للخلافة العربية الإسلامية في مطلع العصر العباسي، فإن هناك حركات أخرى استعملت القلم والفكر

بدل السلاح في صراعها مع الخلافة وما تمثله من قيم اجتماعية ومثل دينية وأفكار سياسية ونظم وأساليب متنوعة، ومن هذه الحركات الفكرية الاجتماعية حركتي الشعوبية والزندقة.

خامسا: الشعوبية :

الشعوبية حركة قامت بها جماعات أعجمية بهدف ضرب الكيان العربي – الإسلامي من خلال ثقافته وإرثه الحضاري، وذلك بالتقليل من شأن اللغة العربية، ومهاجمة التراث العربي الإسلامي، والتشكيك بدور العرب التاريخي، والاستهزاء بالقيم والمثل العربية مقابل الاعتزاز بالإرث الحضاري الأعجمي، والتمجيد بالقيم والسجايا غير العربية وإحياء الثقافات الأعجمية. ولما كانت العروبة والإسلام صنوين مترابطين خلال القرون الإسلامية الأولى، لم تهمل الشعوبية الإسلام، فحاولت بث روح التشكيك في قيمه الجديدة، ونشر روح الاستخفاف والاستهتار عموماً تحت ستار الظرف والمجون. لقد كانت القضية المركزية في هذا الصراع الجديد هو أن إنشاء المجتمع وتطوره يتطلب من وجهة نظر الشعوبيين إدخال النظم والأساليب الساسانية في الإدارة وتشجيع الأفكار والآراء الأعجمية في الثقافة في حين أكدت النظرة العربية الإسلامية على جدوى التراث العربي وفاعلية اللغة والثقافة العربية الإسلامية وإمكانية استيعابها للمنسجم والقابل للهضم من الإرث الأعجمي، وهكذا كانت الحركتان متضادتين تستندان على أرضية فكرية متناقضة.

لقد مرت الشعوبية بمرحلتين كانت في المرحلة الأولى نزعة غير منظمة ومستترة وراء شعار "أهل التسوية"، امتدت هذه الفترة من أواخر عصر الأمويين حتى مطلع عصر العباسيين، وكان لا بد لهذه الحركة أن تستتر باسم الدين خاصة وبأن التفوق كان لا يزال للعرب بسبب الدور التاريخي الفعال الذي يقومون به. ثم بدأت الشعوبية في مرحلتها الثانية تتضح من حيث طبيعتها العنصرية وأهدافها الهدمية، ولم يكن وضوحها واشتداد هجماتها بسبب اتجاه الخلفاء نحو الثقافة والنظم الأعجمية، بل بسبب خيبة أمل الفئات الأعجمية التي توقعت أن يتوجه العباسيون بزخم شديد نحو النظم والثقافة الساسانية، وهو الأمر الذي لم يعرف عن الخلفاء العباسيين الأوائل، وبمعنى آخر فإن استمرار اعتماد العباسيين على العرب أدى إلى رد فعل عنيف وجهد منظم لمسخ التراث العربي الإسلامي واستبداله بتراث أعجمي، فارسي على وجه الخصوص رغم توسيع قاعدة اعتمادهم لتشمل غير العرب، واستمرار اتجاههم نحو الثقافة والإرث العربيين رغم تذوقهم للمنسجم والمتفق مع القيم العربية والمبادئ الإسلامية من الإرث غير

العربي وهنا تبدو الشعوبية على طبيعتها العنصرية الحقيقية.

وتجاه النجاح الذي حققته العربية- لغة السياسة والإدارة والثقافة - بدأ المثقفون الأعاجم محاولات جادة للحفاظ على لغتهم وإبراز إرثهم الحضاري، وكان رأس الرمح في هذه المحاولات هم الفرس، إذ حاولوا ترجمة التراث الفارسي الأدبي إلى العربية، مؤكدين على التاريخ والثقافة الفارسية، محاولين إظهارهما بمظهر المتفوق على التاريخ والتراث العربي. كما ابتدعوا مؤلفات جديدة نسبوها إلى كتاب قدماء أو أسطوريين، أظهروا فيها أهمية العجم، ومجدوا دورهم الحضاري. وقد تطور الصراع ليصبح صراعاً عنيفاً لتقرير مصير الثقافة العربية الإسلامية، ويعبر عن هذه المرحلة المستشرق جب بقوله: "وتأصل النزاع بين التراثين العربي والفارسي حتى مس الجذور، فلم يكن جوهر النزاع مسألة سطحية تتناول الأساليب والأشكال الأدبية، إنما كان جوهره يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامي الجديد برمتها". فقد كان هدف الشعوبية يرمي إلى صياغة نظم الدولة الاجتماعية والسياسية والروح الداخلية للثقافة الإسلامية، على مثال النظم والقيم الساسانية التي كانت تمثل عندهم ذروة الحكمة السياسية.

لقد ركزت الشعوبية في هجومها على مظاهر بارزة كان أولها: التراث الأدبي العربي من شعر ونثر وأمثال وحكم، وقد انتقصت من هذا التراث وشككت فيه، ونحلت الشعر الركيك ونسبته إلى العرب. وقد ردّ العديد من الكتاب على الشعوبية، فاعتبر الثعالبي معرفة العربية وتفهمها من الديانة، ووصفها التوحيدي وصفاً دقيقاً في استعاراتها البديعة واختصاراتها البليغة، بل إن بعض المفكرين ذهبوا أبعد من ذلك فاعتبروا اللغة نسباً أهم من رابطة الدم. وكان التاريخ العربي ثاني هذه المظاهر، فادّعت بأن ليس للعرب تاريخ قبل الإسلام، إذ كانوا بدواً غير متحضرين، وانتقصت من إنجازاتهم بعد الإسلام، فانبرى أنصار العروبة يبرزون تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، مؤكدين وحدة التاريخ العربي ثقافياً وسياسياً، ودورهم في الفتوح والإدارة والسياسة. وامتدح الجاحظ العرب قبل الإسلام ووصفهم بصحة الفطرة، وأضاف: ".. لم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة، و لم يستغنوا الغناء الذين يورث البلادة والثروة التي تحدث الغرة، و لم يحتملوا ذلاً قطُّ، فيميت قلوبهم أو تصغر عنده أنفسهم". بل أبرز الجاحظ في كتاباته الأمة لا القبيلة، وأن هذه القبائل ما هي إلا مظهر من مظاهر الأمة الواحدة التي لها خصائص مشتركة. وهاجمت الشعوبية مظهراً ثالثاً هو أنساب العرب مدعية أنها أنساب أسطورية، فكتب أنصار العرب مجلدات ضخمة حول الأنساب، لكي يحفظوها للأجيال ويوضحوها للمعاصرين.

ولكن الذي يدل على سماحة العروبة ومرونتها هو أنها اتخذت اللغة والثقافة لا النسب أساساً للانتماء إلى العروبة. وأخيراً زليس آخراً هاجمت الشعوبية الإسلام وهو العقيدة التي حمل مسؤولية تبليغها ونشرها العرب على ما جاء في قوله تعالى "وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون".

ويشخص الجاحظ ظاهرة الترابط بين العروبة والإسلام تشخيصاً ذكياً فيقول: " فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله.. إذ كانت العرب هي التي جاءت به (الإسلام) وكانوا السلف" .

لقد أدرك أنصار العروبة من الكتّاب أن الخطر الذي ولدته الشعوبية لا يكمن فقط في تغذية روح الحقد والكراهية بين عناصر المجتمع الإسلامي الواحد، بل فيما ولدته من شك واستهتار بالقيم الاجتماعية والتراثية لدى الناس ولا سيما المثقفين منهم. ولم يقف أنصار العروبة مكتوفي الأيدي ينتظرون ما تقوم به الدولة، بل أخذوا زمام المبادرة في الرد على الشعوبيين، وبذلوا جهوداً كبيرة في مجال الفكر والتأليف ، مستخدمين كل الوسائل الممكنة بأسلوب عصري أكثر إقناعاً من الجدل الشعوبي المغالى فيه. وهكذا نشأ أدب عربي إسلامي موافق لمتطلبات العصر. ولعل أبرز من نجح في ذلك هو الجاحظ، ذلك المثقف المعتزلي المتسلح بالمنطق وأساليب الجدل اليونانية، فدحض تقولات الشعوبية، مبرهناً في الوقت نفسه على مدى ثراء موارد التراث العربي في العلوم الإنسانية, مظهراً زيف وبطلان حركة التشكيك في تراث العرب ودورهم في التاريخ وعدم جدوى الموقف الساخر الذي يقفه الكتاب الأعاجم من قيم العرب ومثلهم. وهو موقف إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تعصبهم وضيق أفقهم وسلبيتهم.

وجاء ابن قتيبة ليكمل جهود الجاحظ فزود مثقفي عصره بمقتطفات مما يحتاجون إليه من المعارف الإنسانية، متبعاً طريقة الجاحظ المرنة والتوفيقية بإدخاله في مختاراته بعض مظاهر التراث غير العربي الذي ينسجم مع التراث العربي الإسلامي ويعتبر ذا قيمة عملية في الثقافة والإدارة.

ويصف المستشرق جب نهاية الشعوبية وفشلها بقوله: " وغمر الجاحظ بما كتبه من سعة أفق وقوة عارضة ما كانت تصدره مدرسة الكتاب (الشعوبيين) من سقط المتاع في الأدب.. وقد علم الجيل الجديد كيف يوسعون أفقهم ويجربون الموضوعات والأساليب الجديدة.. وكان أدب الجاحظ موضع إقبال شديد من الجمهور ومن المشايعين لكتاب (الشعوبيين) أنفسهم. وصمد الشعوبيون في موقفهم عقداً أو عقدين، ولكنهم اضطروا في النهاية إلى الاعتراف بأن العلوم العربية

الإنسانية قد انتصرت، وأن وظائفهم تتطلب منهم على الأقل معرفة عابرة بالتراث العربي".

سادسا: الزندقة :

اختلف الباحثون في مدلولها اللغوي ولعل أقرب التفاسير إلى القبول هو أن الكلمة إما معرّبة عن (زنديك) الفارسية، التي تعني الشخص الذي انحرف عن الأفستا – كتاب الزرادشتية المقدس- واتبع الزند وهي شروح جديدة للأفستا، أو أنها مشتقة من (صديقين) الآرامية وهو اصطلاح يدل على الزهاد التي اتبعوا الديانة المانوية. وسواء كان أصل الكلمة فارسياً أو آرامياً فإن الاصطلاح يعني من الناحية التاريخية المانوية الجديدة التي ظهرت في القرون الإسلامية الأولى، وهذا التعريف ينطبق على المفهوم الرسمي للزندقة الذي استخدمته السلطة العباسية في مطلع العصر العباسي ليدل على من يعتنق المذهب المانوي. على أن اصطلاح الزندقة شمل أحياناً مفاهيم أخرى لها دلالات مختلفة، فقد شمل الظرفاء والمجان والخلعاء، كما شمل المشككين والدهريين الذين لا دين لهم، كما شمل أيضاً بعض أهل الكلام ومستقلي التفكير. وهؤلاء كلهم لم يكونوا زنادقة بمعنى المانوية، بل إن الأسباب الحقيقية وراء اتهامهم بالزندقة تعود إلى دوافع سياسية ودينية أو عداوات شخصية، إلا أن كل ذلك لا ينفي وجود حركة فكرية منظمة ينادي أصحابها بنشر مذهب المانوية بكل ما يحويه من عقيدة وتراث، باعتباره بديلاً للإسلام والتراث العربي، ومن هنا جاءت خطورته على المجتمع الإسلامي.

إن الرفاهية الاقتصادية والاستقرار السياسي النسبي والتفاعل مع الثقافات الأجنبية وتساهل الخلافة وتسامحها مع الديانات الأخرى، كل ذلك أدى إلى ظهور حلقات من المثقفين المعجبين بالحضارات الأعجمية—خوصًا الساسانية- ومثلها الداعون إلى اتخاذها مثالاً يحتذى به في المجتمع. وكان من أهداف هذه الحلقات إشاعة آراء وقيم غير عربية وغير إسلامية، والدعوة إلى إحياء الثقافة الفارسية وعقائدها – ومنها المانوية- وكانت هذه الحلقات متماسكة وذات آراء مشتركة وأهداف متماثلة، تعمل من خلال النشر على ترويج آرائها والدعاية لها. وضمن هذا المخطط الفكري ألّف مفكرو المانوية الجدد الكتب داعين لمذهبهم حتى غدت أدبيات المانوية كثيرة ومكتوبة بلغات عديدة، مثل الفارسية والعربية والسريانية. لقد حثت المانوية الثنوية الناس على الاعتقاد بوجود إلهين: إله الشر وإله الخير، ودعتهم إلى الزهد والتقشف من أجل أن يسود السلام بين البشر، وأنكرت الديانات السماوية -ومنها الإسلام- غير معترفة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا برسالته، كما حاول الزنادقة وضع كتاب يشبه القرآن، وتعرضوا للقرآن من حيث

الأسلوب والمحتوى وتعارض الأفكار. ويذكر المسعودي وابن النديم العديد من الكتاب الذين ألفوا في الدفاع عن المانوية، ولكن الجاحظ هاجم كتبهم قائلاً: " لا تفيد علماً ولا حكمة، وليس فيها مثل سائر ولا خبر ظريف ولا صفة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية". وربط الجاحظ في أكثر من مناسبة بين أهداف الزندقة والشعوبية.

لقد شعرت الخلافة العباسية بخطورة حركة الزندقة دينياً وسياسياً واحتماعياً، وبضرورة ضبطها وتقييدها، فدعت إلى حملة نشطة وقوية تدعمها الدولة لمجابهة الزنادقة، وكتب الفقهاء والمحدثون والعلماء رسائل عديدة لا نعرف إلا بعضها في الرد على الرنادقة المانوية. وكان لإبراهيم بن النظام وأبي الهذيل العلاف مساجلات حامية مع يزدان – بخت من رؤساء الزنادقة.

وقد بدأت في عهد المهدي العباسي أول حملة منظمة ضد الزندقة، يقول اليعقوبي: "كان قصده (أي المهدي) قتل الزنادقة، وذلك لأنهم قد كثروا، وانكشف أمرهم بوضوح مما ترجمه ابن المقفع من كتب ماني الثنوي وكتب ابن ديصان الثنوي وغيرهما. ومما وصفه ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس، وملأوا الأرض به من كتب الملحدين. وكثرت الزنادقة، وفشت كتبهم بين الناس، وكان أول خليفة أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد". وقد أنشأ المهدي (ديوان الزنادقة) وبلغت عملية المطاردة ذروتها 166هـ/ 782م واستمرت بصورة منتظمة حتى أيام المأمون. وقد حث المهدي ابنه وولي عهده الهادي على تعقب الزنادقة قائلاً له: " يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة، فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة..ومع أن الهادي تعهد بإبادة هذه الفرقة بقوله: " لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها، حتى لا أترك منها عيناً تطرف". فإنه لم يعش طويلاً لتنفيذ وعده، فلم يصلب، إلا يزدان بن باذان بالزندقة. وأما الرشيد فقد استثنى الزنادقة من الأمان الذي أصدره 170هـ/ 786م. أما المأمون فقد استخدم أسلوب المناظرة العقلية والدعاية الفكرية ضد الزنادقة، واستدعى رئيسهم يزدان –بخت إلى البلاط ودعا الفقهاء والمتكلمين لمناظرته. وهكذا عملت الدولة العباسية بمختلف الأساليب في مجابهة الزندقة خلال العصر العباسي الأول .

إن خطر الشعوبية والزندقة على الدولة والمجتمع كان مترابطاً، فكلما اشتد خطر الشعوبية

على العروبة زاد خطر الزندقة على الإسلام. على أن مآل الحركتين كان إلى زوال بسبب ثراء التراث العربي الإسلامي الذي استند إليه المفكرون والفقهاء والمؤرخون والأدباء في تصديهم للأفكار والقيم التي حاولت الزندقة والشعوبية بثها في المجتمع.

4) العلاقات الخارجية للخلافة العباسية

مقدمة :

لعل أهم ما يميز سياسة العباسيين الأوائل الخارجية أنها – بصفة عامة باستثناء عهدي الرشيد والمعتصم –كانت سياسة تعتمد على السلم لتوفير الأمن والاستقرار للمجتمع العربي الإسلامي. لعل هذا الفارق في المجهود الحربي بين الدولتين الأموية والعباسية يعود إلى جملة عوامل: منها إدراك العباسيين أن رقعة دار الإسلام قد بلغت أوسع مداها، وأن عليهم أن يحافظوا على توسيعها، ومن ناحية ثانية اهتم العباسيون بالأقاليم الشرقية أكثر من الغربية والشمالية من دولتهم، ذلك لإدراكهم بأن ضمان الاستقرار في أقاليم المشرق وخصوصا إيران يعني ضمان الأمن والازدهار في العراق مركز سلطتهم ومقر عاصمتهم بغداد، ومن هنا نلاحظ أنهم بذلوا جهودا في القضاء على العديد من الحركات في أقاليم بلاد فارس المضطربة خلال العصر العباسي الأول. ومع ذلك فإن روح الجهاد ومظاهره ظلت مستمرة، ذلك لأن الجهاد من أهم واجبات الخليفة فكان عليه أن يجهز الصائفة والشاتية سنويا، ويعمل ما في وسعه لتوسيع رقعة دار الإسلام.

أولا : العلاقة مع الروم البيزنطيين:

في رسالة كتبها نيقولا مستيكس– بطريرك القسطنطينية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي– أشار إلى أن "دولتي العرب والروم ظاهرتان على العالم كله، تمتازان وتتألقان كالشمس والقمر في القبة الزرقاء، ولا مندوحة أن نعيش معاً كالأخوة على الرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين". ولعل هذه الرسالة توضح الموقف البيزنطي (الرومي) الذي غدا مقتنعاً –سواء كان من جانب الدولة أو الكنيسة– بأن محاولة استعادة ما فقدوه من أرض في بلاد الشام ومصر أصبحت مستحيلة وأن عليهم إتباع سياسة التعايش السلمي — على قدر الإمكان — مع الدولة العربية الإسلامية .

وفي المقابل كان الجانب العربي الإسلامي المتمثل بالخلافة العباسية في بغداد قد تبنى الاعتقاد نفسه، فقد بدت السياسة العباسية السلمية واضحة في مواقف الخلفاء العباسيين الأوائل الذين أدركوا أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية قد تغيرت عما كانت عليه في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وأن المقاتلة العرب المسلمين –وهم القوة الضاربة في الجيش العباسي في تلك الفترة – لم

يعودوا – كما كانوا من قبل – مندفعين للحرب، بل إن استقرارهم في الأقاليم المفتوحة واختلاطهم بالسكان المحليين جعلهم أكثر تقبلا للاستقرار والاتجاه نحو ممارسة المهن المدنية كالتجارة والحرف والزراعة. وقد سايرت الدولة العباسية هذا الاتجاه، وتقبلته، وأصبحت مهمتها الرئيسة الدفاع عن المكتسبات التي حققتها الخلافة الراشدة والأموية والحفاظ على (دار الإسلام)، وبمعنى آخر كانت سياستها في الأعم الأغلب دفاعية وليست هجومية

ومن هنا كان موقف أبي حنيفة النعمان ابن ثابت (ت151هـ/768م) متمشيا مع هذه السياسة، إذ أكد على روح المرونة والتسامح تجاه أهل الديانات السماوية السابقة، ونصح خلفاء الأمة بأن شن الحرب يكون في حالة واحدة، هي إذا ما بدأ سكان (دار الحرب) القتال ضد المسلمين واعتدوا عليهم .

غير أن هذا الموقف الذين تبنته الدولتان العباسية والبيزنطية لا يعني عدم استمرار الصدام العسكري بين الطرفين، بل على العكس، كان هناك اشتباكات على الحدود، ووقعت أحيانا معارك قوية بين الطرفين ولكنها لم تحدث أي تغيير على الأرض، ولم تؤد إلى توسع أي منهما على حساب الطرف الآخر توسعا دائما. لقد كان الجهاد من فرائض الإسلام ومن واجبات الخليفة الرئيسية، وقد اعتبر واجباً جماعياً على كل المسلمين بشرط كونهم قادرين. كما أن المشاركة في الجهاد واجب متميز وثوابه كبير. ومن هنا كانت الدولة العباسية تعد سنويا الصوافي والشواتي، لإبقاء روح الجهاد ومظاهره مستمرة في نفوس المسلمين، ولاسيما أن بلاد الروم استخدمت ملجئا لأعداء الدولة والمتمردين، ثم إن ظهور دولة الإسلام يمثل مشكلة سياسية وعسكرية وحضارية كبيرة لدولة الروم البيزنطيين كان عليها أن تتعامل معها تارة عسكريا، وتارة أخرى حضاريا وسلميا.

وإذا كانت الاضطرابات الداخلية قد عاقت الدولة العباسية في مطلع عهدها من "الجهاد" ضد الروم، فإن الخليفة المؤسس أبا جعفر المنصور (136-158هـ/753-774م) قد اهتم بمنطقة الثغور مع البيزنطيين وكان اهتمامه دفاعيا لا هجوميا فأعاد تحصين المنطقة التي دمرها الإمبراطور قسطنطين 714-775م الخامس، كما بنى حصونا جديدة واستخدم وسائل عديدة لحث المقاتلة والمتطوعة على الاستقرار في الثغور، منها زيادة العطاء ودفع مخصصات معونة إضافية قدرها مائة دينار لكل مقاتل وبناء الدور لإقامة عائلات الجند وإقطاع الأراضي للزراعة كما أسكن فئات من الفرس والصقالبة والأنباط في هذه المناطق.

وبعد أن استكمل الخليفة المنصور التحصينات في ملطية والمصيصة ومرعش وأدانة، قرر غزو بلاد الروم فأرسل سنة 138هـ أو

139هـ/756م حملة من مقاتلة أهل خراسان بقيادة العباس بن محمد العباسي، وأخرى من مقاتلة أهل الشام بقيادة صالح بن علي العباسي. وكانت أول غزو ضد الروم في العصر العباسي.

لقد أعقب الحملة الأولى حالة من الهدوء استمرت حتى 146هـ/763م ويعزى ذلك إلى الاضطرابات العنيفة التي هزت الدولة العباسية ولاسيما العلويين في الحجاز، كما انشغل الروم أنفسهم بمشاكل داخلية: سياسية تتصل بالنزاع حول السلطة، ودينية لها علاقة بالانشقاق على الكنيسة.

على أن حملة 146هـ /763م والحملات التي أعقبتها حتى نهاية عهد الخليفة المنصور لم تكن فعالة، ولم تتوغل بعمق داخل أرض الروم سوى حملة 153هـ/770م حيث نجح القائد معيوف ابن يحي الحجوري في فتح (اللاذقية المحترقة) وسبى منها ستة آلاف رأس ثم عاد.

لقد خلف المنصور ابنه المهدي (158هـ/774م-169هـ/785م) في حين خلف قسطنطين ابنه ليون الرابع 775-780م الذي لم يعمر طويلا، إذ خلفه ابنه قسطنطين السادس 780-797م الذي كان لا يزال طفلا صغيرا تحت وصاية أمه الملكة إيريني. وقد أدت المشاكل الداخلية دورا كبيرا في ضعف الجبهة البيزنطية في هذه الفترة وهو ما جعل الخليفة المهدي يصعد من عملياته العسكرية ضدهم، فلم تكن تمر سنة إلا وكانت فيها صائفة أو شاتية. وكان الخليفة المهدي تواقا لإبراز دوره الذي أعده له أبوه المنصور، ألا وهو دور (المهدي المنتظر) الذي سيملؤها عدلا كما ملئت جورا وإحياء روح الجهاد من جديد في هذه الأمة. وحفظ وصية والده المنصور الذي قال له: "وليكن أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك، وتسد ثغورك وارغب إلى الله في الجهاد والمحاماة عن دينه ..."

وعلى هذا فقد أخذ الخليفة المهدي زمام المبادرة في الحرب مع الروم فكانت أول حملة له سنة 159هـ/776م حيث اخترقت الحملة الأناضول ووصلت إلى أنقرة دون أن تحاصرها، ثم كانت هناك صائفتان على التوالي 160هـ/ 776م و161هـ/ 777م. وقد رد الروم بشن هجوم مفاجئ وصل إلى مرعش دون أن يتمكنوا من فتحها. فرد المهدي بحملة بقيادة الحسن بن قحطبة الطائي الذي انتقم من البيزنطيين دون أن يضم مناطق جديدة إلى دار الإسلام وكسب لنفسه لقب "التنين". ووصلت حملة 162هـ/778-779م بقيادة ثمامة بن الوليد ثم الحسن بن قحطبة إلى عمورية، ولكنها لم تتمكن من فتحها لحصانتها. وقد أعاد الحسن بن قحطبة بناء الحصون المخربة في طريق عودته من هذه الحملة. وشهدت

السنة نفسها حملة أخرى بقيادة يزيد بن أسيد السلمي فدمر بعض الحصون البيزنطية ولكنه لم يستطع احتلال مدن مهمة واضطر إلى العودة.

على أن أهم حملتين خلال عهد الخليفة المهدي حملتا 163هـ/779م و 165هـ / 781م ، ففي الحملة الأولى وصلت الجيوش العباسية بقيادة الأمير هارون بن المهدي للمرة الأولى والأخيرة إلى أسوار عاصمة الروم (القسطنطينية) وحاصرتها، وكان الخليفة المهدي قد أعد لهاتين الحملتين العدة وأغدق العطايا والصلات على المقاتلة، ورحل الخليفة مع الحملة إلى الموصل وودعها من هناك. ثم واصل رحلته إلى حلب، وقدحقق الجيش العباسي في هذه الحملة عدة انتصارات كما احتل حصن (سمالو) المشهور بعد حصار دام أربعين يوما. عاد الجيش بعد ذلك محملا بالغنائم والفيء. وقد استقبل هارون بعد عودته بمظاهر البهجة وأعطي لقب الرشيد كما عين وليا ثانيا بعد أخيه موسى الهادي.

وكانت الحملة الثانية سنة 165هـ/ 781م أهم من سابقتها وأكبر وكان قائدها كذلك الأمير هارون بن المهدي ومعه القائد المحنك يزيد بن مزيد الشيباني.وافتتح الجيش العباسي الحصون الرومية الواحدة تلو الأخرى حتى انفتح الطريق أمامه شمالا باتجاه خليج البوسفور بهدف فتح القسطنطينية . حيث نجح في الوصول إلى الساحل لأول مرة منذ عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك .

والواقع أن الجانب البيزنطي كان في مأزق صعب، ذلك أن الملكة إيريني إمبراطورة الروم كانت مشغولة بالقضاء على مقاومة أنصار ابنها قسطنطين، ومعنى ذلك أن حكام الروم شغلوا أنفسهم باتخاذ الوسائل الرادعة ضد شعبهم والقضاء على معارضيهم من أجل الحفاظ على السلطة بأيديهم وبهذا أهملوا بناء الجيش وتحسين وسائل الدفاع. كذلك كان الانقسام حاصلاً في صفوف الشعب بسبب النزاعات العقائدية وفي صفوف قادة الجيش" والناس -كما يقال- على دين ملوكهم" .

لقد أرسلت الإمبراطورة إيريني السفراء إلى الأمير هارون بن المهدي وطلبت الصلح أو الهدنة لمدة محدودة . والواقع أن الجيش العباسي كان بحاجة إلى هذه الهدنة، فرغم وصوله إلى أسوار القسطنطينية كان منهكا بسبب المسافة ووعورة المسالك وقلة المؤونة. وقد استجاب الأمير هارون للطلب بعد مشاورة القادة من أجل أن يؤمن للجيش خط الرجعة. ولقد كانت شروط الصلح في مصلحة المسلمين، إذ وافقت إيريني على دفع إتاوة كبيرة تقدر بحوالي 90 ألف دينار على دفعتين، وأن ترسل من يمثلها شخصيا إلى بلاط الخليفة ومعه الهدايا المناسبة، وأن تسلم جميع الأسرى المسلمين المتواجدين في الجانب الرومي،

وأن تقدم الأدلاء والغذاء إلى الجيش الإسلامي في طريق العودة إلى ديار الإسلام.وكانت مدة الصلح ثلاث سنوات. وقد خلد العديد من الشعراء المعاصرين لتلك الفترة هذا الانتصار الكبير الذي حققه الجيش الإسلامي.

وفي سنة 168هـ/784م نقض الروم الصلح قبل انتهاء مدته بأشهر قلائل، ورد المسلمون، فوقعت مناوشات على الحدود بين الطرفين. وحين وصل الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى الخلافة سنة 170هـ786م أبدى عناية واضحة بتنظيم منطقة الحدود البيزنطية – الإسلامية . فقد أمر بتحصين مدن الحدود، وبناء حصون جديدة وحشدها بالمقاتلة، وبناء خطين واضحين للدفاع الأول هو (الثغور) وإلى جنوبه الخط الثاني (العواصم) التي سميت بهذا الإسم لأنها تعصم الثغر، وتمده في أوقات النفير. والمعروف عن هارون الرشيد أنه اهتم بإرسال الحملات كل سنة للجهاد ضد الروم، وقاد بعض هذه الحملات مثل حملات 170هـ/786م و797/181م بنفسه، كما كان يفعل في عهد والده المهدي، كما ولي الرشيد ابنه القاسم أميرا على الثغور والعواصم وجعل محل إقامته منبج . ولعل أهم حملة قادها الرشيد بنفسه هي حملة 188هـ/804م حين نقض الإمبراطور نقفور الصلح وكتب إلى الرشيد:" من نقفور إمبراطور الروم إلى هارون ملك العرب.. أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي – إيريني –أقامتك مكان الرخ، وأقامت نفسها مكان البيدق. فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك". و قد رد الرشيد على ظهر الكتاب نفسه بعبارة موجزة قال فيها: "قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ".

وتقدم الخليفة الرشيد دون أن يصطدم بمقاومة بيزنطية فعلية، وفتح حصون الصفصاف وهرقلة ووصلت جيوشه مشارف أنقرة، فعرض الإمبراطور دفع الإتاوة فوافق الرشيد على ذلك وانسحب، إلا أن الروم نقضوا العهد ثانية، فأغار الإمبراطور نقفور أوائل 190هـ/806م على الثغور الإسلامية، فأعاد الرشيد الكرة عليهم واستولى على قلاع وحصون مهمة داخل الأراضي البيزنطية مثل هرقلة وطوانة وأجبر الإمبراطور نقفور على دفع إتاوة تقدر بثلاثمائة ألف دينار، وأعاد بناء القلاع التي دمرها. واتخذ هارون الرشيد منذ تلك السنة قلنسوة مكتوباً عليها (غاز حاج) وكانت حملة الرشيد هذه أقصى ما وصلت إليه الجيوش العباسية في أرض الروم.

وفي مجال النشاط الحربي في البحر المتوسط فان التاريخ يسجل للعباسيين – وخصوصاً في عهد الخليفة الرشيد العناية بتحصين الموانئ الشامية، إلا أنهم اعتبروها قواعد دفاعية ينبغي تحصينها لحماية حدود الدولة.

إن كل تلك المعارك لم تخطط لتوسيع حدود (دار الإسلام) أو إقامة إدارة إسلامية دائمة في إقليم الأناضول، بل سرعان ما كان الجيش يعود إلى قواعده في منطقة الثغور والعواصم، وبقيت جبال طوروس الحد الفاصل بين الدولتين، ويجدر الإشارة إلى أن استخدام البيزنطيين لما سمي (النار الإغريقية) كان سببا من أسباب فشل خطة الجيش الإسلامي في مد نفوذه عبر الأناضول أو فتح القسطنطينية بحرا أو برا، فقد كانت سلاحا فتاكا اعتمد على النفط (البترول) أساسا. وفي إحدى المعارك التي وقعت في بداية العصر العباسي135هـ/752م كان جيش الروم يستخدم دبابات ومجانيق ومزراق يزرق النار "فلا يقر بين يديه أحد من شدة ناره واتصاله، فكان أشد شيء على المسلمين ".

استمر الخليفة المأمون على سياسة أبيه الرشيد في شحن الجند والميرة على الحدود البيزنطية، وربما كان هذا الخليفة يعد العدة لخطة هجومية تصل القسطنطينية أو على أقل تقدير تبعد البيزنطيين وتدفعهم وراء هضبة الأناضول، فيتخلص الخليفة من إثارتهم للاضطرابات في أرمينية وبلاد الخزر وأذربيجان ولبنان والحدود الشمالية لبلاد الشام. كما حاول المأمون أن يستغل الحركات والاضطرابات الداخلية في دولة الروم، فساعد توماس الصقلبي في حركته سنة 206-208هـ/821-823م ، وأمده بالمساعدات المتنوعة، وبالمقابل حاول الإمبراطور البيزنطي أن يساعد بابك الخرمي الذي تمرد في أذربيجان وأرمينية سنة 201هـ/816م، فأمده بالعون، وجعل من بلاد الروم ملجأ للخرمية من أتباع بابك.

واستغل الروم انشغال السلطة العباسية باضطرابات مصر سنة 215هـ/830م، فهاجموا طرسوس والمصيصة، وقتلوا العديد من المسلمين، فقاد المأمون صائفة ضدهم وتوغل في أرضهم، فاحتل هرقلة القريبة من عمورية، وافتتح العديد من المطامير (وهي حصون عسكرية صغيرة) فدعا ذلك الإمبراطور ثيوفيلس إلى طلب الهدنة بشروط هي:

- أن تكون مدة الهدنة خمس سنين .
- الانسحاب من الحصون الرومية التي احتلها العباسيون .
- أن يدفع الروم إتاوة قدرها 100 ألف دينار.
- إعادة جميع الأسرى المسلمين لدى البيزنطيين.

ولكن المأمون رفض الشروط، واستمر في القتال في السنة التالية سنة 217هـ/832م، فاحتل حصن لؤلؤة وبنى مركزا عسكريا جديدا (الطونة).

فكتب إليه الإمبراطور رسالة دعاه إلى المصالحة، إلا أن لهجتها كانت قاسية، وقد اعتبر المأمون رسالة الإمبراطور تهديدا، رد عليه بالقول: "أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة ... غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعوة لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة. وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة، والسلام على من اتبع الهدى ".

وفي سنة 218هـ/833م، تجهز المأمون لخطة تهدف إلى احتلال عمورية باعتبارها نقطة مهمة في الطريق إلى القسطنطينية، ولكن الخليفة توفي قرب طرسوس، ولم ينس أن يوصي أخاه المعتصم بعدم ترك الاستعداد للجهاد من القضاء على الخرمية حلفاء الروم بكل ما تملك الدولة من إمكانات، وكان المعتصم أهلا لذلك.

ولم تكن العلاقات بين العباسيين والبيزنطيين مقصورة على الحرب، فقد تخللت الحروب فترات سلمية يتبادل فيها الطرفان الأسرى والوفود. فقد استقبل المنصور العباسي في رواية سفيرا بيزنطيا في العاصمة الجديدة بغداد. كما شهدت الفترة عمليات تبادل أسرى، فالنتيجة الطبيعية لأي حرب بين دولتين وقوع عدد من الأسرى من كلا الطرفين. وكان حجم الأسرى يتوقف على شدة العمليات العسكرية، كما يتوقف على الطرف المنتصر الذي يستحوذ بطبيعة الحال على أكبر عدد من الأسرى. ولما كانت هذه العوامل متغيرة كان الموقف متغيرا أيضا، يكون مرة لصالح المسلمين ومرة لصالح البيزنطيين.

إن رواياتنا التاريخية حول عمليات (الفداء) أي تبادل الأسرى في الفترة موضوع البحث نادرة ومبالغ فيها من حيث أرقام الأسرى المتبادلين. ففي عهد الخليفة الرشيد حصل تبادل للأسرى سنة 189هـ/804-805م حيث جرى مبادلة حوالي 2700 أسير مسلم، وهم كل ما عند الروم في تلك الفترة، وفي عهد الرشيد نفسه وبعد ثلاث سنوات جرى تبادل أكثر من 2000 أسير، في حين كان لدى الروم سنة 216هـ/831م - أي في عهد المأمون - سبعة آلاف أسير. ومع وجود عنصر المبالغة فإن الأعداد التي دونت عن عدد الأسرى في العصر العباسي الثاني تشير إلى قوة الهجمات البيزنطية وضعف الجيش الإسلامي أيام تسلط القادة العسكريين الترك الذين لم يكن لديهم سوى السلطة والمال لا الجهاد .

ثانيا: العلاقات مع الإفرنج الكارولنجيين :

إن قيام الدولة العربية الإسلامية مثّل مشكلة سياسية وحضارية لأوروبا التي كان عليها أن تجابهها عسكريا من جهة، وأن تتعامل معها حضاريا وتجاريا من جهة أخرى. ومع أن الفارق كان كبيرا بين المجتمع الأوروبي المتأخر والمجتمع الإسلامي المتطور لم يحل ذلك دون الاتصال والاحتكاك.

وفي مجال العلاقات الدبلوماسية فإن عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد يبدو متألقا في هذا المجال رغم الطابع المبالغ فيه الذي تتسم به المصادر اللاتينية، مثل سيرة الإمبراطور شارلمان للمؤرخ إيجينار Eginhard التي كتبت عن هذه العلاقات، والصمت الذي التزمت به المصادر العربية الإسلامية.

والعلاقات الدبلوماسية التي نحن بصددها هي العلاقات بين الخليفة هارون الرشيد وشارلمان إمبراطور الإفرنج الكارولنجيين Carolingiens. تشير الروايات اللاتينية آنفة الذكر إلى أن شارلمان كان المبادر إلى خطب ود هارون الرشيد، إذ أرسل وفدا رسميا سنة 181هـ/797م . ثم أتبعه بإرسال رسول إلى بطريرك القدس سنة 183هـ/799م. وقد رد الرشيد بإرسال وفد إلى شارلمان خلال سنة 185هـ/ 801م ثم استمرت الوفود بين الطرفين حاملة الهدايا الثمينة لكلا العاهلين.

وتستطرد الروايات اللاتينية إلى أن شارلمان أرسل كذلك هبات إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، وهو ما دعا بطريرك القدس إلى إرسال مفاتيح كنيسة القيامة ومدينة القدس ورايتها إلى شارلمان سنة 184هـ/800م .

وقد حمل بعض الباحثين الغربيين هذه الروايات المفعمة بالخيال والغامضة في مصادرها الأصلية أكثر مما يجب، فابتدعوا أسطورة تاريخية فحواها أن شارلمان أصبح حاميا للأراضي المقدسة في فلسطين وأميرا على القدس، بموافقة الخليفة، مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين، ويقف ضد البيزنطيين، ليحول دون تهديدهم البري والبحري للدولة العباسية.

لقد كان دي ريان Le Comte de Rouin أول من أيد هذه الفرضية بدراسة مبنية على الروايات اللاتينية، ولكن المؤرخ بارتولد Bartholdعارضها بمقالة أنكر فيها أن يكون شارلمان قد فاوض الرشيد، وأن هذا الأخير لم يعطه حق الحماية على فلسطين، واستند بارتولد في رأيه هذا على سكوت المصادر العربية والمسيحية الأخرى، ويرى بارتولد أن ما يسمى (بالوفود) لم يكن أكثر من تجار يهود، لا سفراء رسميين. وقد رد فازيلييف Vasiliev على مقالة بارتولود

بمقالة أكد فيها أن شارلمان أصبح حاميا لمسيحي فلسطين، وصار له حق إنشاء كنائس وخانات للحجاج الأوربيين على طول الطريق إلى الأراضي المقدسة. وأيده بربيه Bréhier مشيرا إلى أن رسال مفاتيح كنيسة (القيامة) والراية ، معناه إعطاء شارلمان حق الحماية بإذن الرشيد .

ثم جاء بكلر Buckler فكتب مقالة حول الموضوع ، فأضاف عنصرا خياليا للمناقشة الحادة ، مدعيا أن الدبلوماسية العباسية هدفت من وراء إعطاء شارلمان امتيازات سياسية في فلسطين وتعيينه أميرا عليها ، أن تستخدمه مقابل ذلك في الهجوم على الأندلس وإعادتها إلى حظيرة الدولة العربية الإسلامية ، ولاشك أن هذه الافتراضات لا تقف أمام النقد الموضوعي ولا تنسجم مع سياسة هارون الرشيد وروح العصر الذي عاش فيه

وأخيرا اشترك رنسيمان Runciman في المشادة، فدحض (أسطورة الحماية) مؤكدا أنها من اختراعات الراهب سنت كول المستندة على روايات إيجينار الغامضة.

أما المؤرخون العرب فقد أيد بعضهم فرضية الحماية ورفضها البعض الآخر. ويعد مجيد خدوري أهم من ناقشها مناقشة موضوعية معتمدة على المصادر، فكانت دراسته جيدة للموضوع خلص في نهايتها إلى: "أن المصادر اللاتينية المعاصرة بالغت كثيرا في خطورة هذه الصلات وفي شأنها السياسي، فنسجت حول البعثات الدبلوماسية ما شاءت لها مخيلات مؤلفيها أن تنسجه من الآراء تعظيما لمركز الإمبراطور شارلمان في الغرب .

صحيح أن المصلحة السياسية كانت تدعو الدولتين: العباسية والكارلونجية (الإفرنجية) إلى التقارب، لأن عدوهما كان واحدا، ألا وهو البيزنطيون، والأمويين في الأندلس، فكانت الدولة العباسية في نزاع حربي مع البيزنطيين، في حين كانت الدولة الكارلونجية في حروب مستمرة مع العرب الأمويين في الأندلس. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان العباسيون يعدون الأمويين متمردين، وقاموا بعدة محاولات لاستعادة الأندلس. وكان النزاع على أشده بين البيزنطيين والكارولنجيين حيث كان كل منهما يعتبر نفسه الوريث للمجد السياسي للإمبراطورية الرومانية القديمة. وزادت البابوية في توتر الصلات بين الطرفين، فقد ناصر البابا الكارولنجيين وعارض بشدة سياسة البيزنطيين الدينية (الأيقونية) وهي عبادة الصور المقدسة للمسيح والعذراء والقديسين، وقدم الدعم المعنوي للأباطرة الإفرنج الكارولنجيين، وساند طموحهم السياسي للسيادة على أوروبا.

ويبدو أن هناك سفارات متبادلة بين البيزنطيين والأمويين في الأندلس، بسبب عداء الدولتين للإفرنج والعباسيين، إلا أن هذه العلاقات

الدبلوماسية جاءت متأخرة قليلا عن الفترة موضوع البحث، حيث وقعت في القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري.

إن هذه المصالح المشتركة بين الأطراف المعنية كان من الممكن أن تؤدي إلى صلات سياسية وعسكرية قوية، ومع أن مصادرنا لا تذكر عنها إلا القليل الغامض. ورغم أن الدولة العباسية تركت السياسة الهجومية فإنها كانت تمثل الجانب الأقوى في النزاع مع البيزنطيين طوال العصر العباسي الأول. ثم إن الرشيد عرف بسياسته الدينية التي لا تسمح له بأن يعطي شارلمان حقا أو امتيازا في الأراضي المقدسة بفلسطين، أو يسمح لبطارقة الكنيسة في القدس الاتصال بعاهل أجنبي، وكانت الدولة العباسية في عهد الرشيد تمر بمرحلة التفكك الإداري وانفصال الولايات، وقد حاول الرشيد كإجراء إصلاحي أن يقسم الدولة بين أبنائه الثلاثة، فقد انفصلت المغرب وإفريقية عن جسم الدولة مع اعترافها بسلطة الخليفة، فكيف يفكر الرشيد باستعادة الأندلس، وقد فقد بلاد المغرب.

وأخيرا وليس آخرا، كانت الأراضي المقدسة في فلسطين ولاسيما مدينة القدس ذات أهمية دينية وسياسية في وقت واحد. واهتم بها الخلفاء العباسيون الأوائل فزاروها وأصلحوا مساجدها، فكيف يحق للرشيد بعد ذلك أن يمنح إمبراطور الإفرنج امتيازات مهمة في فلسطين.

وبسبب سكوت مصادرنا العربية الإسلامية وغير الإسلامية عن ذكر أية علاقة سياسية – عسكرية بين العباسيين والإفرنج لا يسعنا إلا القول بأنه إذا كانت هناك علاقات بين الطرفين، فلابد أن تكون ودية، أدّى فيها التجار– وبعضهم من اليهود – دورا رئيسيا بنقل الهدايا والرسائل، وحتى يتم اكتشاف مصادر جديدة موثوق بها تاريخيا تحتوي معلومات جديدة عن ماهية تلك الصلات الدبلوماسية ، فإننا نؤيد وجهة النظر التي تقول بأن ما ذكر عن هذه الصلات هو محض خيال .

من هذا المنطلق يمكن أن ندرك هدف إيجينار مؤرخ البلاط الكارولنجي حيث بالغ في رواياته عن حقيقة الصلات بين البلاط العباسي والبلاط الكارولنجي، ألا وهو تفخيم اسم سيده شارلمان عن طريق ربطه باسم هارون الرشيد الذي بات اسمه معروفا، وخطب وده الحكام المعاصرون له في الشرق والغرب، إذ أشار هذا المؤرخ إلى أن العاهلين تبادلا السفراء والهدايا، وأسفرت مفاوضاتهما عن إعطاء شارلمان امتيازات معينة في فلسطين .

ثالثا: العباسيون والمتوسط :

يسجل التاريخ للعباسيين عنايتهم بتحصين الموانئ البحرية في بلاد الشام ومصر المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم نظروا إليها غالبا لا كقواعد هجومية بل كحدود لدولتهم ينبغي حمايتهم والدفاع عنها، وكمراكز لاستيراد البضائع التجارية وتصديرها. ومع ذلك تسجل بعض الروايات غزوات بحرية عباسية متفرقة. ففي سنة 156هـ/ 773م أغار الأسطول الإسلامي على قبرص وأسر حاكمها حيث كان الروم منشغلين مع البلغار، وفي سنة 157هـ/ 773-774م قاد ثمامة بن وقاص حملة بحرية على شواطئ آسيا الصغرى الغربية إلا أن الأسطول البيزنطي رد ثمامة ابن وقاص إلى داخل الحدود البحرية الإسلامية. وفي عهد المهدي قام الغمر بن العباس الخثعمي بغزو بحر الشام في سنتين متتاليتين سنة 160 وسنة 161هـ/776م و768م وعلى ذلك لم يكن للأسطول العباسي باع طويل في مياه البحر المتوسط خلال هذه الفترة حتى بدأ الأغالبة في إفريقية والأمويون في الأندلس يفرضون نفوذهم البحري بصورة تدريجية.

واذا كانت الدولة العباسية قد نجحت في دفع البيزنطيين عن ثغور الدولة الإسلامية، بل توغلت بين حين وآخر في عمق أراضيهم، فقد شجعت كذلك الإمارات الإسلامية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط على القيام بواجبها في الجهاد. ويعد قيام إمارة الأغالبة في إفريقية (البلاد التونسية اليوم) عاملا مشجعا في هذا المجال (184-296هـ/ 800-909م) فقد استطاع زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب التميمي (201-223هـ/816-837م) فتح صقلية سنة 212هـ/827م، في عهد الخليفة العباسي المأمون وبقي المسلمون فيها حوالي قرنين ونصف من الزمان. وكانت هذه الحملة بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات، واشترك فيها جماعة من الفقهاء والزهاد وهو ما جعل الروح الدينية تغلب على الحملة، ومع أن الحرب للاستيلاء على صقلية كانت سجالا بين المسلمين والبيزنطيين فإن المسلمين تمكنوا في نهاية المطاف من تثبيت نفوذهم على العديد من مدنها وحصونها مثل سرقوسة وبلرم ولم تسقط في يد النورمانديين - في نطاق حركة الاسترداد المسيحية - إلا في سنة 484هـ/1091م. ولكن الحضارة العربية الإسلامية - حتى بعد الغزو النورماندي- استمرت في صقلية واحتوت كافة مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية، حتى يمكن القول بأن "استشراق صقلية" كان ظاهرة متميزة في تاريخها. بل إن المسلمين قادوا هجوما قويا على روما سنة 232هـ/846م ردا على هجوم بيزنطي على شواطئ إفريقية.

رابعا : علاقات الدولة العباسية مع دول المشرق الأقصى(الصين والإمارات التركية في أواسط آسيا والهند) :

لقد نجح العباسيون في المحافظة على فتوح المسلمين في بلاد السند، بل إن والي السند في عهد الخليفة المنصور جهز حملة بحرية على تارند والقندهار، كما عزز سلطته على قشمير (كشمير). وفي عهد الخليفة المهدي أرسلت حملة بحرية من المقاتلة المسلمين من أهل البصرة وأهل الشام بالإضافة إلى قوات إضافية من الأساورة والسيابجة، ووصلت الحملة البحرية سواحل الهند سنة 160هـ/766م وفتحت مدينة باربد على الساحل الغربي حيث استخدم الجيش الإسلامي المجانيق والنيران والنفط لإخضاع أهلها، ولعل هذه الحالة من أوائل الحالات التي استخدم فيها الجيش العباسي النفط استخداما حربيا، مع أن هناك حالات أخرى قبل وبعد هذه الحادثة استخدم فيها هذا السلاح الفتاك في ثورات وتمردات داخلية، مثل ثورة عمان 134هـ/ 751م، وحصار طاهر بن الحسين لبغداد سنة 197هـ/ 813م، وتمرد بابك الخرمي سنة 222هـ/ 837م، وتمرد الزنج في جنوبي العراق 255هـ/860م وغيرها.

ولعل الأهم من ذلك نجاح العباسيين في جهودهم لمد وتعزيز النفوذ الإسلامي في بلاد ما وراء النهر وتركستان فقد قاوم عدد من أمراء تركستان النفوذ الإسلامي فأرسل والي العباسيين أبو مسلم الخراساني جيشا نجح في التوغل في الأقاليم عبر نهر جيحون (OXUS) واشتبك مع أمراء فرغانة وأشروسنة. ولم يرق الأمر لإمبراطورية الصين فتدخلت هي الأخرى في شؤون الإمارات التركية، وتوغلت في أراضي إمارة الشاش وقتلت أميرها الذي قاوم التدخل الصيني فاضطر العباسيون إلى التحرك والاشتباك مع القوات الصينية في معركة (كاوهسين) سنة 133هـ/751م، فاندحر الصينيون وانسحبوا باتجاه الصين، وتعد هذه المعركة في نظر المؤرخين معركة حاسمة غيرت مجرى تاريخ المنطقة، ولعل أهم نتائجها – على حد قول بارتولد – أنها قررت أن تسود الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي محل الحضارة الصينية وما زال أثر هذه الحضارة ماثلا في دول أواسط آسيا كما أنها جعلت الدولة الإسلامية تسيطر على طرق التجارة العالمية، ولاسيما طريق الحرير بين الشرق (الصين) والغرب (أوروبا). وقد انحاز العديد من أمراء الأتراك الشرقيين إلى الدولة العباسية، معلنين الولاء لها، فقد خضع أمير فرغانة وإخشيد الصغد وأمير أشروسنة وأمراء القرلق والأوغوز في عهدي الخليفة المنصور وابنه المهدي العباسي، كما كثرت السفارات والوفود بين هؤلاء الأمراء والملوك وبين الخلفاء العباسيين الأوائل. وبدأ العباسيون يفكرون في استخدام

عناصر من الترك في جيشهم منذ عهد المنصور والرشيد، وازداد العدد تدريجيا زمن المأمون حتى بلغ أوجه في عهد المعتصم العباسي .

خامسا :علاقات العباسيين مع دويلات المغرب:

إن مصادرنا التاريخية لا تذكر الشيء الكثير عنها في الفترة موضوع البحث خصوصاً أنها كيانات لا تعترف بالسيادة العباسية، واتخذت مسارا سياسيا ومذهبيا يختلف عن مسار الدولة العباسية.

- أما بنو واسول (أو بنو مدرار) في سجلماسة بالمغرب العربي، فقد كانوا من الخوارج على المذهب الصفري (نسبة إلى زياد بن الأصفر)، ولعل بدء انتشار هذا المذهب يعود إلى عكرمة مولى عبد الله بن عباس الذي جاء إلى المغرب مع بداية القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، يدعو إلى الصفرية في نفس الوقت الذي كان صاحبه سلمة بن سعيد يدعو إلى المذهب الإباضي.

لقد اتجهت الدعوة الخارجية الصفرية إلى قبائل المغرب الأقصى، ذلك أن أبا القاسم سمكو بن واسول شيخ مكناسة كان من أصحاب عكرمة المقربين، فأخذ عنه أصول المذهب وفروعه وأخذ على عاتقه نشره بين عشيرته في مكناسة، ثم تابع نشره في واحة تافيلالت بين القبائل الصحراوية جنوبي المغرب الأقصى، و لم يعلن قيام دولة بني واسول (أو بني مدرار) حتى تيقن من تأييد القبائل له ولاسيّما صنهاجة ولمتونه.

وفي سنة 140هــ/757م بنى له عاصمة هي مدينة (سجلماسة) التي غدت نقطة جذب للقبائل التي اعتنقت الإسلام على المذهب الصفري. إلا أن أبا القاسم ابن واسول لم يكتف بذلك بل قام بنشاط ملحوظ جنوبا في الصحراء التي تقطنها الجماعات السودانية في السودان الغربي والتي دأبت على العمل بالتجارة وحماية القوافل ، ونجح في نشر الإسلام هناك .

وباستثناء الصدامات العسكرية بين ولاة العباسيين على إفريقية وبين بني واسول (مدرار) والتي فشل فيها العباسيون في اجتثاث المذهب الخارجي الصفري . فليس في مصادرنا التاريخية إشارات إلى علاقات أخرى بين الطرفين في الفترة موضوع البحث.

- أما الرستميون (160هــ/777م-296هــ/909م) فقد أسسوا إمارة تدين بالمذهب الإباضي الذي كان سلمة بن سعيد أول داع له في إقليم المغرب مع بدايات القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وحاول دعاة الإباضية العمل في المناطق الشرقية من المغرب، حيث غدا البربر في جبل نفوسة أنصارا للمذهب الإباضي، ونظم الإباضية جماعات من الزراع والتجار لنشر الإسلام في المناطق التي لم ينتشر فيها بعد. وأعلنوا

الإمامة الإباضية تحت زعامة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري .

لم تسكت الخلافة العباسية على ازدهار الإباضية سياسيا ومذهبياً . فقد ربط الخليفة أبو العباس السفاح إفريقية بوالي مصر عمه صالح بن علي العباسي 136هـ/753م، وأرسل حملة عسكرية بقيادة أبي عون الأزدي رافقتها حملة بحرية، ولكن اضطراب الأحوال في الحجاز أجبر الخليفة العباسي الجديد أبا جعفر المنصور على التغاضي عن أمور المغرب مؤقتا فزاد ذلك من سلطة الإباضية وسيطروا على مدن عديدة هناك حتى احتلوا القيروان سنة 139هـ/757-758م وأصبح عبد الرحمن بن رستم واليا عليها . وفي سنة 143هـ/761م قرر الخليفة المنصور وضع حد للنفوذ الإباضي في إفريقية والمغرب، فأرسل جيشا بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وفي المعركة قتل إمام الإباضية أبو الخطاب المعافري سنة 144هـ/672م فانسحب نائبه على القيروان عبد الرحمان بن رستم، وهو من حملة العلم الإباضية - وتوجه الى المغرب الأوسط وأقام هناك الدولة الرستمية في المغرب سنة 162هـ/779م مؤيدا من قبائل البربر هوارة ولواتة ومكناسة ولماية وغيرها، وغالبيتها على المذهب الإباضي.

اختارت القبائل البربرية عبد الرحمن بن رستم إماما. وقد أسس الإمام الجديد مدينة (تاهرت) التي أصبحت عاصمة للدولة ومركزا لبث الدعوة الإباضية. و لم تنجح محاولات العباسيين في الولوج إلى مناطق المغرب الأوسط البربرية حيث تمتعت المنطقة بالاستقرار تحت الإدارة الرستمية التي كانت علاقتها جيدة مع جيرانها باستثناء الخلافة العباسية وولاتها في القيروان بإفريقية، إذ نشب العديد من المعارك بين الطرفين، ولعل من غريب الأخبار ما أشار إليه، ابراهيم بكير بحاز من أن بكر ابن حماد المحدث والشاعر التيهرتي قد رحل إلى بغداد سنة 217هـ/832م واتصل بعلمائها، وكذلك مدح الخليفة العباسي المعتصم، وتلقى منه صلات جزيلة. كان لهذه الدولة الدور البارز في نشر الإسلام واللغة العربية في بلاد المغرب، مع كونها إباضية المذهب، فهي لم تفرضه على الناس بل أعطتهم حرية اختيار المذهب الذي يشاءون. في حين فشل العباسيون في السيطرة على هذه المناطق الجبلية البربرية.

- أما <u>الأدارسة في المغرب الأقصى</u> (172هـ/789م-375هـ985م) فهم أسرة علوية من آل البيت تنتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، نجحت في تأسيس كيان سياسي لها في المغرب الأقصى سنة 172هـ/789م، دام أكثر من قرنين من الزمان.

كان إدريس الأكبر- وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب مؤسس هذه الإمارة - من الذين أفلتوا من القتل بعد معركة فخ في الحجاز سنة 169هـ/785م في عهد الخليفة العباسي الهادي. وقد هرب إدريس إلى مصر ثم المغرب، واستقر في مدينة وليلي، ووجد صدى لدعوته في قبيلة أوربة البربرية وقبائل أخرى، مثل زناته ومكناسة وغيرها.

وصل أمر إدريس بن عبد الله الحسني إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد خصوصاً بعد أن استفحل أمره وتلقى البيعة من القبائل البربرية في الرابع من رمضان 172هـ/789م، وغدا نفوذه ممتدا من مدينة تلمسان حتى سواحل المحيط الأطلسي. ومن أجل التخلص منه اختار الرشيد سليمان بن جرير الملقب بالشماخ وكان معروفا بالمكر والدهاء ومتعمقا بالجدل وعلم الكلام فنجح في التغلغل في بلاط إدريس الأول وتمكن من اغتياله.

إلا أن أصحاب إدريس الأول ودعاته تعهدوا ولده، وسموه إدريس كذلك ولما بلغ الرشد بايعوه إماما على الإمارة باسم إدريس الثاني في ربيع الأول 188هـ/ 804م. وفي عهده ازدهرت الإمارة وتوسعت بعيدا عن أنظار العباسيين. وبنى إدريس الثاني سنة 192هـ/807م مدينة فاس ليعبد الله فيها ويُتْلَى بها كتابه، وتقام بها حدود وشرائع دين الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا. وقد صمدت إمارة الأدارسة أمام العباسيين وأعوانهم من الأمراء الأغالبة، وكذلك حاربت أعداءها من الخوارج في المنطقة وكان أهم دور قامت به هذه الإمارة - من خلال مدينة فاس وجامع القرويين الذي كان أول بناء له سنة 245هـ/859م- نشر الإسلام واللغة العربية في أصقاع المغرب العربي الأقصى. ولا تذكر رواياتنا التاريخية في الفترة موضوع البحث علاقات محددة مع الخلافة العباسية باستثناء ما ذكرناه آنفا .

سادسا : علاقة العباسيين الأوائل بالأندلس:

من المعروف أن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك الأموي الذي أفلت من إجراءات العباسيين في بلاد الشام وهرب إلى إفريقيّة واستطاع سنة 138هـ/755م أن يعبر إلى الأندلس وشكل إمارة هناك، ولكنه لم يجرؤ بادئ ذي بدء على الادعاء بالخلافة. وقد اعترف الخليفة العباسي المنصور بقدرته ولقّبه بـ(صقر قريش) لأنه "عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً مفرداً، فمصر الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدّة شكيمته". ولا شك أن حقيقة شخصية هذا الأمير الأموية ضاعفت من خطره في نظر المنصور خصوصاً وأن العديد من الملاحم والأحاديث كانت رائجة حول ظهور السفياني،

وأن خلاص أهل الشام سيكون على أيدي الأمويين من الأندلس الذين سيبحرون إلى بلاد الشام رافعين الأعلام الصفراء. وقد أمر المنصور العلاء بن مغيث اليحصبي سنة 146هـ/ 763م لشن هجوم على الأندلس، فعبر اليحصبي بالسفن واحتل باجة، إلا أن الأمير عبد الرحمن دحره في معركة إشبيلية، وأفشل محاولة المنصور الأولى لاستعادة الأندلس.

أما المحاولة الثانية فكانت سنة 161هـ/777م في عهد الخليفة المهدي حيث هجم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي بجيشه البربري على الأندلس واتصل بوالي برشلونة سليمان بن يقظان الأعرابي طالباً مساعدته، ولكن الوالي رفض الطلب بعد تردد فأدّى إلى اشتباك الطرفين بمعركة انتهت بانتصار الأعرابي وانسحاب الصقلبي إلى الساحل الجنوبي، وهنا تحرك الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموي نحو جيش الصقلبي المنهك الذي تحصن في بلنسية (valence) وفي أثناء الحصار قتل الصقلبي أحد جنوده بعد أن أغراه عبد الرحمن الأموي بالمال.

وقد تبودلت الرسائل بين الخليفة المهدي وبين عبد الرحمن الأموي اتهم فيه كل منهما الآخر بالمساوئ والأعمال القبيحة، وقد استعان الخليفة بالمؤرخ والنسابة المعروف هشام الكلبي في تحرير رسالته آنفة الذكر. وفي سنة 164هـ/ سنة 780م تمرد الرماحس بن عبد العزيز الكناني أمير الجزيرة الخضراء على عبد الرحمن الأموي ويبدو أن للعباسيين دوراً في هذه الحركة إلا أنه فشل وهرب إلى العباسيين.

وبصفة عامة كان الخلفاء العباسيون الأوائل متزنين في سياستهم الخارجية، ونجحوا - إلى حد ما- في الحفاظ على حدود الإسلام، وحاولوا -ما أمكنهم ذلك- توسيعها ونشر الإسلام واللغة العربية بطرق أخرى مثل الدعوة والتجارة والعلاقات الدبلوماسية حين تفشل وسيلة الجهاد .

خاتمة عامة :

اعتبر العديد من المؤرخين قدامى ومحدثين الثورة العباسية منعطفا مهمّاً في تاريخ الدولة الإسلامية بسبب التغيرات الجذرية التي أعقبتها في مجالات السياسة والإدارة والمجتمع والحضارة. ومن المعلوم أن عددا من تلك التغيرات كانت قد ظهرت بوادرها في أواخر العصر الأموي، ولكن الانتصار العباسي أعطى زخما وقوة دفع جديدة لها فأسرع في وتيرتها.

لقد كان العصر العباسي الأول عصر القوة السياسية، إذ تعاقب على مؤسسة الخلافة خلفاء أكفياء كانوا - بصورة عامة- على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم . هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان هذا العصر عصر الازدهار الحضاري الذي أطلق عليه "العصر الذهبي"، فقد

عبر هذا العصر – من منظور حضاري واجتماعي– عن تطلعات المجتمع العربي الإسلامي واستجاب لحاجاته الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، تلك الحاجات التي ظهرت علاماتها في أواخر العصر الأموي، فأعطاها العصر العباسي الجديد مجالا أوسع للتعبير عن نفسها خصوصاً وأن العباسيين بصفة عامة انتهجوا سياسة سلمية شجعت على ازدهار الحياة الاقتصادية وساعدت على تمازج قطاعات اجتماعية جديدة في الحياة العامة وتناميها.

أ.د. عمر فاروق فوزي

(جامعة السلطان قابوس – عمان)

المصادر و المراجع

1) المصادر :

- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت 606هـ/1258م) .
1911، شرح نهج البلاغة، القاهرة.
- ابن أبي زرع :علي الفاسي
1932, الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس, الرباط.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني،(ت 630هـ/1232م) .
1851-1876، الكامل في التاريخ، ليدن.
- ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد بن أعثم (ت 314هـ/926م) .
1300هـ، الفتوح ، الهند .
- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد (ت 334هـ/2949م) .
1967، تاريخ الموصل، القاهرة.
- الأصفهاني، حمزة بن الحسن (ت 360هـ/970م) .
1844، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء.
- الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ/966م) .
1284-1285هـ ، الأغاني ، مصر .
1965، مقاتل الطالبيين، النجف .
- البغدادي، عبد القادر بن طاهر (ت 429هـ/1037م).
1910، كتاب الفرق بين الفرق، القاهرة.
- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت279هـ/892م).
1978، أنساب الأشراف، ج3، بيروت.
1883، أنساب الأشراف، ج11، جديفرولد .
1936، أنساب الأشراف، ج5، القدس.
1938، أنساب الأشراف، ج4، القدس.
1866، فتوح البلدان، ليدن.
- البلعمي، محمد بن محمد .
1906، ترجماي تاريخي طبري، كانيور.
- الجاحظ، عمرو بن بحر(ت 255هـ/ 869م).
1958، البخلاء، القاهرة.
1968، البيان والتبيين، القاهرة .
1905، الحيوان، القاهرة.
1933، رسائل ، القاهرة .
1955، العثمانية ، القاهرة .
1906، مجموعة رسائل ، ساسي المغربي، القاهرة .
- الجهشياري ، محسن بن عبدوس (ت 331هـ/942م) .
1939، الوزراء والكتاب ، القاهرة.

- ابن حزم، علي بن أحمد (ت 456هـ/1063م).
1948، جمهرة أنساب العرب ، القاهرة.
1317-1320هـ، كتاب الفصل بين الملل والنحل، القاهرة.
- الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ/1228م).
1866-1873, معجم البلدان ، ليبزك.
- ابن خرداذبة، عبد الله بن عبد الله (ت300هـ/912م).
1889، كتاب المسالك والممالك، ليدن.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م) .
1267-1284هـ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة.
1957، مقدمة ابن خلدون، القاهرة.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282م) .
1835-1850, وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وستنفلد .
- خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري (ت240هـ/854م)
1967، كتاب التاريخ، بغداد.
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت 282هـ/895م) .
1888 ، الأخبار الطوال ، ليدن ، بريل.
- الذهبي، محمد بن أحمد (ت748هـ/1348م).
1327هـ ، دول الإسلام ، حيدر آباد.
- الزبيري، المصعب بن عبد الله بن المصعب (ت 236هـ/850م) .
1953، كتاب نسب قريش، القاهرة.
- أبو زكريا: يحيى بن أبي بكر الورجلاني (ت 471هـ/1078 م)
1982، كتاب سير الأئمة و أخبارهم, بيروت.
- ابن سعد، محمد بن سعد كاتب الواقدي (ت 230هـ/842م) .
1905, الطبقات الكبرى ، ليدن .
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م) .
1997، تاريخ الخلفاء، القاهرة.
- الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ/922م).
1881، تاريخ الرسل و الملوك، ليدن .
- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ/1309م) .

1317هـ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت 327هـ/939م).

1940، العقد الفريد، القاهرة.

- ابن العبري، غريغوس أبو الفرج (ت685هـ/1286م)

1890، تاريخ مختصر الدول، بيروت.

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/880م) .

1904، الشعر والشعراء، ليدن.

1964، كتاب العرب (ضمن رسائل البلغاء)، القاهرة.

1925، عيون الأخبار، القاهرة.

1960، كتاب المعارف، القاهرة.

- القمي، سعد بن عبد الله بن أبي خلف (ت 301هـ/913م) .

1963، الفرق والمقالات ، طهران.

- المبرد، محمد بن يزيد (ت 286هـ/899م).

1874 ,الكامل ، لبيزك .

- المسعودي، علي بن الحسين (ت 346هـ/957م) .

1894، التنبيه والإشراف، ليدن.

1873، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس.

- ابن المقفع، عبد الله بن روزبه (ت 142هـ/759م) .

1964 رسالة في الصحابة (ضمن رسائل البلغاء) القاهرة.

- مؤلف مجهول.

1978 أخبار الدولة العباسية (أخبار العباس وولده)، تحقيق الدوري والمطلبي، بيروت.

- النوبختي، الحسن بن موسى (ت 310هـ/922م) .

1959، فرق الشيعة، النجف.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت 292هـ/904م) .

1892، البلدان ، ليدن .

1883، تاريخ اليعقوبي، ليدن .

- أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب (ت 182هـ/798م) , 1933 كتاب الخراج ، القاهرة .

2) المراجع العربية:

- أمين، أحمد

(د.ت) ضحى الإسلام، 3 أجزاء، بيروت.

- بارتولد1985، تاريخ الترك في آسيا الوسطى (مترجم)، القاهرة.

- باحاز : إبراهيم
2002، الدولة الرستمية، عمان.
- حسن ، حسن إبراهيم
1964, تاريخ الإسلام السياسي و الاجتماعي و الاقتصادي، القاهرة.
- حسين ، محمد
1958 , أبو مسلم الخراساني ، سلسلة أعلام العرب ، القاهرة .
- حلمي أحمد، محمد
1957، الخلافة والدولة في العصر العباسي ، القاهرة .
- خدوري، مجيد
1938، الصلات الدبلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان ، بغداد .
- الخضري: محمد
1916, تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة.
- الدوري: عبد العزيز
1960، الجذور التاريخية للشعوبية .
1961، ضوء جديد على الدعوة العباسية، مجلة كلية الآداب ، بغداد .
1948، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بغداد.
1964، نظام الضرائب في خراسان في صدر الإسلام ، كلية الآداب ، بغداد .
1950، النظم السلامية، بغداد.
- رستم : أسد
1965, الروم في سياستهن و حضارتهم و بيروت.
- الريس: محمد ضياء
1957، الخراج في الدولة الإسلامية، القاهرة.
- شعبان : محمد عبد الحي
1976، التاريخ الإسلامي، جزءان، بيروت.
1977، الثورة العباسية، بيروت .
- عبد الحميد : سعد زغلول
1979، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية.
- عثمان: فتحي
(د.ت) الحدود الإسلامية البيزنطية، القاهرة.
- علي : أمير سيد
1938، مختصر تاريخ العرب، القاهرة، (مترجم) .
- علي : محمد كرد
1957، رسائل البلغاء، القاهرة.
- لقبال :موسى
1981، المغرب الإسلامي، الجزائر.
- لومبارد :موريس

1976، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، مترجم، دمشق.
- عمر، فاروق
1967 الجذور التاريخية لادعاء العباسيين بالخلافة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد .
1970 الدعوة العباسية ، بيروت .
1970 العباسيون الأوائل, ثلاثة أجزاء ، بيروت .
1985، مروان بن محمد الخليفة المقاتل، بغداد .
1968، موقف المعتزلة السياسي من العباسيين، مجلة الأقلام، بغداد .
1968، نصوص تاريخية ساعد اكتشافها على إعادة تقييم الثورة العباسية ، مجلة كلية الآداب ، الرياض .
- ماجد : عبد المنعم
1984، العصر العباسي الأول ، القاهرة.
- محمود : حسن أحمد والشريف أحمد إبراهيم
1966، العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة .

المراجع الأجنبية الحديثة:

Azizi, M.,
1938 Le domination Arabe… en Iran, Paris.
Barthold. V.
1977 Turkestan down to the Mongol Invasion 4 th. ed. U.K.

Bosworth, C.E.
1967 The Islamic dynasties, Edinburgh.
Brools, E
1901, Byzantines and Arabs, HER, XV, 1900, XVI.
Buckler,N. Charles,
1931, The creat and Harun al Rashid, Cambridge; Mass.
Cahen, C
1963 Point de vue sur la Révolution Abbaside in **Revue .Historique.**
1993. The Cambridge History of Iran, Cambridge Univ. Press.
1970. The Cambridge History of Islam, Cambridge Univ Press.

1960. **Encyclopedy of Islam,** New ed., E.J.Brill, Leiden.
Freeman, G. P. S.
1977? The muslim and christian Calendors, London.
Frye, R. N.,
1952, The Abbasid. Conspiracy, Indo-Iranica .
1975. The golden age of Persia, London.
Grabar, Oleg
1963 Umayyad palace and the Abbasid revolution, Studia Islamica,
Gibb . A.A
.1958. The Caliphate and the Arab states, in A History of the crusades.
Goitein S

1949 A turning point in the history of the Muslism state, I.C., Hyderabad, 28.
Houtsama H

1889 Bihafrid, W.Z.K.M.

3.

Kennedy, H
1981 The Early Abbasid Caliphate, London,

Comte de Reain 1880, Inventaire critique des letters relatives à la première Croisade.
Choker M

1993 , La Zandaqa et les Zindiqs en Islam au 2è Siècle de l' Hégire ,Damas.
Daghfous Radhi
1996, Le Yemen Islamique des origines
jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes (I- IIIè s / VIIè- IXè siècles), , Vol 2, Tunis
Daniel, E. L.
1979.The political and social history of Khurasan under Abbasid Rule.
Chicago.
Dennett, D.C.,
1939. Marwan b. Muhammad, Ph, D. Thesis Harvard Univ.
Dionysous
1895, Chronique de Denys de Tell mahre, trad J B Chabit, Paris.
Eginhard
1947, Vita de Caroli, trad L Halphen, Paris.

Omar, F.
1969. The Abbasid Caliphate, Baghdad.
1967 .The Composition of the early Abbasid Support B.C.A., Baghdad,
1976. Abbasiyat, Baghdad,
1976 Some aspects of the Relations between the Abbasids and the Hussaynids. Arabica. Paris.

Pellat, Ch.arles
1952 La Nabita de Djahiz, A.L.E.O., X.
1956 Le culte de Mu'awiya, Studia Islamica,Paris.

Rekaya, Mohamed
1974 Mise au Point Sur Theophane et l'alliance de Babek, Byzantion , XLIV.

Sadighi, G.,
1938 ,Les mouvements religieux Iraniens des II e et III e sièles de l' Hégire , Paris.
1989-90. Muhammedanishe Studies, Halle.

Lapidus, I.
1991 History of Muslim Societies.

Lane-Poole, St.
1969 The Muhammadan Dynasties, Karachi.

Lassner, J.
1980 The Shaping of Abbasid Rule, Princeton.

Levi-Provencal, E.,
1944 Histoire de l'Espagne Musulmane, vol.1, Cairo.

Lewis, Bernard
1950 The Arabs in history, London

Marcais, Georges
1946 La Berbérie musulmane, Paris.

Mason, H.,
1967 .The Role of the Azdite family in Marw's anti-Umayyad movement, Arabica,

Moscati, Salvatore
1948 Studi Storici sur Califato de al-Mahdi, Orientalia, XIV, 1954, and Nouvi Studi, Orientalia.
1946 La Califa d'al-Hadi, S.Orientalia, XIII.

Vajda, G.,

1938 , Les Zindiqs en pays d'Islam au début de la période abbaside, R.S.O., XVII, Paris.

Vasiliev A

1932, Byzance et les Arabes, Bruxelles.

Watt, M.

1962. The political thought of the Mu'tazilah, Journal of the Royal Asiatic Society.

1965. The Reappraisal of Abbasid shi'ism, in Arabic and Islamic Studies, E.J. Brill.

Wellhausen J.

1901. Die religios- politischen Opposition Politischen Im alten Islam, Berlin.

Wright, E.,

1948 Babak of Budhdh and al– Afshin, M.W.

Scaria, G.

1964 La Scambio di letters tra Harun al Rashid e Hamza al-Harigi, A.I.U.O.N., XIV

Shaban, M.A.

1960 The Social and political background of the Abbasid, Revolution, Ph. D. Thesis, Harvard Univ.

Spuler, B.

1952. Iran in fruh-Ishamischer zeit, Wiesbaden.

Traini, R.,

1964 La Corrispondenza tra al-Mansur e Muhammad an – Nafs az – zakiyya, A.I.U.O.N

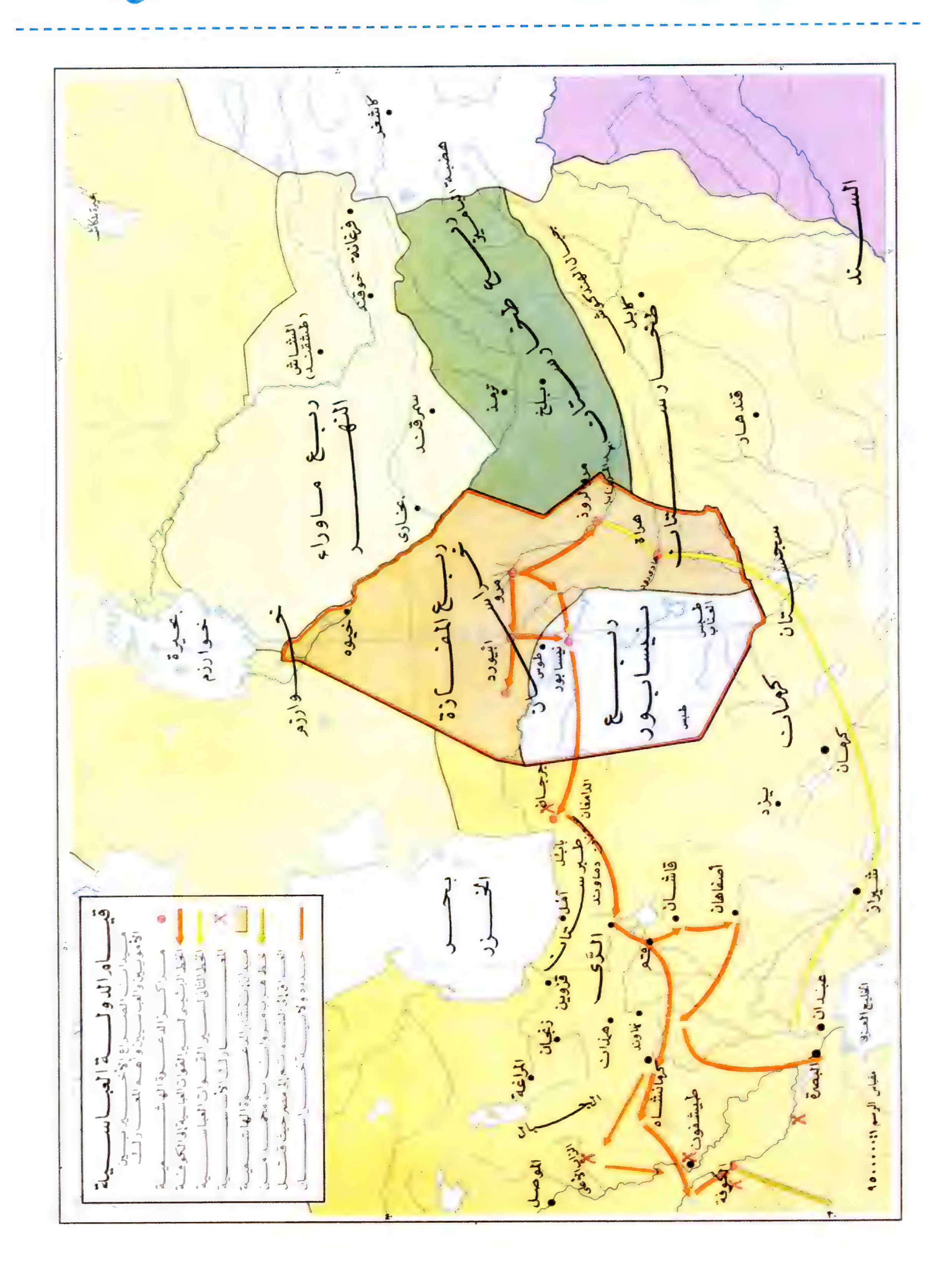
Volten, G.

1890. Van, De opkomst du Abbasiden in Chorasan, Leiden.

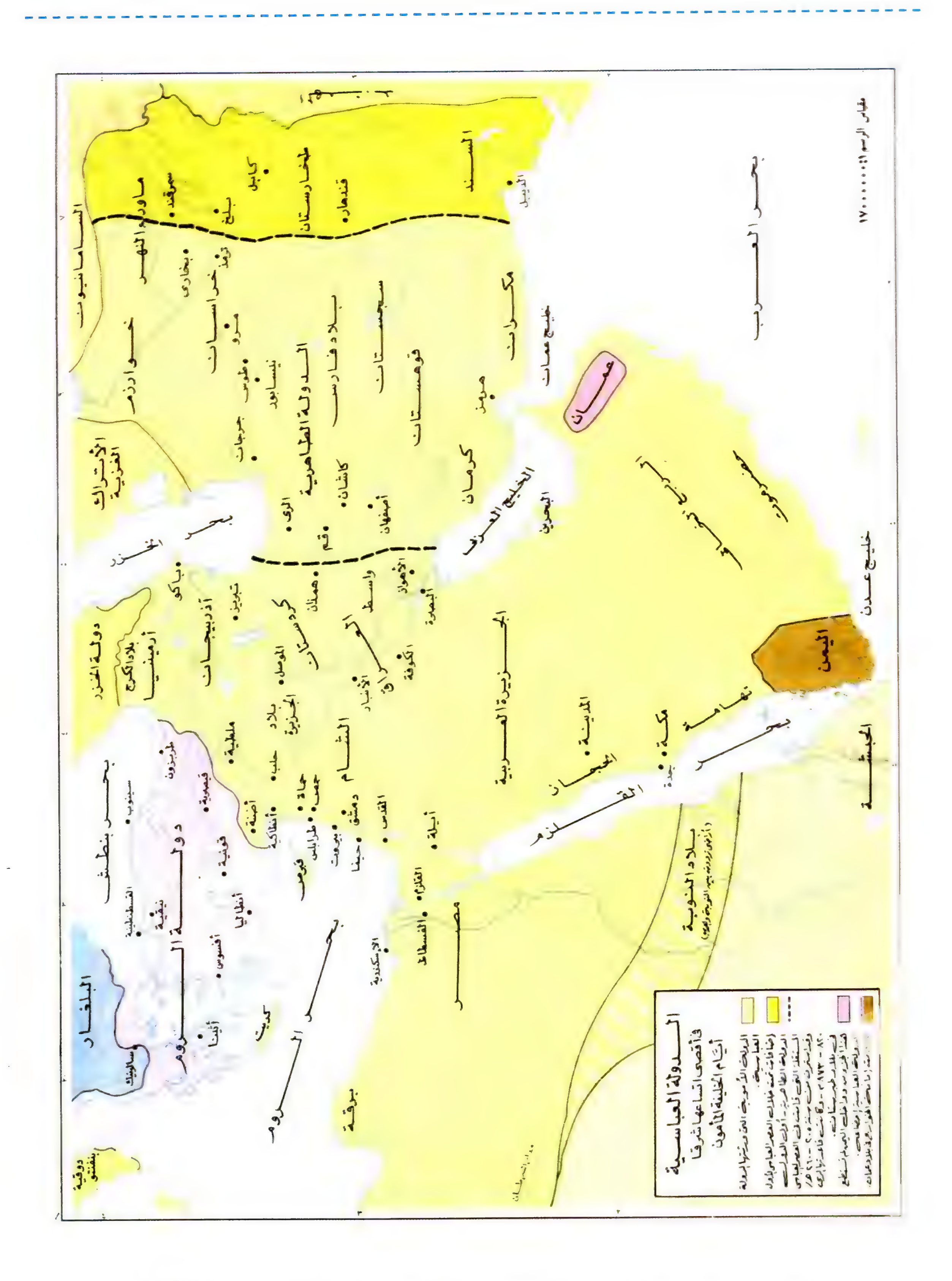
Vaglieri, L.,

1949 L'imamato Ibadita dell Oman, A.L.U.O.N., 3.

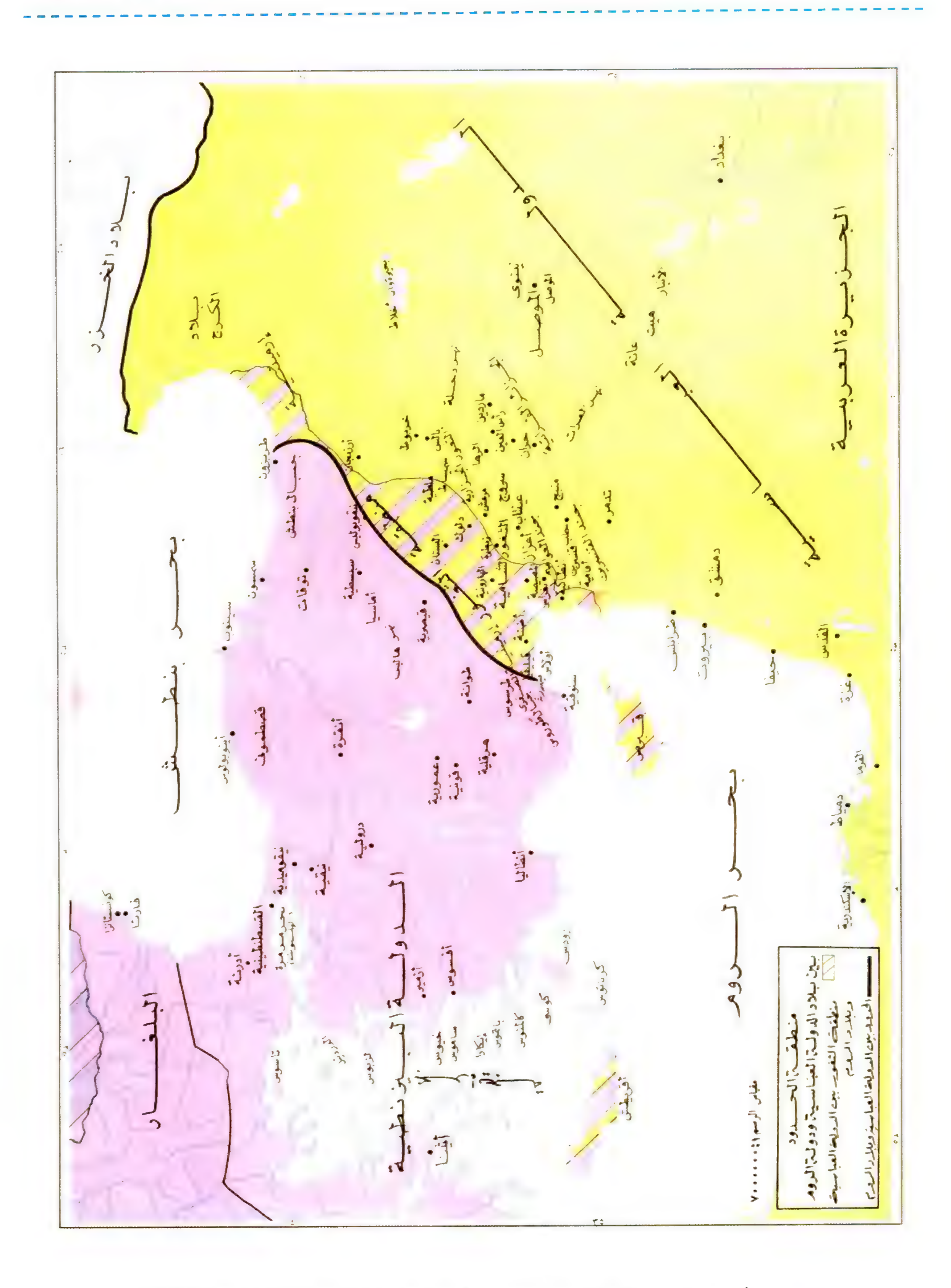
1949 Le Vicende del Harigismo in epoca Abbaside, R.S.O., 24.



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام - د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984

الفصل الثانى : الطور الثانى

من أواسط القرن الثالث الهجري إلى أواسط القرن الرابع الهجري/ أواسط القرن التاسع الميلادي إلى أواسط القرن العاشر الميلادي

1. الخلافة العباسية واستخدام الأتراك .
2. الخلافة العباسية في النصف الثاني من القرن الثالث 256-295هـ/869-907م .
3. قيام الكيانات المستقلة.

أ. في المشرق (الطاهريون ، الصفاريون ، السامانيون ، الزياريون) .

ب. في الشام والجزيرة العربية ومصر .

ج. في المغرب والأندلس .

4. الخلافة الفاطمية وإنشاء الدولة في المغرب 296-362هـ/908-972م

1) الخلافة العباسية واستخدام الأتراك:

يعود تاريخ اتصال العرب المسلمين بالأتراك إلى أيام الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)24-35 هـ/644-655م على أثر توغل جيوش الخلافة في بلاد المشرق وفتحها إقليم خراسان، وبمرور الزمن ازداد اختلاط بعضهم ببعض، وقد واجه الترك انتشار الإسلام في بداية الأمر بالعنف والعناد. تمتد مناطق سكن الأتراك ، في منطقة تركستان الذي يعد الاسم الجامع لجميع بلاد الترك، ويقطن الأتراك الجبال والوهاد والآجام من هذه البلاد، و لم يعتادوا السكن في القرى والمدن، وعرف عن بعض منهم قسوة القلب وسوء الخلق، وصلابة البدن، وغلظ الطبع، وحبهم الخصومات وسفك الدماء. وقد استعمل أغلب المؤرخين العرب اصطلاح (ترك) ليشيروا إلى كل الأتراك مهما تنوعت أنماط حياتهم المعاشية ، وشمل ذلك بطبيعة الحال الأتراك "البدو" .

تشير الروايات التاريخية إلى وجود بعض الأتراك في الجيش الإسلامي منذ الخلافة الأموية41- 132هـ/661-749م، وكان للأتراك إسهام في الثورة العباسية. ويعد الخليفة المنصور 136-158هـ/ 753-774م أول من استخدم الترك في البلاط العباسي، ليس هذا بالأمر المستغرب، لأن طبيعة الدين الإسلامي تفسح المجال أمام معتنقيه للإسهام في أنشطة الحياة المدنية والعسكرية كافة. وبمرور الزمن ازدادت منزلة الأتراك في البلاط العباسي. فقد قلد الخليفة المنصور حماد التركي تعديل السواد، وأمره أن يترل الأنبار، ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال إلا قطع يده، وكان حماد المؤتمن على السفط الذي وضع فيه الخليفة علمه ودفاتره وأسرار دولته .

كانت مصادر وجود الترك في دار الخلافة متنوعة منها عدهم جزءا من ضريبة الولايات الشرقية للخلافة، أو عن طريق الشراء أو الأسر، إذ بيع قسم من الأتراك أسرى عند العرب الفاتحين في بلاد ما وراء النهر وأواسط آسيا وخوارزم، والقسم الآخر قدم بغداد مهاجراً. وفي أيام المهدي 158-169هـ/774-785م أصبحت لهم مكانة خاصة عند الخليفة، فاتخذ مثلاً مبارك التركي قائداً لجنده، و لم يكن استخدامهم مقتصراً على الخدمة في البلاط، وإنما تولى بعضهم مناصب إدارية وعمرانية مختلفة. واستمر الحال في عهد الخليفة الهادي 169-170هـ/785-808م وازداد عددهم في عهد هارون الرشيد 170-193هـ/786-808م واتسعت دائرة أعمالهم حتى شملت حرس الرشيد المكلف باستقبال الوفود والرسل الوافدين على دار الخلافة، فعلت مكانتهم، وتعززت ثقة الخليفة برجالهم.

وفي أيام الفتنة في عهد الأمين 193-198هـ/ 808-813م وقف بعض من الأتراك إلى جانب الخليفة في حربه مع أخيه المأمون. في حين ساند بعضهم الآخر المأمون، ويؤكد عدد من الدراسات الحديثة أن الخليفة المأمون 198-218هـ/813-833م أول من استخدم الأتراك على نطاق واسع، ويرجع استخدامه لهم إلى ما قبل توليه الخلافة، فقد كان يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الإسلام والطاعة من أهل ما وراء النهر، ويوجه رسله فيفرضون لمن يرغب في الديوان، وأشرك فرسانهم في حرس الخليفة. وازداد اهتمامه بهم ليحافظ على التوازن بين القوى المتصارعة من العرب والفرس في الجيش العباسي. كما أن عدداً كبيراً من هؤلاء الترك قد وصل إلى دار الخلافة خراجا من الأقاليم الشرقية، ومن ابرز من وصل بهذه الطريقة طولون والد أحمد مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام سنة 254هـ/868م وشكل الخليفة جنده الخاص من الترك يشد بهم أزر جيشه. فقد أشارت الروايات التاريخية إلى أعدادهم الكبيرة منذ أن خرج المعتصم إلى مصر عام 215هـ/830م للقضاء على الفتن فيها إذ كان معه أربعة آلاف من الترك، واجتمع إليه ثلاثة آلاف غلام منهم، وكان لهم دورهم المميز في القضاء على الحركات الخارجة عن طاعة الخلافة فعظمت مترلتهم عند الخليفة فأثار ذلك غضب العناصر العربية.

وبعد تولي المعتصم الخلافة سنة 218هـ/833م ازداد اهتمامه بالترك، وأكثر من استخدامهم في الجيش والبلاط نتيجة الانسجام النفسي بينه وبينهم، فكلاهما كان شديداً غليظ الطبع، وقد عرف المعتصم شجاعتهم وشدة بأسهم، ورغب كذلك في تنفيذ أمر المأمون بالاعتماد على الجند الأتراك، فضلا عن رغبته المحافظة على التوازن بين القوى المختلفة في الجيش العباسي، ومواصلة سياسة أخيه الدينية القائمة على تبني مذهب الاعتزال ديناً رسمياً للدولة، والوقوف في وجه أصحاب الحديث وأنصارهم من العامة التي ساندهم وناصبت الخليفة العداء. إن سياسة التعاطف التي أبداها المعتصم ومن قبله المأمون نحو الأتراك كان لها أثرها الإيجابي في بلاد ما وراء النهر والمناطق التركية، إذ ساعدت على انتشار الإسلام بين قبائل الترك، وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الأتراك، ورغب أمراؤهم في القدوم إلى عاصمة الخلافة.

وبمرور الزمن توافدت أعداد كبيرة من الترك على بغداد بعد أن سمعوا أن إخوانهم انضموا إلى جند الخليفة وأخذوا يعيشون عيشة راضية ، فأصبح منهم حرس الخليفة الخاص، ويعد الخليفة المعتصم أول من أدخلهم في الديوان، وألبسهم زيا خاصاً تمييزاً لهم من سائر الجند، وقدم قادتهم في المناصب العليا. ونتيجة لتزايد أعدادهم - اختلف المؤرخون في تحديد عددهم—ضاقت بهم العاصمة بغداد

وتضايق أهلها منهم، وكرهوا مجاورتهم وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء الجند الأتراك على فطرتهم، لذلك انتقل بهم إلى عاصمته الجديدة سامراء وأفرد لهم القطائع وابتاع لهم الجواري ومنعهم من أن يتزوجوا ويصاهروا أحداً من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد، فيتزوج بعضهم من بعض. وأجرى للجواري أرزاقا قائمة، وأثبت أسماءهن في الدواوين، فلم يكن يقدر أحدهم أن يطلق امرأته أو يفارقها.

إن زيادة اعتماد الخليفة المعتصم على الأتراك، وتقليده لهم المناصب العسكرية الرفيعة، وحرمان العرب ما كان لهم من قيادة الجيش، وإسقاط أسمائهم من الدواوين، وقطع العطاء عنهم، أثار غضب القادة العرب وعلى رأسهم عجيف بن عنبسة ت223هـ/ 837م الذي حرض العباس ابن المأمون للقيام بحركة في أثناء غزوة عمورية تستهدف قتل المعتصم والبيعة للعباس بالخلافة، والحد من نفوذ الجند الأتراك.

إن الإكثار من استخدام الجند الأتراك في عهد المأمون والمعتصم وتوليتهم المناصب العسكرية وازدياد نفوذهم في البلاط العباسي لم يؤثر خلال هذه المدة في مكانة الخليفة أو وزيره، لكنها أدت فيما بعد إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها في النهاية. يبدو أن المعتصم أحس في أواخر أيامه خطأه في استكثاره من الجند الأتراك وإكرامه قادتهم (كالأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيف) بوصفه إياهم بأنهم كانوا "فروعا لا أصول لها ".

وعندما تولى الواثق الخلافة عام 227 هـ/842م كان الأتراك قد وصلوا إلى معظم المناصب القيادية، فسار سيرة أبيه في الاعتماد عليهم ورفع من مكانتهم، واستخدامهم في ضرب الحركات المعارضة له في الشام وشبه الجزيرة العربية. فأصبح لقادتهم نفوذ كبير في المجالين العسكري والإداري. وامتد نفوذهم ليشمل الخدمة في بلاط الخليفة، فقد أوكلت الحجابة إلى إيتاخ ووصيف، وسيطروا على الدواوين، وفتح الباب أمامهم للتدخل في اختيار الرؤساء والموظفين التابعين لها. وقيل في ذلك: (ليس يرضي التركي إذا خرج من وثاقه إلا بزعامة جيش أو التوسم بحجبة أو الرياسة على فرقة والأمر والنهي على عصبة) .

والواثق أول خليفة استخلف سلطانا، فقد استخلف أشناس التركي على السلطنة وألبسه تاجاً، وسيطر إيتاخ على ولاية المشرق فزاد من نفوذهم. كما أن الواثق لم يعهد بالخلافة إلى أحد من بعده، فاغتنم القواد الأتراك هذه الفرصة وشاركوا مع كبار رجال الإدارة في اختيار المتوكل للخلافة سنة 232 هـ/847م. وكان لنجاحهم في توليته الخلافة أثر كبير في تولية من جاء بعده من الخلفاء، وأصبحت سابقة جرت عليها الأمور من بعد.

أدرك الخليفة المتوكل على الله خطر الجند الأتراك الذي جاوز الحدود، فأخذ ينهج لنفسه سياسة جديدة، وكانت خلافته نوعاً من الصراع الصامت، الخفي حيناً، والصريح أحيانا، ضد الترك، ولهذا ربط نفسه بتكتلات جديدة لإنقاذ الخلافة من محنتها. وقد مشى المتوكل في مقاومته للجند الأتراك بخطى بطيئة ازداد معها نفوذ القادة الأتراك، فصار لايتاخ الجيش والمغاربة والترك والأموال والبريد والحجابة ودار الخلافة وولاية الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة وإمرة مصر، أي إليه تصريف الدولة، وكان لا يتردد في إظهار غروره بذلك. وتولى قادة ترك آخرون الإدارة وأعمال البلدان، ففي سنة 236هـ/ 850م تولى إفريدون التركي إمرة دمشق. وفي عام 242هـ/856م قلد الخليفة زيد بن عبد الله التركي إمرة مصر، وأصبح الفتح بن خاقان أكبر أمرائه وأفضلهم، فضلا عما حازه القادة الترك من المناصب في الجيش والإدارة فقد تملكوا الاقطاعات في سامراء وأصفهان والجبل .

وقد سن هؤلاء القادة الأتراك سنة جديدة في الإدارة، فحين يعين أحدهم على ولاية خارج العراق كانوا يعينون وكلاء لهم لإدارتها، أما هم فلا يبرحون العاصمة، بل يصر كل واحد منهم على بقائه ليطلع على الأمور من كثب ويحافظ على مركزه بين القوى المتنافسة في البلاط، ذلك لأن القائد التركي كان يدرك أن استبعاده عن جنده يعني انتهاء نفوذه السياسي. فقد كان لكل فريق من هؤلاء الجند الأتراك متعصب لقائد، وكان هذا التعصب أو الولاء تقصياً للمنفعة والعطاء لا غير.

سار الخليفة المتوكل في مقاومته نفوذ الأتراك المتزايد بخطى بطيئة كما أشرنا، كان أولها التخلص من القائد إيتاخ بإبعاده عن سامراء، إذ دبر له الخليفة من حسن له الحج، ثم دبر له مؤامرة قادها عامل الخليفة على الشرطة ببغداد إسحاق ابن إبراهيم، فسجنه عند رجوعه من الحج في بغداد، ومات في السجن بعد أشهر. ولكن الخليفة أسند الحجابة إلى قائد تركي أخر هو وصيف وهذا يشير إلى تعاظم النفوذ التركي، إذ لم يستطع الخليفة التخلص منهم، بل استمر في الاعتماد على قسم منهم وضربه القسم الآخر .

ثم قام الخليفة بتقسيم الدولة بين أولاده الثلاثة (المنتصر والمعتز والمؤيد) عام 235 هـ/849م في محاولة منه لتعزيز النفوذ العباسي على أجزاء الدولة، وحصر السلطة بيد العباسيين. فأعطى المنتصر الجناح الغربي، والمعتز الجناح الشرقي، والمؤيد أقاليم الشام. وحاول المتوكل تغيير عاصمته إلى دمشق سنة 244هـ/ 858م، ولكن هذه الخطوة فشلت إذ أجبره الأتراك على العودة إلى سامراء، ولم يسنده العرب في الشام، بل شغب جند الشام، بتحريض من قادة الأتراك، وطالبوه بالعطاء. وقرر

الخليفة بناء عاصمة جديدة له شمال سامراء (المتوكلية) تخلصا من مضايقات الأتراك .

وقد خطا خطوة جديدة بإدخال فرقة عربية في الجيش، إذ ضم إلى وزيره عبيد الله بن يحي بن خاقان زُهاء اثني عشر ألفا من العرب، ومن المماليك، وغيرهم برسم المعتز، وأضاف الخليفة قبل ذلك خزائن الأموال في جميع الآفاق ودور الضرب إلى المعتز، وأمر في سنة 242هــ/ 854م أن يضرب اسمه على الدراهم في محاولة للوقوف بوجه الأتراك الذين وقفوا إلى جانب ابنه المنتصر. ثم عمد الخليفة إلى مصادرة ضياع القائد وصيف في أصفهان دون أن يستطيع هذا أن يحرك ساكنا، وعزم على قتله وقتل بغُا الصغير وغيرهما من القواد الأتراك. غير أن هؤلاء استغلوا الجفوة التي وقعت بين الخليفة وابنه المنتصر فوجدوا في الأخير وسيلة لتنفيذ جريمتهم، وما زالوا به حتى أغروه بقتل والده وفعلا تم لهم ما أرادوه في سنة 247 هــ/861، ولأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي يجرؤ الخدم والعبيد على قتل سيدهم بتآمر الولد معهم ضد والده الخليفة، وفي ذلك قال الشاعر علي بن الجهم (ت 249هــ/ 836 م) يرثي المتوكل:

عبيد أمير المؤمنين قتلته
وأعظم آفات الملوك عبيدها
بني هاشم صبرا فكل مصيبة
سيبلى على وجه الزمان جديدها

يعد مقتل الخليفة المتوكل بداية النهاية لسلطة الخليفة وقوة الخلافة العباسية ومؤسساتها وخاصة الوزارة، فقد أصبحت مقاليدها بيد الأتراك الذين عملوا على تجريد الخليفة من كل امتيازاته وجعله آلة طيعة في أيديهم، لذلك عمدوا إلى تصفية كل من يرون في وجوده خطرا عليهم. وبرز في أعقاب اغتيال الخليفة ثلاثة قادة عسكريين أتراك (بغُا الكبير وبغُا الصغير وأتامش) ويقف إلى جانبهم أحمد بن الخصيب (وزير المنتصر) الذي أصبح منفذا لكل ما يريدون تحقيقه، فهو الذي أوحى لهؤلاء القادة بفكرة خلع المعتز والمؤيد من ولاية العهد، ليكون لهم الحرية التامة في اختيار الخلفاء بقوله: (إنا لا نأمن الحدثان، وأن يموت أمير المؤمنين فيليّ الأمر المعتز، فلا يبقي منا باقية، ويبيد خضراءنا ؛ والرأي أن نعمل في خلع هذين الغلامين قبل أن يظفرا بنا، وفعلا نجح القادة الأتراك في إجبار المعتز والمؤيد التنازل عن حقهما بالخلافة وبذلك فسح المجال أمام هؤلاء القادة للتحرك مجددا في اختيار الخليفة، لعدم تعيين ولي العهد بدلهما. غير أن المنتصر لم يلبث أن غضب عليهم وصار يقول:" هؤلاء قتلة الخلفاء".

لقد أيقن القادة الأتراك أن الخليفة المنتصر يعمل على الحد من نفوذهم والتخلص من بعضهم، وذلك من خلال تقربه إلى العامة وإظهاره العدل ورفع المظالم، وترك البحث عن العلويين، ورفع

الأذى عنهم، واستغلال الخلاف بين الأتراك، فعمدوا إلى التخلص منه، ووجدوا الفرصة السانحة فدسوا له السم ومات سنة 248 هـ/862م، فأصبح القادة الأتراك هم السادة فكان الخليفة في أيديهم كالأسير إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا قتلوه. وعلى إثر وفاة الخليفة اجتمع القادة الأتراك الثلاثة بتدبير من الوزير أحمد بن الخصيب فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن رضوا به خليفة، فأجمعوا في بداية أمرهم على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لئلا ينتقم منهم. فاجتمعوا على تولية أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا: "هو ابن مولانا، لأن هؤلاء كلهم كانوا غلمان المعتصم، وقالوا: كان هو أولى بالأمر من المتوكل ..."

وقد وافق بغا الكبير هذا الرأي فقال: "صدقتم في أنه ابن مولانا، إلا أنه ليست له هيبة، ويجب أن نولى علينا من نهابه لنبقى معه، وإن ولينا علينا من يخافنا حسد بعضنا بعضا فهلكنا". وأجمعوا على اختيار أحمد بن المعتصم فبايعوه في يوم الاثنين، سابع ربيع الآخر ولقبوه المستعين بالله. وكان من أول أعماله أن عين القائد التركي أتامش وزيراً له وبذلك تقلد منصب الوزارة قائد عسكري من الأتراك بعد أن كان بيد المدنيين.

وفي خلافة المستعين 248-252هـ/862-866م لم تهدأ الأمور،ـ بل على العكس ازداد تنافس الأتراك فيما بينهم، واستفحل أمر بعضهم، فاستأثروا بالأموال، إذ أطلق المستعين يد أتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال، وشاركهما في النفوذ أم الخليفة المستعين، ثم تمكن أتامش من الاستئثار بالأمر، فصارت معظم الأموال التي ترد من الآفاق تذهب إليه، وإزاء ضعف شخصية الخليفة وتنافس الأتراك فيما بينهم تصدعت جبهتهم، إذ أصبح وصيف وبغًا ضد أتامش، وأخذا يعملان على التخلص منه باستمالة الجند إليهما ونجحت خطتهما، إذ ثار الأتراك والفرغانيون ضد أتامش بحجة استئثاره بالأرزاق، فقتلوه في ربيع سنة 249هـ/863م مع كاتبه بعد أن رفض المستعين إجارته ونهبت دورهما.

وقد حاول الخليفة المستعين استغلال هذا الانقسام فاستوزر أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وأجرى تغييرات إدارية، فعزل الفضل ابن مروان عن ديوان الخراج، وولاه عيسى بن فرخان، وولى وصيفا على الأحواز، وبغا على فلسطين، ولكن الخليفة أصبح لا حول له ولا قوة في تعين أو عزل وزرائه، فعندما غضب بغا الصغير على الوزير أبي صالح هرب إلى بغداد، فاستوزر الخليفة محمد ابن الفضل الجراجرائي. لكن قتل أتامش على يد الجند الأتراك لم يحل المشكلة ولم يسترجع المستعين سلطته إذ استقل القائد التركي باغر بالأمور دون وصيف وبغا، وكان باغر من رؤوس المؤامرة ضد

الخليفة المتوكل، غير أنه أدرك أن الأمور تجري في غير صالحه فـ"جمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل أو بعضها مع غيرهم ... فقال: الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيف، ونجيء بعلي بن المعتصم أو بابن الواثق، فنقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا، كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا، وبقينا نحن في غير شيء فأجابوه إلى ذلك...". ولكن كتلة وصيف وبغا كانت الأقوى هذه المرة أيضا فتمكنت من التخلص من باغر وقتلته، فهاج أصحابه، واضطربت الأمور في سامراء، فاضطر الخليفة إلى التوجه إلى بغداد، فرافقه وصيف وبغُا و"جلة العمال والكتاب وبني هاشم، وكذلك الأتراك الذين في جانب وصيف وبغا"، وأصبح الخليفة لا أمر له، والأمر لوصيف وبغا. وعندما ذهب المستعين إلى بغداد شعر الأتراك بحرج الموقف في سامراء، فحاول قادتهم إعادته إلى سامراء، لأن وجوده في العاصمة ضروري لكي يكسب حكمهم الشرعية، إلا أنه رفض، فخلعه الأتراك ونصبوا ابن عمه المعتز بالله خليفة، بعد أن أخرجوه من السجن هو وأخاه المؤيد، وقد صارت بغداد وتوابعها إلى جانب المستعين وسامراء مع المعتز، وحدثت الحرب بين الطرفين، لكن المستعين لم يصمد بسبب تفكك صفوف مؤيديه وتفرقهم، إذ انضم أغلب الترك والفراغنة والمغاربة إلى المعتز، وتخلى أمير العراق محمد بن عبد الله بن طاهر عنه على إثر نزاع نشب بين ابن طاهر وبغا، فضلا عن الحصار الشديد والطويل الذي ضربه جند سامراء على بغداد، حيث منعوا الميرة عنها، فاضطر الخليفة المستعين أن يخلع نفسه سنة 252هـ/866م، ويقبل بشروط الصلح ويرحل إلى واسط حيث قتل بعدئذ بتدبير من قادة سامراء. وتألم الناس للحال التي وصلت إليها الخلافة بعد أن استولى الجند الأتراك على مقاليد الأمور في البلاد، وقد عبر أحد الشعراء ساخراً:

خليفةَ في قفص
بين وصيف و بغا
يقول ما قالا له
كما تقول الببغا

لم يكن الخليفة المعتز بالله أوفر حظا من المنتصر والمستعين، فقد سبق له أن تنازل، كما أشرنا، عن ولاية العهد بتحريض القادة الأتراك، إلا أن هؤلاء القادة عدلوا عن رأيهم الآن، ورأوا فيه الشخص المناسب لهم في الظروف الحالية فلم يكن له مفر من محاباة الجند الأتراك الذين أجلسوه على كرسي الخلافة. وكان الثمن باهظا، إذ سيطر بايكباك زعيم الأتراك على مقاليد الأمور في حين كانت الكتلة المتنفذة من جند الأتراك هي كتلة بغا ووصيف اللذين تجاوزا كل حد في علاقتهما بالخليفة. فعمل الخليفة على التخلص منهما وإنقاذ

ما يمكن إنقاذه بدعمه لفرق المغاربة والفرغانيين الذين كانوا يكرهون الأتراك لاستئثارهم بالسلطة، ونجح الخليفة في التخلص من بغا. ولكن مشكلة توفير المال دفعت كل فرق الجيش للوقوف بوجه الخليفة لعدم استطاعته دفع أرزاق الجند، ولما استنجد بأمه لم تنجده مع ما تملكه من كثرة المال. فكانت نهاية الخليفة المعتز مؤلمة تدل على طغيان الجند وسوء تصرفهم واستهانتهم بالخلافة، إذ دخل عليه صالح بن وصيف، ومحمد ابن بغا "فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار... وسجنوه وعذبوه حتى مات.

بايع الأتراك المهتدي بالله أبا عبد الله بن محمد بن الواثق سنة 255-256هـ/ 868-869م، وكان منفيا في بغداد من قبل المعتز، وقال: " لا أفعل حتى أسمع بأذني خلع المعتز نفسه فالمثل السائر: "لا يجتمع فحلان في شول ولا سيفان في غمد". و لم يقبل بالخلافة إلا بعد أن يتنازل عنها المعتز، وقد أقر المعتز بخلع نفسه وبعجزه عن القيام بمهام الخلافة والرغبة في تسليمها إلى محمد ابن الواثق المهتدي. إن موقف المهتدي يدل على تقديره واحترامه لمكان السلطة العباسية وهيبتها وشرعيتها. كما أن المهتدي رغب في أن تكون البيعة موافقة للتقليد السائد دون أن يكون للقادة الترك فضل في تنصيبه، وشرط على صالح بن وصيف وبابكياك شروطا حلفهم عليها بالأيمان المغلظة المؤكدة.

وقد أولى المهتدي اهتماماً كبيراً في معالجة مشكلات الناس، ونشر العدل بينهم، والقضاء على مظاهر الأبهة واللهو، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقرب العلماء، ورفع من مكانة الفقهاء، وكان يجلس للمظالم فعظمت مكانته في نفوس الناس وهابوه، وقد أصاب سياسته بعض النجاح باستمالة رجال الدين والعامة وتأييدهم له، مع بعض الجند. وعمل جاهدا على إنقاذ الخلافة من محنتها بالحد من نفوذ القادة العسكريين الذين يمثلون جماعات متنازعة متناحرة وخصوصاً أن الخلاف بدأ يأخذ طريقه بين الجند وصغار الضباط من جهة وكبار القادة من جهة أخرى، إذ أدرك الجند وصغار القادة أن قادتهم يستغلونهم للحصول على أموال وامتيازات ومناصب لهم دون أن يصيبهم منها شيء. وقد ثار الجند في سامراء ورفعوا شكواهم للخليفة، وثار الجند في بغداد متذمرين من واليها الذي امتنع عن دفع أعطياتهم، فتهيأت الفرصة للخليفة للتحرك من أجل التخلص من القادة الأتراك، ويعيد مكانته الخاصة وكان هؤلاء الجند تعهدوا بحماية الخليفة وقتل كل من يعترض على إجراءاته .

غير أنه لم يستغل الجند بل لجأ إلى محاولة ضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض باتباع سياسة

التحريض والإغراء، فكتب الخليفة إلى القائد بايكباك وهو مع موسى ابن بغا في مواجهة مساور الشاري يعده وتعهد بأن يخفيه إن هو قتل موسى بن بغا ومفلحا، ففطن بايكباك لنيات الخليفة وأخبر موسى وجماعته بالأمر، وعندئذ تحول النزاع إلى معارضة علنية فرجعوا إلى سامراء وعزموا على خلع المهتدي، وعندما علم الخليفة بما اتفق عليه القادة الأتراك قابلهم بكل شجاعة وجرأة، إذ استدعى موسى بن بغا وأصحابه وعنفه وأنذره قائلاً : ".. والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن أو ليذهبن بها أكثركم. أما دين! أما حياء. أما رعة كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله". فجمع الخليفة حوله مؤيديه من العامة والمغاربة، رافعا شعار "يا معشر الناس انصروا خليفتكم"، وقبض على بايكباك وأمر بقتله، فهاج الأتراك، ووقع الخوف في صفوف العامة، فلم يواصلوا وقوفهم إلى جانب الخليفة، وانسحب الجند الأتراك من جانبه، وانضموا إلى أصحابهم مما أدى إلى اندحار المهتدي، فوقع في الأسر ثم خلع، و لم يكتف القادة الأتراك بذلك بل عذبوه حتى مات في رجب سنة 256 هـ/870م، وقبل وفاته بايعوا أحمد بن المتوكل بالخلافة، ولقب بالمعتمد على الله، وقد شارك في قتل الخليفة من القادة الأتراك كل من بغا الصغير وباغر وأتامش .

تعد إجراءات الخليفة المهتدي من أكثر الإجراءات السياسية والعسكرية جدية في سبيل استعادة هيبة الخلافة ومركزها. فقد كان حازماً في مواقفه حين منع مجالس اللهو والغناء، وأبعد السباع وكلاب الصيد عن البلاط. وجلس للمظالم وأشرف على شؤون الدواوين بنفسه، غير أن هذه السياسة كما لاحظنا لم تلق الاستحسان من الجماعة العسكرية المتنفذة، ووقف الأتراك صفاً واحداً ضده، إضافة إلى المشكلات الداخلية المتعددة التي واجهها، كحركة الزنج في البصرة؛ وحركات الخوارج في الجزيرة والمشرق؛ وحركات القبائل في بلاد الشام وامتناعها عن دفع الضريبة، كل ذلك منع الخليفة من تحقيق رغبته في وضع نهاية لسيطرة الجند الأتراك.

والملاحظ في تاريخ هذه الحقبة أن تدهور الخلافة فيها لم يكن ناشئا عن ضعف الخلفاء أنفسهم، بل كان نتيجة اعتمادهم على الجند الأتراك دون غيرهم، وانعدام التوازن بين الجماعات التي يتألف منها الجيش العباسي، وسيطرت الروح العسكرية على الروح المدنية. وقد امتد الوهن والعجز إلى الوزارة وهذا أمر طبيعي، لأن الوزير يستمد قوته من الخليفة، فكان عمل الوزير في هذه الحقبة مجرد جباية الضرائب، وهمه الأكبر إرضاء كبار قادة الأتراك بالمال، فإذا وافق هواهم رضوا عنه وأبقوه

في منصبه، وإن خالفهم في شيء أزالوه وأقاموا غيره.

ونتيجة الفتن وأعمال الشغب وتبذير الخلفاء خاصة المستعين للأموال فقد أصبح بيت المال عاجزاً عن تلبية أبسط الطلبات. ومما زاد الأمر سوءا ظهور المتغلبين من أمراء الأطراف ومحاولتهم الانفصال عن الحكومة المركزية في سامراء بعد أن وجدوا الفرصة سانحة أمامهم بسبب صراع الخلافة مع الجند الأتراك، وفي مقدمة هؤلاء يعقوب بن الليث الصفار في المشرق ت 265هـ/879م وأحمد بن طولون في مصر ت270 هـ/884م.

كما قامت حركات مسلحة متعددة أبرزها حركة الزنج في جنوب العراق التي أرهقت كاهل الدولة وكلفتها جهوداً وأموالاً طائلة مدة 15 سنة (255- 270 هـ/869-884م) .

تمكن الأتراك من التخلص من المهتدي، ولكن كان لصموده ووقفته الشجاعة بوجه الجيش إذ قال: "... ولست كمن تقدمني مثل أحمد ابن محمد (المستعين) ولا مثل ابن قبيحة (المعتز). والله ما خرجت إليكم إلا وإنا متحنط، وقد أوصيت أخي بولدي، وهذا سيفي والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي..." كان لهذه الوقفة نتائج إيجابية إذ بدأت أول حركة منظمة تدعو إلى إعادة سلطان الخليفة، مكّنت أحمد الموفق مرة أخرى من السيطرة على قيادة الجيش وتوجيهه لخدمة الدولة، فعادت القيادة فيما بعد للعباسيين.

وفي عام 278هـ/892م عاد الخليفة المعتمد إلى بغداد، وبذلك فقدت سامراء مركزها . وفي بغداد جماعات عديدة ترغب في حماية الخلافة من شرور الأتراك. وبذلك عادت الخلافة إلى الانتعاش مرة أخرى على مدى أربعين سنة، حكم فيها ثلاثة خلفاء فقط (المعتمد على الله 256-279هـ/ 869-892م، والمعتضد بالله 279-289هـ/892-901م، والمكتفى بالله 289-295/901-907م) ماتوا جميعا موتا طبيعيا، بعد أن عاشوا في دست الخلافة آمنين من هجمات لأتراك عليهم، وعاد الأتراك خداما للدولة، كما كان شأنهم في أيام المأمون والمعتصم والواثق.

2) الخلافة العباسية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (256-295 هـ/ 870-907 م)

بدأت ملامح انتعاش الخلافة العباسية تظهر منذ أواخر أيام المهتدي بالله 256هـ/870م عندما واجه أطماع القادة الأتراك، عاملاً على كسر شوكتهم والتصدي لرغباتهم الشخصية من خلال جلب العامة والعدد الكبير من الجند الأتراك الذين سئموا حياة الشغب والفوضى التي عاشتها الخلافة إلى جانبه. ويعدّ مجيء المعتمد على الله إلى الخلافة سنة

256هـ/870م البداية الحقيقية لهذا الانتعاش مع أنه لم يكن صاحب الأمر والفعالية فيه، فقد كانت السلطة الحقيقية بيد أخيه أبي أحمد طلحة الموفق (ت 279هـ/ 892م) الذي كان يتمتع بشخصية قوية ومقدرة عسكرية عالية مكنته من السيطرة على زمام الأمور في عهد المعتمد على الله الذي وصف بضعف شخصيته الثقافية والسياسية.

وإزاء تدهور الحياة بصورة عامة كان لا بد للخليفة من العمل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وحسم الأمور إلى جانب خلافته، ففكر في الأمر واهتدى إلى ضرورة إستدعاء أخيه من أبيه أبي أحمد الموفق بالله ومن معه من أمراء البيت العباسي من مكة حيث نفاهم إليها الخليفة المهتدي بالله. وهكذا كانت بداية ظهور الموفق على المسرح السياسي إذ إستعان به وسلمه القيادة العسكرية للحملة ضد حركة الزنج (255- 270هـ/869-884م) في جنوب العراق لما كان له من دور في أحداث المدة السابقة لتعلق الجند به ودرايته بالأحداث السياسية وإمكانيته في القيادة.

يقول ابن العمراني (ت580هـ/ 1184م): "وكان بلي بشيء لو بلي به المنصور أو المأمون لبعل به. فمن جملة ما بلي به ما كان أخوه منهمكاً فيه من العشرة وترك النظر في أمور المسلمين، وكان يحتاج أن يتولى ذلك بنفسه".

نجح الموفق أولا في إبعاد المؤسسة العسكرية عن مسرح السياسية والسعي وراء الأطماع الذاتية للقادة وتضاؤل نفوذها حتى طواها تحت جناحيه، ووجهها نحو مهماها الحقيقية المتمثلة في الدفاع والمحافظة على وحدة دولة الإسلام في وجه أعدائها، في وقت كانت فيه الدولة مضطربة ومتفسخة العرى بسبب تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية وانعدام الأمن، حتى كاد الأمر يخرج من البيت العباسي. فبادر إلى معالجة الأمر قبل انفراط عقد الخلافة، فهو ولي العهد الثاني بعد ابن أخيه جعفر "المفوض إلى الله"، وإليه أسندت ولاية الري وخراسان وطبرستان وسجستان والسند، فضلا عما أسند إليه من أعمال أخرى، فأصبحت إليه السلطة الحقيقية ولم يبق للمعتمد إلا الخطبة والسكة وحددت مصروفاته وكل تصرفاته وقد وصف ابن الطقطقي (ت709هـ/ 1309م) خلافته بقوله: "كانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة الشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة، الأمر والنهي وقود العساكر ومحاربة الأعداء, ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء، وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته.."

إن تولية الموفق ولاية العهد سنة 261هـ/875م يعد فاتحة عهد جديد تمكن فيه من إنقاذ الخلافة من

مكائد الانفصاليين والأعداء المتمثلة بتحركات يعقوب بن الليث الصفار (ت265هـ/ 876م) الذي بدأ يسفر عن أحقاده ونياته الخبيثة، وكان الزنج قد تمكنوا من تحقيق مطامع كبيرة لهم في جنوب العراق، وأحمد بن طولون (ت 270هـ/ 884م) بدأ يخطط للانفصال بمصر وكان الخوارج بالجزيرة الفراتية يسببون مشكلات للدولة فضلا عن اضطرابات عديدة أخرى طامعة في الانفصال. يقول الموفق إزاء هذا الوضع : "فتغطرست لبقاء هذه الدولة بما ضبطتها به، وصنتها عما كانت قد أشرفت عليه من الزوال."

نجح الموفق بفضل تدابيره السياسية والإدارية والعسكرية في إعادة هيبة الخلافة، فساعد ذلك على استتباب الأمن والنظام، فقد تمكن من القضاء على الحركات الانفصالية في جنوب العراق (حركة الزنج)، وتخلص من يعقوب الصفار وحركات الخوارج في الجزيرة، وأفشل محاولة أحمد بن طولون جر الخليفة المعتمد إلى مصر، وخفف من عواقب الحركات الاستقلالية شرقاً وغرباً وخروجها على الخلافة أو استقلالها عنها، فانتعشت الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية، واستحق الموفق لقب الناصر لدين الله وفي ذلك يقول الشاعر ابن المعتز:

يا ناصر الإسلام إذ خذلت

دعواته فابتل وانتشا

لما استغاث وقـــل ناصره

لبيته وسعيت منكمـــشا

كالليـــث لا تبقي مخـــالبه

برءاً لجـــارحه إذا بطشا

توفي الموفق سنة 278هـ 891م بعد هذه الأعمال الجليلة التي قام بها فجنى ابنه المعتضد بالله (279-289هـ/892-893م) ثمار جهد أبيه الذي شارك فيه بنفسه إلى جانبه. فقد وقف إلى جانب أبيه في حروبه وفي أعماله، فأكسبه ذلك خبرة مكنته من أن يستمر في السير نحو رفع شأن الخلافة وإقرار هيبتها، كما مكنته من الضرب على يد الأتراك، وكان قد استقطب حوله بعض قادتهم والجند في حياة أبيه. ولهذا السبب بادروا إلى مبايعته بولاية العهد بعد المفوض إلى الله، ولقبه الخليفة المعتمد بالمعتضد بالله، فتحولت إليه سلطات أبيه، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل أراد أن يتسمى بإمرة المؤمنين بعد المعتمد على الله وأيده في ذلك الجيش، فأجبر المعتمد على الله على خلع ابنه من ولاية العهد الأولى ومبايعة المعتضد بالله، ثم ما لبث الخليفة أن مات فجأة بعد شهور.

عرف المعتضد على الله بقوة شخصيته وحزمه وشجاعته وفطنته وكان مضربا للأمثال في حربه مع الزنج. وقد رافق كل ذلك قوة مفرطة، فقد وصف بأنه شديد الشكيمة على أعدائه مقداما لا يهاب الخطوب، فلهذا كان يلقي الرعب في قلوب أعدائه

فيتقون سطوته فيكفون عن الشغب وعن المظالم خوفا منه، لقد عبر حزمه وضبطه لمقاليد الأمور عن رغبة في إعادة الأمور إلى سابق عهدها وخصوصا أنه أدرك أهمية ذلك من خلال معاصرته للأزمات التي مرت بها الخلافة بعد مقتل الخليفة المتوكل سنة247هـ/861م.ووجد في الضرب على يد الجند أنجح وسيلة لتحقيق هدفه، إذ أكثروا من العبث والفساد والاعتداء على الخلفاء وكبار رجال الدولة، فتمكن من الحد من بأسهم وشوكتهم وجعلهم طوع يديه على كثرتهم فجعل كل قائد مسؤولاً عن سلوك الجند الذين تحت إمرته أمام الخليفة لذلك اضطر القادة إلى منع أتباعهم من سوء التصرف. فهدأت الفتن والاضطرابات، وقل شغب الجند فأنقذ الخلافة مما وقعت فيه، وبذلك حدث التجديد في دولة بني العباس التي أصابها العجز والوهن وكادت تهوي إلى النهاية حتى قيل في المعتضد بالله: "بدأت الدولة العباسية بأبي العباس- الخليفة العباس الأول- وجددت بأبي العباس - أي المعتضد بالله-" وذكر عن الخليفة المعتضد بالله قوله: "أنا الذي أصلحت الدنيا بعدما فسدت ورددت ملك بني العباس بعدما ذهب". وفي ذلك يقول ابن الرومي (ت283هـ/896م):

هنيئا بني العباس إن أمامكم

إمام الهدى والبأس والجود أحمد

كما بأبي العباس أنشئ ملككم

كذا بأبي العباس أيضا يجدد

وعُدَّ الخليفة المعتضد بالله من أقدر خلفاء القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وعُرِفَ أيضا بحلمه، فكان يأخذ الأمور باللين والعفو عن المسيء حينما لا يجد مسوغا للشدة. إن هذه السمات التي تحلى بها الخليفة المعتضد فضلا عما ورثه من قوة والده ونشاطه والسرعة في تنفيذ أعماله، والإشراف الذاتي على تحقيق معظمها، وقدرته العسكرية والإدارية، واستعانته بأصحابه على نقل الأخبار (نظام الجاسوسية) لمعرفة كل ما يقع في البلاد من دقائق الأمور ساعد على إعادة الاستقرار والطمأنينة في نفوس الناس، واستكمل ذلك بإظهار مظاهر الأبهة والوقار على خلافته، ومن أمثلة ذلك اعتماده على حجاب وكتاب لهم مكانتهم ومقدرتهم على تصريف الأمور ومن شهد بإخلاصهم للخليفة .

كانت سيطرة الخلافة على أقاليمها حين تولى المعتضد بالله قيادتها لا تتعدى أرض السواد بسبب المشكلات والأحداث التي عاصرت الخلافة خلال تسع السنوات التي تلت مقتل المتوكل على الله، وما رافقه من تدخل الجند الأتراك والآثار السلبية التي خلفها تمرد الزنج (255-270هـ/868-883م). أما الأجزاء الأخرى من الدولة فقد كانت بيد المتمردين أو الأمراء الخاضعين اسمياً

للخلافة أو أولئك الذين يرسلون الهدايا السنوية أو المتطلعين إلى التحرر والانفصال، فالأقاليم الشرقية كانت تحت سيطرة إمارات وراثية شبه مستقلة، ومنطقة الجزيرة كانت مصادر الاضطراب فيها ثلاثة: الأولى القبائل البدوية وخاصة بنو شيبان الذين كانوا يهاجمون المدن ويقتلون ويسلبون والثانية الخوارج، والثالثة بنو حمدان وعلى رأسهم حمدان ابن حمدون الذي كان يطمح إلى تأسيس إمارة له واتفقت مصالحه مع الخوارج ضد الخلافة. والأقسام الغربية من الدولة، فمصر والشام والثغور الشامية كانت بيد الطولونيين وإفريقية بيد بني الأغلب والمغرب الأقصى تحت سيادة الأدارسة. أما بلاد اليمن فكانت مسرحا لصراع بين قوى ثلاث (الزيدية، والقرامطة، والفاطميون) فضلا عن بني زياد وبني يعفر الذين يدينون بولاء ضعيف للخليفة العباسي. وفي جنوب العراق تحرك القرامطة الذين باتوا خطراً يهدد العاصمة وخصوصاً بعد أن انظم إليهم البدو الأنباط، ولهذا صح قول ابن الطقطقي في دولة المعتضد بالله: "وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرين". وقال أيضا: "ولِّي والدنيا خراب والثغور مهملة، فقام قياما مرضيا حتى عمرت مملكته وكثرت أمواله، وضبطت الثغور". فضلا عن كل هذا فإن الأوضاع الاقتصادية والمالية قد وصلت إلى الحضيض، إذ لم يكن في بيت المال إلا دراهم معدودة. فبذل المعتضد بالله كل ما في وسعه لإنقاذ الخلافة وإعادة هيبتها وسيطرتها على زمام الأمور، وبفضل جهوده المتواصلة والحثيثة سكنت الفتن وصلحت البلدان وأخمدت الحروب، وساد الأمن والاستقرار معظم أقاليم الخلافة ورخصت الأسعار وانتعشت التجارة والزراعة وهدأ الهرج وسالمه كل مخالف. تركزت جهوده في بادئ الأمر للقضاء على الفتن والاضطرابات وإعادة الاستقرار فتمكن أولا من أن يخضع عرب الجزيرة الذين باتوا يهددون عاصمة الخلافة وإعادتهم إلى السلطة المركزية، و لم يكن بمقدور من سبقه من الخلفاء السيطرة على المنطقة منذ بدأت الاضطرابات فيها عام 247هـ/861م، وقد قاد المعتضد بالله الجيش العباسي بنفسه، فانتصر على المتمردين من الأعراب والأكراد وسجل انتصاره هذا في رسالة وجهها إلى نجاح الحرمي الخادم الذي استخلفه في بغداد، وقد اتخذ عددا من الإجراءات التي تؤمن الاستقرار والأمن في هذه المناطق. ولأهمية هذه المنطقة ورغبة الخليفة في إعادة الحياة الطبيعية إلى ربوعها فقد ترك ابنه على "المكتفي بالله" في مدينة آمد مع جيوش تحت إمرته لضبط الناحية مع أعمال قنسرين والعواصم وديار مضر وربيعة.

اتجه الخليفة المعتضد بالله بعد ذلك نحو المتمردين والمتجاوزين الذين اغتنموا فرصة الاضطرابات وانعدام الأمن والاستقرار في عاصمة الخلافة،

وكشفوا عن نياتهم الخبيثة للنيل من الخلافة والاستئثار بمقاليدها ومن بين أولئك:

- تحرك قبيلة طيئ التي هددت طريق الحج الذي يربط العراق بمكة والمدينة. فكان من واجب الخليفة الرئيس تأمين طريق الحج ومعاقبة الذين يهددون سلامة الحاج. وقد هاجمت هذه القبيلة موكب الحج عام 285هـ/898م وقتلت منهم عددا كبيرا، وسلبت أموالا طائلة، فلما وصلت أخبارهم إلى الخليفة ندب أحد قواده لقتالهم فلقيهم وانتصر عليه وفرق جمعهم ووقع زعيمهم أسيرا فقتل نفسه، وبذلك عاد الاستقرار والأمن وأمن الحجاج على أنفسهم وأموالهم.

- وكان قبل ذلك قد أعاد الأمن والاستقرار إلى منطقة الجبل وأعلن آل دلف مبايعتهم للخليفة سنة 283هـ/ 896م.

- القضاء على تمرد وصيف الخادم الذي حاول السيطرة على منطقة الثغور وأرمينية وتوسيع نفوذ سيده محمد بن أبي الساج عامل الخليفة هناك. فخرج الخليفة المعتضد بالله بنفسه عام 287هـ/900م، وقد أحاط حملته بسرية تامة، فتمكن الخليفة من إلقاء القبض على وصيف وإحراق أسطول طرسوس، لتواطؤ أصحاب النفوذ فيها مع وصيف وابن أبي الساج، وكذلك أمر بهدم سور أنطاكيا للحيلولة دون تحصن المتمردين، وقد سبق للمعتضد بالله أن هدم قلعتي ماردين وآمد وغيرهما من القلاع الحصينة التي دخلها عنوة .

- إخضاع القرامطة في سواد الكوفة، وذلك في محرم 289هـ/ كانون الأول 901م في حين لم يتمكن الخليفة من قرامطة البحرين الذين هاجموا البصرة سنة 287هـ/900م وشتتوا جيش الخلافة، فتعاظم أمرهم بمرور الزمن.

ومع هذا فمن الواضح أن الخليفة تمكن - بجهوده وإدارته الحكيمة ومعالجته السريعة للأزمات التي مرت بها الخلافة - من إعادة الاستقرار والأمن في المناطق والمدن التي باتت الحركات المناوئة فيها تهدد عاصمة الخلافة مما مكنه من التعامل مع حكام الإمارات الإسلامية ونجاحه في التخلص من بعضهم وجلب بعضهم الآخر إلى جانبه.

الإمارات في المشرق الإسلامي:

شهدت الدولة العربية الإسلامية قيام الإمارات شبه المستقلة قبل وصول المعتصم للخلافة عام 218هـ/833م في المشرق والمغرب الإسلامي (الطاهريون، الصفاريون، السامانيون، الطولونيون، الأغالبة، الأدارسة...الخ). وقد زالت الإمارات الطاهرية عام 259هـ872م إلا أن نفوذهم ظل قائما في بغداد، حتى تولى المعتضد بالله الخلافة، فعزل عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر وهو آخر من تولى الشرطة من آل طاهر في بغداد وبذلك قضى على نفوذهم نهائيا [انظر الطاهريون]. أما الصفاريون

(254-289هـ /868-901م) فقد اتسمت علاقتهم بالخلافة بالسوء في معظم الأحيان بسبب أطماع يعقوب الصفار وموقف الأمير الموفق منه، وانتهت بقيام موقعة "دير العاقول" سنة 262هـ/875م التي انتصر فيها الموفق على خصمه يعقوب الصفار، وعلى أثرها تحسنت العلاقة بين الموفق وعمرو بن الليث الصفار الذي خلف أخاه على الإمارة. ووصفت علاقة المعتضد بالله بالصفاريين بأنها غير مستقرة على وتيرة واحدة، وأودع عمرو السجن آخر أيام المعتضد بالله، ودس له السم في عهد المكتفي. وبعد عمرو آلت الأمور إلى والده طاهر الذي لم يصمد أمام قوة الخلافة التي واصلت إرسال جيوشها حتى استطاعت القضاء على بقية الصفاريين في سنة 289هـ/901م واسترجاع فارس التي كانت هدف الخليفة الرئيس [انظر الصفاريون].

بانتهاء الصفاريين لم يبق أمام السامانيين الذين تعاونوا مع الخلافة أي منازع لنفوذهم في الشرق، وصارت كل البلاد (ولاية خرسان وما وراء النهر، تركستان، السند، الهند، جرجان) تابعة لهم، وأرسل لهم المتعضد بالله عهدا بذلك، وكانت علاقة إسماعيل الساماني بالخليفة حسنة يسودها التفاهم والاحترام والطاعة والإجلال للخلافة. والسبب في هذا يكمن في سيطرة السامانيين على بلاد ما وراء النهر، وهي الثغور الشمالية التي كانت تجد الرعاية منه بعد ذلك من واجبات الخليفة الأساسية [انظر السامانيون]، فضلا عن الدور الذي أداه السامانيون في القضاء على الصفاريين الذي كانوا يضايقون الخليفة، وقد حال وجود السامانيين في بلاد ما وراء النهر، وكونهم يدينون بالمذهب السني دون توسع العلويين في طبرستان.

إن وجود العلويين في طبرستان كان يقلق الخليفة المعتضد بالله خصوصاً بعد أن ثبت أن محمد بن زيد (ت287هـ/899م) حاول مرات متعددة توسيع نفوذه وتحالفه مع أعداء الخلافة الذين شقوا عصا الطاعة، ومما طمأن الخليفة من عدم إمكانية توسعهم على حساب الخلافة وجودهم بين قوى مضادة لهم تعترف بشرعية الخليفة العباسي وتسعى إلى القضاء عليهم واقتطاع أملاكهم، وهم الصفاريون ثم من بعدهم السامانيون، وهذا جعل نفوذهم محدودا، وأخيرا نجح السامانيون في إجلائهم عن طبرستان نفسها في عام 287هـ/899م وبذلك ضمت الخلافة العباسية إلى جانبها الجناح الشرقي من الدولة، فازدادت هيبتها وكثرت مواردها وعم الأمن والاستقرار في معظم ربوعها.

هيأت هذه الظروف الفرصة للخليفة للتحرك نحو الجانب الغربي من الدولة. وقد لاحظنا فيما سبق سوء العلاقة بين الأمير الموفق وأحمد بن طولون

الذي كان يسعى للاستقلال بمصر والشام لكن طموحاته اصطدمت بحركة الانتعاش التي ظهرت في الخلافة بقيادة الموفق التي تهدف إلى استعادة فعالية الخلافة وتقوية قبضتها على ولاياتها. فساءت العلاقة بين الطرفين، وحاول أحمد بن طولون إغراء الخليفة المعتمد بالله للتوجه إلى مصر، واستجاب المعتمد بالله لإغرائه، فخرج متظاهرا بالتصيد حتى وصل إلى الرقة، لكن الموفق اكتشف المؤامرة فأعاد الخليفة إلى سامراء فأدى ذلك إلى تأزم كبير في العلاقة بين الطرفين وتبودلت الاتهامات بينهما. وبعد وفاة أحمد بن طولون وتولى ابنه خمارويه الإمارة واصل سياسة أبيه في تعزيز مكان دولته. ومع أن الموفق قد وضع نهاية لتمرد الزنج وتفرغ لشؤون مصر أحس أنه من الأفضل مسالمة الطولونيين لقيادتهم للدولة بجدارة وكفاية، كما أن خمارويه هو الآخر وجد من الخير له أن يسعى للسلام مع الخلافة، فبدأ بطلب الصلح فأجابه الموفق إلى ذلك، وبذلك وضع حدا للصراع بين العباسيين والطولونيين، فهدأت الأحوال، واستمرت العلاقة الحسنة حتى بعد وفاة الموفق. فلما تولى المعتضد بالله الخلافة بادره خمارويه إلى تقديم الولاء، وأهدى له هدايا وتحفا وأموالا جليلة، وتعززت هذه العلاقة، وزالت الوحشة والنفور بينهما عندما وافق المعتضد بالله على زواجه من قطر الندى بنت خمارويه. وكسب بذلك البيت الطولوني مجدا ونفوذا بمصاهرته للخليفة، كما كسبت الخلافة وقوف هذا الطرف الغربي من الدولة إلى جانبها يشد أزرها ماديا وعسكريا وسياسيا. وبعد وفاة خمارويه سنة 282هـ/895م اضطربت الأحوال في الدولة وأخيرا تمكنت الخلافة من دحر الجيش الطولوني ودخول الفسطاط سنة 292هـ/904م، وعادت مصر إلى حكم الخلافة مباشرة.

وفي إفريقية قامت دولة الأغالبة منذ سنة 184هـ/800م حين ولي الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب (ت 196هـ/812م) منطقة المغرب الأدنى، واعترف به أميرا مستقلا بإمارته تحت ظل الخلافة العباسية، فاستمرت العلاقة التقليدية مع الخلافة، وقد وصلت عام 282هـ/895م هدايا نفيسة بعثها إبراهيم ابن الأغلب -إبراهيم الثاني- ولما وردت الأخبار إلى الخليفة حول إسراف إبراهيم بالقتل لإصابته بمرض عقلي أصدر أمراً بعزل إبراهيم، فامتثل لأمر الخليفة واعتزل الإمارة وولى على إفريقية ابنه العباس وأظهر التوبة والزهد، وبذلك حافظ على العلاقة الطيبة مع الخلافة .

وفي الوقت الذي واصل الخليفة المعتضد بالله سياسة والده في القضاء على مصادر الفتن والاضطراب في الدولة وإعادة الحياة الطبيعية إلى البلاد توجه نحو تنظيم الإدارة وتعزيز مكانة المؤسسات الرسمية بما

فيها الخلافة، لكي تحظى باحترام الرعية وتتمكن في النهاية من تأدية الواجبـــات المنوطة بها، وشملت المؤسسات الآتية:

– الخلافة :

يعد مجيء المعتضد بالله للخلافة بداية التحول الحقيقي في تاريخها؛ ذلك لأنه أعاد إليها هيبتها بعد أن وهى وضعف أمرها، ومع أن المعتضد بالله اعتمد على الجند في الوصول إلى الخلافة كغيره من خلفاء بني العباس (فترة الفوضى والاضطراب) لم يقع تحت تأثيرهم لسببين:

أولهما: أن الجند الذين أيدوه ونصبوه خليفة كانوا من غلمانه وخلصائه فكانوا أطوع له.

وثانيهما: أن الناس سئموا من تدخل الجيش في الأمور السياسية، وما نجم عن ذلك من تدهور الأوضاع وحدوث الفتن والفوضى والاضطراب وأصبحوا يؤيدون كل اتجاه يهدف إلى الحد من نفوذ الجند الأتراك، وكان الخليفة نفسه يرى أن سبب الويلات التي حلت بالدولة العباسية، وضياع هيبة الخلافة، وتدهور الأوضاع الاقتصادية يرجع إلى تدخل الجند الأتراك وطغيانهم وإطلاق يدهم في جميع الأمور، ومن أجل هذا أخذهم بالشدة والقوة، وعاقب المسيء منهم مهما كانت إساءته، وتولى قيادة الجيوش بنفسه في أغلب الأحيان، وهذا جعل الجند يشعرون بارتباطهم به وولائهم له، بدلا من ارتباطهم بقادهم وولائهم لهم لذلك لم يكن لأي من القادة الأتراك شأن أو نفوذ على جند الخلافة في عهد المعتضد بالله، وأصبح هؤلاء القادة يأتمرون بأمر الخليفة، وكان للخلاف الذي وقع بين صفوف القادة أثره الإيجابي الذي مكن الخليفة من تحقيق هدفه في السيطرة على مقاليد الأمور، ولذلك قال عنه ابن الطقطقي: "وكان قوي السياسة، شديدا على أهل الفساد، حاسما لمراد أطماع عساكره عن أذى الرعية ".

وكان من نتائج هذه السياسة أن تحسن وضع الخلافة إذ تمكنت من إتباع سياسة إدارية حكيمة في التعامل مع العمال والموظفين، وقد ذكر أن الخليفة كان دقيقا في محاسبتهم ليمنعهم من استغلال الناس، ويرى أن الإبقاء على العمال جزء من هيبة الدولة: "هؤلاء أكابر العمال الذين قامت هيبتهم في نفوس الرعية وعرفوا أقطار البلاد، وهم أركان الدولة أعضاء الوزارة المرشحون لها، فإن لم تحفظ نفوسهم وضع ذلك من الأمر، وأثر فيه" .

– الوزارة:

الوزارة مؤسسة من مؤسسات الخلافة العباسية تدهورت بتدهور الخلافة، منذ أن استولى الجند الأتراك على مقاليد الأمور في الدولة حتى أصبحت بمثابة وظيفة كتابية يأتمر القائم عليها بأمر القواد الأتراك .وكان مجيء عبيد الله بن سليمان ابن وهب (ت288هـ/900م) الذي وصف بأنه: " كان بارعا في صناعته، حاذقا ماهرا، لبيبا جليلا".

بداية انتعاش واستقرار الوزارة وازدياد أهميتها ورجوعها إلى حالتها الطبيعية وفي ذلك. يقول ابن المعتز من قصيدة يمدح بها الوزير عبيد الله بن القاسم :

لقد عمر الله الوزارة باسمه

ورد إليها أهلها بعد إفقـــــار

وكانت زمانا لا يقر قرارها

فلاقت نصابا ثابتا غير خوار

ومما ساعد على تثبيت أركانها أيضا اهتمام الخليفة المعتضد بالله بأمرها، وبالغ في رعايتها فكان يتشدد في المحافظة على حياة الوزير ويواصل إرشاداته له ويحذره من القيام من مجلسه لمقابلة شخص ما، ولو كان ذلك الشخص صاحب طرف أو ملك أو ولي عهد، لأن منزلة الوزير تلي منزلة الخليفة وتعظيمها لمقامه. وقد أسند الخليفة إلى وزيره إضافة إلى الإدارة الإشراف على الدواوين، والنظر في المظالم وقيادة الجيوش. وبذلك صار الوزير مقدما على جميع رجال الجيش، ويعد هذا الوضع الجديد إحياء لنظام التدرج في المناصب التي تنتهي برئيس أعلى. وإن بقاء عبيد الله وابنه القاسم في الوزارة دون مصادرة ودون عزل حتى وفاتهما، يعني دون أدنى شك استعادة الوزارة لهيبتها ومكانتها وترسيخ قواعدها، وعادت أمورها إلى سابق عهدها قبل الذي كانت عليه فترة الفوضى والاضطراب.

– الدواوين :

استمر العمل بنظام الدواوين العباسي الأصل والزمام إلى أن تولى المعتضد بالله الخلافة، فجمعا في ديوان واحد أطلق عليه (ديوان الدار) وجعل له ثلاثة فروع (ديوان المشرق وديوان المغرب، وديوان السواد). وكان الخليفة حريصا على إبقاء ديوان السواد بيد آل الفرات، لثقته الشديدة بهم، وخبرتهم الواسعة في الأمور المالية والزراعية والإدارية ولاسيما أن السواد عماد الدولة. وقد أمر الخليفة صاحب بيت المال العامة والخاصة بألا يقبل أي توقيع في شيء من المال إلا بعد أن يكون فيه توقيع أحمد ابن الفرات (ت291هـ/903م)، وكان هذا كثيرا ما يمتنع من إجابة أيّ أوامر حتى أوامر الخليفة بمنح القطاعات دون أن يغيظه أو ينكر عليه فعله، لعلمه أنه لم يفعل ذلك إلا حرصا على أموال الدولة، ولهذا قيل في أحمد بن الفرات: "السلطان بخير ما دام في كتابه مثل هذا الرجل..."

وقد اشتهرت عائلتان بإدارة الدواوين في هذه المدة (آل الفرات وآل الجراح)، وكان على رأس العائلة الأخيرة علي بن عيسى الذي عرف بمقدرته وكفاءته ومنزلته العالية في البلاط العباسي، وكان الصراع شديدا بين هاتين الأسرتين، ولكنه لم يظهر بشكل واضح أيام المعتضد بالله، لسيطرة الخليفة على زمام الأمور. وقد توسع نفوذ أصحاب الدواوين بعد سنة 289هـ/901م فصاروا

يتدخلون في اختيار الخليفة، وهذا يعني إبعاد المعتضد بالله الجيش من التدخل في الحياة السياسية، إذ أصبحت الوزارة صاحبة الشأن في هذه الأمور، وتوسع نفوذ الوزير في عهد المكتفي (289-295هـ/901-907م) الذي أوكل إدارة الجيش إلى وزيره القاسم بن عبيد الله، فأصبح الجيش مرتبطا بالوزير، وقد قال فيه الخليفة: "هو عمدة مملكتي، وقلمه ناظم عقد دولتي".

- الولاية:

لاحظنا أن ديوان المشرق يشرف على الأقاليم الشرقية، أما الأقاليم الغربية فيشرف عليها ديوان المغرب في حين اختفى ديوان السواد بالعراق. ومن أجل تنظيم الإدارة وسيطرة الخلافة على مقاليد الأمور وتوجيهها بالاتجاه الصحيح جمع المعتضد بالله هذه الدواوين في ديوان واحد، أطلق عليه اسم " ديوان الدار". وجعل على رأس كل ولاية شخصين، أمير هو قائد الجيش، وعامل هو صاحب الخراج، يضاف إليهما القاضي وصاحب البريد. ويتم تعيين العمال في معظم الأحيان من قبل الخليفة مباشرة. و لم يكتف الخليفة عند هذا القدر، فقد عرف المعتضد بالله بإشرافه على أعمال عماله ومراقبته الشديدة لهم بوساطة أصحاب البريد الذين كانوا يوافونه بأخبارهم، وفي معظم الأحيان كان الخليفة يشرف بنفسه على تنظيم أعمال الأقاليم وإدارتها، وعلى سبيل المثال خرج سنة 281هـ/893م إلى أقاليم الجبل، وجعل كلا من (الري وقزوين وزنجان وأمهر والدينور وقم وهمذان) ولاية واحدة وجعل إدارتها إلى ابنه المكتفي. وفي سنة 286هـ/898م جعل منطقة الجزيرة ولاية واحدة تشمل آمد و ديار ربيعة و ديار مضر وأعمال قنسرين والعواصم وولاها ابنه المكتفي، ثم جعل الرقة مركزا لهذه الولاية، وبقي فيها إلى أن توفي والده. ولما عادت فارس إلى سيطرة الخلافة سنة 287هـ/900م أرسل صاحب جيشه بدرا (ت310هـ/922م) لتولي إماراتها. وولى حامد بن العباس (ت311هـ/923م) الخراج والضياع. وترك الأمر لسكان الثغور في اختيار أميرهم في أغلب الأحيان، لأنهم في حالة حرب مع العدو، ولهم الحرية في اختيار من يرونه أهلا للدفاع عنهم والغزو بهم.

- القضاء :

شهد القضاء كذلك تدهورا كبيرا في عهد الفوضى والاضطراب الذي عمّ أرجاء الخلافة العباسية. وتبع مجيء المعتضد بالله - الذي بدأ معه عهد الاستقرار في جسم الدولة- إعادة الحياة للقضاء الذي يعد الركيزة الأساسية في الحياة العامة، فللقضاء وأحكامه هيبة في نفس الخليفة، فإلى جانب حسن اختياره القضاة كان يحترمهم، ويؤكد استقلالهم في أحكامهم، وعدم التدخل في شؤونهم،

وينصاع للأحكام الصادرة عنهم وإن كانت في غير مصلحته، وغالبا ما يرجع إليهم في بعض القضايا التي تتعلق بالشريعة الإسلامية طالباً منهم الفتيا والمشورة، ليكسب أعماله صفة الشرعية كما حدث في إلغائه ديوان المواريث وغيره .

– الشرطة:

كانت الشرطة في بغداد منذ خلافة المأمون بيد آل طاهر، إلى أن تولى المعتضد بالله الخلافة، وفي سنة 276هـ/889م بعد سيطرة الصفاريين على خراسان انتزع عمرو بن الليث الصفار شرطة بغداد، غير أنه أناب عنه في ذلك آل طاهر. وبذلك أصبح آل طاهر نوابا عن عمرو الصفار خاضعين لأمره، بدلا من توليها من الخليفة مباشرة. وقد أوكلت إدارة شرطة بغداد في أيام المعتضد بالله إلى غلامه بدر الحمامي الذي كانت أمور الجيش بيده أيضا، وبذلك جمع بدر بين الشرطة والجيش، ويبدو أن الشرطة كانوا أصنافا وكل صنف مسؤول عن وظيفته (شرطة العسكر، شرطة العسس أو الحرس...) ولهم من يساعدهم على الكشف عن الجرائم المستعصية. وقد ضرب المعتضد بالله على أيدي الشرطة الذي استغلوا الناس وظلموهم، فكان شديدا في محاسبة المسيء منهم .

– البريد :

حظي البريد كذلك باهتمام الخليفة المعتضد بالله، وذلك لأن عمال البريد هم بمنزلة العيون الساهرة والآذان السامعة للخلفاء، فهم – فضلا عما يقومون به من نقل الكتب الرسمية– عيون الخليفة على عماله في الأقاليم، وكان لكتاباتهم أثرها في اتخاذ الخليفة القرارات بحق هذا الشخص أو ذاك سلبا أو إيجابا. ومن مظاهر اهتمام الخليفة المعتضد بالله بالبريد أنه لم يحدد مواعيد معينة أو مكانا مخصصا لعرض ما يصل إليه من أخبار وخصوصاً المهمة منها، التي تتطلب ردا سريعا وحاسما. كذلك تكليف الخليفة بعض أصحاب البريد القيام بأعمال أخرى إضافة إلى عملهم في البريد، كالنظر في أمور العمال وغيرها .

نلاحظ مما تقدم أن الخليفة المعتضد بالله قام بجهد كبير ومتواصل لإعادة الحياة الطبيعية إلى الخلافة والمؤسسات التي تساعدها على إنجاز أعمالها، وكان لأعماله هذه أثرها البارز في انتعاش الخلافة التي تمكنت من إعادة الحياة إلى مسارها الطبيعي في المفاصل الأساسية للدولة، كالوزارة والجيش والدواوين... فسيرت الجيوش لملاقاة أعداء الإسلام، وتم القضاء على الطامعين والمتمردين، فعم الأمن والاستقرار وساد العدل والنظام وهدأت النفوس، وعادت الحياة في البلاد إلى مسارها

الحقيقي. وقد رافق كل ذلك جملة من الإصلاحات المالية والإدارية والعمرانية منها:

– إصلاح موعد الجباية:

حاول خلفاء بني العباس إصلاح موعد الجباية، ليتوافق مع موعد نضج المحاصيل، وكان الخليفة المتوكل على الله (232-247هـ/847-861م) آخر من حاول إصلاح السنة الخراجية، وذلك في عام 243هـ/ 857م، غير أن مقتله حال دون تنفيذه واستمر الحال على ذلك حتى خلافة المعتضد بالله. فبعد أن استقرت الأوضاع، وتفرغ للنظر في أمور الرعية التي لحقها الكثير من الحيف والظلم بسبب الاضطرابات التي مرت بها الدولة، وسيطرة العناصر التركية على مقاليد الأمور، وفي سنة 282هـ/ 895م اهتدى المعتضد بالله بما فعله المتوكل في تأخير موعد الجباية، فكان له وقعه العميق في نفوس المزارعين، وعدوا ذلك من أهم أعماله ومآثره الجليلة. وفي ذلك يقول ابن المعتز في أرجوزته بعد أن استعرض حال الزراع قبل عهد المعتضد بالله ممتدحا الخليفة في تأخيره موعد الجباية:

ومن أياديه على الكبير
من العباد وعلى الصغير
والنازح الدار البعيد عنه
في كل أرض والقريب منه
تأخيره النيروز والخراجا
ولو أراد أخذه لراجا
تكرما منه وجودا شاملا
وحزم تدبير وحكما عادلا
وعهدنا بكل من كان يلي
مستأديا والزرع لم يسنبل
فكم وكم من رجل نبيل
ذي هيبة ومركب جليل
رأيته يقتل بالأعوان
إلى الحبوس وإلى الديوان

– إبطال مظاهر الاحتفال بيوم النيروز:

وفي العام نفسه(282هـ/895م) أبطل الخليفة افتتاح الخراج بيوم النيروز الذي هو نيروز العجم، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران (يونيو)، وسمي بذلك اعتداداً بالنيروز المعتضدي، فأمات بهذا العمل سنة المجوس واهتم بالزراعة والري.

– إلغاء ديوان المواريث:

إن إلغاء ديوان المواريث وتوريث ذوي الأرحام يعد من أهم الإنجازات التي شهدها عهد المعتضد بالله، فقد أنشئ هذا الديوان على ما يبدو في خلافة المعتمد على الله، لحاجة الدولة إلى الأموال فحمل بعضهم على الاعتقاد بأن هذا الديوان هو إحدى الوسائل التي ابتدعها خلفاء بني العباس، لابتزاز الأموال. وكان أصحاب التركات يلقون مشقة وعناء كبيرين من العاملين في الديوان، ويصيبهم

الحيف والظلم في مواريثهم، فأمر المعتضد بالله بإبطاله سنة 283هـ/896م فأزال الظلم عن الناس. وعد عمله من الإصلاحات الجوهرية التي كسبته محبة الناس جميعا . وقد استمر الحال أيام المكتفي (289-295هـ/901-906م).

وفي أيام المقتدر استأنف ذلك الرسم الجائر والأثر القبيح السائد بظلمه وتعديه.

– ازدهار الأوضاع الاقتصادية:

وكان من نتائج ذلك أن تحسنت الأوضاع الاقتصادية بعد التدهور الذي حل بها خلال فترة الفوضى والاضطراب، وازداد الأمر سوءا أيام الموفق بسبب الحروب التي خاضها ضد أعدائه التي كلفت الخزينة أموالا طائلة. كما أن وقوع عدد من الأقاليم تحت سيطرة الطامعين والمتنفذين الذين يدفعون إتاوة غير ثابتة، ساعد أيضا على تدهور الأوضاع الاقتصادية والمالية. وقد بذل الموفق جهودا حثيثة واتبع أساليب متنوعة لتلافي هذا العجز الذي أصاب الجانب المالي والاقتصادي.

ولما تولى المعتضد بالله الخلافة وجد بيت المال خاليا إلا من النزر القليل جدا من العملات والأموال، فاتخذ إجراءات سريعة لمعالجة الأزمة المالية التي حلت بالبلاد، وكان من بينها صهر الأواني الفضية والذهبية التي كانت بحوزة الوزير إسماعيل ابن بلبل واستخرج هذا خراج السواد لسنتين في سنة, وكذلك استعانت الدولة بأصحاب الخبرة في الإدارة والمال مهما كانت مواقفهم السياسية من الخلافة كآل الفرات. فضلا عن التنسيق بين كبار العاملين في مؤسسات الخلافة، وقيل في ذلك: "لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله وأبي القاسم عبيد الله بن سليمان وأبي العباس بن الفرات وبدر (المعتضدي، الحاجب الكبير) فكان التدبير مع هؤلاء مطردا، والأمر منتظما، والعمارة وافرة الأموال دارة. وبذلك تغلبت الدولة على أزمتها المالية، واستقرت أوضاعها وانتعشت الحياة الاقتصادية بفضل جهود الخليفة وإصلاحاته الجذرية وحسن تدبيره للأمور واقتصاده في النفقات، وأصبحت الدولة توفر كل سنة ألف ألف دينار وترك المعتضد بالله بعد وفاته في بيوت الأموال تسعة آلاف آلاف دينار ومن الورق أربعين ألف ألف درهم، ومن الدواب والبغال والحمير والجمال اثني عشر ألف رأس.

ونتيجة لحرصه وحسن تدبيره صار الخليفة موضع اتهام عدد من المؤرخين له بالبخل، في حين يرى بعضهم الآخر أن منهجه في معالجة الأزمة المالية نابع من حرصه على أموال المسلمين. وبعمله هذا نهج سنة الخلفاء الراشدين وعد الخليفة المعتضد بالله ثالث خليفة عباسي في جمع المال والحرص عليه وأصبح مضربا للأمثال. "فقيل: إن لبني عباس في

المال فاتحة وواسطة وخاتمة، فالفاتحة المنصور والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد بالله .

– ازدهار الحياة الثقافية والعلمية:

شهدت الخلافة العباسية على إثر مقتل الخليفة المتوكل – كما أشرنا– حالة من الفوضى والاضطراب لم يسبق لها مثيل؛ وذلك بسبب سيطرة القادة الأتراك ومواليهم على مقاليد الأمور في البلاد. ومع كل ذلك لم تتوقف الحركة العلمية فقد واصلت مسيرتها وبقيت بغداد تحتل مركز الصدارة، فهي مركز جذب العلماء والأدباء ومجمع الثقافات والمذاهب والآراء المتباينة. وكان لنشأة الخليفة المعتضد بالله وتربيته على يد اثنين من كبار علماء العصر–أحمد بن محمد السرخسي (ت286هـ /899م)، وثابت بن قرة (ت 288هـ /900م) أثر في تشجيع الحركة العلمية وازدهارها، حتى إن مواكب أطباء الخليفة وصفت بأنها كمواكب الوزراء والأمراء. واشتهر في عهد المعتضد بالله العديد من الفقهاء: فمن أبرز فقهاء المالكية إسماعيل بن إسحاق (ت 282هـ/ 895م)، واحتل عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت290هـ/902م) الصدارة بين فقهاء المذهب الحنبلي، وعبد الحميد بن عبد العزيز (ت 192هـ/ 904م)، من فقهاء المذهب الحنفي، في حين تقدم الحسن بن القاسم الطبري (ت 305هـ/917م) على نظرائه من فقهاء المذهب الشافعي. ومن أبرز رجال الحديث فضلا عن أصحاب الصحاح الستة، إبراهيم الحربي (ت285هـ/898م) شيخ البغداديين وظريفهم وناسكهم وسندهم في الحديث. ووصلت مدرسة التاريخ إلى القمة على يد المؤرخين الرواد كأحمد يحيى البلاذري (ت279هـ/892م) وأحمد بن أبي طاهر طيفور (ت280هـ/ 893م) واليعقوبي (ت292هـ/904م) وشيخ المؤرخين الرواد محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ/922م) وغيرهم

ومن أبرز علماء اللغة والأدب، المبرد (ت285هـ/898م)، وثعلب (ت291هـ /903م) والزجاج (ت 310هـ/ 922م) ومن الشعراء ابن الرومي (ت283هـ/896م) والبحتري (ت 284هـ/897م) وعبد الله بن المعتز (ت 296هـ/908م) الذي يمثل شعره صورة حية وناصعة لحياة العصر السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية ولاسيما عهد خلافة المعتضد بالله، إذ أشاد بعدله وحزمه وإعادته الأمور إلى مجراها الطبيعي من خلال أرجوزته. وشاعر البلاط العباسي يحيى بن المنجم (ت 300هـ/ 912م).

ولم يقتصر الحال على الأدب والشعر واللغة وعلوم الحديث والتاريخ، فقد شهدت العلوم الأخرى

ازدهاراً كبيراً: ففي الطب مثلا برز ثابت ابن قرة الحراني مربي الخليفة، وإسحاق بن حنين ابن إسحاق (ت 298هـ/910م)، وقسط بن لوقا (ت 300هـ/912م). وفي الهندسة وعلومها برز الفضل بن حاتم التبريزي (ت 310هـ/912م)، وأولاد شاكر الذين أصبحت دارهم في عهد المعتضد بالله ملجأ العلماء وطلاب العلم .

ومن بين اهتمامات الخليفة بالعلم ورجاله عزمه على إنشاء جامعة تحوي مختلف فروع المعرفة ليتعلم فيها الطلاب. وفي الوقت الذي شجع الخليفة العلم والعلماء وأجزل لهم العطاء كان شديداً على الفلاسفة والخوض في أمور الدين، وقد أمر بالنداء في مدينة السلام أن لا يعقد على الطريق ولا في الجامع قاص ولا صاحب نجوم ولا زاجر، وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والفلسفة... ويرجع السبب في هذا -في الأعم الأغلب- إلى ما كان سائدا آنذاك بين الناس من اعتقاد بأن الفلسفة كفر وإلحاد. ومع هذا واصلت الحياة الثقافية مسيرتها ونشاطها حتى بلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

- ازدهار الحياة العمرانية:

وفي عصر المعتضد بالله أيضا ازدهرت الحياة العمرانية بعد استقرار الخليفة في بغداد واتخاذها عاصمة، وبقيت كذلك إلى نهاية الخلافة العباسية عام 656هـ/1258م، واتخذ الخليفة من بغداد الشرقية مقراً له، فوسع القصر الحسيني الذي نزل به، وأدار عليه سورا، واتخذ حوله منازل كثيرة، وعمل ميدانا جديدا، وأمر ببناء المعامير في القصور وجعلها للصناع . ومن مآثره بناؤه قصر الثريا والذي وصل بينه وبين القصر الحسيني، وابتنى أزاجا تصل إلى القصر الحسيني تمشي حرمه وسراريه وجواريه فيها، وقد قلده الناس في البناء، فكثرت العمارات في الجانب الشرقي وابتنى كذلك قصر الفردوس، وأطلق على هذه القصور جميعا اسم دار الخلافة.

سار الخليفة المكتفي بالله على منوال أبيه في البناء والعمارة. ومن مآثره المسجد الجامع بالرحبة والتاج والدار الشاطئية ببغداد. وهدم المطامير التي شيدها المعتضد بالله وصيرها مساجد، كما أمر برد البساتين والحوانيت التي أخذها أبوه من الناس وأعطاها إلى أهلها.

- تنظيم الجيش:

يدرك الباحث لتاريخ الخلافة العباسية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ النصف الثاني للقرن التاسع الميلادي، أنه ما كان لهذه الإنجازات الكبيرة والمكانة الرفيعة - التي أصبحت للأسرة العباسية وإعادة الهيبة والوقار على مؤسساتها التي تحققت والرخاء الاقتصادي والأمن والاستقرار الذي ساد معظم أقاليم الخلافة ما كان ذلك ليتم لولا القيادة الفذة للأسرة العباسية التي تمثلت في

القائد الموفق وابنه الخليفة المعتضد بالله. فقد أدرك الخليفة المعتضد بالله من خلال قيادته لجيش الخلافة-خلال المعارك التي خاضها ضد حركة الزنج (255-270هـ/868-883م) ونجاحه في المعارك التي وضعت حدا لنهاية الحركة التي هددت وجود الخلافة واستمرارها- ضرورة الاحتفاظ بجيش قوي مدرب يدين بالولاء للبيت العباسي، ويحترم قادته، ويأتمر بأوامرهم خصوصاً أن الجيش العباسي خلال المدة موضوع البحث يتألف من عناصر متعددة ومتباينة في الولاء والنسب، ويمثل الجند الأتراك الأغلبية الكبيرة فيه. وعلى الرغم من هذا فإن الخليفة المعتضد بفضل حزمه وشجاعته وخبرته قد حد من شوكتهم، وجعلهم رهن إشارته وطوع بنانه، بأن جعل كل جماعة أو فرقة تحت إمرة أحد قادتهم، مسؤولا عن سلوك جنده أمام الخليفة.

ويبدو أن ما أقدم عليه غلمانه من إخراج المعتضد من حبسه وتنصيبه خليفة قد ترك أثراً كبيراً في نفس الخليفة، فاهتم بأمرهم، وازدادت عنايته بأحوالهم، " فإنه رتب أمرهم على المقام في القصر والحجر تحت مراعاة الخدم الأستاذين "الخصيان من الغلمان الذين لهم حظوة عند الخليفة"، وسماهم الحجرية، ومنعهم من الخروج والركوب إلا مع خلفاء الأستاذين". وزاد من اهتمامه بهم أنه كان يصحبهم في أكثر الأحيان في حروبه ضد الخارجين والانفصاليين.

وبلغ من اهتمام الخليفة بجنده أن جعل فرسانه ثلاثة أصناف جيد ومتوسط ودون حسب خبرتهم وكفاءتهم وفقا لامتحان كان يجرى بحضور الخليفة نفسه. ولكي يتأكد المعتضد بالله من وضع كل جندي في رتبته: "\ثم يحمل بعد العرض والامتحان إلى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا ما عندهم من صفته لئلا يكون دخيلا أو بديلا... ويفرد كل صنف منهم جريدة". وجعل رواتب الجند توزع مشاهرة و لم تكن أيام الشهر متساوية بالنسبة إلى بعضهم فكان لكل جماعة شهر تختلف أيامه من الجماعة الأخرى حسب انضباطهم وولائهم وخدمتهم.

ومن أجل إحكام سيطرة الخلافة على الجيش والقضاء على الفوضى التي عمت البلاد خلال مدة التسع سنوات على إثر مقتل الخليفة المتوكل على يد غلمانه الأتراك. فقد أولى أمر الجيش أحد غلمانه الخلصاء بدر المعتضدي الذي شهد مع الخليفة جميع المعارك التي خاضها ضد حركة الزنج. ومما يسر عمل بدر هذا في قيادة الجيش وانضباطه أن أوكل إليه الخليفة وظيفة صاحب الشرطة فعلت مترلته حتى "إنه قعد في داره ونظر في أمور العامة والخاصة من الناس والخراج والضياع والمعاون".

وبلغ من اهتمام الخليفة المعتضد بالله بأمر الجيش أن وجدت في بغداد خمسة إسطبلات لسد حاجة جيش الخلافة من حيوانات الركوب والنقل. وفي الأقسام الجنوبية من أرض السواد حيث يتعذر عمل الفرسان بصورة جيدة لجأت الخلافة إلى استخدام أنواع من القوارب الصغيرة والكبيرة وزواريق المعابر الجربيات وسفن الجسور. فضلا عن كل هذا فقد كان في بغداد أيام المعتضد بالله خزائن لتوفير ما يحتاجه الجيش من تجهيزات، كخزائن الكسوة والسلاح، والسروج.

إن توفير هذه المستلزمات الأساسية رفعت من معنويات الجندي العباسي ووثقت من أواصر المحبة والولاء والإنصياع بينه وبين قيادته التي اتصفت بالشجاعة والحزم والإيمان وتسخير الإمكانات البشرية والمادية المتاحة من أجل إعادة وحدة الخلافة وهيبتها وسيادة الأمن والاستقرار في ربوع الدولة. ومما زاد من إيمانهم بقيادتهم أن الخليفة كان يقود جيشه في معظم الأحيان ويدخل المعارك بنفسه مستعينا بقواده الأكفاء وبأهل الخبرة والعيون والمختصين بمعرفة المسالك والطرق. وكان الخليفة قبل أن يتقدم نحو عدوه يرسل بطلائعه ليوافوه بالأخبار ثم يقف على القرى والمدن والطرقات ويهيئ الأدلاء مما جعله موفقا في معظم حروبه وحقق الانتصارات الواحد تلو الأخر على أعدائه.

وقد انعكست تلك الانتصارات على مجمل الحياة العامة في الخلافة العباسية فأعادت الدولة إلى سابق عهدها وشهدت البلاد كما لاحظنا انتعاشا لم يسبق له مثيل منذ أيام المأمون والواثق والمعتصم إلا أن هذا الانتعاش والازدهار لم يدم طويلا حيث تولى أمر الخلافة من لم يكن قادرا على تحمل أعبائها غير متمكن من السيطرة على المنفذين من رجالها فعادت الفوضى والاضطراب إلى ربوعها مرة ثانية في أيام المقتدر بالله (295-320هـ/907-932م) .

3) قيام الكيانات المستقلة :

أ. في المشرق الإسلامي :

يختلف العصر العباسي عن العصرين الراشدي والأموي في النظر إلى الدولة ووحدتها ومصدر هذا الإختلاف هو انتصار المبادئ التي نادت بها الثورة العباسية ونعني من بينها مبدأ المساواة ومبدأ الإصلاح، ففكرة الجماعة قد ذهبت وحل محلها فكرة جديدة هي فكرة حقوق الشعوب أو ما سماه القدماء بالشعوبية وما نطلق عليه الآن بالقوميات.

فمركزية الدولة كانت هي المسيطرة في عصر الراشدين والأمويين واستمر الحال في العصر العباسي الأول فالمعروف أن خلفاء هذا العصر كانوا مصدر جميع السلطات ومنبع القوة السياسية والعسكرية، يجبى إليهم الخراج، وتضرب السكة

باسمهم، فسيطروا على مقاليد الأمور في عاصمة البلاد وخارجها .

وكان من مظاهر تلك المركزية أن أنيطت المناصب العالية إلى رجال من الأسرة العباسية، أو من وقف إلى جانبهم فكان منهم الولاة وقادة الجيش واستمرت الأمصار الإسلامية تخضع لنفوذ العاصمة ومنها تستلهم التوجيه وعليها توفد العاصمة الولاة والعمال تطول إقامتهم أو تقصر وينفذون ما يرسم الخلفاء من سياسات أو ما يصدرونه من أوامر لكن معظم هذه الأمصار شهدت خروجاً على هذه المركزية في العصر العباسي الثاني وذلك لضعف الخلافة وفقدان هيبتها وشهدت عمالاً يورثون ويظفرون باستقلال محلي للبلاد والقسم الآخر انفصل عن الخلافة كالطاهريين في إيران والصفاريين في سجستان والسامانيين في بلاد ما وراء النهر والزياريين في طبرستان وجرجان والديلم في المشرق. وفي بلاد المغرب قيام الدولة الرستمية ودولة الأدارسة بالمغرب الأقصى والأغالبة في إفريقية(البلاد التونسية) والطولونيين في مصر.

إن قيام الكيانات في المشرق الإسلامي لم يكن مرجعه الوحيد ضعف الخلافة وتفككها وانحلالها وسوء الإدارة التي طبقها بعض الحكام والولاة في ولاياتهم. فان هناك عوامل أخرى تكمن في أن عناصر كثيرة في المشرق الإسلامي لازالت على دياناتها القديمة ورضيت بدفع الجزية للمسلمين . وأن هناك مناطق أخرى بقيت على وثنيتها فوقفت معادية للمد الإسلامي مساندة كل حركة معارضة لهذا المد. وقد لعب الشعور القومي لسكان الأقاليم الشرقية دوره في استغلال العامة وتحشيدهم لتحقيق أطماع أسيادهم من المغامرين فجاءت هذه الكيانات تعبيراً عن الشعور القومي وعن نزعات شخصية طموحة حاولت استغلال هذا الشعور لتحقيق غاياتها ونزعاتها الذاتية والإقليمية ذلك أن الإسلام حينما انتشر ذلك الانتشار السريع شرقاً وغرباً فوق هذه الرقعة من الأرض وقعت تحت نفوذه قوميات لها عراقتها في التاريخ والحضارة فكانت معظم هذه الكيانات تعبر عن شعور تلك القوميات تجاه العرب وهذا التعبير لم يتخذ المجرى الثقافي والأدبي فحسب ولكن سلك اتجاها سياسيا في صورة الدويلات الفارسية التي ظفرت باستقلالها في إيران والمشرق.

أولا: الطاهريون :

(205-259هـ/820-872 م)

يرجع الطاهريون في نسبهم إلى طاهر بن مصعب ابن زريق، وهو من أسرة إيرانية الأصل، وكان جد الأسرة مولى لقبيلة خزاعة العربية، عرفت هذه الأسرة بوقوفها إلى جانب العباسيين منذ بداية الدعوة العباسية، وأسندت إدارة ولاية هراة وبوشنج إلى رجال هذه الأسرة، فبقيت الأسرة تحتل مكانة خاصة، وتتمتع بنفوذ واسع في خراسان

قبل خلافة المأمون . ونتيجة لمواقف الأسرة الطاهرية إلى جانب الخليفة المأمون في صراعه مع أخيه الأمين، حظي عدد من رجالها بثقة الخليفة وتقديره فعين طاهر بن الحسين الذي عرف بمقدرته وكفايته وخبرته في منطقة المشرق والياً على خراسان سنة 205 هـ/820م، وأضاف إليه أعمال المشرق كلها من بغداد، وكان قبل ذلك ولّاه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد ومعاون السواد، فاتخذ من مدينة مرو مركزاً لإمارته وفي سنة 206هـ/ 821م ولي المأمون عبد الله بن طاهر الرقة لحرب نصر ابن شيث ومصر، وأضاف اليعقوبي أن المأمون "ولى عبد الله ابن طاهر الجزيرة والشام ومصر والمغرب، وصير إليه جميع أعمالها، وأمره بمحاربة المتغلبين ... فسار إلى الرقة، فواقع نصر ابن شبث النصري المتغلب بكيسوم وما والاها من ناحية الجزيرة، وكتب إلى سائر المتغلبين في النواحي من الجزيرة والشامات، وأنفذ اليهم الرسل في المعاون، فكتب القوم جميعا أنهم في الطاعة، وسألوه أن يكتب لهم الأمانات ، فقبل ذلك منهم".

وعندما كلف الخليفة عبد الله بالقضاء على الفتنة في الجزيرة والشام أسندت شرطة بغداد إلى إسحاق بن إبراهيم الطاهري، وهذا يدل بدون أدنى ريب على المكانة العالية والمركز المرموق الذي تبوأته هذه الأسرة في البلاط العباسي.

يبدو أن الخليفة كان يسعى من وراء تعيين طاهر على خراسان إلى تحقيق عدة أهداف، منها تهدئة مشاعر الخراسانيين الذين خيب العباسيون آمالهم بعد مجيئهم إلى الخلافة، إذ قتلوا عدداً من قادتهم، كما أن انتقال المأمون من مرو إلى بغداد يعد ضربة قاصمة لطموح الإيرانيين السياسي لعدم تحقيق الخليفة ما وعدهم به من اتباع الحق والعدل فضلاً عن رغبة الخليفة في جعل طاهر بن الحسين الذي عرف بحسن القيادة ولما لأسرته من مكانة كبيرة في خراسان في مواجهة مباشرة مع حركات الترك في هذه الأصقاع، خصوصاً أن ولاتها عجزوا عن إخمادها، وأن نجاح طاهر في مواجهة حركات الترك سيمكنه من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوعها.

واجه طاهر بن الحسين مشكلات داخلية متعددة وكانت في مقدمتها حركات الخوارج في سجستان، فمنها كانوا يشنون غاراتهم على بقية مدن خراسان ووصلوا في بعض هجماتهم إلى مدينة نيسابور، وكان همهم الحصول على الأموال؛ لهذا وجد اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم من الطامعين والمغامرين في نيسابور الفرصة المواتية للانضمام إلى حركة الخوارج. وقد ساعدتهم الظروف السياسية والعسكرية على مواصلة تحركاتهم فأدى ذلك إلى فقدان الأمن والاستقرار. ولهذا نجد أن طاهر بن الحسين يوجه جنده لمقاتلتهم

قبل أن يستقر في ولايته، فلم يوفق في إخماد حركتهم لكثرة عددهم وشدة بأسهم، وفي الوقت نفسه كان الخليفة جاداً في مناهضتهم دون هوادة، واتهم طاهرا بالتساهل في أمرهم، وهو ما أدى إلى تأجج الخلاف بين طاهر والخليفة فاتخذها طاهر حجة وذريعة للإفصاح عن نواياه بالانفصال عن الخلافة ومما شجعه على هذه الخطوة، المكانة التي يحظى بها الطاهريون في خراسان واستعداد الخراسانيين للوقوف إلى جانبه ومساندتهم له بعد أن نكل العباسيون بزعمائهم وخيبوا آمالهم. وكان من نتائج هذا الخلاف أن حذف طاهر بن الحسين اسم الخليفة المأمون من خطبة الجمعة سنة 207هـ/ 822م، معلناً بذلك استقلاله عن الخلافة.

وعلى إثر ذلك توفي طاهر، فأسند المأمون ولاية خراسان إلى ابنه طلحة (207-213هـ/ 822-828م) مع معرفة الخليفة بميول والده. وقد قابل الطاهريون ثقة المأمون بالإخلاص من جانبهم، فلم يفكروا بعد ذلك بالاستقلال عن الخلافة العباسية بل حرصوا على التعاون معها والاعتراف بسلطانها، كما أنهم استمروا يتمتعون في مناصبهم إلى ما بعد وفاة المأمون. ومن المرجح أن المأمون اضطر إلى تعيين طلحة، نظرا لما كان يتمتع به الطاهريون من مكانة ونفوذ واسع في إقليم خراسان والخدمات التي قدموها للخلافة، ومن المؤكد أنه أراد أن يبعد الشكوك التي حامت حوله بسبب موت طاهر المفاجئ. بذل طلحة جهداً كبيراً استطاع من خلاله أن يبرهن على مقدرته وحسن إدارته، وقد قاد الجيوش بنفسه لملاحقة الخوارج، كما أرسل جيوشاً إلى مدينة سجستان للقضاء على نفوذ الخوارج فيها، وتمكنت هذه الجموع من احتلال المدينة وإبعاد خطر الخوارج عنها. وأرسل جيشاً آخر إلى مدينة بست المعقل الرئيسي للخوارج، فحقق نصرا في عدة معارك غير أنه لم تتح له الفرصة للقضاء عليهم قضاء كليا بالرغم من قتل زعيمهم حمزة الخارجي في عام 213 هـ/828م وفي نفس هذا العام توفي الأمير طلحة حاكم الإمارة الطاهرية.

ثم أسند الخليفة المأمون ولاية خراسان إلى عبد الله بن طاهر الذي كان مثلا في الإخلاص منذ أن قلده المأمون الجزيرة وبلاد الشام ومصر سنة 207هـ/821م، فتمكن من القضاء على الخارجين فيها وأصلح أمرها. وقد بذل عبد الله جهدا واضحا في قتال الخوارج الذين اشتد أمرهم في نيسابور فتمكن من القضاء على حركتهم هناك، وخاض ضدهم معارك في سجستان نجح من خلالها في تشتيت جموعهم وإبعاد خطرهم عن المدينة .

توجه عبد الله بعد ذلك نحو الحركات الأخرى، فقضى على الحركة المناوئة للعباسيين في الطالقان، وقبض على محمد ابن القاسم بن عمر العلوي وهو

يدعو إلى الرضا من آل محمد، وأرسله إلى الخليفة المعتصم في حبسه في سامراء. وتصدى خلفاؤه للحسن بن زيد العلوي الذي ظهر في طبرستان، واجتمع إليه الديلم وأهل طبرستان عام 250هـ/864م، مرة بمفردهم ومرة متعاونين مع قوات الخلافة. وواجه عبد الله ابن طاهر حركة المازيار بن قارن ابن بندار (إصبهبذ طبرستان) في طبرستان سنة 224هـ/838م التي استهدفت الانفصال عن الخلافة العباسية واتخذت المذهب الخرمي شعارا لها، وكان عبد الله على اتصال دائم بالخليفة المعتصم من أجل تنسيق المواقف واتخاذ الخطوات الصحيحة ضد المازيار. وقد بذل عبد الله جهوداً مخلصة في قتال المازيار، ونجحت جيوشه في احتلال طبرستان وأسر المازيار وإرساله إلى سامراء. كما قام الطاهريون بمساعدة الخلافة بالقضاء على حركة العلويين. ففي عام 250هـ/864م ظهر يحيى بن عمر في الكوفة، ولحق به أنصاره، فأرسل محمد بن عبد الله النجدة إلى والي الكوفة فتمكن من هزيمة يحيى بن عمر وقتله. وتمكن الطاهريون من إبعاد خطر الحسن ابن زيد العلوي الثائر في طبرستان والري .

وكذلك خدم الطاهريون الخلافة العباسية بإرسالهم الجيوش لغزو بلاد الغور، فسيطرت جيوشهم على مناطق لم يصل إليها أحد من قبل، توسعت على إثرها الإمارة الطاهرية حتى شملت - إضافة إلى خراسان- الري وطبرستان وكرمان وما يتصل بها، ونقل الطاهريون عاصمتهم من مرو إلى نيسابور لأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية. وبعد وفاة عبد الله بن طاهر أقر الخليفة الواثق بالله 227-232هـ/841-846م ولده طاهر ابن عبد الله على أعماله كلها، فبقي محافظا على ولائه للخلافة طوال ولايته التي امتدت إلى سنة 248هـ/862م، إذ توفي في رجب من هذه السنة، وخلفه ولده محمد ابن طاهر الذي مثل عهده نهاية حكم الأسرة الطاهرية في خراسان، فقد اقترن حكمه بظهور الأسرة الصفارية التي كانت تتطلع للاستيلاء على مقاليد الأمور والقضاء على الإمارة الطاهرية، فتمكنت قواتها من دخول نيسابور ووضع نهاية لها في عام 259هـ/872م، إلا أن الخلافة لم توافق يعقوب على ما فعل، وطلبت منه العودة وترك نيسابور للطاهريين، لكنه رد على رسل الخليفة بعبارة واضحة، رافضا الامتثال لأمره، وأخرج سيفا من تحت مصلاه قائلا "يضمن هذا السيف لي الملك ".

اتضح أن الطاهريين تعاونوا مع الخلافة العباسية، وقدموا خدمات جليلة للخلافة في شتى الميادين، وقد أخلصوا في تعاونهم مع الخلافة وأكسبتهم انتصاراتهم على أعدائها مكانة عالية، وتجلى ذلك في ثقة وإعجاب الخليفة المأمون بعبد الله بن طاهر بعد قضائه على المناوئين والمتغلبين في الشام ومصر

وإعادة الهدوء والاستقرار. فقد استأذن أن يعود إلى بغداد فأذن له، وكان في استقباله كبار رجال الأسرة العباسية وأعيان الدولة يتقدمهم العباس بن المأمون وأخوه المعتصم . وتولى الطاهريون المناصب العالية كشرطة بغداد، وكان صاحب شرطة بغداد ينوب عن الخليفة في حالة غيابه عن بغداد، ويكلف بمهام أخرى إضافة إلى مهامه. ففي عام 218هـ/833م كلف إسحاق ابن إبراهيم بأمر من الخليفة المأمون بمراقبة شؤون الدولة وامتحان العلماء والقضاة ومعاقبة من لم يقر منهم بالقول بخلق القرآن. وقد قدر الخلفاء العباسيون، من جانبهم، خدمات الطاهريين وقربوهم ومالوا إلى جانبهم في نزاعهم مع الصفاريين -كما سنرى لاحقا- وأبقوا شرطة بغداد في أيديهم حتى سنة 301هـ/913م، على الرغم من زوال إمارتهم في خراسان 259 هـ/872م. وقد أولى الأمراء الطاهريون رعيتهم اهتماما كبيرا، ويظهر مدى اهتمامهم بالفلاحين والمزارعين مما أورده الكرديزي من "أن عبد الله بن طاهر كان يكتب إلى عماله: إننا قد أخذنا عليكم العهد أن تستيقظوا من نومكم ... وتنشدوا إصلاح أنفسكم وتداروا كبراء ولاياتكم، وأن تعطوا القوت لمن أصبح من الزراع، ضعيفاً، وتكونوا إلى جانبه لان الله تعالى جعل لنا الطعام على أيديهم، وأجرى السلام على ألسنتهم، وحرم أن يقع الجور عليهم. وأصلحوا الأحوال الاقتصادية للبلاد، فازدهرت الزراعة وتقدمت الصناعة، ومن أهم الصناعات المزدهرة نذكر صناعة النسيج التي اعتمدت على زراعة القطن، واشتهرت كل من مرو وطبرستان ونيسابور بها. وفي بخارى كانت تنسج البسط والوسائد وسجاجيد الصلاة ... وأقر الطاهريون من ناحية أخرى الأمن والاستقرار فانتعشت التجارة وازدهرت الأسواق ووفد التجار من مختلف المدن والأقاليم. كما ازدهرت التجارة الخارجية، ويتضح ذلك من مقدار الخراج الذي يجبى فقد بلغ يوم مات عبد الله بن طاهر سنة 230هـ/844م 48 ألف ألف درهم. وكان الطاهريون يرسلون إلى بغداد خراج خراسان سنويا وبصورة منتظمة تأكيدا لولائهم للخلافة. وبلغ ما كان يدفع للخلافة في ولاية عبد الله بن طاهر 44.846.000 درهم، عدا الدواب المخصصة للركوب، والغنم والسبي. وتعهدوا عمالهم بالنظر والمراقبة فكانوا يضربون على يد كل من يعسف بالرعية منهم، وقد وصف نظام الملك عبد الله بن طاهر بأنه أمير عادل وقال: "كان عبد الله لا يسند الأعمال الديوانية إلا إلى المتقين والزهاد وإلى من هم في غني عن مال الدنيا ..." وقربوا العلماء أهل المعرفة حتى أصبحت نيسابور في عهدهم مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية. ويعود الفضل في ذلك إلى طاهر بن الحسين مؤسس الأسرة الذي عاصر

المأمون المعروف بحبه للعلم والعلماء وشغفه بهم وتشجيعه لهم . وقد وصف عبد الله ابن طاهر بأنه كان أديبا ظريفا جيد الغناء. وكان سخياً على الشعراء كريماً فاضلاً. اهتم عبد الله بنشر التعليم بين طبقات المجتمع دون تفرقة، وقد عبر عن ذلك بقوله: "إن العلم ينبغي أن يعطى باستحقاق وبدون استحقاق، لأن العلم أملك لنفسه من أن يقر مع غير المستحقين". ولهذا ارتحل أبناء الفقراء وخصوصاً الفلاحين إلى المدن طلبا للعلم.

وقد عاش في كنف الدولة الطاهرية العديد من علماء الفقه والحديث والنحو والطب والفنون والعلوم المختلفة. من بينهم الفقيه ابن راهويه (166-237هـ/782-852م)، وأبو عبد الله محمد بن نصر المروزي (232-294هـ/846-906م) ومن رجال النحو عيينة بن عبد الرحمن، وأشهر أطباء العصر سايدر ابن سهل (ت 255هـ/868م) الذي درس في بيمارستان نيسابور. وحافظ الطاهريون على الثغر الشرقي للدولة الإسلامية، ومدوا نفوذ الخلافة الإسلامية في بلاد الترك، ووطدوا سلطان المسلمين بالقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين كانوا قد دخلوا في طاعة المسلمين. وبالرغم من كل هذا فإن عوامل الضعف والانهيار بدأت تلعب دورها في نهاية الإمارة الطاهرية، وكان في مقدمتها ضعف الخلافة التي لم يكن بمقدورها دعم الطاهريين وإرسال المدد إليهم عندما بدأ الأعداء يهددون ممتلكاتهم وخصوصاً الصفاريين والضعف الذي أصاب الدولة الطاهرية نفسها على إثر تسرب الانقسام بين أفراد الأسرة الحاكمة وانصراف بعض رجالها إلى اللهو والعبث، وكثر الفساد وتدهورت الحياة الاقتصادية والهارت الإمارة .

إن قيام إمارة وراثية شبه مستقلة في خراسان على يد الطاهريين يعدّ تعبيراً عن الوعي القومي الفارسي الموجه ضد العروبة والإسلام، وبداية لحركات انفصالية أخرى، تمكنت بعد مدة من الزمن من الانفصال عن الخلافة.

ملحق رقم (1)

بنو طاهر

ولاة خراسان :

1. أبو الطيب طاهر بن الحسين، ذو اليمينين سنة 205 هـ/820 م
2. طلحة بن طاهر ، جمادى الآخر 207 هـ/تشرين الأول 822 م
3. أبو العباس عبد الله بن طاهر، رجب 213/أيلول 828 م
4. طاهر(الثاني) بن عبد الله ، 230هـ/أيلول 828 م

5. محمـــد بـــن طـــاهر (الثـــاني) ، 248 هـــ/862 م

6. طـــاهر (الثالـــث) بـــن محمـــد ، 259 هـــ/872 م.

ولاة بغداد :

إسحق بن إبراهيم ، 214 هـــ/829 م

محمد بن إسحق، 235 هـــ/849 م

محمد بن عبد الله، 237 هـــ/851 م

محمد بن طاهر (الثاني) 237 هـــ/851 م

محمد بن عبد الله، (للمرة الثانية)

عبيد الله بن عبد الله، 253 هـــ/867 م

سليمان بن عبد الله، 255 هـــ/869 م

عبيد الله، (للمرة الثانية)، 265 هـــ/878 م.

محمد بن طاهر (الثاني)، للمرة الثانية، 271 هـــ/889 م

بنو طاهر (*)

رزيق أو زرنيق أسعد بن باذان بن ماي خسو بن بهرام (الخ)

- مصعب
  - الحسين(توفي سنة 199)
    - حسن (طبرستان سنة 224) (توفي سنة 231)
    - 1- طاهر (الأول)
      - 3- عبد الله (ولد سنة 183 ، وتوفي في 11 ربيع الأول سنة 230
        - سليمان (توفي سنة 265)
        - طلحة
          - محمد
            - إبراهيم
          - منصور (مرو وسرخس سنة 248)
        - 4-طاهر(الثاني)
          - حسين
          - 5-محمد (بغداد سنة 237) (توفي سنة 269)
            - أحمد (خورزم)
            - 6-طاهر (الثاني)
        - حسين (هراة سنة 248)
        - مصعب (باد غيس سنة 258)
        - أبو أحمد عبيد الله (بغداد)
          - محمد (نائب ببغداد سنة 269)
        - محمد (بغداد سنة 237)
          - طاهر
      - 2-طلحة
      - علي
        - محمد (الري سنة 250)
    - إبراهيم
      - إسماعيل
        - حسين (سنة 250)
      - إسحق بغداد (توفي سنة 135)
        - محمد (بغداد سنة 237)
      - محمد (بغداد من سنة 236-210)

* زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج 2/ص 299-300 ؛ سليمان أحمد السعيد تاريخ الـدول الإسـلامية ج 1/ص 269 ، 270

ثانيا : الصفاريون

254-289 هـ/867-903 م

يرجع الصفاريون في نسبهم إلى عائلة إيرانية الأصل من طبقة الملوك الفرس، وتنسب هذه الإمارة إلى مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار [**انظر الملحق رقم** [(2)]، أما لقب الصفار فهو نسبة إلى معدن الصفر، حيث كان يعقوب وأخوه عمرو يعملان في حداثتهما صانعين في عمل الصفر في سجستان وقد تأثر يعقوب بنشأته الأولى، فكان يميل إلى العزلة وإلى الانفراد في قراراته، وكانت تسليته الوحيدة أو الغالبة هي مراقبة تدريب ولعب عبيده وغلمانه الصغار.ووصف المسعودي حياته فقال: "وكان لا يجلس إلا على قطعة مسح ، يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح، والى جانبه ترسه وعليه اتكاءه، وليس في مضربه شيء غيره، فإذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره، اضطجع على ترسه، ونزع راية فيجعلها مخدته، وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختي". وقد ساعدت الظروف السياسية المضطربة في الدولة العربية الإسلامية - وفي إقليم المشرق، خصوصاً الصفاريين - على تأسيس إمارتهم بعد أن استولى يعقوب على أقاليم إيران الجنوبية، وضم إليه فارس، وامتد نفوذه إلى خراسان، وتمكن من القضاء على الطاهريين وبسط نفوذه على ممتلكاتهم. ولقد أدى أعيان الدولة الطاهرية دورهم بالإسراع في وضع نهاية الدولة فقد ذكر البيهقي: "... وكان أعيان دولته يتقربون بالرسل المسرعين إلى يعقوب ويرسلون إليه الرسائل بأنه ينبغي الإسراع، إذ إن أميرهم لا عمل له سوى اللهو والمجون، وإنه من الحيف أن يضيع ثغر عظيم كخراسان هباء...". واعترفت الخلافة بيعقوب الصفار أميرا مستقلا ولكن طموحه امتد للسيطرة على مركز الخلافة، فاصطدم بقوتها التي كانت قد بدأت تنتعش في عهد المعتمد على الله وأخيه الموفق، وكان ذلك من أكبر الأسباب في قصر عمر هذه الإمارة ونهايتها.

يعد قيام هذه الإمارة وامتداد الحركة الاستقلالية في المشرق الإسلامي إلى قسم من أقسام إيران الجغرافية وهو القسم الجنوبي. التحق يعقوب وأخوه عمرو بفرق المطوعة التي تكونت لقتال الخارجين عن الخلافة العباسية في الأقاليم الشرقية، ولاسيما إقليم سجستان كحركات بابل الخرمي والمازيار والحسن بن زيد العلوي وحركات الخوارج، وذلك أن مركز الدولة الإسلامية قد ضعف كثيرا منذ سيطر الجند الأتراك على شؤون الخلافة، فطمع كثير من الأمراء المحليين والخارجيين في اقتطاع أملاكها، وتعرضت حدود الدولة الشرقية والشمالية إلى هجمات الترك والهنود والديلم.

وكان على رأس هؤلاء المطوعة رجل من أهل سجستان، يدعى صالح بن النضر الكناني فصحبه يعقوب الصفار وأخوه عمرو، وقاتلا معه في إقليم

سجستان. عرف يعقوب بمواهبه القتالية العالية فبرز بين إخوانه من المطوعة جنديا باسلا ذا تجربة وحنكة إلى خلق عسكري رفيع، أساسه الخشونة والتواضع والمساواة. ولما قتل صالح اجتمعت المطوعة على قيادة أحد رجاله المعروف بدرهم بن الحسين، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح. ولم يكن لدرهم نفس الروح العسكرية والقدرة القتالية والانضباطية التي كان عليها صالح أو تلك التي توفرت في يعقوب الصفار بالإضافة إلى ذلك لم تتولد لدى أتباعه كما يبدو قناعة بقيادته، فعزلوه وعينوا عليهم يعقوب بن الليث، وملكوه أمرهم فضبط الأمور وقويت شوكته وقصدته المطوعة من كل ناحية. وقد أجمعت المصادر على أن يعقوب كان شخصية شجاعة قوية وعسكرياً بارزاً، ومن سماته العسكرية الضبط والاحترام. فقد كان من سنته أن للقواعد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بباب مضربه، بحيث تقع عينه عليهم...

فقام بحرب الخوارج فأكثر فيهم القتل وخرب دورهم وقراهم، وتمكن في عام 253هـ/866م من السيطرة على سجستان وهراة وبوشنج وماوالاها، فاستقر في هذه المناطق، وأخذ يعزز من قواته ويفرض سيطرته وقبضته، ويبعث العدالة والأمن، واستطاع بسياسته هذه أن يجذب الناس إلى جانبه. ولم يقف يعقوب الصفار عند هذا الحد بل في سنة 255هـ/ 868م نحو كرمان فاحتلها وضمها إلى سجستان، وسار إلى إقليم فارس فدخله واحتل عاصمته شيراز, ثم عمل على التقرب إلى الخلافة العباسية بإرساله الهدايا، إليها فأقرته على البلدان التي استولى عليها.

إن هذه الانتصارات التي حققها جيش الصفاريين دفعت الأمير يعقوب إلى خوض المزيد من المعارك لتحقيق مكاسب جديدة وتوسيع الرقعة الجغرافية لإمارته، وقد استغل ضعف والي خراسان وانشغال الخلافة بحرب الزنج في جنوب العراق، فتقدم نحو فارس ودخلها للمرة الثانية عام 257هـ/870م. ولم تتمكن الخلافة من مجابهته فعمدت على ترضيته فعهدت إليه بولاية سجستان وبلخ وطخارستان والسند التي كانت تابعة لأمير خراسان. فسار إلى بلخ وطخارستان، ثم احتل كابل، وأرسل منها الهدايا إلى الخليفة المعتمد بالله، ثم سار إلى بست فأقام بها إلى سنة 258هـ/871م، وبعدها عاد إلى زرنج.

وهكذا توسعت الإمارة الصفارية وتعززت أركانها، وأصبح يعقوب هو الأقوى بين الأمراء والمتنفذين في المنطقة وصاحب اليد العليا، لأن الطاهرين بدأوا يفقدون الكثير من مواقعهم والخلافة العباسية عاجزة عن مساندتهم، وقد ساعدته الظروف السياسية على التحرك لضم إقليم خراسان والسيطرة على المشرق بأكمله، فاغتنم فرصة مخالفة

أحد قواده المعروف بعبد الله السجزي وهروبه إلى خراسان، حيث حظي بتكريم الأمير الطاهري محمد بن طاهر في محاولة لخلق قوة تسنده في الوقوف بوجه يعقوب الصفار وعندما رفض محمد بن طاهر تسليمه تقدم يعقوب نحو نيسابور فدخلها في سنة 259هـ/ 872م، وقبض على محمد وأهل بيته، واضعا نهاية للإمارة الطاهرية.

ولم يبق أمام يعقوب بعد أن حقق هدفه بضم خراسان سوى الحصول على موافقة الخليفة على تقليده حكم الإقليم وإضفاء الشرعية على ولايته، فكتب إلى دار الخلافة مبررا غزوه لخراسان بأن الطاهريين احتضنوا أعداءه الفارين، ودخل خراسان تلبية لاستغاثة أهلها لإنقاذهم من الخوارج، وتخليصهم من ظلم وإهمال الطاهريين. وبالرغم من الحجج التي تذرع بها يعقوب فإن الخليفة لم يقره على فعلته هذه، وأرسل إليه يأمره بالرحيل عن خراسان والعودة إلى ولايته، إلا أن يعقوب لم يستجب وتحدى الخلافة معتمدا على قوة جيشه وطاعة جنده، فتقدم نحو فارس واحتلها وثبت سلطانه بها، ومنها تقدم نحو الأهواز وأظهر العزم على السير إلى العراق. ورأت الخلافة، التي كانت منهمكة في قتال الزنج، أن تهادن وترضي الصفار ريثما تعد عدتها، فأرسلت إليه تقليدا بولاية خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس وتعيينه على شرطة بغداد، وبذلك حققت له جميع ما طلبه، وهكذا استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يؤسس ملكا عريضا في مشرق الدولة الإسلامي يشتمل على معظم أرجاء فارس. بالإضافة إلى سجستان التي أقام فيها يعقوب دولته في بداية أمرها.

لم يقتنع يعقوب بتولية الخليفة العباسي له على هذه البلاد، بل عمل على قصد بغداد نفسها، وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه، وحاولت الخلافة أن تمنعه من مواصلة زحفه نحو بغداد بعد أن علمت بتحركه وكتبت إليه : " لا شأن لك ببغداد ، فمن الصواب أن تحتفظ بمناطق العراق الجبلية وخراسان وتتصرف بها حتى لا تنشب الفتن والاضطرابات، إلا أن يعقوب لم ينقَدْ للأمر، وقال: "لن أعود ما لم أحقق أملا يراودني، وهو القدوم إلى البلاط والمثول بين أيديكم، وتجديد العهد لكم" . لذلك لم ير الموفق طلحة الذي كان يتولى قيادة جيش الخلافة بُدّاً من الدخول معه في معركة تكسر شوكته وتكبح جماحه، خصوصاً أن الخلافة قد أقامت لها حكما مواليا في المشرق وراء خراسان، بأن جعلت من بلاد ما وراء النهر إقليما قائما بنفسه، وعهدت بولايته سنة 261هـ/ 874م إلى نصر بن أحمد الساماني (ت 279هـ/892م). وقد حقق الجيش العباسي بقيادة الموفق طلحة نصرا حاسما على قوات يعقوب الصفار في معركة دير العاقول سنة 262هـ/ 785م، فانهزم يعقوب في خاصة

أصحابه، تاركا في الميدان غنائم كثيرة وأصدرت الخلافة كتابا بلعن الصفار واعتباره خارجا على أمير المؤمنين، منكرا للنعم، ساعيا إلى الفساد. ومع انتصار الموفق طلحة على يعقوب سعى للتفاهم معه وعقد الصلح، وكان الموفق يهدف إلى التفرغ لقتال صاحب الزنج الذي اغتنم فرصة انشغال الخلافة بالتراع مع الصفاريين، فاستعادوا البطيحة ودخلوا الأهواز، إلا أن يعقوب رفض الدعوة إلى الصلح مسفراً عن طموحه ونواياه الرامية إلى الاستقلال التام عن الخلافة، وإعادة دولة الفرس بالقوة، وكان هذا الطموح هو علة الدولة التي أقامها وسبب قصر أجلها. وعلى الرغم من أن أخاه عمرا الذي اختاره خلفا له قد أدرك هذه الحقيقة، فسارع إلى إعلان ولائه للخليفة المعتمد على الله، لكن الخلافة لم تـنس للصفاريين طموحهم، وكانت تتحين الفرصة للتخلص منهم والقضاء عليهم، ومع هذا فقد سارع الخليفة إلى إصدار مرسوم بتولية عمرو بن الليث الصفار خراسان وفارس وإصبهان وكرمان وسجستان والسند، وأسند إليه رئاسة الشرطة في بغداد وسامراء، وأرسله إليه مع الخلع.

وبذلك تولى عمرو ما كان بيد أخيه، وأناب عنه عبيد الله بن طاهر في شرطة بغداد وسامراء، وأرسل إلى الموفق هدية، وبعد أن تخلصت الخلافة من صاحب الزنج وجهت اهتمامها نحو الصفاريين مرة أخرى، فعزل الخليفة المعتمد عمرو ابن الليث عن البلاد التي ولاه إياها، وأعلن خلعه سنة 271هـ/884م أمام جمع من حاج خراسان، ولعنه بحضرهم، وأخبرهم أنه قلد بلاد خراسان محمد بن طاهر، وأمر بلعن عمرو على المنابر، بيد أن محمد بن طاهر آثر البقاء بحاضرة الخلافة وأناب عنه رافع بن هرثمة الذي قتل سنة 283 هـ/896م في إدارة ولاية خراسان، وأبقى بلاد ما وراء النهر في يد بني سامان. وهناك أسباب أدت إلى تغير في سياسة الخلافة وموقفها من الصفاريين، تكمن في استياء أهالي خراسان وقيامهم بتقديم الشكاوي ضد الولاة الصفاريين الذين غلب عليهم الطابع العسكري، وشعور الخلافة بأن لديها القدرة والقوة بعد أن قضت على حركة الزنج ما يمكنها من فرض هيبتها وسيطرهما على الصفاريين، ورفض عمرو بن الليث التخلي عن خراسان لصالح الطاهريين، وانتصرت جيوش المعتمد على جيش الصفار في فارس. ثم خرج الموفق في سنة 274هـ/887م بنفسه لقتال عمرو، فاضطره إلى التقهقر إلى سجستان بعد أن الحق بقواته هزيمة منكرة.

وعندما تولى المعتضد الخلافة سنة 279 هـ/892م أرسل عمرو بن الليث هداياه إلى الخليفة، يعلن ولاءه ويسأله ولاية خراسان، فأجابه الخليفة وبعث إليه التقليد، ولكن رافعا لم يذعن

لأمر الخليفة وأعلن عصيانه، وحارب عمرا الذي قتله في سنة 283هـ/ 896م، ففرح الخليفة لهذا النصر، وأرسل إلى عمرو الخلع واللواء دليلا على رضائه عنه. ولكن عمرا اعتذر وطالب بولاية بلاد ما وراء النهر وكانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني ت295 هـ/907م، فاغتنم المعتضد الفرصة للإيقاع بين السامانيين والصفاريين، وأن يضرب عمرا بقوة السامانيين النامية في بلاد ما وراء النهر، ويتخلص من أحدهم ويضعف الآخر. وافق الخليفة على طلب عمرو بن الليث، بيد أن عمرا لم يقدر الصعاب التي قد تقف في سبيله، وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته الجيوش بنفسه.

وقد نجحت خطة الخليفة فحلت بعمرو الهزيمة ووقع أسيرا في قبضة إسماعيل ابن أحمد الساماني وتشتت جيشه، وكانت نتائج هذه المعركة من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط الإمارة الصفارية وقيام الإمارة السامانية على أنقاضها.

انتهت الإمارة الصفارية بعد هذا العمر القصير، بالرغم من قوة جيشها وحسن تدريبها وتسليحها واتساع البلاد التي وقعت تحت سيطرها وبسطت نفوذها عليها، وامتلاء خزائنها بالأموال، وذلك لأن الصفاريين اتجه طموحهم إلى إقامة ملك لهم، ففقدوا عطف الخلافة وتأييد أمراء الأقاليم، فوقع الخلاف بينهم وبين السامانيين الموالين للخلافة والحامين لثغورها الواسعة في المشرق، ولم يقفوا عند هذا الحد، فقد تحدوا الخلافة، فتعرضوا بذلك لسخطها وسخط الموالين لها، فعجزوا عن الاحتفاظ بملكهم، وبذلك انتهت إمارتهم بعد مدة وجيزة.

ولما وقع عمرو في الأسر آل حكم الإمارة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو وكان ضعيفا، فاستبد بالسلطة السبكري غلام عمرو، ولم يعد للصفاريين أي تأثير، وبعثت الخلافة بجيوشها للقضاء عليه ولم تتمكن منه، وأخيرا استطاع أحمد بن إسماعيل الساماني الاستيلاء على سجستان والقبض على الأمير الصفاري محمد بن علي بن الليث ثم على غلام عمرو، وبعثت بهما إلى بغداد في شوال سنة 298 هـ/مارس 911م ومن ثم زالت الإمارة الصفارية.

إن قيام الإمارة الصفارية والإمارات الأخرى التي سبقتها أو التي قامت على أنقاضها تعبر عن الروح القومية الفارسية التي بدأت تنهض مجددا، وأنها حققت ما طالما نزعت إليه هممهم من تقويض الحكم العربي في إيران. وكان الصفاريون أول من ذكر اسم أميرهم في الخطبة إلى جانب اسم الخليفة. وأول أمير نقش اسمه على السكة، وامتنع الصفاريون عن إرسال ما فاض من الخراج السنوي إلى دار الخلافة، وهاجموا الخلافة في عقر دارها، وعملوا على تشجيع الثقافة والأدب الفارسي.

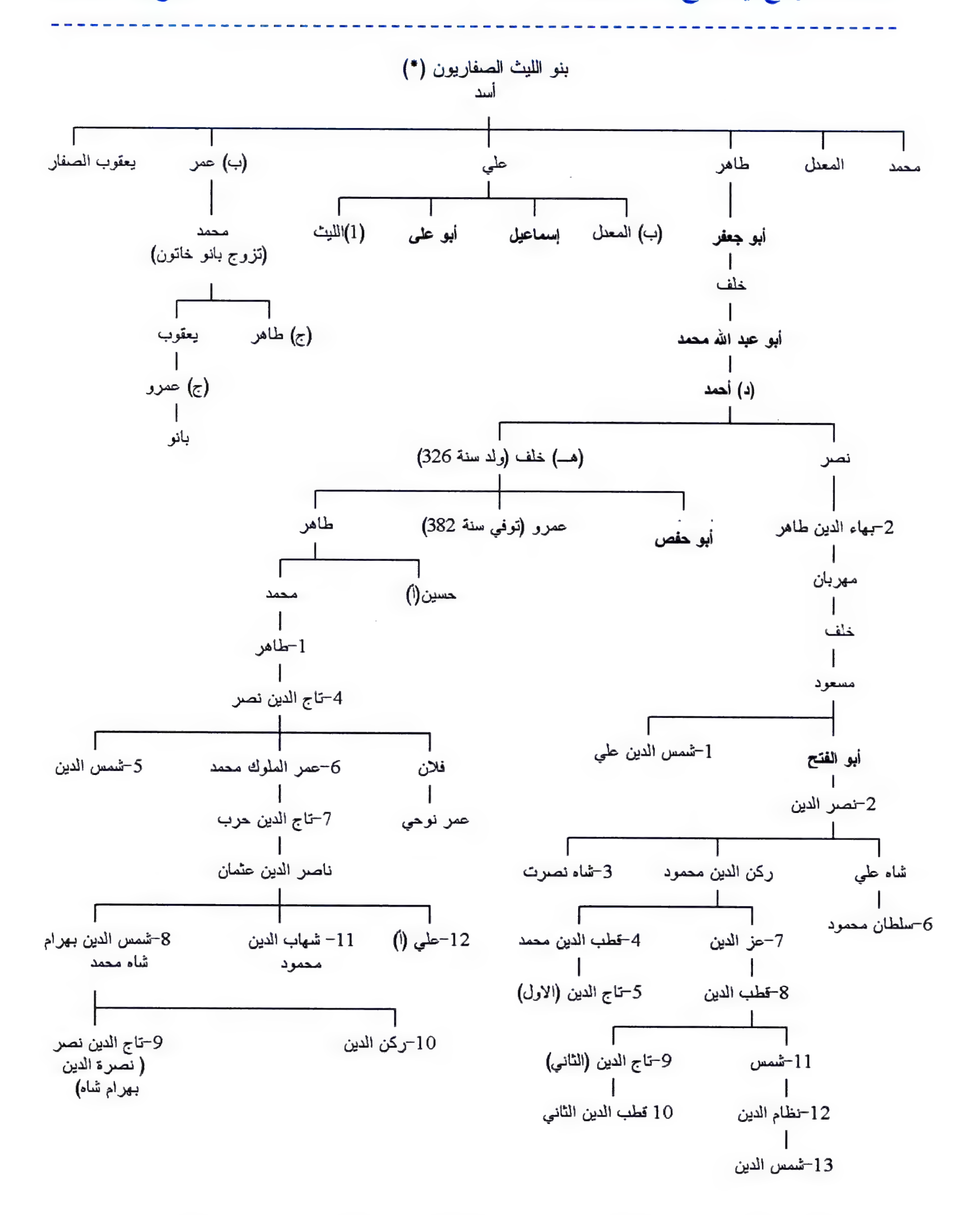
وأخيرا وجود سكان إقليم سجستان في الصفاريين متنفسا للتعبير عن معارضتهم للحكم العربي الإسلامي.

ملحق رقم (2)

الصفاريون

الدولة الأولى :

1. أبو يوسف يعقوب بن الليث الصفار، سنة 254 هـ/868 م
2. عمرو بن الليث، (قتل غيلة ببغداد سنة 289) 265 هـ/878 م
3. طاهر بن محمد بن عمرو ، 289 هـ/ 901 م.



* زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج 2/ص 305 ، 304 ؛ سليمان السعيد أحمد : تاريخ الدول الإسلامية ج 1/ص 274-275

ثالثا: السامانيون

(216-389 هـ/874-999م)

السامانيون هم أحفاد سامان خداه (ملك سامان أو أمير سامان بن بمرام جوبين). وهم إحدى الأسر الفارسية، وينسبون أنفسهم إلى ملوك الفرس [**انظر ملحق رقم** (3)]. وكانوا يتمتعون بنفوذ محلي كبير في بلخ، ومن الأسر الفارسية التي تعاونت مع العباسيين، وقد ظهر أمرها في خلافة المأمون (198-218هـ/813-833م) ونالت حظوة عنده. فقد ولى أولاد أسد بن سامان بلاد ما وراء النهر، فأسند إلى نوح سمرقند وإلى أحمد فرغانة وإلى يحيى الشاش وأشرو سنة أما إلياس فكان له هراة، ورفع من شأنهم، ولما آل أمر إقليم خراسان إلى طاهر بن الحسين أقرهم على أعمالهم، فظل السامانيون في بلاد ماوراء النهر يتعاونون تعاونا صادقا مع الطاهريين، ويحمون هذا الثغر الشرقي، كما شاركوا في الصراع الذي قام بين الطاهريين والصفاريين، وكانوا يساندون ويشدون أزر الطاهريين، وهو الأمر الذي جعل الطاهريين دائما يقرون السامانيين في بلاد ما وراء النهر باعتبارهم نوابا للطاهريين في هذا الإقليم. ولما ضعف أمر الطاهريين واستولى الصفاريون على إقليم خراسان قدرت الخلافة للسامانيين إخلاصهم فأصدر الخليفة المعتمد سنة 261هـ/874م مرسوما بتعيين نصر ابن أحمد بن أسد الساماني (ت 279 هـ/892م) أميرا مستقلا في بلاد ما وراء النهر وكتب إليه بذلك. فجعلت الخلافة بلاد ما وراء النهر إقليما منفصلا عن خراسان، وأقرت عليه السامانيين، وأرست قواعد الإمارة السامانية التي قامت على ما يبدو خارج منطقة الثقافة والحضارة الإيرانية، ولكنها ما لبثت أن بسطت سيادتها على بلاد خراسان، وضمت إليها طبرستان والري والجبل وسجستان، واتخذ نصر من سمرقند عاصمة لإمارته الجديدة. كما أن هذا التعيين قد وسم العائلة السامانية بالصفات الموروثة، وأقر لها بالسلطات المحلية التي كانت تتمتع بها منذ توليهم ما وراء النهر في زمن المأمون.

ويبدو أن الخلافة العباسية قد اتخذت هذه الخطوة حماية لمصالحها في المنطقة للوقوف بوجه تهديدات الدولة الصفارية، وقد عمل الأخوان نصر وإسماعيل على تثبيت أركان إمارتهم، وإبعاد الخطر عنها وكسب ود وعطف سكان المناطق التي أصبحت تحت نفوذهم (بخارى). وقد اتخذا الإجراءات والتدابير اللازمة في عادة وتعزيز المؤسسات والإدارات، مركزين على النواحي الأمنية ومتابعة اللصوص وقطاع الطرق ومطاردتهم، وكان لإسماعيل القدح المعلّى والدور الريادي في تثبيت الأمن والاستقرار خصوصاً في بخارى، إلا أن خلافا وقع بين الأخوين نصر وإسماعيل لأسباب غير معروفة فأدى ذلك إلى اندلاع القتال بينهما،

ويبدو أن إسماعيل كان أكثر حزما وأكفأ قيادة من أخيه نصر، فكان النصر حليفه في المعركة التي دارت بينهما عام 275هـ/888م. ومع هذا بالغ في احترام أخيه وأعاده إلى سمرقند، وظل يحكمها حتى وفاته في جمادى الآخرة سنة 279هـ/892م بعد أن أوصى بالإمارة إلى أخيه إسماعيل، الذي عمل منذ توليه الإمارة على إشاعة الأمن والاستقرار في إمارته ونشر الإسلام بين القبائل الوثنية.

فبدأ سنة 280هـ/893م بمهاجمة بلاد الترك فدخل بلادهم وقتل عددا كبيرا منهم، مؤكدا بذلك إخلاصه للخلافة، واستعداده للعمل على نشر رسالة الإسلام إلى الشعوب الوثنية. وقد كان لهذه الانتصارات أثرها في نفس الخليفة العباسي، فبعث يبارك لأمراء هذه الأسرة جهادهم في سبيل الإسلام، فعلا شأنهم في إقليم ما وراء النهر، وهو الأمر الذي أثار غضب ومخاوف الصفاريين وحسدهم، فقرروا إخضاع السامانيين والقضاء على نفوذهم، فأرسل عمرو ابن الليث الصفار إلى إسماعيل بن أحمد الساماني يدعوه للدخول في طاعته وإعلان تبعيته له، إلا أن إسماعيل رفض التجاوب مع طلب عمرو، وسخر من رسوله، قائلا له: "ليس بيني وبينه غير الحرب". وقف الخليفة المعتضد بالله (279-289هـ/892-901م) إلى جانب عمرو بن الليث في صراعه مع إسماعيل بن أحمد فعزل الأخير عن ولاية ما وراء النهر في سنة 285هـ/898م أمام جماعة من حجاج خراسان جاء تعبيرا عن رغبة الخليفة في إشباع طموح عمرو بن الليث ومحاولة من جانبه لضرب الصفاريين بالسامانيين والتخلص من أحدهما وإضعاف الآخر، كما أشرنا من قبل فاستعد الطرفان للقتال، وكانت النتيجة انتصار قوات السامانيين، ووقوع عمرو ابن الليث في الأسر سنة 287هـ/900م، وأخذه إلى دار الخلافة .

كانت هذه الهزيمة حافزا للعلويين في إقليم طبرستان للاستيلاء على خراسان. فقد ظن الداعي محمد بن يزيد أن إسماعيل بن أحمد لن يتجاوز حدود عمله فيما وراء النهر، فأسرع بالزحف نحو خراسان، ووصلت جيوشه إلى ولاية جرجان، فلما وصلت أخباره إسماعيل بن أحمد نصحه بالعودة إلى طبرستان، فرفض الإذعان إلى طلبه فدفع ذلك إسماعيل إلى توجيه جيوشه نحوه، ودارت معركة بين الجيشين عند باب جرجان، فكان النصر حليف السامانيين، ودخل جيشهم المنتصر مدينة جرجان، ومنها توجه نحو طبرستان فاستولى عليها، وأنهى حكم العلويين فيها سنة 289هـ/ 902م.

وكان من ثمار هذا الانتصار الذي أحرزه السامانيون أن وافق الخليفة المكتفي(289-295هـ/902 - 908م) على ضم ولاية الري وزنجان وقزوين إلى نفوذ إسماعيل، فضلا عن ولايتي

جرجان وطبرستان كمكافأة للخدمات التي قدمها إسماعيل بن أحمد إلى الخلافة العباسية. وبالرغم من هذا استمرت الاضطرابات أكثر من نصف قرن لم يتمكن السامانيون في أثنائه من السيطرة عليها بسبب غياب سلطة الخلافة وضعف ولاتها، وظهور عدد من الأمراء الطامعين والولاة المغامرين الذين اغتنموا فرصة سيطرة الجند الأتراك واستحواذهم على مقاليد الأمر في حاضرة الخلافة.

وفي صفر عام 295هـ/تشرين الثاني 907م توفي إسماعيل بن أحمد بعد أن وطد أركان الإمارة السامانية في بلاد ما وراء النهر، وبفضل جهوده عم الأمن والاستقرار في البلاد واستمر حكم السامانيين من بعده نحو قرن من الزمن، مع ضعف شخصية من خلفه من الأمراء وحداثة سنهم. وبعد وفاته أقر الخليفة المكتفي ولده أبا نصر أحمد على ولايته حيث واصل سياسة أبيه في تنظيم الإمارة السامانية. وفي عهده استولت القوات السامانية على سجستان، وأصبحت تحت نفوذها.

وعندما قتل أحمد بن إسماعيل الساماني في سنة 301هـ/913م تولى الإمارة السامانية ابنه الأمير نصر بن أحمد (الأمير السعيد) وكان عمره لا يتجاوز ثماني سنوات، فأقره الخليفة المقتدر(295-320هـ/907-932م) على بلاد أبيه، فتولى أمر البلاد الوزير أبو عبد الله محمد ابن أحمد الجيهاني (ت330هـ/941م) فضبط أمرها.

وكان لعلاقة المودّة والاحترام القائمة بين الأمراء السامانيين والخلافة أثرها في توطيد سلطان الخلافة في المشرق من جهة وتعزيز نفوذ السامانيين بالرغم من المشاكل التي واجهتها إمارتهم خصوصاً في عهد نصر بن أحمد الذي واجه مشاكل متعددة إضافة إلى الصراع القائم بينه وبين عمه إسحاق. فمن تلك المشاكل الاضطرابات التي قامت في إقليم كرمان، والصراع مع العلويين، والاضطرابات في خوارزم وصراعهم مع البويهيين وحركة مرادويخ بن زيار. وتؤكد المصادر التاريخية تغلب نصر على المشاكل العديدة التي واجهته، فبلغت الإمارة بجهوده أقصى عظمتها ونفوذها السياسي وأصبحت البلاد الواقعة تحت سلطانها مركزا للإشعاع الحضاري الإسلامي.

تولى نوح بن نصر الساماني (الأمير الحميد) إمارة بلاد خراسان وما وراء النهر بعد وفاة أبيه سنة 331هـ/942م، واستهل أعماله بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان على خلاف معهم في حياة أبيه في محاولة منه لتوطيد الأمن وإشاعة المحبة والتآلف، بدلا من الحقد والخصام والتنازع، ولكي يأمن جانب هؤلاء أوكل إليهم إدارة بعض الولايات.

وفي عهد نوح بن نصر استمر الصراع بين السامانيين والبويهيين، وحاول الخليفة العباسي من جانبه الدخول بين الأطراف المتنازعة لعقد الصلح

فبعث رسوله إلى نوح بن نصر سنة 343هـ/954م، ولكن وفاة الأمير وتولية ابنه عبد الملك حالت دون تحقيق السفارة غرضها. وكان من نتائج هذا الصراع أن تمكن الجيش الساماني من استرداد الري وبلاد الجبل من ركن الدولة بن بويه، إلا أن الإمارة السامانية كانت قد تعرضت لأخطار أخرى كتمرد أبي علي بن محتاج أحد قواد الأمير نوح سنة 334هـ/945م. والتفاف الجند حول إبراهيم ابن أحمد (عم نوح) الذي أعلن ولاءه لناصر الدولة الحمداني (ت 358 هـ/969م) قامت على إثرها حروب بين أفراد الأسرة السامانية استمرت ثلاث سنوات (334-337هـ/945-948م) انتهت بعقد صلح بين الطرفين المتنازعين .

ونتيجة هذه الاضطرابات ازدادت الأوضاع سوءا وتصاعد التوتر بين نوح بن نصر وعدد من القادة وأبناء البيت الساماني. توفي الأمير نوح عام 343هـ/954م، وارتقى العرش ابنه عبد الملك (الأمير الرشيد) وفي عهده استمر الصراع بين الأمير والقادة. واضطر أحد القادة البكتكيين أن ينسحب أمام الجيش الساماني إلى غزنة، حيث كانت بدايات الدولة الغزنويه .

وبعد وفاة الأمير عبد الملك عام 350هـ/961م آلت الإمارة إلى أخيه أبي صالح منصور بن نوح (الأمير السعيد) فاضطربت خراسان ودب الضعف في جسم الدولة السامانية. وفي عهده أيضا شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد الذي وصف بأنه كان عالما محباً لأهل العلم، فاضطر للمسير إلى بخارى واستنصر بالأمير منصور بن نوح، وسأله معونته، ورده إلى ملكه، فأنجده وجهز معه العساكر التي مكنته من استرداد هذه البلاد. وكان من نتائج هذه الاضطرابات أن بدأ الوهن يدب في الإمارة السامانية وطمع أمراء الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم. وقامت الحرب كذلك في جهات الري سنة 356هـ/966م بين منصور بن نوح وركن الدولة البويهي، و لم ينته الصراع بينهما إلا في سنة 361 هـ / 971 م بعدما اتفق الأمير منصور بن نوح الساماني مع ركن الدولة وابنه عضد الدولة، على أن يحمل كل من ركن الدولة وعضد الدولة، إليه كل سنة 150 ألف دينار، وتزوج نوح بن منصور بابنة عضد الدولة وحمل إليه من الهدايا والتحف الشيء الكثير. وبصورة عامة فإن عهد الأمير منصور اتسم بالضعف السياسي والإداري، فقد السامانيون فيه ولاياقم الغربية والجنوبية الغربية، ولم يتمكن هذا الأمير من إعادة نفوذه وسيطرته عليها بسبب الصراعات الداخلية وتنامي القوى المعارضة وخصوصاً البويهيين. توفي الأمير المنصور، وتولى الأمر من بعده ابنه نوح (الأمير الرضي) سنة 365 هـ/975 م وكان

طفلا صغيرا، وفي عهده ازدادت الأحوال سوءا حيث كثرت الاضطرابات والفتن بين قادة الجيش ورجال البلاط إضافة إلى حروهم المتواصلة ضد البويهيين، فضعفت الإمارة السامانية، وتضعضعت أحوالها، فأصبحت ممتلكاها فريسة سهلة للآخرين، إذ تمكن محمود الغزنوي من ضم خراسان إلى أملاكه وكان القائد التركي شهاب الدولة هارون ابن سليمان إليك المعروف ببغراخان خان التركي الذي تمكن من التقدم نحو بخارى ودخلها في عام 383هـ/ 999م بدون مقاومة تذكر. واستولى على خزائن السامانيين، وهرب الأمير نوح إلى مدينة أمل. إلا أن نوحا لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على إثر ثورة أهالي بخارى على قوات بغراخان بمساعدة الترك الغزية.

وقد عاد نوح بن منصور إلى بخارى، وأرجع الاستقرار والنظام إلى ربوع مملكته ففرح أهله به، واستبشروا بقدومه. واستعان ببغرخان لحرب الأمراء المتمردين عليه، فتمكنت جيوشهما من الانتصار على الأمراء بالقرب من هراة، فاضطرهم ذلك للفرار إلى جرجان، واستعاد نوح نيسابور واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقبه سيف الدولة. وبالرغم من طول مدة إمارة نوح بن منصور التي زادت على إحدى وعشرين سنة، لكنها كانت مليئة بالثــــورات والحروب الأهلية بسبب ضعفه وصغر سنه وتدخل النساء والوزراء في أمور البلاد وطمع أمراء الأطراف واستئثارهم بالسلطة، وطمع بني بويه والأتراك في إمارتهم وقيام المنافسة بين أبناء البيت الساماني نفسه. وقد وصف النرشخي حال الإمارة في عهده بقوله: "خرج ملك آل سامان من أيديهم". وكانت وفاة نوح في رجب سنة 387هـ/ تموز 998م إيذانا بانهيار الإمارة السامانية وزوالها. وعلق ابن الأثير على وفاته بقوله: "واختل بموته ملك آل سامان وضعف أمرهم ضعفاً ظاهرا وطمع فيهم أصحاب الأطراف، فزال ملكهم بعد مدة يسيرة". وقد عمل الأمير منصور بن نوح الذي تولى الإمارة بعد وفاة أبيه منذ بداية عهده على تأليف القلوب حوله بإغداق الأموال على أنصاره وقواده ولكن عهده شهد الكثير من الفتن والحروب. فعانت الإمارة السامانية من تهديد الأتراك لحدودها، فقد اتخذ أيلك خان التركي من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند. وانضم إليه فائق الخادم الذي تمكن من بسط نفوذه على بخارى، متظاهرا بأنه يسعى لخدمة الأمير منصور.

وفي عام 388هـ/998م بدأ النزاع بين الأمير منصور بن نوح والسلطان محمود الغزنوي الذي ثار لتولية بكتوزون إمرة جيوش خراسان، وطلب إعادتها إليه فلم يجبه الأمير لطلبه، فساءت العلاقة بينهما، وسرعان ما قبض بكتوزون وفائق الخادم

على الأمير منصور، فسملا عينيه، ووليا أخاه الصغير عبد الملك بن نوح شؤون الإمارة فاضطرب حبل الأمن، فوجد محمود الغزنوي الفرصة المواتية للاستيلاء على نيسابور وبخارى، واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها سنة 389 هـ/998م بعد أن قبض على الباقين من أبناء البيت الساماني وسجنهم، وانتهى بذلك حكم الأسرة السامانية، وانقسمت أملاكهم بين الغزنويين والقرخانيين الذين تولوا الثغر الشرقي في بلاد ما وراء النهر.

اعتمدت الخلافة العباسية على السامانيين في تثبيت سلطاها في بلاد المشـــرق وضـــرب المتغلبين والخارجين على طاعة الخلافة، فسيروا جيوشهم لإقرار سلطة الخلافة هناك عدة مرات بحسب طلبها. وقد منحهم الخليفة حق ذكر اسمهم في الخطبة، كما نقش هؤلاء الأمراء أسماءهم على الدنانير بجنب اسم الخليفة، وهذا رمز الاستقلال السياسي، وظل السامانيون مخلصين للخلافة حتى كان العصر البويهي، فطمع البويهيون في التوسع في البلاد التي كانت تحت سيطرة السامانيين وذلك دفع الطرفان إلى الدخول في حروب أدت في النهاية إلى عقد صلح بينهم، ثم تصاهر البيتان، وبذلك عم السلام بين الطرفين.

إن الخلافات الداخلية بين أبناء البيت الساماني هي التي عجلت في وضع نهاية هذه الإمارة، إذ "كان كل أمير يعمل على جمع عدد كبير من الأنصار ليثبت حقه في الحكم دون النظر إلى الأضرار المترتبة على هذه الحوادث، ووصل الأمر أحيانا ببعضهم كي يضمن ولاء القادة وإخلاصهم أن يدفع لهم الأموال والهدايا الطائلة، كما حدث في بداية حكم الأمير نوح بن منصور". فضلا عن اعتمادهم على الجند الأتراك الذين أثبتوا خطرهم على الإمارات والدول المعاصرة، وإن صغر سن الأمراء السامانيين الذين تولوا شؤون إمارتهم في العهود المتأخرة فسح المجال لتدخل النساء في شؤون الحكم وهو الأمر الذي شجع القواد وأصحاب الأطراف على الاستئثار بالسلطة. وفي أواخر أيامها تعرضت الإمارة السامانية لضغط متزايد من كل الجهات، فقد ظهرت بعض القوى التي تسعى إلى تكوين كيانات مستقلة لها على حساب السامانيين مثل الزيديين في طبرستان والصفاريين في سجستان والبويهيين في الري وفارس وجرجان. ودخول السامانيين في معارك متواصلة معهم فأدى ذلك إلى استنزاف لقوة السامانيين رغم تمكن السامانيين من التغلب على هذه القوى، ولكن الخطر المباشر الذي واجهته الإمارة السامانية يتمثل بظهور الأتراك على الحدود الشرقية، وكانوا يتطلعون إلى غزو أراضي الإمارة وتمكنوا من ذلك مستغلين فرصة الانقسامات الداخليـــة . إن هذه الظروف الصعبة والتحديات الخطيرة التي واجهتها الإمارة السامانية

في مراحلها النهائية أدت إلى إضعافها وانهيارها وتقسيم ممتلكاتها .

كان دور السامانيين واضحا في الحياة السياسية فقد حفظوا الثغر الإسلامي الشرقي ومدوا النفوذ الإسلامي إلى بلاد الترك البعيدة، وعلى أيديهم دخل العنصر التركي في الإسلام. وكان دورهم واضحا أيضا في نشر الحضارة العربية الإسلامية. ومن جانب آخر استجاب السامانيون للنزعة الإيرانية القومية، فهم أحبوا الثقافة الفارسية، وعملوا على إحياء اللغة الفارسية، وفي عهدهم بدأت الكتابة بها فأصبحت لغة الفكر والثقافة حيث ترجمت بعض المؤلفات العربية، كترجمة كتاب حوليات الطبري وقام بعض المؤلفين بالعربية بترجمة مؤلفاتهم إلى الفارسية، كما حدث مع الطبيب ابن سينا. وبدأ الاتجاه القومي الفارسي يظهر في الأدب، وحفل بلاطهم بالعديد من الشعراء الذين نظموا شعرهم بالفارسية والعربية، أمثال عمر الخيام. وكانت العودة إلى اللغات المحلية التي شجعها الأمراء السامانيون تعبيرا عن وعي الشعوب، وتأكيدا لذاتها، وحنينا للتراث الماضي. "وهذا كان منطلق السامانيين في تشجيع استخدام الفارسية. لكن السامانيين لم ينظروا نظرة سلبية إلى العربية، رغم ظهور نبرة فارسية واضحة في النتاج الأدبي لبعض أدباء خراسان وما وراء النهر"..

وقد كان الأمراء يرفعون شأن الفقهاء ويستشيرونهم في شؤون الدولة، فالأمير نصر يستشير وزراءه، فيشيرون عليه بأن يتخذ العلماء والعقلاء، وأن يفسح لم في صدره، وأن يرفع منزلتهم، فيوافق على نصائحهم. ومن علامات تكريمهم للعلماء إعفاؤهم لهم من تقبيل الأرض ودعوتهم إلى مائدة الأمير الخاصة التي تقام في دار الحريم.

وكان المؤلفون يدخلون على الأمير ومعهم مؤلفاتهم ليجيزهم، وكان الشعراء يقدمون على الأمير في الأعياد فينشدونه أشعارهم. ومن صور اهتمام السامانيين بالعلماء والأدباء إجراء الرايات وتقديم الهدايا ونظرتهم إليهم نظرة احترام ... وهناك إشارات كثيرة إلى مشاركة السلاطين في تشييع كبار العلماء والصلاة عليهم. وسعي السامانيون لجذب العلماء والأدباء إلى حاضرتهم، فقد أرسل الأمير الرضا نوح بن منصور الصاحب بن عباد الوزير الأديب ليوليه وزارته.

وقد أقاموا المؤسسات العلمية كالمدارس والمكتبات والأربطة ودكاكين الوراقين، وشجعوا قدوم العلماء والطلاب من مختلف أرجاء الدولة الإسلامية للالتحاق والتزود بالمعرفة والعلوم.

ملحق رقم (3)

بنو سامان

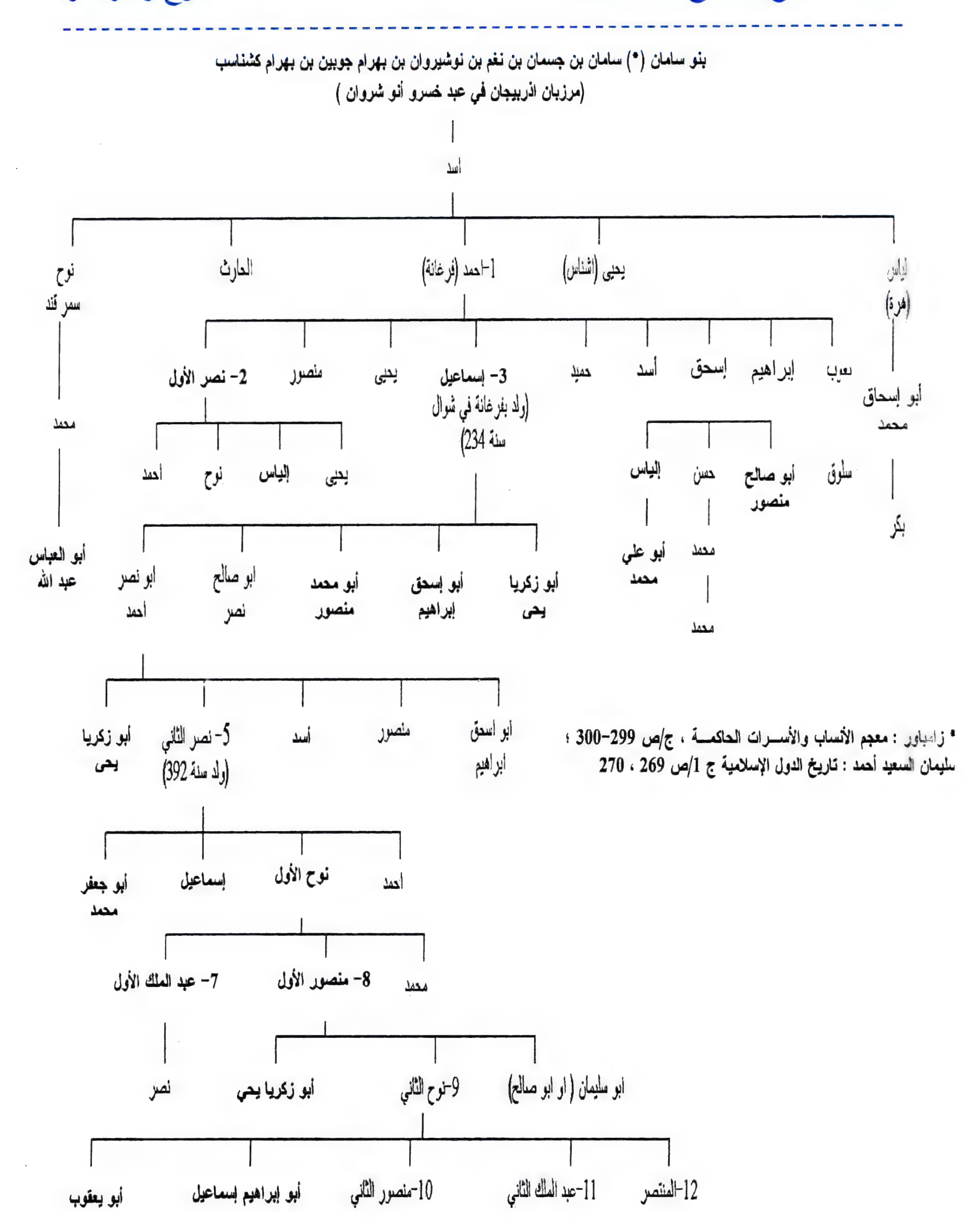
1. أحمد بن أسد، سنة 204 هـ/819 م
2. نصر (الأول) بن أحمد 250هـ/864 م
3. أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد، جمادى الآخرة 279هـ/ أيلول 892م
4. أبو نصر أحمد بن إسماعيل،(قتل غيلة في 23 جمادى الآخرة سنة 301) صفر 295 هـ/907 م
5. الملك السعيد نصر (الثاني) بن أحمد، (توفي في رجب سنة 231) جمادى الآخر 301 هـ/ كانون الغول 913 م.

- إسحاق بن أحمد، (ثائر) 301 هـ /913 م
- ميكائيل بن جعفر، (ثائر) حتى سنة 308 هـ/920م) 306هـ/918 م

6. الملك الحميد نوح (الأول) بن نصر، 331 هـ/943 م
7. الملك المؤيد (أو الموفق) أبو الفوارس عبد الملك (الأول) بن نوح 343هـ/954م.

-نصر بن عبد الملك(صل ولي يوما واحدا)، 350 هـ/961م

8. الملك السديد أبو صالح منصور (الأول) بن نوح 350 هـ/961م
9. الملك الرضي نوح (الثاني) بن منصور، (توفي في 13 رجب سنة 387 هـ/ تموز 998 م) –366 هـ/976 م.
10. أبو الحارث منصور(الثاني بن نوح (الثاني) رجب 387هـ/تموز 998م
11. أبو الفوارس عبد الملك (الثاني) بن نوح صفر 389هـ/كانون الثاني 999م.
12. أبو إبراهيم إسماعيل المنتصر بن نوح، (قتل في ربيع الأول سنة 395 هـ/كانون الثاني 1004م) 390 هـ/999 م.



* زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ج/ص 299-300؛ سليمان السعيد أحمد: تاريخ الدول الإسلامية ج 1/ص 269، 270

رابعا :الزياريون
(315-470هـ/927- 1077م)

بدأ احتكاك المسلمين بالديلم منذ أن حاولوا فتح الري وقومس في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه 13-23هـ/634-643م، وتشير الروايات التاريخية إلى عدم استقرار الأوضاع هناك طوال العهود الإسلامية، وظل الديلم على الطاعة حينا والثورة حينا آخر. وكانت طبيعة أرض الديلم الجبلية تمكنهم من الخروج على الحكم العربي كلما واتتهم الفرصة المناسبة. ومع الاستقرار الذي شهده الإقليم في أوائل العصر العباسي الأول فإن الديلم عاودوا إلى عصيان الخلافة العباسية أيام المأمون(198-218هـ/ 813-833م) فأرسل إليهم القائد العربي إياد أبا دلف القاسم بن عيسى ت 226-840م، كما بعث الخليفة المعتصم (218-227هـ/ 833-841م) قائده الأفشين لوضع حد لاضطراباتهم.

تواصلت معارضة الديلم للعباسيين مع مرور الزمن وأخذت طابعا إسلاميا، إذ وقف الديلم إلى جانب الحركات العلوية المعارضة للخلافة سنة 253هـ/867م، فأرسل الخليفة المعتز بالله قائده التركي موسى بن بغا لمحاربة العلويين ببلاد الديلم. وقد سار الديالمة في ركب الشعوب الإيرانية المستفيدة من ضعف الخلافة العباسية ساعين إلى الاستقلال بمنطقة بحر قزوين وطربستان، فانبثقت منهم دولة بني زيار الديالمة 315هـ/ 927م .

وقد كان على رأس قوات الديلم القائد أسفار ابن شيرويه الديلمي الذي تملكه الغرور فتجبر وطغى وعصا صاحب خراسان بعد أن جمع السلطة بين يديه، وأخضع رؤساء الديلم لسلطانه، ولكن نفوذه لم يستمر طويلا، فقد تمكن قائده مرادويخ ابن زيار من الاستيلاء على جرجان، وقتله سنة 316هـ/927م والسيطرة على الأقاليم التابعة له كافة وتأسيس الإمارة الزيارية بالتحالف والتعاقد مع سالار (صاحب الطرم من أرض الديلم) الذي قصده بأمر من أسفار ليأخذ عليه البيعة لأسفار بن شيرويه والقهر والدخول في طاعته ويذكر المسعودي أن مرداويج سار إلى سالار: "فتشاكيا ما نزل بالإسلام من أسفار بن شيرويه، وإخرابه البلاد، وقتله الرعية، وتركه العمارة والنظر في عواقب الأمور، فتحالفا وتعاقدا على التظاهر على أسفار والتعاون على حربه". فضلا عن أن مرداويخ قد كتب إلى جماعة من القواد يثق بهم ويعرفهم ما اتفق هو وسالار عليه وهو قتال أسفار، وكان الجند قد سئموا اسفار لسوء سيرته وظلمه وجوره، وقد أدت كل هذه العوامل مجتمعة إلى تمكن مرداويخ من أسفار، فأصبحت طبرستان وجرجان وقزوين وأبهر والري وزنجان وقم والكرج وهمدان والدينور وإصبهان تابعة له. وسرعان ما دخلت

هذه الإمارة الجديدة في صراع مع السامانيين الذين حاولوا جهد إمكانهم تأمين السيطرة على تلك الأقاليم وفرض الأمن والاستقرار لتأكيد وجودهم السياسي من جهة ولتحقيق رغبة الخلافة في إعادة هيبتها وسلطتها على تلك الأقاليم من جهة أخرى.

وقد أنهت هذه الصراعات الإمارة السامانية، وشتت جهودها و لم تتخل عن مواقفها من الخلافة العباسية مع كل هذا، وذلك لشعور السامانيين بالخطر الذي يهدد إمارتهم. ومن جانب آخر أغرقت هذه الفتوح مرداويخ الذي وصف بأنه شخصية من شخصيات التاريخ الإيراني مرهوبة الجانب عظيمة السلطان، فتطاول بفتوحه حتى حدود العراق، وأراد أن يستولي على بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويبدل دولة العرب، ووصفه ابن الأثير بقوله: "وكان مرداويج قد تجبر قبل أن يقتل وعتا وعمل له كرسيا من ذهب. يجلس عليه وعمل كراسي من فضة يجلس عليها أكابر قواده، وكان قد عمل تاجا مرصَّعاً على صفة تاج كسرى، وقد عزم على قصد العراق والاستيلاء عليه وبناء المدائن ودور كسرى ومساكنه، وأن يخاطب إذا فعل ذلك بشاه هنشاه...". وقد اضطر الخليفة المقتدر العباسي (295-320هـ/ 908-932م) للاعتراف بسلطانه، شأنه شأن المتغلبين الذين امتلأ بهم التاريخ الإسلامي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأقره الخليفة على ما بيده من البلاد، وتعهد مرداويخ من جانبه بدفع جزية سنوية للخلافة.

وقد اتصل مرداويخ بالديالمة البويهيين في بداية ظهورهم، واحتضن فريقا منهم (علي بن بويه) وأخوه الحسن- وتمكن من البلاد أحد رؤساء الديلم الأقوياء هو(ماكان بن كالي) الذي ضعف أمره ولجأ إلى السامانيين. فلما ضعف أمر (ما كان) تفرق عنه كثير من جنده الديلم، ولجأوا إلى مرداويخ، ووقفوا إلى جانب الجماعات البويهية لمساعدته. وقد رأى مرداويخ في هذا التأييد تثبيتا لقوته وتعزيزا لنفوذه ومكانته في بلاد الديلم، واعترافا منه بموقف (علي بن بويه)، فقد ولاه بلاد الكرج، ولكن سرعان ما دخل الريب والشك في نفسه، فخشي تعاظم نفوذه، فعزله، وأرسل إلى أخيه وشمكير (ت 357هـ/967م) يطلب منه التخلي عن أولاد بويه، وأعد العدة لطرد علي ابن بويه من بلاد الكرج، فتركه مغادرا مدينة أرجان، ثم اصطخر، وانتصر على صاحبها المظفر بن ياقوت، ثم دخل شيراز سنة 322هـ/ 933م وقد أصبح مرداويخ من القوة بحيث خاف (علي ابن بويه) أن يسرف في عدائه، فعمل على كسب وده وكسب عطفه وتملق إليه ثانية بأن أقام الخطبة له، وأهدى إليه الأموال، وبعث الحسن أخاه رهينة عنده ضمانا لولائه وإخلاصه. ومن الناحية الثانية عمل علي ابن بويه على كسب ود الخليفة العباسي

والحصول على تفويض واعتراف بشرعية حكمه وقد تحقق له ما أراد. فثارت ثائرة مرداويخ، وعزم على التخلص منه. فبدأ بتنظيم ملكه الشاسع الذي فتحه بسواعد الديالمة، غير أن مرداويخ لقي مصرعه بعد مدة قصيرة على يد جماعة من الأتراك الذين كانوا يؤلفون جزءا من جيشه بسبب سوء معاملته لهم وتفضيله الديلم عليهم وذلك في سنة 323هـ/934، فاجتمع أصحابه على طاعة أخيه وشمكير، وقد واجه وشمكير عداء البويهيين السافر الذي انتهى بانتزاع الري من الزياريين، كما استطاع عامل نصر بن أحمد الساماني والي خراسان وبلاد طبارستان وجرجان أن يرغم وشكمير على الرحيل إلى بلاد الجبل، ليقدم فروض الطاعة لنصر بن أحمد ولابنه نوح. وبعد وفاته قام بالأمر ابنه بيستون الذي راسل ركن الدولة البويهي وصالحه فأمده ركن الدولة بالمال والرجال. لقد الإمارة الزيارية مهدت بشكل واضح وصحيح لامتداد وتوسيع الهجرة الديلمية إلى العالم الإسلامي نحو الجنوب، هذه الهجرة التي تولاها بنو بويه. واتفقت المصادر على أن الدولة البويهية تفرعت عن الإمارة الزيارية، فتقدمت بأفواج الهجرة، وبلغت إقليم فارس، واستقرت في إيران حيث جعلت قاعدة ملكها مدينة شيراز، ثم مدت نفوذها إلى حاضرة الخلافة العباسية ودخلتها في عام 334هـ/945م.

أما الإمارة الزيارية فقد بقيت محصورة في الشمال مستقلة عن بني بويه أولا ثم حليفة لهم في آخر الأمر حتى نهايته 470هـ/177م .

خاتمة عامة:

إن الهدف من هذه الدراسة للإمارات في الشرق الإسلامي هو الكشف عن طبيعة المواقف العدائية التي أفرزتها الأحداث السياسية المضطربة التي شهدتها الخلافة العباسية، وقد بدأ الشعور المعادي مع الطاهريين سنة 205هـ/820م، وانتهى بسيطرة البويهيين على إيران برمتها، ثم دخولهم عاصمة الخلافة العباسية، وقد كان تفكير مؤسسي هذه الإمارة تعبيرا دون أدنى ريب عن النزعة الاستقلالية .

ويلاحظ للوهلة الأولى، أن جميع هؤلاء الأمراء المؤسسين كانوا مجرد ولاة مسمين أو معينين من الخلفاء، انتهزوا فرصة ضعف الخلافة العباسية وانشغالها بالجند الأتراك، فحصلوا على الاستقلال، وتوارثه بعدهم أبناؤهم وأهل بيتهم. وخضعوا اسميا للخلافة العباسية. ومما يلاحظ أيضا أن أيا من هذه الإمارات لم تتمكن من السيطرة على إيران بأجمعها، فقد استقلت كل ولاية من ولاياتها ذاتيا.. وظهرت فيها إمارة تنظر إلى الإمارات الأخرى نظرة العداء والريبة وتعاونت بعضها مع القوى المناهضة للخلافة. فقد ذكر الصولي أن مرداويخ بن زيار الذي عظم أمره في أول أيام الراضي في

إصبهان، وتحدث الناس عنه :..." وأنه لمساهم لصاحب البحرين مجتمع معه على ما يحاوله...".

ولم يكتف أمراؤهم بتأكيد انتسابهم إلى الأكاسرة الفرس، بل راح بعضهم يعمل على التشبه بالفرس في نظم الحكم وإحياء الكثير من التقاليد الفارسية القديمة وخصوصاً آل زيار. وإذا كان آل زيار قد جهروا بعاداتهم وتقاليدهم الفارسية فإن غيرهم من الأمراء مثل الطاهريين والسامانيين كانوا في مجالسهم الخاصة وبلاطهم ودواوينهم يحيون النماذج الفارسية القديمة. ولم يتوان بعض هؤلاء الأمراء من أن يشهر السلاح بوجه الخلافة، كموقف يعقوب ابن الليث الصفار من الخليفة المعتمد على الله الذي عمد إلى بغداد نفسها وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه.. وإن مرداويخ كذلك عمد الدخول إلى بغداد وتشتيت الدولة.

ويكفي تأييدا واضحا لهذه النزعة الفارسية أن نشير إلى أن بلاط بعض هؤلاء الأمراء كانت من أهم المراكز التي تجذب الناظمين للشعر الفارسي الجديد كبلاط السامانيين في بخاري وقصر شمس المعالي قابوس بن وشكمير في طبارستان.

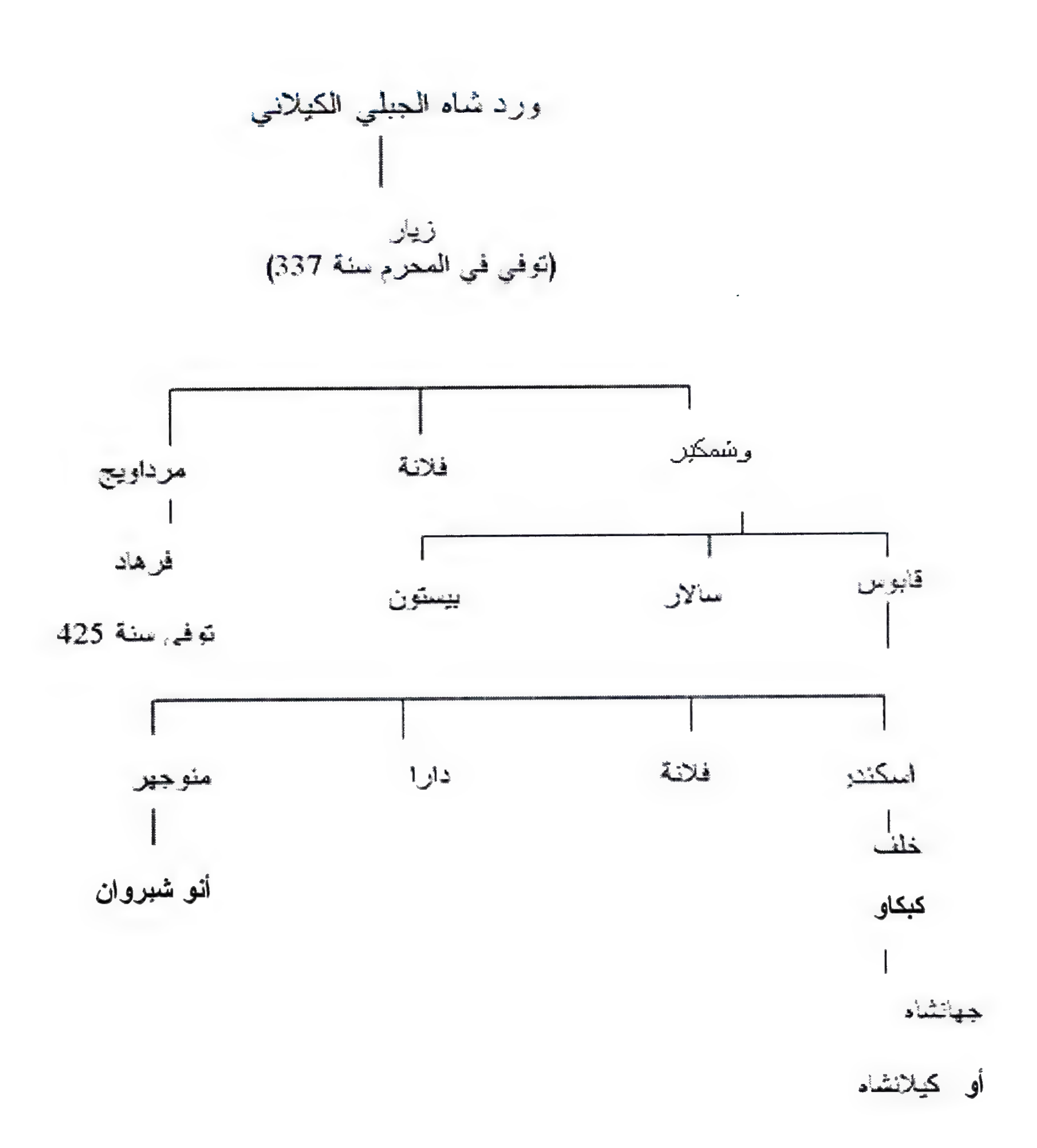
أ . د. بهجة كامل عبد اللطيف

(جامعة بغداد – العراق)

ملحق رقم (4)

بنو زيار (*)

1. مرداويج بن زيار سنة 315 هـ/927 م
2. ظهير الدولة أبو منصور وشمكير بن زيار 323 هـ/934 م
3. ظهير الدولة أبو منصور بيستون بن وشمكير 356هـ/966م
4. شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن وشمكير 366 هـ/976 م



*** زامباور : معجم الأنساب والأسر الحاكمة ، ج 1/ص 320 ؛ سليمان السعيد أحمد : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة**

ب)الكيانات المستقلة في الشام والجزيرة العربية ومصر

1- الأوضاع السياسية والاجتماعية:

إن دراسة نشوء الكيانات المستقلة في هذه الفترة تستدعي بالضرورة التعرف إلى الأحوال السياسية والاجتماعية للأمة العربية الاسلامية خلال هذه الفترة. وإذا عدنا إلى المصادر التي تعرضت لهذه الحقبة التاريخية وجدنا أن مؤرخاً مثل أبي شجاع الروذاوري قد صوّر هذه الفترة أحسن تصوير في كتابه " ذيل تجارب الأمم " عندما قال:

" إن من شروط السياسة أن يفي الملك بقوله وعهده، وأن يصدق في وعيده ووعده، وأنه متى أخلف استولت على المحسن خيبة، وزالت عن المسيء الهيبة، ومن قارب بين التولية والعزل لا يعقل".

وقبل أبي شجاع قال مسكويه: "إذا بني التدبير على أصول خارجة عن الصواب، وإن خفي في الابتداء ظهر على طول الزمن. ومثل ذلك من ينحرف عن جادة الطريق انحرافاً يسيراً، ولا يظهر انحرافه في المبدأ حتى إذا طال به المسير، وبَعُدَ عن السَّمْت، وكلما زاد إمعاناً في السير زاد بعده عن السمت ."وفي موضع آخر صور مسكويه أوضاع الدولة العباسية بمختلف نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية عندما قال:

"فسدت المشارب، وبطلت المصالح، وأتت الحوائج على التناء، ورقت أحوالهم، فَهُمْ بين هارب جالٍ وبين مظلوم صابر لا يُنْصَفُ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع؛ ليأمن شره وبوائقه، فبطلت العمارات، وأغلقت الدواوين، ومُحِيَ أثر الكتابة والعمالة، ومات من كان يحسنها.

لقد رسم هذا النص السياسة العامة التي كانت تدور الخلافة في فلكها، كما أوضح صورة السياسات المتناقضة التي تسيطر على مجرى الأمور والتي كانت تبدأ مع ولاية كل خليفة جديد.

ورافق ذلك تقديم المصالح الخاصة لفئات من المتنفعين من قادة جيش، ووزراء، وولاة وأصحاب دواوين،إلى غير ذلك من الموظفين. فكثرت الرشاوي والمصادرات، وإفشاء أسرار الدولة، وسيطرة النساء والخدم والجواري، وخلع الخلفاء وقتلهم أو التمثيل بهم وأدى ذلك إلى كثرة الفتن والاضطرابات، فضعفت الدولة الأم، وبدأت تفقد أطرافها شيئاً فشيئاً، وقامت الكيانات المستقلة في معظم مناطقها.

وما إن حَلَّتْ سنة325هـ/936 م حتى أصبحت سلطة الخليفة لا تخرج عن نطاق العاصمة بغداد. وأوضح ذلك الهمذاني حيث قال: "في هذه السنة (325هـ) غلبت على الدنيا الطوائف: واسط والبصرة والأهواز في يد البريدي،

وفارس فى يد علي بن بويه، والموصل وديار ربيعة وديار بكر فى يد بني حمدان، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج، والمغرب وأفريقيا في يد أبي تميم، والأندلس في يد الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر الجنابي، و لم يبق في يد الراضي وابن رائق (أمير الأمراء) غير السواد (سواد العراق)".

إن هذه الصورة التي رسمها الهمذاني لم تكن وليدة يوم أو ليلة، بل كانت وليدة سنوات طويلة تخللها الفساد وسيطرت العناصر الأجنبية ، كما ألمح مسكويه.

لقد أصبح العنصر الأجنبي يشكل قوة ضاغطة على الخلفاء والدولة منذ عهد المتوكل (ت 247هـ/ 861م)، وقد شعر هؤلاء الأجانب بقوتهم حتى لم يعد باستطاعة الخليفة أن يحتجب عن أحد منهم في أي وقت شاء الدخول على الخليفة، كما كان الخليفة لا يرد حاجة لأي منهم مهما ما كانت.

أمام هذه الأحوال بدأ الولاة في الأطراف يستغلون هذه الظروف ويعلنون استقلالهم عن جسم الخلافة، وأن يقيموا دولاً مستقلة في مناطق ولاياتهم.

ومن الجدير بالذكر أن قيام هذه الكيانات أبقت خيطاً رفيعاً في العلاقات مع الدولة الأم ، تمثل في إصدار كتب الموافقة (الجبرية) على التولية، وإرسال بعض الأموال من الكيانات إلى مركز الخلافة.

وبشكل عام أخذت الكيانات المستقلة تبرز بشكل واضح منذ القرن الثالث الهجري، و لم يعد يجمع عا لم هذه الكيانات سوى وحدة الخضوع الاسمي للخلافة الأم في بغداد.

ومن هذه الكيانات:

أ- في مصر

1- الدولـــــة الطولونيـــــة: 264-292هـ/877 -905م

لقد كان العباسيون الأوائل، ومنذ استقلال الأندلس عام 138هـ/756م ينظرون إلى مصر على أنها البوابة المهمة لأفريقيا.

ومن هنا حظيت مصر باهتمام خاص، وليس أدل على ذلك من أن الخليفة المأمون عندما عين أخاه المعتصم سنة 213هـ/825م على غرب الدولة من باب الأنبار حتى أقصى المغرب قال ليحي بن أكثم: "ينبغي أن ترتاد لي رجلاً لبيباً، له علم وأمانة أنفذه مع أبي اسحاق، وأوليه المظا لم في أعماله، وأتقدم له سراً بمكاتبتي بأخباره (المعتصم)، وما يجري على أموره، ومما يظهر

ويبطن، وما يرى من أمور قواده وخاصته، وكيف تدبيره في الأموال وغيرها، فإني لست أثق بأحد مِّمَنْ يتولى البريد". فدلّه على أحمد بن أبي دؤاد.

إن وضع صاحب خبر على المعتصم من قبل المأمون جاء من خشيته إظهار استقلاله في مصر، فطلب من قاضيه ما طلب.

ولم يمضِ أكثر من نصف قرن على خوف المأمون حتى بدأت الإمارة الطولونية في مصر، ولم تقتصر حدودها بعد ذلك على مصر بل امتدت فعلاً إلى الشام بعد ذلك.

لقد كان مؤسس هذه الإمارة هو أحمد ابن طولون ، أحد العناصر التركية التي بدأت تبرز في الخلافة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون الذي كان يشتري الغلام من الأتراك بمائة ألف ومائتي ألف ، وقد شارك بعضهم في جيش المأمون الذي توجه لقتال الأمين في بغداد.

ولما تسلم المعتصم الخلافة، وأسقط العرب من ديوان الجند اجتمع له منهم ما بين 70-100 ألف جندي، فكان ذلك سبب خراب ملكه (فيما بعد).

ومع أن المتوكل حاول الحد من نفوذ الأتراك فشل في ذلك، بل إن هذه المحاولة قد عجلت بالقضاء عليه وهذا ما دفع المؤرخين إلى إطلاق اسم فترة الفوضى العسكرية التي بدأت بمقتل المتوكل وانتهت بمجيء المعتمد على الله سنة 256هـ/869م.

وقد وصف ابن طاطبا أوضاع الدولة العباسية في تلك الفترة وقال: " إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه".

في ظل هذه الفوضى ظهر أحمد بن طولون في مصر سنة 254هـ/867م.

نسب ابن طولون:

تجمع المصادر على أن "طولون" تركي الأصل ، أرسله نوح بن أسد الساماني من بين جملة من الهدايا إلى المأمون سنة 200هـ/815م.

ونظراً لما كان يتمتع به طولون من صفات ترقى في الوظائف حتى أصبح من كبار الأمراء في بلاط الخلافة إلى أن توفي سنة 240هـ/856م.

أما ابنه أحمد فقد ولد سنة 220هـ/835م، وليس لدينا معلومات عن نشأته الأولى، إلا أنه وصف فى أثناء شبابه " بعلو الهمة، وحسن الدين، فأحب العلم ولقي الشيوخ، وسمع منهم". ولما انتقل إلى طرسوس كوَّن جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع.

ويذكر ابن سعيد: أن ابن طولون قد طلب بنفسه من الوزير عبيد الله بن يحي أن يكتب له ومن معه من الأتراك أرزاقهم إلى الثغر (طرسوس) ليقيموا فيه في ثواب قائم، وجهاد متصل. فذهب إلى هناك، ورأى ما الناس عليه من الأمر بالمعروف، ومجانبة المنكر، فأنست نفسه، و لم يكن يدخل إلى مترله إلا ليلاً.

ويستدل من استئذان ابن طولون من الوزير على أحد أمرين أو كلاهما:

1- المكانة التي كان يتمتع بها ابن طولون لدى البلاط العباسي، وارتباطه بكبار رجال الدولة.

2- أنه صاحب خبر للوزير، ويمكن التدليل على ذلك بشغف ابن طولون، واهتمامه الكبير بالشؤون الاستخبارية سواء أكان ذلك في مصر أم في حاضرة الخلافة ، كما سنرى.

ويذكر البلوي أنه لم يمكث بطرسوس طويلاً بعد أن علم بجزع أمه عليه، فعاد إلى بغداد، وفي الطريق ابتسم له الحظ ثانية عندما خلّص من الأعراب قافلة كانت مرسلة للمستعين من البيزنطيين ، فعظم في عين المستعين، وأمر له بألف دينار وجارية اسمها مياس أم أبي الجيش.

وبعد هذه الواقعة توثقت علاقته بالمستعين . لكن الأمر المحيّر هو لماذا كان الخليفة يومئ بالسلام سرّاً لابن طولون عندما كان يدخل عليه؟، ولا أجد تفسيراً لذلك إلا أنه ربما كان المستعين يفعل ذلك عندما نفي إلى واسط، والمستعين هو الذي اختار ابن طولون ليكون معه في نفيه. وخلال فترة النفي كان ابن طولون يحسن عشرته، ويطلق يده في التتره والصيد.

ويذكر البلوي أن ابن طولون رفض عرضاً من قبيحة والدة المعتز بقتل المستعين مقابل ولاية واسط، فكتب إليها يقول: " والله لا يراني الله عز وجل أقتل خليفة ، له في رقبتي بيعة وأيمان مغلظة أبداً".

فمدح الأتراك موقفه، وأحمده الناس كلهم، وكتب إليه الأتراك بترك واسط إلى "سُرَّ مَنْ رَأَى"، واستبدلوا به سعيد الحاجب الذي نفذ المهمة.

وقد قال فيما بعد: " رفضت واسط، فعوّضني الله ولاية مصر والشامات، وسعة الأحوال منها.

ولما تسلم القائد التركي باكباك ولاية مصر، اختار من أبناء جلدته نائباً له وهو أحمد ابن طولون لأنه: " الثقة، الأمين، الحبر، الخيِّر، الدَّيِّنُ. فقلده خلافته وضم إليه جيشه في رمضان سنة 254هـ/868م مسؤولاً عن القصبة (الفسطاط) وعن الصلاة فقط.

جاء ابن طولون إلى مصر وأمامه أمور جسام كان عليه أن يتخلص منها إذا أراد إحكام سيطرته على مصر أولاً، والتفكير فى الاستقلال ثانياً ، وهي:

1- المنافسون الخطرون من كبار الموظفين ، وعلى رأسهم أحمد بن المدبر صاحب الخراج، وشقير الخادم صاحب البريد (المخابرات).

2- الفتن والثورات التي كان يثيرها الخوارج والعلويون.

3- الظروف الاقتصادية الصعبة والأمنية التي كانت تمر بها مصر.

4- ولاة المناطق الأخرى مثل إسحاق ابن دينار في الإسكندرية، وعيسى الصفدي في برقة.

5- العلاقة مع الموفق ، ومحاولته عزل ابن طولون عدة مرات.

وأمام تقييمه لهذه الأمور بدأ ابن طولون بكبار الموظفين في الفسطاط ولاسيما أنهم بدأوا يشكلون جبهة واحدة أمامه من أجل الإطاحة به وإظهار عجزه.

كان ابن المدبر من دهاة الناس ، وشياطين الكتاب والعمال، وصاحب رياء كبير على حد قول البلوي. فبدأ علاقته مع ابن طولون بإرسال مبلغ عشرة آلاف دينار هدية ، فاعتذر ابن طولون عن قبولها. وعوضاً عنها رأى بثاقب بصره المائة الغلام الذين كانوا يحرسون ابن المدبر، فطلبهم منه، فوافق ابن المدبر على مضض، فكان ذلك أول إضعاف لسلطة ابن المدبر.

والضربة الثانية التي وجهها لابن المدبر هي إلقاء القبض على الحسن بن شعيرة وضربه وثم موته لأنه كان يتهكم ويقلد في إشاراته ابن طولون ليضحك الناس عليه، كما كان منضوياً إلى ابن المدبر.

وأنهى ابن طولون أمر ابن المدبر الوظيفي عندما أرسل إلى الخليفة المهتدي بالله صرف ابن المدبر عن الخراج، وكان له ذلك بمساندة من باكباك.

أما شقير الخادم فقد تخلص منه عندما جند له أصحاب أخبار في مركز الخلافة، فكانوا يرسلون له بالكتب التي يبعثها شقير في شأن ابن طولون، فأدّى ذلك إلى اعتقاله، ولم يلبث طويلاً حتى مات.

أما الأمر الثاني في خطته فكان وضع حد للثورات والفتن في مصر ، فقد تمكن من القضاء على حركة العلوي أحمد بن محمد بن طباطبا الذي ثار في مصر ووصل إلى الصعيد ، وذلك في سنة 255هـ/869م.

وفي السنة التالية تم القضاء على حركة إبراهيم بن محمد المعروف بالصوفي العلوي، ثم بعده على حركة العمري عبد الحميد بن عبد الله في البجة، وأبي روح من بوادي الاسكندرية فيما بعد.

وجاءت حركة عيسى بن الشيخ والي فلسطين والأردن للسيطرة على دمشق لتزيد من قوة ابن طولون بطريق غير مباشر عندما كتب الخليفة إلى صاحب الخراج بإطلاق يد ابن طولون فى التصرف بالأموال . فاستغل ابن طولون هذا الأمر، وبدأ بتكوين جيش قوي بعد أن ابتاع من السودان خلقاً كبيراً.

والتفت ابن طولون إلى الظروف الاقتصادية والأحوال الأمنية التي كانت تمر بها مصر، فبدأ بإلغاء الضرائب التي كان ابن المدبر قد فرضها على المصريين. وعمل على استتباب الأمن وتطهير مصر من اللصوص ، معتمداً فى ذلك على جهاز استخباري أكثر البلويّ من الإشادة به، مضافاً إلى ذلك الفراسة التي كان يتمتع بها ابن طولون فى هذا الشأن.

كما اهتم بالشؤون الزراعية، فحفر الترع، وشق القنوات، فارتفع خراج مصر من 800 ألف دينار إلى حوالي 4ر3 مليون دينار عدا الضياع التي كانت بيد الأمراء. وأخيراً جاءت ظروف قتل باكباك سنة 257هـ/870م، وتولية والد زوجته، يارجوخ الذي كتب إليه: تسلم من نفسك لنفسك ليضم إليه الإسكندرية وبرقة حتى عمّت سلطته مصر جميعها.

وما إن مات يارجوخ عام 259هـ/872م حتى أصبح ابن طولون والياً على مصر من قِبَلِ الخليفة مباشرة.

أما علاقته مع ولي العهد "الموفق" ، فقد ساءت إثْرَ طلب الأخير الأموال من ابن طولون لمواجهة حركة الزنج. ولما علم المعتمد بذلك طلب من ابن طولون إرسال الأموال إليه وليس إلى الموفق ، لئلا تقوى يد الموفق بهذه الأموال. واكتفى بإرسال مبلغ يسير. فلما رآه الموفق قال: إن الحساب يوجب إضعافه، وبسط لسانه فيه.

وإثْرَ ذلك حاول الموفق عزل ابن طولون عدة مرات، إلا أنه لم يتمكن من ذلك. فلجأ الموفق إلى الأتراك وقال لهم: إن مصر خزانة السلطان وفيها أمواله، فليخرج إليها أحدكم.

ولما عجز عن ذلك كتب إلى المعتمد: إن الثغور الشامية ضائعة، وإن ابن طولون أهمل أمرها.

لقد فشلت جميع محاولات الموفق بسبب اعتماد ابن طولون على قلم استخبارات قوي في دار الموفق ودار المعتمد على حد سواء، وكان هؤلاء يكاتبونه بكل ما يجري في الدولة. بالاضافة

إلى الرشاوي التي كان يدفعها عبر التجار إلى كبار القادة والمتنفذين في حاضرة الخلافة.

وقد بلغت الجرأة بابن طولون أن يكتب للمعتمد للقدوم إلى مصر، للتخلص من سيطرة الموفق.

سيطرة ابن طولون على الشام:

أدت الأوضاع في بلاد الشام سواء كان ذلك في أمور الثغور الشامية إثْرَ الاضطرابات التي قامت بها سنة 259هـ/872م، أو حركة عيسى بن الشيخ الذي تغلب على دمشق، ورفض إرسال الأموال التي كان يحملها للمعتمد ، إلى أن يستنجد الخليفة بابن طولون للقضاء على الثورات في الشام.

إلا أن الخليفة خشي أن يكون خطر ابن طولون أكبر من خطر ابن الشيخ، فغير موقفه، وأسند مهمة قتال ابن الشيخ إلى أماجور ، وأقطعه بلاد الشام.

لقد بقي ضم بلاد الشام إلى مصر حلماً يراود ابن طولون، فجاءت ثورة الزنج التي اندلعت بالبصرة سنة 255هـ/869م، وانشغال الخلافة بها عاملاً مشجعاً لابن طولون على التوجه إلى بلاد الشام وفرض سلطته عليها أجمع.

وجاءت غارات الدولة البيزنطية على مناطق الثغور سنة 263هـ/876م، وموت أماجور سنة 264هـ/877م، وتولية ابنه علي، وكان غلاماً صغيراً، لفرض سيطرته على الشام بعد أن أَذِنَ له الخليفة في ضبط أمور الثغور. وبذلك أصبحت دولة ابن طولون تمتد من العراق شرقاً إلى برقة غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً.

مات ابن طولون سنة 270هـ/883م ، بعد أن قضى على الثورة التي قام بها ابنه العباس سنة 265هـ في برقة ، وبعد أن حقق ما يلي:

1- استتباب الأمن في مصر.

2- زيادة خراج مصر.

3- المحافظة على آثار مصر وعدم التنقيب عنها إلا بموافقة الدولة.

4- بناء الجامع الكبير، والبيمارستان.

5- بناء مدينة القطائع ؛ لتكون مقراً لجنده.

6- الاهتمام بمناطق الثغور وتزويدها بالسلاح والأموال.

7- التقرب إلى العُبَّاد والفقراء والمتصوفة.

8- إنشاء جهاز استخباري قوي.

9- إنشاء جيش قوامه أربعة وعشرون ألفاً من الغلمان، وسبعة آلاف من الموالي.

10- حرص أن يكون جهازه الإداري من أهل مصر.

11- قام بتحصين بعض المدن الساحلية ، مثل يافا وعكا.

بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من الخيول والجمال والبغال والمراكب البحرية، ودواب الركوب لاستخدامها مع الجيوش.

ويؤخذ على ابن طولون أنه:

1- كان حاد الخلق والمزاج.

2- وكان كثير البطش ، وقد وصفه الأزدي بقوله: " كان طائش السيف، وأنه أحصي من قتل صبراً أو مات في جيشه فكان عددهم ثمانية عشر ألفاً "، ومن المرجح أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً، وليس أدل على ذلك من أنه لما مرض قام المسلمون والنصارى واليهود في مصر بالدعاء له بالشفاء عند جبل المقطم، ولما مات لم يبق رجل ولا امرأة إلا شارك في جنازته، و لم يرَ مثله لموت خليفة من الخلفاء، ولا غيره ؛ لعظم قدره".

خلفاء ابن طولون:

أبو الجيش خمارويه:

تولى خمارويه إمرة مصر بعد وفاة والده سنة 270هـ/883م، وقد اجتمعت عليه الأجناد وهو ابن عشرين سنة. وكانت وصية والده له: "أسلك يا بني سبيلي واقتف آثاري في سائر من خلفت". وفي نفس الوقت أوصى أحمد ابن محمد الواسطي بالوفاء لخمارويه ، والمحافظة على حرمه.

ومن جانب آخر حذر ولده من غدر الواسطي. وكان الأمر كما توقع عندما كتب الواسطي إلى الموفق يصغِّر من أمر خمارويه ويحرضه على قتاله، ومما بعث به لأبي العباس ابن الموفق: أنا أسست أمر أبي الجيش، والله لأهدمن ما كنت بنيته.

وقد تميز خمارويه بأنه كان مفرط الجود لا يبالي بما يطلق من الأموال، كما كان أوسع صدراً وأكثر نفقة من أبيه.

وقد واجه خمارويه خلال حكمه عدة قضايا من أهمها:

1- مشكلة الأعراب الذين بدأوا يقطعون طريق الحاج، فأرسل إليهم قائده سعد الأيسر وأوقع بهم في منطقة القسطل (في الأردن على طريق مطار الملكة علياء الدولي على بُعد عشرين كيلو متر من وسط عمان)، وفتح السبيل أمام مكة المكرمة ، وأعاد الأمن إلى طريق الحج، فأحبه أهل دمشق ، وتعلقوا به.

2- وضع حداً لمحاولة عمال الجزيرة الفراتية ، أمثال إسحاق بن كنداج وغيره من التعدي على أملاك الطولونيين.

3- الإيقاع بالأفشين محمد بن أبي الساج عندما توجه من أرمينيا والجبال عبر الجزيرة إلى مصر، فلقيه خمارويه بالثنية من عمل دمشق ، وإلحاق الهزيمة به، واستأمن أكثر عساكره. فسار خمارويه حتى بلغ الفرات ودخل أصحابه الرقة ، وملك من الفرات حتى النوبة.

4- الإيقاع بجيش العباسيين عند نهر أبي فطرس في الوقعة المعروفة بالطواحين، وكان العباسيون قد هزموه في بداية الوقعة، إلا أن جيش الطولونيين استعاد زمام الأمور. وبعد هذه الوقعة حاول قائد خمارويه " سعد الأيسر" الاستقلال بالشام، إلا أن خمارويه استعادها سنة 273هـ/886م ، فكتب الخليفة لخمارويه بالولاية على مصر والشام والثغور.

5- إقامة علاقات ودية مع الخليفة العباسي المعتضد، عندما قام المعتضد بإرسال الهدايا إلى خمارويه مع الجوهري ابن الجصاص، حسين ابن عبد الله، وسأله أن يزوجه ابنته قطر الندى، فزوجه خمارويه على مائة ألف درهم صداقاً.

6- اهتم بتحصين مدن الشام كثيراً، وشحنها بالجند، وعلق المقريزي على ذلك بقوله: " كان أمر الشام أهم شيء عند أبي الجيش".

7- اهتمامه بأمر الثغور ودعمه لقائد منطقة الثغور "يازمان" ومن بعده ابن عجيف أحمد.

انتهى حكم خمارويه سنة 282هـ/896م ، عندما أقدم غلمانه على قتله وهو بدمشق، فحمل فى تابوت ودفن بسفح المقطم في مصر، وبويع لولده "جيش" . ولم يدم جيش في الحكم سوى ثمانية أشهر ، إذ قتله الجند وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه، ثم قتله أخوه شيبب، فبايع الأجناد له. ولم يحكم سوى 12 يوماً.

وبمقتل هذين الأميرين بدأت أحوال الدولة الطولونية فى الاضطراب، وأخذ الجند يتدخلون في شؤون الدولة، ورافق ذلك تنافس الأمراء الطولونيين وانقسامهم ، ففقدوا عنصر القوة والسيطرة على المناطق التي كانت تحت ادارتهم.

لقد كان "جيش" غلاماً، لا يحسن السياسة، ولم يكتف بذلك، بل قرب إليه أرذال الناس، ونحّى كبار قادة الدولة، كما شرع فى مصادرة أموالهم.

ووصف ابن سعيد إمارته بقوله: " قضاها في تخلف وإدبار ، وبين صفع وكأس تدار".

وهارون لم يكن أهلاً للإمارة، ولكن الظروف دعت إلي ذلك . ومن هنا قال ابن سعيد: " إن الضرورة تلجىء إلى أكل الميتة".

والأمر الأكثر خطراً أن الطولونيين أهملوا شؤون الجند، فأخذ الجند يتركون الجندية ، وصاروا مزارعين أو تجاراً على حد قول المقريزي.

وأمام هذه الأوضاع التي اشتغلّها "طغج" وهو أكبر أصحاب خمارويه فاستقلّ بالشام وأسقط الدعاء لجيش على منابر دمشق. فكان ذلك أول رسوخ الدولة الإخشيدية، وذهاب الدولة الطولونية.

كما أعلن أحمد بن طغان صاحب الثغور إسقاط الدعوة للطولونيين.

ولم تأت سنة 286هـ/900م حتى خرجت مناطق شاسعة من قبضة الطولونيين في الشام والثغور. أما في مصر فقد أصبح للخليفة العباسي ممثلاً بها، هو محمد بن سليمان الكاتب للإشراف على شؤون الطولونيين.

ورافق ضعف الطولونيين اجتياح القرامطة لدمشق وهزيمتهم لطعج، ولم يخلص أهل الشام من سطوة القرامطة إلا بعد أن طلب أهل الشام النجدة من المكتفي، فأرسل لهم جيشاً بقيادة أبي الأغر، تمكن بعد عناء من الانتصار على القرامطة، ولكنه لم يجتثهم، فاضطر إلى إرسال جيش آخر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب الذي أوقع بهم وأسر زعيمهم الحسين ابن زكرويه ، وبعد ذلك دخل محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر في أواخر صفر سنة 292هـ/906م فقبض على الطولونيين وكانوا عشرين إنساناً وحملهم وسائر أجنادهم إلى بغداد ، وعلى رأسهم شبيب ، الذى كان قد وليها من قبل المكتفي، وأرسل طغج إلى قنسرين، وبذلك انقرضت دولة الطولونيين.

انتهى الحكم الطولوني لمصر وبلاد الشام ، بعد أن دام (38) عاماً أو (47) من دخول ابن طولون إلى مصر، ومن الإنصاف القول بأن هذه الدولة قد حققت الأمن في دولتها، كما قامت بأعمال عسكرية جليلة عندما تصدت للخطر البيزنطي نيابة عن الخلافة العباسية ، التي باتت عاجزة عن القيام بهذه المهمة.

وعلى حد قول ابن تغري بردي: زالت الدولة الطولونية، وكانت من غرر الدول، وأيامهم من محاسن الأيام.

2- الدولة الإخشيدية 323-358هـ/935-969م:

عادت مصر إلى السيادة العباسية سنة 292هـ/906م ، ولم تكن الأمور سهلة أمام محمد بن سليمان الكاتب ، بالرغم من إحراقه مدينة القطائع، ونفيه للطولونيين، ومن أهم القضايا التي برزت بعد زوال الطولونيين ما يلي:

أ- قيام أنصار الطولونيين بقيادة محمد بن الخلنجي بمحاولة استعادة السيادة الطولونية ، وقد تمكن المصريون من الإيقاع بالقوات العباسية بالقرب من مدينة الرملة، فاضطر الخليفة العباسي إلى إرسال جيشين أحدهما بحري، والآخر بري

فتمكنوا من القبض على الخلنجي وارساله إلى بغداد ، ومن ثم قتلوه.

ب- قيام الأعراب بعدة حركات وثورات في بلاد الشام، وأبرز هذه القبائل هي: طيئ وأسد وكلب وتميم ونمير وغيرها. وهذه الحركات تدل على مدى الفوضى والاضطراب الذى كانت عليها البلاد قبل قيام الدولة الإخشيد ية.

ج- استمرار تحرك القرامطة :

لقد رأينا أن ظهور القرامطة في بلاد الشام كان من الأسباب التي أدت إلى زوال الطولوبين ، وهذا ما أكده المسعودي عندما قال: " كان ظهور القرمطي بالشام وما أباد من عساكر الطولونية سبباً لتشتيت آل طوون، وانحلال دولتهم، وزوال مدقم".

لقد قام أحد أبناء زكرويه القرمطي ، فى أثناء حركة ابن الخلنجي بالاغارة على دمشق ، وطبرية، فقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ، وانصرف إلى البادية. حيث لاقت الأفكار القرمطية هناك قبولاً لدى قبيلة كلب، وبدأ يبشرهم بظهور المهدي.

ومن حسن حظ العباسيين أن القائد الجديد للقرامطة أبو غانم عبد الله بن سعد، قد قتله أحد أصحابه فأضعف من قوقم ، رغم استمرار مهاجمة قوافل الحجاج، وذلك مكن العباسيين من هزيمتهم، ولم يبرزوا كقوة مؤثرة إلا في سنة 316هـ/928م ، على يد أبي طاهر الجنابي.

د- قيام بعض الحركات في الشام ، ومنها:

1- حركة السفياني سنة 294هـ/907م، قيل عنه : إنه كان موسوساً ، فقبض عليه وحمل إلى بغداد.

2- محمد بن جعفر الحسيني بدمشق ، دعا للعلويين، فقتله أحمد بن كيغلغ.

هـ- اضطراب الأحوال في مصر ، وكثرة التعيين والعزل للولاة.

شهدت الفترة التي تلت قتل المقتدر 320هـ اضطراباً عاماً في إدارة الدولة، وبرزت قوة القرامطة من جديد، وأصبح كل من غلب على أمر صار له.

وفي مصر اضطربت الأحوال، ووقعت فتنة بين أهل المشرق ، وعلهم حبكويه، والمغاربة وعليهم حبشي بن أحمد، قتل فيها جماعة كبيرة.

وما بين عامي 321-323هـ شهدت مصر عدة تعيينات من الولاة وعزلهم إلى أن استقرت الحال بتعيين محمد بن طغج والياً على مصر، وبمساعدة من الوزير العباسي الفضل ابن جعفر الذي زوج ابنه جعفراً من ابنة محمد بن طغج.

ينحدر محمد بن طغج من منطقة فرغانة من بلاد ما وراء النهر، والإخشيد هو لقب لملوك فرغانة. التحق جده "جف" بخدمة الخليفة المعتصم، وطغج بلؤلؤ الخادم غلام أحمد بن طولون. فعينه على ديار مضر في الجزيرة.

ثم التحق طغج بخدمة خمارويه، وقلده دمشق ، ومعها طبرية واستمر في مهمته أيام جيش وهارون ، وكان به أثر محمود في مواجهة القرامطة.

ولما أنهي الوجود الطولوني في مصر، حمل طغج وابنه محمد مع آل طولون إلى بغداد، وتوفي طغج في السجن سنة 294هـ/907م.

وإثر اضطراب الأحوال في بغداد بعد قتل الوزير العباس بن الحسن، هرب محمد إلى الشام وقصد واليها أحمد بن بسطام. ولما تسلم ابن بسطام مصر، سار معه الإخشيد إلى أن توفي ابن بسطام سنة 297هـ/910م.

ولما تولى "تكين" مصر سنة 306هـ/918م، عين محمد بن طغج على دمشق وعمان وجبال الشراة (جنوب الأردن). وفي أثناء وجوده بعمان تمكن من وضع حد لتعديات الأعراب على قوافل الحجاج فاكتسب سمعة طيبة بعد أن أنقذ القافلة التي كانت تضم أم الخليفة المقتدر "شغب" سنة 306هـ/918م . وأوقع بقبائل تلك المنطقة من لخم وجذام. فشكره تكين وأهل بغداد وصار له حال فيها.

وبعد سنة نقله تكين إلى الإسكندرية، وشارك في مواجهة الفاطميين. ثم عين في سنة 316هـ/927م على الرملة، ثم على دمشق.

وفي دمشق حذا حذو ابن طولون في مصر ، من حيث تأسيس جيش قوي، وأخذ يعد نفسه لضم مصر إلى الشام هذه المرة، بدلاً من ضم الشام إلى مصر زمن آل طولون. وقد جاءت الفرصة مواتية إثر وفاة تكين سنة 321هـ/933م. فتقدم إلى الخليفة القاهر بتعيينه على مصر، إلا أن الخليفة اعتذر عن ذلك ، بحجة أنه قلدها لابن تكين محمد.

وأمام الظروف التي مرت بها مصر ما بين سنة 321-323هـ قلد الخليفة الراضي محمد بن طغج مصر مضافة إلى الشام سنة 323هـ. ولما جاء المتقي عقد له على مصر والشام والحرمين ولولديه من بعده، ـــونجور وعلي، على أن يكفلهما غلامه كافور الإخشيد ي. وفي سنة 328هـ/940م أطلق عليه الخليفة لقب الإخشيد بطلب من محمد بن طغج.

لم تكن الطريق معبدة أمام الإخشيد في مصر، وكان عليه أن يبدأ بخطوات فاعلة من أجل إحكام قبضته على مصر. وكانت أولى هذه

الخطوات أنه انتقل من الشام إلى مصر ، بعد أن ترك فيها بدر الخرشني نائباً له بدمشق، وأحمد بن سعيد الكلابي في حلب.

والأمر الثاني أنه عمل على إعداد جيش بلغ تعداده حوالي أربعمائة ألف جندي على حد قول بعض الروايات ، وعن طريق هذا الجيش تمكن من وضع حد لتعديات الأعراب على قوافل الحجاج من جهة، ومن جهة أخرى فرض هيبته على الدولة البيزنطية واستطاع أن يوقف من تعدياتها في مناطق الثغور.

ومن الناحية الثالثة حاول كسب ود الناس، وتقديم المساعدات إليهم، فكان يحث الموظفين ، ويقول لهم: أمر الله عز وجل أن يعطي المؤلفة قلوبهم ، ويجعل لهم سهماً في الصدقات حتى يكفوا أذاهم.

ومن جهة أخرى قام بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم ومعاقبتهم، كما أحسن إلى النصارى ، وأمر بإصلاح كنائسهم.

وأسهم استتباب الأمن في ازدهار الحياة الاقتصادية من زراعية وتجارية. ويؤخذ على الإخشيد أنه كان محباً للمصادرة ، طامعاً في أملاك الناس. ولما سئل عن ذلك برر أفعاله قائلاً: " المصادرة مشؤومة، وأنا مضطر إليها، وما أنفقها إلا في سفر لعدو. والأمر اللافت أنه كان إذا صادر أحداً لم يضربه ، ولم يضيق عليه ، ولم يره حتى تنقضي المصادرة، ثم يؤانسه ويصطفيه.

كما أنه كان لا يثق بأحد، ولخوفه من إتباعه كان يمضي لياليه في خيم الفراشين وينام فيها، حتى لا يعرف مكان نومه.

وهكذا نرى أن الإخشيد قد نهج بشكل عام نهج ابن طولون، وقد أشار ابن سعيد إلى هذه الخصوصية وقال: " جرى (الإخشيد) على رسم ابن طولون في كثير من الأحيان ، كما دخل مصر في الطالع الذي دخل فيه ابن طولون".

كان على الإخشيد بعد أن وطد نفسه في مصر أن يحدد علاقاته مع القوى المحيطة به ، وأولها:

أولا– الفاطميون:

حاول الهاربون من الإخشيد الاستنجاد بالقائم بأمر الله الفاطمي للتوجه إلى مصر ووعوده بالنصر. فبادر الإخشيد وجهز جيشاً، واتخذ من الجيزة مركزاً له، وبعدها توجه إلى الإسكندرية، وتمكن بواسطة قائده حسين بن طغج من صد الغزو الفاطمي سنة 323هـ/935م. ويذكر ابن زولاق أن الإخشيد فكر في بادئ الأمر بالدعوة للفاطميين، إلا أنه نصح بالعدول عن ذلك.

ثانيا– الحمدانيون:

تم الصلح بين الإخشيد والحمدانيين إثر المعارك التي دارت بينهما في شمال سوريا سنة

334هـ/946م ، وبموجب هذا الصلح أصبحت حلب وأنطاكية وحمص لسيف الدولة الحمداني، وباقي الشام للإخشيديين. كما تزوج سيف الدولة بنت أخي الإخشيد .

ثالثا– العباسيون:

لما استولى ابن رائق على الشامات سنة 327هـ ، وعند وصوله إلى منطقة الفرما عقد معه الإخشيد صلحاً على أن تكون الرملة للإخشيد، وما طبرية وخلفها لابن رائق. ولما عاود ابن رائق محاولة التوجه إلى مصر، كتب الإخشيد إلى الراضي بالأمر، فكتب إليه الراضي: " من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له".

وأمام هذا الموقف طلب من خطيب مصر أن يدعو يوم الجمعة للفاطميين، وإسقاط الدعوة للراضي، ولكن الخطيب لم ينفذ ذلك، وفي النهاية كان النصر للإخشيد، وتم الصلح بينهما، كما تمت المصاهرة بين ابن رائق والإخشيد .

لقد تمكن الإخشيد بفطنته وحسن سياسته من إحباط سبع محاولات قلّد فيها أمراء على مصر، و لم يتمكن أحد من دخولها.

ومع ذلك كانت علاقته مع الخلفاء العباسيين بشكل عام طيبة، بل عرض على المتقي أن يترك بغداد ويتوجه إلى مصر. وقد حاول المتقي الخروج ، ووصل إلى الرقة ، إلا أن الأتراك أعادوه.

وكان المتقي يقول بعد ذلك: يا ليتني قبلت نصح الإخشيد .

توفي الإخشيد سنة 334هـ/ 946م بدمشق، وقيل : بمصر، ودفن بالقدس. وبموته سارت الدولة الإخشيدية بخطى سريعة نحو الزوال لصغر سنّ الأمراء الذين جاءوا بعده، وغلبة كافور عليهم. هذا بالإضافة إلى القوى التي كانت محيطة بهم

تولى الإمارة بعده أنوجور، وتعني بالعربية محمود، ولصغر سنه (12-15 سنة) كان الغالب على أمره كافور، ومن هنا لم يكن ينفذ له أمر ، ولا ينسب إليه فعل.

ونظراً لصغر سنه طمع فيه سيف الدولة الحمداني فسار إلى دمشق وملكها، إلا أن هفوة صدرت منه عن الغوطة عندما قال: لئن أخذهما القوانين السلطانية ليتبرؤُنّ منها. جعلت أهل الشام يكاتبون كافوراً ويلتفون حوله حتى أوقعوا الهزيمة بسيف الدولة.

كما قام شبيب العقيلي وكان على الرملة والساحل بالسير إلى دمشق للاستيلاء عليها، إلا أن المنية عاجلته ، فصارت إلى الإخشيد .

وفي مصر ثار غليون بن سعيد المغربي سنة 335هـ/947م في أسيوط وأخميم بصعيد مصر،

وتمكن من دخول مصر (الفسطاط) بعد ذلك، إلا أنه أخرج منها.

ورافق هذه الأحداث بعض الكوارث الطبيعية ، مثل زلزال سنة 339هـ في مصر، وهدمه لكثير من دورها، وفي سنة 340هـ خسفت بعض القرى ، وتلاها نار من السماء أحرقت أكثر دور مصر وتولى أنوجور سنة 349هـ/961م ، وخلفه أخوه علي، وكان صغير السن عندما تسلم الحكم ، وفي عهده أخذت المشاكل الداخلية تطفو على السطح ومن أبرزها:

- اضطراب أمور الديار المصرية :بسبب ضغط الفاطميين عليها، واضطراب أحوال الشام بسبب تقدم القرامطة وسيطرتهم على بعض المناطق.
- حدوث غلاء فاحش حتى عز وجود القمح. ورافق ذلك قلة ماء النيل سنة 352هـ، ووهنت ضياع مصر وقراها.
- سيطرة كافور على "عليّ" ، وفساد العلاقة بينهما، حتى إن كافوراً منع الناس من الاجتماع بعلي.

وبعد وفاة علي سنة 355هـ/966م ، بقيت مصر أياماً بغير أمير، وتولى كافور تدبير الأمور. فاستدعى المؤرخ الفرغاني واستشاره في أمر ولاية مصر، فأشار الفرغاني بأحمد بن علي، وأن يقوم هو بتدبير الأمور. فقال كافور: "كيف يمكنني أن أُنصِّبَ صبياً صغيراً ؟ فقال الفرغاني: شأنه شأن علي، وكان والده قد عقد له، ولم يكن له من السن ما لأحمد، وأجاز ذلك ثلاثة أئمة: المتقي، والمستكفي ، والمطيع . فقال : ننظر في ذلك ، فلما انصرف قال: أبو محمد مما لا نشك في ولائه، ولكنه يميل إلى الفرغانية.

ويذكر ابن بردي أن أعيان أهل مصر قد اتفقوا على كافور، إلا أن الأزدي يقول : إنه وثب على الرئاسة وانتزى، وانتمى إليها واعتزى، وأنزل اسم مواليه عن المنابر. وبذلك تحققت نبوءة الإخشيد الذي قال: والله لا ورث دولة ابن طغج إلا هذا العبد.

تولى كافور الحكم حتى سنة 357هـ/968م ، وثبته المطيع على مصر والشام والثغور والحرمين واحتفظ بلقب أستاذ. وكان متواضعاً، محسناً إلى الناس، يميل إلى البذخ في طعامه وشرابه ، ارتبط اسمه باسم المتنبي الذي مدحه في أشعاره، فأكرمه كافور ، وبنى له داراً أنفق عليها مائة ألف.

كما صنف له الكندي كتاب فضائل مصر.

بعد وفاة كافور نصب المصريون أحمد ابن علي الإخشيدي، وكان عمره لا يتجاوز الحادية

عشر وفي أيامه اضطربت أحوال الدولة كثيراً، فكتب جماعة من وجوه مصر إلى المعز الفاطمي، أن تسلّم البلاد إليه. وتم ارسال وفد بعد ذلك إلى الفاطميين والتقوا بجوهر الصقلي، إلا أن الأمر لم يسفر عن شيء، فتقدم جوهر نحو مصر ودخلها في شعبان سنة 358هـ/969م ، فلم يجد مقاومة تذكر بسبب الغلاء الشديد الذي مرت به مصر، والفناء العظيم بسبب الوبأ الذي حل بها سنة 357هـ/968م. ويذكر النويري أن عدد من كفن ودفن حوالي 600 ألف، عدا من رمي فى البحر.

أما الشام فقد اجتاحها القرامطة، ولما دخل جوهر الصقلي مصر، أرسل جعفر بن فلاح سنة 359هـ إلى الشام فهزم الحسن الإخشيدي في وقعة الرملة ، وتم أسره، وملك جعفر جميع الشام وانقرضت دولة الإخشيد بأسرها.

وقد أسهمت عدة عوامل في انقراض الدولة الإخشيدية من أهمها:

- الظروف السياسية والادارية والاقتصادية التي مرت بها الدولة الإخشيدية بعد موت مؤسسها من حيث صغر سن الأمراء الإخشيديين ، وسيطرة رجال الدولة عليهم.
- الفتن والاضطرابات في مصر، وانقسام أهل مصر ما بين الكافورية والإخشيدية بعد موت محمد بن طغج.
- ظهور القرامطة على مسرح الأحداث خلال هذه الفترة، فسارع ذلك في تعجيل زوال الدولة الإخشيدية.
- تنامي قوة الدولة الفاطمية وتغلغلها في مصر فأتاح لها ذلك أن تجتاح مصر بسهولة ويسر.
- مظاهر الغلاء والأوبئة والكوارث الطبيعية التي اجتاحت مصر خلال حكم الإخشيديين المتأخرين.

3) في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام:

الدولة الحمدانية: 293-392هـ/ 905-1001م

أ- في الموصل:

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب التي سكنت في الجزيرة الفراتيه بعد الفتح الإسلامي، ويبدو أن أغلبية هذه القبيلة كانوا في البداية يعتنقون النصرانية، ومن هنا رفضوا أن تفرض عليهم الجزية ، شأنهم شأن أهل الذمة، فضاعفها عليهم عمر بن الخطاب تحت مسمى الصدقة.

أما جدهم الأقرب فهو حمدان ابن حمدون بن الحارث التغلبي. وقد أطلق عليه لقب مكابد المحل، للدور الذي قام به في تقديم العون والمساعدة لأهل الموصل عندما اجتاحهم القحط في بعض السنوات. فقال الشاعر:

ما زلت في قنط المعيشة جاهداً حتى أتيت مكابـــد النحل

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجري شهدت الموصل بعض الفتن ولاسيما من الخوارج، نظراً للظروف التي كانت تمر بها الدولة العباسية. فسيطر الخوارج على أكثر أعمال الموصل، بل اعتنق كثير من سكان الجزيرة مبادىء الخوارج ، ولاسيما من قبيلة شيبان. وقد شارك حمدان بن حمدون في قتال الخوارج، وتمكن الخوارج من هزيمة حمدان سنة 254هـ/868م . ويبدو أن حمدان هذا كان من النوع الذي يحسن اختيار الفرص، جاعلاً من تحقيق أهدافه الشخصية المنطلق الأساس من انتمائه إلى هذه الجهة أو تلك.

وأشار الطبري إلى أن حمدان كان مع هارون الشاري ودخل معه الموصل ، وصلى خلفه في المسجد الجامع ، فاضطر الخليفة المعتضد إلى الخروج إلى قتاله لكنه لم يتمكن من إلقاء القبض عليه، وأخيراً توسط له إسحاق بن أيوب، وجاء مستأمناً إلى المعتضد ، وتم سجنه، وعلى أي حال يمكن القول بأن الصراع خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري قد دار بين حمدان والخوارج من جهة، وبين محمد بن إسحاق بن كنداج والي الموصل وديار ربيعة، ومعه بنو شيبان وحلفاؤهم من جهة أخرى.

لقد كانت أحداث الجزيرة بشكل عام توجهها أربع قوى خلال تلك الفترة وهي: تغلب ، وشيبان ، والخوارج ، والأكراد. أما الدولة العباسية فقد كانت في غالب الأحيان غائبة عن حلبة الصراع بسبب الظروف التي كانت تمر بها.

بدأ اسم الحمدانيين بالبزوغ عندما تقدم الحسين بن حمدان إلى الخليفة المعتضد لمساعدته في القضاء على هارون الشاري. ويذكر الطبري أن الحسين قال للمعتضد: إن أنا جئت به (هارون) إلى أمير المؤمنين فلي ثلاث حوائج إلى أمير المؤمنين. فقال: اذكرها. قال أولها إطلاق أبي، وحاجتان أسأله إياهما بعد مجيئ به إليه. فقال المعتضد: لك ذلك فامضِ.

تمكن الحسين بن حمدان من أسر هارون الشاري وجاء به إلى المعتضد من غير عقد ولا عهد. فأمر المعتضد بحل قيود حمدان والتوسعة عليه. وخلع على الحسين وطوقه بطوق من ذهب. وهو بمثابة الوسام في وقتنا الحاضر.

ومنذ تلك الفترة أصبح الحمدانيون من أنصار الخلافة، يعتمدون عليهم في كثير من الأمور، ومن أهمها:

1- القضاء على حركة بني دلف بمنطقة الجبل (همذان، الدينور، أصبهان، ... الخ).

2- محاربة القرامطة لا سيما زمن المكتفي سنة 290هـ/902م. ويبدو أن الحمدانيين كانوا شديدي الوطأة على القرامطة. ويذكر الأزدي أن القرامطة إذا وردت خيولها الماء فنفرت منها يقولون لها: كم تخافين من الماء ، أبو الهيجا (عبدالله بن حمدان) فيه ؛ لهيبته عندهم، واشتهاره لديهم.

3- أوقع الحمدانيون بتكليف من العباسيين بأعراب كلب والنمر وأسد.

وما إن جاء مطلع القرن الرابع الهجري حتى عظم أمر الحسين بن حمدان، فأحس المقتدر بخطره ، فأرسل إليه جيشاً جاء به إلى بغداد، ولما طيف به قال له رجل من الهاشميين: الحمد لله الذي أمكن منك. فقال له الحسين: والله لقد امتلأت صناديقي من الخلع والألوية، وأفنيت أعداء الدولة، وإنما أصارني إلى هذا الخوف على نفسي، وما الذي نزل بي إلا دون ما سيترل بالسلطان إذا فقد من أوليائه مثلي.

والحسين يشير هنا إلى الخلع التي نالها من العباسيين، وقد ذكر ابن خالويه أنه كان في خزائن الحسين نيفاً وعشرون طوقاً ، لنيف وعشرين فتحاً بالمشرق والمغرب.

مات الحسين بن حمدان أو قتل في سجن المقتدر سنة 306هـ/ 918م. وبعد الحسين ظهرت شخصية أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان. وقد بدأت ولايته على الموصل زمن المكتفي سنة 293هـ/905م. إلا أن المقتدر عزله سنة 301هـ/913م. وفي سنة 312هـ/924م أسند إليه المقتدر طريق الكوفة – مكة، لمنع أبي طاهر الجنابي القرمطي وجماعته من قطع الطريق، إلا أن القرامطة تمكنوا من أسره، ثم أطلقوا سراحه فيما بعد.

ولما قامت الثورة على المقتدر سنة 317هـ/929م وقف أبو الهيجاء إلى جانب القاهر، ولما حاول ابو الهيجا الهرب، صاح به القاهر: تسلمني يا أبا الهيجاء، فأخذته الحمية، فقال : والله لا أسلمك، وتربة حمدان لا فارقتك يا مولاي، أو أقتل دونك. فقاتل حتى قُتل.

ولما كان الحمدانيون قد تعودوا على تقلب المواقف، واتخاذ ما يرونه يخدم مصالحهم، لم يقفوا إلى جانب مؤنس الخادم الذي التجأ إليهم عام 320هـ/332م لاعتقاده أنهم من خلصائه فكان

عند ذكرهم يقول: هم أولادي وأنا أظهرتهم. لكن الحمدانيين تخلوا عنه، وطلبوا منه أن يعدل عن الموصل ، لئلا يلتقوا به، ولا يمتحنوا بحربه. لكن مؤنساً أصر على الذهاب إليهم قائلاً: ... ونحن سائرون نحوكم بالغد، كائناً ما كان منكم... وقد تمكن مؤنس من دخول الموصل وهزيمة الحمدانيين. ولم يمتنع عن حرب مؤنس من الحمدانيين سوى داود، أما الوليد بن حمدان، وسعيد بن حمدان فكانا من ضمن جيش المقتدر الذي حاول صد قدوم مؤنس إلى بغداد، بل كان سعيد من أكثر المشجعين للمقتدر بعدم الهروب.

ظلت العلاقة بين الحمدانيين والعباسيين بين مد وجزر، وأكثرها تتعلق بالأموال التي كانت تطلبها الحضرة منهم. وكان الحمدانيون يدفعون سنة ويرفضون سنوات. ومن حسن حظ العباسيين أن النزاع دب بين الأسرة الحمدانية. ففي سنة 323هـ، شرع سعيد بن حمدان في ضمان الموصل وديار ربيعة سراً، وتمكن من إلقاء القبض على ابن أخيه أبو محمد الحسن بن عبد الله، وقتله، فأنكر الراضي ذلك وأرسل إليه جيشاً، إلا أن سعيداً وضع كتاباً بشير إلى اضطراب الحضرة، كما دفع عشرة آلاف دينار رشوة إلى ابن مقلة، فتركه ابن مقلة بعد أن استخلف على الموصل علي بن خلف بن طياب.

ويذكر الصولي أن الراضي حاول أخذ الموصل من الحمدانيين، وإقطاعها إلى بجكم للخلاص منه، إلا أنه لم يتمكن من ذلك.

وخلال الفترة الواقعة بين أعوام 323-331هـ شارك الحمدانيون في أعمال كثيرة من أبرزها قتال البريدي، وقتل أمير الأمراء ابن رائق، فدفع ذلك بالمتقي إلى تعيين الحسين بن عبد الله بن حمدان أميراً للأمراء ولقبه بناصر الدولة، وخلع على أخيه علي ولقبه بسيف الدولة.

وفي سنة 331هـ تزوج ابن المتقي من ابنة ناصر الدولة بصداق مقداره 500 ألف درهم، وتعجيل مائة ألف. وبذلك أصبح الحمدانيون على علاقة وطيدة بالعباسيين، ولكن إلى حين.

لم يكن الأمر سهلاً أمام ناصر الدولة في بغداد، وكان عليه مواجهة الكثير من المشاكل، من أبرزها:

1- كثرة اللصوص والعابثين، حتى إن عدداً لا بأس به من أهل بغداد تركوها لكثرة اللصوص.

2- انتشار الأوبئة والأمراض.

3- ارتفاع الأسعار وغش الدنانير.

ولمعالجة هذه القضايا قام ناصر الدولة بالإجراءات التالية:

1- ضرب عملة جديدة بعيار جديد مضيفاً اسمه إلى جانب اسم الخليفة.

2- ضرب بشدة على أيدي العابثين واللصوص.

3- قام بفرض ضرائب جديدة وذلك ما دفع الناس إلى القول: كان الرخص مع البريدي.

4- بدأ بالتضييق على المتقي بالرغم من المصاهرة مع ابنه.

ويبدو أن سك العملة الجديدة، وفرض هذه الضرائب جعلت العامة لا ترتاح لناصر الدولة، وما إن جاءت الأخبار بهزيمة سيف الدولة الذي توجه لقتال البريديين في البصرة حتى خاف ناصر الدولة وفَرَّ هارباً من بغداد باتجاه الموصل مما فتعرضت بغداد لفوضى جديدة، ولم تدم إمرته سوى ثلاثة عشر شهراً وثلاثة أيام.

استغل الحمدانيون مرة ثانية سوء العلاقة بين أمير الأمراء الجديد توزون وبين المتقي، فما إن خرج الأخير إلى تكريت حتى هب ناصر الدولة وسيف الدولة والحسن بن سعيد إلى لقائه، وأرسلوه إلى الموصل، وبقوا في تكريت لمواجهة توزون. ولما هزمهم توزون أسرعوا إلى الموصل، ومنها إلى نصيبين فالرقة، ومعهم المتقي. واضطر توزون إلى عقد الصلح معهم إثر تقدم معز الدولة البويهي على أن يعقد لناصر الدولة لمدة ثلاث سنين، يرسل في كل سنة 3,600 مليون درهم. أما المتقي فعاد مع توزون فَسَمَلَهُ وخلعه وبايع للمستعين.

استغل ناصر الدولة الأوضاع التي كانت تمر بها الخلافة سنة 334هـ، فوسع إمارته حتى شملت الموصل وديار ربيعة وديار بكر وغيرها من المناطق. كما رفض إرسال الأموال التي تقررت عليه. فأرسل معز الدولة جيشاً، وبحيلة من الحمدانيين تمكن ناصر الدولة من دخول بغداد، تاركاً ابن أخيه الحسين بن سعيد في مواجهة البويهيين. وفي بغداد خلع طاعة المطيع، وحذف اسمه من الخطبة.

كانت كفة الحمدانيين هي الراجحة في بادىء الأمر، إلا أنه هزم في نهايته، فبعث إلى معز الدولة يطلب الصلح على وفق الشروط التالية:

1- أن يكون لناصر الدولة من تكريت شمالاً ويضاف إلى أعماله مصر والشام على ألاّ يحمل عن الموصل وديار ربيعة شيء من الأموال.

2- أن يدفع ناصر الدولة عن مصر والشام مثل ما كان يدفعه الإخشيد محمد بن طغج.

3- أن يقوم ناصر الدولة بإرسال الميرة والأقوات إلى بغداد للتخفيف من المجاعة والغلاء التي كانت فيها.

وهكذا يلاحظ أن الصلح كان لصالح الحمدانيين، إلا أنه لم يستمر طويلاً بعد أن خرج إليهم معز الدولة سنة 337هـ، وتم توقيع صلح جديد، على وفق الشروط التالية:

1- أن يرسل ناصر الدولة مبلغ (8) مليون درهم عن الموصل وديار ربيعة وديار مصر والرحبة والشام.

2- الخطبة لعماد الدولة ومعز الدولة وبختيار.

3- وضع الفضل والحسين ابني ناصر الدولة رهينتين لدى معز الدولة.

لم يستمر ناصر الدولة بإرسال الأموال إلى بغداد، وتوقف تماماً في سنة 346هـ ، إلا أنه عاد ووافق على إرسال مليوني درهم فقط في كل سنة.

ويبدو أن معز الدولة قد ضاق ذرعاً بسلوك ناصر الدولة فاتجه إليه في سنة 347هـ ، فاضطر ناصر الدولة إلى الالتجاء لسيف الدولة بحلب، فتوسط له سيف الدولة مع معز الدولة، وتم الصلح على دفع مليونين ونصف مليون درهم سنوياً. فعاد ناصر الدولة بعدها إلى الموصل.

وتكرر الأمر سنة 353هـ وذلك دفع معز الدولة إلى إقصائه، وضمن ابنه أبو تغلب أعمال أبيه وأن يدفع 6,2 مليون درهم عن كل سنة. وبعد مرور ثلاث سنوات اعتقل أبو تغلب والده، وسجنه بقلعة الموصل، وأمر ألاّ يكلمه أحد من الحراس، فكان يكلم الحراس ويقول: ناشدتكما إلا أخبرتماني كيف حال الدنيا، وكيف أولادي، هل هم أحياء؟ هل مملكتهم لهم؟ وهل ولد أخي حي أم توفي؟ فلا يجيبانه ، وأقام كذلك إلى أن مات. وبعد وفاة ناصر الدولة بدأت المشاكل تتوالى على الحمدانيين نتيجة السياسة التي انتهجها أبو تغلب، والتي كان من أبرزها أنه أفسد عليه جميع إخوته. وذلك سبب صراعاً بين الإخوة. وقد تطور الخلاف بين الأخوة وعددهم سبعة إلى الانقسام إلى حزبين، أبو تغلب ومعه أبو البركات وجميلة وهم من أم، وحمدان ومعه محمد والحسين وإبراهيم من أم أخرى. بل إن إبراهيم وهبة الله كانوا مع عز الدولة بختيار.

أمام هذه الانقسام بدأت العلاقة مع البويهيين تسير إلى غير صالح الحمدانيين في الموصل، ورافق ذلك بروز الأكراد كقوة مؤثرة في منطقة الموصل.

وأمام ضغط عضد الدولة على أبي تغلب يشير الأزدي إلى أن أبا تغلب حاول الاتصال بالعزيز الفاطمي، وإعطاءه الشام لمساعدته ضد

البويهيين. إلا أن العزيز خاف عاقبة ذلك، وطلب من قسام العيار محاربته.

والواقع أن الفاطميين منذ البداية لم يستريحوا لسياسة الحمدانيين. فقد قال عنهم المعز الفاطمي: يتظاهرون (الحمدانيون) بثلاثة أشياء عليها مدار العالم، وليس لهم فيها نصيب. يتظاهرون بالدين، وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم، وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة، فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم. وفي سنة 369هـ قتل أبو تغلب على يد المفرج بن دغفل بن الجراح. وبمقتله انتهى بصورة فعلية الوجود الحمداني في الموصل، فبعضهم دخل في طاعة بني بويه، وآخر في طاعة الفاطميين، والثالث اتجه صوب حلب.

وعلى أية حال استمر الوجود الحمداني في مصر حتى سنة 465هـ/1072م عندما تسلط أبو محمد الحسن بن الحسين على مصر ايام المستنصر.

ب – الحمدانيون في حلب:

امتدت سيطرة الحمدانيين إلى الجزء الشمالي لبلاد الشام، وهي المنطقة الممتدة من شمال دمشق إلى جبال طوروس.

ودراسة هذه الإمارة لا تكمن أهميتها في كونها إمارة مستقلة عن الدولة العباسية فحسب، بل إن أهميتها تنبع من أمرين هما:

الأول: أنها شكلت خط الدفاع الأول عن بلاد الشام ضد الهجمات البيزنطية المتعددة على مناطق الثغور وما تلاها.

الثاني: أن هذه الامارة الصغيرة أصبحت إحدى المراكز الثقافية المهمة خلال وجودها.

يعود الفضل إلى تكوين هذه الإمارة وامتدادها إلى علي بن عبد الله بن حمدان الملقب بسيف الدولة. وظهرت بدايات تواجده في المنطقة سنة 321هـ/932م ، عندما كلف بوضع حد للقبائل التي كانت تسكن في هذه المنطقة. وقد سجل المتنبي هذه الانتصارات.

وفي سنة 325هـ انفرد بحكم ديار بكر، وكان قد تقدم بطلب من أخيه ناصر الدولة بتعيينه على منطقة الجزيرة، فقال ناصر الدولة: إن الجزيرة معدن أملاكنا، ومحط ضياعنا، ومسقط رؤوس أهلنا، ولا حاجة لك بها. ولكن هذه ديار بكر فيها أحمد بن نصر القشوري في عدة قليلة، فخذ جيشاً وامض إليها ، وأخرجه عنها (منها) فإني أقلدك إياها.

وفي سنة 327هـ/938م تسلم قيادة الصائفة لحماية الثغور.

وخلال فترة وجيزة تملك بلاد أرمينيا وما جاور ديار بكر... ثم حلب بعد أن انتزعها من الإخشيد ، فأصبحت سلطته على الثغور الجزرية وهي طرسوس، وعين زرية، والمصيصه، وما جاورها من الثغور من غير أداء مال عن شيء مما بيده لأنه كفى المسلمين أمر الروم واعتنق حربهم.

وقد حاول أن يمد نفوذه إلى دمشق، إلا أن غلطة منه كما ذكرنا جعلت أهلها ومعهم الإخشيديون يقفون في وجهه فأدىّ ذلك إلى هزيمته.

ومع أن الإخشيديين كانوا هم المنتصرين على سيف الدولة فأن شروط الصلح كانت لصالح سيف الدولة، ربما لأنهم لم يرغبوا بإزالة هذه الدولة، بل أبقوا عليها ، لتكون خط دفاع ضد الدولة البيزنطية ، التي بدأت تستعيد انتعاشها العسكري في زمن الأسرة المقدونية، وأخذت تغير على المناطق الإسلامية.

ويبدو أن طموح سيف الدولة لم يتوقف عند المنطقة التي حددها له الإخشيديون وهي حمص وحلب وأنطاكية ومنبج وغيرها، بل فكر في ضم مصر إلى أملا ده، إلا أن الإخشيديين كانوا له بالمرصاد فأوقعوا به هزيمة ؛ ليكتفي بالمناطق الشمالية من بلاد الشام. وعاود التوجه إلى مصر مرة ثانية إثر تولي كافور الأمر ، إلا أنه هزم بمرج العذراء جوار دمشق وتم الصلح على وفق الشروط التي أبرمها الإخشيد من قبل.

لقد كون سيف الدولة جيشاً اعتمد فيه على العنصر العربي، ومعظمه من قبائل بني عقيل، وبني كلاب، ونمير وغيرها من القبائل العربية الموجودة في هذه المنطقة.

وبهذا الجيش كان له أكثر من أربعين وقعة مع البيزنطيين ، له وعليه. ووصل في غزواته إلى مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، حيث مدينة صاروخة ، واستولى عليها، وأقام المنابر ، وخطب له فيها.

وقد استمر في هذه الحروب حتى سنة 353 هـ إلى أن ضعف آخر عمره لمرض لحقه، فَلَجَ له نصفه، فتفرقت عنه البوادي، وتقاعس عنه المسلمون، وفسد ما بينه وبين ابن الزيات أمير الثغور من قبله، واشتغل عنه أخوه ناصر الدولة في حرب معز الدولة، فلم ينجده، فانقضّ عليه ما لم يمكن إعادته، وقويت الروم، واستولى نقفور على الثغور، وسام أهلها سوء العذاب.

توفي سيف الدولة سنة 356هـ /967م ، وقد سميت هذه السنة بسنة القرآن قضى بها مشيخة الملوك، مات سيف الدولة، وقبض على ناصر الدولة، وكافور، ومعز الدولة .

وقد أثني على سيف الدولة كثيراً، فقد وصفه الثعالبي بأنه " غرة الزمان، وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور، وسداد الأمور". مركزاً على جل أعماله في القضاء على حركات الأعراب وعصيانهم في الداخل ، ومحاربة البيزنطيين في الخارج.

أما الأزدي فذكر بأنه سمي ملك العواصم والديارين، أحد ملوك الإسلام جلالة ونبلاً وشرفاً وشجاعة وكرماً وحزماً وعزماً، بعيد الهمة، يلقي الأمور بنفسه.

- خلفاء سيف الدولة:

بعد وفاة سيف الدولة تولى ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف الإمارة بعده، وكانت أولى المشاكل التي واجهته علاقاته مع خاله أبي فراس الحمداني. فقد ذكر أنه أكثر من الظلم والتعدي على أهل حمص التي أقطعه إياها سيف الدولة من قبل، فاضطربت أموره، وساءت علاقته مع ابن أخته، فسار إليه أبو المعالي بجيش من الأعراب من بني كلاب وعقيل، فقتل أبو فراس، وحُزَّ رأسه، وبقيت جثته مطروحة في البرية إلى أن كفنها بعض الأعراب ودفنوه.

ومن المرجح أن أبا المعالي أخذ يميل إلى الملذات ، ويهتم بها أكثر من اهتمامه بالدولة ، فقد كان له أكثر من 400 حظية، وما إن جاءت سنة 373هـ حتى بدأ عقد الدولة يفرط ، فتنازل عن حمص للروم.

و لم يتوقف عند هذا الحد، بل إنه أقام الدعوة للخليفة الفاطمي.

توفي سعد الدولة سنة 381هـ/990م بعد أن حكم (25) سنة ؛ وخلفه ابنه أبو الفضائل سعيد بن شريف. وقد بايعه الأجناد باستثناء بشار الخادم الإخشيدي. وكان مدبر أمره لؤلؤ الكبير، فأصبح الحاكم الفعلي ولاسيما بعد أن زوج ابنته لسعيد الدولة.

ومن أبرز أمور الدولة في عهده أنه رد الأموال المغتصبة إلى أصحابها من الناحية الداخلية.

أما في المجال الخرجي فقد كان سعيد الدولة وسط قوى ثلاث تتصارع على المنطقة، دون أن تكون لديه القدرة على التصدي لها. ومن هنا أخذ يتقرب للعباسيين للوقوف بوجه الفاطميين الذين كانوا في أوج مجدهم. ولما لم يجد النصرة من العباسيين اتجه إلى أحضان الدولة البيزنطية غير مدرك بأن الاستعانة بالأجنبي لن تعود عليه وعلى غيره سوى بالتدمير والخراب.

وما إن أرسل الفاطميون جيشاً إلى حلب لمحاصرته حتى سارع سعيد الدولة بالاستنجاد بالبيزنطيين، فاضطر منجوتكين القائد الفاطمي، إلى فك الحصار أمام تقدم القوات البيزنطية.

- نهاية الحمدانيين:

بدأت مظاهر نهاية الحمدانيين منذ إمارة سعد الدولة، وأخذت تتفاعل كل سنة في عهد من جاء بعده من الأمراء.

مات سعيد الدولة سنة 392هـ/1001م ، وقيل إنه مات مسموماً. فنصب لؤلؤ أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف في الإمارة، وتولى هو زمام الأمور، فلم يكن لهما أدنى حيلة في تدبير أمور الإمارة.

ورافق ذلك ضغط الفاطميين المتواصل على الحمدانيين من الجنوب، والضغط البيزنطي المتواصل أيضاً من الشمال، مع ظهور القبائل العربية ، كأكبر قوة في حلب في تلك الفترة، وسيطرة الغلمان على شؤون الادارة، وتدخلهم في كل شيء.

لم تدم سلطة الأميرين سوى سنتين، ففي عام 394هـ/1003م نفي لؤلؤ أبا الحسن وأبا المعالي إلى مصر، وانفرد بالسلطة. وحاول بعد ذلك أبو المعالي أن يستعيد حلب، إلا أنه فشل وعاد إلى مصر، ومات بها.

ولم يمكث لؤلؤ طويلاً، حيث توفي سنة 399هـ/1008م، وتعزى أسباب سقوط الدولة الحمدانية إلى العوامل التالية:

- تعاظم قوة البيزنطيين في عهد الأسرة المقدونية.
- تعاظم قوة الفاطميين.
- ظهور القوى القبلية في المنطقة وتعاظمها.
- صغر سن الأمراء االذين جاءوا بعد سيف الدولة واستبداد الغلمان بهم.
- إن الدول التي تبنى بالاعتماد على شخص واحد، ودون أن تكون لها جذور وقواعد للحكم تخدم الصالح العام لا بد أن تتزعزع بوفاته، وبهذه الوفاة تبدأ السير بخطى سريعة نحو النهاية.

لقد انتهت الدولة الحمدانية عن مسرح الحياة السياسية، لكن هذه الإمارة كما أسلفت ، أدّت دورين مهّمين ، هما:

أولا–الحروب مع البيزنطيين:

فقد تمكن سيف الدولة من فرض هيبته على القبائل العربية التي كانت تسكن في حلب وما جاورها، فكون منهم جيشاً عربياً سخره لمحاربة البيزنطيين. وليس أدل على ذلك من قول الدمستق: " لقد بلينا بشاعر كذاب، وأمير خفيف الركاب". وهو يقصد بذلك أبا الطيب المتنبي، وسيف الدولة.

وقد اهتم مؤرخو الدولة البيزنطية بسيف الدولة ، واعتبروه أقوى خصوم الدولة البيزنطية يومذاك، بل إن الإمبراطور نقفور فوكاس ألف كتاباً عن حروبه مع سيف الدولة.

كما أفاض المحدثون ، أمثال فريتاخ، وشلمبرجر، وكنار في الحديث عن سيف الدولة وحروبه مع البيزنطيين.

يقول شلمبرجر: إن سيف الدولة شغل أذهان المؤرخين والكتاب والشعراء من القرن العاشر، فما إن تقرأ صفحة لمؤرخ بيزنطي أو قطعة لكاتب من كتاب ذلك العصر أو قصيدة من قصائد شاعر من شعراء العرب أو اليونان حتى يجذبك الحديث عن شخصية هذا الخصم الجذاب الذي قاتل الإمبراطورية البيزنطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادي، ونصفهم الآخر من أمراء الحواضر.

ثانيا- في المجال الثقافي:

يقول الثعالبي: " لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه (سيف الدولة) من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها. وكان أديباً، شاعراً، محباً لجيد الشعر، شديد الاعتزاز به".

وقال ابن خلكان: " كان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف".

ومن هنا ضم بلاطه فحول شعراء عصره، ويأتي على رأسهم أبو الطيب المتنبي الذي خلد سيف الدولة بغرر من قصائده، وابن عمه، أبو فراس الحمداني، وأبو بكر أحمد ابن محمد الصنوبري، وأبو الحسن محمد الشعباني السندي المعروف بكشاجم ، وغيرهم الكثير.

ويذكر الثعالبي أن أبا محمد الفياض الكاتب وأبا الحسن الشمشاطي قد اختارا لسيف الدولة من مدائح الشعراء عشرة آلاف بيت. وحذا الأدباء حذو الشعراء ، فألف بديع الزمان الهمذاني مقامة خيالية سماها المقامة الحمدانية، مستوحاة من شخصية سيف الدولة.

4) في الجزيرة العربية:

لقد تمتعت معظم مناطق الجزيرة العربية خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بشيء من الاستقلال على الرغم من تواجد الولاة العباسيين في معظم مناطق الجزيرة. إلا أن سلطة هؤلاء الولاة لم تتجاوز عاصمة الولاية المكلف بها. ومن هنا قامت كيانات عديدة وعلى مقربة من مراكز الولاة، و لم يكن بمقدورهم التعرض إلى هذه الكيانات نظراً للظروف التي بدأت تمر بها دولة الخلافة.

ويمكن أن نستعرض أوضاع الجزيرة العربية، وقيام الكيانات المستقلة بها على النحو التالي:

أ- في البحرين: 286-387هـ/ 899-999م

يقصد بالبحرين خلال فترة الدراسة تلك المنطقة الواقعة بين البصرة شمالاً، وعُمان جنوباً، والخليج العربي شرقاً، وصحراء الدهمان والصمان غرباً.

وفي بعض الأحيان عرفت هذه المنطقة باسم هجر أو الإحساء أو العريض. غير أن الاسم الأكثر شيوعاً هو البحرين.

ونظراً لقرب البحرين من البصرة، كانت في معظم الأحيان ضمن ولاية البصرة، وعندما جاء العباسيون لجأوا في حالات كثيرة إلى ضم ولايات عديدة ضمن ولاية واحدة، وتعيين ولاة عباسيين على هذه الولايات.

لقد أدى اختلال أمور الخلافة خلال فترة الدراسة إلى أن تكون المناطق البعيدة، وذات السيطرة الضعيفة ملاذاً للخارجين والهاربين من الدولة. وقد كانت البحرين ضمن هذه المناطق حيث انتشرت به الحركة القرمطية، واتسع نطاقها.

تنسب هذه الحركة إلى حمدان ابن الأشعث الملقب بقرمط لقصر رجليه وتقارب خطاه. وقيل : إن قرمط دو اسم لثوره الذي كان ينقل عليه غلات السواد. بدأت هذه الحركة ما بين سنتي 264و 278هـ و877- 891 م. ومن أبرز تعاليمهم المعلنة:

أ- إن الصلاة المفروضة على المسلمين خمسون صلاة ، وليس خمس صلوات.

ب- الدعوة إلى إمام من أهل البيت، وكانت دعوتهم في البداية لمحمد بن إسماعيل بن جعفر ، ثم نقلت إلى عبيد الله المهدي.

وأياً كانت المباديء المعلنة التي نادوا بها، فإن الشيء المؤكد أن القرامطة إحدى الفرق الباطنية التي اتهمت بالإلحاد والزندقة.

ومن أجل نشر مبادئهم اعتمدوا على تنظيم محكم، وأساليب تراوحت بين البطش بالخصوم ومساعدة الأتباع، ومن هذه الأساليب:

- تعيين اثني عشر نقيباً للدعوة للمذهب أسوة بحواري عيسى بن مريم عليه السلام.
- فرض الهجرة على الأتباع.
- على الأتباع دفع ضريبة (الفطرة)، وكانت في بادىء الأمر درهماً عن كل رأس من الرجال

والنساء والصبيان، ثم تطورت إلى استيفاء دينار عن كل رأس أدرك البلوغ.

- أقام في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها ؛ لحفظ الأموال وتلقي المشاركات المالية . وقد أصبح الأقبال على المشاركة كبيراً إلى حد أن المرأة كانت ترسل كسبها من مغزلها والعين أجر نظارته إلى مسؤول القرية.

-كانت هذه الحركة على درجة كبيرة من السر والكتمان وشعارهم: لا تظهر أحداً على شيء.

ويعتبر أبو سعيد الجنابي مؤسس دولة القرامطة في البحرين، وهو فارسي، عمل في بادىء الأمر بالفراء، وتلقى الدعوة من حمدان، وتدرج إلى أن أصبح من كبار الدعاة.

بدأ الجنابي دعوته في القطيف، وكانت في ذلك الوقت مدينة كبيرة، وأول من أجابه هم بنو سنَير وقوم من ضعاف الناس ما بين قصاب ولحام وحمال وأمثال هؤلاء. ومن القطيف بدأ في توسيع دولته ، عندما استولى على جزيرة أوال سنة 286هـ/899م، ثم على الظهران والإحساء. وتوج أعماله سنة 287هـ/900م بالإغارة على نواحي هجر، كما أصبح على مقربة من البصرة.

ونظراً لأسلوب النهب والسّلب والقتل والتدمير فقد هابه الناس وأجابوه طلباً لحماية أنفسهم، ومن رفض دعوته خرج إلى مناطق أخرى.

كانت مدينة هجر في تلك الفترة عاصمة للبحرين، وهي مترل السلطان والتجار والوجوه، فتطلع للاستيلاء عليها، إلا أن أهلها لم يمكنوه من ذلك، ولما استعصت عليه توجه نحو الأحساء واتخذها عاصمة له.

لم يتوقف الجنابي عند مناطق البحرين والأحساء، بل أخذ يتطلع للاستيلاء على البصرة، وهنا أدرك الخليفة المعتضد الخطر الحقيقي من دعوة القرامطة ، فأرسل جيشاً بقيادة العباس بن عمرو الغنوي لمحاربة الجنابي ، وأقطعه اليمامة والبحرين إلى أن تمكن من القضاء عليه.

إلا أن الغنوي فشل في مهمته وهزمه الجنابي شر هزيمة، فوقع في الأسر ومعه سبعمائة من رجاله، فقتلهم جميعاً ، ولم يبق إلا عليه ؛ ليوصل رسالة إلى المعتضد يستفسر فيها عن دوافع الخليفة لحربه. وهنا اضطربت أمور البصرة اضطراباً شديداً، وهَمَّ أهلها بمغادرة المدينة.

ولم يمضِ وقت طويل حتى استولى على هجر، وأمن أهلها. وبالمقابل قام بدر غلام الطائي بقتل جمع من أهل السواد، وأحرق منازلهم، وهدد أصحاب الجنابي البصرة مرة ثانية، وزاد ذلك من هلع سكانها.

لقد عمل أبو سعيد الجنابي على إقامة دولة تعتمد على نفسهـــا من النـــاحية الدفـــاعية والاقتصادية ، وتمثل ذلك بما يلي:

- توفير الأسلحة للجيش القرمطي وما يلزم من وسائل حربية ، مثل إعداد الرجال وتوفير الدروع والمغافر والجواشن والرماح والروايا والمزاود والقرب والدواب ولا سيما الإبل منها.

- من أجل المحافظة على أسرار دولته قام بطرد الأعراب الموجودين حول الأحساء حتى لا يستخدموا عيوناً لغيرهم، وسد الوجوه التي يمكن منها معرفة أمور البلد وأحوال الجنابي.

- ركز اهتمامه على تعليم رجاله الفروسية منذ الصغر، ولتحقيق هذه الغاية قام بجمع الأطفال من (4) سنوات في دور خاصة، وعرّف عليهم العرفاء، وعلمهم ركوب الخيل والطعان، ووسمهم على خدودهم لئلا يختلطوا بغيرهم، فنشأوا لا يعرفون غيره، وصارت دعوتهم له.

- اهتم بالشؤون الزراعية مركزاً على زراعة النخيل.

- أجرى على أصحابه الجرايات، فلم يكن يصل لأحد غير ما يطعمه.

لقد حقق الجنابي دخلاً لدولته ، سواء كان ذلك عن طريق ضريبة العشور التي كانت على التجارة المارة بسواحل البحرين وجزرها أو ما كان يأخذه خلفاؤه من خفارة الحجاج فيما بعد. فقد كان القرامطة يأخذون على العمارية ثلاثة دنانير، والجمل دينارين، والزمالة ديناراً .

لقد أحس القرامطة بعد ذلك بوجودهم ، ولا سيما بعد أن أعلن أبو طاهر سليمان بن ابي سعيد سنة 317هـ/929م عاصمته داراً للهجرة، فأدّى ذلك إلى زيادة أتباعه، ففكر في مهاجمة عاصمة الخلافة العباسية.

لقد شن القرامطة حملات على مناطق واسعة في الجزيرة العربية والشام والعراق. ويهمنا هنا ما كان في الجزيرة العربية ويأتي على رأس هذه المناطق:

- **عُمان**: أنفذ ابو سعيد منذ بداية حكمه سرية للاستيلاء على عُمان، إلا أن هذه السرية لم تحقق نجاحاً. وقد عاود أبو طاهر سليمان الكَرَّةَ مرة ثانية سنة 317هـ/929م وضمها إلى أملاكه. ويبدو أن سيطرتهم لم تستمر طويلاً.

- **العراق**: حاول القرامطة إقامة خط اتصال مع الفاطميين بعد أن استنجدوا بهم، فكان أن شدد القرامطة هجماتهم على البصرة والكوفة من أجل إشغال العباسيين وعدم إرسال الجيوش لمحاربة الفاطميين الذين أخذوا يهددون مصر.

- الشام: قام القرامطة بارسال الدعاة إلى الشام منذ سنة 280هـ/883م. وبلغ شأنهم بعد أن تسلم زعامتهم صاحب الشامة، الحسين بن زكرويه، وتسمى بأمير المؤمنين سنة 290هـ/903م. وقد أثار الرعب في معظم أنحاء بلاد الشام.

-الحجاز: شعر أهل مكة بخطر القرامطة منذ أن بدأت دعوتهم باليمن، و لم يكن باستطاعة الخليفة المقتدر عمل شيء، فقام القرامطة سنة 317هـ/929م بمهاجمة مكة، وأوقعوا بأهلها، وقلعوا الحجر الأسود ولم يعيدوه إلا في سنة 339هـ/952م.

قطع طريق الحاج ونهب أموالهم، وقتلهم. فدفع ذلك بالوزير علي بن عيسى إلى مكاتبة القرامطة مطلقاً لهم التسوق بسيراف، فخطأه الناس. وكان علي بن عيسى يهدف من وراء ذلك إلى حماية أرواح الحجاج.

لقد اغتيل أبو سعيد الجنابي سنة 301هـ/913م على يد خادمه الصقلبي، ومعه عدة من رؤساء القرامطة، فتولى الحكم بعده ابنه سعيد ، على أن يسلم الأمر لأخيه أبي طاهر سليمان بعد بلوغه سن الرشد.

ولما بلغ أبو طاهر سن الرشد ، تنازل سعيد له عن الحكم. وقد تميز عهد أبي طاهر بما يلي:

- كثرة القتل والنهب والتدمير في صفوف الخصوم.

- تطوير فاعلية مجلس العقدانية، ولأهمية هذا المجلس أطلق على كل عضو من أعضائه لقب وزير.

-الاعتماد على قلم استخباري متقدم. فقد كان يبعث عيونه إلى جميع المناطق المجاورة لاستطلاع أحوالها. وعندما قرر غزو مكة بعث عيونه إليها، فكان العين (الجاسوس) يقوم على المحجة ويقول: يا معشر الناس ادعوا على القرمطي عدو الله وعدو الإسلام. ثم يسأل بعد ذلك عن أمير الحاج، وفي كم هو؟ وكم أرزاقهم؟ ويسأل عمن خرج من التجار، وما معهم من الأموال، فكان ذلك دأبه حتى ينفض الحاج فيخرج مسرعاً إلى الأحساء ليخبر أبا طاهر بالأمر، فيوجه أبو طاهر من يقطع طريق الحاج.

لقد كان لأعمال القرامطة ردة فعل شنيعة لدى المسلمين حتى من قبل الفاطميين أنفسهم. فقد أرسل عبيد الله المهدي لأبي طاهر بعد أخذ الحجر الأسود رسالة قال فيها: قد حققت على دولتنا

وشيعتنا اسم الكفر والزندقة والإلحاد بفعالك الشنيعة.

وربما يكون هذا الموقف من قبل عبيد الله هو الذي دفع بالقرامطة إلى التنكيل بأهل السلمية، وقتل من بها من الهاشميين.

مات أبو طاهر سة 332هـ/ 943م بعد أن امتدت دولته من عُمان إلى حدود البصرة واليمامة ، غير أن أوضاع القرامطة بدأت بالضعف للأسباب التالية:

- تولى الحكم بعد أبي طاهر إخوته الثلاثة ، وهم أبو القاسم سعيد، وأبو العباس الفضل، وأبو يعقوب يوسف. ولا شك أن مثل ذلك سيؤدي إلى زعزعة الحكم.

- إن بوادر الانشقاق في الأسرة الحاكمة قد بدأ قبل وفاة أبي طاهر في سنة 326هـ/937م عندما فسد بعض رجالهم، وقتل بعضهم بعضاً.

- في سنة 341هـ/953م قرر مجلس العقدانية إبعاد الإخوة الثلاثة وتعيين عمهم أبي منصور أحمد بن الحسن. وعلى الرغم من أن القائم الفاطمي قد بارك ذلك إلا أن سابور ابن أبي طاهر خرج على أعمامه، وطلب النجدة من الخليفة المتقي. أيد المتقى شرعية أبي منصور. وقد استمر النزاع بين الطرفين إلى أن تم إلقاء القبض على سابور وحبسه في داره، ثم إخراجه بعد ذلك ميتاً.

- تخلي الفاطميين عن القرامطة. وكان انتصار الفاطميين ومعهم أفتكين التركي على القرامطة سنة 365هـ/978م إيذاناً بإخراجهم من بلاد الشام، وبعد عشر سنوات تم إخراجهم من العراق.

- قيام بنو المنتفق بمهاجمة الأحساء والقطيف، فضعف أمرهم. وكانت مدة ظهورهم مائة سنة بعد أن عمت فتنتهم أكثر البلاد والعباد.

ب- في عُمان: استقل بها محمد بن القاسم الشامي زمن المعتضد. إلا أن الخلاف الذي دب بين أبنائه شجع القرامطة على الاستيلاء عليها كما ذكرنا. وخطب بها لعبيد الله المهدي. ثم حاول يوسف بن وجيه الاستقلال بها، ومد نفوذه باتجاه البصرة ، إلا أن التحالف القرمطي البريدي قد حال دون ذلك .

كما ثار بوجهه مولاه نافع وتغلب على عُمان ، ودخل في طاعة البويهيين سنة 332هـ/943م ، ثم عاد القرامطة وتغلبوا عليها سنة 354هـ/966م. ويبدو أن سيطرتهم لم تكن تامة فأدّى ذلك إلى عودتها لسلطة البويهيين في السنة التالية، وبعد أن وقع الخلاف بين أميرها عبد الوهاب بن أحمد وكاتبه، وبين البيض والزنوج من سكانها.

ج- اليمامة: استقل بها محمد الأخيضر العلوي، واتخذ الحضرمة عاصمة له. وعرفت دولته باسم دولة بني الأخيضر. واستمروا باليمامة إلى أن

استولى عليها القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري.

د- الحجاز: لقد جرب العلويون حظهم في الثورة على العباسيين ومحاولة الاستقلال بالحجاز منذ بداية الخلافة العباسية ، فلم يتمكنوا من ذلك ، إلا أنه مع مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تمكن أحد العلويين من بني سليمان بن داود الاستقلال بمكة سنة 301هـ/913م، وتأسيس الإمارة السليمانية، وخطب لنفسه بالإمارة وذلك أيام المقتدر. ومما قاله في خطبة موسم الحج: الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نصابه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه، لا ببني أعمامه، صلى الله وعلى آله الطاهرين. وكف عنا ببركته أسباب المعتدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين.

غير أن هذه الإمارة لم تدم طويلاً ؛ إذ بدأ الهجوم القرمطي على مكة منذ سنة 316هـ، وتوجوا ذلك بأخذ الحجر الأسود ، وأقيمت الخطبة لعبيد الله المهدي ، إلا أن الخطبة عادت للراضي سنة 327هـ/938م عندما أسند الراضي ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج والي مصر. واستمر الوضع إلى سنة 334هـ/945م.

ويبدو أن السلطة الإخشيدية بقيت في مكة بعد ذلك إذ حدث نزاع بين أمير الحج المصري وأمير الحج العباسي على الخطبة للبويهيين أم الإخشيديين، وتطور النزاع إلى حدوث قتال بين الفريقين انتهت بانتصار العباسيين، وأقيمت الخطبة لمعز الدولة البويهي.

وأمام الصراع العباسي الفاطمي حول السيطرة على الحجاز تمكن بنو الحسن في مكة، وبنو الحسين في المدينة من الاستقلال حتى سنة 358هـ/970م عندما استولى حسن بن جعفر الحسني على مكة ، ودعا للمعز على منابرها، فبعث إليه المعز الفاطمي من المغرب بتقليده الحرم وأعماله.

هـ- اليمن: لم تنعم اليمن خلال فترة الدراسة بالاستقرار السياسي، وربما يكون لموقع اليمن وصعوبة مسالكها من جهة، وضعف الدولة العباسية من جهة أخرى أثره في أوضاع اليمن.

صحيح أن الخلفاء العباسيين استمروا في إرسال الولاة لليمن، إلا أن سلطة هؤلاء الولاة لم تتجاوز صنعاء والمناطق القريبة منها. فأدى هذا إلى قيام عدة كيانات منها:

- الامارة الزيادية: 203-407هـ/816-1017م

تنسب هذه الإمارة إلى محمد بن زياد المنحدر من نسل زياد بن أبيه الذي عينه المأمون على اليمن سنة 203هـ/816م. ومن أهم

أعماله فى أثناء ولايته أنه اختط مدينة زبيد وجعلها مركزاً لإمـــارته. وبعد ذلك فرض سلطته على حضرموت وديار كندة والشحر والمرباط وأبين ولحج وعدن والتهائم إلى حلي، كما ملك الجبال وبعض مخاليف اليمن بالإضافة إلى صعدة وصنعاء وبيحان.

وجرياً على العادة في تلك الفترة واصل الزيادي وأبناؤه من بعده الدعوة لبني العباس. ومن أبرز أمرائهم أبو الجيش إسحق ابن إبراهيم الذي عُمِّرَ طويلاً، وفي أخريات أيامه بدأت سيطرة الزيادين تنحسر عن بعض مناطق اليمن.

وبعد ذلك استمر وجودهم إلى سنة 407هـــ/ 1017م.

– آل يعفر: تنسب هذه الامارة إلى يعفر بن عبد الرحيم الحوالي الذي حاول الاستقلال باليمن زمن الواثق، إلا أن إيتاخ التركي قضى على طموحه هناك إلا أن المعتمد عين ابنه محمداً على اليمن، فوجه عماله إلى المخاليف، وفتح حصن حضرموت حوالي 247هـــ. ومع ذلك استمر في حمل الخراج لابن زياد.

ولما خرج إلى الحج سنة 262هـــ استخلف ابنه إبراهيم، وفي زمنه داهم صنعاء السيل الثاني فهدم وخرب ما بين 600-1200 داراً، وأتلف أموالاً، وهلك خلق كثير.

واستمر بنو يعفر في صنعاء حتى سنة 279هـــ عندما قام أهل صنعاء من الأبناء والشهابيون على عمال بني يعفر وأخرجوهم من صنعاء، لكن اليعفريين عادوا إليها سنة 282هـــ ، واستمروا حتى مجيء القرامطة.

– امارة صعدة: استقدم أهل اليمن يحي بن الحسن العلوي من جبل الرسن بالمدينة سنة 284هـــ. وتمكن من الاستيلاء على صنعاء وصعدة ، وبعث عماله إلى النواحي، واتخذ من صعدة عاصمة له. وبايعه الناس وضرب اسمه على الدنانير، وقبض عشور يحصب وخراجها ورعين ونواحيها.

غير أن قبيلة همدان تمكنت من طرد نائبه من صنعاء، وأخرجوا من كان بها من آل يعفر وآل طريف. ودامت الحرب بينهما فترة من الزمن، وأصبحت اليمن جراء ذلك تحكم من قبل أمراء متغلبين عليها.

– الفاطميون:

لقد أرسل الفاطميون دعاتهم إلى اليمن منذ سنة 268هـــ. وقد تمكن أحدهم من استمالة علي بن الفضل، وأبي القاسم رستم ابن الحسين الذي تلقب بمنصور اليمن، وادعى أنه

نبي بعث بالراحة والاستباحة. والراحة ترك العبادة، والاستباحة فعل المحظورات. فتبعه على ضلالته خلق كثير. وتمكن من الاستيلاء على صنعاء، ثم توجه إلى زبيد فاستولى عليها وعمل بها المنكرات. وكان يأمر جواريه أن يضربن الدفوف على منابرها ويغنين شعراً:

خذي الدف يا هذه والعبي

وهز إزارك ثم اطربي

ثم سار إلى الخند، وهناك قدم له طعام مسموم فمات.

أما علي بن الفضل فقد تسمى برب العزة ، وأجابه خلق كثير أيضاً. واتخذ دار هجرة سماها دار الصفوة. وقد تمكن من الاستيلاء على صعدة، إلا أن القاسم بن أحمد بن يحيى تمكن من إخراجه منها بعد ذلك.

ولما توفي منصور اليمن أوصى ابنه أبي الحسن بمتابعة الدعوة وقال له: ولا تقطع دعوة بني عبيد... فنحن غرس من غرسهم.

إلا أن أبا الحسن ارتد عن المذهب الإسماعيلي، وجمع أهل اليمن وأشهدهم أنه قد رجع عما كان عليه أبوه، فأحبه الناس ودانوا له بالطاعة.

وهو بفعلته هذه خسر الإسماعيلية فانقسموا عليه، وتآمروا ضده، كما أن أهل السنة لم يثقوا به، فأدّى ذلك إلى قتله.

وبعد مقتله استمر الصراع في اليمن بين الزياديين وأهل اليمن من جهة، والدعاة الإسماعيليين من جهة أخرى طَوَال القرن الرابع الهجري وذلك ما أدى إلى قيام الدولة الصليحية فيما بعد.

أ. د. محمد عبد القادر خريسات

(الجامعة الأردنية)

المصادر والمراجع

1) المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت 1965.
- الأزدي، أبو الحسن علي بن منصور (ت. 630هـ/1232)، أخبار الدول المنقطعة، تح عصام هزايمة وزملائه، مؤسسة حمادة للنشر، إربد – الأردن 1999.
- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت. 487هـ/1097)، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تح عبد الله الغنيم، الكويت 1977.
- البلاذري، أحمد بن يحيي (ت. 279هـ/892)، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت 1978.
- البلوي، أبو محمد، عبد الله بن محمد، سيرة أحمد بن طولون، تح محمد كرد علي، القاهرة (د.ت).
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين يوسف (ت. 874هـ/1469)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ثابت بن قرة، أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن، دار حسان، دمشق 1982.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك ابن حمدان (ت429هـ/1038)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1956.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (ت. 597هـ/1200)، القرامطة، تح محمد الصباغ، بيروت 1977.
- ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد (ت. 456هـ/942)، جمهرة أنساب العرب، تح عبد السلام هارون، دار المعارف 1971.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد ابن علي النصيبي (ت. 367هـ/799)، صورة الأرض، مكتبة الحياة بيروت، 1979.
- ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الحمداني، شرح ديوان أبي فراس، تح سامي الدهان، دمشق 1944.

- الخزرجي، أبو الحسن، الكفاية والإعلام (الفصول الخمسة الأولى) تح راضي دغفوس، منشورات الجامعة التونسية (1979)

- خسرو، ناصر، سفرنامة، تح يحيي الخشاب، دار الكتاب بيروت (1970)

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت. 808هـ/1406)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت (1981).

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد ابن محمد (ت.681هـ/1283)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تح إحسان عباس ، بيروت.

- الديلمي، أبو الحسن، علي بن الحسين، سيرة سيف الدولة (شذرات من كتب مفقودة) تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (حوادث ووفيات 291-300هـ). تح عمر تدمري، دار الكتاب العربي.

- الروذاوري، أبو شجاع، محمد بن حسين، ذيل تجارب الأمم، تح هـ. آمدورز مصر 1916.

- الزباني، أبو القاسم، بغية الناظر والسامع الجامع لما في التواريخ الجوامع، مخطوط ميكروفيلم رقم 664، مركز الوثائق، الجامعة الأردنية.

- ابن زولاق، الحسين بن الحسين الليثي، سيرة خمارويه، شذرات من كتب مفقودة، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988.

- ابن سعيد الأندلسي (ت. 685هـ/1289)، المغرب في حلى المغرب، تح محمد زكي وزملائه، جامعة فؤاد الأول 1935.

- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت.548هـ/1153) ، الملل والنحل، تح عبد العزيز الوكيل، الحلبي ، القاهرة 1967.

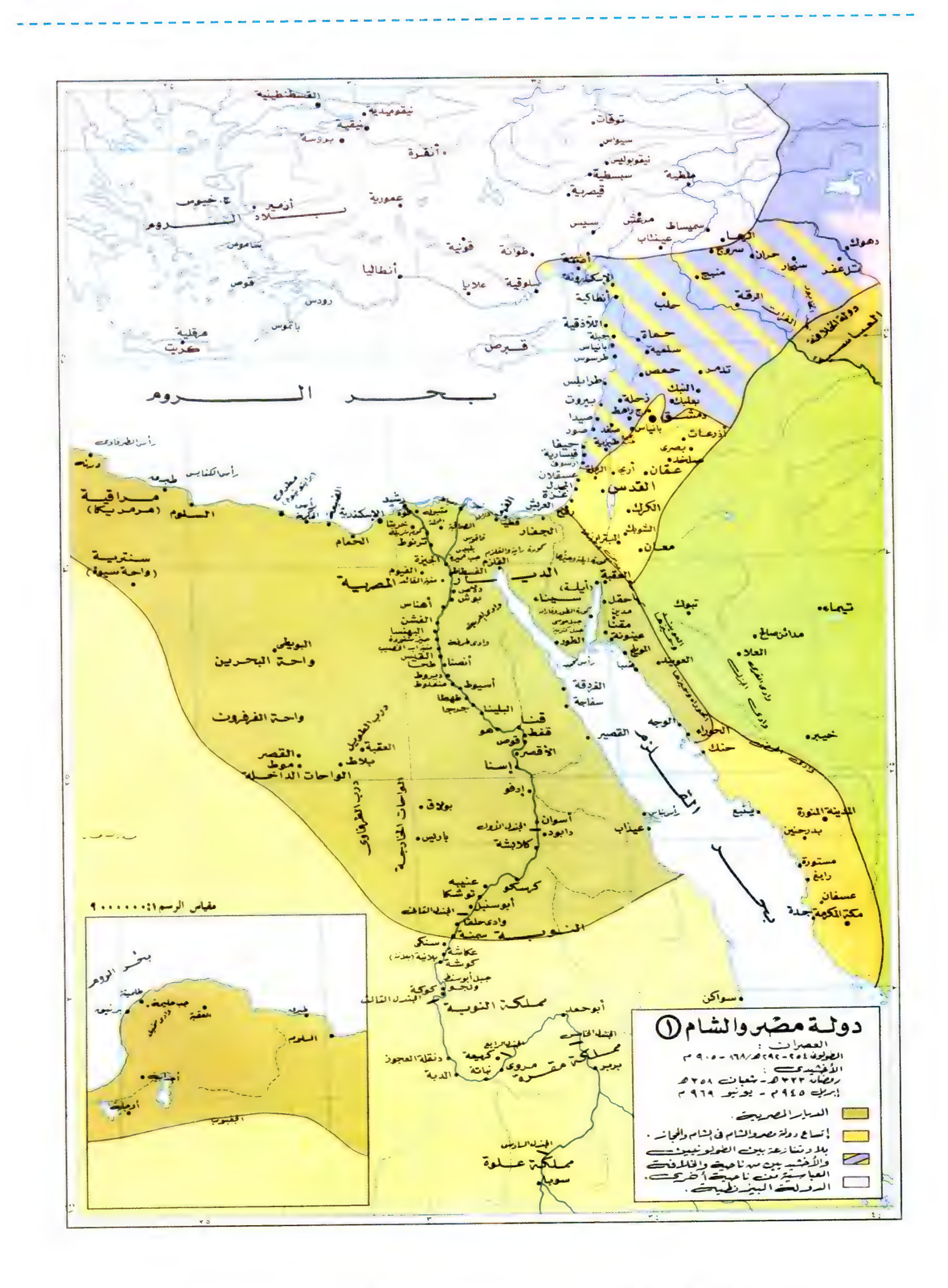
- الصفدي، صلاح الدين خليل أيبك (ت. 764هـ/1263)، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تح إحسان بنت سعيد خلوصي، دمشق 1981.

- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيي، أخبار الراضي والمتقي بالله من كتاب الأوراق ، نشره هيورث 1935.

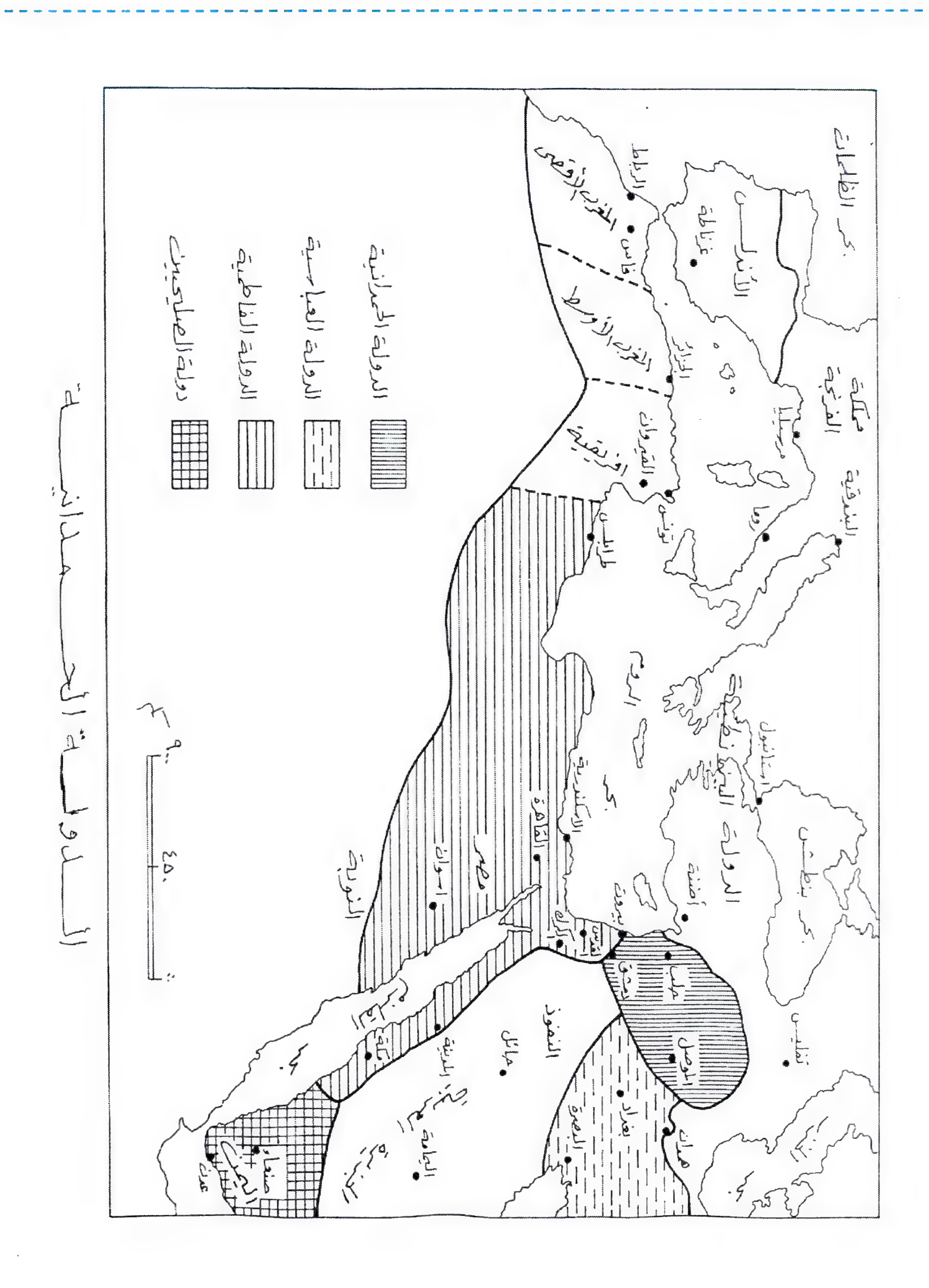
- ابن طباطبا، محمد بن علي (ت. 709هـ/1309)، الفخري في الآداب السلطانية، مطبعة صبيح، القاهرة، د. ت.

- الطبري، محمد بن جرير (ت. 310هـ/922)، تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 1967.
- ابن العديم، أبو القاسم كمال الدين، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح سامي الدهان، دمشق (1951).
- عريب بن سعيد القرطبي (ت. 370هـ/980)، صلة تاريخ الطبري (الذيول)، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، 1977.
- عمارة، نجم الدين بن علي اليمني، تاريخ اليمن، المسمى: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تح محمد الأكوع، المكتبة اليمنية صنعاء (1985)
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت.774هـ/1372)، تقويم البلدان، باريس، (1840).
- الكندي، أبو عمر، محمد بن يوسف (ت. 350هـ/961)، الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908.
- ابن المجاور، جمال الدين أبي الفتح الدمشقي، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر، تصحيح أوسكر لوفرفين، بيروت (1986).
- مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تح عمر السعيدي، دمشق (1972).
- المسعودي، أبو الحسن علي ابن الحسين (ت.346هـ/957)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية القاهرة.
- التنبيه والأشراف، مكتبة الهلال ، بيروت 1981.
- مسكويه، أحمد بن يحيي (ت.420هـ/1029)، تجارب الأمم، تح هـ. أمدورز، شركة التمدن الصناعي، مصر (1914).
- المقريزي، تقي الدين أحمد ابن علي (ت.845هـ/1441)، المقفى الكبير، تح محمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار طبعة بولاق.
- اتعاظ الحنفا، القاهرة 1968.

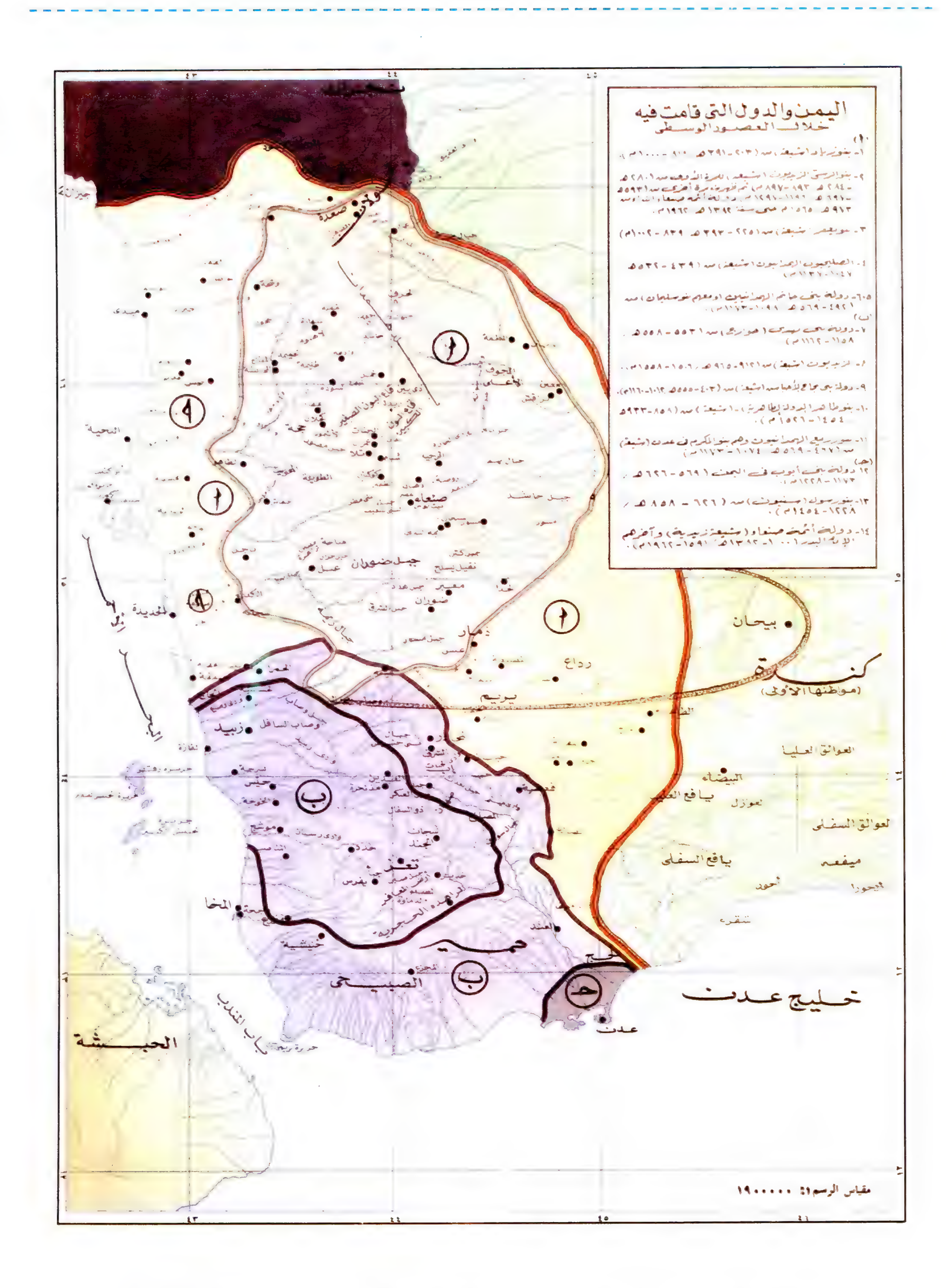
- ابن منظور، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق، دار الفكر، دمشق، (1984-1990)
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت.733هـ/1332)، نهاية الأرب في فنون العرب، تح محمد جابر عبد العال، ج25 (1984).
- الهمذاني، محمد بن عبد الملك، تكملة تاريخ الطبري، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر 1977.
- الوصابي، وجيه الدين الحبشي، الاعتبار في التواريخ والآثار، تح عبد الله الحبشي، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء 1979
- البرقوقي، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي، القاهرة 1938.
- البلوشي، إبراهيم عطا الله، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002.
- سرور، محمد جمال، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، دار الفكر العربي، د. ت.
- فيصل السامر، الدولة الحمدانية، بغداد (1970).



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984



الدولة الحمدانية
الدولة العباسية
الدولة الفاطمية
دولة الصليحيين
الأندلس
غرناطة
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
افريقية
القيروان
تونس
طرابلس
مصر
القاهرة
الاسكندرية
أسوان
النوبة
مكة
المدينة
حائل
النفود
اليمن
صنعاء
عدن
بغداد
البصرة
الموصل
حلب
دمشق
بيروت
القدس
أضنة
القسطنطينية
روما
البندقية



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984

ج) قيام الكيانات المستقلة في المغرب والأندلس

أولا : في المغرب:

كان الصراع الذي نشب حول مسألة الخلافة في الإسلام (الحكم) إثر وقعة صفين 37هـ/ 658م بين الخليفة علي بن أبي طالب 35-40هـ/655-660م ومعاوية بن أبي سفيان عامل سوريا 17-40هـ/638-661م مصدر نشأة فرقة الخوارج التي انشقت على الخليفة علي بن أبي طالب بسبب مسألة التحكيم المعروفة وما نتج عنها. فقد انفصل عن الجيش الخلافي حوالي 12000 مقاتل بحجة أنه كان يجب قتال معاوية بن أبي سفيان حينما تبين عدم إخلاصه في طلب التحكيم ، وكذلك الخليفة علي بن أبي طالب بعد أن أعطى وعده بقبول التحكيم. فقد خرجت عن جيشه هذه المجموعة وذهبت إلى قرية حروراء بالقرب من الكوفة ، وأصبحوا يُعرفون بالخوارج لخروجهم عن صف الخلافة. لقد اصطدم هؤلاء الانفصاليون بجيش الخلافة في معركة النهروان 38هـ/659م حيث تم القضاء على أكثريتهم في هذه المعركة ، بعد أن رفع هؤلاء الجند الشعار الشهير "لا حكم إلا لله" ومن ثم أخذوا يعارضون الخلافة بدون شورى ، وتمكنوا من اغتيال الخليفة علي بن أبي طالب 40هـ/660م وأخذوا يحاربون الدولة الأموية طوال عهدها ، ومن بعدها الدولة العباسية.

لقد انقسم الخوارج على أنفسهم إلى عشرين فرقة ، كما يشير الفقيه البغدادي (المتوفى 429هـ/1037م) وكل واحدة من هذه الفرق انقسمت على نفسها إلى فرق صغيرة أخرى متحاربة بعضها ضد بعض وضد فرق السنة والشيعة ، ومن هذه الفرق الخارجة الرئيسية فرقة الصفرية التي اتبعت إلى حدٍ ما أفكاراً معتدلة ضد خصومها المسلمين من الفرق الأخرى.

أما كيف وصل الخوارج إلى المغرب وبالذات الصفريون منهم؟ فإن المصادر التاريخية العربية لا تشير إلى تاريخ محدد. فنجد مثلاً المؤرخ الطبري (224-310هـ /839 - 923م) وابن الأثير (550-630هـ/1160-1232م) يؤكدان أن انتشار مذهب الخوارج في المغرب العربي يرجع إلى مجموعة من الدعاة العراقيين الذين ذهبوا إلى هناك في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان (105-125هـ/724-743م) ويذكر المؤرخ بن خلدون (المتوفى 808هـ/1406م) أن هناك علاقة بين اغتيال يزيد بن أبي مسلم عامل المغرب في 102هـ/720م وبداية نشاط حركات الخوارج في هذا الإقليم.

ويرى المؤرخ الفقيه الدرّجيني (القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي) وكذلك الورجلاني (توفي 471هـ/1078م) والشماخي أن عبد الله بن عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس (توفي 68 هـ /688م) قد وصل إلى القيروان في بداية القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي ضمن مجموعة من دعاة الخوارج الآخرين ، وعليه فإن المصادر التاريخية المذكورة تُجمع على أن بن عكرمة كان أول من نشر مذهب الصّفرية في المغرب العربي.

ومما لاشك فيه أن الضربات القاسية التي وجهتها الإدارة الأموية في المشرق العربي ضد ثورات الخوارج وخاصة في العراق في عهد الحجاج بن يوسف (75-95هـ/694-714م) قد أجبرت الكثير منهم وعلى رأسهم الصفرية على طلب النجاة في أطراف الدولة الأموية البعيدة ؛ للعيش في سلام ولبث أفكارهم. ومن هذه الأقاليم المغرب الأقصى ، لبعدها عن مركز الخلافة في دمشق ، ولكونها تربة خصبة لبث الأفكار المضادة للدولة الأموية ، وذلك بسبب تعسّف الولاة الأمويين بهذا الإقليم ، وعدم رضا السكان عنهم.

ومن الواضح أن نشاطات الصفرية في المغربين : الأوسط والأقصى قد تكللت بالنجاح في كسب تأييد السكان لهم بهذا الإقليم ، حيث ترى ميسرة المدغري شيخ قبيلة مدغرة في سنة 122هـ/740م ينظم ثورة قوية ضد الإدارة الأموية. ويتفق المؤرخون العرب من فترات زمنية مختلفة مثل بن عبد الحكم (187-257هـ/803-871م) والطبري (224—340هـ/ 839-923م) وابن عذارى المراكشي (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) وابن الأثير (550-630هـ/1160-1232م) أن سبب هذه الثورة كان السياسة التعسفيّة لعبيد الله بن الحبحاب والي المغرب ونائبه عمر المرادبي (116-122هـ/735-740م) وعدم قدرة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك للتدخل لرفع هذه المظالم.

لقد حاول ميسرة المدغري قبل إعلان ثورته ضد الإدارة الأموية بالمغرب أن يوضح لابن الحبحاب ونائبه مدى خطأ سياستهما ، ولمّا لم يتمكن من إقناعهما قاد وفداً من مشايخ قبائل مختلفة بلغ عدده عشرين شيخاً وذهب إلى دمشق لمقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك ، ووضع شكواهم أمامه ، ولكنه لم يتمكن من مقابلته ، فسلم الشكوى إلى الأبرش حاجب الخليفة ورجع إلى المغرب.

وعندما عاد إلى طنجة في سنة 122هـ/740م أعلن ثورته ضد الأمويين وأخذ

البيعة لنفسه خليفة على وفق مذهب الخوارج الصفرية. وفي نفس هذه السنة زحف ميسرة وأتباعه من قبائل غمارة ومكناسة وبرغواطة إلى طنجة ، وقتل حاكمها عمر المرادي ، ولكن ميسرة المدغري انسحب تحت ضغط قوات الأمويين بقيادة خالد بن حبيب الفهري بعد قتال عنيف ، اعتبره أتباعه الصفرية جبناً منه في المعركة ، فقتلوه على حسب ما تقضى به نظرية الصفرية التي تجيز قتل الإمام الجبان

وقد عمت الثورة والفوضى كل المغرب والأندلس ، وحاول الخليفة هشام بن عبد الملك إخماد هذه الثورة ، فأسرع بإرسال عدة جيوش ، الواحد تلو الآخر فكانت المعارك شديدة وسجالاً بين الثوار والخلافة التي كلفتها هذه الثورة موارد مادية وبشرية كبيرة ربما كانت سبباً في إضعاف قوى الأمويين التي سرعان ما سقطت في سنة 132هـ/750م أمام ضربات العباسيين الذين حاولوا إخماد ثورات الخوارج بالمغرب ، ولكنهم في النهاية اقتنعوا بعدم استطاعتهم السيطرة على هذا الإقليم الذي خرج نهائياً عن سلطتهم في عهد هارون الرشيد ، وتكونت به دولة الأغالبة في تونس والرستميين في المغرب الأوسط والأدارسة في المغرب الأقصى وبني واسول في سجلماسة.

ليس من هدف هذا البحث تتبع ثورات الخوارج في المغرب إلا بقدر ما يعطي تمهيداً لقيام الكيانات السياسية المستقلة الآنفة الذكر.

قيام دولة بني واسول في سجلماسة: 138هـ/756م

عقب ثورة الخوارج الصفرية ضد الدولة الأموية في المغربين الأوسط والأقصى سنة 122هـ/740م بزعامة ميسرة المدغري التي سبقت الإشارة إليها انسحب أحد قادة تلك الثورة، وهو عيسى بن يزيد السود مع أربعة آلاف من أتباعه إلى منطقة سجلماسة بصحبة أبي القاسم سمكو (سمغون) بن واسول بن وصلان المكناسي الذي كان صاحب ثروة كبيرة من الماشية وزعيماً لقبيلته مكناسة وينتجع منطقة سجلماسة.

ويبدو أن الخوارج الصفرية قد استغلوا فرصة ضعف الدولة الأموية وسقوطها سنة 132هـ/750م ، على أيدي العباسيين وتأسيس عبد الرحمن الداخل لإمارة أموية في الأندلس سنة 138هـ /756م وأعلنوا تأسيس دولة خاصة بهم سنة 138هـ/756م في سجلماسة ، فقد حمل أبو القاسم بن واسول مع أربعين من رجالاتهم أفراد قبيلتهم على بيعة عيسى بن يزيد الأسود إماماً للصفرية ، وأعلنوا طاعتهم له وتبعه أن تأسست دولة خارجية صفرية في هذه السنة. وفي سنة

140هـ/757م شُرع في بناء وتخطيط مدينة سجلماسة "وأكمل بناءها وأتقن أسوارها وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه وأمر بغرس النخيل والاستكثار منه".

كان عيسى بن يزيد (أو مزيد كما سماه البكري) الأسود من رؤساء الخوارج وزعمائهم ومن موالي العرب. وقد ظل عيسى بن الأسود إماماً لدولة الصفرية في سجلماسة لمدة خمسة عشر عاماً حتى سنة 155هـ/772م إلى أن غيّر أسلوبه في الحكم والإدارة ، فاعتبره أتباعه الصفرية خروجاً عن شريعتهم فثاروا ضده وقبضوا عليه وحكموا عليه بأن يطلى بالعسل ويربط إلى جزع شجرة على قمة جبل وتركوه حتى قتله النحل سنة 155هـ/774م وسُمي ذلك الجبل باسمه ، أي جبل عيسى.

واتفق الصفرية بعد مقتل بن الأسود على اختيار أبي القاسم سكمو بن واسول إماماً لهم 155-168هـ/772-784م. ويذكر مؤلف كتاب الاستبصار أن أبا القاسم سمغون "سكمو" الملقب بمدارا كان حداداً من حيّ الرّبض بقرطبة جاء إلى المغرب الأوسط عقب أحداث وقعة الرّبض ونزل بالقرب من سجلماسة فأنشأ بها مدراراً (خيمة) وسكنها ، وقد بنى الناس خيامهم حوله.

إن ما يذكره صاحب كتاب الاستبصار غير دقيق ؛ وذلك لأن وقعتي الرّبض حدثتا في عهد الحكم الأول بن هشام (180هـ/796م-206هـ/822م) الأولى كانت في 189هـ/805م والثانية في 202هـ/818م ، وهذا بالطبع لا يتمشى مع تاريخ تولي أبي القاسم سمغون الإمارة الصفرية في سجلماسة سنة 155هـ/772م. إلا إذا كان يقصد فقط أنه كان من حيّ الرّبض بقرطبة ولا علاقة له بالأحداث التي حدثت فيما بعد في حيّ الرّبض بقرطبة.

ومن الواضح أن سمغون كان زعيماً لفرع مهم من قبيلة مكناسة وذا ثراء كبير ، وأنه من رؤساء الخوارج وكذلك كان والده سمغون من حملة العلم بالنسبة للخوارج ، وأنه سافر إلى المدينة المنورة لطلب العلم ، وأنه تتلمذ على يد أبي عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى بن عباس. ويبدو أن عكرمة نفسه من قبائل المغرب الأوسط ، وربما يكون من قبيلة مكناسة ، كما يشير بن خلّكان الذي يقول عنــه: أصله من البربر من من أهل المغرب... كان يرى رأي الخوارج... وتوفى سنة 105هـ /724م.

ويبدو أن أبا القاسم سمغون قد اتبع سياسة واقعية من بداية عهده حيث اعترف رسميا بالخلافة العباسية ، فقد خطب على منابر سجلماسة لأبي

جعفر المنصور (136-158هـ/754-775م) وابنه المهدي (158-169هـ/775-785م) وذلك تجنباً لمزيد من الحملات العسكرية ضد الخوارج. فمن المعروف أن أبا جعفر المنصور أرسل عدة حملات عسكرية قوية ضد الخوارج في المغرب واستطاع إيقاع الهزيمة بهم في طرابلس وإفريقية (تونس). وكذلك بالنسبة لمبدأ الخوارج ، فقد عُرف عنه أنه كان أباضيا صفريا وهذه سياسة منه لكسب أنصار الطائفتين الخارجتين بالمغرب.

وعندما توفي أبو القاسم سمغون سنة 168هـ/784م خلفه ابنه إلياس الذي كان يدعى بالوزير (168-174هـ 784-791م) إلا أن سكان سجلماسة ثاروا عليه وخلعوه واختاروا أخاه اليسع أميراً عليهم (174-208هـ/791-823م) وقد لقّب اليسع بالمنصور أو المنتصر. ويعتبر اليسع بن أبي القاسم بن واسول المؤسس الحقيقي لدولة بني واسول ، أو كما تعرف كذلك بدولة بني مدرار وذلك بسبب الإنجازات المهمة التي تمت خلال عهده الطويل الذي بلغ ثلث قرن من الزمان.

- تطور مدينة سجلماسة في عهد اليسع:

في عهد الأمير اليسع قويت دولة بني واسول واستفحل أمرها بفضل جهوده ، ويصف لنا بن عذارى الأمير اليسع فيقول: "كان جباراً عنيداً، ظفر بمن عانده من قبائل البربر وقهرهم وأذلهم وأظهر الصفرية وأخذ خُمس معادن درعة. وعظُم قدره في ذلك الوقت، وكان موضع سجلماسة قد عُمِّر بالديار دون سور، ثم زاد ملك اليسع المذكور وأمر ببناء السور، أسفله بالحجارة أعلاه بالطوب فقيل إن بناءه كان من ماله ، لم يشارك فيه أحد فسكن سجلماسة وتوفي سنة 208هـ/823م فكانت مدته بها أربعاً وثلاثين سنة.

ويذكر بن الخطيب: " أن اليسع هدم سور المدينة الأول وبناه أعظم من البناء الأول وفتح فيه 12 باباً محددة وقسّم داخل المدينة على القبائل وبفضل موقع سجلماسة المهم على طريق تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى بين المغرب العربي وبلدان جنوب الصحراء تطورت الحياة الاقتصادية تطوراً كبيراً وازدهرت أحوالها ، وفي هذا الصدد يشير بن خلدون إلى أن اليسع " شيّد بها القصور والمصانع". ومما لاشك فيه كذلك أن الاستقرار والأمن والإدارة في عهد اليسع الطويل قد أدى إلى ازدهار هذه الدولة ونموها وتطورها.

ويصفها بن حوقل (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) بقوله: "وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل على نهرٍ يزيد في الصيف كزيادة النيل... فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة... ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنّة... وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل

المغرب في المظهر والمخبر، مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية " .

ويضيف بن حوقل عن سجلماسة أنه لما كان في أودغست رأى صكاً بقيمة 42,000 دينار حقًّا لتاجر اسمه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله من سجلماسة على تاجر آخر من أودغست ويقول : إنه لم ير ولم يسمع بالمشرق مثل هذا شبها ولا نظيراً ، ولما حكاها بالعراق وفارس وخراسان استغربها الناس. ويدل هذا بكل تأكيد على تطور المعاملات وتقدمها وعلى مدى اتساع حجم التجارة بين دولة بني واسول وبلدان جنوب الصحراء.

ويعطي بن حوقل دليلاً آخر على غنى سجلماسة عاصمة بنى واسول فيذكر لنا أنه في سنة 307هـ/920م كان نصف دخل الدولة الفاطمية التي استولت جيوشها على هذه المدينة سنة 296هـ/909م كان يأتي منها.

ويتحدث الجغرافي ياقوت الحموي في (616هـ/1219م) عن نساء مدينة سجلماسة ومهارتهن في غزل الصوف وصناعة الأزر ، الواحد منها يبلغ 35 ديناراً ، وعن غنى أهلها، وكثرة أموالهم، لاشتغالهم بالتجارة مع بلاد السودان المشهورة بالذهب.

ويقول عنها الإصطخري (القرن السادس الهجري/ العاشر الميلادي):- " قريبة من معدن الذهب بينها وبن أرض السودان وأرض زويلة، ويقال : إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهبا ولا أصفى منه، إلا أن المسلك إليه صعب، والاستعداد له شاق جداً. ويشيد البكري بصناعة الصوف في سجلماسة فيقول : إن صوفها من أجود الأصواف ويعمل منه ثياب يبلغ ثمن الثوب منها ما يزيد على عشرين مثقالاً.

ويصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بقوله:- " سجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها، يفرغ في قبليها. وهي طولانية نحو القبلة، عليها سور من طين، وسطها حصن يسمى العسكر، فيه الجامع ودار الإمارة، شديدة الحر والبرد جميعا، صحيحة الهواء، كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات ، كثيرة الغرباء موافقة لهم ، يقصدونها من كل بلد ومع ذلك ثغر فاضل، برستاقها معادن الذهب والفضة. وهم أهل سنة وقوم جياد وبها علماء وعقلاء. لها باب القبلي وباب الغربي، باب غدير الجزارين وباب موقف زناتة وغيرها ، وهي في رمال ، ولهم مياه".

- **دولة بن واسول بعد اليسع بن مدرار:**

تولى إمارة سجلماسة بعد اليسع بن مدرار وابنه أبو مالك المنتصر والمعروف كذلك بلقب

مدرار 208-253هـ/823-867م وكان قد تزوج أروى (هنو) بنت عبد الرحمن بن رستم إمام الدولة الرستمية في تاهرت (144-171هـ/762-788م) وقد أنجب منها ابناً سماه عبد الرحمن ميمون وقد عُرف بابن الرستمية ، وفي نفس الوقت كان له ابناً آخر من زوجة تدعى تقيّة أو بقية اسمه ميمون أيضا ، وقد عُرف بالأمير بن تقيّة. وقد طالت مدة حكم مدرار هذا وحدثت في عهده منافسة بين ولديه المذكورين أدت إلى تنازع على السلطة ومن ثم إلى حرب بينهما استمرت لمدة ثلاثة سنوات انتصر فيها في البداية بن الرستمية بمساندة والده وتمكن من طرد أخيه من سجلماسة ونفيه خارجها.

وقد خلع بن الرستمية أباه من الحكم وتولى بدلاً عنه مما أدى إلى ثورة أهل سجلماسة عليه ، وذلك لسوء سيرته واستبداده وخلعه من الحكم ونفيه إلى درعة. واستدعاء ميمون الأمير بن تقيّة للحكم غير أنه رفض ذلك بحجة أنه لا يريد أن يتآمر على والده. وقد اضطر سكان سجلماسة إلى إعادة مدرار إلى الحكم من جديد. ولكن عندما لاحظوا أنه قد استدعى بن الرستمية ومؤيديه للعودة من درعة إلى سجلماسة حاصروه ودخلوا عليه القصر وخلعوه مرة أخرى ونصبوا عليهم ميمون الأمير بن تقيّة حاكماً عليهم سنة 253هـ/823م. وتوفى مدرار سنة 253هـ/823م بعد حكم دام لمدة 45 سنة.

لقد ظل الأمير ميمون بن تقية في الحكم في إمارة الصفرية في سجلماسة من (253-263هـ/868-876م) وعندما توفى سنة 263هـ/876م بعد حكم دام عشر سنوات وتولى بعده ابنه محمد (263-270هـ/876-883م) ويصفه بن خلدون بأنه كان أباضي المذهب ، ويقول عنه بن الخطيب بأنه غزا بلاد القبلة (جنوب المغرب الأقصى) وملك مدينة تافليات وتوفى سنة 270هـ/883م بعد أن حكم سبع سنوات وشهراً ، ثم خلفه عمه اليسع الثاني بن المنتصر بن اليسع بن مدرار (270-297هـ/883-909م) . وفي عهد اليسع الثاني تم زيادة الجيش وتحسين سمعته وبدأ يعد العدة لغزو مضغرة، وفي عهده وصل عبيد المهدي وابنه أبو القاسم إلى سجلماسة متنكرين هاربين من مطاردة الدولة العباسية. وكان الخليفة المعتضد العباسي (279-289هـ/892-902م) قد أبلغ اليسع الثاني بشأن تحركاتها وطلب منه القبض عليهما ، ولما علم اليسع الثاني بوجودهما في سجلماسة اعتقلهما وأودعهما السجن ، وقد ظلا كذلك إلى أن زحف أبو عبد الله الشيعي بقواته من كتامة على سجلماسة وأطلقهما من سجنهما واشتبك في قتال عنيف مع اليسع الثاني الذي تمت هزيمته

وقتله على أيدي قوات الشيعة في سنة 297هـ/909م.

عيّن أبو عبد الله الشيعي على سجلماسة أحد رجاله وهو إبراهيم بن غالب المزابي الكتامي في ذي الحجة 297هـ/909م ، ولكن ما إن رحلت قوات الشيعة عنها بعد مضي خمسين يوما ثار الصفرية في سجلماسة وقتلوا عامل عبيد الله المهدي واختاروا الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالرسول أميراً عليهم في شهر ربيع الأول من سنة 298هـ/910م ، ولكن توفى في شهر رجب سنة 300هـ/912م وخلفه أخوه أبو العباس أحمد (300-309هـ/912-921م) وفي البداية استقرت أمور إمارته لانشغال عبيد الله المهدي بترتيب أمور دولته وعندما تم له ذلك بعث إلى سجلماسة جيشاً كبيراً بقيادة مصالة بن حبوس في جموع من كتامة ومكناسة في سنة 309هـ/921م فحاصر سجلماسة حتى سقطت وأسر أميرها أبو العباس أحمد وقطع رأسه وأرسله إلى عبيد الله المهدي في شهر محرم سنة 309هـ/921م.

نظراً لكثرة تمرّد أهل سجلماسة قرر مصالة بن حبوس تعيين أمير من بني واسول عليها لكي يوقف ثورتها على الفاطميين لذلك اختار المعتز بن محمد ساور بن مدرار (309-321هـ/921-933م) فاستبد بالأمر وظل داعية للشيعة إلى أن توفى سنة 321هـ/933م ، وتولى بعده ابنه أبو المنتصر محمد بن المعتز وذلك بموافقة عبيد الله المهدي ، وظل أميراً على سجلماسة إلى أن توفى سنة 331هـ/943م وخلفه ابنه المنتصر سمكو (سمغو) سنة 331هـ/943م وكان صبياً عمره 13 سنة ، وقد سيطرت جدته عليه لصغر سنه ولكن بن عمه محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار ثار عليه وخلعه سنة 332هـ/944م، وطرده من سجلماسة وقطع الدعوة للفاطميين وأعلن مذهب السنة المالكية ، ورفض مذهب الخوارج ودعا لنفسه وللعباسيين وتلقب بأمير المؤمنين الشاكر لله وضرب السكة باسمه ، وقد عُرفت عملته تلك بالدراهم الشاكرية.

وقد أحسن السيرة في رعيته ونشر العدل والإحسان إليهم. وقد ظل يحكم سجلماسة إلى أن بعث إليه المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ/952-975م) قوة كثيفة بقيادة جوهر الصقلي سنة 347هـ/958م فرضت حصاراً عنيفاً على سجلماسة لمدة ثلاثة أشهر لكن الشاكر لله فر منها إلى حصن تاسكرات بالقرب من سجلماسة ، واحتلت القوات الفاطمية عاصمة بني واسول للمرة الثالثة. وحدث أن خرج الشاكر لله متنكراً من حصنه وذهب إلى سجلماسة للاطلاع على الأحوال فيها فتعرّف عليه بعض رجال قبيلة

مضغرة ، فقبضوا عليه وسلموه إلى جوهر الصقلي الذي سجنه ثم نقله معه إلى القيروان حيث تم عرضه هناك على الناس ، ثم سُجن في رقادة حتى توفي سنة 354هـ/965م.

وعندما تولى حكم الأندلس عبد الرحمن الثالث الناصر (300-350هـ/912-961م) وأعلن الخلافة هو أيضاً أسوة بعبيد الله المهدي الفاطمي واتخذ الناصر سياسة مضادة للفاطميين للحد من تطلعاقم للاستيلاء والسيطرة على المغرب والأندلس ، فكان من ضمن تلك السياسة تقديم المساعدة للثائرين على الحكم الفاطمي في المغرب الأقصى ، وفي هذا الإطار اعترفت قبيلة زناتة بالخلافة الأموية في قرطبة نظير مساعدات مالية وعسكرية ، وقد استغل بقايا بني واسول هذه الفرصة ، وأعلنوا اعترافهم بالأمويين بالأندلس ، وثاروا ضد الهيمنة الفاطمية.

وقاد هذه الحركة قائم بن الشاكر لله وتلقب بالمنتصر بالله، لكن أخاً له اسمه أبو محمد ثار عليه سنة 352هـ/963م فقتله وتولى الحكم بدلاً عنه وتلقب بالمعتز بالله ، واستمر في حكم سجلماسة إلى أن زحف عليه خزرون بن فلفول الزناتي سنة 366هـ/976م واشتبك مع أنصار أبي محمد المعتز بالله فهزمه وقتله واستولى على سجلماسة وأرسل رأسه إلى قرطبة في عهد حجابة المنصور بين أبي عامر (366-372هـ/976-1002م) وهكذا انقرضت دولة بني واسول.

- العلاقات الخارجية لبني واسول:

يمكن فهم العلاقات الخارجية لدولة بني واسول من خلال ظروف نشأتها والدويلات التي تشكلت في المغرب والأندلس ووجهة النظر الفكرية لكل منهما ، ومن هذه الدويلات الأغالبة والرستميون في تاهرت والأدارسة في فاس والأمويين في الأندلس وما وراء الصحراء الكبرى.

ارتبطت دولة بني واسول بعلاقات سياسية واقتصادية مع البلدان المجاورة لها التي سبق ذكرها والتي يمكن إيجازها فيما يلي:-

كانت علاقات دولة بني واسول مع دولة الرستمين علاقة ود صداقة ومصاهرة نظراً لطبيعة تكوين كل منهما ونشأتها من ناحية والمبادئ التي قامت عليها من ناحية أخرى ، وقد حتمت تلك الظروف أن يتحالفا ويتعاونا ضد العدو المشترك المتمثل في دولة الأغالبة ممثلة في الدولة العباسية وضد دولة الأدارسة التي كانت تسعى إلى التوسع على حساب بني واسول.

أما علاقة بني واسول مع الأمويين فكانت علاقة صداقة ومصلحة سياسية واقتصادية مشتركة، وقد تلقت دولة بني واسول المساعدات السياسية والعسكرية عندما اجتاحت الجيوش الفاطمية المغرب الأوسط ، واحتلت سجلماسة

وأعلن أمراء بني واسول إنضواءهم تحت الدولة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر وخلفائه حتى 392هـ/ 1001م.

أما علاقة دولة بني واسول مع دول بلدان جنوب الصحراء فكانت أكثر تميزا حيث أدت العوامل الاقتصادية دوراً مهماً فكانت سجلماسة مركزاً تجارياً كبيراً تتجمع فيه قوافل المغرب الأوسط التجارية ومنه وإليه تنطلق الى بلدان جنوب الصحراء مارة بمدينة أودوغشت الشهيرة في العصور الوسطى كمصدر لتجارة الذهب. وقد تحدث المؤرخون المسلمون عن مدى قوة اتساع حجم العلاقات الاقتصادية بين دولة بني واسول وبلدان جنوب الصحراء الكبرى بفضل تجارة الذهب والملح وغيرها ولعل أكبر دليل على مقدار حجم التجارة بين سجلماسة عاصمة بني واسول ومدينة أودغشت في السودان الغربي ما شاهده الجغرافي ابن حوقل حيث قال : إنه من أودغشت سنة 393هـ/1002م وأضاف أنه لم ير مثل هذه المعاملة المالية في المشرق الإسلامي ، ولما حكى ذلك في بغداد لم يصدقه الناس. ويضيف هذا الرحالة أن نصف دخل الدولة الفاطمية سنة 307هـ/919م يأتي من مدينة سجلماسة ، وهذا دليل آخر على مدى تقدم هذه الدولة في تلك الأيام بفضل تجارة القوافل مع بلدان جنوب الصحراء الكبرى.

- أسباب سقوط دولة بني واسول:

يرجع سقوط دولة بني واسول إلى:-

1- عدم تقييد الدولة بمبادئ الديمقراطية التي قامت على أساسها دعوتها فأخذ أمراؤها يتصرفون بأسلوب منافٍ لفلسفة الدولة ففقدت ثقة الناس فيها.

2- انقسام الأمراء من عائلة بني واسول مما أدى إلى نشوب حروب أهلية بينهم.

3- عدم وجود نظام سياسي متين لاختيار الأمير ومن يخلفه .

4- ظهور حركة الشيعة في المغرب أدى إلى اعتناق كثير من سكان دولة بني واسول لمبادئ الشيعة هروبا من سياسة الصفرية المتعسفة.

5- هجوم أبو عبد الله الشيعي على سجلماسة وإطاحته بحكم أسرة بني واسول سنة 296هـ.

الدولة الرستمية 144-296هـ/761-909م:

- **عبد الرحمن بن رستم (المؤسس) 144-171هـ/ 761-788م:**

تختلف آراء وروايات المؤرخين والجغرافيين المسلمين عن أصل عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية، ولكن يجمعون على أنه ينحدر من أصل فارسي وكان جده الأعلى مولى لعثمان بن عفان ، ولعله يعود إلى القائد الفارسي الذي قاد الجيوش الفارسية في معركة القادسية سنة

15هـ/637م ويدلل الكثير من المؤرخين على أصله الفارسي بتواجد العديد من الفرس في تاهرت عاصمة الدولة الرستمية ويقال لهم الأعاجم ، تولى الكثير منهم مناصب مهمة في الدولة.

ومهما يكن من حقيقة أصل عبد الرحمن بن رستم فإنه من المؤكد أنه كان خارجي المذهب عامة وأباضيًّا بصفة خاصة وكان أحد دعاة المذهب الأباضي الخمسة الذين تدربوا على يدي أبي عبيدة بن عكرمة التميمي وأنه كان حاكما لمدينة القيروان في عهد أبي الخطاب المعافري الذي تمت هزيمته على يد محمد بن الأشعث القائد العباسي سنة 144هـ/762م ، وعندما علم بما حل بالمعافري قرر الخروج بسرعة من القيروان والالتجاء إلى جبال الأطلس حيث استقر في منطقة سفاجاج وهي منطقة جبلية وعرة وغنية المراعي وفرت له حماية طبيعية من مطاردة العباسيين.

التحق بابن رستم بعض زعماء الخوارج الفارين من ضغط العباسيين ، وقد بلغ عددهم حوالي 60 شيخاً ، وقد ناصرت قبائل لماية وزغاوة ومطاطة ومكناسة وهوارة ولوانة وزناتة ابن رستم واختارته إماماً لها. وقد حاول بن الأشعث القضاء على هذه الدولة في مهدها ، فقاد جيشه وفرض حصارا حول هذه الجبال ، إلا أن صعوبة المنطقة وانتشار وباء الجدري بين جنوده وبروز بعض المشاكل بين قواته اضطرته إلى فك الحصار والعودة إلى المشرق.

- **تأسيس مدينة تاهرت 144هـ/ 762م:**

بعد أن تم اختيار بن رستم إماماً قرر بناء عاصمة لدولته ، فأرسل مجموعة من الرواد لاختيار مكان مناسب ، فاستقر الرأي على موقع تاهرت عند نهاية جبال التل وعلى نهر منية ويحيط بها سهل خصب باسم سرسو ، مساحته حوالي 409000 هكتار من الأراضي الغنية وبالقرب منها توجد غابة كثيفة لاستغلال خشبها في البناء وحطبها للوقود. هذا بالإضافة إلى موقعها في منطقة التقاء للتبادل التجاري بين الشمال الزراعي والجنوب التجاري مع الصحراء الكبرى ، سميت تاهرت ؛ لأن موقعها يشبه الدف والذي يعني باللهجة الزنانية Taglint وقد عُرفت كذلك بمعسكر عبد الرحمن والعسكر.

وهناك عوامل سياسية وعسكرية واقتصادية عادة تؤخذ في الاعتبار عند تأسيس المدن في الحضارة الإسلامية ، وهذه كلها تنطبق على مدينة تاهرت ودولة بني رستم ، فقد رأى مؤسسها أنه لا يقل شأوا عن الأغالبة ولا عن بني واسول والأمويين في الأندلس.

لقد تطورت تاهرت ونمت بسرعة مذهلة، وجذبت إليها كثافة سكانية من مختلف المناطق بفضل موقعها التجاري المهم والزراعي الغني بثروته

الحيوانية. وأول مبنى شيده عبد الرحمن بن رستم كان الجامع ثم دار الإمارة ثم مساكن الناس والأسواق ، وتم توزيع المياه بين السكان على وفق نظام دقيق.

وقد وصف اليعقوبي مدينة تاهرت في القرن الثالث الهجري فقال : "والمدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب لها أخلاط من الناس تغلب عليهم قوم من الفرس يقال لهم بنو رستم". ويصفها المقدسي في القرن الرابع فيقول : " تاهرت هي اسم القصبة ايضا وهي بلح المغرب قد أحدقت بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبعت حولها الأعين وحل بها الإقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللّبيب.. "

توطد الأمن والاستقرار في المغرب الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم ، وازدهرت الحياة الاقتصادية بفضل عدالته ، ووفد على الدولة كثير من المضطهدين في المشرق الإسلامي والأندلس ، وقد أدى تدفق هؤلاء العلماء والتجار وأصحاب الحرف إلى نمو الدولة الرستمية بسرعة مذهلة ، وتلقت الدولة الرستمية مساعدات مالية كبيرة من خوارج البصرة الذين أرسلوا عدة أحمال من الأموال أدت إلى تقوية الدولة الرستمية اقتصاديا وعسكريا. وعندما شعر عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله اقتدى بطريقة الخليفة عمر بن الخطاب فاختار مجلساً من سبعة رجال ، من بينهم ابنه عبد الوهاب ، وبعد وفاته تم اختيار عبد الوهاب خلفاً له لسببين رئيسين هما: أن عبد الوهاب أيدته قبيلة زنانة القوية إذ كانت أمه منهم، وثانيا لتأييد الفرس له ، وكانوا من الأغنياء والعلماء بتاهرت.

- **عبد الوهاب بن رستم 171 208هـ/788-824م:**

لم يكن احتيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بالإجماع ، فقد كان هناك من عارض اختياره بحجة أنه لم يكن أعلم المرشحين ولا أفضلهم ، ومن هؤلاء يزيد بن فندين الذي حاول أن يحد من سلطة عبد الوهاب باقتراح إنشاء مجلس شورى بجانب عبد الوهاب بن رستم لا يتخذ قراراً دون موافقته ، لكن هذه الفكرة رفضت ، ومن ثم بدأ بن فندين في إثارة المشاكل حتى أدت إلى حرب أهلية بين أنصاره وأنصار عبد الوهاب راح ضحيتها 12 ألف قتيل وقد عرف هذا الفريق باسم النكار أي الذين أنكروا اختيار عبد الوهاب بن رستم.

وقد تعرض حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى هزة أخرى قادها فرقة الواصلية بتأييد من إدريس بن عبد الله العلوي أمير دولة الأدارسة بفاس حيث استغل فرصة الحرب الأهلية وأراد توسيع حدوده على حساب الدولة

الرستمية ، إلا أن عبد الوهاب تمكن من القضاء على حركتهم بالقوة.

ساد الأمن والهدوء في بقية عهد عبد الوهاب ، وقد عزم على الرحيل إلى جبل نفوسة في طريقه لأداء فريضة الحج ، ولكن تبين له عندما وصل إلى هذا الجبل صعوبة السفر إلى مكة خوفاً من أن يقع في أيدي العباسيين ، وقد بقى هناك سبع سنين ، تمكن فيها من طرد الأغالبة من أغلب ليبيا الحالية وضمها إلى الدولة الرستمية ، ثم عاد إلى تاهرت حيث توفى سنة 208هـ/824م وأوصى بالحكم بعده لابنه أفلح (208-240هـ/824-855م).

كان عهد أفلح يمتاز عامة بالهدوء ، إذ كان والده قد مهد له الحكم ، ولهذا قضى سنوات حكمه في أمن واستقرار ، وخلفه ابنه أبو بكر(240-241هـ/855-856م) حيث كان ابنه الأكبر اليقظان أسيراً لدى العباسيين في بغداد ، فقد قُبض عليه فى أثناء تأديته فريضة الحج وأودع السجن حيث تعرّف فيه على المتوكل الأمير العباسي الذي سجنه أخوه الخليفة الواثق ، وعندما توفى الواثق نودى بالمتوكل خليفة للعباسيين ، فأمر بالإفراج عن صديقه في السجن أبو اليقظان فعاد إلى تاهرت ، وقد وجد أخوه أبابكر قد اختير أميرا، وترك الأمر لصهره محمد بن عرفة الذي استبد بالأمر دون الإمام ، وقد أدى هذا في نهاية المطاف إلى حرب أهلية ذهب ضحيتها بن عرفة وانقسام تاهرت إلى فريقين وسقوط إمارة أبي بكر وتولية ابن اليقظان الإمامة (241-281هـ/856-895م).

كرّس أبو اليقظان كل جهده على استتباب الأمن بقصد القضاء على فتنة بن عرفة وأتباعه ، و لم يعّكر صفو عهده الطويل إلا هجوم العباس بن أحمد بن طولون على طرابلس بقصد السيطرة عليها ، وقد تصدى لهذا الغازي كل من الأغالبة والرستميين ، وتمت هزيمة بنْ طولون ورجوع فلوله إلى مصر. وخلفه ابنه أبو حاتم يوسف (281-294هـ/895-907م) ، وكان اختياره بناء على موافقة مجلس الشورى بتاهرت وكان حسن السيرة مصلحا محبا للعدل شجاعا مع ذلك خرج عليه عمه يعقوب بن أفلح بتحريض من بعض سكان تاهرت ، واشتعلت حرب أهلية دامت لأربع سنوات انتهت بهزيمة يعقوب. واشتعلت في عهده حرب أهلية في جبال نفوسة بسبب الصراع على الولاية في ذلك الإقليم ، ثم حرب طويلة بين الرستميين والأغالبة أدت إلى إضعاف الدولتين وتدمير قوتهما العسكرية والاقتصادية وذلك ما مهد الطريق إلى سقوطهما على أيدي الفاطميين فيما بعد.

وعندما توفى أبو حاتم سنة 294هـ/907م خلفه أخوه اليقظان بن محمد الذي استمر

حكمه حتى سنة 296هـ/909م ، وفي عهده اضطربت الأمور الداخلية والخارجية بسبب نشاط أبي عبد الله الشيعي داعي الفاطميين الذي أدى إلى اتباع دعوته وأعقبه سقوط دويلات المغرب ، الواحدة تلو الأخرى ، ومنها دولة الرستميين التي انتهت اثر دخوله تاهرت سنة 296هـ/909م وقتله أميرها اليقظان.

- **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية:**

كانت علاقات الدولة الرستمية مع كل من دولة الأغالبة والأدارسة عدائية فقد كان الأغالبة يمثلون الخلافة العباسية ويعتبرون الرستميين وغيرهم خارجين على السلطة الشرعية وتبع ذلك أن خاضوا ضدهم سلسلة من الحروب أضعفت الطرفين ومهدت السبيل إلى تدميرهما على أيدي الفاطميين.

أما علاقة الرستميين مع بني واسول في سجلماسة فكانت على أحسن مستوى ، فكان بنو واسول على المذهب الخارجي مثلهم ، وزاد في توطيد العلاقة بين الدولتين زواج الأمير مدرار بن اليسع من أروى بنت عبد الرحمن بن الرستم.

أما مع الأمويين في الأندلس فكانت العلاقات جيدة مع اختلاف المذهب للدولتين فكان أن سيطر الأغالبة والأدارسة على معظم أراضي المغرب ، ولم يكن هناك بد للأمويين من تحسين علاقاتهم بالرستميين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأوسط ويتحكمون في طرق التجارة مع الصحراء الكبرى.

ولهذا قدم الأمويون المساعدات المالية والعسكرية للرستميين وأيدوهم ضد الأغالبة والأدارسة ، ومن تلك المساعدات ما قدمه عبد الرحمن الناصر للثائر أبي يزيد بن كيداد .

أما علاقة الرستميين مع المشرق الإسلامي فكانت علاقة تجارية ثقافية على المستوى الشعبي ، ولكنها عدائية على المستوى الرسمي ؛ إذ كان المشرق تابعا للخلافة العباسية ، أما مع بلدان جنوب الصحراء فكانت العلاقة حسنة وتجارية وثقافية بحتة ، وكانت قوافل التجارة تمر إما عن طريق واحة ووجلاني أو سجلماسة ومن ثم إلى تقازا ، ثم إلى غانا وبلاد السودان.

- **سقوط الدولة الرستمية:**

يمكن إرجاع أسباب اضمحلال وسقوط الدولة الرستمية إلى ما يلي:-

1- لم يحترم أئمة هذه الدولة المبادئ الجمهورية التي أقاموا هذه الدولة على أساسها ذلك أفقد الناس الثقة بهم ووجدوا أنهم بدلوا ملوكاً بملوك وأنهم لا يختلفون عن الأمويين والعباسيين.

2- الصراع الذي احتدم بين أفراد البيت الرستمي لعدم وجود نظام دقيق لاختيار الإمام أو (الأمير).

3- العلاقات العدائية بين الدولة الرستمية ودولة الأدارسة والأغالبة فأدى إلى حروب بينهم باستمرار فضعفت القدرات العسكرية والاقتصادية والسياسية لهم ، ومهد الطريق للفاطميين للقضاء عليهم فيما بعد بسهولة ويسر.

4- الانقسام العقائدي في المجتمع الرستمي ، فقد ظهرت فرق وأحزاب انشقت عن المذهب الأباضي الخارجي أدت إلى صراعات فكرية.

5- ظهور الدعوة الفاطمية جعل كثيراً من القبائل المغربية التي تتبعها للتخلص من حالة عدم الاستقرار والحروب في المغرب ، تبعه سقوط الدولة الرستمية.

دولة الادارسة 172-296هـ/788-909م

- تسميتها:

سميت هذه الدولة بهذا الأسم ، نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن حسن بن علي بن أبي طالب

- أسباب تأسيسها:

يرجع سبب تأسيس هذه الدولة إلى الصراع على منصب الخلافة الإسلامية الذي نشب بين الصحابة عقب وفاة الرسول (ﷺ) ، فقد رأى علي بن أبي طالب أنه أحق بذلك المنصب دون غيره لقرابته من الرسول (ﷺ) ، ولفضله على الإسلام وكفايته العلمية والعسكرية. وعقب وفاته ظل أنصاره الذين أصبحوا يُعرفون بالشيعة يعتقدون أحقية أولاده وأحفاده من بعده في الخلافة، وقد قاد العلويون وأنصارهم الشيعة حروبا طويلة ضد الأمويين حتى تم إسقاط دولتهم.

وقد خاض العلويون والشيعة حربهم ضد الأمويين بالاشتراك مع أولاد العباس عم الرسول ﷺ تحت الشعار المعروف للرضا من آل محمد وكانت الدعوة الشيعية قد آلت قيادتها بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله العباسي ، ومن بعده إلى ابنه إبراهيم حتى سقطت الدولة الأموية سنة 132هـ/750م فآلت السلطة (الخلافة) إلى العباس (السفاح) بن محمد العباس بدلاً من العلويين ، وكان يتقدمهم في ذلك الوقت محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية ، وبعد السفاح آلت الخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور الذي ثار ضده محمد النفس الزكية في المدينة يعاونه أخوه إبراهيم ، واستولى على مكة والشام والبصرة لكن المنصور تمكن من الانتصار عليهما بفضل دهائه وحسن تنظيم قواته.

ورغم هذه الهزيمة ظل العلويون ينتهزون الفرص للانقضاض على العباسيين ، فاستغلوا فرصة وفاة الخليفة المهدي وثاروا يطالبون بالخلافة في عهد الخليفة الهادي العباسي (169-170هـ/986-787م) بزعامة الحسين بن علي

بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واستولى على المدينة ومكة ، لكن الخليفة الهادي تمكن من هزيمة العلويين في موقعة فخ سنة 169هـ/786م بالقرب من مكة ، وقد قضى على عدد كبير من قادة العلويين في هذه المعركة وهرب منهم رجلان ، هما إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى الذي فرّ إلى إقليم الديلم بإيران وأخذ يعرف بيحيى الديلمي ، وهناك تمكن من حشد أنصار له أقلق بهم راحة الخليفة هارون الرشيد ، لبعض الوقت حتى تمكن من مصالحته وجاء إلى بغداد حيث تم قتله بالخديعة.

أما إدريس بن عبد الله فقد فر إلى المغرب بصحبة مولاه راشد الذي تمكن من تهريبه إلى المغرب الأقصى بمساعدة أنصاره من الشيعة وفي مدينة أوليلي بتأييد من إسحاق بن عبد الله الأوربي زعيم قبيلة أوربة الذي أكرم وفادته وأجاره حتى تمكن من إقامة دولة علوية سنة 172هـ789م ، عرفت بدولة الأدارسة.

- تأسيس دولة الادارسة:

عندما استقر إدريس بن عبد الله في مدينة أوليلي عاصمة جبل زرهون بالسوس الأقصى قضى بها ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته ، وتمكن بفضل فصاحة لسانه وبلاغته من التأثير في القبائل بهذا الإقليم خاصة بعد معرفتهم قرابته من الرسول ﷺ فاجتمعت عدة قبائل مهمة وهي زناتة ورواوة ولواتة ونفرة ومكناسة وغمارة وبايعوه إماماً عليهم سنة 172هـ/789م وكوّن إدريس بن عبد الله من هذه القبائل جيشاً كبيراً غزا به بلاد تامسنا وشالة وتادلا ، وكانت هذه الأقاليم لا تزال بها جيوب على دين النصرانية واليهودية والمجوسية ، ثم زحف ضد الخوارج في مدينة تلمسان ، وتم له الاستيلاء عليها فاعترفوا به وضم هذا الإقليم إلى دولته. وعلى هذا النحو تمكن إدريس بن عبد الله من إقامة دولة قوية في المغرب الأقصى.

عندما علم الخليفة العباسي هارون الرشيد بما أنجزه إدريس بن عبد الله من إقامة دولة قوية له انزعج وخاف من أن يقوم إدريس بالاستيلاء على المغرب كله، ولما لم يكن باستطاعته إرسال جيوش للقضاء على دولته الناشئة ؛ لبعد المسافة لجأ إلى الحيلة والغدر ، فقرر اغتياله بواسطة أحد عملائه وهو سليمان ابن جرير الشماخ ، كان هذا العميل احد دهاة العرب فادعى أنه من أشياع العلويين وجاء للالتحاق به لخدمته فرحب به الإمام إدريس وقربه منه ، واستغل الشماخ تلك الفرصة ودس له السم في زجاجة عطر قدمها له هدية فمات إدريس من ذلك لكنه ترك جارية له تسمى كنزة حاملا في شهرها السابع، وقد اتفق راشد وزعماء القبائل على الانتظار حتى تضع تلك السيدة حملها فوضعت طفلا سمي بإدريس الثاني شبيه من حيث الشكل بوالده تماما ، فالتفت القبائل حوله تحت

رعاية راشد ووصايته ، لكن العباسيين لم يتركوا هذه الدولة تتقدم فدبروا مؤامرة ضد راشد حتى قتلوه عن طريق عميل أرسله الأغالبة ولكن كل هذا لم يوقف هذه الدولة الناشـــئة ، فقد استمرت تحت قيادة إدريس ابن إدريس ، وتوسعت رقعتها رغم مؤامرات الأغالبة والعباسيين ضدها.

- بناء مدينة فاس:

يرجع تأسيس مدينة فاس إلى ازدحام الناس في مدينة أوليلي من ناحية والى تخوف إدريس الثاني من زعيم قبيلة أوربة وأنصاره الذي راسله الأغالبة وانحاز إلى جانبهم خاصة بعد أن أعدمه هذا بالإضافة إلى الأسباب الأخرى المعروفة في تأسيس المدن ، ومنها تخليد الذكرى في التاريخ والضرورة الأمنية وغيرها.

- تسمية المدينة:

اختلف المؤرخون في تسمية فــاس بهـــذا الاســـم وهناك خمس روايات:-

1- قيل : إن إدريس الثاني عندما شرع في بناء هذه المدينة كان يعمل مع الصناع فصنعوا له فاسا لاستعمالها في الحفر ، وكان يقال هات الفاس ، احمل الفاس ، احفر بالفاس... فسميت فاس

2- وذُكر كذلك أنه عندما شُرع في حفر أساسها من جهة القبلة وجد في الحفر فاسا طولها أربعة أمتار وعرضها متر ، فسميت المدينة فاساً.

3- ويُقال كذلك : عندما تم بناء المدينة وجاءت تسميتها قال إدريس سموها باسم المدينة القديمة الموجودة في الموقع وكان اسمها ساف ، ولكن قلبوا اسمها إلى فاس بدلا عن ساف.

4- يرجع البعض أن اسم ساف كان اسما للنهر الذي يخترق المدينة

5- إن معنى كلمة أسيف Asef بلغة البربر تعني نهر ، ويرجح بعض المؤرخين الاسم الأخير لهذه المدينة ؛ لأنه يرتكز على الجانب اللغوي.

- دولة الادارسة في عهد إدريس الثاني

جدد الناس البيعة لإدريس الثاني سنة 187هـ/802م وهو بن إحدى عشرة سنة ، فاستقام له الأمر بالمغرب الأقصى وتوطد ملكه وعظم سلطانه ووفد إليه الناس من سائر البلدان ، وكان ضمن الذين وفدوا عليه نحو 500 فارس من أفريقية والأندلس من قبائل العرب القيسية والأزدية والخزرج وغيرها ، وقد سُر إدريس الثاني بمقدمهم وأجزل لهم العطاء وقربهم منه واستوزر منهم أحد زعمائهم وهو عمير بن مصعب الأزدي.

في سنة 197هـ813م قام إدريس الثاني بغزو القبائل الوثنية في منطقة نفيس وبلاد المصامدة

على رأس جيش كثيف ، واستولى على مدينة نفيس وأغمات وفي سنة 199هـ/ 815م غزا مدينة تلمسان وفتحها وأقام بها ثلاث سنوات ، وفي سنة 202هـ وفد على فاس جماعات كبيرة من الأندلس ، وقد أمر بطردها من هناك الأمير الحكم الأموي بسبب تآمرهم عليه في وقعة الرّبض فرحب بهم إدريس الثاني وأقامهم في مدينة فاس في حي عُرف بعدوة الأندلس نسبة إلى هؤلاء القادمين من الأندلس.

في سنة 213هـ/829م توفى إدريس الثاني في ظروف غامضة وقد ورد في مصادر تاريخ الأدارسة أن سبب وفاته أنه غص في حبة عنب فمات وقيل: إنه توفى مسموما.

بعد وفاة إدريس الثاني خلفه ابنه محمد بعهد من أبيه ، وبناء على توصية جدته كترة قام الأمير محمد بن إدريس بتقسيم دولته بين إخوته ، فولى أخاه أبا القاسم مدينة سبتة وطنجة ، وأعطى أخاه عمراً بلاد صنهاجة وغمارة ، ومنح أخاه داؤود بلاد هوّارة ومكناسة . أما عبد الله فولاه أغمات ونفيس وجبال المصامدة والسوس الأقصى ، وأعطى يحي بلاد أصيلة والعرائش وزواغة وعيسى منطقة شالة وسلا وتامسنا وبرغواطة وخص محمد بمدينة مكناسة وتادلا وحمزه على أوليلي وأعمالها أما إخوته الصغار وعددهم أربعة فقد ظلوا في كفالة جدتهم كترة لصغر سنهم.

غير أن التراع سرعان ما نشب بين الإخوة فثار عيسى بمنطقة شالا وأراد تولي الإمامة دون أخيه محمد الذي كتب إلى أخيه القاسم حاكم طنجة يطلب منه محاربة أخيهما عيسى ، ولكن القاسم امتنع عن ذلك وخالف أمر أخيه الإمام فاضطر هذا إلى أن يكتب إلى أخيه عمر صاحب صنهاجة ، فامتثل للأمر وحارب عيسى حتى هزمه، ثم زحف ضد أبي القاسم وانتصر عليه كذلك ، وولاه محمد على كل هذه المناطق التي استولى عليها من إخوته. وظل حاكما على هذه المناطق إلى أن توفى سنة 220هـ/835م فخلفه ابنه علي بن عمر وتوفى الإمام محمد سنة 221هـ/836م.

تولى بعد الإمام محمد ابنه الصغير علىّ الملقب بحيدرة وكان عمره لا يتجاوز تسع سنوات تحت وصاية مجلس من الأعوان ، وظل يحكم حتى توفى سنة 234هـ/849م ، وخلفه أخوه يحي بن محمد لمدة قصيرة ، ثم خلفه ابنه يحي بن يحي الذي أساء السيرة في الناس فكان سيّئ الخلق مولعاً بالشرب واللهو والمجون وتوفى بعد مدة قصيرة ، وخلفه عمه على بن عمر الذي ظل يحكم دولة الأدارسة إلى أن ثار ضده رجل يُعرف بعبد الرزاق الفهري الخارجي وخلعه من الحكم وولى على فاس علوي آخر وهو يحي بن القاسم ، فظل هذا يحكم حتى قتل سنة 292هـ/904م ، فتولى

بعده يحيى بن إدريس بن عمر الذي ظل يحكم فاس حتى سقوطها للفاطميين سنة 305هـ/917م.

- **العلاقات الخارجية لدولة الأدارسة**

كانت علاقة دولة الأدارسة مع كل جيرانها تقريبا عدائية فقد خاضت حروبا ومنازعات سياسية مع الأغالبة حلفاء العباسيين الذين تآمروا على قتل الإمام إدريس الأول ثم تمكنهم من اغتيال راشد الوصي على إدريس الثاني، وكذلك إغراؤهم لزعيم قبيلة أوربة أبي ليلى إسحاق بن محمود الأوربي بالانضمام إليهم ، ولما اكتشف إدريس الثاني ذلك أمر بإعدامه وتمكن الأغالبة من إقناع وزير الأدارسة بهلول ابن عبد الواحد المدغري فانضم إلى الأغالبة بمن معه من أنصاره وانفصل عن الأدارسة. لكن في نهاية الأمر تم عقد صلح بين الأغالبة والأدارسة. أما علاقته بدولتي بني رستم وبني واسول فكانت هي الأخرى عدائية فقد زحف إدريس الثاني بقواته واحتل مدينة تلمسان وعدة مناطق أخرى خاضعة للخوارج ، وبقي بها ثلاث سنوات.

كذلك كانت علاقته عدائية مع الأمويين في الأندلس فقد رحب بالثائرين على الحكم الأول الأموي وأسكنهم في حي في فاس أسماه عدوة الأندلسيين. وبالمثل شجع الأمويون الثائرين على الأدارسة ، وقدموا المساعدات المالية والعسكرية لهم.

- **أسباب انهيار دولة الأدارسة:**

ترجع هذه الأسباب إلى ما يلي :

- توزيع إدارة الإمارة بين الإخوة أدى إلى تنازعهم وإثارة الحروب الأهلية بينهم فمهد ذلك إلى إضعافهم.
- أدت كثرة الحروب إلى تدمير موارد الدولة الاقتصادية والبشرية
- ظهور الدعوة الشيعية الفاطمية وانضمام الكثير من القبائل الناقمة على سياسة الأدارسة إليها أملاً في الخلاص من الفوضى.
- هجوم القوات الفاطمية بقيادة مصاله بن حبوس على فاس سنة 305ه/917مـ وسقوطها في يده، وبذلك انتهت رسميا دولة الأدارسة.

دولة الأغالبة في المغرب الأدنى 184-296هـ/800-909م:

نتج عن الصراع الذي أثارته العناصر الخارجية والشيعية انفصال المغرب الأوسط والمغرب الأقصى عن الدولتين الأموية والعباسية ، وتكونت بهذه المناطق دويلات منها الدولة الأغلبية التي كان سبب نشوئها هو أن تكون حاجزا بين ممتلكات الدول العباسية والدويلات الخارجية والشيعية

بالمغرب الأقصى ، وقد وافق الخليفة هارون الرشيد على إقامة هذه الدولة على وفق شروط أهمها:

- استقلال المغرب (أفريقية) استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية.
- تكون تبعيتها اسمية للدولة العباسية.
- يدفع الأغالبة مقداراً من المال إلى خزينة الدولة العباسية كل عام.
- يعترف الخليفة العباسي بأن تكون الإمارة وراثية في عقب إبراهيم بن الأغلب.
- يُذكر اسم الخليفة العباسي في الدعاء على منبر المساجد في صلوات الجمع والأعياد وعلى العملة.
- كان إبراهيم بن الأغلب أول أمير للأغالبة ، وقد حكم خلال المدة من 184-196هـ/ 800-811م ، وهو من أفضل أمرائهم فقد كان عالما وفقيها ومحاربا شجاعا قديرا ، وقد مكنته مؤهلاته الشخصية هذه من فرض سيطرته على منطقة أفريقية ، بل تجاوزها في بعض الأحيان.

- **أهم أعماله:**

- اتخذ من مدينة القيروان عاصمة له ، ثم شرع في بناء مقر إداري على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان يسمى القصر القديم وأسماه العباسية تعبيراً عن ولائه للعباسيين نقل إليه خزائنه وحرسه وعبيده

1- أخذ يعمل على تأسيس قوة بحرية أصبحت فيما بعد قوة كبيرة ساعدت خلفاءه من فتح صقلية وجزر أخرى في البحر الأبيض المتوسط.

- اهتم إبراهيم بن الأغلب بالعمران ، فأنشأ القصور وأقام الحصون وشق الترع والقنوات والصهاريج.

مع هذا الهدوء النسبي في عهد بن الأغلب إن زعيما من العرب يدعى حمديس أعلن تمرده على الخلافة العباسية وثار بتونس غير أن الأغلب تمكن من القضاء عليه وعلى أنصاره ، وقد ظلّ إبراهيم بن الأغلب مخلصا للخلافة العباسية فنجده يتتبع نشاطات دولة الأدارسة التي تأسست في فاس سنة 173هـ/789م وتمكن من قتل أميرها ومؤسسها إدريس بن عبد الله ، ثم اغتيال مولاه راشد سنة 186هـ/811م ، وتمكن بوسائله الخاصة من إقناع زعيم كبير من أنصار الأدارسة من التخلي عنهم وإعلان ولائه للعباسيين ، وهو بهلول بن عبد الواحد نظير أموال وهدايا. وبهذه الطريقة كاد إبراهيم بن الأغلب يقضي على دولة الأدارسة ويجمد نشاطاتها.

ورغم كل ذلك تعرض حكم إبراهيم ابن الأغلب إلى هزة عنيفة كادت تسقطه قام بها قائد جيشه عمران بن مجالد سنة 195هـ/810م مع زعيم آخر ، ولولا تدخل الرشيد لصالح بن

الأغلب لربما انهار حكمه. وفي سنة 196هـ/812م ثارت قبيلة هوارة بطرابلس بدعم من عبد الوهاب بن رستم إمام الدولة الرستمية بتاهرت وتمكنت من السيطرة على إقليم طرابلس ، وفي هذه الاثناء توفى إبراهيم بن الأغلب وتولى ابنه عبد الله إمارة الأغالبة سنة 196-201هـ/811-816م ، وكان أول عمل قام به هو عقد معاهدة مع الدولة الرستمية ملخصها:

- أن تكون مدينة طرابلس للأغالبة
- يكون بقية إقليم طرابلس تابعا للدولة الرستمية
- عقد هدنة بين الدولتين .

غير أن عبد الله بن إبراهيم هذا غيّر من سياسة والده العادلة وتحول إلى طاغية سام الناس ظلما وجورا ، ويذكر لنا بن غذارى انه " أحدث بأفريقية وجوها من الظلم شنيعة منها أنه قطع العشر حبا وجعله ثمانية دنانير للقفيز أصاب أو لم يصب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم فاشتد على الناس ذلك " وقد توفى عبد الله بن الأغلب بسبب قرحة في سنة 201هـ/816 م وتولى بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم 201-223هـ/816-837م الذى أصبح أعظم أمراء الأغالبة على الإطلاق بفضل ما أنجزه من أعمال إدارية وحضارية وعسكرية وما تمتعت به البلاد التونسية (أفريقية) في عهده من سلام وتقدم. فقد ترك آثاراً عمرانية في مدن القيروان والعباسية وتونس وسوسة والمنستير وكان يتمتع بكفاية حربية كبيرة ، فاستطاع القضاء على كل تمرد قام ضده ؛

لعل أهم تمرد قام ضده كان ذلك الذي قام به منصور بن نصير الطنبذي سنة 209هـ/824 من مدينة طنبذة ، وكاد يطيح بدولة الأغالبة لولا حكمة وصبر زيادة الله الذي تمكن من القضاء على الطنبذي وأنصاره وإعادة النظام والأمن إلى دولة الأغالبة بمساعدة قبيلة نفزاوة.

صادق الخليفة المأمون على تولية زيادة الله الإمارة وظل مخلصاً للمأمون طوال حكمه ومتعاوناً معه للقضاء على أعداء الدولة العباسية. وكان أهم ما حدث في تاريخ ولاية زيادة الله هو فتح صقلية سنة 212هـ/827 ، فقد جهز زيادة الله قوة بحرية كبيرة قوامها 200 مركبا بقيادة القاضي أسد بن الفرات

ويمكن إرجاع أسباب فتح صقلية للأسباب التالية:

- انتهاء الهدنة بين الروم والأغالبة التي كانت مدتها عشر سنوات.
- محاولة القضاء على غارات الروم على المغرب العربي.
- العامل الديني وهو الجهاد في سبيل الله.
- العامل الاقتصادي ؛ فقد كانت جزيرة صقلية غنية.

- أسباب شخصية حيث أراد زيادة الله أن يظهر أمام سكان أفريقية بالأمير المجاهد في سبيل الله .

- القضاء على ثورات الجنود المتواصلة بأفريقية ، وذلك بإشغالهم في حرب خارج البلاد.

- ثورة فيمي Euthemins قائد الأسطول البيزنطي ضد الإمبراطور ولجوؤه إلى الأغالبة ودعوتهم إلى فتح الجزيرة وتقديم الوعد بمساعدتهم.

تمكن الأغالبة من فتح صقلية سنة 212هـ/827 ، ولكن تعرض جيشهم لوبأ شديد أدى إلى وفاة قائد الأسطول أسد بن الفرات وعدد كبير من المتطوعين. وقد ظلت جزيرة صقلية وبعض المناطق الأخرى في جنوب إيطاليا خاضعة للأغالبة حتى سقوط دولتهم سنة 296هـ/809م على أيدي الفاطميين.

عندما توفي زيادة الله في سنة 223هـ/837م تولى بعده أخوه أبوعقال في الفترة من 223/837هـ-226/840م وظلت فترة حكم أبوعقال في هدوء نسبي وقد قام بإلغاء كثير من المظالم وزيادة أرزاق العمال والإحسان إلى الرعية وقد أصدر أوامر بمنع بيع الخمور لكي يقنع الفقهاء ويكسب ودهم. واستمر أبوعقال في سياسة الفتح فأرسل في سنة 224هـ/834م سرية إلى صقلية قامت باستكمال فتح بعض الحصون فيها وعندما توفي أبوعقال سنة 226هـ/840م تولى بعده ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب الذي دام حكمه من 226هـ/840م-242هـ/856م ساد فيها الأمن والسلام خلال الخمس السنوات الأولى من حكم أبي العباس قام خلال هذه المدة بتوسيع دائرة نفوذه في المغرب الأدنى ، فقام ببناء مدينة بالقرب من تاهرت عاصمة الدولة الرستمية اسمها العباسة سنة 227هـ/841م وذلك ما جعل الإمام أفلح بن عبد الوهاب حاكم الدولة الرستمية بتمويل أموي لتدمير هذه المدينة التي تحمل شعار العباسيين وبالفعل تمكن من تدميرها وحصل على مكافأة أندلسية أموية مقدارها مائة ألف درهم.

تعرض حكم أبو العباس لمشاكل داخلية أثارها أخوه أحمد الذي دبر مؤامرة ضد وزير أخيه أبي عبد الله بن حميد ، وذلك لاتهامه بالسيطرة الكاملة على الدولة دون أبي العباس ، وقد تمكن أحمد وأنصاره من قتل هذا الوزير إلا أن الأمير تمكن من نفي أحمد وأسرته إلى مصر ، وعندما توفي أبو العباس محمد في سنة 242هـ/856م خلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد الذي استمر حكمه ، من 242هـ/856م - 249هـ/863م لمدة سبع سنوات وكان رغم صغر سنه حسن السيرة رفيقا برعيته رافضا للظلم ويذكره بن عذارى بكل تبجيل وتكريم فقد قال عنه إنه كان متواضعا يمنح الفقراء والمساكين ويمشي على رجليه في شوارع المدينة حتى يصل إلى المسجد الجامع بالقيروان ،

وكان مولعاً بالبناء والتشييد ، ففي سنة 245هـ/859م شرع في بناء المواجل وبعض المساجد والقناطر وفي سنة 246هـ/860م شرع في بناء الماجل الكبير الواقع على باب تونس وانتهى بناؤه سنة 248هـ/862م وهو على شكل صهريج عظيم مستدير الشكل يبلغ قدره 150 متراً لحفظ مياه الأودية ، وكان سكان القيروان يشربون من هذا الماجل في سنوات الجفاف.

وقد زاد أبو إبراهيم هذا في طابع القيروان، وأصلح قنطرة باب أبي الربيع سنة 248هـ/862م ، وبنى سور سوسة في سنة 845هـ/859م ، وشرع في إصلاح المسجد الجامع في تونس والزيادة فيه سنة 249هـ/863م ، ولكنه توفي قبل إتمامه ، وعندما توفي سنة 249هـ/863م تولى بعده أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني ، الذي دام حكمه لسنة واحدة ثم توفي صغيراً سنة 250هـ/864م وخلفه بن أخيه أبو الغرانيق محمد بن أحمد الذي حكم خلال المدة من 250هـ إلى 874/261م وقد لقب بأبي الغرانيق لحبه صيد الغرانيق حتى إنه بنى قصرا يخرج منه لصيدها أنفق فيه 30 ألف مثقال ذهب.

كان أبو الغرانيق مولعاً بالبناء والعمارة ، فبنى حصونا ومحارس على ساحل البحر على مسيرة 17 يوما من برقه إلى جهة الغرب ، وفي عهده أقام محمد بن حمدون المعافري الأندلسي المسجد الشريف بالقيروان سنة 252هـ/866م المعروف بمسجد الأبواب الثلاثة ، الذي تعتبر زخارفه من أروع الزخارف الأغلبية.

في سنة 261هـ/ 874م توفي أبو الغرانيق وتولى بعده أخوه إبراهيم ابن أحمد الذي دام حكمه حتى 289هـ/901م ويعتبر إبراهيم بن أحمد من أعظم الأمراء الأغالبة بسبب ما أنجزه من مآثر عمرانية ، فهو الذي أسس مدينة رقادة سنة 263هـ/876م وبنى فيها جامعاً وقصراً أسماه الفتح ، وأتم بناء المسجد الجامع في تونس وسور سوسة وماجل القيروان ،ويذكر بن خلدون أنه بنى الحصون والمحارس على طول الساحل حتى كانت توقد النار على ساحل سبتة للإنذار من العدو فيصل إيقادها إلى الإسكندرية في نفس الليلة.

سار الأمير إبراهيم بن أحمد خلال الست سنوات الأولى من حكمه على نهج سليم من العدل والإنصاف ثم تغيّر فجأة إلى سياسة الظلم والجور ، وأخذ يزداد ظلمه وتعسفه وتحوّل إلى سفاك للدماء وقد أصيب بجنون القتل وأسرف في ذلك و لم يسلم منه أحد حتى أقرباؤه فقتل ابنه أبا الأغلب وقتل بناته وثمانية إخوة له وعندما فقد منديلا له قتل بسببه 300 خادم ، وأخيرا قتل ابناً آخرا له وذلك

لأن أحد المنجمين أخبره أنه سيملك بعده واسمه أبو عقال وقتل بعض من وصيفاته وجواريه دونما سبب.

وفي عهده ظهر الداعي الفاطمي أبو عبد الله الشيعي الذي نجح في نشر الدعوة الفاطمية بين أفراد قبيلة كتامة. ويبدو أن ظهور أبو عبد الله الشيعي قد أدى إلى تغيير الأمير إبراهيم بن أحمد من سياسة الجور والظلم إلى الاعتدال حتى يكسب رضا الناس ولكي لا ينضموا إلى الدعوة الشيعية، أمر برد المظالم إلى أهلها وخفّض الضرائب وعفا عن الناس من بعض الأعشار واعتق بعضا من مماليكه ومنح العطايا للفقراء وفرق أموالا كثيرة لتوزع على الفقراء والمساكين وأطلق سراح من كانوا في السجون.وقرر الخروج للجهاد في صقلية فاستنفر الناس ودعاهم للجهاد ووزع عليهم الأموال الكثيرة وخرج من مدينة سوسة سنة 289هـ/901م ونزل في مدينة بالرمو وتمكن من فتح حصن مسينة وطرمين وعبر مضيق ماسينا وغزا جنوب إيطاليا الغربي ودخل كالابريا وهناك أصيب بمرض توفي بسببه فدُفن في بالرمو سنة 289هـ/901م.

تولى بعد إبراهيم بن أحمد ابنه أبو العباس 289هـ/901م-290هـ/902م ،وقد بدأ الضعف يدب في دولة الأغالبة واضطربت الأحوال وتآمر عليه ابنه زيادة الله فسجنه ثم قتله في آخر شعبان سنة 290هـ/902م وتولى الإمارة بعده 290هـ/902م-296هـ/909م ، لما توفى زيادة الله قبض على أعمامه وأرسلهم مقيدين إلى جزيرة الكرات ، وهي جزيرة صغيرة تقع على بعد كيلو مترين ونصف شمالي تونس ، فأمر بقتلهم جميعاً ، كذلك قتل الفتيين اللذين قتلا أباه وقتل أخاه أبا عبدالله الأحول وبدأ حياة من المجون والعبث في وقت استفحل أمر أبي عبد الله الشيعي الذي استولى سنة 292هـ/904م على سطيف ثم طبنة رغم محاولات زيادة المستمرة لإيقاف الزحف الشيعي الذي أخذت تسقط في يده المدن التونسية الواحدة تلو الأخرى ، ولما تأكد زيادة الله من عدم قدرته على التصدي لقوات الشيعي قرر الهروب من رقادة إلى مصر فاختار ألفا من فتيانه ووضع في وسط كل واحد منهم ألف دينار ذهب ، وحمل ما أمكنه من الذهب والجواهر وبرفقته وجوه دولته وأسرته وخدمه ، فاستقر لبعض الوقت في طرابلس ثم غادرها إلى مصر ، وبذلك انتهت دولة الأغالبة. التي سقطت عاصمتها في أيدي قوات أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ/909م.

- **أسباب سقوط دولة الأغالبة**

ترجع هذه الأسباب إلى :

- سياسة الظلم والجور التي اتبعها أغلب أمرائها ضد السكان.

- عدم وجود نظام لتولية ولاية العهد وهو ما أدى إلى تصارع أمراء الأغالبة فيما بينهم.
- كثرة الحروب والفتن الداخلية مهدت إلى انقسامات داخلية وإلى تدمير الاقتصاد في البلاد.
- العامل الأخلاقي وذلك لفساد أخلاق الأمراء وحاشيتهم ففسدت الذمم وظهرت الفتن .
- ظهور الدعوة الشيعية في إفريقية أدى إلى زوال الأغالبة على أيديهم.

ثانياً في الأندلس :

كان للأحداث السياسية في المغرب العربي آثارها على الأندلس فانتقلت إليها الثورة التي قامت ضد الإدارة الأموية هناك وازدادت الصراعات بين عرب الشمال والجنوب خاصة بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق سنة 132هـ/750م (انظر فصل الفتوحات في المغرب والأندلس المجلد الثاني).

لقد انتهى الصراع على السلطة في الأندلس بتولي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الدّاخل) السلطة كما مرّ سابقاً عقب معركة المسارة سنة 138هـ-315م وكان أن تكونت في الأندلس إمارة أموية استمرت في الحكم من (138-315هـ/755-927م) ثم خلافه من (316-422هـ/928-1030م).

• الأمير عبد الرحمن الدّاخل (138-172هـ/755-788م):

فرّ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الدّاخل) الى المغرب الأقصى هرباً من مطاردة العباسيين للأمراء الأمويين، وقد اختار الدّاخل المغرب للأسباب التالية:-

- بُعد المغرب جغرافياً عن مركز السلطة العباسية وذلك يجعل هذه المنطقة آمنة الى حد ما من الملاحقة العباسية.
- كان المغرب العربي في حالة ثورة أصلاً ضد الدولة الأموية ومن بعدها الدولة العباسية وتكونت به دويلات لا تعترف بالسلطة العباسية.
- وجود عدد كبير من أنصار الأمويين ومواليهم بالمغرب والأندلس.
- كانت والدة عبد الرحمن الدّاخل وتسمى " راح" من قبيلة نفزة القاطنة غرب طرابلس ، وهذا بالطبع شجّع عبد الرحمن على الاحتماء لبعض الوقت عند قبيلة أخواله.
- كان الخليفة هشام بن عبد الملك (105-126هـ/723-743م) جد عبد الرحمن الدّاخل قد وهب بعض الممتلكات في الأندلس إلى عبد الرحمن وأخوته.

لهذه الأسباب قرر الأمير عبد الرحمن الدّاخل اللجوء إلى المغرب والأندلس ، واستقر في مدينة أمليلة وبدأ يتطلع إلى العبور إلى الأندلس التي

كانت تمر بحالة بعدم استقرار ، وبدأ يراسل أنصار الأمويين الذين شجعوه على العبور ووعدوه بالوصول إلى الإمارة على الأندلس ، فعبر في ربيع الثاني 138هـ/755م ونزل عند المنكّب ثم سار إلى حصن طرش الذي كان مركزاً لأنصار الأمويين حيث اتخذه قاعدة عسكرية لتوجيه حملاته وتجميع أنصاره ، ثم تقدم بعد ذلك صوب قرطبة والتقى بقوات الصميل بن حاتم ويوسف الفهري على ضفاف نهر الوادي الكبير عند بليدة المسارة بالقرب من قرطبة في 9 ذي الحجة 138هـ/756م.

وبعد مفاوضات بين الجانبين لم تؤد إلى نتيجة بدأت المعركة التي سرعان ما انجلت عن انتصار عبد الرحمن بن معاوية ودخوله قرطبة حيث صلى بالناس صلاة الجمعة ، وأعلن من على منبر مسجد قرطبة قيام دولة جديدة واستطاع أن يحي الدولة الأموية التي سقطت في المشرق.

أهم المشاكل التي واجهت الأمير عبد الرحمن الدّاخل:

واجهت الأمير عبد الرحمن الدّاخل عدة مشاكل يمكن تلخيصها فيما يلي:-

أولاً: القضاء على ثورات الفهريين.

عقب معركة المسارة فرَّ الصميل بن حاتم ويوسف الفهري من ميدان المعركة في محاولة لجمع أنصارهما من جديد ضد الأمير عبد الرحمن الدّاخل ، ولكن الدّاخل أجبرهما على قبول صلح على شروط ، منها أن يتخلى الصميل بن حاتم ويوسف الفهري عن مطالبتهما بإمارة الأندلس ، وأن تؤمن أموالهما ومنازلهما ، وأن يُسمح لهما بالعيش في قرطبة ، وأن يُعطى الأمان لهما ولأنصارهما.

ظل الصميل بن حاتم ويوسف الفهري يعيشان في قرطبة إلى أن اشتركا في مؤامرة ضد الداخل انتهت بمقتل الفهري بالقرب من طليطلة وموت الصميل في السجن في ظروف غامضة.

ثانياً: أما المشكلة الثانية التي واجهت الدّاخل فهي تدخّل الدولة العباسية في شئون الأندلس ، فقد أراد الخليفة أبو جعفر المنصور 136-158هـ / 754-775م القضاء على الدولة الأموية الجديدة، ولما كان غير قادر على إرسال جيش إلى الأندلس اتفق مع العلاء بن مغيث اليحصبي من مدينة باجة بغرب الأندلس وعيّنه والياً وزوده بلواء الدولة العباسية سنة 146هـ/763م ، وقد ركّز العباسيون علي العصبية اليمنية الذين استاءوا من الدّاخل رغم أنهم أوصلوه إلى الإمارة. لقد تمكّن العلاء بن مغيث من الانتصار على الدّاخل في عدة معارك إلا أن الدّاخل استطاع في النهاية من قتل بن مغيث وقطع رأسه وإرساله إلى جعفر المنصور الذي أطلق على الدّاخل لقب " صقر قريش".

وقد حاول العباسيون مرة أخرى القضاء على الإمارة الأموية الناشئة في عهد الخليفة المهدي 158-169هـ/ 775-785م ، وذلك عن طريق الاتفاق مع شارلمان الذي كانت له مصلحة في تأمين حدوده مع الأندلس ، وقد اشترك في هذه المؤامرة اثنان من القادة المحليين بتحريض من الخليفة المهدي ، وهما عبد الرحمن بن حبيب المعروف بالصقلبي وسليمان بن يقظان الكلبي حاكم مدينة سرقسطة . وكانت الخطة أن يقوم شارلمان بغزو شمال شرق الأندلس وفي نفس الوقت يعبر بن حبيب من المغرب بأسطول يحمل أنصاره ويهاجم الساحل الشرقي للأندلس ويسيطر على مدينة مرسيَّة ويعلن ضم الأندلس للدولة العباسية. إلا أن صعوبة المواصلات والاتصالات حالت دون تنفيذ الهجوم من الأطراف الثلاثة في وقت واحد وذلك مكّن الدّاخل من القضاء عليها منفردة واضطر شارلمان إلى الانسحاب مسرعاً إلى بلاده بعد تكبده خسائر في مؤخرة جيشه.

ثالثاً: حركة السيعة 151هـ/768م .

قام بهذه الحركة رجل يدعى شقيا بن عبد الواحد المكناسي ، وقد استمرت هذه الثورة لمدة عشر سنوات وعمَّت وسط وشمال الأندلس ، وقد ادعى هذا الثائر أنه من نسل السيدة فاطمة وأنه شيعي يُسمى عبد الله بن محمد ، وقد عُرف بالفاطمي ، وجرت بين الطرفين عدة معارك ولكن الدّاخل تمكّن في نهاية المطاف من القضاء على قائد هذه الثورة عن طريق الحيلة ، فتم اغتياله في سنة 160هـ/777م .

رابعاً: الثورة في أشبيلية:

قام بهذه الثورة أنصار أبوالصباح اليحصبي أحد زعماء اليمنية الذين قتلهم الدّاخل نظراً لتآمرهم عليه ، وقاد هذه الثورة ثلاثة زعماء ، وهم حيوة ابن ملاس الحضرمي وعبد الغفار اليحصبي وعمرو بن طالوت حاكم مدينة باجة ، وقد تمكّن الدّاخل بعدة معارك من القضاء على هذه الثورة وهذا الحلف الثلاثي.

خامساً مؤامرة بعض أسرته

دبّر هذه المؤامرة أحد أولاد أخيه واسمه المغيرة بن الوليد بن معاوية بالاشتراك مع آخرين من أفراد الأسرة الأموية سنة 168هـ/385م ، وقد تمكّن الدّاخل من القضاء على أفراد هذه المؤامرة ونفى بعضهم إلى خارج الأندلس.

يُعتبر عبد الرحمن الدّاخل أول من عمل بجد على نشر الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، فرغم مشاكله الداخلية عمل منذ توليه الإمارة في الأندلس على توطيد الأمن والاستقرار وهما من أهم عوامل قيام هذه الحضارة، واهتم بشكل خاص بتشييد الحضارة الأندلسية على الطراز الأموي فطوّر قرطبة ونظمها وأنشأ بها الجامع الكبير سنة 168هـ/385م الذي

كلّفه80000 دينار بالإضافة إلى إنشاء الكثير من المنشآت الأخرى.

في سنة 172هـ/788م توفي عبد الرحمن الدّاخل وتولى بعده ابنه هشام 172-180هـ/788-796م عملاً بوصية غامضة هي أن يتم تسليم الخاتم لمن يسبق إلى قرطبة من ابنيه سليمان الذي كان موجودا في طليطلة أو هشام الذي كان في ماردة وقد وصل هشام أولاً وتسلم البيعة وأصبح أميراً على الأندلس ، ولكن هذا رُفض من أخيه سليمان وهو أكبر منه سناً ويؤيده الشاميون ، وعلى أية حال أدت هذه السياسة إلى حرب بين الأخوين انتهت بهزيمة سليمان والاتفاق مع أخيه على التعويض بأموال والعيش في المغرب في المنفى.

ركّز الأمير هشام على إقرار الأمن في الأندلس والقضاء على أيّ حركة غزو ضد حكمه ، وأرسل عدة حملات إلى شمال الأندلس لصد هجمات الأسبان نحو الجنوب. وعندما توفي هشام في سنة 180هـ /796م تولى بعده ابنه الحكم الأول المعروف بالرّبضي (180-206هـ/796-821م) وقد تميز عهد الحكم بثلاثة أمور رئيسة ، وهي كثرة الفتن والثورات واهتمامه بالغزو والجهاد وعدم اكتراثه أو اعتماده على الفقهاء فأدى إلى غضبهم ومعارضتهم لإدارته للأندلس. وقد عُرف الحكم بالشدة والقسوة المتناهية مع حزم وعزم منقطعي النظير. والحكم هو أول من جلب الجنود المرتزقة إلى الأندلس حتى بلغ عددهم 3000 فارس وألف راجل ، وجعل قوة من ألف فارس تُرابط أمام قصره بصفة دائمة لقمع أي تمرد ضد حكمه.

وقد جرت في عهده أحداث ذات خطورة الذي دام 26 سنة ، ومن الأحداث ثورة عميه عبد الله وسليمان اللذين استغلا ظروف وفاة هشام وعبرا إلى الأندلس من المغرب ، فأعلن عبد الله الثورة في بلنسية وسرقسطة وطلب المساعدة من الفرنجة ولكن شارلمان لم يقدّم له المساعدة ففشلت ثورته ، أما سليمان فقد اتجه إلى مدينة إستجة ولكن هُزم مرتين وتم أسره وأمر الحكم بإعدامه سنة 184هـ/804م وانتهت ثورة عبد الله بالتصالح مع الحكم والعيش في بلنسية حيث عُرف بعبد الله البلنسي.

في سنة 189هـ/804م فعل الفقهاء الساخطون على الحكم، لعدم الأخذ برأيهم مثلما كان يفعل والده هشام ، وكذلك اتهامه بسوء السلوك والقسوة، وأخذ هؤلاء الفقهاء يؤلبون الناس ضد حكمه ويتهكمون عليه ، وعقدوا سلسلة من الاجتماعات قرروا فيها عرض الإمارة على أحد الأمويين هو محمد بن القاسم الذي تظاهر بأنه يوافقهم على رأيهم ولكنه أبلغ الحكم بخطتهم فقبض عليهم وأعدم 72 منهم.

وقد عُرفت هذه الحادثة بثورة الربضي الأولى. وفي سنة 202هـ/ 817م 817م ، إستغل سكان حي الربضي حادثة قتل أحد حرّاس الحكم لأحد الحدّادين فثار سكان هذا الحي وزحفوا إلى قصر الحكم واشتبكوا مع الحرّاس وكادوا يقتحمون مقره إلا أن الحكم أصدر أمره لقوة من حرسه بالالتفاف على الثوار وإشعال النار في حي الربض فأجبر الثوار على التراجع لإنقاذ اسرهم وممتلكاتهم ، ولما تراجع الثوار أصبحوا بين قوتين من قوات الحكم الذي أصدر أمره بإنزال أكبر ضربة بهم فمات منهم الكثير وفر العديد منهم إلى المغرب وخصوصاً إلى فاس حيث أسسوا حياً عُرف بعدوة الأندلسيين وذهب جزء منهم إلى الإسكندرية واحتلوها ثم رحلوا عنها إلى جزيرة كريت سنة 212هـ/827م حيث أسسوا بها جمهورية إسلامية استمرت لمدة 150 سنة حتى سنة 350هـ/961م أما حيَّ الرَّبض فقد أمر الحكم بهدمه وجعله مزرعة ظلت على نفس الحال لأكثر من مائة عام.

في سنة 181هـ/797م قامت ثورة في مدينة طليطلة التي كانت دائما على رأس المدن الثائرة ضد الأمويين ؛ لأنها كانت عاصمة القوط وتتركز فيها أغلبية غير عربية وغير مسلمة وبسبب مناعة أسوارها ووقوعها فوق هضبة عالية مطلة على نهر التاج ، ويؤكد لنا المؤرخ ابن خلدون هذا فيقول: " كان أهل طليطلة يكثرون الخلاف ونفوسهم قوية لحصانة بلدهم..". قاد هذه الثورة رجل يدعى عبيدة ابن حميد ، فاستدعى الحكم قائده عمروس بن يوسف الذي تمكّن عن طريق الخديعة من القضاء على الثورة وقتل قائدها وكذلك دبّر مكيدة للتخلص من أعيان المدينة فاستغل فرصة مرور ولي العهد عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط فيما بعد) بالمدينة ودعى إلى حفل استقبال للأمير وجعل الدخول من باب والخروج من باب آخر ، وبينهما حفر حفرة عميقة كان يرمي فيها من انتهى من السلام على الأمير الزائر ، وقتل بهذه الطريقة 700 من زعماء مدينة طليطلة ، وقد أثرت هذه المذبحة على المدينة فظلت هادئة لمدة 15 سنة.

اشتعلت الثورة في مدينة سرقسطة سنة 181هـ/797م التي كانت تحصل على مساعدات من الفرنجة لقربها منهم ، إلا أن القائد عمروس تمكّن من إخماد هذه الثورة وقتل زعمائها. وفي سنة 190هـ/805م حدث تمرد في مدينة ماردة بزعامة رجل يُعرف بابن وانسوس فقاد الحكم بنفسه حملتين ضد هذه المدينة تمكّن في سنة 197هت/812م من إخمادها.

أما علاقة الحكم مع الدويلات الأسبانية والفرنجة فقد ظلت عدائية ، لذلك نراه يجرد عدة حملات عسكرية في سنة 180هـ/796م ضد

مدينة فلهرة ومنطقة أستورياس ، وفي سنة 185هـ إلى جليقية وبرشلونة وفي سنة 187هـ/802م إلى منطقة ألبة والقلاع ، وفي سنة 192هـ/807م إلى جليقية وفي 194هـ/809م إلى منطقة البرتغال ، وكانت آخر حملاته في سنة 200هـ/815م على وادى الرون.

في سنة 206هـ/822م توفى الأمير الحكم وأوصى بالإمارة إلى ابنه عبد الرحمن الذي عُرف باسم عبد الرحمن الثاني أو الأوسط 206هـ/ 822م-238هـ/852م.

تولى الأمير عبد الرحمن الأوسط الإمارة وهو شاب في سن الثلاثين من عمره وتميز عهده الطويل بأحداث خطيرة سياسية وحضارية ، يمكن اختصارها فيما يلي:-

- انتقال الحضارة العباسية من الشرق إلى الأندلس.
- ظهور حركة الجهاد البحري ضد النورماند الذين هاجموا مدينة إشبيلية سنة 230هـ/844م.
- إقامة علاقات مع الدولة البيزنطية.
- فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة.
- بروز الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب من جديد.

" الأمير عبد الرحمن الأوسط هو الذي استكمل فخامة المُلك وترتيب الخدمة بالأندلس وكسا الإمارة أبهة الخلافة ، وظهر في أيامه الوزراء وأهل الكور وشيّد القصور وجلب المياه من الجبل وبنى الرصيف على الوادي الكبير" كما يصفه بن عذارى.

توفى الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة 238هـ/852م ، وأوصى بالإمارة لابنه الأكبر محمد 338-273هـ/862-884م وقد جرت في عهده العديد من الثورات والأحداث المهمة منها الثورة في طليطلة التي كانت دائماً مستعدة للتمرد ففي سنة 238هـ/862م استغلت فرصة وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط وأعلنت تمردها على الأمير الجديد محمد الذي أرسل إليهم جيشا بقيادة ابنه الحكم ولكن هذا الجيش لقي هزيمة على أيدي الطليطليين فاضطر الأمير إلى أن يقود جيشا قويا بنفسه ، وتحالفت طليطلة مع ملك جليقية ، ولكن الأمير محمد وجه ضربة شديدة للملك الأسباني وحلفائه سكان طليطلة فقتل منهم 20 000 ثمانية آلاف من جليقية و 12 ألفا من طليطلة. لكن المدينة ظلت على عدائها للأمويين ، ففي سنة 241هـ/855م أرسل إليهم الأمير محمد جيشاً آخر قتل 700 منهم وفي سنة 244هـ/858م خرج الأمير محمد بنفسه وحاصر المدينة ودبر لهم مكيدة حيث دمر جسرا في المدينة فمات غرقاً قسم

كبير من أهل طليطلة مما جعل المدينة تطلب الأمان سنة 245هـ/859م.

وفي مدينة ماردة أعلن عبد الرحمن بن مروان الجليقي وثائر آخر التمرد على الإدارة الأموية وتمكنا من هزيمة الجيش الذي أرسل من قرطبة بقيادة الحاجب هاشم بن عبد العزيز الذي أسره الثوار وسلموه إلى ملك: جليقية حيث بقي اسيراً لمدة سنتين افتُدي بعدهما بمبلغ 000 199دينار.

في سنة 236هـ/876م أرسل الأمير محمد قوة بقيادة ابنه المنذر تمكنت من القضاء على التمرد في ماردة وعقد صلح مع الثوار . وفي سنة 258هـ/876م قام تمرد في مدينة سرقسطة بقيادة بني لُبّ، فأرسل الأمير محمد جيشاً بقيادة حاجبه هاشم بن عبد العزيز الذي تمكّن من هزيمتهم وعقد صلح بين الطرفين ، بموجبه يحكم بني لُبّ سرقسطة مع الأعتراف بسلطة الأمير محمد.

في 267 هـ/880 م قامت ثورة بن حفصون التي استمرت حتى 316 هـ/928 م وعمربن حفصون قائد هذه الثورة من المولدين الذين دخلوا في الإسلام وأعتنق جده جعفر الإسلام أيام الأمير الحكم الأول. وقد أظهر عمر ابن حفصون طموحا سياسيا كبيرا. وعاش بن حفصون لبعض الوقت في مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط ، ثم عاد منها وأعلن تمرده على السلطة الأموية واتخذ من حصن ببشتر Babastro بين مالقة ورندة مقرا له وأخذ يشن غاراته على المدن والقرى حتى ذاع صيته. ورغم محاولة عامل إقليم ريَّة القضاء على الثورة في مهدها فإن ابن حفصون كسب عدة انتصارات رفعت من سمعته ومكانته.

في 270هـ/883 م تمكن الأمير محمد من هزيمة بن حفصون وأسره وأخذه إلى قرطبة حيث عاش لبعض الوقت ، إلا أنه فر من جديد وعاد إلى حصنه القديم حيث حاصره الأمير المنذر الذي أضطر إلى فك الحصار والعودة إلى قرطبة عقب وفاة والده الأمير محمد 273هـ/884م.

عندما غزا النورماند الأندلس من جديد 245هـ/859 م تصدى لهم الأمير محمد ، واشتبك الأسطول الأموي مع سفنهم التي هاجمت مدينة إشبيلية بالجزيرة الخضراء ثم الشاطئ المراكشي ومدينة مرسية ، وأوقع الأسطول الأموي خسائر كبيرة بالنورماند حيث فقدوا 40 سفينة من أسطولهم.

على الرغم من الثورات التي قامت ضد إدارته في مختلف المدن الأندلسية فإن الأمير محمد واصل سياسة الجهاد ضد المد الأسباني نحو الجنوب فنراه يجرد الحملات المتكررة سنويا ضد الشمال لإيقاف الزحف على المدن الإسلامية.

اتبع الأمير محمد سياسة إدارية موفقة ، فنراه يتبع سياسة التروي والحلم وكظم الغيظ ، و لم يكن يقبل السعاية أو الوشاية ، وكان يقال عنه " إنه لا يسمع من ساع ولا يلتفت إلى قول رام يسمعه. وكان حريصاً على التثبت من الأمور ، وكان يقول لحاجبه :– من آثر السرعة أفضت به إلى الهفوة.. ورب عجلة أعقبت ندما".

خَلَف الأمير محمد ابنه المنذر 273-275 هـ/ 884-886م ، وكان وقتها يحاصر الثائر بن حفصون في حصن الحامَة. ومن أهم الأحداث في عهد الأمير المنذر استمرار ثورة ابن حفصون حيث اضطر الجيش الأموي إلى فك الحصار والرجوع إلى قرطبة إثر وفاة الأمير محمد فعاد بن حفصون إلى تمرده واتصل ببعض الثائرين الآخرين للتنسيق معهم للإطاحة بالحكم الأموي فاستولى على مدينة باغة وجبل شيبة وحصل منها على أموال كثيرة ساعدته على الاستمرار في ثورته.

أخذ بن حفصون يتودد للناس ويعلن أنه ثار من أجل تخليصهم من العبودية والأخذ بثأرهم فقال: " طالما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدكم ، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم".

وقد كسب بن حفصون تأييدا واسعا بسبب سياسة تودده هذه للناس. وجه الأمير المنذر عدة حملات ضده فقاد جيشا بنفسه سنة 274هـ/ 887م وفرض عليه حصارا قويا في حصن ببشتر وقضى على بن عيشون حليف بن حفصون بمدينة أرشذونة والقضاء على بني مطروح وأسر منهم 22 رجلا صلبهم على أسوار قرطبة.

وفي سنة 275هـ/886م قصد حصن ببشتر وفرض عليه حصاراً شديداً حتى كاد يسقط في يده ولكن موته المفاجئ أنقذ بن حفصون مرة أخرى.

تولى بعد الأمير المنذر أخوه الأمير عبد الله بن محمد 275-300هـ/888-912م ، ومن أهم الأحداث استمرار ثورة بن حفصون الذي استفاد كثيراً من موت الأمير المنذر واعتبر ذلك خدمة من القدر له فقويت شوكته وارتفعت مكانته وجدد الأمير عبد الله عدة حملات عسكرية ولكنه لم يستطع الانتصار عليه وظلت ثورة بن حفصون مشتعلة رغم تجاوز هذا القائد سن الخمسين من عمره.

اتّبع بن حفصون سياسة انتهازية فكان يستخدم كل الوسائل لكي يصل إلى غايته ، فتراه تارة يدعو للعباسيين ويتصل بالأغالبة في أفريقية وبعدهم الفاطميين تسلّم منهم الدعم المادي والمعنوي

والعسكري ، ومرة أخرى يتصل بملك جليقية الأسباني ويعرض عليه ولاءه مقابل دعمه المادي والعسكري لثورته ووصل به الأمر إلى أن أعلن ارتداده عن الإسلام واعتناقه المسيحية لكي يثبت إخلاصه لملك جليقية.

غير أن إعلان بن حفصون الارتداد عن الإسلام قد أضره كثيراً من الناحيتين السياسية والعسكرية ، فتخلى عنه حلفاءه الأغالبة والفاطميون بعدهم واعتبروه خارجاً عن الإسلام يجب محاربته ، فجاء كثيرون من المغرب للجهاد ضده ، وفي هذا الخصوص يقول بن عذارى: " تبرأ منه خلق كثير... ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد فتتابعت عليه المغازي بالصوائف والشواتي..." ورغم ذلك استمرت ثورته حتى سنة 316هـ/928م حيث تمت هزيمته على أيدي الأمير عبد الرحمن الثالث.

واجه الأمير عبد الله كذلك عدة ثورات في مناطق مختلفة من الأندلس ، فيذكر لنا المؤرخ النويري أنه كانت أيام الأمير عبد الله فتن عظيمة وكثُر قيام الثوار عليه حتى لم يبق في يده إلا مدينة قرطبة وحدها ، وخالف عليه أهل أشبيلية وشذونة ، ولم تبق مدينة إلا خالفت عليه..." وقلّ رجال الأمير عبد الله بن محمد وذهب عنه من كان يلوذ به وبأبنائه من الموالي والأصحاب وقلت الأموال في يده لخروج أهل المدن وامتناعهم عن أداء الخراج له ومن هذه الفتن في أشبيلية حيث حدث صراع بين العرب والمولدين والنزاع في البيرة بين العرب والمولدين، والثورة في ماردة وتدمير وفي سرقسطة.

وعندما توفى الأمير عبد الله بن محمد سنة 300هـ/912م آلت الإمارة بعده لحفيده عبد الرحمن بن محمد الذي عُرف بعبد الرحمن الثالث أو الناصر 300-350هـ/912-961م .

تولى عبد الرحمن الثالث (الناصر فيما بعد) الإمارة في ظروف صعبة فكانت الأندلس مضطربة بالثائرين والفتن والمؤامرات ، وكما وصفها بن عذارى: "جمرة تحتدم ونار تضطرم شقاقاً ونفاقاً، فأخمد نيرانها وسكّن زلازلها...".

لقد اختاره جده الأمير عبد الله بن محمد للإمارة من دون أبنائه ؛ لما لمسه فيه من الذكاء وقوة العزيمة والشجاعة الخارقة ، وكان عمره يوم تولى الإمارة ثلاثا وعشرين سنة.

أصدر عبد الرحمن الثالث يوم توليه الإمارة بياناً عاماً للناس في الأندلس بيّن فيه برنامجه السياسي والإداري في الحكم ، وقام هذا البرنامج على سياسة الوعد والوعيد والترغيب والترهيب وقد خص ببيانه هذا المتمردين على السلطة الأموية وأرسل بيانه هذا أو برنامج عمله بواسطة وفود إلى عدة مناطق بالأندلس لطلب البيعة وشرح برنامجه والخضوع لحكمه ، وقد نجحت هذه السياسة إلى

حد كبير وتحدد بموجبها الجهات التي كان عليه توجيه ضربات عسكرية سريعة لها.

ومن أهم المشاكل التي واجهته:

- استمرار ثورة بن حفصون: عندما لم يعترف ابن حفصون ببيعته قاد عبد الرحمن الثالث جيشاً قوياً بنفسه واستطاع في هذه الحملة السيطرة على أغلب الحصون والمناطق التي استولى عليها ابن حفصون ولكن بقى حصن ببشتر المنيع تحت حكم بن حفصون الذي تركه الناصر محاصراً ورجع إلى قرطبة بعد أن أخضع سبعين حصناً وقلعةً.

- السيطرة على أشبيلية: كانت هذه المدينة تحكمها أسرة بني الحجاج مستقلةً عن الإمارة الأموية في عهد الأمير عبد الله. ففي سنة 301هـ/913م أرسل عبد الرحمن الثالث قائد شرطته قاسم بن الوليد على رأس حملة إلى أشبيلية التي طلبت المساعدة من بن حفصون الذي قاد قوة لمساعدة المدينة ، ولكن عبد الرحمن الثالث هزم بن حفصون واحتل إشبيلية.

على الرغم من الضربات القاسية التي سددها الأمير عبد الرحمن الثالث لابن حفصون فإن الثائر العجوز ظل يقاوم الإمارة الأموية ، ولهذا قرر الأمير عبد الرحمن الثالث القضاء عليه بكل الوسائل ، ولما رأى بن حفصون إصرار الأمير عبد الرحمن على القضاء عليه وفي نفس الوقت ضعف موقفه قرر الاعتراف والذهاب شخصياً إلى قرطبة سنة 303هـ/915م ، وهكذا خضع بن حفصون الذي توفى سنة 306هـ/918م غير أن ابنه جعفر بن حفصون تمرد من جديد ، إلا أن غياب شخصية ابن حفصون أدت إلى ظهور خلافات بين أفراد الأسرة الحفصية مما أدى إلى اغتيال جعفر واختير أخوه سليمان الذي وافق عليه الناصر ، ولكن سليمان هذا تمرد هو أيضاً وتمكن الأمير عبد الرحمن الثالث من القضاء عليه سنة 315هـ/928م وهكذا انتهت هذه الثورة التي استمرت نصف قرن ضد الإدارة الأموية.

وبالقضاء على ثورة بن حفصون استطاع الأمير عبد الرحمن الثالث أن يوحّد الأندلس ويقضي على المتمردين الذين جاءوه طائعين خاضعين لسلطته المركزية ، وقد استتب الأمن والاطمئنان في كل مكان وذلك أدى إلى زيادة الثروة والعمران.

وقد احتفل الأمير عبد الرحمن الثالث بالقضاء على بن حفصون وتلقب بالناصر ، وأعلن نفسه خليفة أسوة بالفاطميين العباسيين ابتداء من سنة 316هـ/928م وبذلك دخلت الأندلس والدولة الأموية في طور جديد، هو طور الخلافة الأموية الذي استمر حتى 399هـ/1008.

إمارة برغواطة

قامت هذه الإمارة في القرن الثاني للهجرة في المنطقة التي تسمى إقليم تامسنا ، والتي تبدأ من موقع مدينة الرباط الحالية حتى أزمو ، وكانت لبعض الوقت تتخذ من مدينة شالة عاصمة لها.

يقول بعض المؤرخين : إن اسم برغواطة ليس اسماً لقبيلة واحدة ولكنه اسم لإخلاط من القبائل التفوا حول شخص يسمى صالح بن طريف ين شمعون البرباطي (أي من وادي برباط في جنوب الأندلس). ادعى صالح بن طريف النبوة وأسس ديانة خاصة وهي خليط من اليهودية والإسلام المحرّف وأصبح أتباعه يُدعون بالرباطيين نسبة إليه ، حُرِّفت إلى برغواطة ، لكن بن خلدون يرفض ذلك ويقول : إن برغواطة أحد فروع قبيلة مصمودة وإن ملوكها كانوا من مصامدة المغرب وليس الأندلس.

غير أن البكري الذي كان معاصراً لهذه الدولة والذي كان قد اطّلع على تقرير كتبه سفير هذه الدولة أبو صالح زمور البرغواطي الذي وفد على الخليفة الحكم المستنصر بالأندلس عام 352هـ/963م) يؤكد أن مؤسس هذه الدولة هو طريف بن شمعون الذي سُميت باسمه جزيرة طريف وكان قد اعتنق الاسلام على مذهب الخوارج ثم خلفه ابنه صالح على إقليم تامسنا الذي ادعى النبوة وشرّع لقبيلة برغواطة ديناً جديداً بلغتهم.

لقد اعتبر الولاة والحكام المسلمين بالمغرب والأندلس هذه الدولة وأتباعها مجوساً منحرفين خارجين عن الإسلام وأجازوا حربهم والجهاد ضدهم. ولهذا نجد كل حكام دول الأدارسة والأمويين وبني مدرار والفاطميين والزيريين والزناتيين قد خاضوا حروباً جهادية ضد برغواطة حتى انهكوها وأفنوها تقريباً ثم تمكن المرابطون من القضاء عليها نهائياً عندما سيطروا على المغرب.

ا.د. إدريس الحرير

(جامعة قاريونس)

الأسر الإسلامية الحاكمة
132-350هـ/750-961

أولاً العباسيون

- أبو العباس عبد الله السفاح 132-136هـ/750-754
- أبو جعفر عبد الله المنصور 136-158هـ/754-775
- أبو عبد الله محمد المهدي 158-169هـ/775-785
- أبو محمد موسى الهادي 169-170هـ/785-786
- أبو جعفر هارون الرشيد 170-193هـ/786-809
- أبو موسى محمد الأمين 193-198هـ/809-833
- أبو جعفر عبد الله المأمون 198-218هـ/813-833
- أبو إسحاق محمد المعتصم 218-227هـ/833-842
- أبو جعفر هارون الواثق 227-232هـ/842-847
- أبو الفضل جعفر المتوكل 232-247هـ/847-861
- أبو جعفر محمد المستنصر 247-248هـ/861-862
- أبو العباس احمد المستعين بالله 248-251هـ/862-866
- أبو عبد الله محمد المعتز 251-255هـ/866-869
- أبو إسحاق محمد المهتدي 255-256هـ/869-870
- أبو العباس أحمد المعتمد 256-276هـ/870-892
- أبو العباس أحمد المعتضد 276-289هـ/892-902
- أبو علي محمد المكتفي 289-295هـ/902-908
- أبو الفضل جعفر المقتدر 295-320هـ/908-932

ثانياً: بنو واسول أو مدرار

- أبو القاسم سمغون (سمكو) 155-168هـ/722-784
- أبو الوزير إلياس بن أبي القاسم 168-174هـ/784-790
- أبو المنصور اليسع الأول 174-208هـ/790-823
- مدرار المنصور 208-253هـ/823-867

- عبد الرحمن ميمون 253-254هـ/867-868
- ميمون الأمير (ابن بقية) 253-263هـ/868-876
- محمد بن ميمون 263-270هـ/876-883
- إلياس الثاني المنتصر 270-296هـ/883-909

ثالثاً: الأئمة الرستميون

- عبد الرحمن بن رستم 144-171هـ/762-788
- عبد الوهاب بن رستم 171-208هـ/788-824
- أبو سعيد أفلح بن عبد الوهاب 208-240هـ/824-855
- أبو بكر بن أفلح 240-241هـ/855-856
- أبو اليقظان محمد 241-281هـ/856-895
- أبو حاتم يوسف 281-294هـ/895-907
- اليقظان بن محمد 294-296هـ/907-909

رابعاً: الأدارسة

- إدريس بن عبد الله 172-177هـ/789-793
- إدريس بن إدريس 177-213هـ/793-828
- محمد المنتصر 213-221هـ/828-836
- علي بن محمد الأول 221-234هـ/836-849
- يحيى بن محمد الأول 234- هـ/849-
- يحيى الثاني بن يحيى الأول ؟
- علي بن عمر بن إدريس الثاني ؟
- يحيى الثالث المقدم ؟
- يحيى الرابع بن إدريس بن عمر 292-310هـ/904-922

خامساً: الأغالبة

- إبراهيم بن الأغلب	184-197هـ/800-812
- أبو العباس عبد الله	197-201هـ/812-816
- أبو محمد زيادة الأول	201-223هـ/816-837
- أبو عقال الأغلب	223-226هـ/837-840
- أبو العباس محمد الأول	226-242هـ/840-856
- أبو إبراهيم أحمد	242-249هـ/856-863
- أبو محمد زيادة الثاني	249-250هـ/863-864
- أبو عبد الله ابو الغرانيق أحمد الثاني	250-261هـ/864-875
- أبو إسحاق إبراهيم الثاني	261-289هـ/879-902
- أبو العباس عبد الله الثاني	289-290هـ/902-903
- أبو مضر زيادة الله الثاني	290-296هـ/903-909

سادساً: الأمويون في الأندلس

- عبد الرحمن الداخل (الأول)	136-172هـ/756-788
- هشام الأول بن عبد الرحمن	172-180هـ/788-796
- الحكم الأول بن هشام	180-206هـ/796-822
- عبد الرحمن الثاني بن الحكم (الأوسط)	206-238هـ/822-852
- محمد الأول بن عبد الرحمن	238-273هـ/852-886
- المنذر بن محمد	273-275هـ/886-888
- عبد الله بن محمد	275-300هـ/888-912
- عبد الرحمن بن محمد الثالث/ الناصر	300-350هـ/912-961

المصادر والمراجع

1)المصادر:

1- ابن الأثير، أبو الحسن علي الجزري (ت. 630هـ/1232)، الكامل في التاريخ. حرّره عبد الوهّاب النجّار القاهرة : إدارة الطباعة المنيرية 1928.

2- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت.808هـ/1406)، تحقيق داغر بيروت: دار الكتاب اللبناني 1959.

3- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن (ت.257هـ/871)، فتوح أفريقية والأندلس. حققه أنيس الطباع بيروت: دار الكتاب اللبناني 1964.

4- ابن عذارى، المراكشي(ت.حوالي 712هـ/1312)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق كولان ولفي بروفنسال بيروت: دار الثقافة 1967.

5- ابن الخطيب، لسان الدين (ت.776هـ/1374)، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد الكتاني الدار البيضاء ودار الكتاب 1964.

6- ابن الأبّار، عبد الله بن محمد (ت.658هـ/1260)، الحلّة السّيراء. تحقيق حسين مؤنس القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر 1963.

7- أابن الصغير، تذكر بعض الأخبار في الأئمة الرستميين. حققه متونلسكي الجزائر 1905

8- ابن القوطبة، أبوبكر محمد (ت.القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي)، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق الطباع بيروت 1957.

9- ابن أبي زرع، على الفاسي (ت.741هـ/1340)، الأنيس المطرب بمروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة 1973.

10- البغدادي، أبو منصور عبد القادر (ت.429هـ/1307)، الفرق بين الفرق. تحقيق محمد عبد الحميد القاهرة: مكتبة محمد صبيح 1964.

11- البكري أبو عبيد الله (ت. 487هـ/1094)، المغرب في ذكر أفريقية

والمغرب، حققه ديسلان، الجزائر: مطبعة الحكومة 1857.

12- ابن حوقل، أبو القاسم (ت. 367هـ/977)، صورة الأرض. بيروت: مكتبة الحياة 1979.

13- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم (ت. 341هـ/952)، كتاب الأقاليم. تحقيق مولر وجونييه لايدن 1967.

14- ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين (ت.681هـ/1382)، وفيات الأعيان. حققه إحسان عباس بيروت: دار الثقافة 1972.

15- الدرجيني، أبو العباس أحمد (ت. القرن السابع الهجري/الثالث عشر)، طبقات مخطوط القاهرة. دار الكتب رقم ح12561.

16- الشماخي، أحمد (ت.928هـ/1521)كتاب السيّر ، مخطوط القاهرة. دار الكتب رقم 762.

17- الطبري، أبو جعفر محمد (ت.310هـ/922)، تاريخ الرسل والأمم والملوك. حرره محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة: دار المعارف 1967.

18- المسعودي، أبو الحسن (ت. 346هـ/957)، مروج الذهب. حققه داغر ، بيروت: دار الأندلس 1965.

19- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله (ت. 387هـ/997)، أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم. لايدن 1906.

20- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. حققه سعد زغلول عبد الحميد الإسكندرية: مطبعة جامعة الاسكندرية 1956.

21- المقري، التلمساني(ت.1041هـ/1631)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس بيروت 1968.

22- الناصري، أبو العباس أحمد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. حققه جعفر الناصري ومحمد الناصري (ت. 1315هـ1897)، الدار البيضاء: دار الكتاب 1954.

23- النويري شهاب الدين أحمد (ت. 733هـ/1332)، نهاية الأرب في فنون الأدب. ترجمة جامبار ريميرو غرناطة 1917.

24- القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن الرقيّق (ت. 417هـ/1026م)، تاريخ أفريقية والمغرب. حققه المنجي العربي تونس: مكتبة رفيق السقطي 1965.

25- الورجلاني، أبو زكريا يحيى (ت.471هـ/1078م)، كتاب السيرة وأخبار الأئمة. مخطوط القاهرة رقم ح 9030.

26- ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت. 626هـ/1228م)، معجم البلدان. ج3 بيروت: دار صادر 1979.

2) المراجع:

1- أبو مصطفى، كمال السيد، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب 2003.

2- بل ، ألفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح حتى اليوم. ط.2. ترجمة عبد الرحمن بدوي بيروت: دار الغرب الإسلامي 1987.

3- الحرير، إدريس، الدولة الرستمية. رسالة دكتوراه قدمت لجامعةيوتا 1976.

4- زغلول، عبد الحميد سعد، تاريخ المغرب العربي. الإسكندرية نشأة المعارف 1979.

5- الصوفي، خالد، تاريخ الغرب في الأندلس، عصر الإمارة. بنغازي منشورات الجامعة الليبية 1980.

6- سالم، السيد عبد العزيز، المغرب الكبير ج2. بيروت: دار النهضة 1981.

7- الطالبي، محمد، الدولة الأغلبية، ترجمة المنجي الصيّادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1984

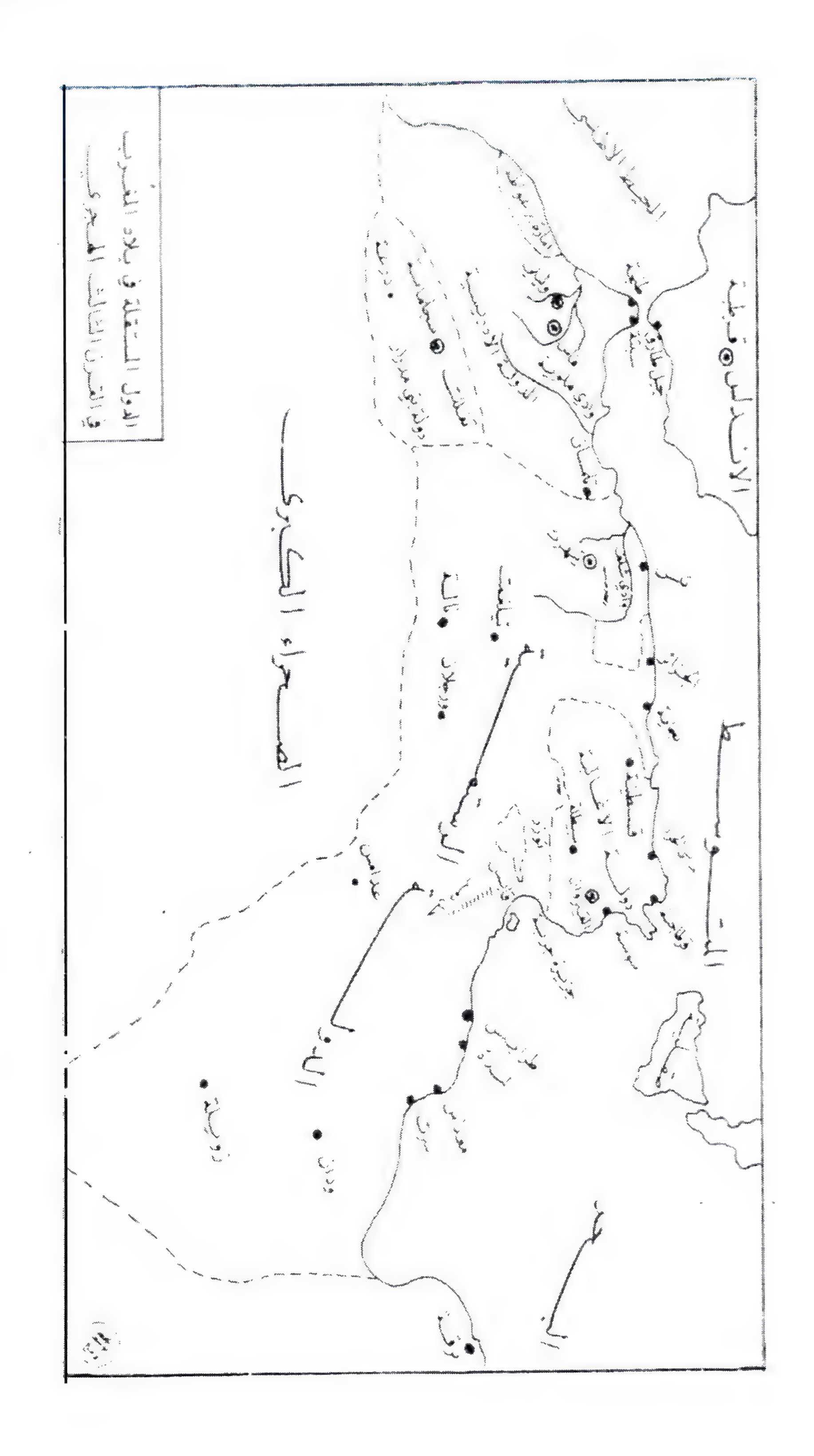
8- سالم، السيد عبد العزيز،تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس. بيروت: دار المعارف 1962.

9- العبادي، أحمد، مختار من تاريخ المغرب والأندلس. بيروت: دار النهضة العربية 1978.

10- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس القاهرة: مكتبة الخانجي 1997.

11- مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس. القاهرة: دار المستقبل 1980.

12- نعنعي، عبد الحميد، الدولة الأموية في الأندلس. بيروت: دار النهضة العربية 1986.



عبد العزيز الفيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ط 2

4)الخلافـــة الفاطـــمية: الدعــــوة في المغـــرب و إنشـــاء الدولـــة (296 – 362 هـ/ 909 – 975م)

نشأت الخلافة الفاطمية على أساس دعوة دينية سياسية ترجع أصولها إلى عهد عليّ بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ، أي إلى الفترة التي تمتد من سنة 35 هـ/656م إلى سنة 40هـ/661م ، والتي ازدادت خلالها نار الفتنة اشتعالا من أجل مقتل عثمان بن عفّان ثالث الخلفاء الراشدين واستفحل في أثنائها الخلاف على الخلافة بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام إذاك ، الذي تزعّم حزب المطالبين بدم عثمان مع عائشة أم المؤمنين وبعض كبار الصحابة ، منهم الزبير بن العوام و طلحة بن عبيد اللّه. وقد دارت بين عليّ بن أبي طالب وأتباع عائشة والزبير وطلحة معركة الجمل بناحية البصرة سنة 35 هـ/656م كان فيها النصر لعليّ ، وقتل فيها الزبير وطلحة ثم وقعت بينه وبين معاوية وأتباعه من أهل الشام يؤازرهم أتباع عمرو بن العاص من مصر معركة صفين الواقعة على مقربة من شاطئ الفرات الأيمن سنة 36هـ ومطلع سنة 37هـ/657م ، وفيها كان الفوز لمعاوية إثر اللجوء إلى التحكيم بالقرآن ، عندها خلع عليّا نائبه أبو موسى الأشعري و لم يخلع معاوية عمرو ابن العاص نائبه في التحكيم ، وفيها خرج الخوارج على عليّ بن أبي طالب لقبوله التحكيم بالقرآن ، وتكوّن بخروجهم حزب ثالث هو حزب الخوارج إلى جنب حزب شيعة عليّ بن أبي طالب (أي أتباعه) وحزب معاوية المعارضين لخلافة عليّ بن أبي طالب.

واحتدّ بعد معركة صفّين الخلاف على الخلافة بين ثلاثة أحزاب: حزب عليّ بن أبي طالب بتأييد من بني هاشم وأهل العراق، وحزب معاوية بن أبي سفيان بتأييد من أهل الشام وأهل مصر وزعيمهم عمرو بن العاص، وحزب الخوارج بمن فيه من جموع الأزد وطيئ وعبس الرافضين للتحكيم يقودهم عبد اللّه بن وهب الراسبي ويعزز صفوفهم جماعة من الصحابة وأهل العلم من المهاجرين والأنصار، وصار عندئذ في واقع الحياة السياسية المضطربة الحكم للسيف بين المتنازعين على الخلافة ، و لم يكن الاحتجاج بالقرآن من قبل كل حزب إلاّ تبريرا لحكم السيف.

وإذ فاز بالخلافة حـــزب معاويـــة ابـــن أبي سفيان فإنّه حوّل مركزها مـــن الحجـــاز إلى الشام وجعـــل عاصـــمتها دمـــشق بـــدلا عـــن المدينة، و لم يلبـــث أن أخـــذ يرتّـــب وظائفهـــا ترتيبا ملكيا على غرار أنظمـــة الحكـــم المعروفـــة إذاك عند الـــروم والفـــرس ، وتـــصدى لقتـــال

شيعة عليّ بن أبي طالب بالعراق وكذلك الخوارج وأحكم نظام الدولة على أساس الوراثة في آل أبي سفيان وقبيلة بني أمية بتعيين ابنه يزيد وليّا لعهده، وعظمت في أيامه وفي أيام ابنه يزيد مقاتل الطالبيين لاسيما بمقتل الحسين بن عليّ بن أبي طالب بكربلاء، وتولّد عندئذ عن اضطهاد الطالبيين لجوؤهم إلى الدعوة السرية ودخلت حركة الشيعة في فترة عصيبة ، وتفرعت فرقتهم إلى فرق عديدة يتراوح موقفها من السلطة المروانية الحاكمة بين المعارضة الشديدة والاعتدال وعظم في منتصف القرن الثاني شأن فرقة من الشيعة تدعو إلى أحقية العباس عمّ الرسول (ﷺ) وذريته بالخلافة وتعزز جانب هذه الفرقة بجموع غفيرة من أهل خراسان اتخذت من الانتماء للحركة الشيعية مطيّة للإفصاح عن نقمتها العنصرية على احتكار العرب في ظل حكم بني أمية عامة والمروانيين خاصة للسلطة في الدولة الإسلامية.

وإذ قوي جانب النزعة العباسية بتأييد الخراسانيين - فاضطلعت بقيادة الصراع العنيف مع بني أمية فى حين دبّ إلى دولتهم داء الهرم فضعف سلطانهم - لم يلبث أن آل الأمر إلى العباسيين ففازوا بالخلافة وأقصوا عنها العلويين بني عمومتهم وأهل عصبيتهم فانتقل الحكم هكذا من بني أمية إلى بني هاشم ، ولكن إلى فرع بني العباس لا إلى بني أبي طالب.

عندئذ دخل العلويون في طور المعارضة العنيفة لبني عمومتهم العباسيين ، كما كانوا يعارضون أعداءهم الأمويين، فلم يجد بنو العباس بدّا بعد أن فازوا دونهم بالخلافة وأمسكوا بمقاليد السلطان أن صاروا يطاردون العلويين ويضطهدون أشياعهم وأجروا الحكم على المنهاج السنّيّ الرسمي الذي كان معاوية بن أبي سفيان قد انتهجه عندما أسس الدولة بعد فوزه على عليّ بن أبي طالب ، والذي سار عليه من بعده الخلفاء من البيت المرواني الأموي ولاسيما عبد الملك بن مروان الذي استطاع أن يقهر الزبيريين الذين قاموا بمكة يطالبون أيضا بالخلافة (حتى استطاع من بينهم عبد الله بن الزبير أن يدّعي الخلافة بها طَوَال تسعة أعوام) وأن يقهر الخوارج أيضا فدوّخهم واليه على العراق الحجّاج بن يوسف وخضد شوكتهم.

إذن صارت الخلافة إلى بني العباس ، واستحكم أمرهم طوال النصف الثاني من القرن الثاني فلم تجد الدعوة العلوية بدّا من الإمعان في السريّة ، ودخلت في طور الستر الذي تواصل قرنا كاملا ونصف قرن إلى أن وقع الإعلان عن ظهور "المهدي المنتظر" وتأسيس الخلافة الفاطمية سنة 296 هـ/ 909م. وبينما استتب الأمر لبني

العباس إنذاك ظلّت الفرق من الشيعة العلويين التي تشعّبت فروعها – وكذلك فرق الخوارج المختلفة النزاعات – تنشد الاستيلاء على الحكم من غير أن تقصد أي فرقة إلى المناداة بإبطال الخلافة ، بل ظلّ همّ كل فرقة الفوز بها دون سائرها وانتزاعها من أيدي العباسيين ، وإن قامت دويلات عديدة في أقطار مختلفة من العالم الإسلامي فإنها لم تعلن إبطال الخلافة العباسية ، بل ظلّت على ولائها لها مثل دولة بني بويه الشيعية والدولة الإدريسية الشيعية أيضا (من ذرية الحسن بن عليّ بن أبي طالب) ودولة بني طولون والإمارة الأغلبية ، ناهيك عن أن الأمراء الأمويين المروانيين الذين كوّنوا دولة بالأندلس لم يتجرؤوا في بداية عهدهم على الانفصال عن الخلافة العباسية إلى أن أعلن عبد الرحمن الناصر لدين الله الخلافة وتلقب بلقب أمير المؤمنين سنة 316هـ/929م ، وكذلك كان شأن القرامطة وهم من الشيعة الغلاة فإنهم لم يتجرّؤوا خلال ثورتهم الشّعواء على العباسيين على المناداة بإبطال الخلافة واقتصروا – عندما استولوا على مكّة – على حمل الحجر الأسود إلى قاعدتهم ، لا تبركا به فحسب بل ليكون ذلك عنوانا على غلبهم وانتصارهم.

أما العلويون من ذريّة الحسين بن عليّ بن أبي طالب فقد ظل أئمة فرقتهم طوال عهد الستر ينشرون دعوتهم سرا بالشام وباليمن وبسائر ربوع العالم الإسلامي المسماة في المصادر الشيعية "جزائر" على حسب تقسيم اصطلاحي سري خاص بدعوتهم لم يمكن البحث العلمي من إجلاء ما يكتنفه من غموض ، وقد كانت بلاد المغرب عامة ، أي أقطار الشمال الإفريقي – وتضاف إليها الأندلس ، وبصفة خاصة الناحية الشرقية منها أي إفريقية – تعدّ إحدى تلك "الجزائر" المهمة ، لكون موقعها الجغرافي موقعا نائيا عن مركز الخلافة العباسية ، ولكون أهلها من البربر الذين كانوا أكثر العناصر البشرية التي تشتمل عليها الأمة الإسلامية ميلا إلى اعتناق النزاعات الدينية السياسية لمعارضة السلطة الرسمية ، فلقد برهنوا من قبل في عهد الدولة الأموية عن ميلهم هذا عندما بادروا إلى اعتناق نزاعات الخوارج المختلفة ، ولاسيما الغلاة منهم ، فكانت بلادهم تعد إذن تربة خصبة للدعوة الشيعية العلوية منذ منتصف القرن الثاني الهجري كما يؤكد ذلك القاضي النعمان في كتابه "افتتاح الدعوة وقيام الدولة" في الخبر عن الداعيين الحلواني وأبي سفيان اللّذين قدما إلى إفريقية سنة 145هـ/ 763 – 762م ، حيث أرسلهما الإمام جعفر الصادق فنشرا الدعوة لذريّة عليّ بن أبي طالب من زوجته فاطمة ابنة رسول الله (ﷺ) بناحية تالة وبناحية مرما جنّة وسحمار في شمال قسطيلية.

لم يكد بنو العباس يأخذون بزمام الحكم بعد القضاء على دولة بني أمية ويستحكم أمرها في عهد أبي جعفر المنصور (136-158هـ/ 756- 775م حتّى تفرعت عن العلويين فرقة الإسماعيلية التي نشطت في الدعوة إلى افتكاك الخلافة من مغتصبيها بني العباس – بني عمومتهم– وتتّفق هذه الفرقة في تواصل الإمامة من عليّ بن أبي طالب إلى الإمام جعفر الصادق مع فرقة الإمامية الاثنا عشرية إلاّ أنها تعدل به عن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى أخيه إسماعيل ثمّ إلى ابن إسماعيل "محمّد" الذي أشرف على نشر الدعوة سرّا انطلاقا من المدينة في السنين الأخيرة من عهد أبي جعفر المنصور ، ثمّ اضطر إلى مغادرة الحجاز والالتجاء إلى بلاد فارس عندما اشتدت مطاردة بني العباس بني عمومتهم العلويين قصد القضاء عليهم وعلى دعوتهم بأنهم أحقّ منهم بالخلافة والإمامة، وظلّ الإمام محمّد بن إسماعيل يتنقّل في كنف الاستتار بالشام والعراق وفارس وكذلك ببلاد التركستان حيث وافاه أجله بفرغانة سنة 183هـ/ 799م.

وقد اتّخذت إنذاك سلميّة بلدة على مقرب من حمّص ببلاد الشام مركزا للدعوة ينطلق منه الدعاة إلى سائر نواحي العالم الإسلامي، وصار اليمن إنذاك بصفة خاصة قاعدة لتكوين الدعاة يتردّدون منه كلّ سنة بمناسبة أداء فريضة الحج على مكّة ، حيث يلتقون بالحجيج من مختلف العالم الإسلامي ويبثون بينهم الدعوة بالخلافة والإمامة لآل البيت من ذريّة فاطمة ابنة رسول الله (ﷺ).

وبينما فشل بنو العباس – بعد أن استحكم أمرهم في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون، في تحقيق ما تميز به المثل الأعلى الشيعيّ من مساواة وعدالة اجتماعية وفي تطبيق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي المنشود للمجتمع الإسلامي – وجدت النزعة الإسماعيلية المتطرفة التي كان بتزعمّها أعقاب السلالة الحسينيّة كلّ سهولة في الانتشار بربوع فارس وبجنوب العراق والشام بين الموالي النبطيين والأزديّين وازداد نطاقها اتّساعا بعد عهد المأمون (198- 218هـ/ 813 - 833م) عندما ظهرت بوادر الانحطاط في صرح الخلافة الضخم في عهد المعتصم (218-227هـ/833-842م).

عندئذ شهدت الدعوة الإسماعيلية الثوريّة أكثر جرأة على الانتشار، انطلاقا من مركزها بسلميّة، في اليمن واليمامة والبحرين ومصر والسّند وبلاد المغرب النائية، وعظم شأنها وازداد عدد أتباعها في عهد المعتضد (279-289 هـ/892-902م) بازدياد الوهن الذي انتاب السلطة العباسية ، بما استفحل من سلطان الأمراء الأتراك ونفوذهم العسكري في الدولة، وبما تحقق من

استقلال في ظلال الخلافة وتحت لوائها لدويـــلات الصّفاريين والطّاهريين والطولونيين ، وخصوصا بما تفاقم من الاضطراب السياسي والاجتماعي ، لذلك كان عهد الإمام الإسماعيلي الحسين بن أحمد إنذاك عهدا بلغت فيه الدعوة أوج قوّتها ونشاطها وساعدها على ذلك ظهور حركة القرامطة – وهم شيعة غلاة – حوالي سنة 264هـــ/877م التي قامت بالكوفة تدعو في أول أمرها على المنحى الإسماعيلي وبتوجيه من الإمام الحسين بن أحمد من مركزه بسلميّة إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي وتنادي بالعدالة والمساواة والقضاء على النظام العباسي الذي كانت ثورة الزنج قد زعزعته سنة 255هـــ / 868م وكادت تقوّض صرحه العتيد. وبينما ساءت العلاقة بين القرامطة الذين كانوا يهيمنون إنذاك على ناحية الكوفة حيث اتخذوا لهم قاعدة حصينة شرقيّ هذه المدينة وحدثت القطيعة بين قائدهم زكرويه بن مهرويه والمهدي الذي آلت إليه إمامة الشيعة الإسماعيلية بسلميّة كانت الدعوة الإسماعيلية قد أحرزت انتشارا عظيما باليمن حيث أسّس الدّاعي ابن حوشب منذ أيام الإمام الحسين بن أحمد في سنة 268 هـــ/881م بعدن لاعة عند بني موسى حصنا منيعا اتخذ منه مركزا للدعوة في جبل مسور و شهر منه الحرب على بني يعفر، وإذ تمكن هذا الداعي قبل وفاة الإمام الحسين بن أحمد من تركيز نواة "دولة" إسماعيلية بربوع اليمن تلقّب بلقب " منصور اليمن " وتبوأ رتبة داعي الدعاة فكان يسهر على تدريب الدعاة قبل توجيههم إلى شتّى نواحي (جزائر) العالم الإسلامي، خصوصا إلى البحرين واليمامة والسّند والهند ومصر وكذلك إلى بلاد المغرب ، ويبدو ممّا لدينا من المصادر الإسماعيلية ولاسيما "افتتاح الدعوة" للقاضي النعمان أنّ ابن حوشب سعى إلى تأسيس الخلافة الفاطمية باليمن عندما آلت الإمامة إلى المهدي بسلميّة ، لكن القطيعة التي حدثت بين القرامطة والمهدي قد حالت دون تحقيق ذلك.

الدعوة الشيعية الإسماعيلية بإفريقية :

عندما وقعت القطيعة بين إمام الشيعة الإسماعيلية بسلميّة وفرقة القرامطة اتجهت النية إلى تأسيس الخلافة الفاطمية المنشودة بإحدى "الجزر" النائية الملائمة لذلك واعتبرت بلاد البربر بإفريقية أرضا خصبة لتحقيق الحلم الذي ظلّ آل البيت من ذريّة فاطمة وشيعتهم يسعون إلى إنجازه جيلا بعد جيل منذ قرنين.

لقد ذكرنا آنفا أنّ الدعوة الإسماعيلية كانت قد بدأ بثّها منذ منتصف القرن الثاني بإفريقية في سنة 145 هـــ في أيام الإمام محمّد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق عندما قدم إلى هذا القطر داعيان هما الحلواني وأبو سفيان تشيّع على يدي كليهما

أهل مدينة تالا ومدينة مرما جنّة وجماعة كثيرة من قبيلة كتامة ومن قبيلة نفزة ومن قبيلة سماتة فكان الحلواني يقول حسب ما ورد ذكره في كتاب "افتتاح الدعوة": " بعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب فإنّكما تأتيان أرضا بورا فاحرثاها وكرّباها وذلّلاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذلّلة فيبذر حبّه فيها"

من هو "صاحب البذر" هذا الذي بذر حبّه بإفريقية فأنتج الثمرة الجليلة التي طالما منّى ذريّة فاطمة النفس بجنيها يوما ؟

هو أبو عبد الله الداعي الذي تنسبه المصادر السنّية إلى صنعاء اليمن ، فخلّد التاريخ ذكره بهذه النسبة: "الصّنعاني" ، وهو ليس من صنعاء كما يثبت ذلك النعمان في كتابه "افتتاح الدعوة "وغيره من المؤلفين الإسماعيليين. هو أصيل الكوفة حيث اعتنق المذهب الإسماعيلي في أيام الإمام الحسين بن أحمد ، ثمّ أرسل إلى اليمن صحبة أخيه أبي العبّاس لقضاء فترة التدريب على نشر الدعوة لدى بن حوشب سنة 278 هـ/891م ، ثمّ جرى تعيينه بالمغرب وأمر بربط الصلة للغرض مع الحجيج البربر أهل إفريقية.

اجتمع أبو عبد الله في منى بالحجيج من قبيلة كتامة ، فالتقى منهم برجلين من بطن جيملة هما حريث الجيملي و موسى بن مكارم اللّذان كانا قد اعتنقا المذهب الشيعي الإسماعيلي تحت تأثير الحلواني، فاصطحباه عند عودتهما إلى بلدهم ليزاول به مهنة التعليم. ومرّ أبو عبد الله في طريقه إلى بلاد كتامة بسوجمار بلد قبيلة سماتة حيث التقى ببعض أهلها ممّن كانوا قد تشرّقوا (أي اعتنقوا مذهب المشارقة الشيعة الإسماعيلية) على يدي الحلواني.

دخل أبو عبد الله بلاد كتامة صحبة حريث الجيملي وموسى بن مكارم يوم الخميس 14 ربيع الأول 3/280 يونية 893 فترل بقلعة صغيرة يقال لها إيكجان بها منازل بني سكتان فرع من قبيلة كتامة ينتمي إليه حريث وموسى. وليس من شكّ أنّ مركز الدعوة بسلميّة حيث يقيم الإمام المهدي وكذلك مركز التدريب للدعاة بعدن لاعة حيث كان يقيم داعي الدعاة ابن حوشب قد اختارا بلاد كتامة لتوجيه أبي عبد الله إليها قصد نشر الدعوة بها لأسباب سياسية واجتماعية تساعد على تحقيق الغرض المقصود، فقد كانت تتقاسم الحكم في بلاد المغرب الشاسعة ثلاث دول هي الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى (عاصمتها فاس) والدولة الرستمية بالمغرب الأوسط (عاصمتها تاهرت) والدولة الأغلبية بإفريقية (عاصمتها رقّادة – القيروان)

أمّا الإمارة الأموية المروانية بالأندلس فإنّ الدعوة الإسماعيلية لم توجّه اهتمامها إليها ؛ نظراً لبعدها الجغرافي و كذلك لما كان من فشل الدعاية الشيعية بها إثر الفتح في القرن الثاني للهجرة/ القرن الثامن الميلادي ، وأمّا الدولة الإدريسية فإنها لم تكن ملائمة لانتشار الدعوة الإسماعيلية ذات الجذور الشيعية الحسينية باعتبار أنّ المؤسس لها كان من أعقاب الشيعة الحسنيّة، أمّا الدولة الرستمية فإنه كان يحكمها ألدّ أعداء الإسماعيليين، أي الخوارج "الملاعين" فلم تكن إذن صالحة لبعث حركة ثوريّة علوية بها، أمّا الدولة الأغلبية التي كان نظام الحكم بها نظام إمارٍ تابعة للخلافة العباسية والتي تحكم أقرب ربوع المغرب إلى المشرق، أي إفريقية، فإنّها كانت لذلك ملائمة حقّا لتحقيق مطامع الدعوة الإسماعيلية في افتكاك زمام الحكم في العالم الإسلامي من أيدي بني العباس المغتصبين للخلافة وتمكين ذريّة فاطمة من استرداد ما انتزع من حقّهم فيها دون سائر الفرق الدينية والسياسية المتنازعة عليها منذ منتصف القرن الأول للهجرة / السابع الميلادي.

ثمّ إنّ منطقة القبائل الكتامية الواقعة على الأطراف الشمالية الغربية من بلاد أفريقية – وهي منطقة جبلية تتخللها أوعار وسهول تحيط بمدن حصينة وقلاع منيعة مثل بلزمة وقسنطينة وميلة وسطيف – كانت المنطقة المثلى للقيام بثورة على الدولة الحاكمة بإفريقية "باسم العباسيين" أي الدولة الأغلبية. وتمتدّ هذه المنطقة المترامية الأطراف على مسيرة خمسة أيام طولا وثلاثة أيام عرضا وتبعد عن القيروان مسافة عشرة أيام فهي هكذا في مأمن من رقابة مستمرة من السلطة المركزية برقّادة أو من المدن ـ الحصون المجاورة لها أي ميلة وسطيف وبلزمة التي يمارس أصحابها الحكم باسم الأمراء الأغالبة إلا أنّهم يخضعون لهم بصفة رمزية. وأهل هذه المنطقة من البربر من قبيلة عظمى هي قبيلة كتامة التي تتفرع إلى قبائل صغرى وبطون كثيرا ما تحدث بينهم خصومات ونزاعات قبلية وهم جميعهم أهل بأس وسطوة عظيمة يحسنون القتال على الخيل ويهابهم أهل القلاع والحصون فلا يتجاسرون على مهاجمتهم . و لم يكن للدولة الأغلبية على كتامة إلا سلطة صوريّة وأحسن دليل على استقلالهم عن الحكم المركزي للدولة أنهم لا يؤدون إليها أي نوع من الجباية مثل غيرهم من سائر النواحي الخاضعة للسلطة المركزية برقّادة قاعدة الدولة ، ثمّ إنّ كافة قبائل كتامة ظلّت في معزل عن اضطرابات الخوارج ، بل إنّ كتامة وهم أهل مدر قد استحكم استقرارهم في قرى ريفية بسفوح الجبال وحول السهول حيث كانوا يتعاطون الزراعة وتربية الماشية فظلّوا يعادون أهل الوبر من قبائل زناتة الرّحل المنتجعة بربوع المغرب

الأوسط والتي انتحلت نحلة الخوارج منذ منتصف القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي.

كيف بدأ أبو عبد الله نشر الدعوة الإسماعيلية بين بطون قبيلة كتامة ؟

لم تكن لبربر كتامة معرفة جيّدة بالإسلام ، ولم يكن لهم من معرفة اللغة العربية إلا المبادئ الضرورية لإقامة الشعائر الدينية ، إلا أنهم كانوا يكنون لأهل العلم بالغ التقدير والإعجاب ؛ لذلك سرعان ما استهواهم أبو عبد الله بسعة معرفته للعلوم الشرعيّة ، ولم يلبث أن ذاع بشتّى نواحي بلادهم خبر العالم المشرقي الذي نزل عند بني سكتان بإيكجان حيث بدأ يبث في النّاس "علمه" ويدعو إلى أمر مكتوم" لا يعلمونه فتوافدوا عليه للسّماع واستكشاف هذا الأمر، لكن أبا عبد الله ظلّ يتجنب "الخوض في المسائل المذهبية من الدّين ويقتصر عند الجلوس إليهم على الحديث عن فضائل أهل البيت ومناقب عليّ بن أبي طالب " ، فإذا أحسّ من أحدهم بأنه مستجيب للدعوة أسرّ إليه بأنّه يدعو إلى إرجاع الخلافة إلى مستحقّيها من أهل البيت ، أي إلى إمام العصر المقيم بالمشرق" المهدي المنتظر "الذي سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا" ، وأنه يدعو إلى الثورة على سلطة بني الأغلب على بلادهم باعتبارهم موالين لدولة العباسيين المغتصبين للخلافة.

وهكذا التفّت حوله المجموعة الشيعيّة الأولى التي ضمّت عددا من العناصر التّابعة لمختلف البطون الكتامية بالإضافة إلى الحاجّين حريث وموسى ومريدين من الذين كانوا تشيعوا بأثر الحلواني ، وهما أبو القاسم الورْفجّومي وأبو عبد الله الأندلسي. وبرز عندئذ إلى جنبه عدد من أتباعه مخلصين له كلّ الإخلاص: هارون بن يونس الملقب بـــ "شيخ المشايخ" ذو المكانة المرموقة في عشيرته مسالتة المقيمين شمالي سطيف وغربي إيكجان الحسن بن هارون شابّ ذو فضائل مذكورة من بطن غشمان المقيمين حول هضبة تازروت الواقعة بين إيكجان وميلة؛ أبو يوسف ماكنون بن ضبارة وابن أخيه أبو زاكي تمّام بن معارك من أحد البطون الكتامية الكبيرة، بطن إجّانة، الذين يسيطرون مع جيمْلة على كامل المنطقة الواقعة جنوبيّ ــ شرقيّ إيكجان. وكان أبو زاكي شابا ذا نباهة فائقة وحزم كبير فاختصّ بصحبة أبي عبد الله وبخدمته.

وعرف أبو عبد الله عند كتامة بالمشرقيّ نسبة إلى المشرق وعرفت دعوته بالتشريق.

ولم يلبث خبره أن انتشر في تلك المنطقة الجبلية ما بين إيكجان وتازْروت وميلة وسطيف، فتنامى أتباعه حتّى تكونت حوله مجموعة غفيرة من الأولياء المخلصين كان يسميهم "الإخوان". وإذ

بلغت دعوته هذه المرحلة من تطورها لم يجد موسى بن العباس عامل الدولة الأغلبية بمدينة ميلة_ وهي أقرب قلعة من إيكجان _ بُدًّا من إظهار تخوّفاته من أمر هذا "المشرقيّ" الذي تعاظم شأنه وهو يدعو النّاس إلى التمرّد والخروج على السلطان، لكنّه عندما كتب إليه الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد يستخبره عن أمر هذا "الخارجي" حقّر من شأنه وهوّن من أمره. إلاّ أن الأمير لم يأمن جانب هذا المتمرّد الذي لم يلبث أن صار زعيما دينيّا وسياسيّا لحركة ثوريّة ضدّ سلطته على كتامة وأحسّ عندئذ بما في أمره من الخطر على دولته ، لذلك بادر إلى الاتصال به فوجّه إليه منجّمه برسالة شفهية يحذّره فيها من التمادي في غيّه مخيّرا إيّاه بين العودة إلى المشرق والإقامة عنده في أمن وسلام ويخوّفه إن أصرّ على مواصلة حركة التمرّد مغرورا بإقبال "أوباش" البربر عليه، مهددا إيّاه بالنهوض إليه بجيش جرّار للقضاء عليه.

لكنّ أبا عبد الله لم يبال بمبعوث الأمير وأوضح له أنّ دعوته إنّما هي دينيّة سياسيّة وأنّه يدعو إذن "إلى الله وكتابه وإلى المهدي من ذريّة رسوله (ﷺ)" وأنّ النصر آت لا ريب فيه.

ويحتمل أن يكون هذا اللقاء بين أبي عبد الله ومبعوث الأمير بترتيب من عامل ميلة قد وقع سنة 282هـ / 895م أي بعد سنتين من وصوله إلى بلاد كتامة وقبل سبع سنوات من التّدخل الأول للجيش الأغلبي للقضاء عليه ، أي سنة 289هـ/902م.

لكن كيف يفسّر اقتصار الأمير الأغلبي على التظاهر بعدم الاكتراث بأمر أبي عبد الله والاقتصار إذن على الإغراء مع التّهديد و الوعيد؟

لم يبادر إبراهيم بن أحمد بعد رجوع منجّمه من إيكجان إليه برقّادة، إلى التحوّل بنفسه إلى بلاد كتامة للقضاء على أبي عبد الله – كما خوّف بذلك في رسالته – أو إلى إرسال أحد قوّاده بجيش كفيل بالقبض عليه واستئصال حركته الثّورية، فهو لم يكن آنذاك يستوجب العجلة ؛ لأنّ أبا عبد الله لم يكن قد تمكّن بعد من إجماع فروع كتامة على اتّباعه، ولاسيما أنّ قلاع ميلة وسطيف وبلزمة لم تزل يحكمها العمّال العرب الموالين للسلطة الأغلبية المركزية برقّادة. ثمّ إنّ الأمير كان مشغولا بمجابهة الحركات الثوريّة التي ظهرت بجنوب البلاد بطرابلس وبجبل نفوسة، وكذلك بالجنوب الغربي منها في ناحية بسكرة وفي صقليّة أيضا.

لقد ترك إبراهيم بن أحمد لأبي عبد الله وقتا كافيا لتنظيم صفوف أتباعه كي يخضع رؤساء الفروع القبلية التي ظلّت تناهض دعوته ويستميل لها جميع الكتاميين ويكتسب عندئذ القدرة الكافية لاقتحام القلاع المجاورة وللاستيلاء عليها قلعة بعد

قلعة وللتصدّي للجيوش الأغلبية التي كان يتوقّع أنّها ستوجّه لا محالة لمحاربته.

لنبيّن الآن كيف استطاع أبو عبد الله أن يسيطر على بلاد كتامة بأكملها خلال السنوات السبعة التي تلت اجتماعه مع مبعوث إبراهيم الثاني أمير الدولة الأغلبية.

بينما تأخّر ردّ الفعل من الأمير الأغلبي بعد عودة مبعوثه إلى رقّادة بإخفاق سفارته لدى أبي عبد الله الدّاعي بادر أصحاب القلاع على حدود بلاد كتامة، تفاديا لانتشار الحركة الثوريّة بها إلى التحالف مع رؤساء القبائل المعارضة للدّعوة الشيعيّة، فتعاقد هكذا صاحب ميلة موسى بن عبّاس وصاحب سطيف عليّ بن عسلوجة وصاحب بلزمة حيّ بن تميم، مع رئيس مسالْتة فتح ابن يحي، ورئيس لهيصة مهدي بن كناوة، ورئيس أجّانة فرح بن جيران, ورئيس لطاية تميم بن فحل, ورئيس متوسة زياد المتوسي.

وهكذا حدث الشّقاق بين مختلف البطون الكتامية واندلعت الحرب بين أبي عبد الله وأنصاره من بني سكتان وسائر عناصر بطن جيمْلة والفروع القبليّة المتحالفة ضدّه، فكان النّصر حليفه والهزم المتحالفون ضدّه، لكنّ أبا عبد الله وأنصاره أدركوا عندئذ أنّهم لن يقدروا على مواجهة أعدائهم عندما يعزّزون صفوفهم ويعيدون الكرّة عليهم في معقله بإيكجان، وأيقنوا أنّ هذه القلعة لا تفي بحمايتهم وأنّ قلعة تازروت المجاورة بأهلها من غشمان أوفى منها بمناعتهم أمام الخطر الذي سيتفاقم حتما عندما تتحرّك الجيوش الأغلبية من إفريقية لقتالهم.

إذن لم يجد أبو عبد الله ومؤيّدوه من بني سكتان بدّا من مغادرة إيكجان والالتجاء إلى تازروت الواقعة بالجنوب الشّرقي من جبل إيكجان على مقربة من قلعة ميلة للاحتماء بها عند بني غشمان ورئيسهم الحسن ابن هارون الذي كان من أبرز وجوه كتامة وأعظمهم هيبة وثروة. و لم يكد أبو عبد الله وأصحابه وسائر مؤيدي دعوته يستقرّون بتازروت حتّى تجمّعت الفروع القبلية المتحالفة ضدّه وزحفوا إلى تازروت لقتاله ، لكنّ المعركة أسفرت عن هزيمة المتحالفين على رغم تعزيز صفوفهم بعناصر من مزاتة ولطاية ومن جميع الفروع القبليّة المحيطة بميلة.

وتشتّت عندئذ شمل المتحالفين ضدّ أبي عبد الله ، وكان هذا النّصر الذي أحرزه (وذلك في سنة 287هـ/ 900م) دافعا على التفاف جموع الكتاميين حوله على اختلاف العشائر التي ينتمون إليها، فدخلوا في طاعته وصار بذلك رئيسا لكتامة كلّها بلا منازع وانتهت عندئذ الفترة الأولى من مغامرته ببلاد كتامة ، أي فترة تركيز الدعوة

الشيعية بها وتكوين قوّة من أهل كتامة قادرة على القيام بثورة تقوّض صرح الدولة الأغلبية وتلحق بزوالها أكبر هزيمة بالدولة العباسية في بلاد المغرب فتنكسر عندئذ هيبتها في العالم الإسلامي بنشأة خلافة مضّادة بإفريقية، خلافة ترجع الأمر إلى مستحقّيه ذريّة الرسول(ﷺ) من ابنته فاطمة باعتبار الخلافة العباسية خلافة مغتصبة غير شرعية.

واتّجهت عندئذ همّة الداعي أبي عبد الله قبل مواجهة الجيوش الأغلبية إلى نشر مبادئ دعوته بين كافة فروع قبيلة كتامة العتيدة حتّى يكوّن من جميع البربر الكتاميين وحدة سياسية واجتماعية صمّاء على أساس الانتماء لمذهب الشيعة العلويين والجهاد لافتكاك الحكم من المغتصبين العباسيين وأنصارهم بني الأغلب, لذلك كان حريصا على أن يغرس في نفوس الكتاميين الشعور بالأخوّة التي تنادي بها الدعوة الشيعية العلوية القائمة على مبدإ المساواة الاجتماعية والتّحلي بالفضائل والإخلاص في العمل بكل تفان وحماس لتحقيق الهدف المنشود وأطلق عليهم اسم"الإخوان المؤمنين".

وهكذا أضفى الداعي أبو عبد الله على مهمّته الرّوحية الدّينية صبغة دنيوية بإعداد أتباعه الكتاميين للقيام بدور الدّفاع عن الدعوة الشيعية العلوية ، فأنشأ تنظيما سياسيا واجتماعيا وكذلك ماليا وعسكريا جديدا كفيلا بتوطيد روابط الانتماء إلى نفس المذهب الديني والسياسي والتمسّك بنفس القضية المشتركة والاستعداد للذبّ عنها بحدّ السلاح وقد وصف القاضي النعمان في كتابه "افتتاح الدعوة" وصفا دقيقا هذا التنظيم الجديد بقوله: " وقسّم أبو عبد الله كتامة أسباعا ، وجعل لكلّ سبع عسكرا قدّم عليه مقدّما وأطلق بكل موضع داعيا ، وسمّى المقدّمين والدعاة المشايخ – وإن كان فيهم من لم يبلغ السنّ – وأبقى أعمال المؤمنين وما أفاء الله من المغانم على وليّ المسلمين (أي الإمام) في أيدي المشايخ،و لم يكن يقبض من ذلك شيئا ولا يصل إليه ولا يأتيه ولا يراه وكان في أيديهم إلى أن قدم المهدي فدفعوه إليه.

لقد أقام أبو عبد الله الداعي بفضل هذا النظام المحكم نواة الدولة الفاطمية ببلاد كتامة حول قاعدتي إيكجان وتازروت حيث أعدّ العدّة لإنجاز الجزء الثاني من مهمّته ، أي الاستيلاء على القلاع المجاورة الخاضعة للسلطة المركزية والصمود أمام الجيوش الموجّهة ضدّه من رقّادة قبل أن يزحف إليها للقضاء على الدولة الأغلبية.

الاستيلاء على مدينة ميلة:

بينما كان الداعي أبو عبد الله – مذْ حلّ ببلاد كتامة منشغلا ببسط سلطته على القبائل الكتامية حتّى مطلع سنة 289 هـ/902م – لم يدخل

في صراع مسلّح مع القوّات الأغلبية ؛ إذ كان الأمير الأغلبي آنذاك متراخيا عن ردّ الفعل عليه موجّها همّه للجهاد بصقليّة وأرض قلورية.

وظلّ هكذا ينتظر الفرصة السانحة للاستيلاء على القلاع الحصينة المجاورة لبلاد كتامة والحامية الإفريقية على تخومها الشمالية الغربية من هجمات البربر. وحانت الفرصة لذلك عندما تخلّى الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني عن العرش لابنه أبي العباس عبد اللهو خرج للجهاد بنفسه على رأس جيش جرّار في صقلية وأرض قلورية واستولى على طبرمين في أواخر فصل الصيف من سنة 289هـ/902م, فزحف الداعي أبو عبد الله إلى ميلة حيث كان جماعة من عرب ربيعة يعرفون بالسناجرة منهم الحسن بن أحمد بن نافذ ابن أبي خترير قد دخلوا في دعوته فقاتله من بها من الجند ومن العناصر الكتامية المعارضة لدعوته ، لكنّ صاحب القلعة موسى بن العباس لم يجد بدّا من الفرار إلى إفريقية مع جماعة من جنده, فاستولى أبو عبد الله عندئذ على المدينة وحصونها وسقطت هكذا أول مدينة محصّنة أغلبية وبسقوطها اتّضح أنّ القلاع الحامية لإفريقية غير قادرة على الدّفاع عنها على التصدّي لجحافل البربر الكتاميين.

لما وصل خبر سقوط ميلة في أيدي المتمرّدين إلى تونس - حيث كان يقيم الأمير الأغلبي الجديد عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب - أحسّ هذا الأمير أنّ استيلاء المتمرّد الشيعي على هذه القلعة الحامية بموقعها الاستراتيجي على مشارف أرض كتامة إنّما هو إنذار بخطر عظيم على مملكته فبادر بتجهيز جيش عتيد من 12000 رجل بين فارس وراجل وأمّر عليه ابنه أبا حوال الذي كان بطلا كميّا من الفرسان المعدودين من أهل بيته المؤهلين لقيادة الجيوش.

خرج القائد الأغلبي من مدينة تونس في ذي القعدة سنة 289 هـ/ أكتوبر 902م بعد مدّة قليلة من وفاة جدّه إبراهيم الثاني أمام مدينة كشنتة بصقليّة وسار حتّى بلغ ناحية تازروت فعسكر ببلدة ملوسة، وبرز إليه أبو عبد الله بأصحابه فاقتتلوا أشدّ قتال وكان الفصل فصل شتاء نزل به ثلج كثير، فانهزم أبو عبد الله وأصحابه وأجلوا تازروت ولاذوا إلى إيكجان للتحصّن بها. وعندما ارتفع الثلج زحف أبو حوال إلى تازروت فأصابها خالية فهدم القصر الذي ابتناه بها أبو عبد الله وعرّج على ميلة فاستولى عليها، وقد وقعت هذه الأحداث في ديسمبر سنة 902م وعرقلت الأحوال الجوية الرديئة سير القائد الأغلبي فلم يبادر بالزحف إلى إيكجان ؛ لأنّه كان من الصعب عليه الوصول إلى منطقتها الجبلية فترل بناحية ميلة عند بلدة كجارْمة حيث دارت مناوشات بين بعض أجناده وبعض رجال أبي عبد الله. وفي شهر يناير

من سنة 290هـ/ 903م وقد بلغت قساوة الشتاء أعظم مبلغ تقهقر القائد الأغلبي بجيشه نحو إفريقية تلبية لأمر والده عبد الله الثاني الذي كان إنذاك منشغلا أشدّ الانشغال بثورة ابنه زيادة الله في بلرم بصقليّة إثر وفاة جدّه إبراهيم الثاني ، فكان ذلك حافزا لأبي حوال على الإعراض عن مواصلة حملته على بلاد كتامة ، وعلى الإسراع بالرجوع إلى إفريقية تلافيا لما قد يحدث عندئذ من الاضطراب من أجل إثارة أخيه زيادة الله للجيش المرابط بصقلية وتمرّده على الأمير والده.

لكنّ الأمير اعتقل ابنه زيادة الله عندما حلّ بتونس قادما من بلرْم و لم يلبث أن أوكل إلى أبي حوال مهمّة القيام بحملة ثانية على بلاد كتامة. فسار أبو حوال حتّى نزل بمدينة سطيف، فخرج إليه الداعي أبو عبد الله بجموعه من إيكجان ودارت بينهما معارك كان فيها القتال سجالا بينهما حتّى تقهقر القائد الأغلبي وكرّ راجعا إلى إفريقية. وذلك أنّه قد حدثت بتونس أحداث خطيرة أجبرته على الانسحاب من غير أن يخوض المعركة الحاسمة مع أبي عبد الله. ففي ليلة الأربعاء ليوم بقي عن شعبان سنة 290 هـ/27 يونيو 903م دبّر زيادة الله وهو في السّجن مؤامرة للإطاحة بأبيه الأمير عبد الله الثاني فاستعان بالخدم فقتلوه واستولى عندئذ على مقاليد الحكم ثمّ بادر بإرسال كتاب إلى أخيه أبي حوال يأمره فيه باسم أبيه بالرجوع من فوره إلى إفريقية.

وكان خائفا أن يتمرّد عليه ويثير عليه الجيش فأسرّ إلى حامل الكتاب مولاه فتوح الرومي بالقبض عليه، ولم يكد أبو حوال يحلّ بتونس مكبّلا حتّى أمر زيادة الله بقتله ومعه تسعة وعشرون رجلا من الأسرة الأغلبية دفعة واحدة في جزيرة الكرّات التي تبعد عن تونس بضعة أميال.

وهكذا بقتل أخيه قائد الجيش الذي كان على وشك القضاء على ثورة أبي عبد الله ببلاد كتامة أراح زيادة الله الداعي الشيعي من الخصم الوحيد الذي كان قادرا على الفتك به لو تمكن من خوض المعركة الحاسمة ضدّه، فقدْ فقد الجيش الأغلبي بمقتله قائده الباسل وصار ينقصه الفارس البطل الذي يعرف كيف يقود رجاله ويتقن تعبئتهم ويعدّهم للحرب ويزرع في نفوسهم مع الحماس روح الانتصار.

وعندما بلغ الداعي عبد الله خبر ما حدث بإفريقية من تلك الأحداث المفاجئة استبشر خيرا لما يسّرت العناية الإلهية من مهمّته بانخضاد شوكة عدوّه وأخذ يستْجمع قوّاه بعد الصّدمة التي أصابته وكادت تؤول به إلى الهلاك وبدعوته إلى الفشل الذريع ، ثمّ بدأ يستعدّ للهجوم على المدن المحصّنة التي كانت تقيم خطّا دفاعيّا على تخوم المملكة

الأغلبية من جهتها الشمالية الغربية يقيها غائلة الهجمات الكتامية. وفي تلك الأثناء "ظهر الإمام المهدي المنتظر" بسلميّة من بلاد الشام عندما بلغه خبر نجاح الدعوة بإفريقية وفتح مدينة ميلة.

الاستيلاء على مدينة سطيف:

انتظر الداعي أبو عبد الله نهاية فصل الشتاء من سنة 290-291هـ / 903-904م ليستأنف العمليات الحربية وحلول فصل الربيع، للهجوم على قلعة سطيف حيث تحصّن صاحبها عليّ ابن حفص المعروف بابن عسلوجة وهو من أسرة عربية من قبيلة أسد ابن خزيمة معروفة بولائها الوثيق للأغالبة ، فحاصرها أربعين يوما حتّى استولى عليها بعد مقتل ابن عسلوجة وأعطى الأمان لكافة أهلها.

ولّما بلغ خبر سقوط سطيف إلى تونس تحرّك زيادة الله فأعدّ جيشا عظيما ، بلغ عدده أربعين ألفا بين فارس وراجل وأمّر عليه إبراهيم بن حبشي من أهل بيته، والّذي لم يكن من أهل الحرب، فزحف القائد الأغلبي بجيشه الجرّار من الأربس في ذي القعدة 291هـ/سبتمبر 904م وانتهى إلى كبونة من بلد أجّانة، فأخرج إليه أبو عبد الله خيلا مختارة فقاتلها ابن حبشي من غير تعبئة لعسكره فاضطرب جيشه فعاجلهم أبو عبد الله عندئذ بحملة شديدة فهزمهم شرّ هزيمة وعادت فلول الجيش المهزوم إلى قلاع باغاية وطبنة وقسنطينة وسائر بلاد إفريقية تجرّ أذيال الخيبة المرّة والانكسار الذريع. وفي تلك الأثناء كان الإمام المهديّ الذي غادر سلميّة متوجها إلى المغرب قد وصل إلى إفريقية عن طريق مصر فمرّ بقسطيلية وواصل سيره حتّى نزل بسجلماسة في جنوب أرض المغرب الأقصى حيث ظلّ ينتظر نجاح ثورة كتامة بقيادة الداعي أبي عبد الله وانهيار الدولة الأغلبية.

أفضى النّصر الذي أحرزه الداعي أبو عبد الله بهزيمة الجيش الأغلبي بقيادة ابن حبشي إلى اقتناعه بأنّ إفريقية قد أصبحت في متناوله فأخذ يعدّ العدّة للهجوم على سائر القلاع الحامية لها قبل الزحف إلى تونس والقيروان.

أمّا زيادة الله فهالته قوّة الداعي المتزايدة فتحوّل من تونس إلى رقّادة حيث تحصّن في مطلع سنة 293هـ/906م وأعاد تنظيم جيشه واهتمّ بتعزيز الحاميات المرابطة على التخوم الغربية وهي بلزمة وطبنة وباغاية وتجيس ودارملوّل ومجانة ومرما جنّة .

لكنّ الداعي لم يلبث أن زحف بجحافل أنصاره الكتاميين على هذه القلاع واستولى عليها ، الواحدة تلو الأخرى، فبدأ ببلْزْمة وباغاية الواقعتين بالشمال الشرقي من جبل أوراس ثمّ احتلّ طبنة

الواقعة بالجنوب في منطقة الحضنة (وهي عاصمة ناحية الزّاب) فبسط نفوذه على أهمّ أطراف المملكة غربا من جهة الجنوب ، ولم يبق له إلاّ الاستيلاء على تيجس ودار ملول ومجانة ومرما جنّة على ضفاف وادي ملاق لفتح الثغرة في الخطّ الدّفاعي الغربي التي ينفذ منها إلى فحص الفيروان عن طريق آخر القلاع المحصّنة دونه ، أي مدينة الأربس.

وتساقطت هذه القلاع المحصّنة بين سنة 904م وسنة 908م ، وعبثا حاول زيادة الله تهدئة خواطر رعاياه وحملهم على الهدوء والسّكينة فأصدر بيانا يحثّهم على التمسّك بمذهب أهل السنّة ويندّد بدعوة التشيّع التي عمد "المتمرد" إلى بثّها ببلاد كتامة وبتحريفه للدّين والشريعة ويؤكد على ولائه للدولة العباسية محفّزا إيّاهم على مواصلة الجهاد لهذا "الكافر الصنعاني" المبدّل لدين الله ولأنصاره من "جهّال البربر الكتاميين وطخامهم" الذين أطاعوه لجهلهم بالدّين والسنّة فاستهواهم واستغواهم حتّى قالوا بلعن أبي بكر وعمر وعثمان زاعمين أنّ عليّ بن أبي طالب يذهب إلى ذلك وأنّه أحقّ منهم بخلافة رسول الله (ﷺ)، وفي الأثناء وزيادة الله يشحذ الهمم ويدعو النّاس إلى الاطمئنان قدم رسول من الخليفة العباسي المكتفي بالله محمّلا بهدايا إلى زيادة الله وبكتاب يهدف إلى طمأنة أهل إفريقية ويحقّر من شأن "المتمرّد" الخارج على الأمير الأغلبي بأرض البرابرة الكتاميين.

وكان زيادة الله – إذ نظر إلى اختلال أهل المملكة عليه – قد أظهر الخروج بنفسه إلى الداعي الشيعي المتمرّد فأحكم الاستعداد للحرب بالتوسعة في العطاء للفرسان والرجال من جميع أجناد المملكة وبشحذ السلاح وآلات الحرب وبجمع الأموال للإنفاق على عساكر الحشود التي تجمّعت إليه حول رقّادة ثمّ زحف بجيشه الجرّار في مطلع سنة 295 هـ/907م إلى قلعة الأربس الحصينة ، إلاّ أنّه عدل عن التّوجه نحو إيكجان بإلحاح من حاشيته وعهد بالقيادة لابن عمّه إبراهيم بن أبي الأغلب ، وأمره أن يرابط بالأربس ليقيم بها سدّا منيعا في وجه البرابرة الغزاة يحول دون عبورهم إلى فحص القيروان.

انتهت صائفة سنة 296هـ/ 908م بتقويض خطّ الدّفاع الأغلبي المطابق للحدود الغربية من البلاد في العصر القديم أيّام الرومان والبيزنطيين والذي كان يعرف بخطّ "اللّيماس" (Limes) ويحمي المملكة من بربر الغرب[26] فأصبحت الطريق المؤدّية إلى رقّادة مفتوحة و لم يبق إلاّ تذليل العقبة الأخيرة ، وهي وجود جيش إبراهيم بن أبي الأغلب في الأربس.

لكنّ الداعي لم يتجاسر على اقتحام هذه القلعة دفعة واحدة ملتزما بخطّة الحذر التي توخّاها منذ بداية الصراع المسلّح مع الأغالبة، فعمد عندئذ إلى غزو البلاد على ثلاث مراحل متتالية في مدّة بلغت سبعة أشهر.

جرى الهجوم الأول في أواخر صائفة سنة 296هـ /908م عن طريق قمّودة بالاستيلاء على ميْدرة والقصْرين، وإثر ذلك عاد الداعي إلى إيكجان من غير أن يواجه الجيش الأغلبي بالأربس ، ثمّ جرى الهجوم الثاني بعد ثلاث أو أربعة أسابيع عن طريق قسطيلية فحاول الدّاعي الّذي كان قد ألّم به مرض الحصاة الوصول إذن إلى القيروان من جهة الجنوب في أواخر أكتوبر واجتنب مرّة أخرى مواجهة الجيش الأغلبي بالأربس. إلاّ أنّه وقد وصل مرّتين إلى موضع لا يبعد عن رقّادة إلاّ بضع مراحل لم يجد بدّا آخر الأمر من الاصطدام بالجيش الأغلبي قبل نهاية شتاء سنة 908م. فلمّا أتمّ استعداده قصد الأربس عن طريق وادي مسْكيانة على رأس جيش جرّار من كتامة، ودارت المعركة على طريق الأربس إلى شقبناريّة فكانت الغلبة للكتاميين وانهزم القائد الأغلبي ودخل أبو عبيد الله الأربس فاستولى عليها عنوة لكنّه لم يلاحق خصمه ، وظلّ ينتظر ردّ الفعل من زيادة الله.

عندما وصل خبر الهزيمة إلى رقّادة بادر الأمير الأغلبي بضمّ حوائجه ورفع ثقله وأمواله واستصحب خاصّة رجاله وغادر المدينة متوجّها إلى المشرق في جنح الظلام ليلة الاثنين 20 مارس 296هـ/909م.

ووافى أبا عبد الله خبر هروب زيادة الله فقصد القيروان عن طريق سبيبة وسليانة ووادي الرمل حتّى نزل بساقية ممّسْ حيث وافاه شيوخ القيروان وفقهاؤهم لتهنئته بالفتح. وأخيرا دخل الداعي أبو عبد الله رقّادة على رأس أجناد كتامة مقسّمين إلى سبعة فرق على حسب النّظام الّذي كان قد أقرّه بإيكجان وكان مسبوقا بقارئ يقرأ آيات بيّنات من الذكر الحكيم مناسبة للمقام ، وكان ذلك يوم السّبت غرّة رجب سنة ستّ وتسعين ومائتين هـ(25 مارس 909م).

هكذا استطاع أبو عبد الله الداعي الإسماعيلي القضاء على دولة بني الأغلب في بضع سنين وإنشاء الدولة المنشودة من ذريّة فاطمة على أنقاضها ببلاد المغرب الإسلامي ، فدخلت إفريقية بهذا الحدث العظيم مرحلة جديدة من تاريخها في مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

وصاية الداعي أبي عبد الله و خلافة المهــــديّ 297-298هـــ/ 909 - 910

الإجراءات الحكومية التي اتّخذها الداعي:

لم يكد أبو عبد الله يترل بقصر الصّحْن برقّادة حتى اتّخذ جملة من التدابير السياسية والإدارية لإصلاح الوضع الذي نجم في البلاد عن الهيار دولة بني الأغلب، من ذلك أنّه بادر بتأمين كافة سكّان المدينة والأرياف وطمأنة من بقي من بيت زيادة الله ومواليه وموالي أبيه حتّى يتصلوا به ويدخلوا في خدمته وأعماله.

وامتنع أبو عبد الله عن مراسم الملك وأبّهته ملتزما حياة البساطة والتواضع واتّجهت همّته إلى إضفاء الصبغة الشيعية على أنظمة الحكم في الدولة الجديدة، فاستعمل عاملا متشيّعا من وجوه أهل ميلة على القيروان هو الحسن بن أبي خترير واستعمل أخاه حبيب بن أبي خترير على رقّادة ، وأسند خطّة قاضي القضاة إلى فقيه قيرواني من جند خراسان له تشيّع قديم هو محمّد بن عمر المرْورّوذي.

" ولمّا حضرت الجمعة أمر بإقامتها وقدّم خطيبا بجامع رقّادة وخطيبا بجامع القيروان وكتب بذلك إلى البلدان، وأمر في الخطبة بالصلاة على محمّد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين عليّ وعلى الحسن والحسين وعلى فاطمة الزّهراء".

وأمر أن يزاد في الأذان "حيّ على خير العمل" وأمر بضرب السّكة وولّى عليها أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودي ، وهو موظّف أغلبي سابق ، ونقش العلامات الشيعية على شعارات السّيادة وأضفى صبغة العقيدة الشيعية على الأفكار الواردة في إعلانات الأمان فممّا وضع في ديباجاتها هذه الجمل:

" بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على رسوله محمّد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين ، أمّا بعد :

فالحمد لله النّاصر لأوليائه لما سبق لهم من وعده وخاذل أعدائه بعد الإعذار إليهم بوعيده، الذي لم يجمع بين أنصار الحقّ وأتباع الباطل في موطن من مواطن التّحاكم إلاّ وهب لأنصار دينه النّصر وأيّدهم بالعزّ وأنزل بأعدائه البأس والنقمة والدّمار والهلكة إظهارا لفضل مترلة الحقّ عنده وإذلالا لمن عند عن سبيله وصدف عن حقّه حمدا يرضاه ويتقبّله ويحسن المزيد عليه من فضله. "

وإذ حثّ أبو عبد الله على السّمع والطّاعة فإنه أمر الغزاة الكتاميين بالانضباط واحترام النّظام، فامتثلوا لأوامره رغم حرمانهم من الغنائم الضّخمة التي كان بوسعهم كسبها من الاستيلاء على البلاد والقضاء على دولة الأغالبة. واعترف أهل إفريقية جميعا وكذلك أهل صقليّة

بسلطة وبنظام الدولة الجديدة التي كان يدعو إلى تأسيسها للفاطميين وإمامهم المهديّ النازل إنذاك بسجلماسة منتظرا سقوط دولة الأغالبة ، ليتسنّى له القدوم إلى رقّادة وتسلّم مقاليد الحكم من القائد الأمين القائم بدعوته.

وذلك أنّ الداعي أبا عبد الله لم يغرّه انتصاره على رأس أتباعه من الكتاميين ، فلم ينْس أنّه مجرّد نائب لصاحب البلاد الحقيقي ، وأنّه لا يتصرّف إلاّ باسمه أي المهديّ الإمام المعصوم الّذي ينتظره عرْش إفريقية إثر هروب زيادة الله، فظلّ نظره إذا متجها نحو المغرب الأقصى ، و لم يبق له إذن ليتمّ مهمتّه على أكمل وجه إلاّ الذهاب إلى سجلماسة حيث كان يقيم المهديّ ليلتقي به ، ويعود به إلى رقّادة ظافرا.

رحلة المهدي من سلميّة إلى سجلماسة ثمّ قدومه إلى رقّادة صحبة أبي عبد الله الداعي:

كان المهدي قد غادر سلميّة بعد بضعة أشهر من استيلاء الداعي على ميلة سنة 290هـ/902م ، واستقرّ بسجلماسة في المغرب الأقصى في حين كان ابن حبشي يحاول الاستيلاء على إيكجان، وكان قد دفعه إلى مغادرة سلميّة ما كان يتعرّض له من تتبّعات الأعوان العباسيين ، وكذلك ما حدث من القطيعة بين مركز الدّعوة الإسماعيلية بسلمية وحركة القرامطة.

وقد سار المهديّ في رفقة في زى التجّار إلى الفسطاط ثمّ إلى طرابلس ثمّ إلى قسطيلية بجنوب أفريقية حيث عدل عن الالتحاق بالداعية في إيكجان ببلاد كتامة ، وواصل السير في أواخر سنة 291 هـ/904م إلى سجلماسة عاصمة أرض التافلالت النائية بجنوب المغرب الأقصى حيث تقيم بيوتات عربية عديدة من أهل الجاه والثّراء بتعاطيها لتجارة الذّهب والرقيق ، فنزل بها واستمرّ بها مقامه ثلاث سنوات في أمن وأمان في ضيافة أميرها إليسع بن مدرار ، لكنّ هذا الأمير سجنه عندما اكتشف حقيقة أمره.

و لم يكد أبو عبد الله يحكم تركيز سلطته برقّادة حتّى قصد سجلماسة لاستقدام المهديّ وإقامته على العرش الّذي افتكه من الأغالبة باسمه إماما للدعوة الإسماعيلية وخليفة شرعيا للأمّة الإسلامية باعتبار الخلافة العباسية غير شرعية ، إذ اغتصب بنو العباس الأمر من مستحقّيه ذريّة الرسول (ﷺ) من ابنته فاطمة. وعندما اقترب الداعي من سجلماسة على رأس جيش عظيم بعد أن مرّ بتاهرت حيث قضى على حكم الدولة الرستمية, تأهّب صاحبها إليسع بن مدرار الذي كان ينتحل نحلة الخوارج لمحاربته، لكنّه لم يلبث أن انهزم أمام أجناد أبي عبد الله الكثيفة وتوجّه نحو السودان. فاستولى أبو عبد الله على سجلماسة وأطلق سراح المهديّ وأعلن أمام كافة أتباعه عن تسليم ما كان

يتقلّد من مقاليد الحكم باسمه. وبعد أن أقام المهدي أربعين يوما بسجلماسة نهض يريد إفريقية فمرّ بتاهرت ثمّ نزل بإيكجان في احتفال عظيم دلّ به على أنّه استهلّ ولايته للدولة الفاطمية في مهد الحركة الشيعية "دار الهجرة ومستقر الإيمان". فكان توقفّه بإيكجان دليلاً إذن وإعلانا عن بداية عهده بصورة فعليّة باعتبار الداعي قد سلّم الأمر إليه وأوقف النّاس جميعا على أنّه الإمام الّذي كان يدعو له ويعمل لإقامة دولته ، وسلّم إليه كذلك الأموال الّتي كانت على أيدي الدّعاة من مشايخ الفروع القبلية الكتامية وكانوا قد دفنوها بإيكجان فأحضروها إليه.

ثمّ خرج المهديُ من إيكجان متوجّها إلى إفريقية فوصل إلى فحص القيروان في أنصار دولته واحتفال عساكره ، وأبو عبد الله الداعي وجماعة من مشايخ كتامة يسعون بين يديه. وهناك كان فقهاء القيروان ووجوهها في انتظاره ، فسلّموا عليه بالخلافة والإمامة ، فأمّنهم وأحسن لقاءهم وعندما حلّ برقّادة نزل بقصر الصحن الذي كان أبو عبد الله قد أقام به من قبل ، كأنّه يريد أن يظهر بذلك أنّه أصبح منذ ذلك الحين صاحب البلاد.

خلافة المهديّ 297 – 322هـــ/ 910 – 934 م :

ولد المهدي في عسكر مكرم سنة 260هـــ/ 873 أو 261هـــ/874 فيكون عمره لّما تولّى الخلافة 36 أو 37 سنة وهو يتمتّع بشيء من البراعة في ممارسة الحكم بمقتضى خبرته في تدبير شؤون الدعوة في مركزها بسلمية. لذلك فإنّه سيعرف كيف يستفيد من خبرته للاضطلاع بمهمّة الخلافة وتركيز سلطته على أساس مذهبه الشيعي الّذي كان أهل البلاد ينكرونه باعتبارهم ينتمون لمذهب مالك ، وكذلك لمذهب أبي حنيفة ، ويتمسّكون إذا بمذهب أهل السّنة. فهو سينجح لما كان يتّصف به من الحنكة السّياسية في إقامة الدّولة الّتي طالما حلم بها آباؤه وأجداده وإرساء نظام قويّ قادر على بسط نفوذه على كامل بلاد المغرب ، ثمّ على مصر.

بادر المهدي غداة وصوله إلى رقّادة يوم الجمعة 21 ربيع الثاني سنة 297 / يناير 910 بإخراج توقيع أمر أن يدعى به على المنابر وأنفذه إلى خطيبي رقّادة والقيروان بالدّعاء بعد الصّلاة على محمّد (ﷺ) وعليّ (ع.م.) وعلى فاطمة والحسن والحسين وعلى الأئمة من ولده وهو الدّعاء الّذي كان أبو عبد الله أمر به لفائدة عبد الله أبي محمّد الإمام المهديّ بالله أمير المؤمنين, وأمر بكتاب آخر فكتب وقرئ على المنبر بالقيروان ووجّه به نسخا إلى البلدان. وقد أشار فيه المهديّ إلى تولّيه الخلافة وحمد الله الّذي أنجز وعده لرسوله بردّ إرث النبوّة ومقاليد الإمامة إلى عترة نبيّه. و لم يلبث الخليفة الفاطمي الأول منذ اعتلائه العرش أن

اضطلع بنفسه بالمهام التي كانت تنتظره ، " فقسم على وجوه رجال كتامة أعمال إفريقية ، وجعل لكلّ عسكر من كتامة ناحية منها ومن غيرها من البلدان ، وسهر على إعادة تنظيم المصالح الإدارية، فأذن بإحياء "ديوان الخراج" الذي كان قد أحْرِق إثر هروب زيادة الله, وأمر بجبي الأموال وكان من حكمته في اختيار أعضاده أنه لم يستعن فقط بالموظّفين الكتاميين المرتكزة عليهم الدولة الجديدة بل استعان أيضا بالعناصر العربية التي كانت في خدمة النظام السّابق. فكان عليه من أجل ذلك أن يتّخذ موقفا متسامحا تجاه "من بقي من بني الأغلب ومواليهم ورجالهم وأتباعهم ، فأعاد بعضهم إلى مناصبهم المدنية والعسكرية السالفة, وانضمّ هؤلاء الموظفون العرب إلى الكتاميين والموالي والعبيد الصقالبة الذين كانوا في خدمة المهدي منذ عهد بعيد فأكسبوا الإدارة الفاطمية الجديدة مزيدا من الاستقرار والنّجاعة.

مؤامرة الداعي أبي عبد الله و أخيه أبي العبّاس و نهايتهما المأسوية:

تولّد عن إمساك المهدي بنفسه لمقاليد الحكم واستعانته بموظفين كانوا من قبل في خدمة الأغالبة إقصاء للداعي ولأخيه أبي العباس ولأبرز العناصر الكتامية الذين تولّوا أمور الدعوة وشؤون الحكم إلى جنبه قبل قدوم المهدي من سجلماسة إلى إيكجان ورقّادة، فاستاءوا لذلك ونقموا عليه وأخذوا يتآمرون للإطاحة به ، وكان أكثرهم تحمّسا للقضاء على المهدي أخو أبي عبد الله أبو العباس وأبو زاكي تمّام بن معارك الذي كان أخلص شباب كتامة للداعي وأخصّهم بصحبته.

واغتنمت جماعة المتآمرين فرصة الحملة التي قام بها الداعي في أنحاء المغرب سنة 297هـ/ سبتمبر 910م لإعداد خطّة للفتك بالمهدي عند العودة إلى رقّادة ، لكّن أحدهم أبلغ المهدي ما كانوا قد دبّروا من الإطاحة به ، فبادرهم باتّخاذ إجراءات حازمة لحماية نفسه وأمر بقتل المتآمرين ، وهكذا لقي أبو عبد الله مصرعه على أيدي المهدي بعد أن تفانى في خدمته ، كما لقي جماعة من العناصر الأغلبية بمدينة القصر القديم مصرعهم أيضا ، لأنّهم كانوا يناصرون أبا عبد الله ويؤيّدونه في أيام وصايته قبل قدوم المهدي من سجلماسة.

تولّد عن مقتل أبي عبد الله انزعاج في صفوف كتامة فلم يلبث غضبهم أن تحوّل إلى حركة ثورية يتزعمّها رجل من بني ماوطنت ، لكنّ المهدي بادرهم بإرسال جيش ضدّهم بقيادة ابنه القائم فقهر المتمرّدين وقضى على ثورهم. وفي مطلع سنة 300 هـ/ خريف سنة 912م ثار أهل طرابلس فأخرج إليهم المهدي ابنه القائم الذي استولى على المدينة وقتل العناصر من أكابرها الذين

عقدوا الخلاف وأضرموا نار الثورة واستصفى أموالهم وتولّى قائده خليل بن إسحاق بن الورد تغريمهم.

وفي هذه الأثناء ثار أهل صقليّة وأعلن الوالي عليهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب ولاءه للدولة العباسية فأرسل إليه المقتدر بالله كتابا بإقرار سلطته وتأييد أمره ضدّ الخليفة المارق برقّادة، لكنّ ابن قرهب لم يستطع تركيز سلطانه على الجزيرة ، فألقي عليه القبض سنة 304هـ/ يوليو 916م ، وسلّم إلى المهدي فقتله ثمّ أمّر قائده أبا سعيد الضّيف على الجزيرة فأعاد إليها الأمن بكلّ صرامة.

النّزعة التوسّعيّة الفاطمية:

أحدث قيام خلافة شيعية بأرض الغرب الإسلامي – تطمع إلى بسط سلطنها على البلاد الإسلامية قاطبة –انقلابا سياسيا في العالم الإسلامي وهيّأ البلاد الإفريقية لمصير جديد بكونها مركزا لدولة جديدة معادية من ناحية للدولة العباسية بالمشرق ، ومن ناحية أخرى للدولة الأموية المروانية القائمة بالأندلس، وذلك بأنّ المهدي بالله باعتباره الخليفة الأول لهذه الدولة الجديدة "دولة الفواطم " متعهّد طبعا بإزاحة المغتصبين العباسيين ، وفي نفس الوقت بتقويض النّظام الذي شيّده بالأندلس أعداؤه الألدّاء من ذوي الأصل الأموي ، أي بنو مروان ابن الحكم أعداء الهاشميين الأولين، كما أنّه متعهد في آن واحد بالقيام بواجب الجهاد للرّوم البيزنطيين الباسطين سلطانهم إنذاك على منطقة شرقيّة من صقلية وعلى أرض قلورية بجنوب البلاد الإيطالية.

وبناء على ذلك اهتمّ المهدي بتنظيم مختلف أقاليم مملكته تنظيما عسكريا ، فوجّه إليها أبرز رجال دولته لضبطها ضبطا محكما ، فولّى ابن أبي خنزير على صقلية، وعلى النواحي الغربية عروبة بن يوسف الملوسي في باغاية، ودوّاس بن صولات في تاهرت وعلى النواحي الجنوبية الممتدّة إلى طرابلس وجهة برقة، حباسة بن يوسف في قاعدة توزر بأرض قسطيلية.

ولذلك أوصى المقتدر بالله العباسي عامله بالفسطاط بالاستعداد في قاعدة برقة لمواجهة الخطر الفاطمي باعتبار ما كان للمهديّ من طموح طبيعي في غزو مصر ؛ لذلك فإنّه لم تكد العساكر الفاطميين تعود من حملتها بأقصى مناطق المغرب حتّى هيّأها المهديّ للزحف نحو مصر في حملة أولى انطلقت في جمادى الثاني من سنة 301 هـ/ يناير 914م بقيادة ابنه القائم، تواصلت العمليّات الحربيّة بين الجانبين حتّى استولى القائم على الإسكندرية، لكنّ المقتدر بالله الخليفة العباسي وجّه إلى مصر قوّات عظيمة بقيادة مؤنس خادم مولاه،

فلم يجد القائم بدّا من الرجوع إلى إفريقية ؛ لأنّه لم يكن يقدر على مواجهة الجيش العباسي العتيد ، فوصل إلى رقّادة يوم الأحد الحادي عشر من ذي القعدة سنة 302 هـ/ 28 مايو 915م.

وإذ انتهت الحملة الأولى على مصر دون جدوى فإنّ المهديّ أراد بها تأكيد حجّة الله على العباسيين بدعوته وإظهار حقّ العلويين في الخلافة والتعبير عن قدرته على منازعة خصمه العباسي للاستئثار بالحكم دونه في العالم الإسلامي.

الحملة الثانية على مصر 307 – 309 هـ / 919 – 921 م:

إثر رجوع القائم من حملته الأولى على مصر ثار أهل برقة على الحامية الفاطمية المكوّنة من جنود كتاميين فقتلوهم، لذلك وجّه المهديّ عسكرا أعاد الأمن بها ، ثمّ وجّه القائم مرّة ثانية إلى مصر فاستولى على الإسكندرية ودارت بينه و بين الجيش العباسي المعزّز بالأسطول عدّة معارك استطاع مؤنس الخادم ، أثنائها صدّ الخطر الفاطمي عن الفسطاط، فاضطرّ القائم إلى الانسحاب نحو برقة والرجوع إلى إفريقية ، فوصل إلى المهديّ أوائل شهر رجب 309هـ/ نوفمبر 921م.

وإذ انتهت الحملة الثانية على مصر دون جدوى فإنّ القائم اغتنم الفرصة مرّة أخرى للتأكيد على حقّ أسرته بالخلافة بتكثيف الحملة الدعائيّة ضدّ العباسيين في كتاب إلى خصمه مؤنس الذي نال فخرا بصدّه للمرّة الثانية عن احتلال الفسطاط حتّى لقّب بالمظفّر، كتب إليه يقول:

" فأمّا الخلافة فما جعل الله للعباس ابن عبد المطّلب فيها حظّا، وما هو فيها من شيء ، لأنّه ليس من المهاجرين ولا من العشرة المبشّرين بالجنّة الّذين توفيّ رسول الله (ﷺ) و هو عنهم راض، ولا أُدْخِلَ في الشورى ولا التمسها في وقت من الأوقات... "

كما نظم القائم عدّة قصائد دعا فيها المشارقة إلى الثورة على **"الكفّار"** ومساندة القضية العادلة لفائدة ذريّة فاطمة ، كأنّه كان يظنّ أنّه يستطيع الحصول بواسطة الدعاية على النتائج التي يئس من إحرازها عليها بقوّة السلاح.

التوسّع الفاطمي بالمغرب الأقصى:

كانت خطّة المهدي تتمثّل في دفع قوّاته تارة نحو المشرق وتارة أخرى نحو المغرب ، حيث تصدّى لمجابهة البربر من قبيلة زناتة المعادية لكتامة أنصاره، لذلك فإنّه بينما كان حريصا على مواصلة الحرب ضدّ العباسيين على الواجهة المصرية كان كذلك حريصا على قتال جموع مغراوة الزّناتيين على الواجهة المغربية موكلا ذلك لعامله على تاهرت، وإذ لقي كتامة أشدّ العناد من مغراوة ورئيسهم محمّد بن خزر فإن المهديّ أوكل إلى ابنه

القائم مهمّة الحملة على المناطق الشّمالية من المغرب الأقصى في سنة 315 هـ/ 927م حيث منازل القبائل العتيدة الموالية لزناتة وهم مزانة وهوّارة وبنو كملان وصدينة وعجيسة... فمكّنته هذه الحملة من تعزيز نفوذه بمناطق شاسعة من المغرب الأقصى.

النّزاع بين المهدي والروم البيزنطيين:

لم يكد المهدي يعزّز سلطة دولته بصقلية بالقضاء على ثورة ابن قرهب حتّى هيّأ الأسطول للقيام بغارات على سواحل قلورية ، فانطلقت الحملة الأولى سنة 305هـ/918م من سوسة للاستيلاء على رجيو REGIO من غير مقاومة تذكر، أمّا الغارة الثانية فانطلقت من المهدية سنة 312 هـ/ 324-325م فقام الحاجب جعفر بن عبد الله بحملة واسعة النطاق على قلورية كلّلت بنصر مبين ، عندئذ اضطرّ الإمبراطور البيزنطي إلى إبرام معاهدة مع المهدي والوعد بدفع غرامة سنوية مفروضة على قلورية. وتواصلت الغارات على جنوب إيطالية لإرغام قلورية على دفع الجزية وفرض سلطة الدولة على كامل جزيرة صقلية.

علاقة المهدي مع القرامطة و مع حركة الدعوة باليمن :

تعهّد المهدي منذ قيام الدولة في رقّادة بصفته الإمام الفاطمي بالإشراف على الدعوة الإسماعيلية في العالم الإسلامي وتعيين الدعاة في كافة "الجزر" والسّهر على اعتراف أتباعه بجميع هذه المناطق المختلفة بإمامته ، لذلك كان حريصا على الإطاحة برئيس القرامطة أبي سعيد الجنابي كي تعود الحركة القرمطية إلى الحظيرة الإسماعيلية وتواصل ثورتها على الخلافة العباسية ، وهكذا عاد القرامطة إلى ما كانوا عليه من الموالاة للإمام الفاطمي ، واستأنفوا نشاطهم الثوري بالحجاز حتّى استولوا على مكّة سنة 317هـ/ 929م ، ونقلوا الحجر الأسود من الكعبة إلى عاصمتهم "هجر".

أمّا في اليمن فإنّ الدعوة الإسماعيلية تقهقرت بصفة جليّة من أجل الصراع بين ابن حوشب الّذي ظلّ على ولائه للإمام الفاطمي وعليّ ابن الفضل الّذي أعلن ثورته على المهدي والداعي بن حوشب ، فازداد الأمر اضطرابا إثر وفاة الداعي حتّى ضعف أمر الدعوة الإسماعيلية وانحصر نفوذها في ناحية صنعاء.

مآثر المهدي:

توفّي المهدي ليلة الثلاثاء 15 ربيع الأول سنة 322 هـ/ مارس 934 م وعمره ثلاث وستّون سنة. بعد أن نجح في القيام بمهمّته المزدوجة إماما وخليفة في نفس الوقت. وذلك أنّه عرف عندما تقلّد الحكم بإفريقية وهو لا يزال شابا قبل ذلك بسبع وثلاثين سنة كيف يواجه بشجاعة وثبات العدو العباسي والقرامطة المتمرّدين الّذين

رفضوا الاعتراف برئاسته للطائفة الإسماعيلية ويتحمّل بجلد صروف هجرة طويلة وشاقّة فى حين خرجت بظهوره الدعوة الإسماعيلية من فترة "السّتر" ، وأحرزت نصرا جليّا باليمن وخصوصا بإفريقية ببلاد كتامة. ثمّ عرف المهدي منذ إعلان الخلافة كيف يقيم دولة عتيدة على دعائم المملكة الأغلبية السابقة وكيف يواصل طوال عهده الّذي دام 24سنة تطبيق سياسة منتظمة استطاع بفضلها إخضاع رعاياه من العرب والبربر والنّصارى لسلطته ووضع حدّ لخطر الخوارج من زناتة وسائر القبائل المناهضة لدولته ، كما أمر جيوشه بخوض غمار الحرب خارج حدود بلاده بلا كلال ولا ملل لتخويف عدّوه النّصراني قيصر الروم وفي آن واحد منافسه العباسي بالمشرق.

تأسيس مدينة المهدية :

أسّس المهدي بالله مدينة المهدية التي سمّاها باسمه لتكون معقلا يحمي الدولة من أي خطر داهم من ناحية البرّ أو من ناحية البحر وقاعدة بحرية مؤهّلة للقيام بعمليات حربية واسعة النطاق ، لذلك كانت المهدية أوّلا وبالذّات مدينة ذات طابع عسكري رغم كونها عاصمة مملكة. وقد انتهت الأشغال من بنائها سنة 306هـ/ 918-919م. وبما أنّ موقعها كان في شبه جزيرة ضيّقة جدّا فقد "زاد إليها المهدي من البحر" وبنى فوق الأراضي المردومة الجامع الأعظم ودار المحاسبات وقصرين هما قصر المنارة أو قصر المهدي وقصر القائم. وأقام الأسواق والمباني للسكنى إلى جانب دار المحاسبات وحولها المنشآت العسكرية في ناحية المرسى حيث أنشأ دار الصناعة لصنع معدّات الأسطول، وما يتبعها من أهراء وصهاريج ومخازن يطلق عليها "مخازن البحر". ووقع تحصين المدينة بسو منيع في شكل ستارة محفوفة بستة عشر برجا ومشدودة ببابين كبيرين مصنوعين من الحديد المحض كانا يحرسان مدخل المدينة، الأوّل في اتّجاه البرّ من طرف الرواق المعروف بالسقيفة الكحلة (أي السوداء)، والثاني في اتّجاه البحر في المكان الذي نقر فيه مرسى المدينة في الحجر الصلد.

وهكذا وفرّت المهدية للدولة الفاطمية الفتية منذ قيامها إلى جانب كونها العاصمة السياسية قاعدة عسكرية حصينة ساعدت على تعزيز سيادتها وفرض هيمنتها برّا وبحرا.

عهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله واندلاع ثورة الخوارج بقيادة أبي يزيد"صاحب الحمار:

لم يكد القائم بأمر الله يخرج من العزلة التي لزمها حدادا على أبيه وحزنا عليه حتّى اهتمّ بمواصلة السياسة الخارجية التي جرى عليها والده لفرض سلطته ببلاد المغرب الأقصى مواجهة للبربر من زناتة وسائر القبائل المناهضة لدولته وكذلك بصقلية لمواجهة الروم البيزنطيين الحاكمين لقلورية

والجزر المجاورة جنوب إيطاليا ، وأيضا فيما وراء طرابلس وبرقة بقصد الحملة على مصر، مواجهة لنفوذ الدولة العباسية بها.

لذلك قام جيش فاطمي في سنة 323هـ/935م بهجوم على الإسكندرية على حين هجم الأسطول الفاطمي في سنة 322 هـ/934م على مدينة جنوة وقام جيش آخر سنة 323هـ/935م يقوده ميسور الخادم بحملة واسعة النطاق بالمغرب الأقصى بناحية مدينة تكور ومدينة فاس.

لكنّ لم يلبث القائم بأمر الله وهو حريص على دعم سلطته ولاسيما تجاه قبائل البربر من زناتة وهوّارة وكملان ومزاتة التي تنْتحل نحلة الإباضية الخوارج أن تعرض بعد مضيّ بضعة أشهر من وفاة المهدي لاندلاع ثورة عناصر من هؤلاء الخوارج بناحية قسطيلية، حيث أخذ رجل من بني يفرن – فرع من قبيلة زناتة يعرف بكنية أبي يزيد اسمه مخلد بن كيداد كان يعتنق مذهب الأباضية -- يبثّ دعايته ضدّ النظام الشيعي الفاطمي ويعاضده في ذلك شيخ نكّاري أعمى من أهل توزر يقال له : أبو عمّار.

وسرعان ما انتشرت نار هذه الثورة بجبال الأوراس وأبدى صاحبها أبو يزيد وهو شيخ أعرج لا تقلّ سنه عن ستّين سنة ذو حزم عجيب وصلابة جأش لا نظير لها عند الكهول الأبطال، فظلّ يحرّك جموع البربر من زناتة وهوّارة وكملان ويحرضّهم على غزو إفريقية لتخليصها من "الشيعة الكفّار أعداء الدّين الإسلامي والمغتصبين للحكم وللقضاء على مذهبهم بإحلال **النحلة** الحقّ نحلة الخوارج الداعية للعدل في الحكم والاختيار الحرّ لنحاكم وإجماع الجماعة البربرية".

وهكذا انطلقت الثورة في أواخر جمادى الأولى سنة 322 هـ/أواخر يناير 944م بتنظيم غارات على قلعة باغاية ودارت المعارك بين المتمردّين وعساكر كتامة كان فيها النّصر حليفهم ، فاستولوا على هذه القلعة الحصينة ، وواصلوا زحفهم نحو أفريقية شرقا إلى ما وراء وادي مجردة ووادي ملاّق فاستولوا على مجانة ومرما جنّة ودقّة وسبيبة والأربس.

أمّا القائم فإنّه فوجئ بجرأة حركة التمرّد وسرعتها فاقتصر أوّل الأمر على الاعتماد على الحاميات الكتامية المرابطة بالقلاع للتصدّي للمتمرّدين، إلاّ أنّه لمّا سقطت الأربس في أيديهم وهي "**قفل**" أفريقية من جهة الغرب بادر بإرسال جيش بقيادة خليل بن إسحاق ليقطع عنهم الطريق إلى القيروان ، وجيش ثان بقيادة بشرى الخادم إلى باجة لضبطها ، وجيش ثالث بقيادة ميسور الخادم ليقطع عنهم الطريق إلى المهدية، فتولّد عن هذه الخطّة الوخيمة التي اعتمدها لمقاومة أبي يزيد توزيع

قواه على عدّة مراكز وتجزئة جهوده وترك فرصة المبادرة بشنّ العمليات الحربية لعدوّه في حين عاق التمركز جيوشه عن المبادرة بالهجوم وأجبرها على الاقتصار على الانتظار بدل التحرك والهجوم.

وإذ ترك الخليفة الفاطمي للعدوّ فرصة المبادرة فإنّ أبا يزيد ما لبث أن استولى على باجة بعد أن هزم بشرى ، ثمّ على القيروان بعد أن هزم خليل بن إسحاق و قتله. ثمّ توجّه نحو المهدية فدارت بينه وبين مسرور معركة بناحية بقلوط آل الأمر فيها إلى مقتل القائد الفاطمي وانتصار المتمردّين انتصارا باهرا عندئذ أشرف أبو يزيد على جحافل البربر على المهدية وضرب عليها الحصار في جمادى الأولى سنة 333 هـ/ يناير 945م.

حاول أبو يزيد اقتحام المدينة يوم 3 جمادى الثانية سنة 333هـ/21 يناير 945م لكنّ هجومه الأول هذا باء بالفشل. فأعاد الكرّة بعد أن أقام معسكره بترنوط يوم 22 جمادى الثانية 333 هـ/ 9 فبراير 945م إلاّ أنّ هجومه هذا مُنِيَ بالفشل. وبعد شهر أعاد الكرّة في حين اجتمع فقهاء القيروان اجتماعا بالمسجد الجامع وأعلنوا الجهاد ضدّ الفاطميين وخرجوا بمن تبعهم بدافع الحماس الديني إلى قرية للْبانة حيث فاجأهم جنود من كتامة فقتلوهم قتلا ذريعا. لكنّ حملته الثالثة على المدينة الحصينة باءت بالفشل ، ولاسيما أن كثيرا من أنصاره من البربر قد تفرّقوا في أرض الساحل للسّلب والنّهب ، فتضاءلت وطأة الحصار على المدينة المحاصرة. وبدأت سنة 334هـ من غير أن يطرأ أي تطوّر في الوضع حيث تواصل حصار المهدية وأخذ أبو يزيد يفقد الأمل في الاستيلاء على المدينة ، ولاسيما أنّ الجيوش الفاطمية ظلّت تقاوم مقاومة شديدة ، ولكّن من غير أن تكون لها القوة لفكّ الحصار. وإذ تفرقت عن أبي يزيد جموع كثيرة من البربر لا همّ لها إلاّ النهب والسلب فلم يبق معه غير بني كملان وهوارة وأوراس يئس من كسب المعركة واضطرّ إلى مغادرة معسكره بترنوط والانسحاب إلى القيروان ليستجمع قواه ويواصل الحرب ، إلاّ أنّه لم يستطع الثبات بالقيروان واضطرّ إلى التقهقر بمن بقي معه من بني كملان وهوارة نحو سوسة وتونس في حين ظلّ جنوده يعيثون فسادا في البلاد. أمّا القائم بأمر الله فإنّه بقي مصرّا على خطّته الدفاعية بالاقتصار على عمليات عسكرية محدودة المدى في اتّجاه سوسة وتونس انطلاقا من المهدية قصد مراقبة طرق المواصلات المفضية إلى جزيرة أبي سريك(الوطن القبلي) لحماية قوافل التموين القادمةمنها. وحاصر أبو يزيد سوسة بدون جدوى واضطرّ إلى الانسحاب في اتّجاه الغرب يائسا ممّا كان يطمع إليه من القضاء على الدولة الشيعيّة.

وهكذا انتهت الجولة الثانية من ثورة الخوارج بالخيبة أمام أسوار سوسة ، كما انتهت الجولة الأولى أمام أسوار المهدية قبل ذلك بسنة ونصف. وجدّ إنذاك بالعاصمة المهدية حدث حاسم لم يكن لأبي يزيد به علم ، هو وفاة القائم بأمر الله تاركا العرش لابنه إسماعيل الذي نهض فورا لإخماد الثورة والقضاء على أبي يزيد "صاحب الحمار".

تأسيس مدينة المسيلة:

أسّسها القائم بأمر الله عندما كان وليا للعهد فى أثناء الحملة العسكرية التي قادها بمنطقة الزّاب في سنة 315هـ/927م ضدّ قبيلة بني كملان البربرية التي كانت تنحل نحلة الخوارج. وكان الغرض من تأسيسها على ضفاف وادي صحْر الذي يعرف اليوم بوادي القصب، أن تكون قاعدة ناحية الزاب بدلا عن مدينة طبنة، وقلعة حصينة تساعد على كبح جماح القبائل البربرية من كملان وهوارة ومزاتة المعادية لقبيلة كتامة الموالية للفاطميين. وأمر القائم القائد علي ابن حمدون أن يتولّى تعميرها وتحصينها فأقام حولها سورين منيعين بينهما خندق على شكل قناة مملوءة بماء النهر.

وعندما قام المنصور بالله بمطاردة أبي يزيد صاحب الحمار بعد أن هزمه في معركة القيروان ثمّ حاصره بجبل كيانة اتّخذ من المسيلة قاعدة لجيشه فشنّ منها الهجومات المتتالية حتى انتصر عليه.

وعرفت المسيلة أيضا باسم "المحمّديّة" نسبة إلى محمّد القائم بأمر الله، وفي عهد المعز لدين الله نما عمرانها فصارت قلعة عظيمة ودرعا منيعا لصيانة الدولة من خطر البربر الخوارج.

خلافة إسماعيل المنصور بالله وإخفاق ثورة الخوارج بقيادة أبي يزيد :

كان إسماعيل المنصور بالله قد تجاوز الثّلاثين من عمره عندما آلت إليه الخلافة ، وهو أمير عربي إفريقي يجري في عروقه الدّم الإفريقي والدّم المشرقي على حدّ سواء ، إذ إنّ أمّ الولد التي أنجبته واسمها كريمة كانت إحدى النساء الإفريقيات من بلاط زيادة الله اللاّتي أصبحن من حرم القائم عند سقوط الدولة الأغلبية.

تولّى إسماعيل المنصور الأمر فى حين كان البناء الذي أقامه جدّه المهدي بكلّ حزم وجدّ على أنقاض الدولة الأغلبية قد تصدّع حتّى أوشك على الانهيار أمام الحشود البربرية الأباضية التي تدفّقت من جبال الأوراس وانقضّت على إفريقية. لقد بدأت خلافته في الوقت الذي أحس فيه أبوه القائم بدنو أجله فعيّنه رسميّا وليّا للعهد يوم 7 رمضان 334هـ/ 12 أفريل 945م. ولم ينتظر إسماعيل وفاة والده ليشرع بما عرف به من شجاعة وصلابة جأش في الاضطلاع بمهام الإمامة والخلافة في ظروف عصيبة جدّا، فبادر بتوجيه مراكب

كثيرة مشحونة بالطعام والسلاح إلى سوسة لمساعدة أهلها على تحمّل مشاقّ الحصار المضروب عليها من ناحية البرّ. ولم يكد يقف على وفاة والده حتّى هبّ بنفسه على رأس جيشه لمطاردة أبي يزيد بنفسه بعد انهزامه أمامه بناحية سوسة.

ولحق إسماعيل المنصور بعدّوه بناحية القيروان ، حيث أقام معسكره وأحاط به خندقا تحصّن وراءه استندا إلى صور القيروان ومتزوّدا بسهولة ممّا يصل إليه من المؤونة من ناحية جزيرة أبي شريك. وأبدى الخليفة الفاطمي شجاعة ومهارة في التخطيط للحرب رغم جهله بفنونها. ودارت بين الفريقين معارك ضارية أمام القيروان وتواصلت الاشتباكات حتّى دخلت سنة 335 هـ/946م دون أن ترجح الكفّة لفائدة هذا الطرف أو ذاك ، وبعد مضيّ شهرين من الحرب دارت المعركة الحاسمة يوم 6 محرّم 335هـ/7 أغسطس 946م انتصر فيها إسماعيل نصرا مبينا ، وجاءه المدد من بلاد كتامة فأخذ يعدّ العدّة لملاحقة عدوّه بعد أن خلّص مملكته ممّا أهمها من الخطر العظيم. إلاّ أنّه قبل التوجّه نحو الغرب في أعقاب صاحب الحمار ومن بقي معه من المتمرّدين قضى شهرين لإصلاح ما اختلّ من شؤون دولته. وتخليدا لذكرى انتصاره أمام القيروان أمر ببناء مدينة في موقع معسكره المحاط بالخندق سمّاها المنصورية متّخذا لنفسه لقب المنصور بالله.

وفي 20 من ربيع الأول 335هـ/10 أكتوبر 946م خرج الخليفة الفاطمي لاقتفاء أثر أبي يزيد، يقينا منه أنّه لا يزال في حاجة إلى استئصال جذور الثورة وإخمادها والقضاء على الخطر الخارجي بقتل أبي يزيد ؛ لأنه لولا ذلك لاستمرّ خطر الخوارج يهدّد مملكته بعد أن كاد صاحب الحمار يستولي عليها ويقوّض صرح دولته.

وسار إسماعيل في أعقاب عدوّه يطارد من كان معه من هوّارة وبني كملان وبني برْزال وسائر القبائل المنتحلة للأباضية ، وواصل الزّحف من سبيبة ثمّ مجانة ومرما جنّة حتّى بلغ سفح جبل الأوراس فضبط قلعة باغاية ، ثمّ اتّجه إلى الناحية الجنوبية الصّحراوية من أرض سدراتة وورجلان حتّى بلغ بسكرة ، ثمّ قفل راجعا إلى طبنة بعد أن عدل عن الذهاب وراءه إلى جهة جبل سالات عبر الفيافي القاحلة وجبال الزّاب. وانعطف إلى شمال الحضنة لملاقـــاة عدوّه الذي تمركز في أعالي الجبال والأوعار غربي مدينة المسيلة بموضع يعرف بعين السودان. ودارت بينهما معارك شديدة من غير أن ترجح الكفة لأحد الفريقين، ولقي الخليفة الفاطمي - وهو مريض - ومن معه من جيشه أشدّ العناء لقلّة الزّاد والمؤونة حتّى وافته بجهة مسيلة جموع صنهاجة بقيادة رئيسهم زيري بن مناد ودخلت في طاعته مغراوة مع قائدها محمّد بن خزر ، فشدّ

ذلك من أزره وقوّى من ساعديه وهو يتهيأ لخوض المعركة الفاصلة مع عدوّه في جبل عقار شمال المسيلة.

ودارت رحى الحرب بين الفريقين أياما واشتدّ القتال بينهما واستماتت جنود كتامة وصنهاجة والعبيد الزويليين في تضييق الخناق على أعدائهم المتحصّنين بأوعار جبل عقار وبقلعة كيانة حتّى تمكّنوا من اقتحام القلعة فقتل أبو عمّار الأعمى في أثناء الحملة وجرح أبو يزيد فجيء به إلى الخليفة الفاطمي في حالة يرثى لها ، فأمر بمعالجة جراحه وهو ينوي الاقتصار على سجنه والاحتفاظ به أسيرا رموزاً لانتصاره الباهر وإخفاق ثورة الخوارج، إلاّ أنّ الأسير توفي ليلة الخميس 28 من محرّم 335هـ /أغسطس 947م متأثرا بجراحه.

وبعد أن استراح إسماعيل المنصور بضعة أيام بالمكان الذي أحرز فيه هذا النّصر المبين فقل راجعا إلى المسيلة. وانتهت إذاك مغامرة أبي يزيد صاحب الحمار بفشل ذريع وأخفقت ثورة البربر الخوارج القائمة على عصبية الكتلة القبليّة من هوّارة وكملان وبرزال وغيرها من الفروع القبلية الملتفة حول قبيلة زناتة وجذعها القوي قبيلة مغراوة, والّتي كانت منذ القدم مناوئة لكتلة قبيلة كتامة وقبيلة صنهاجة.

فقد حاول أبو يزيد يرشده شيخه الفقيه أبو عمّار الأعمى إحياء بدعة الخوارج الإباضين المتأصّلة عند قبائل البربر من أهل قسطيلية وسماتة وأوراس والزّاب التي كانت تدعو إلى إحلال نظام عادل بافتكاك السلطة من الفاطميين **"الكفار الجائرين"** والاستيلاء على عرش المهدية لذلك ضرب أبو يزيد النّقود عندما استولى على القيروان ، وأعلم الخليفة الأموي بقرطبة بالدخول في طاعته والاعتراف بإمامته، لكنّ خيبته المرّة كانت سببا في استئصال مذهب الخوارج من البلاد باعتبارها الضربة القاضية لنحلة الإباضية التي لن يقوم لها أمر حتّى بعد رحيل الفاطميين إلى مصر.

سياسة المنصور بعد إخماد ثورة صاحب الحمار:

لم يكد الخليفة الفاطمي ينتصر على صاحب الحمار ويستريح ممّا أضناه من السقام والعناء الشديد في أثناء مطاردته لعدوّه من أمام أسوار القيروان إلى جبال الأوراس بناحية مسيلة حتّى اضطر إلى التوجّه إلى تاهرت لتخليصها من يد القائد المكناسي حميد بن يصل الذي خلع طاعة الفاطميين ، وأعلن ولاءه للخليفة الأموي الناصر لدين الله صاحب الأندلس. فأقام بتاهرت مدّة عشرين يوما حيث لازم الفراش من أجل المرض الذي عاوده بعد أن كان ألمّ به في أثناء حصاره

لأبي يزيد بناحية مسيلة، ثمّ قفل راجعا إلى إفريقية مظفّرا حيث وصل إلى المدينة الجديدة المنصورية الّتي أكمل بناؤها فى أثناء مطاردة أبي يزيد يوم الخميس 27 جمادى الثانية 336 هـ/يناير 948م.

و لم يكد الخليفة الفاطمي يستقرّ بعاصمة جدّه المهدية حتّى استأنف السياسة التوسّعية الخارجية التي كان جدّه قد سنّها وطبقها بحزم وثبات والتي كان والده القائم حريصا على مواصلتها حتى اندلاع ثورة صاحب الحمار ضدّ منافسيه الاثنين في العالم الإسلامي ، أي الخليفة العباسي بالمشرق والخليفة الأموي المرواني بالأندلس ، وكذلك ضدّ العدو المسيحي صاحب بيزنطة، وفي واقع الأمر فإنّ الخليفة المنصور قد أوكل إلى ابنه وخليفته المعزّ لدين الله مهمّة المواصلة لتلك السياسة التوسّعية سواء في الحوض الشرقي والحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، أي في مصر وصقلية و قلورية أو في المغرب الأقصى.

وذلك أنّ عهده لم يطل بعد فوزه على الخوارج، فهو بعد أن قضى سنتين كاملتين في محاربتهم لإنقاذ الدولة من خطرهم فاجأه الموت وهو منكبّ طوال أربعة أعوام على تنظيم شؤون مملكته في الداخل للنهوض بها من كبوتها ، وذلك يوم 28 شوّال 341 هـ/18 مارس 953م.

مآثر إسماعيل المنصور:

قام المنصور بتوسعة المنصورية مدينته الجديدة وتحسينها وتنمية عمرانها وجعل منها عاصمة لدولته. واستمرّ الخليفة الفاطمي بعد قمعه لثورة صاحب الحمار في إظهار نفس المحبّة لبلاده التي حملته على تحمّل أعباء حرب ضروس لتخليصها من وطأة احتلال البرابرة الذين عاثوا فيها فسادا وسلبا لأموال أهلها ونهبا لخيراتها. وإن تعتبر مغامرة "صاحب الحمار" ملحمة عظيمة يعدّ بها أبو يزيد من رجال التاريخ العظماء في العهد الوسيط فإنّ ذلك ممّا يزيد في الرفع من شأن إسماعيل المنصور بالله ؛ لأنّ عدد الملوك المسلمين الّذين أظهروا في العهد الوسيط من العظمة النفسية ما أظهره إسماعيل المنصور بالله الفاطمي عدد قليل جدّا.

تأسيس مدينة المنصورية:

أقامها مؤسّسها إسماعيل المنصور بالله وسط البادية بالقرب من القيروان، حيث دارت المعركة التي هزم فيها عدوّه أبا يزيد صاحب الحمار: فأراد بذلك تخليد انتصاره الباهر على هذا الثائر الذي كاد يقضي بمجموعة من البربر الخوارج على الدولة الفاطمية ، وكان المنصور بالله قد مكث شهرين بعد معركة القيروان سنة 335 هـ/ 946م يعدّ العدّة لملاحقة عدوه. وفي تلك الأثناء أذن لخادمه الصقلبي قدام ببناء مدينة في موقع

عسكره بالذات الذي كان محاطا بخندق وأطلق عليها اسم "المنصورية" وعرفت كذلك باسم "صبرة المنصورية" رمزا إلى ما بذل من الصبر والبسالة في قتال عدوّه حتى انتصر عليه. وأمر إسماعيل امنصور بإحكام سورها ورفع بنيانها وأن يأخذ قدام في عمارتها وألاّ يني.

ولم يلبث المنصور بالله بعد القضاء على ثورة أبي يزيد صاحب الحمار بأن يستوطن المنصورية جاعلا منها مقرّ الخلافة بدلا عن المهدية ، وعلى هذا الرسم سار ابنه المعز لدين الله بعده ، فاهتمّ اهتماما بالغا بعمرانها حتى بلغت في عهده أوجّ الازدهار. وقد وصفها ابن حوقل عندما اكتمل عمرانها وصارت عاصمة الدولة بقوله : "مدينة حسنة عجيبة الأبنية واسعة الأفنية معدومة النظير".

وقد أكدت الحفريات الأثرية ما كان لهذه المدينة في عهد المعز من الازدهار وعلو الشأن.

آخر الخلفاء الفاطميين بإفريقية "المعزّ لدين الله":

اعتلى الخليفة المعز عرش الفاطميين وهو صغير السنّ لم يتجاوز البلوغ إلاّ منذ عهد قريب (عمره اثنان وعشرون سنة) في حين كان الوضع السياسي في حاجة إلى مزيد الاستقرار واسترجاع الهيبة التي كانت للدولة قبل ثورة "صاحب الحمار" ؛ لذلك بادر الخليفة الشاب منذ ولي الأمر بالقيام بحملة بجبال الأوراس لإخضاع بني كملان ومليلة مصطحبا في أثناءها بلكّين بن زيري الصنهاجي على رأس فرقة من قومه أعداء الخوارج منذ القدم. وكانت هذه الحملة الرامية إلى إخضاع المناطق الواقعة تحت نفوذ الخوارج مرحلة تمهيدية للقيام بعمليات واسعة النطاق لبسط سلطانه على سائر نواحي المغرب الأقصى ، حيث كان يتعين عليه أن ينافس النفوذ الأندلسي الّذي كان الخليفة الناصر لدين الله حريصا على تركيزه في العدوة المغربية.

لذلك لم يلبث الصراع مع الدولة الأموية أن صار أهم شواغل المعزّ ، ولأنّه كان يتعين عليه بالطبع أن يبادر بالحرص على السيطرة على بلاد المغرب الأقصى حتّى يقيم البرهان لخصمه الأموي على أنّ الدولة الفاطمية قد استعادت قوتها العظيمة وأنّه صار لها من البأس ما يجعلها قادرة على محاربته فحسب بل كذلك على الهجوم على الأندلس والقضاء على دولته ؛ لأنّه "لا حقّ لبني أمية ولا لبني مروان في الخلافة التي هي من حقّ ذريّة رسول الله (ﷺ) من ابنته فاطمة رضي لله تعالى عنها".

فليس من العجب إذن أن يكون للمعز مطامع في عرش قرطبة ، وإن حرّكتْ الدواعي المذهبية والسياسية العمليات الحربية البرية التي أمر الخليفة الفاطمي أن يقوم بها جيشه في المغرب الأقصى ، وكذلك الحملات البحرية التي أخذ أسطوله يشنّها

على سواحل الأندلس منذ سنة 347 هـ/ 959م. من ذلك أن استولى قائده جوهر الصقليّ على سجلماسة ثمّ على فاس الّتي استولى عليها يوم 20 من رمضان 348هـ/24 نوفمبر 959م. لكنّه لم يقصد إلى الاستيلاء على القاعدتين المغربيتين سبتة ومليلة الخاضعتين للأندلس وقفل راجعا إلى إفريقية. وذلك أنّه كان في حاجة لتنفيذ هذه الخطّة إلى معاضدة من الأسطول الذي كان يعمل في بالواجهة الشرقية بصقلية وقلورية للتصدّي للأسطول البيزنطي الّذي احتلّ جزيرة إقريطش عندما نقضت الهدنة بين المعزّ والإمبراطور الجديد نقْفور فوقاس. وفي تلك الأثناء توفي الخليفة الأموي الناصر لدين الله وخلفه ابنه الحكم المستنصر بالله في 2 من رمضان 350 هـ/ 15 أكتوبر 961م ، فاحتدّ الصراع بين قرطبة والمنصورية بالمغرب الأقصى. لكنّ المعزّ كان كذلك مهتمّا بمواصلة سياسة التوسّع نحو المشرق الذي كان هدفا أساسيا من أهداف سياسة أسلافه على عرش إفريقية، ولاسيما أنّ القرامطة كانوا قد أحرزوا في تلك الأثناء انتصارات في بلاد الشام وأخذوا يفكرون في غزو مصر الخاضعة لسلطة الدولة الإخشيدية، لذلك بادر الخليفة الفاطمي عندما انتهت الحرب بينه وبين البيزنطيين في سنة 355 هـ/965-966م لإعداد الحملة المشهورة التي قادها جوهر لاحتلال مصر في سنة 358 هـ/ 969م.

ووقع تنظيم هذه الحملة بكلّ عناية فسهر الخليفة بنفسه على الاستعدادات للحرب برّا وبحرا بعد أن توفّى كافور الإخشيدي صاحب مصر حتّى تألّف بذلك جيش عرمرم انطلق نحو الشرق في يوم مشهود يوم 14 من ربيع الأول358 هـ/6 فبراير969م خلّد ذكره الشاعر ابن هانئ في قصيدة طويلة مطلعها:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأنّ الأفق سدّ بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

ولّما وافى جوهر الإسكندرية دخلها من غير قتال بأن أعطى أهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم مستميلا بذلك المصرين، المتمسّكين بمذهب أهل السنّة، للدولة الفاطمية وجاعلا من حماية مصر من خطر القرامطة والروم البيزنطيين الغرض من تحوّل الدولة إليها من أرض المغرب. و لم يلبث جوهر بعد دخوله الفسطاط أن اهتمّ باتخاذ الإصلاحات الضرورية لتحسين الوضع الاجتماعي الاقتصادي بالبلاد وبناء مدينة القاهرة وبالتزام سياسة الحرية الدّينية والتسامح لإزالة ما كان عند المصريين من مخاوف بسبب قيام نظام سياسي وديني شيعي بوطنهم.

و لم يقض المعزّ بعد استيلاء جوهر على مصر إلاّ أربعة أعوام بإفريقية تأهّب خلالها لمغادرتها ونقل دولته إلى مصر وهيّأ إسناد السلطة نيابة عنه إلى أمير صنهاجة بلكّين بن زيري مخيّرا إيّاه على عليّ بن حمدون صاحب المسيلة الذي خلع طاعته وارتحل إلى الأندلس حيث أعلن ولاءه للخليفة الأندلسي.

وتحوّل المعزّ إلى قابس حيث رافقه بلكّين بن زيري ومنها خرج قاصدا مصر يوم الخميس 11 ربيع الأول 361 هـ/20 ديسمبر 972م ، وهكذا بعد أن آوت إفريقية الخلافة الفاطمية صارت مقرّا لأول دولة بربرية صميمة قائمة على عصبية صنهاجة التي لم تزل في أوجّ قوتّها فى حين ضعفت قوة العصبية الكتامية لما اعتراها من الوهن طوال نصف قرن في خدمة الدعوة الفاطمية.

وواصل المعزّ لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين بإفريقية رحلته باتّجاه مقرّ خلافته الجديد ونحو مصير جديد حيث بدأت عندئذ مرحلة أخرى من مغامرة الفاطميين بعد أن طويت أو كادت الصفحة المغربية من تاريخهم.

تنظيم الدولة:

النظام السياسي:

تعتبر الحقبة الفاطمية في تاريخ إفريقية تطوّرا مفاجئا في نظام الحكم الذي استحكم بالبلاد طوال قرنين، منذ استكمل فتحها في منتهى القرن الأول الهجري على أساس مذهب أهل السنّة الّذي تأصّل بها بانتشار مذهبيْ مالك وأبي حنيفة وانقراض سائر النّحل ولاسيما في العصر الأغلبي إبّان التدخّل العنيف للدعوة الشيعية الإسماعيلية في منتهى القرن الثالث وانتصارها ، اعتمادا على قوّة العصبية البربرية الكتامية.

وذلك أنّه كان من اللاّزم مع ظهور خلافة شيعية مضادة للخلافة العباسية التي كانت تعدّ خلافة أهل السنّة من المسلمين كافة، إقامة نظام ملائم للمبادئ الشيعية التي كانت تنادي بها الدعوة الإسماعيلية ؛ لإرجاع الحكم إلى مستحقّيه من ذرية رسول الله (ﷺ) من ابنته فاطمة وابن عمّه زوجها الإمام عليّ بن أبي طالب "**الوصيّ**" وخليفته الشرعيّ. لكنّ الخليفة الأول المهدي بالله عرف كيف يسلك سياسة متّسمة بالمرونة والسّماحة حرصا منه على تجنّب القطيعة مع النّظام السابق الّذي كان أهل البلاد متمسّكين به، وهكذا تعوّدت إفريقية على قبول الإجراءات التي تولّدت عمّا حدث ، من تحوّل في الوضع السياسي والاجتماعي والحياة الدينية ولاسيما باستئثار العناصر البربرية الكتامية بمقاليد السّلطة، غير أنّه بعد ربع قرن من إنشاء الدولة الفاطمية ظهر مع اعتلاء القائم بأمر الله شيء من التصلّب في سياسة البلاد على أساس تطبيق المبادئ الشيعية ونظام جبائي مرهق حتّى اندلعت ثورة البربر الخوارج الّتي

كادت تقوّض صرح الدولة والتي اغتنمها أهل البلاد المتمسّكون بمذهب أهل السنّة فرصة لإعادة النظام السابق أيام الأغالبة.

لكن مع انتصار الخليفة الثالث المنصور بالله لم تلبث الدولة الفاطمية أن استرجعت قوّتها على أساس ما عزّز جانبها من عصبية لم تزل في أوجّ مناعتها هي عصبية قبيلة صنهاجة الّتي تدعّمت بها عصبية كتامة التي أنهكتها الحرب تحت الراية الفاطمية البيضاء على عدّة واجهات برّا وبحرا من ناحية المشرق وناحية المغرب على حدّ سواء . ثمّ إنّ المنصور الذي كان سديد الرأي حكيما حليما تحاشى بعد انتصاره على أبي يزيد عقاب علماء القيروان على مساندتهم للعدوّ الخارجي واتّخاذ إجراءات تعسّفية مرهقة لأهل البلاد الّذين أنهكتهم الحرب وقاسوا الويلات من السلب والنهب وإفساد البربر في أرض إفريقية الخصبة بخيراتها الزراعية الثرية بمتاجرها وحرفها وصناعاتها، وقد سلك ابنه المعزّ لدين الله الخليفة الرابع نفس السياسة الحكيمة وبفضل استمالته للفقهاء الأحناف عرف - من غير أن يواجه أهل البلاد الأوفياء للمذهب المالكي - كيف يشيّد على قواعد متينة مؤسسات الدولة الفاطمية التي ستتمكّن قبل انتقالها إلى مصر من اكتساب قوّة عظيمة ستبلغ أوجها على ضفاف النيل في عاصمتها القاهرة التي قامت في مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي منافسة لبغداد عاصمة العباسيين على الاستئثار بالسيادة في العالم الإسلامي.

هذا وإنّ تصوّر السلطة في بيت الملك الفاطمي المنبثق عن عقيدة الإمامة يفرض قيام نظام من الحكم يشرف عليه الخليفة ويراقبه بنفسه ، ويرتكز إذن على جهاز من المؤسسات الإدارية والمدنية والعسكرية يسيّرها أعوان من الصقالبة والبربر والعرب ينسّق عملهم الحاجب وينفّذون أوامر الخليفة انطلاقا من قصر الخلافة باعتباره محور النشاط السياسي والتدبير لشؤون الدولة بأكملها.

التنظيم المالي:

أنشأ المهدي بالله بيتا للمال إثر اختلال بيت المال الأغلبي عندما انهارت الدولة الأغلبية بعد معركة الأربس وهروب زيادة الله الثالث إلى المشرق. ثمّ نقل بيت المال الجديد إلى دار المحاسبات بالمهدية عندما كمل بناؤها ، وعندما أسّس المنصور بالله مدينة المنصورية أنشئ بها ديوان نقلت إليه جميع دواليب المالية الّتي كان يسيّرها أعوان مختصون في الشؤون المالية جميعهم باستثناء بعض الموظفين العرب والبربر من أصل نصراني يحسنون التصرّف في شتّى الموارد الغزيرة التي كانت توفّرها الضرائب والرّسوم وإيرادات أملاك الدولة والمعاليم الموظفة على التجارة الداخلية والخارجية. وإلى

الأداءات المالية التي كانت تموّل بيت المال من جميع الدول في العهد الوسيط تضاف إيرادات خاصّة بالدولة الفاطمية تدرّ عليها أموالا طائلة ، هي إيرادات خارقة للعادة كان الأئمة يحصلون عليها من الطائفة الإسماعيلية التي كان كافة أفرادها المنتشرين في كلّ "الجزائر" التي تشملها الدعوة في جميع أنحاء العالم الإسلامي يؤدّون للإمام فريضة **"الخمس"** (وهي أداء أخماس كلّ ما يملكون ويكسبون). وهي فريضة تختلف عن فريضة الزكاة، لذلك كان للدولة الفاطمية ثراء لا نظير له في عصرها ، يدلّ على عظمتها عيار ممتاز من الذهب في الدينار الفاطمي الذي ظلّ ينافس الدينار العباسي والدينار البيزنطي ، بل يتفوّق عليهما من حيث القيمة والشأن.

التنظيم العسكري:

كان معظم الجيش الفاطمي يكتسي صبغة بربرية وصقلبيّة أساسا، خلافا لجيش الأغالبة الذي كان فيه العنصر الغالب عنصرا عربيا. وكان باعتبار أغلبه من حشود كتامة وصنهاجة في أغلبه من الخيالة المتعوّدين على القتال على صهوة جيادهم في المناطق الجبلية التي يترلون بها ، وقد أبلى فرسان كتامة ثمّ فرسان صنهاجة أحسن البلاء في شتّى الحروب التي خاضها الجيش على مختلف الواجهات البرية شرقا وغربا وبصقلية أيضا ضدّ عساكر الروم ، إلاّ أنّ النظام العسكري في عهد الدولة الفاطمية قد امتاز بإعداد أسطول حربي عتيد اضطلع بالقتال على وجه البحر ضدّ الأسطول الأموي الأندلسي وبالخصوص ضدّ الأسطول البيزنطي متفوّقا على هذا الأخير حتّى صار البحر الأبيض المتوسط في حوضه الغربي بحرا إسلاميا بعد أن كان بحرا "روميا". وقد ساعد على تفوّق الأسطول الفاطمي إنشاء القاعدة البحرية المجهّزة بداري صناعة جعلتا من مرساها أعظم المراسي الحربية في الحوض الغربي من المتوسط.

التنظيم القضائي:

إذا استثنينا الاختلاف الموجود حول المسائل المتعلّقة بالعقيدة يمكن الجزم بأنّ الفقه الشيعي الذي عمدت الدولة الفاطمية إلى العمل به في الحياة الدينية والاجتماعية وكذلك الاقتصادية ، لم يختلف كثيرا عن الفقه المالكي الذي كان يعمل بمقتضاه في عهد الأغالبة ، والذي ظلّ أهل البلاد متعلّقين به ، وذلك أنّ القاضي النعمان حرص في عهد المنصور بالله وخصوصا طوال عهد المعزّ لدين الله (عشرون سنة) على التوفيق بين المذهب الإسماعيلي ومذهب أهل السنّة ، وعلى أن ينسجم الفقه الفاطمي مع اتّجاهات الفقه المالكي الأساسية باعتبار وجوب التلاؤم في التشريع مع الوسط السنّي بقطع النّظر عن الاختلاف الواضح في إقامة بعض الطقوس

والشعائر الدينية. ويتجلّى حرص القاضي الذائع الصيت المذكور على تجنّب القطيعة مع نظام أهل السنّة ، لا في كتابه "**دعائم الإسلام**" فحسب ، بل كذلك في مباشرته لمهام قاضي القضاة و كذلك في شتّى وظائف الخلافة التابعة لخطّة القضاء كالحسبة أو أحكام السوق أو ردّ المظالم.

إذن رغم ما حدث من مناهضة أهل السنة للفاطميين التي لا تنكر – لكّن يجب أن يتجنّب الباحث في تاريخ الدولة الفاطمية تهويلها كما فعل بعض الباحثين – يمكن الجزم بأنّ الخلفاء الفاطميين الأربعة لم يحكموا إفريقية بأقلّ توفيق من أسلافهم الأغالبة، إنّهم بفضل ما امتازوا به من خصال الجدّ والحزم وسداد الرأي وإحكام التيسير والصّلاح قد عرفوا كيف ينشئون بإفريقية دولة ساعدت على تطوير الحضارة بها وعلى خلق لون حضاري خاصّ بهم ، سيشعّ تمام بريقه على ضفاف النيل طوال قرون

أ.د. فرحات الدشراوي

(الجامعة التونسية)

المصادر والمراجع

1) المصادر العربيّة:

- إدريس عماد الدّين الدّاعي (ت259هـ/872م): عيون الأخبار وفنون الآثار[تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب, الجزء الخامس] تحقيق فرحات الدّشراوي، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشّغل 1981.

- إدريس عماد الدّين الدّاعي (ت 259هـ/872م): عيون الأخبار [تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)] تحقيق محمّد اليعلاوي، دار المغرب الإسلامي، بيروت1985.

- جعفر الحاجب : سيرة جعفر الحاجب نشر إيفانوف، مجلّة كلية الآداب القاهرة 1936.

- الجوذري (منصور العزيزي) : سيرة الأستاذ جوذر تحقيق محمد كامل حسين ومحمد الهادي شعيرة، القاهرة.

- (ابن) حوقل أبو القاسم (ت. 367هـ/977): صورة الأرض، بيروت 1979

- الورجلاني (أبو) زكرياء (ت. 471هـ/1078) : كتاب سير الأئمة، تحقيق إسماعيل العربي بيروت 1982.

- المالكي عبد الله بن محمد (ت. 453هـ/1061) : رياض النفوس تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981 – 1984 (3 مجلدات).

- النعمان، أبو حنيفة (ت 363هـ/973م):افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، بيروت 1970 .

- " " : كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدّشراوي تونس.1975.STD

- " " : كتاب الهمّة وآداب إتباع الأئمّة، تحقيق كامل حسين, القاهرة.

- " " : دعائم الإسلام 1- 2 ، نشرFYZEE ، القاهرة 1370 / 1951.

- " " :المجالس والمسايرات, نشر كلية الآداب بتونس, 1978 .

2) المراجع العربية:

- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة 1964.

- حسن إبراهيم حسن و طه أحمد أشرف : عبيد الله المهدي، القاهرة 1947.

- " " " " " " المعز : ادين الله، القاهرة 1948.

- حسن علي إبراهيم : تاريخ جوهر الصقلي، القاهرة 1933.

- حسين محمد كامل : في أدب مصر الفاطمية، القاهرة 1970.

- الدشراوي (فرحات) : الخلافة الفاطمية بالمغرب التاريخ السياسي والمؤسسّات، نقلـه إلى العربيـة حمادي الساحلي بيروت 1995.

- الطالبي (محمد) : الدولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيادي ، دار الغرب الإسلامي بـ يروت 1984.

- لقبال(موسى) دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية، الجزائر 1979.

3)المراجع الأجنبية:

(1) M.CANARD, L'impérialisme des fatimides et leur propagande, A.I.E.O., VI,PARIS 1942- 1947, 162 – 199.

(2) ‘’ Une famille de partisans, puis d'adversaires des fatimides en Afrique du Nord, Mélanges G. Marçais, II, 33 – 49.

(3) ,L'autobiographie d'un chambellan du Mahdi Obeidallah le fatimide (trad. De la sirat Gafar – el Hagib), Hespéris, 1952.

(4) F.DACHRAOUI, Le Califat Fatimide au Maghreb- Histoire politique et Institution, Tunis 1981.

(5) M.YAALAOUI, Un poète chiïte d'occident au IV – X[e] siecle, Ibn Hani al-Andalusi, Tunis1976.

(6) I. HARBEK, Die slawen in Dienste der Fatimiden, Archiv.orientalni,XXI, Prague, 1953 (4), 543 – 581.

(7) B. LEWIS, The origins of Ismailisme : a

study of the historical background of the fatimide califate, Cambridge, 1940, Trad., usul al Ismailiya, Le Caire 1947.

(8) V. W. MADELUNG, Fàtimiden und Bahrainqarmaten, daus der Islam, T.34,1959 pp. 34 – 88.

(9) DIEHL : L'Afrique byzantine, Paris 1896.

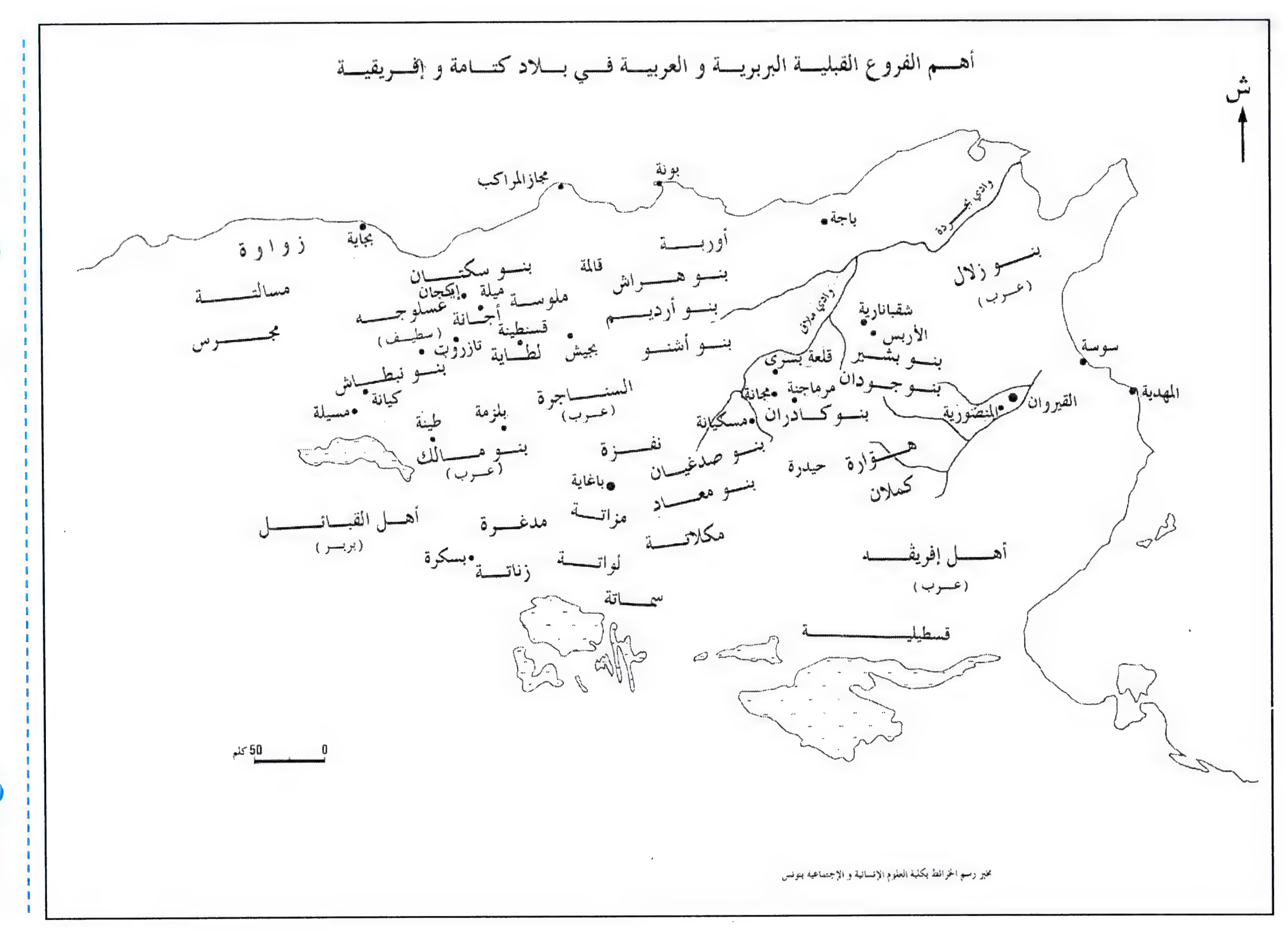
(10) FEKI : Les idées religieuses et phylosophiques de l'Ismailisme fatimide, Tunis 1978.

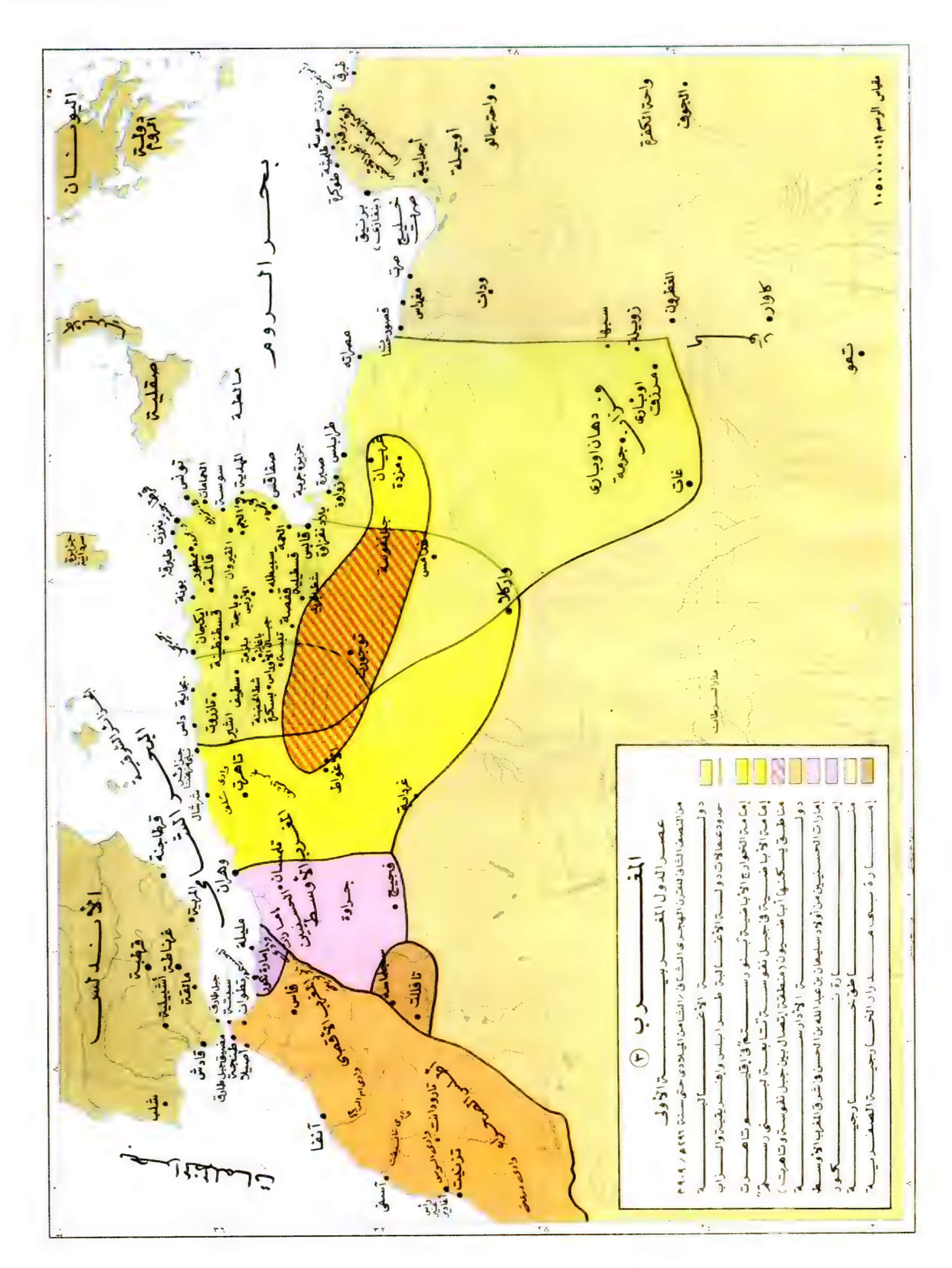
(11) HAMDANI : Some aspects of the history of the Fatimid period, Libya during 1968.

(12) STERN : Heterodose Ismailism at the time of

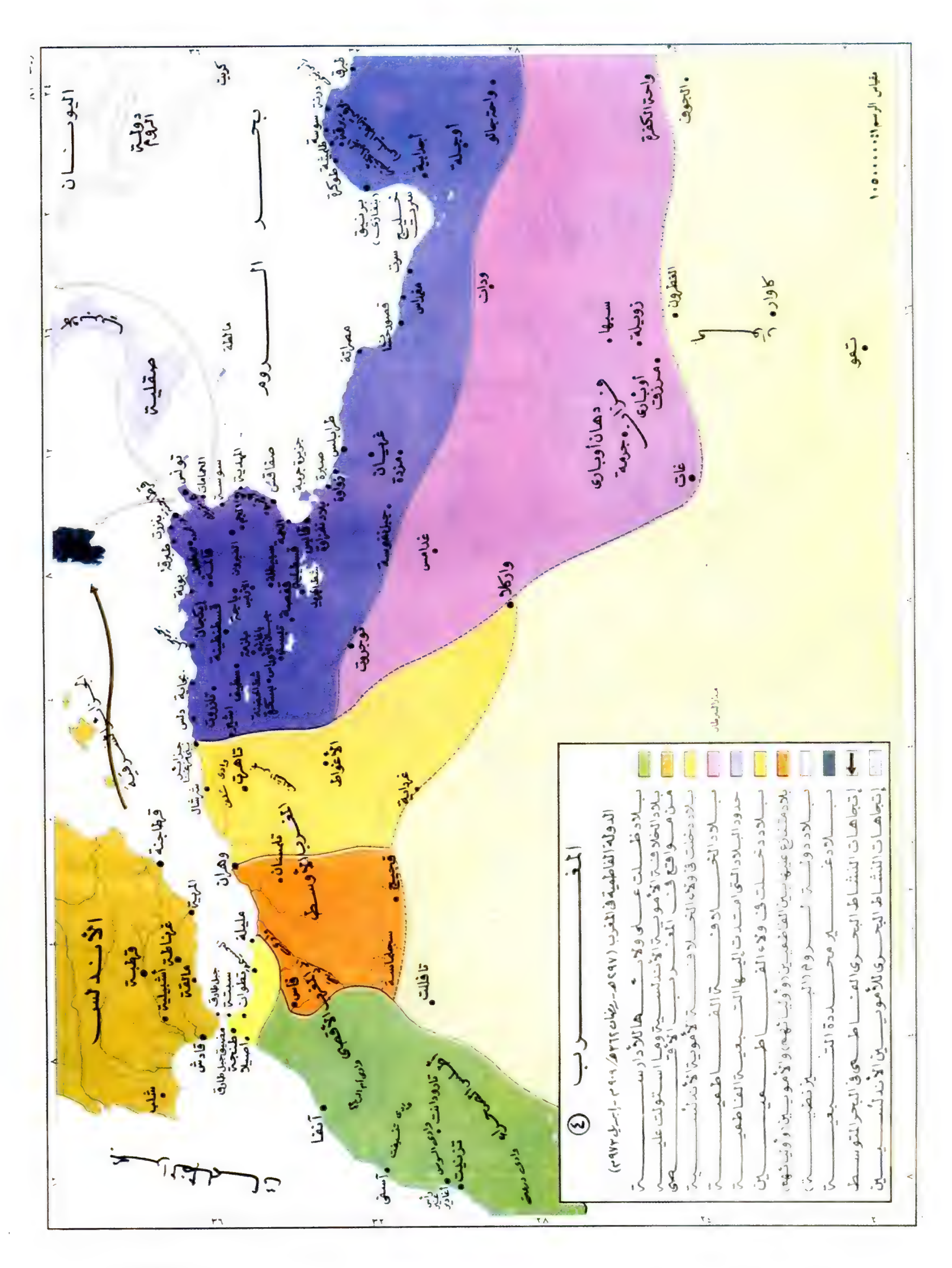
(13) Mo'izz, BSOS 1955.

(14) TALBI : L'Emirat aghlabide, Paris 1966.


أهم الفروع القبلية البربرية و العربية في بلاد كتامة و إفريقية
ش
مجاز المراكب
بونة
باجة
وادي مجردة
بجاية
زواوة
أوربة
قالمة
بنو سكتان
بنو هراش
مسالتة
إيكجان
ميلة
ملوسة
عسلوجه
أجانة
بنو أرديم
بنو زلال
(عرب)
شقبنارية
مجرس
(سطيف)
قسنطينة
الأربس
تازروت
لطاية
بجيش
بنو أشنو
وادي ملاق
قلعة بسري
بنو بشير
سوسة
بنو نبطاش
السناجرة
(عرب)
مجانة
مرماجنة
بنو جودان
كيانة
المنصورية
القيروان
المهدية
مسيلة
طبنة
بلزمة
مسكيانة
بنو كادران
بنو مالك
(عرب)
نفزة
بنو صدغيان
هوارة
حيدرة
باغاية
كملان
بنو معاد
أهل القبائل
مدغرة
مزاتة
(بربر)
مكلاتة
أهل إفريقية
(عرب)
بسكرة
زناتة
لواتة
سماتة
قسطيلية
0
50 كلم
مخبر رسم الخرائط بكلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية بتونس



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984

الفصل الثالث : الطور الثالث

(من أواسط القرن الرابع هـ - أواسط القرن الخامس هـ/
أواسط القرن العاشر م - أواسط القرن الحادي عشر م)

الخلافة العباسية والبويهيون (334هـ - 447هـ/945 م – 1055م)

الخلافة الأموية في الأندلس (316هـ - 422هـ/ 928 م- 1031م)

الكيانات في العراق والجزيرة والشام

الكيانات في الجزيرة العربية (اليمن - عمان - الحجاز)

1) الخلافة العباسية والبويهيين 334-447هـ/945-1055

وضع الخلافة العباسية قبيل الغزو البويهي:

واجهت الخلافة العباسية منذ وفاة الخليفة الواثق بن المعتصم سنة (232هـ /747م) الذي لم يترك وريثا شرعيا للخلافة – تحديا سياسيّا خطيرا ؛ إذ هيأت هذه الحادثة فرصة كبيرة أمام الجند الأتراك أن يسيطروا على الموقف لصالحهم باجتماع رأيهم على تولية المتوكل خليفة ، وهم يتوقعون بهذا العمل أن يصبح المتوكل طوع البنان في تنفيذ مآربهم، غير أن آمالهم وتوقعاتهم خابت إذ سرعان ما دخل المتوكل في صراع سياسي جريء يهدف إلى الحد من تدخل القادة العسكريين في الأمور السياسية، لكن النجاح كان إلى جانب العناصر العسكرية الأجنبية ، إذ تآمروا على قتل الخليفة حفاظا على مصالحهم فتم لهم ذلك سنة 247 هـ/862. بذلك يعد مقتل الخليفة بأيدي الجند الأتراك بداية عملية لتسلم العسكريين مقاليد السلطة السياسية وتسيير إدارة الدولة واقتصادها وجهة توافق مصالحهم المادية الجشعة المتغيرة تبعا لزعاماتهم. وقد تميزت حقبة التسع سنوات التي أعقبت مقتل المتوكل تعاظما واضحا في نفوذ الجند الأتراك ، فراحوا يتدخلون في اختيار الخلفاء وتعيينهم أو عزلهم، وقد عبر عبد الله بن المعتز عن هذه الحالة في أرجوزة جاء فيها :

وكل يوم ملك مقتول
أو خائف مروع ذليـــل
أو خالع للعقد كيما يَغْنَى
وذاك أدنى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش
قد نغصوا عليه كل عيش
وكل يوم شغب وغصب
وأنفس مقتـــولة وحرب

ومع أن الموفق، ولي العهد، والخليفتين المعتضد والمكتفي، قد عملوا بنجاح على إعادة الهيبة السياسية والإدارية للخلافة بالوقوف بحزم بوجه تسلط القادة الأتراك فإن الأحوال سرعان ما عادت إلى سابق عهدها خلال خلافة المقتدر 295هـ-320هـ/907-932م. فعاد الصراع بين الإداريين من جهة وبينهم وبين القادة العسكريين من جهة أخرى، إلى أن ساد نفوذ العسكريين بشكل واضح عندما سيطر أمير الأمراء سنة 324هـ/ 936 على بغداد وتحكم بأمور البلاد عشر سنوات، وعمل فيها أمير الأمراء على تجريد الخليفة من امتيازاته وصلاحياته الإدارية .

ومع ذلك فإن تنامي نفوذ الجند الأتراك وتحكمهم المباشر في إدارة مقاليد الأمور يختلف

عما حدث خلال العصر البويهي- الديلمي بعدة مجالات منها :

- أن السيطرة البويهية جاءت نتيجة غزو عسكري اجنبي من الخارج باتجاه مركز الخلافة العباسية.
- تحولت الإمارة البويهية بعد سيطرتها على العراق إلى مؤسسة وراثية لنفس الأسرة. وقد هيمنت على شؤون العراق السياسية والإدارية والاقتصادية قرابة مائة وأربع عشرة سنة.
- استمرار الصفة العسكرية للبويهيين حتى نهاية سيطرتهم سنة 447 هـ / 1055م.

بدأ تغلغل الجند الديالمة في صفوف الجيش العباسي قبل السيطرة البويهية، وقد تسلم عدد من الديالمة مسؤوليات عسكرية وإدارية كأمير الأمراء أو قيادة الجيش أو صاحب شرطة أو متقلد لأعمال المعاون. وقد تذمر أهالي بغداد كثيرا من هيمنة الجنود الديالمة خلال حقبة أمير الأمراء، فتظلموا سنة 329 ه/940 منهم لاعتدائهم على الناس ونزولهم دورهم دون ان يدفعوا أجرا.

أ- وضع الخليفة قبيل الغزو البويهي:

فيما عدا الحقبة الطويلة التي تولى فيها الخليفة المقتدر بالله (295-320هـ 907-932م) فإن أربعة خلفاء شغلوا العشر السنوات التي سبقت سيطرة البويهيين للعراق. فبعد أن تمكن الجند البربر من قتل المقتدر بتحريض من مؤنس الخادم (القائد العسكري) وفى هذا اختلف العسكريون حول من يخلفه. ووقف مؤنس الخادم إلى جانب ابن المقتدر، لأنه هو الذي رباه ولأن جدته سوف تسمح بإخراج ما لديها من أموال ستكون من نصيبه، لكنه لم يفلح في ترشيحه وبويع محمد بن المعتضد بالخلافة ولقب بالقاهر بالله. و لم يبايع القادة القاهر إلا بعد أن اقسم لهم "وتوثقوا منه بالإيمان والعهود". و لم ينجح الخليفة القاهر فى تلبية طلبات الجند المستمرة، فلم تمض سنة حتى بدأ القادة العسكريون مؤنس ويلبق، بالاشتراك مع الوزير ابن مقلة في التضييق عليه، وفي سنة 322هـ/ 933م تآمر الجند الحجرية والساجية على الخليفة فاقتحموا عليه الدار وقبضوا عليه وأخرجوا أبا العباس محمد الحجرية والساجية على الخليفة فاقتحموا عليه الدار وقبضوا عليه وأخرجوا أبا العباس محمد بن المقتدر من السجن وأجلسوه على سرير الخلافة وبايعوه، وتلقب بلقب الراضي بالله. وظل الراضي خليفة حتى موته سنة 329 ه/940 دون أن يترك وليا للعهد فبقي كرسي الخلافة السنة تآمر توزون، أمير الأمراء، على الخليفة فقبض عليه فى أثناء عودته من الرقة وحجزه ثم سمله ، وقد كان توزون قد أعطى البيعة إلى عبد الله ابن المكتفي قبل عودة الخليفة من الرقة، وتلقب

الخليفة الجديد بالمستكفى بالله. وهو الخليفة الذي تم في عهده الغزو البويهي.

ساد هذه الحقبة تصارع حاد بين ثلاث قوى: الإداريون وفيهم الوزراء والكتاب، والقادة العسكريون ابتداء بمؤنس الخادم ومرورا بالقادة الآخرين الذين تسلموا منصب أمير الأمراء والنساء وحاشية البلاط وبالأخص الدور الذي لعبته السيدة، أم الخليفة المقتدر، والقهرمانات كأم موسى واختيار . فكان من بين أهم النتائج السلبية لتصارع هذه القوى سيادة عدم الاستقرار الإداري في جهاز الدولة، وانشغال المتصارعين فيما بينهم لتحقيق مآربهم الخاصة دون الالتفات إلى تحسين أوضاع المجتمع. فبذروا الأموال بصورة غير واقعية وازدادت كفة المصروفات زيادة كبيرة ، فتدهور الوضع المالي وازداد العجز المالي سوءا، يحدثنا مسكويه أن الخليفة المقتدر قد بذر أموالا طائلة خلال خلافته قدرت بحوالي... و89.830 دينارا وكان الخلفاء الذين سبقوه معتادين على أن يستفضلوا مليون دينار في كل سنة ، وهو ما عمل به المعتضد والمكتفي. لذلك يكون جملة ما ينبغي ان يوفره المقتدر خلال خمس وعشرين سنة من حكمه خمسة وعشرين مليون دينار. لكنه لم يترك بعد قتله شيئا يذكر.

وحول ارتباك الشؤون الإدارية نضرب مثالا واحدا ، وهو ما حدث سنة 324 هـ/935، رهي السنة التي أجبرت الظروف الصعبة الخليفة الراضي بالله على استدعاء محمد بن رائق ضامن واسط ليكون أميرا للأمراء. كان الوزير آنذاك ابو علي بن مقلة غير أنه وقع ضحية الصراع القائم بين الإداريين والعسكريين فقبض عليه الغلمان الحجرية وهو في طريقه لمواجهة الخليفة. وسألوا الخليفة استيزار علي بن عيسى بدله، لكن الأخير امتنع ورشح اخاه عبد الرحمن، و لم يفلح عبد الرحمن بعمله بعد فترة وجيزة من تقلده الوزارة حتى اضطر، بسبب العجز المالي، إلى أن يسال الخليفة إقراضه عشرة آلاف دينار فكانت نهايته أن قبض عليه الراضي بالله، وقلد الوزارة الكرخي. و لم يكن حظ الكرخي أفضل من حظ عبد الرحمن ؛ إذ انقطعت عليه الموارد وقلت هيبته فاضطر بعد ثلاثة شهور ونصف إلى الهرب وترك منصبه فاستوزر الراضي سليمان بن الحسن بدله، فواجه سليمان مصاعب كبيرة لم يستطع حلها الأمر الذي دفع الخليفة إلى مراسلة محمد ابن رائق ليسلمه وظيفة إمرة الأمراء التي تعني منحه مسؤولية مطلقة في حكم بغداد.

وكما هو واضح كانت الأزمة المالية المزمنة التي عانت منها الخلافة العباسية منذ عصر المقتدر فصاعدا العامل الأساس الذي أدى إلى تزايد

الاضطراب الداخلي وعدم الاستقرار الإداري وعدم التوازن في الميزان الاقتصادي بين ما يدخل بيت المال من موارد ونفقات الخليفة وحاشيته والإداريين. ويكاد يكون صحيحا القول بأن كل وزير كان يتعهد قبل وزارته ان يوفر للخليفة الاموال بوسائل شتى منها، وبشكل خاص ، مصادرته أموال الوزير السابق وموظفيه الكبار، لكنه سرعان ما يجد نفسه أمام المشكلة ذاتها وهي: شحة الأموال التي يحتاجها للأنفاق، ولاسيما دفع رواتب الجند وأرزاقهم الخاصة كمال البيعة أو صلة البيعة فيضعف موقفه وتقل هيبته أمام الخليفة والعسكريين فيعزل ويصادر بعد أن يعذب.

وقد دفع هذا العجز المالي الحاد الخليفة إلى إن يعين ابن رائق التركي أميرا للأمراء وسلمه مقاليد الأمور بهدف حل المصاعب المالية ، لكن توقعاته قد اثبتت انها غير واقعية على الرغم من منحه أمير الأمراء صلاحيات سياسية وإدارية واسعة. فلم يستطع ابن رائق ولا من أعقبه من الأمراء أمثال بجكم التركي وكورتكين وتوزون وابن شيرزاد وهم من الأتراك أيضا من التغلب على الأزمة المالية.

ساعد استحداث منصب امير الأمراء على تزايد نفوذ الأتراك والديالمة خلال حقبة العشر السنوات، فسار نزاع حاد بين الزعامات الديلمية والتركية من جهة وجندهم من جهة أخرى. فالأزمة العالية المزمنة رافقها تصاعد احتجاجات القادة والجنود وتزايد مطالباتهم بتسلم ارزاقهم والزيادات التي اعتادوا على تسلمها.

و لم تتحسن مكانة الخليفة خلال حقبة امير الأمراء، وحقيقة أن المؤرخين يصورون الخليفة الراضي بأنه قد انفرد في تدبير شؤون الخلافة والجيش والشؤون المالية فكانت نفقته وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه وشتى الأمور تجري كما كانت عليه الحال زمن الخلفاء السابقين. ومع ذلك كانت أحوال الخلافة في زمنه قد عانت من الضعف والتمزق وسيطرة المنفصلين، اذ صارت بلاد فارس خاضعة لنفوذ علي بن بويه، في حين خضعت أصفهان والري والجبل لأخيه الحسن بن بويه، وكانت الموصل وديار بكر وربيعة ومضر تابعة للحمدانيين، أما مصر وبلاد الشام ففي أيدي محمد بن طغج ومن ثم الفاطميين،والأندلس تابعة لعبد الرحمن الناصر ، وخراسان وبلاد ما وراء النهر بأيدي السامانيين ، وطبرستان وجرجان تحت النفوذ الديلمي. وتدل بعض الروايات التاريخية بأنه لم يبق في يد الخليفة غير مدينة السلام وبعض السواد وتعطلت دواوين المملكة وضعف أمر الخلافة. فالخليفة لم يكن يعمل عملا دون أخذ موافقة أمير الأمراء، فيذكر مسكويه أن معز الدولة

البويهي عندما دخل بغداد وصف امير الأمراء، ابن شيرزاد باستهزاء قائلا : الأولى أن يكون قطانا منه كاتبا لكنه وجده مع ذلك قد تقلد الإمارة ببغداد (واستولى على الخلافة).

والظاهر أن الخليفة الراضي لم يكن سعيدا من تنامي نفوذ أمير الأمراء وهيمنته، ففي إحدى المناسبات دخل عليه أبو الحسن العروضي مؤدبه فوجده مغموما ومتضجرا من تحكم أمير الأمراء بجكم وكان ممسكا دينارا تقدر قيمته بعشرة دراهم مرسوم عليه صورة بجكم وهو متنكب سلاحه ومنقوش على جانبه البيت الاتي :

إنما العز فاعلم

للأمير المعظم سيد الناس بجكم.

فقد كان بجكم متحكما بشؤون الخلافة واختيار الخلفاء، إذ عندما توفي الراضي سنة 329 هـ/940م و لم يترك خليفة بعده ظلت الحالة السياسية على ما هي عليه بانتظار بجكم ليري : (فيمن ينصب للخلافة) وقد واجه خليفة الراضي بالله، المتقي بالله، محنة شاقة سنة 330هـ/941 عندما تأزمت الظروف السياسية في بغداد أثناء هجوم البريديين، على العاصمة، فاستنفر الخليفة الناس وقادهم وهم يحملون المصاحف لقتال البريديين، ولما فشلت المقأومة خرج مع ابنه هاربا إلى الشماسية (الصليخ حاليا) ثم إلى الموصل تاركا العاصمة تقع بأيدي البريديين. وتكررت حالة هروب الخليفة من العاصمة سنة 332 هـ/ 943 خلال الخلاف الذي وقع بينه وبين توزون أمير الأمراء، فهرب إلى الموصل مع حرمه ثم إلى نصيبين وبعد ذلك إلى الرقة وبقي هنالك فترة إلى أن تم الصلح بينهما فلما عاد إلى بغداد نكث توزون العهد فقبض على الخليفة وسمله.

تؤكد المصادر التاريخية أن أمير الأمراء لم ينجح في حل الازمة المالية المستعصية وأنهم جميعا ابتداء من ابن رائق حتى أخرهم ابن شيرزاد كانوا منشغلين بتوفير الأموال لسد أفواه جندهم. فمنذ سنة 325هـ فصاعدا يحدثنا التاريخ عن تكرر حدوث الشغب والفتن من قبل الجند بغية الحصول على أرزاقهم أو على الزيادات المعتادة حين تولية أمير الأمراء المنصب، وتأثر الناس جراء هذه التوترات السياسية (فلحق الناس أمر عظيم وكذلك من الضرائب حتى هرب التجار من بغداد وعاد هذا الفعل بالخراب وفساد الامر وزيادة الضائقة).

في خضم هذه الظروف السياسية والمالية والإدارية المرتبكة كان البويهيون من الجانب الآخر يحققون نجاحات عسكرية ضد جيش الخلافة العباسية، فاقتربوا من البصرة سنة 331 هـ/ 942م وبعدها بسنة وصلوا إلى واسط. هنا يذكر الصولي روايتين تفيد أحدهما أن أحمد بن بويه (فيما

بعد لقب بمعز الدولة) عندما اقترب من بغداد قرا على الناس كتبا زعم أنها "وردته من الخليفة المتقي لله يشجعه على التوجه إلى العاصمة"، وعلق الصولي على هذه الرواية بقوله " وذلك ما لا يكذب به أحد ممن سمعه لهرب الخليفة وما اظهرته من عدأوة للأمير"، وفي الرواية الأخرى يشير إلى أن الخليفة "اتهم بمكاتبته ابن بويه بأن يصير إلى الحضرة".

ومع أن الصولي وقف موقفا صريحا من الرواية الأولى فإنه وقف بحذر من الثانية. ومن المحتمل ان هذا الاتهام قد شاع لأن توزون كان يخطط إلى للتخلص من المتقي الخليفة الشرعي ومبايعة المستكفي سرا فألصق بالمتقي هذه التهمة لتعزز عمله المخطط له مسبقا.

فمن الواضع إذن أن تدهور الخلافة خلال عصر إمرة الأمراء كان نتيجة طبيعية لسياسة الراضي في منح ابن رائق جميع الصلاحيات إذ قلده " الإمارة ورياسة الجيش وجعله أمير الأمراء ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون في جميع النواحي وفوض اليه تدبير المملكة وأمر أن يخطب له على جميع المنابر في الممالك "، لذلك شعر ابن رائق بحقه في التدخل في خلع الخليفة وتعيين آخر بدله فشجعه هذا بمرور الزمن على تجاوز صلاحيات الخليفة الخاصة.

ب) اصل البويهيين وتوسعهم نحو العراق:

البويهيون من الديلم. والديلم اصطلاح استعمله الجغرافيون والمؤرخون العرب استعمالا جغرافيا وبشريا، فالديلم الخاصة موطن البويهيين يقصد به المنطقة الواقعة إلى الحد الجنوبي الغربي من بحر قزوين ويحده طبرستان من الشرق والجبال جنوبا وبحر قزوين إلى الشمال الشرقي وجيلان إلى الشمال الغربي. أما الديلم المنطقة الأوسع فهي منطقة تشتمل على خمس كور: خراسان وقومس وجرجان والديلمان والخزر. لقد جعل ارتباط الديلم جغرافيا بجيلان أوكيلان (المنطقة التي ينسب اليها شعب الجيل) الاسمين، الجيل والديلم، يذكران سوية في الغالب.

وهناك عدة روايات عن أصل البويهيين فرواية الصابي ترجعهم إلى أصل عربي وإلى قبيلة بني ضبة، التي كانت تقطن شمال بلاد نجد إلى جوار بني تميم وكانت أحدى القبائل التي أطلق عليها جمرات العرب، فأصلهم بناء على ذلك عربي عدناني. لكن المؤرخين شككوا في هذه الرواية لأن صاحبها الصابي قد كتب كتابه (التاجي في أخبار بني بويه) تحت إكراه عضد الدولة. أما الرواية الثانية فترجع نسبهم إلى الملك بهرام جور بن يزدجرد، الملك الساساني، وهي كما يبدو رواية مفتعلة أيضا ، كتبت بعد أن سيطر البويهيون

سياسيا ويقصد بها انتماءهم الارستقراطي. ولعل أقرب الروايات ما ذكر بأن بويه والد الإخوة الثلاثة المشهورين ينتمي إلى عائلة فقيرة، كان يحتطب الحطب على رأسه، وقيل إنه كان صيادا فقيرا.

لقد استثمر الديلم طبيعة بلادهم الجبلية، هناك سلسلة جبال الديلم التي وصفت بأنها منيعة للغاية، فتحصنوا في الجبال الوعرة ضد المحاولات العسكرية الموجهة ضدهم. كما أن هذه الطبيعة أملت عليهم صفة العزلة الاجتماعية والحضارية فكان نمطهم الإنتاجي الرعي والزراعة ويكتفون في طعامهم على الأرز والسمك (إذ وصفت الديلم بكثرة الأسماك وزراعة الرز وفواكه عديدة)، لذلك امتاز الديلم بالنحافة، كما وصفوا بالعجلة وضعف الثبات أمام التحديات. وفرضت عليهم العزلة رسوما اجتماعية خاصة ؛ فهم لا يزوجون بناهم إلى غيرهم ويضيفون الغريب وكانوا مشهورين باستعمال أنواع من الرماح القصيرة المعروفة بالزوبينات (الجوبينات). وديانتهم قبل دخول الإسلام كانت زرادشتية وثنية. وكان المسلمون يطلقون عليهم الكفار.

يرجع اسم البويهيين إلى أبيهم بويه ويقال إنه دخل في خدمة جيش ابي الحسن أحمد بن الناصر الزيدي وأبدى مهارة في القتال. وله ثلاثة أبناء علي (الأكبر) والحسن (الأوسط) وأحمد (الصغير). والمعلومات التاريخية تبين بأن دورهم فى أثناء صراع الزعامات الديليمية المتنازعة فيما بينها كالزيدية والزيارية (نسبة إلى مرداويج الزياري) وليلى بن النعمان وما كان بن كاكاي وأسفار ابن شيرويه وغيرهم لم يكن بارزا. وبدأوا حياقم العسكرية في جيش ماكان بن كاكي ثم انتقلوا لخدمة مرداويج حينما ارتفع شأنه عسكريا. وفي عهد مرداويج أخذ الأخوة الثلاثة يتطلعون إلى التوسع وظهرت أطماعهم حينما قلد مرداويج علي بن بويه منطقة الكرج لاستخراج الأموال منها، غير أنه استثمر هذه الفرصة لصالحه ولاسيما بعد أن شعر بغدر مرداويج. ولما كان علي يتمتع ببعد نظر وحسن تصرف مع جنده وأنه عامل أهالي المدن التي فتحها معاملة حسنة، وبالنظر إلى انشغال القوى السياسية الكبيرة المعاصرة لهذه المرحلة فقد أفلح مع أخويه في مسيرقم العسكرية غربا. فقد كان السامانيون قوة كبيرة لكنهم انشغلوا في إقرار سيطرقم على بلاد ما وراء النهر، كما انصرف عامل الخلافة العباسية في هذه المنطقة إلى مشاغل أبعدته عن خطر التوسع البويهي، وفوق ذلك كله فقد انشغلت الخلافة العباسية في معالجة الأزمات السياسية والمالية الخانقة أيام الخليفة المقتدر بالله فصاعدا. فجميع هذه الظروف قد سهلت مسيرة علي بن بويه فدخل الكرج وجمع الأموال والجند

فازداد حجم قوته ليبلغ ثلثمائة رجل من الديلم، ثم توجه بعد الكرج إلى همذان فاستولى عليها وجمع أموالا كثيرة استخدمها في جذب الجند والقادة، وبعد ذلك توجه إلى أصبهان فاستحوذ عليها بعد معركة مع عامل الخليفة انتصر فيها عليه وانضم إلى جيشه الديلم والجيل الذي كانوا في جيش المظفر بن ياقوت عامل الخليفة. وبعد أصبهان توجهت أنظار علي بن بويه نحو جرجان فاحتلها ثم سار إلى شيراز. وهنا نجح في السيطرة عليها نتيجة لسوء تصرف عامل الخليفة ضد أهالي المدينة. وبعد وصوله إلى شيراز كاتب عامل الخليفة للوصول إلى اتفاق وللحصول على شرعية الخليفة، لكن ياقوت (عامل الخليفة) رفض طلبه. فلم يكن أمام البويهيين إلا خوض معركة نجحوا بعدها في الاستيلاء على نوبندجان وكازرون وأعمال أخرى من بلاد فارس. ثم دخل مدينة إصطخر والبيضاء.

وتعد المعركة التي دارت رحاها في 22 جمادي الآخرة 322هــ/ 932م، هي المعركة الفاصلة في تحديد مستقبل البويهيين العسكري. اذ كان جيش الخلافة يتكون من سبعة عشر ألف رجل من الساجية والحجرية والرجالة المصافية ، في حين كان جيش علي يتالف من ثمانمائة رجل. وكسب علي المعركة فتوسع البويهيون باتجاه الأجزاء الجنوبية الشرقية من العراق فأخذوا الزرقان والدينكان، ثم صار المجال مفتوحا أمام البويهيين لدخول شيراز. ومن شيراز كاتب علي بن بويه ابن مقلة الوزير حالفا له أغلظ الإيمان بالطاعة والولاء، وقد عرض في مراسلته هذه مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف درهم مقابل حصوله على موافقة الخليفة. فحصل على الشرعية بتسلمه الخلعة واللواء لكنه لم يعط الرسول درهما واحدا. وبعد حصوله على موافقة الخليفة توجه جنوب عسكر مكرم ففتحها ثم رامهرمز. وفي سنة 323 هــ/934 حدثت مفاجأة وهي قتل مرداويج، فلم يبق أمام علي ابن بويه من منافس آخر في المنطقة سواه. وأصبحت بلاد فارس تحت سيطرته بصورة شرعية. ثم تزايد حجم قوته بعد انضمام أتباع مرداويج.

لذلك يمكن رسم صورة للخريطة السياسية لمناطق نفوذ البويهيين سنة 324 هــ/935 كالآتي : كانت بلاد فارس من حصة علي، أما أصبهان فصارت للحسن بن بويه، وتوجه الأخ الصغير أحمد بن بويه نحو كرمان فحارب شعبها البلوص والقفص ودخل سجستان واستولى على عاصمة كرمان. فلم يبق أمام الزحف العسكري البويهي باتجاه الجنوب والغرب سوى العراق.

وهناك موضوع آخر له أهمية في تقويم الغزو البويهي ، ذلك هو الطريق الذي اتبعه علي في توجهه نحو العراق. فاعتمادا على أوصاف

الجغرافيين فإن أكثر المدن والحواضر التي استولى عليها - وبدأ في الزحف نحوها أمثال همذان وإصطخر وشيراز والبيضاء- كانت من الحصون المنيعة التي وفرت له حرية الدفاع ولاسيما وأن أتباعه وجنده في المراحل الأولى قليلون ، مقارنة بجيوش مرداويج وياقوت وابنه المظفر.

فبعد أن سيطر أحمد بن بويه على كرمان توجهت أنظاره نحو بغداد فسيطر على مدن السوس وحصن مهدي ثم سوق الأحوازر، ومن هنا أخذ يشن هجمات سريعة على واسط فشن هجومين سنة 332 هـ /944م و333هـ /944م. وقد ساعدته في هجماته عدة عوامل :

- مقتل أبي عبد الله البريدي زعيم البريدين وما أعقب ذلك من ضعف لهذه القوة.
- موت أمير الأمراء القوي، توزون، وضعف خليفته ابن شيرزاد.
- اضطراب الجند الديالمة والأتراك وانعدام الأمن والاستقرار وسوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية.
- تفاقم الأزمة المالية.
- دخول متقلد أعمال المعاون في واسط في طاعة البويهيين.

ي جمادي الأولى سنة 334هـ /945م دخل أحمد بن بويه بغداد، وقبل دخوله استتر الخليفة المستكفي وأمير الأمراء خوفا من ان ينالهما أي أذى. غير أن كاتب أحمد تفأوض مع الخليفة فقال له الخليفة " إنه إنما استتر من الأتراك ليخل أمرهم فيحصل الأمر للأمير أحمد بن بويه بلا كلفة" . بعدها توجه أحمد لمقابلة الخليفة وبايعه وحلف له بأغلظ الأيمان. فلقبه الخليفة معز الدولة واعطى لقب عماد الدولة لأخيه علي ولقب ركن الدولة للحسن بن بويه.

واجهت معز الدولة بعد استيلائه على العاصمة عدة مشاكل سياسية تتمثل فى الموقف من الخليفة، فهو لم ير في الخليفة على حسب اعتقاد البويهيين الزيدي خليفة شرعيا فبادر إلى تصفيته مبررا عمله أن الخليفة قد خطط للتآمر على سلطته مع جماعة من القواد الديلم. أما المشكلة الأخرى فهي وجود الحمدانيين في الموصل واعتبارهم قوة سياسية يحسب لها حساب، وقد وقف الحمدانيون ضد الغزو البويهي. وبالفعل توجه ناصر الدولة الحمداني على رأس حملة عسكرية باتجاه بغداد بعد فترة قصيرة من سيطرة البويهيين واتخذ معسكره في سامراء ووجه أخاه أبا العطاف جبير نحو باب قطر بل الي بغداد واستقبله الأهالي. وتأزمت أوضاع معز الدولة لكن في النهاية شاءت الظروف العسكرية إلى أن ترجح كفة البويهيين فيضطر

الحمدانيون إلى الانسحاب والموافقة على بنود الصلح مع معز الدولة سنة 335هـ/946م. وبعد ذلك وجد معز الدولة نفسه امام مشكلتين أخريين في جنوب العراق، إذ كانت البصرة. وفي بعض الأحيان الأهواز خاضعة لنفوذ البريديين منذ حوالي سنة 320هـ، وقد أدى البريديون بزعامة أبي عبد الله البريدي دورا خطيرا في الأمور السياسية في هذه المنطقة. غير أنه من حسن حظ معز الدولة فإن الأسرة البريدية انقسمت على نفسها بعد موت أبي عبد الله. لهذا فإن الحملة العسكرية التي جهزها معز الدولة لإعادة ضم البصرة كانت ناجحة و لم تواجه أي عوائق عسكرية، إذ دخل البويهيون المدينة سنة 336هـ/947م ، وفرضوا سيطرتهم على منطقة البصرة. و لم يبق أمام البويهيين إلا السيطرة على البطائح (الأهواز). فقد ظهرت مشكلة سياسية كبيرة متمثلة بإمارة عمران بن شاهين. حقيقة أن بداية عمران السياسية كانت بسيطة غير أن سيطرته على البطائح، التي تحتل منطقة جغرافية واستراتيجية مهمة جدا بالنسبة إلى العاصمة، وتهديده الطريق التجاري النهري الحيوي الذي يربط الخليج العربي-البصرة- الأهواز ببغداد قد اشغل البويهيين كثيرا فحأول معز الدولة أن يفرض هيمنته على المنطقة بتجريده حملة عسكرية بقيادة وزيره الصيمري سنة 338هـ/949، وكادت تنجز مهمتها لكن الظروف جاءت لصالح عمران ففشلت الحملة البويهية على حين تنامت قوة عمران بمرور الزمن، ومنذئذ ظلت البطائح خارجة عن سيطرة البويهيين السياسية إذ فشل معز الدولة ومن اعقبه من الأمراء فى إعادة ضم البطائح حتى اضطروا إلى الاستسلام للأمر الواقع ، فعقدوا صلحا مع عمران ومن بعده ابنه الحسن يضم اعترافا شرعيا باستقلال الإمارة.

مرت الأسرة البويهية، من الناحية الاجتماعية العائلية، بتطورين أساسين، بلغت الروابط العائلية في المرحلة الأولى لظهور البويهيين وتوسعهم أشدها من حيث التماسك واحترام صغير العائلة كبيرها واطاعة أوامره والإخلاص والوفاء بين الأخوة الثلاثة. وكذا كانت هذه الرابطة القوية بين مؤسسي الإمارة البويهية علي بن بويه (عماد الدولة) وبين أخويه الحسن (ركن الدولة) وأحمد (معز الدولة) . ولقوة هذه الروابط بين أفراد الجيل البويهي الأول لم يحدث أي تصادم في المصالح بين الثلاثة، على عكس ذلك فقد ساعدتهم هذه العوامل على إحراز الانتصارات المتلاحقة والحصول على مكاسب سياسية وعسكرية واقتصادية خلال المراحل الأولى لظهورهم ، فقد تم توزيع مناطق نفوذهم توزيعا يتناسب ومكانة كل منهم في العائلة والدور العسكري لهم، فصارت جميع بلاد فارس من حصة

علي ابن بويه في الوقت الذي لم يكسب الأخ الأوسط الحسن على حصته في حكم أصبهان إلا بعد اكتمال نصرهم على بلاد فارس والاهواز. أما الأخ الأصغر أحمد فإنه لم يكن له ، حتى تلك الحقبة المتاخرة من توسع البويهيين صوب العراق دور عسكري بارز ولم يحصل على مكسب سياسي إلى أن اشتد أمر علي والحسن، عندئذ زودا أحمد بجيش من الديلم والأتراك وانتدباه لفتح كرمان، وبعد نجاح حملته وجه علي للسيطرة على العراق. وقد بقيت العلاقات بينهم يسودها مبدأ الاحترام المتبادل والتعامل المخلص ، فلم يقع أي اعتداء من أحدهم على مناطق نفوذ الآخر ولم يطمع احدهم في الاستحواذ على ممتلكات الآخر ، وهناك استشهادات عديدة تؤكد تلك الروابط ؛ فمما أوصى معز الدولة ابنه بختيار أن يطيع ابن عمه، عضد الدولة، لأنه " أسن منه واقوم بالسياسة". كما أن معز الدولة نفسه اتخذ إجراء عاجلا يوقف حملة الصيمري، وزيره، ضد البطائح في الوقت الذي أوشك فيه على القضاء على عمران بن شاهين وأمره أن يتوجه إلى شيراز لنصرة أخيه الأوسط ركن الدولة. وعندما أحس كبير العائلة عماد الدولة بقرب أجله استشار اخاه الأوسط لترشيح ابنه عضد الدولة لأن يكون حاكما على بلاد فارس بعده. فما إن أسدل الستار على آخر فرد في الأسرة وهو معز الدولة حتى بدات مرحلة جديدة في العلاقات العائلية ؛ إذا انفصمت تلك الوحدة وضعفت الرابطة العائلية القوية وأخذ أبناء الجيل الثاني يتصارعون فيما بينهم حول التسلط والنفوذ، وطمع كل واحد منهم في أملاك الأخر من الأسرة، ويعد قتل عضد الدولة لابن عمه بختيار، الحاكم الضعيف، البادرة الأولى في النزاع بين أفراد الأسرة البويهية تبعه إضعاف نفوذهم ، ومن ثم نهاية حكمهم.

ينقسم التاريخ السياسي للبويهيين في العراق إلى مرحلتين، حكم في الأولى كل من معز الدولة (334-356/945-966) وابنه عز الدولة بختيار (356- 367 /966 -977) ثم عضد الدولة بن ركن الدولة (367-372/977-982). كان الشغل الشاغل لمعز الدولة السيطرة على العراق وتثبيت أركان الدولة منذ بداية سيطرته بتجهيز الحملات العسكرية ضد مراكز القوى السياسية القائمة أنذاك في شمال العراق، الحمدانيون، وفي جنوبه، البريديون وعمران بن شاهين. وقد نجحت خططه العسكرية هذه فأعاد البصرة والموصل إلى سيطرته لكنه فشل في ضم البطائح. علاوة على ذلك فإن معز الدولة حاول أن يرسي أسسا للعامل مع جنده الديالمة إذ كان يعاني كثيرا من عدم احترامهم له. فبعد فترة وجيزة جداً من غزوه بغداد تمرد عليه الديالمة وشغبوا عليه " شغبا قبيحا وكاشفوه بالأسماع وخرقوا عليه

بالسفه الكثير"، وكان خاله إسفهدوست لا يبدي أي اكتراث لمعز الدولة "ويكثر الدالة عليه ويقل الهيبة له، وكان يزري عليه في كثير من أفعاله".

وجاء تمرد روزبهان بن ونداد الديلمي سنة 345هـ/956م على معز الدولة ومناصرة الديالمة له ليكون عاملا مشجعاً إلى أن يميل إلى الأتراك ويعتمد عليهم بهدف الحد من نفوذ الديالمة. لكن خليفته، عز الدولة، لم ينهج هذا النهج فإنه إنصرف عن أمور الدولة وكان ضعيفا فبادر حينما تبوأ السلطة إلى ضرب الديالمة وقادهم. في المقابل وجد الأتراك بأن عز الدولة حاكم ضعيف لا إرادة له فإنحازوا وراء زعيمهم سبكتكين الحاجب. لذلك انشغل عز الدولة طيلة حكمه بمحاولة إعادة سيطرته على الجند، فحاول عبثا أن يوحد صفوف الديالمة والأتراك سنة 971/360 عن طريق ربطهما بعائلته برابطة المصاهرة. ولم تمض ثلاث سنوات على هذه السياسة حتى أنقلب على الأتراك فاشتعلت الفتن مرة اخرى بينهم وبين الديالمة إلى درجة كادت فيه أركان الدولة البويهية أن تقوض لولا تسلم عضد الدولة الحكم بعد معركة ضد بن عمه.

لما وجد عز الدولة أنه يقود معركة خاسرة ضد عضد الدولة اختار السلامة ودخل في طاعة بن عمه سنة 367هـ/977م. تولى عضد الدولة الإمارة وشؤون العراق الداخلية مضطربة جدا، ولحسن الحظ فإن هذا الأمير اعتاد على ضبط الأمور شخصيا وكان له جدول يومي منظم يشرف من خلاله شخصيا على سياسة البلاد .لذلك استقرت الأوضاع الداخلية كثيرا خلال عهده. ومنذ الأيام الأولى لتسلمه الأمارة صار وجها لوجه مع ما كان يعانيه العراق من مشاكل، فتعامل معها جميعا ونجح في السيطرة عليها وأعاد الوحدة السياسية للإمارة البويهية كما هو مبين فيما يلي :

- اتخذ إجراء عسكريا سريعا ضد التحالف الذي تم بين أبي تغلب بن حمدان وبختيار ابن عمه الذي خرج إلى الموصل بعد استسلامه لعضد الدولة. فقد نقض أبو تغلب شروط الاتفاق المبرم مع البويهيين لذلك قاد عضد الدولة جيشه ضد المتحالفين وكسب المعركة (وتسمى معركة قصر الجص) وقتل بختيار فيها.

- واستثمر هذه الحملة فتابع سيره نحو الموصل لاستعادتها، وكان أبو تغلب الحدماني قد تركها ظانا أن عضد الدولة سوف يتركها بعد فتحها فنقل الأموال والمؤن إلى القلاع. لكن ظنه قد خاب إذ عزم عضد الدولة على مواصلة حملته. ورفض الموافقة على الصلح فاستولى على أعمال الموصل وقلاعها وتابع أبا تغلب الذي هرب إلى ميافارقين ففتحها ثم فتح امد وديار مضر

والرحبة والقلاع العديدة التي كانت خاضعة لأبي تغلب الحمداني. وقد تمكن عضد الدولة قبل أن تنتهي سنة 368 هـ/978 من استعادة الموصل والجزيرة والقلاع الكردية و لم يفلت أبو تغلب ؛ إذ قتل في نهاية المطاف.

- التفت إلى المشكلة التي لم تحسم في البطائح منتهزا فرصة موت عمران بن شاهين فجأة سنة 369هـ/979. فجرد جيشا أوكل قيادته إلى المطهر بن عبد الله الوزير، ولكن المطهر طبق استراتيجية سبق أن أثبتت فشلها تقضي ببناء السدود على أفواه الأنهار بهدف تجفيف البطيحة. وبذلك لم يستطع ؛ إذ كان الحسن خبيرا بتهديم السدود ففشلت حملة المطهر واضطر عضد الدولة إلى عقد صلح مع الحسن على أن يحمل مقدارا من المال ورهينة إلى بغداد.

- إرساله حملة عسكرية ضد بني شيبان الذين اعتادوا الإغارة على المدن وقطع طريق الحاج، فأوقع أبو العلاء النصراني قائده بهم سنة 369 هـ/979.

- كذلك جرد حملة لمحاربة ضبة ابن محمد الأسدى الذي كان مسيطرا على عين التمر، فاستعاد سيطرته عليها.

- جرد حملة ضد حسنويه بن الحسين الكبردي في الجبال ونجح في فتح القلاع التي يعتصم بها حسنويه في همذان واليئور ونهأوند والقبض على بعض أولاده بعد قتل والدهم.

- التفت إلى إعمار مدينة بغداد التي احترق بعض محلاتها وخرب البعض الآخر وإعادة تنظيم أسواقها التي تعرضت بسبب الأحداث السياسية السابقة إلى حالة من الشلل. وشجع الأهالي إلى إعادة إعمار دورهم. وأصلح الأنهار التي دفنت، وبنى القناطر والجسور وسد البثوق وأخّر افتتاح الخراج.

أما المرحلة الثانية التي أعقبت مدة عضد الدولة فقد حكم فيها : أبو كاليجار المرزبان ابن عضد الدولة الملقب بصمصام الدولة (372-376هـ/982-86) ثم شرف الدولة أبو الفوارس شيروِل بن عضد الدولة (376-379هـ/986-89) أعقبه أبو نصر فيروز خواشاد بن عضد الدولة الملقب ببهاء الدولة (379-403/ 989-1012) وبعد موته توإلى على الحكم سلطان الدولة (403هـ-411هـ/1013-1020) ثم مشرف الدولة(412-416/1021-1025) وقد تلقب بلقب شاهنشاه. أعقب ذلك فترة اضطراب حاد في وراثة الحكم البويهي عندما تسلم الجند

الأتراك زمام الأمور فترددوا بين وريثين : أبو طاهر فيروز شاه بين عضد الدولة وأبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة، فاختاروا الأول في بداية الأمر ؛ إذ لقب بجلال الدولة وحكم من 418هـ حتى 435هـ/ 1027-1043 ثم تسلم أبو كاليجار الإمارة بعد موت جلال الدولة وحكم من سنة 436 حتى 440هـ/ 1044-1048 جاء بعده ابنه الأكبر أبو نصر خسرو فيروز الملقب بالملك الرحيم وهو آخر حاكم بويهي على العراق ؛ إذ حكم في سنة 440 ه/1048 حتى دخول السلاجقة بغداد سنة 1055/447. وقد أبقى عليه طغرلبك السلجوقي مدة ثم قبض عليه وسجنه ونفاه إلى قلعة طبرك في الري فمات هناك.

ساد الصراع الداخلي بين الأمراء البيوهيين خلال هذه المرحلة فكان عاملا بارزا في سقوط دولتهم. فاحتدم الصراع سنة 372هـ/982 بين الابن الأصغر لعضد الدولة (صمصام الدولة) الذي تسلم الإمارة وبين الابن الأكبر شرف الدولة الذي كان حاكما على كرمان. وقد أعلن انفصاله عن أخيه في الأحواز وأقام الخطبة لنفسه بدلا من أخيه. وتطور النزاع بينهما إلى وقوع مجابهة استمرت مدة غير قصيرة. وتأزمت العلاقة بينهما سنة 376 هـ /986حينما قرر شرف الدولة قيادة حملة عسكرية نحو الأحواز. ولما كان صمصام الدولة يواجه متاعب عسكرية صعبة فضل التفاوض والتوصل إلى صلح مع أخيه على أن يقيم الخطبة باسم أخيه في بغداد، لكن شرف الدولة لم ينتظر طويلاً فتوجه من عسكر مكرم باتجاه العاصمة مدعوما من الأتراك والديلم الذين هجروا جيش صمصام الدولة. فلم يكن أمام هذا إلا الاستلام، فصار العراق خاضعا لشرف الدولة. وبعد موت شرف الدولة تسلم الحكم بهاء الدولة مدة أربع وعشرين سنة، ولم ينج بهاء الدولة من أزمة التنازع مع أفراد عائلته ؛ إذ وقع في صراع مع عمه فخر الدولة، حاكم الري، الذي طمع في السيطرة على العراق، ووقعت معركة بينهما كان النصر فيها حليف بهاء الدولة. وما إن انتهى من مشكلة عمه حتى دخل في قرابة ثماني سنوات جهز فيها بهاء الدولة أربع حملات عسكرية كبيرة قاد بعضها بنفسه. وشاءت الظروف أن يقتل صمصام الدولة فخلى الجو السياسي لبهاء الدولة. وبعد موته تولى الحكم سلطان الدولة الذي فضل المكوث في شيراز... ومع ذلك وقع في صراع مع أخيه أبي الفوارس، حاكم كرمان، وحدث في هذه الحقبة تطور سياسي مهم متمثل فى ظهور قوة الغزنويين، فلما وجد حاكم كرمان نفسه ضعيفا أمام سلطان الدولة استنجد بمحمود بن سبكتكين الغزنوي ضد أخيه، وبمساعدته نجح في استعادة

كرمان. ولم يستمر طويلا إذ بعد انسحاب محمود عاد سلطان الدولة فامتلك كرمـــان.

كذلك حدث انقسام خطير في الأسرة بعد موت سلطان الدولة فكان الجند الديالمة والأتراك يؤيدون أبا كاليجار بن سلطان الدولة ثم حولوا طاعتهم إلى جلال الدولة، واضطربت الأحوال بينهما، وأثر هذا على أوضاع بغداد والمدن العراقية الأخرى التي سادت فيها الفوضى والفتن والاضطرابات واستمرت هذه الأوضاع حتى نهاية الحكم البويهي 447هـ/1055م.

ولقد شجع هذا الخلل والاضطراب في صفوف الأسرة البويهية على تصاعد المشاكل السياسية الأخرى خارج العراق. والتي لم يستطع البوهيون حسمها كما فعل عضد الدولة ؛ إذ اشتدت هجمات قرامطة البحرين على العراق فهاجموا البصرة سنة 373هـ/ 983م والكوفة سنة 375هـ/985م. كما استعاد بدر بن حسنويه الكردي قوته وفرض نفوذه على منطقة الجبل. وتكررت اعتداءات الأعراب على قوافل الحجيج والمراكز الدينية مثلما فعل الأصيفر المنتفقي الأعرابي، فقد اعترض الحاج سنة 384هـ/994م ومنعهم من المرور بين محطة زبالة والثعلبية بحجة أن الدنانير التي سلمت إليه في العام السابق كانت دراهم مطلية. واعترضهم أيضا سنة 394هـ/ 1003م وحاصرهم بهدف نهبهم. علاوة على ذلك فقد اعتدى أعراب بني رعب من بني هلال على طرق الحاج عدة مرات في سنة 399هـ و426هـ./1009م-1034م.

ومن التطورات السياسية التي ظهرت خلال هذه المرحلة بروز عدة قوى عربية ذات أصول قبلية على مسرح الأحداث، وأدت دورا سياسيا مهما جدا في المناطق التي سيطروا عليها من الفرات الأوسط والموصل وبادية البصرة أمثال إمارة بني مزيد وهم من بني أسد وإمارة بني عقيل في الموصل وبني خفاجة وبني عبادة. وقد اعتمد عليهم الأمراء البويهيون ومنحوا رؤساءهم لقب (ملك العرب) لكي يقوموا نيابة عنهم في ضبط الأمن على الطرق البرية.

المهم أن أمراء هذه المرحلة قد وصفوا بالضعف وعدم الكفاية الإدارية فكان أبو الفوارس بن بهاء الدولة ظالما سكيرا، في حين انصرف جلال الدولة باعتراف الجند الديلم إلى الشرب واللهو حتى إنه اضطر سنة 423هـ/1031م إلى بيع ثيابه وآلاته وممتلكاته في الأسواق حينما أختلت أموره وانقطعت عنه الموارد.

العلاقة بين الخليفة العباسي والأمير البويهي

هناك عدة عناصر أساسية أدت دورا في تحديد العلاقة بين الخليفة والبويهيين منها :

- لما كان البويهيون شيعة- زيدية فإنهم لا يرون أن هناك التزاما دينيا يفرض عليهم الولاء والطاعة للخليفة العباسي. وهنا ترد معلومات بأن عضد الدولة عندما فرض سيطرته على العراق خطط، سواء كان ذلك برغبة حقيقية أم لإضفاء الشرعية على حكمه أمام جنده الديالمة، في تغيير الاساس الذي ارتكزت عليه مؤسسة الخلافة بتعيين أحد الزعماء الزيديين خليفة، وهو على حسب ما ورد في الرواية أبو الحسن محمد ابن يحيى الزيدي العلوي الذي ذكر أنه التحق سنة 367هـ/977م بعضد الدولة حينما توجه إلى العراق لمحاربة ابن عمه. وكان أبو الحسن في مقدمة جيشه، ويبدو أنه كان قبل ذلك موجودا في بغداد. أما الرواية الأخرى فتشير إلى أبي عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الداعي الحسني . وتعكس المعلومات أن ابن الداعي كان في بغداد أيضاً إما قبل دخول البويهيين أو أنه رافق معز الدولة في حملته سنة 334هـ/945م. وكان يترل في محلة باب الشعير في دار تقع على نهر دجلة. وكان معز الدولة يظهر له احتراما كثيرا. غير أن الصيمري كاتب معز الدولة ووزيره نصحه بعدم تولية العلوي أو بن الداعي الحسني خليفة قائلا له (إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان وأطاعه الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك. وبنو العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مرارا وتمرض تارة وتستقل أطوارا ؛ لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ) ويقال : إن معز الدولة عدل عن رأيه فأبقى الخليفة وعين بن الداعي الحسني نقيبا للطالبيين. وفي رواية أخرى أن الصيمري قال له : (فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه.. ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم قتلك لفعلوه) وسواء أكانت هذه الروايات صحيحة أم لا فإنها تبين عدم فهم البويهيين وجندهم الديالمة بطبيعة إدارة الدولة العربية الإسلامية ومؤسسة الخلافة العباسية.

- على اعتبار أنهم قوة عسكرية فرضت سيطرتها بالقوة، لذلك فإن هيمنتهم على الخلافة وإخضاعهم الخليفة لإراداتهم وتسييرهم الأمور على وفق نزاعاتهم صار من أهم السبل في ترسيخ حكمهم وتثبيته أمام التحديات.

- على الرغم من أن الخليفة المستكفي بالله لم يمنح البويهيين تفويضا مطلقا لحكم البلاد، كما فعل الراضي مع أمير الأمراء، واقتصر على منحه الألقاب للإخوة الثلاثة وأن تذكر أسماؤهم على العملة، لكن البويهيين وجدوا في ذلك موافقة شرعية لهيمنتهم. علما بأن معز الدولة لم يتخذ، عند دخوله بغداد، إجراءات تجاوز فيها امتيازات الخليفة كما فعل أمير الأمراء.

تولى الخلافة، خلال العصر البويهي، خمس خلفاء، الثلاثة الأول منهم وهم المستكفي بالله والمطيع لله والطائع لله ، عاصروا الحقبة التي جهد فيها البويهيون، بالأخص معز الدولة وعضد الدولة، أنفسهم لتوطيد هيمنتهم على مؤسسة الخلافة. ولإتمام هذا المشروع عملوا دائما على انتزاع الامتيازات التي كانت خاصة بالخليفة وعلى إخضاع الخليفة لمشيئتهم فكان مصير هؤلاء الخلفاء الخلع، وقد خلع بعضهم بطريقة مشينة. فلم تمض على دخول معز الدولة إلا مدة قصيرة حتى خلع الخليفة إذ تقدم له اثنان من الديلم فمدا أيديهما إلى الخليفة، وظن الخليفة أنهما يريدان تقبيلها لكنهما جذباه وطرحاه أرضا ووضعا عمامته في عنقه وجراه إلى دار معز الدولة ماشيا فاعتقل هناك. ثم سمل معز الدولة عينيه وعزله ونهبت داره. لقد اتخذ معز الدولة هذا الإجراء بحجة أن الخليفة قد تآمر عليه مع ناصر الدولة الحمداني وأنه قد خطط لكسب تأييد بعض القادة الديالمة. و لم يكتف معز الدولة بخلع الخليفة بل أحضر الفضل بن المقتدر وبايعه وتلقب بالمطيع لله. وبقي المطيع خليفة مدة طويلة شملت جميع مدة حكم معز الدولة وابنه حتى سنة 363هـ/973م عندما خلعه القائد التركي- سبكتكين- لأنه وجد الخليفة مصابا بالفلج وشل حركته. على أن أكثر الإجراءات البويهية تجاوزا على امتيازات الخليفة قد بدات خلال خلافة المطيع لله وأخذت تتزايد في عهد من أعقبه، أما نهاية الخليفة الثالث الطائع لله فكانت في سنة 381هـ/991م عندما قبض عليه بهاء الدولة واعتقله وكتب كتابا باسمه يعلن خلع نفسه.

أما الحقبة التي تولى فيها الخلافة كل من الخليفة القادر بالله وابنه القائم بأمر الله فقد عاصرت المدة التي واجه فيها البويهيون مشاكل سياسية واقتصادية معقدة أضعفت من نفوذهم وزعزعت من مكانتهم إزاء جندهم الديلم والجيل والأتراك الذين انشغلوا بتراعاتهم الداخلية وإعلانهم الشغب على أمرائهم بسبب تأخر أرزاقهم. فتهيأت لهذين الخليفتين فرص ثمينة في دعم مواقفهما وتعزيز جبهتهما ضد البويهيين. ولأول مرة يحدث أن الخليفة القادر بالله قد ولى ابنه القائم بأمر الله العهد بعده فى أثناء خلافته دون معارضة البويهيين.

تعد عملية خلع المستكفي بالله وتولية معز الدولة للمطيع لله خليفة البداية الفعلية لمخطط معز الدولة في السيطرة على الخلافة لأنها من أهم وأقوى القوى السياسية في العراق، فأراد أن يشعر الخليفة الجديد ، المطيع، بفضله، لكن الأكثر من ذلك أنه استحوذ على إدارة الدولة فيقول المسعودي إن أكثر رسوم الخلافة والوزارة قد زالت وصار الخليفة مغلوبا على أمره. فخصص معز الدولة للخليفة كاتبا يدير إقطاعاته في الوقت الذي تمتع كاتبه بسلطات إدارية أوسع وتشابه سلطات الوزير، وبالفعل فأنه قلد الوزارة رسميا لكاتبه واعتدى معز الدولة على ضياع الخليفة فصادرها ووزعها على قواده وخصص له مرتبا محدودا لسد نفقاته ويقدر بألفي درهم كل يوم لكنه عاد فجرده من هذا المرتب سنة 336هـ/947م وعوضه بدله ضياعا من ضياع البصرة التي كان واردها السنوي في تناقص ومع هذا فإنه اعتاد على الضغط على الخليفة لنجدته ماليا عندما تشتد الضائقة المالية. وفي زمن ابنه عز الدولة اضطر الخليفة نتيجة لإلحاح الأمير البويهيين إلى بيع بعض ثيابه وانقاض داره بمبلغ أربعمائة ألف درهم قدمها له.

ومن امتيازات الخليفة الخاصة الخطبة من على المنابر وضرب الطبول أمام داره خمس مرات. وقد سبق القول بأن الخليفة الراضي منح امير الأمراء امتياز الخطبة لكنه لم يمنحه امتياز ضرب الطبول أمام منزله أوقات الصلاة. كذلك وافق الخليفة أن تذكر أسماء الأمراء البويهيين من على منابر الحضرة بعد الخطبة للخليفة مباشرة، وفوق ذلك فقد منح الطائع لله عضد الدولة امتياز ضرب الطبول (الدبادب) ، أمام منزله في بغداد ثلاث مرات يوميا (في الغداة والمغرب والعشاء). وقد علق المؤرخون على ذلك بقولهم: (وهذان أمران لم يكونا من قبل ولا أطلقا لولاة العهود ولا خطب بحضرة السلطان إلا له – عضد الدولة– ولا ضربت الدبادب إلا على بابه).

وتجاوز الأمراء البويهيين الأقوياء على المراسيم الخاصة بالخلافة، فالمعتاد أن الخليفة لا يخرج للاستقبال، فلما دخل عضد الدولة سنة 370هـ/980م بغداد على أثر انتصاراته في الموصل والجزيرة الفراتية أرسل مبعوث للخليفة يطلب منه الخروج لاستقباله فخرج على الرغم من أنه لم يكن راغبا في ذلك. كذلك زوج عضد الدولة ابنته إلى الخليفة .

واستحوذ الأمراء البويهيين على دور ضرب النقود وهو امتياز خاص بالخليفة، والأكثر من ذلك أنهم ضربوا اسماءهم والقابهم على العملة في حين اكتفوا بذكر اسم الخليفة دون لقب أمير المؤمنين.

وتمادى البويهيون في تجاوزاتهم باتخاذهم الألقاب المركبة الفخمة، حقيقة أن الخليفة المستكفي هو الذي منح الأخوة الثلاثة سنة 334هـ/ 945م ألقابا مفردة، غير أن الأمراء الذين تولوا الحكم بعد الجيل الأول أضافوا إلي القابهم ألقابا أخرى متعددة فصار لقب عضد الدولة مع لقب آخر هو تاج الملة، وصار لقب ، بهاء الدولة وغياث الامة وقوام الدين وسيف امير المؤمنين، ولقب أبو كاليجار نفسه بلقب شاهنشاه الديلم (ملك الملوك) كمحي دين الله وغياث عباد الله وقسيم خليفة الله.

كان الأمراء البويهيون يحذرون الخليفة ويشكون في مواقفه ومدى إخلاصه لهم ، لهذا اندفع معز الدولة إلى القبض على المستكفي لله عندما شعر بأنه يعمل ضده. وعلى الرغم من أنه ولي المطيع خليفة لكنه كان يخشاه ففرض عليه الرقابة والحجر عندما اصطدم مع الحمدانيين في معركة في بغداد، وبقي الخليفة مراقبا حتى سنة 335هـ/946م بعد أن استحلفه بأغلظ الأيْمان وألا يبغيه سوءا ولا يمالي له عدوا حينئذ (أزال عنه التوكيل وعاد إلى دار الخلافة).

وكذلك كان الحال بين بهاء الدولة والخيفة الطائع لله عندما تأزم وضع الأمير البويهي مع جنده و لم يكن لديه أموالا ليسد بها طلباهم فتوقع بأن الخليفة سوف يستثمر هذا الموقع لصالحه فكاتبه لمعرفة حقيقة موقفه وأن يتعهد له بالخلاص، وانتهى الأمر بين الطرفين ؛ إذ (حلف كل واحد منهما لصاحبه على التصافي وصحة العقيدة).

وساعدت المشاكل السياسية والاقتصادية التي واجهها البويهيون بعد عضد الدولة وانكماش هيمنتهم على جندهم على تصاعد قوة الخليفة وفعاليته في الأمور السياسية والاجتماعية فأخذ يفرض آراءه عليهم ويرغمهم على التراجع عن بعض إجراءاتهم وتصرفاتهم. كما أن الخليفة اتبع سياسة هادفة بتقربه إلى الأهالي وكسب تأييدهم، ومن حسن حظ الخلافة العباسية فقد تولاها خلفاء أتصفوا بالكفاية والحزم وقوة الشخصية والثبات سواء كان ذلك في تشديده على مراسيم خاصة تعكس هيبته أم بالتزام الدين والورع والتدين فكان القادر بالله من أهل الدين كثير المعروف ويميل إلى الخير وكثير البر والصدقات واعتاد أن يقصد الاماكن المعروفة بالبركة كقبر الشيخ معروف والشيخ ابن باشر وقام بأعمال عدة منها تعمير مسجد الحربية وتجهيزه بالكسوة. فوصف القادر (براهب بني العباس وزاهدهم) ، وعده الشاعر الرضي مجددا ؛ إذ قال :

شرف الخلافة يا بني العباس

اليوم جدده أبو العباس

هذا الذي رفعت يداه بناءها

العالي وذاك موطد الآساس

ورافق تحرك الخليفة في استعادة مكانته وهيمنته على مقاليد الأمور عدة عوامل :

1- مساندة الغرنويين، ولاسيما محمود بن سبكتكين، للخلافة العباسية.

2-ظروف البويهيين السياسية الصعبة واشتداد الأزمة المالية واضطراب الجند الديلم والأتراك.

3-انشغال البويهيين في حروبهم فيما بينهم، وغيابهم عن العاصمة أدى إلى ترك فراغ سياسي في بغداد ولاسيما بالنسبة إلى الجند، فاضطروا في عدة مناسبات إلى أن يلجأوا إلى الخليفة طالبين مساعدته في حل مشاكلهم.

وهناك عدة استشهادات تؤكد ظاهرة تحسن موقف الخـــليفة منها:

- تقليده الأمراء البويهيين ولاية بعض المناطق.

- منحه وزيره صلاحيات وسلطات واسعة ؛ إذ منح سنة 437هـــ/1045مَ الوزير ابن مسلمة امتياز النظر في أمور خدمته والتدخل لمصلحة الأهالي. وفي سنة 438هـــ /1046م طلب الخليفة من الوزير القبض على صاحب الشرطة لما ارتكبه من افعال مشينة بحق الناس. وأنه لقب وزيره بلقب جمال الورى وشرف الوزراء.

اثر البويهيين في الادارة :

الوزارة :

لقد أوجد العباسيون هذه المؤسسة الإدارية المهمة وأنها نمت وتطورت خلال العصر العباسي الأول. والمعروف أنه لم يكن للبويهيين منذ ابتداء أمر توسعهم في طبرستان أي مؤسسة تمثل الوزارة، فكانوا يقتصرون على اتخاذ كاتب. وحينما دخل معز الدولة بغداد كان أبو جعفر محمد بن محمد الصيمري يتقلد الكتابة له ثم جاء بعده أبو محمد المهلبي. وقد قلد معز الدولة الأخير منصب تدبير أعمال الخراج وجباية الأموال وهي واجبات كانت من اختصاص كاتب الإنشاء عند العباسيين. ومع أن تسمية الوزير لم تظهر بشكل رسمي إلا في سنة 345هـــ/956م عندما خوطب أبو محمد المهلبي بالوزارة بأمر من معز الدولة وخلع عليه وزاد في إقطاعه ، لكن التسمية وردت قبل ذلك منذ سنة 334هـــ/945م.

هناك عدة عناصر متشابهة بين وضع الوزير خلال السيطرة البويهية وبين وزراء عهد الخليفة المقتدر. ففي حقبة حكم عز الدولة الذي كان ضعيفا ومنصرفا عن أمور الدولة صار للوزير الدور المهم في حبك المؤامرات بغية تثبيت مكانته، وهذا ما وقع بالفعل بين أبي الفضل بن الحسن وأبي الفرج محمد بن العباس إذ لجأ كل منهما - بهدف الوصول إلى الوزارة - إلى إغراء الأمير البويهي بتوفير الأموال اللازمة والوشاية بالآخر والطعن بمقدرته الإدارية .

كذلك استعان بعض الوزراء بالقادة العسكريين لدعم مواقفهم في الوصول إلى المنصب

, كما فعل محمد بن العباس وأبو قرة ؛ إذ تقربا إلى سبكتكين الحاجب القائد التركي كي يؤثر على عز الدولة في تقليد أبي الفرج الوزارة.

وهنا أيضا ظهر دور النساء وتدخلهن في الأمور السياسية والإدارية فلجأ بعض الإداريين إلى نساء الأمير البويهي بهدف تعزيز مواقفهم، فتقرب علي بن الحسن الشيرازي، متولي البصرة، إلى (تحفة) قهرمانة بختيار لترشيحه إلى الوزارة منافسة منه لمحمد بن بقية. لكن بن بقية كان أسرع منه ؛ إذ سبقه بدفع خمسين ألف درهم رشوة للقهرمانة ، وبذلك تخلت عن الشيرازي. ويذكر أيضا أن أبا الحسن علي بن ظاهر كان له حظوة عند والده صمصام الدولة (وعظمت حاله ومنزلته عندها وعند صمصام الدولة لأجل خدمتها.. فاستعان بها ضد الوزير أبي الريان متهما أباه بأنه يميل إلى شرف الدولة الذي كان ينافس صمصام الدولة ، ولذلك قبض صمصام الدولة على وزيره واستولى أبو الحسن وبن عمه على مقاليد الأمور. ويعقب أبو شجاع على ذلك بقوله: (والدولة إذا كفلها النساء فسدت أحوالها ووهنت أسبابها) .

وظهرت خلال العصر البويهي بعض العوائل التي تفردت بشؤون الوزارة والإدارة أمثال عائلة بن فسانجس ؛ إذ اشتهر من أفرادها أبو الفضل العباس وابنه أبو القاسم الذي تقلد وزارة سلطان الدولة وأبو الفرج الذي تقلد وزارة جلال الدولة مرتينسنة 423هـ و439هـ/4031م-1047م وعائلة ابن ماكولا التي اشتهر منها أبو سعد ابن ماكولا فتسلم وزارة جلال الدولة. وابن عمه أبو علي بن ماكولا وتقلد الوزارة بعد ابي سعد ، وأبي عبد الله الحسين ابن ماكولا وتقلد منصب قاضي القضاة وكذلك أبو القاسم بن ماكولا تقلد الوزارة أيضا.

شهدت مؤسسة الوزارة بعض التطورات الجديدة إلى حد ما خلال العصر البويهي. أولها بما له علاقة بقيادة الجيوش. فالمعروف أن الخليفة العباسي في وقت مبكر قد لقب بعض الوزراء بلقب ذي الوزارتين (القلم والسيف)، غير أن مسؤولية إدارة كفة الحرب وقيادة الجيوش صارت تقليدا عمليا في عهد البويهيين أكثر منها لقبا إداريا. فكان وزير معز الدولة (الصيمري) (وأبو محمد المهلبي) ذا مقدرة وكفاية إدارية عسكرية مشهودة ، قادا الحملات العسكرية ضد عمران ابن شاهين وصاحب عمان. كذلك فعل أبو الفضل بن الحسين وابو الفرج محمد ابن العباس.

أما التطور الثاني فهو حصول الوزير على بعض الامتيازات كالألقاب الفخمة. فقد لقب الخليفة المطيع لله الوزير محمد بن بقية لقب الناصح وكناه وخلع عليه الخلع السلطانية، كما حصل

في سنة في سنة 364هـ/974م على لقب آخر مضاف إلى اللقب السابق وهو نصير الدولة. ولقب الخليفة أبا الحسن الكوكبي بلقب الكافي وخلع عليه وكناه، وتلقب الوزير أبو العباس الضبي بلقب الكافي الأوحد، وأبو علي بن حمولة بأوحد الكفاءة ، وهو تطور ارتبط بظاهرة تقليد الأمراء الألقاب المركبة الفخمة. وحصل بعض الوزراء على امتياز ضرب الطبول أمام منازلهم. فقد أطلق معز الدولة لوزيريه عندما بعثهما على رأس حملة ضد البطائح وعمان أن يضرب على أبوابها بالدبادب في أسفارهما وأوقات الصلاة. وبقي ذلك رسما لهما استمرا عليه بعد رجوعهما من مهمتهما الحربية وبذل الوزير ابن قرة الأموال إلى بختيار مقابل أن يضرب بالدبادب على بابه فوافق بختيار.

ومن المناسب ذكره أن سلطان الدولة كان واقعا تحت تأثير موظفيه فكان لوزيره بن سهلان نفوذ واسع إلى درجة إنه غضب كثيرا من كاتب الخليفة عندما تسلم كتابا من الخليفة القادر لم يذكر فيه عبارة (مولانا الوزير بل سيدنا) فاضطر الخليفة إلى أن يكتب اله كتابا اخر يحمل عبارة (من أمير المؤمنين إلى الحضرة العالية الوزارية) فهدأ غضبه على الرغم من أنه ظل غير راضٍ.

والتطور الثالث يتمثل فيما استحدث من جمع وزيرين في أن واحد ، فقد جمع عضد الدولة بين وزيريه القديرين نصر بن هارون وأبي القاسم. كما أثرت ـــ أم صمصام الدولة على ابنها في الجمع بين أبي القاسم العلاء وبين أبي الحسن بن برمويه، فخلع عليهما وجلسا جميعا في دست-الوزارة سنة 375هـ /985م وجمع بهاء الدولة بين ابن صالحان وأبي نصر سنة 382هـ/992م فكانا يتناوبان في الوزارة وفي تقديم اسم أحدهما على الآخر في المكاتبات.

كانت العادة المتبعة عند تقليد الوزير أن يقطع إقطاعا ويخلع عليه القباء والسيف والمنطقة المحليين بالذهب وأن يحمل على فرس بمركب ذهب (*)، ويخصص له عدد كثير من الديلم لمرافقته وحراسته وكان هذا رسماً من رسوم الوزارة وذكر أن الإقطاع الذي اقطع لأبي الفضل كان بخمسين ألف دينار سنويا، وذكر مسكويه أن هذا الإقطاع كان أيضا رسما من رسوم الوزارة. فهل يعني أن راتبه السنوي كان ذلك المبلغ 50.000 دينارا ؟ إذ جرت العادة في أوائل القرن الرابع الهجري أن يتقاضى الوزير رزقا ثابتا قدره خمسة آلاف دينار شهريا ثم ارتفع ليصل سبعة آلاف دينار، وهذا يعني أن رزقه خلال العصر البويهي صار أقل مما هو عليه قبل ذلك. ومع هذا فإن البويهيين اعتادوا مصادرة أموال وزرائهم أيضا ويظهر، من الأموال المصادر أن الوزراء كانوا يمتلكون أموالا وممتلكات كثيرة. فصادر بختيار من الوزير أبي الفرج تسعة

ملايين درهم ، وعندما عاد أبو الفرج إلى الوزارة فقد وعد بختيار أن يستخرج من أبين فسانجس سبعة ملايين درهم.

ارتبطت قوة الوزير أو ضعفه ارتباطا مباشرا بقوة الأمير البويهي أو ضعفه، ويمكن القول أن وزراء كل من معز الدولة وعضد الدولة وبهاء الدولة وإلى حد ما سلطان الدولة كانوا يتمتعون بنفوذ عال ومكانة مهمة مقارنة بوزراء بختيار الذي وصف بالضعف والانشغال بلهوه عن متابعة إدارة الدولة. وفعلا فقد وصف وزراء معز الدولة بالقدرة والحزم فكان أبو محمد المهلبي جامعا لأدوات الرئاسة وعرف غوامض الأمور وأسرار المملكة، كما كان فصيحا وسخيا وشجاعا تقرب إلى أهل الأدب والعلوم وشجع الناس على العمارة. وخفف الضرائب عن كل الفلاحين في البصرة. كما كان نصر ابن هارون وزير عضد الدولة مقتدرا ووصف بانه شيخ الكتابة وذو مقدرة بصناعة الحساب، أما ابن صالحان وزير بهاء الدولة فكان متتبعا لشؤون الإدارة ودأب على متابعة أعمال العمال وفرض عليهم الاهتمام بالجوانب الإدارية. ولما تقلد الوزارة (انتظمت الأمور على يديه كل الإنتظام ومن بين أعماله عند تسلمه الوزارة تخفيض أسعار المواد الغذائية ؛ إذ عمل على نقل الغلات من بلاد فارس في البحر وعلى استيراد المواد الأساسية من كل مكان فيقول الصابي: (ما رأينا وزيرا دبر من الممالك ما دبره. كذلك أنجب عهد سلطان الدولة عددا من الوزراء المصلحين نظير محمد بن علي ابن خلف الملقب بفخر الملك. فقد وصف بأنه كان كريما يتصدق على الفقراء والضعفاء ، وخصص الجرايات والأرزاق إلى الفقهاء، ومون خطباء الجوامع والمؤذنين بالأموال وتفقد المساجين وأطلق سراح من كان مسجونا على دين من دينار إلى عشرة دنانير، ومن كان مسجونا بأكثر من ذلك أطلق سراحه بكفالة. واهتم بتجميل مدينة بغداد، وعمر البثوق، وعمر سواد الكوفة.

في مقابل ذلك وصل إلى دست الوزارة وزراء غير أكفياء ، إذ فعندما تقلد عز الدولة الضعيف الإمارة انحط دور الوزير. وتوجه همه الوحيد إلى توفير الأموال إلى الأمير البويهي بمصادرة أموال الناس. وأوضح مثال على ذلك الوزير محمد بن بقية الذي صار وزيرا سنة 361هـ/971م وهو في الأصل صاحب مطبخ عز الدولة فلم يكن يستقل ولا يكمل لحمل دواة بين يدي وزير ولا يطمع في شيء من هذه المراتب). وكانت وظيفته قبل الوزارة تقديم الطعام لعز الدولة وحمل العصائر، وظل على هذه العادة حتى بعد أن تسلم المنصب. فكانت النتيجة أن سقطت هيبة الوزارة (وخربت البلاد واستقلت

الأطراف وانعدمت الأقوات). وانتهز الجند الفرصة ليهيمنوا على الموقف.

الدواوين :

شهدت مؤسسة الديوان تطورا خلال العصر العباسي الأول وتعددت مجالات أعمالها. وما من شك فإن إنجاز الخلفة المعتضد بالله في توحيد دواوين ولايات الخلافة العباسية في ديوان واحد هو ديوان الدار يعد عملا فريدا ؛ إذ الغى التعقيدات الإدارية. فجعل هذا الديوان موزعا على ثلاثة أقسام ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد. ثم وحد الأزمة بجعل هذه الدواوين مركزية يرأسها موظف واحد. وكان ديوان السواد من الدواوين المهمة جدا والمعول عليها ، فالسواد عماد المملكة. لهذا فقد أنيطت مسؤوليته بالوزير.

فالدواوين العباسية عديدة؛ نظير ديوان بيت المال العام وديوان بيت المال الخاص وديوان إقطاع الوزراء وديوان الضياع السلطانية وديوان المستغلات وديوان المصادرات وديوان الجهبذة وديوان البر والصدقات وديوان الجيش وديوان الشرطة وديوان البريد وديوان الرسائل وديوان الخاتم وديوان التوقيع وديوان الفض وديوان النظر في المظالم وديوان الموالي والغلمان.

حقيقة أن السيطرة البويهية قد جاءت في حقبة اضطراب الأحوال الإدارية في بغداد والمدن العراقية الأخرى لاسيما بعد أن فوض الخليفة الراضي أمير الأمراء تدبير شؤون الخلافة، إذ بطل مفعول الوزارة. يقول مسكويه: (فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال). غير أن وضع الدواوين خلال عصر البويهيين قد ازداد سوءا وارتباكا ؛ إذ بعد وقت قصير من دخولهم بغداد، واجه زعيمهم معز الدولة ضائقة مالية في عدم قدرته على دفع أرزاق الجند فلجأ إلى قطع الضياع السلطانية، لكنه لم يحقق غايته. إن إجراءات معز الدولة في جمع الأموال ومصادرة أموال الناس قد أدت إلى تدمير الاقتصاد (فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين) وكذلك (بطلت أزمتها وجمعت الأعمال كلها في ديوان واحد). والمعروف أن الأزمة إنما وجدت بهدف الإشراف على أعمال الدواوين المختصة بالشؤون المالية وضبط سياسية الإنفاق والتوازن بين المصروفات والواردات. ويبدو أن عملية الدمج قد شملت الدواوين المسؤولة عن الشؤون المالية فضلا عن ديوان الخاتم ؛ إذ اندمج في ديوان الرسائل. وديوان الخرائط اندمج في ديوان البريد ، وعرف صاحبه بصاحب البريد والخرائط.

وفوق هذا وذاك فقدت بعض الدواوين من شخصيتها المستقلة وبدا عليها الغموض. ومع هذا فإن الدواوين التي ورد ذكرها خلال العصر البويهي كانت أقل نسبيا من الحقب السابقة وأن بعضها علي

حسب ما يبدو قد ظهر لأغراض خاصة ووقتية. فمن الدواوين: هناك ديوان بيت المال وديوان الجيش وديوان الخاتم وديوان الفض وديوان النقد وديوان العيار وديوان الضرب- ضرب النقود- وديوان المظالم وديوان الإنشاء وديوان النفقات وديوان الخاص. واستحدث عضد الدولة المعروف بكفايته الإدارية وبسعيه لتطوير المؤسسات الإدارية ديوانا خاصا بالمراعي وفرائض الصدقات. وديوان الخاص هو ديوان أنشئ لإدارة الأراضي والنواحي التي اختصها بختيار ابن معز الدولة، وورد ذكر ديوان السلطان ، ويفهم منه أنه مختص بالأراضي والضياع وخراجها، وعلى حسب ما يبدو من الرواية أن هذا الديوان يختلف عن ديوان الضياع الذي ورد ذكره بشكل مستقل. كما ذكر أبو شجاع اسم ديوان هو ديوان الحماية. وهناك ديوان للمواريث. ومن بين الدواوين التي كانت تابعة لمؤسسة القضاء ديوان الحكم والأعوان وكان يديره خازنا.

جاء ذكر ديوان بيت المال باسم ديوان الخزانة أو باسم الخزانة أو الخزائن ، وسمي متقلده صاحب ديوان الخزائن أو الخازن. وهو ديوان كانت مهمته تتعلق بواردات الإقليم التابعة، وكان متقلده يتمتع بمكانة رفيعة. ويبدو أن مسؤوليته قد نيطت خلال عصر البويهيين بالوزير. أما عن سلطات الخازن وأعماله فإنه أيضا قد توسعت فصار مسؤولا عن وزن النقد وحمل أرزاق الجند شهريا. ومن بين موظفي هذا الديوان ناظر الخزانة.

صار ديوان الجيش من الدواوين المهمة في العصر البويهي وسمي بديوان العرض ، وقد تحمل مسؤوليته في هذا العصر العارض الذي كان إما ديلميا أو تركيا. وفي أحيان تقلد الديوان عارضان عارض للديلم فقط وآخر للأتراك والأعراب والأكراد.

وعلق البويهيون أهمية على ديوان البريد، وقد سمي بديوان الخبر والبريد ، وكان صاحب هذا الديوان يتمتع بمواصفات خاصة كأن يكون ثقة وكاتما للسر وعارفا بالطرق والأقاليم وعمال الخراج والضياع في تلك الأقاليم، وأولى عضد الدولة عناية خاصة بالبريد فقد اعتاد أن يستفسر في نهار كل يوم عن ورود (النوب) المترددة. وكان هناك وقت محدد لوصوله فإن تأخر وصول البريد (قامت القيامة) ويبدأ بالتحري عن أسباب التأخير فإن كان من تقصير السعادة يترل بهم أشد العقاب. فإذا وصل البريد يتولى صاحب ديوان الانشاء والرسائل فضه وفتح خرائطه ويطلع عليها الأمير فيأخذ منها ما كان له ثم يرسل الباقي إلى ديوان البريد ليقوم بتوزيعه. وهناك معلومات توضح أن أصحاب الخبر وجواسيس عضد الدولة كانوا ينقلون إليه الأخبار من مختلف البلدان. وهناك

أصحاب الخبر في المؤسسات الإدارية؛ إذ اعتادوا على نقل الاخبار والظلامات إلى عضد الدولة.

كما كان ديوان الشرطة أو ديوان المعونة من الدواوين المهمة يشرف عليه صاحب الشرطة ومسؤوليته حفظ الأمن والنظام في الداخل ومطاردة اللصوص داخل وخارج المدينة. وأصبحت مهمته خلال السيطرة البويهية شاقة ومحفوفة بالمخاطر لتعاظم الفتن وتفاقم الاضطرابات الداخلية بين الجند والأهالي وانقسام الأهالي إلى طوائف (*).

ليست هناك معلومات واضحة عن أرزاق أصحاب الدواوين، ومن المحتمل أنها كانت تختلف باختلاف الدواوين، فكان راتب صاحب ديوان السواد - وهو من الدواوين المهمة- خمسمائة دينار شهريا وهو أعلى الرواتب ؛ في حين كان صاحب ديوان الخاصة أو ديوان المشرق مائة دينار شهريا. وبلغت رواتب موظفي الدواوين عامة سنة 279هـ/892م بضمنهم أصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمديرين والأعوان وثمن الصحف والقراطيس والكاغد أربعة آلاف وسبعمائة دينار شهريا . وورد ذكر راتب خازن الحكم والأعوان في مؤسسة القضاء ستمائة درهم شهريا. في حين قبض كاتب القاضي ثلثمائة درهما وحاجبه مائة وخمسون درهما والفارض على بابه مائة درهم. وكانت العادة أن يتسلم صاحب الديوان زمن عضد الدولة إضافة إلى ما يستحقه شهريا رسم الكسوة في الشتاء والصيف ورسم مؤونته ومؤنة غلمانه ودوابه.

وكانت العادة جارية عند تقليد صاحب الديوان أن يخلع عليه الخليفة خلعة، فقد خلع الخليفة الطائع لله علي أبي الحسن صاحب ديوان الإنشاء وكناه ولقبه بالكافي وخلع عليه دراعة دبيقية وعمامة قصب وحمل على فرس بمركب.

وكان الوزير هو المسؤول عن تقليد اصحاب الدواوين، وفي أحيان يعين أيضا في كل ديوان كاتب يتولى أمره، وهناك في كل ديوان ناظرون ومتولون.

يبدو أن أصحاب الدواوين المهمة كانوا يلقبون بألقاب تعكس أهميتهم فكان صاحب الديوان، ربما ديوان السواد، يلقب بالرئيس. ولقب الكوكبي يلقب الكافي.

كان عضد الدولة من أنجح البويهيين في الشؤون الإدارية فكان يتابع أعمال الإداريين يوميا ويعمل في بعض الأيام حتى منتصف النهار لذلك اضطر اصحاب الدواوين إلى الإستمرار في العمل حتى غروب الشمس لينفذوا أوامره. ولم يسلم أصحاب الدواوين من حالة عدم الاستقرار السياسي والإداري التي سادت في العصر البويهي،

فكانوا كالوزراء يعملون على كسب تأييد العسكريين بغية الوصول إلى هذا المنصب. فيذكر أن صاحب الديوان خلال وزارة محمد ابن بقية الذي لم يكن مقتدرا من الناحية الإدارية واجه صعوبات في عمله فضعفت مكانته وقل نظره لاستيلاء ابن بقية على المملكة فلم يبق من هذا الديوان إلا الاسم. وذكر أن دار ابن الحمولي أحد كتاب الدواوين قد تعرضت لهجوم الناس سنة 389هـ/901 وأحرقوها فأحترق ما كان في داره من "حسابات الدواوين".

الضرائب :

ظلت ضرائب الخراج والجزية والزكاة والصدقات الموارد الثابتة الأساسية في العصر البويهي غير أن إجراءات جمعها قد واجه بعض التطورات الناتجة عن استحواذ البويهيين على سلطات الخليفة وامتيازاته. والمتغير المهم في هذا العصر هو ما طرأ بشان الموارد غير الثابتة، إذ استحدث البويهيون ضرائب عديدة في شتى الميادين. وقبل الحديث عن الموارد الثابتة لابد من القول بأن هذه الضرائب قد تأثرت كثيرا بالتطورات السياسية التي شهدها العصر فتناقصت واردات الخراج مما أدى بمرور الزمن إلى استفحال العجز المالي. ومن أهم هذه التطورات :

- كثرة عوامل الشغب بين صفوف الجند الديالمة والأتراك وتزايد طلباتهم
- سياسة الإقطاع الارتجالية التي سنها معز الدولة.
- انقطاع واردات بعض الولايات المهمة اقتصاديا كالبصرة والأحواز.
- الاختلاف الحاد بين نفقات البويهيين المتزايدة وواردات بيت المال المتدهورة. ففي إحدى المرات طلب معز الدولة من وزيره الصيمري أن يوفر له خمسمائة الف دينار لأمر مهم لا يحتمل التأخير، ولكن الوزير لم يستطع تلبية ذلك قائلا (فإذا لم يكن في الدخل فضل لذلك عن الخرج فمن أين أجيئك به).

إنصراف الأمراء البويهيون والقادة العسكرين والإداريين كالوزراء والعمال لجمع الأموال و لممتلكات. فقد ترك عضد الدولة مثلا حوالي 320 مليون درهم. وكان محمد بن عمر العلوي نقيب الطالبين يملك أموالا وضياعا كثيرة، وصادر بهاء الدولة منها عينا حوالي مليون دينار ثم صادره مرة أخرى فأخذ منه تسعين ألف دينار وأخذ من تركته خمسين ألف دينار.

أجبرت هذه التطورات البويهيين إلى إتخاذ إجراءات زادت من حدة العجز المالي من جهة

والتوترات الاجتماعية والتدهور الاقتصادي من جهة ثانية ؛ إذ زادوا من الضرائب الشرعية واستحوذ بعضهم على المواريث واستحدثوا ضرائب عديدة جائرة.

لقد أورد ابن حوقل أصناف الضرائب في العصر البويهي في بلاد فارس فكانت: خراج الأرض والصدقات وأعشار السفن وأخماس المعادن والمراعي والجوالي وغلة دار الضرائب والمراصد والمستغلات وأثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام... وكان الخراج فيها على ثلاثة أصناف ، ما يؤخذ على المساحة أو المقاسمة أو القوانين التي هي مقاطعات معروفة وضريبتها معروفة لا تزيد ولا تنقص سواء زرعت أم لم تزرع إذ يطبق عليها إجراء العبرة. ويبدو أن خراج المساحة من الأصناف الشائعة في أراضي العراق.

وفي الوقت نفسه فإن البويهيين اعتادوا على تضمين الأراضي والولايات مقابل دفع الأشخاص مبالغ متفق عليها. وكان جباية الخراج إما نقدا أو حصة معينة أو الجمع بينهما. فيجمع الحاصل ويكال أو يحصى ثم تعزل حصة الدولة، وأحيانا يقدر خراج الأشجار حسب العدد. وكانت أراضي البصرة والأراضي المحيطة بالكوفة وأراضي الوقوف عشرية، يدفع الفلاحون عشر محاصيلها.

ومع أن واردات الخراج والعشر قد تناقصت مقارنة بالعصور السابقة ظلت تشكل أهمية في ميزانية الدولة، فقد اطلع ابن حوقل مثلا على ارتفاع السواد سنة 358هـ / 968م الذي كان مضمونا لأبي الفضل فكان ثلاثين مليون درهم.

واطلع المقدسي، الذي يمثل مدة أواخر القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي على وثيقة في خزانة عضد الدولة فقرا خراج السواد بأنه بلغ 860.780.200 درهما، اما خراج دجلة فبلغ 85.000.000 درهما، وبلغ ضمان واسط البصرة من الخراج وبقية أصناف الضرائب ستة ملايين درهما لكل منهما، وبلغ ضمان العراق من حد تكريت إلى واسط يضمنها أعمال الكوفة ثلاثين مليون درهم. وبلغ خراج الحنطة والشعير في الموصل البالغ مساحتها ستة لأن كر ثلاثة مليون درهم وبلغ خراج الحبوب والقطان عشرة آلاف دينار.

ومن الإجراءات الجائرة في جباية الخراج، أن الجباة كانوا يجبون الزرع ولما يزل أخضرا ، وهو ما أرهق الفلاحين ودفعهم إلى ترك أراضيهم. وقد عمل أبو محمد المهلبي، وزير معز الدولة، على نقل سنة 350هـ /961م الخراجية إلى سنة 351هـ /962م وهي محاولة من هذا الوزير لمساعدة الفلاحين على حل ضائقتهم. لكن هذا

الإجراء المؤقت لم يصبح سنة للأمراء الذين جاءوا بعد ذلك حتى زمن عضد الدولة إذ يرجع إليه الفضل في تأخير الخراج إلى النيروز العضدي. وقد تظلم فلاحو البصرة سنة 336هـ/947م من تطبيقات البريديين المجحفة في جباية العشر حين طالبوهم بدفع حق العشر على حساب المساحة، كل جريب حنطة وشعير عشرون درهما، لكنها ارتفعت في عهد خليفة أبي عبد الله البريدي إلى أربعين درهما عن كل جريب، فدفع هذا الإجراء الفلاحين إلى الهرب من أراضيهم، الأمر الذي أدى إلى زيادة الضريبة على من بقي من الفلاحين. وقد أرجع الوزير المهبلي، وزير معز الدولة، العشر إلى سابق عهده لمساعدة الفلاحين، وذلك بأن يدفع العشر حبا بعينه من غير تربيع ولا تسعير.

أما الجوالي (الجزية) فكانت تؤخذ من أهل الذمة تبعا للمقدرة المالية للشخص، وإن مطالعة كتب الخليفة الطائع لله إلى فخر الدولة والحمدانيين سنة 366هـ/976م تشير إلى وجود مخالفات في جباية الجزية، فقد أمر الخليفة أن تؤخذ في شهر محرم من كل سنة على حسب منازل وطبقات الافراد ولا تؤخذ من المسنين وأصحاب العاهات الظاهرة ولا من فقير معدم أو مبتهل متبتل وكانت عملية جمع الجزية من إمتيازات الخليفة، لكن البويهيين تدخلوا في ذلك، وحاولوا انتزاعها لصالحهم، وتجاوزوا هذا الحد؛ إذ أن جندهم الأتراك والديلم استثمروا هذا الإجراء فأدخلوا أيديهم سنة 425هـ/1033م في الأموال وفتحوا الجوالي وطالبوا أهل الذمة بها. وتكرر مثل ذلك سنة 434هـ/1032م، إلى أن ردت جبايتها إلى وكلاء الخليفة في سنة 435هـ/1043.

ويبدو أن وارد الجوالي في بغداد لم يكن كبيرا فالخليفة القائم بأمر الله ذكر في كتابه إلى جلال الدولة بما نصه (ولولا ما عليه الوكلاء- وكلاء الخليفة- من الإضافة نرى ترك القول في مال هذه الجوالي مع نزارة قدرة، لكن قائمة ابن خردانية التي ترجع إلى عصر سابق تقدرها بـ130.000 درهما ووصلت إلى 200.000 درهما وبلغ ارتفاعها ثلاثين ألف دينار.

أما بخصوص الزكاة والصدقات فهي ضريبة تؤخذ من الحد الأعلى للأموال الواجب على كل مسلم وأن توزع على الفقراء. وجبايتها أيضا من امتيازات الخليفة. أما الصدقات فإنها تؤخذ من المواشي ومن المعادن والتجارات ويظهر من كتاب الخليفة الطائع لله إلى فخر الدولة سنة 366هـ/976 م أن هناك سوء تطبيق في جباية الصدقات. والمناسب ذكره أن عضد الدولة قد جمع الصدقات والمراعي في ديوان واحد وعين له عمالا وكتابا وجهابذة. وبقيت ضريبة المراعي إلى

سنة 37 هـ/985 عندما أسقطها بهاء الدولة. فقد ارتفع من ضريبة المراعي في السواد حوالي مليون درهم سنويا.

أما الموارد غير الثابتة من مكوس وضرائب وعشور، فقد شكلت اهمية لا تقل عن أهمية الموارد الثابتة. فهناك في العصر البويهي، مكوس ومآصر وضرائب على نقل التجارات برا ونهرا. ووصفها المقدسي بأنها كانت ضرائب ثقيلة ومحدثة. فهناك ديوان لفرض الضرائب يقع على باب البصرة ويشرف عليه الديالمة ويؤخذ فيه اربعة دراهم على كل رأس شاة من الحجاج الواردين من مكة. وفرضت ضريبة على أحمال الأدم والجمال العربية، وفرض على الكنيسة ستون درهما ، وعلى حمل البز مائة درهم وعلى العمارية خمسون درهما وهذه الضريبة كانت تؤخذ عند بوابة البصرة والكوفة مائة درهم. وكانت هناك مآصر على السفن والقوارب بين البصرة وواسط بغداد. وكانت تعطى بالضمان إلى أشخاص يعرفون بمتقلدي المآصر أو متقلدي الضريبة. والمآصر تكون على هيئة حبل أو سلسلة توضع على طرفي النهر وتربط بسفن من الجانبين لتعرقل سير الزوارق. كما كانت هناك مراكز تفتيش على البر تسمى الشوك أو الشوكات لعرقلة مرور القوافل البرية... وقد اعتاد التجار المرافقين للحجاج على التخلص من مراكز الضرائب إما بإخفاء البضائع الثمينة وإما بالتخلص من المراصد والشوكات. وكما اعتاد التجار الصقالبة أن يهربوا من دفع العشر بدفعهم الجزية ويتظاهروا أنهم نصارى بالإضافة إلى ذلك فقد استحدث البويهيون ضرائب أخرى عانى من ثقلها الأهالي، فهناك ضريبة مفروضة على الغنم. وقد أسقطها عز الدولة 363هـ لكنها أعيدت بعد ذلك. وضريبة على أحمال البز وغيره من المنسوجات.

وفرض عضد الدولة ضريبة جائرة على أسواق الدواب والحمير والجمال. وفرض ضريبة على الأمتعة الصادرة والواردة وزادت "الرسوم القديمة". وحظر عمل الثلج (ربما الملح) والقز وجعلها متجرا للخاص وكانا قبل ذلك مطلقين لمن أراد عملهما.

وفرض صمصام الدولة العشر من أثمان الثياب الإبريسميات والقطنيات المنسوجة في بغداد ونواحيها. وقد بلغ وارد هذه الزيادة في الضريبة مليون درهم سنويا، لكن الناس ثاروا على هذا الإجراء فأضطر إلى إسقاطها ثم أعيد فرضها سنة 389هـ/ 998م ووقف الناس ضدها ومنعوا الخطبة والصلاة. فاستقر الحال على أن يفرض العشر من قيم الثياب الإبريسميات بشكل خاص وثبت هذا الرسم ورتب الناظرون والمتولون وأفرد

له ديوانا ووضعت فيه الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع ويختم.

وفرض جلال الدولة سنة 425هـ/1033م ضريبة على الملح بلغ واردها ألفي دينار سنويا. وقد أرهقت هذه الضريبة الناس، فألغاها بعد تدخل الدينوري الزاهد.

ولم تنج المدن الأخرى من آثار هذه الضرائب المستحدثة الثقيلة ففرض الحمدانيون ضريبة على بيع الأغنام والبقر والخضروات والفواكه. وفرض لشكرستان بن ذكي، الذي استحوذ على البصرة سنة 386هـ/996م . على الناس نصف العشر تؤخذ من جميع ما يتبايع به من بضائع بضمنها المأكولات. كذلك استن ابن ماكولا في 421 هـ/ 1030 سنة جائرة على التجارات وسائر المهن في البصرة ، ففرض ضريبة على سوف الدقيق ومقالي الباذنجان وسميريات المشارع ودلالة ما يباع من الأمتعة، ولم يسلم الحمالون الذين ينقلون التمور إلى السفن وما يعطيه الذباحون إلى اليهود من هذه الاجراءات.

وفرض البويهيون ضريبة على ما يتركه المتوفي من إرث لورثته وزاد ديواناً خاصاً هو ديوان المواريث... وقد درت المواريث على البويهيين أموالا كبيرة فصادر معز الدولة الثروة التي تركها دعلج بن أحمد المتوفي سنة 351هـ/962م والتي بلغت ثلثمائة ألف مثقال من الذهب دون أن يهتم بادعاءات وريثه. وصادر بهاء الدولة محمد بن عمر العلوي بما يقدر بخمسين ألف دينار من ورثته.

ولجأ البويهيون إلى إجراء كان مطبقا في العصور السابقة وهو مصادرة أموال الوزراء والأمراء والأغنياء بهدف توفير الأموال. وبمرور الزمن صار الأمير البويهي يعول على المصادرات كثيرا كمورد مالي يحقق به مصالحه ويواجه به الأزمة المالية الخانقة.

الحياة الاجتماعية :

توضح المعلومات السابقة بأن السيطرة البويهية على العراق لأكثر من قرن لم تجلب إلا مزيدا من الخلل والاضطراب إلى الأسس الحضارية المستقرة التي انتظمت الحياة الاجتماعية في العراق. فقد شهد المجتمع العراقي عدة متغيرات خلال العصر العباسي منها :

-التطور الحضري، ذلك المتمثل بتنامي الدور الذي أدته المدينة العربية في شتى المجالات.

-التنوع في نمط الإنتاج. وكان من بين النتائج التي رافقت المتغير السابق ، إذ انخرط سكان المدن في العمل المثمر في الزراعة والصناعة والتجارة.

-المعايير الاجتماعية، إذ أملت حياة المدينة مجالا أرحب لتوافد عناصر سكانية مختلفة زأولت أنواعا من الحرف والمهن والمهارات. لذلك تغير المعيار القبلي، كأساس للتفاضل في العطاء والانتماء الذي ساد المجتمع في القرن الأول للهجرة /السابع للميلاد ليحل محله معيار آخر اقتصادي- اجتماعي.

لذلك وجد الديلمة والجيل، الذين وصفوا بالبدأوة وخشونة الطبائع إذ لم تسمح لهم ظروف الغزو المستمر بالتأثر بحياة المدن التي غزوها- صعوبة في الانسجام مع تلك المتغيرات الحضرية المتطورة، فكان من بين نتائج تلك الهوة الحضارية أن ارتبكت أحوال المجتمع في العراق. وهي حالة لا تنطبق على الغزو الديلمي للعراق فقط، إنما تشمل تدخل العناصر الأجنبية التي سبق وجودها الغزو البويهي.

فقد تذمر أهالي بغداد، على وجه الخصوص، كثيراً من وجود الأتراك في العاصمة. وأظهروا لهم كرها وإستيائية حتى اضطر الخليفة المعتصم إلى اتخاذ خطوة جريئة لكنها حيوية بهدف الهيمنة على عدم التوازن الحضاري بين الأتراك والمجتمع العراقي فبنى لهم مدينة خاصة بهم وعوائلهم. ولم يحأول البويهيون طوال مدة سيطرتهم عزل جندهم الديالمة والجيل والأتراك فتركوهم يعيشون بالمعايير الاجتماعية المستقرة بالرغم من قلة أعدادهم مقارنة بعدد سكان بغداد، ويرجع ذلك لأنهم كانوا مستحوذين على السلطة. فالمصادر تصور الديلم والجيل بأنهم ذو طباع خشنة (لا ترى لهم لباقة ولا علم ولا ديانة) وكانوا (أهل زرع وسوائم) وأن (الغالب على خلقهم العجلة والطيش والبدار وقلة المبالاة والاكتراث). وعبر أهالي بغداد عن مشاعرهم إزاء خشونة هذه العناصر الاجنبية فكانوا يرددون إذا ما وقع عليهم ظلم (أي شيء خبرنا في يد الديلم نحن أم في يد الأتراك). لقد جرب أهالي بغداد خشونة طباع الديلم وقلة اكترائهم قبيل الغزو البويهي ففي سنة 329هـ/940 نزل هؤلاء دور الناس دون ان يدفعوا أجرا وتظلموا من تعديهم وخشونة معاملتهم . وعند دخول معز الدولة بغداد سنة 334هـ عأود الديالمة والجبل والأتراك تجأوزهم على حرمة الأهالي فنزلوا دورهم (فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة) ، وقد عقب مسكويه على هذا الاعتداء فقال: إنه (صار رسما عليهم إلى اليوم) - يعني زمن مسكويه - في القرن الرابع للهجرة العاشر الميلادي.

أحدث وجود الديالمة والجيل والأتراك في وسط المجتمع العراقي خللا اجتماعيا ولاسيما أن أمراءهم لم ينجحوا ، بل لم يستطيعوا كبح جماحهم أو الحد من سوء تصرفهم واعتداءاتهم،

ففي سنة 334 هـ اضطربت أحوال بغداد بسبب هجوم الحمدانيين وتعذر الأهالي العبور من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي (فلحق الناس في السواد من الجانبيين ضرر عظيم بتسلط الجند على غلاقم فانهم كانوا يحصدونها ويدرسونها ويحملونها إلى معسكرهم). و لم يقتصر الأمر على ذلك إنما قام الديلم بعد انتصارهم بإحراق الجانب الشرقي وقتل جمع من الناس. فاضطر أهالي هذا الجانب من بغداد إلى الهرب منها وهم حفاة باتجاه عكبرا ، فمات عدد كثير من الرجال والنساء والصبيان لأنهم اضطروا إلى الهرب لخوفهم من عقاب الديلم واستمرت معاناة الشعب مدة بقاء الديلم في العراق ؛ إذ تذكر الروايات أنه في سنة 418هـ /1026م صارت لسيادة للجند الأتراك فنهبوا الكرخ وصادروا المحلات وفرضوا على سكان الكرخ مبلغا قدره مائة ألف دينار، وفي سنة 431هـ /1039م نهب الأتراك نواحي بغداد فغلت الأسعار وتعذر على الأهالي الانتقال من محلة المحول إلى محلة الياسرية إلا برفقة خفير وكان يفرض على الرجل الماشي ضريبة دانقين وعلى الراكب حمارا أربعة دوانيق، ونهبوا سواد بغداد. وذكر أن خطيب أحد الجوامع صلى الجمعة و لم يكن وراءه إلا ثلاثة أشخاص. فنودي بالناس: من يريد الصلاة في جامع براثا فخفارة كل ثلاثة أشخاص درهما .

أدى انشغال الديلم والجيل والأتراك بالأمور السياسية وفي تنمية مواردهم الاقتصادية الخاصة إلى أن يعيشوا بمعزل عن المجتمع العراقي الذي لم يظهر ودا وارتياحا لهم. ومن الجانب الآخر أدت سياستهم في إثارة الفتن الطائفية وشق وحدة المجتمع بميل الديلم إلى جانب والأتراك إلى جانب آخر. وفرضوا بمرور الزمن بعض عاداتهم وتقاليدهم التي كانوا يمارسونها أو يعتقدون بها في بلادهم الديلم ؛ إذ ازداد الاهتمام بالاحتفال في الأعياد الفارسية القديمة كالنيروز والمهرجان والسذق، ووصفوا بتعصبهم المذهبي لذلك فرضوا هذا التعصب خلال تعاملهم مع الأهالي وتشجيعهم على إحياء بعض الشعائر التي أججت الفتن الطائفية. كذلك كان الديالمة والجيل لا يعرفون اللغة العربية وقد اعتمد عدد من أمرائهم على مترجمين فساعد وجودهم على دخول الكلمات الفارسية. وأخلوا بعض العادات الاجتماعية كنصب المآتم على الميت، وعادات في المطعم والملبس. ويروى التنوخي قصة طريفة بشأن شخص من الاحواز اراد ان ينتفع من وجود الديالمة هناك لينضم إلى جيشهم فجعل لراسه شعرا مثل الديلم والجيل وتبنى اسما ديلميا وأخذ يأكل الثوم ولا يتعاجز من الصنان كي تصبح رائحته نتنة على مذاهب الديلم.

شهدت المدن العراقية سواء تلك التي كانت قائمة قبل الفتوحات الاسلامية أم التي أسسها

العرب في أثناء ذلك تطورا حضريا مهما خلال العصر العباسي فتوسعت بنيتها السكانية وازدهرت أحوالها الاقتصادية والتجارية وتنوعت مؤسساتها الإدارية والخدمية. فهل أضاف البيوهيون إضافات عمرانية أو خدمية في المدن العراقية التي خضعت لسلطتهم ؟ وبالرغم من شحة المعلومات فإن عودة إلى أوصاف الجغرافيين والرحالة العرب وما أوردته المصادر التاريخية يظهر أن المدينة العراقية انكمشت عمرانيا وبشريا وتدهور دورها الاقتصادي وضعف نشاطها الثقافي والتجاري. فمدينة بغداد خلال عصر الجغرافي ابن حوقل منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قد " هلك أكثر محالها وذلك أنه كان من باب خراسان عمارة إلى أن تبلغ الجسر وتمتد إلى باب الياسرية في الجانب الغربي وعرضها فقد اختل أيضا من الجانبين نحو خمسة أميال ونقص وهلك منه الكثير " ويؤيد جغرافي في آخر هذا الوصف خلال عرضه معلومات عن عظمة العاصمة في التاريخ العباسي لكنه يستدرك قائلا: "حتى ضعف أمر الخلفاء فاختلت وخف أهلها، أما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب... وهي في كل يوم إلى وراء وأخشى أنها تعود كسامراء).

والمعروف أن الجغرافي المقدسي عاصر الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة. ومما يؤكد هذه الأوصاف قول المؤرخ الصابي في حوادث سنة 392هـ/1002م

"لا جرم أن البلد خرب وانتقل أكثر أهله عنه فمنهم من مضى إلى البطيحة ومنهم من اعتصب بباب الازج ومنهم من بعد إلى عكبرا والأنبار" ويورد رواية عن شهود عيان أنهم شاهدوا صينية الكرخ ما بين محلة الحذائين والبزازين " فكانت الطيور والفواخت والعصافير تمشي على ارضها في منتصف النهار" ويعقب على هذا بقوله: " الذي جرت العادة بازدحام الناس في هذا المكان" . فإذا ما أضفنا إلى هذه الأوصاف ما عانته المحلات والأسواق والخطط العمرانية الأخرى من حرائق وفيضانات وتخريب، عندئذ تكون الصورة واضحة جدا عن وضع العاصمة العمراني، وكذلك كانت أحوال سامراء والكوفة والبصرة من الناحية الحضرية.

لم تشهد المدينة العراقية طوال السيطرة البويهية إنجازات كثيرة في مجال الخدمات الاجتماعية وفي تجديد البناء والعمارة عدا الأعمال الطيبة التي قام بها عضد الدولة وفخر الملك نائب بهاء الدولة ، فالفيضانات المتكررة في بغداد تعكس اهمال البويهيين لأمور الري والسدود ، وتفشي الأوبئة والأمراض الأخرى وموت الكثير من الناس يؤكد قلة اكتراث البويهيين بالخدمات الصحية وبناء المستشفيات. والأزمة المالية الحادة دفعت بهم إلى تخريب الأراضي الزراعية بإقطاعها للجند وتهديم

المباني لبناء قصورهم مثلما حدث زمن معز الدولة ؛ إذ هدم العقارات المجأورة للموضع الذي اختاره ليكون قصرا فقلع الأبواب الحديدية للمدينة المدورة وهدم قصر الرصافة ونقض قصور الخلافة بسامراء كقصر المعشوق وسور الحبس ونقل هذه المواد الإنشائية منها إلى قصره الذي بلغت كلفة بنائه ثلاثة عشر مليون درهم .

ويمكن استثناء عضد الدولة وفخر الملك، نائب بهاء الدولة في بغداد، عن بقية الأمراء البويهيين ؛ إذ إنهما قاما بإنجازات عديدة عمرانية وما له علاقة بالخدمات الاجتماعية والصحية، أما عضد الدولة فأنجز الآتي :

- فقد وجد بغداد عند دخوله لها خراباً واستولى على سوادها الخراب فقام بسد بثق السهلية وبثق اليهودي وأمر أن يعمر الأغنياء مسناتهم. والواقع أن معز الدولة قبل ذلك قام أيضا بسد بعض البثوق كبثق نهر الرفيل وبادوريا والنهروانات وشارك بنفسه في سد البثوق فكان يحمل التراب في ركه قبائه.

- أمر بحفر الأنهار المندرسة وبناء أرجاء المياه عليها.

- شجع الأغنياء على غرس المناطق الخربة، فقام بغرس الزاهر(وهو بستان) الذي كان لابن متلة، الوزير، وقد تحول إلى تل، كما غرس التاجي عند قطربل.

- كسا المساجد وخصص الأرزاق للمؤذنين والقراء.

- عمل جسر بغداد وبنى القنطرتين القديمة والجديدة.

- استحدث المارستان الذي بدأ بجكم، أمير الأمراء ببنائه، ونقل اليه الآلات والأدوية. ويبدو أن هناك مارستانا آخر بناه معز الدولة في موضع الحبس الجديد الذي هدم سوره ونقل الطابوق لبناء قصره.

- بنى سوقا للبزازين ووقف عليه وقوفا كثيرة وعمل له الأرحاء بمنطقة الزبيدية من نهر عيسى ووقفها عليه.

- أجرة الرسوم على العلماء والفقهاء والأدباء والقراء.

- كان كثير البر والصدقة.

-- أخر الخراج إلى النورون العضدي.

- رفع الجباية عن الحجاج وأقام لهم السواقي في الطريق وحفر لهم الآبار .

أما فخر الملك فإنه قام باعمال عمرانية وخدمية أخرى منها :

- سد البثوق للتقليل من خطر الفيضان.

- عمر سواد الكوفة

- عمر الجسر ببغداد بعد أن كان مهملا..

- عمر المارستان. وكان في الأصل دارا للخليفة المتقي لله.

- أجرى الصلات على الفقهاء، وكسا في يوم واحد ألف فقير.

لم تقتصر المعاناة التي عاشها المجتمع العراقي على فرد دون آخر أو طبقة دون أخرى، فقد تأثر منها الأفراد جميعا الفقراء والأغنياء، ويزودنا التاريخ استشهادات كثيرة تؤكد على أن اهالي المدن وسوادها قد ذاقوا الويلات والآلام، فازدادت المصائب الاجتماعية والجرائم وسيطر اللصوص والعيارون في بعض الأوقات فنهبوا أموال الناس وممتلكاتهم. وصرنا نسمع عن أسماء عديدة من هؤلاء أمثال : ابن حمدي العيار وابن جوامرد وعزيز العيار والبرجمي وابني الأصبهاني. ففي سنة 384هـ/994م طالب عزيز العيار أهل محلة باب البصرة بضرائب الأمتعة وفرض جباية على الأسواق، كذلك فعل البرجمي. وأثار البويهيون الفتن الطائفية، فنقرأ عن حوادث فظيعة من قتل وتخريب وحرق للمحلات والأسواق في كل سنة تقريبا منذ سنة 338هـ/949م فصاعدا فيما عدا الحقبة التي حكم فيها عضد الدولة الذي سعى جاهدا إلي إقرار الأمن والنظام. كذلك عانى المجتمع كثيرا من الكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات وانتشار الأوبئة والأمراض. ففي سنة 344هـ / 950م انتشرت علة انتقلت من أصبهان إلى العراق وهي (علة مركبة من الدم والصفراء فشملت الناس فربما هلك جميع من في الدار)، ولسوء الحظ رافق هذا المرض انتشار وبأ (كان يموت كل يوم ألف نفس. وفي سنة 347هـ /957م حدث زلزال ببغداد خرب الكثير من الدور، وانتشر في شهر أيار من تلك السنة الجراد فأتلف الغلات الصيفية والثمار في العاصمة وأتلف من الغلات الشتوية في ديار مضر الشيء العظيم.

ومما زاد في الأمر سوءا أن بعض المسؤولين عن حفظ الأمن والاستقرار كصاحب الشرطة أو متولي أعمال المعاون قد أسهموا بجرائم منكرة ضد الناس الأبرياء فهذا ابن الزطي، صاحب الشرطة، قد أسرف في الإساءة للأهالي وصادر الأموال، اما ابن النسوي صاحب الشرطة أيضا فقد حفر حفرة في منزله، وكان يستدعي التجار والموسرين والصرافين إليه ثم يصادر أموالهم ويقتلهم ويدفنهم في الحفرة. وهذا ضامن مدينة واسط سنة 360هـ/970م (أبو قرة) قد خرب البلاد وظلم الناس وصادرهم واستحوذ على ضياعهم ، كذلك فعل عامل البصرة سنة 360هـ/970م أبو طاهر.

لقد وصف مسكويه الحال في العراق وصفا رائعا بحديثه عن بختيار بن معز الدولة إذ قال: (انبسطت العامة وانحاز بعضها إلى بعض وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية وفشا القتل حتى كان يعدم كل يوم عدة قتلى لا يعرف من قتلهم وإن عرفوا لم يتمكن منهم. فانقطعت مواد الأموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة وظهر في كل قرية رئيس منها مستول عليها وتباغوا بينهم وحصل السلطان صفر اليد والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون وينبغي ألّا نغفل أمرا آخر مضافا إلى هذه المعاناة ذلك المتمثل بندرة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها ارتفاعا فاحشا.

نخلص من ذلك إلى القول بأن السيطرة البويهية، عدا مدة حكم عضد الدولة، لم تحقق السعادة للمجتمع العراقي.

الامارات العربية في العراق

بنو عقيل – بنو مزيد

شهد تاريخ الأمة العربية منذ عصور سحيقة ظاهرة وجود إمارات عربية ذات تكوين سياسي هرمي منظم في جنوب الجزيرة العربية وفي وسطها وفي أطرافها الشمالية الشرقية والشمالية الغربية المتاخمة لمناطق نفوذ الإمبراطوريتين الكبيرتين . وشكل الغساسنة والمناذرة دور الدول العازلة وأدتا دورا مهما في المحافظة على الاطراف الحضرية للعراق وبلاد الشام المفتوحة ضد هجمات القبائل البدوية المترحلة.

وقد نهج البويهيون الديالمة والسلاجقة الأتراك منذ الثلث الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حتى منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي سياسة مشابهة في ترشيح إحدى القبائل العربية القوية لتأخذ الدور مباشرة في التعامل مع القبائل المترحلة. فرشحوا بني مزيد وهم من قبائل بني أسد بن خزيمة ومنحوهم الشرعية السياسية في تأسيس إمارة في منطقة الفرات الأوسط وبني عقيل بن عامر من قبيلة عامر بن صعصعة في تأسيس إمارة في الموصل والجزيرة الفراتية وذلك بهدف السيطرة على الأخطار التي فرضتها وجود القبائل البدوية نظير بني خفاجة وبني عبادة في الفرات الأوسط وقبيلة باذا الكردي وقبائل ديار مضر وربيعة في الموصل والجزيرة الفراتية.

بنو عقيل :

تكشف المعلومات التاريخية أن لبني عقيل بن عامر بن صعصعة مناطق نفوذ في الجزيرة الفراتية خلال حقبة الحمدانيين وفي البحرين على ساحل الخليج العربي. وتقاسموا االسيادة في البحرين مع قبيلتي بني تغلب وبني سليم إلى أن نشب الخلاف

بينهم فاندفع العيليون صوب بادية الكوفة والبلاد الفراتية واستقروا هناك ردحا من الزمن سيطروا فيها على عدد من مدن المنطقة ثم اندفعوا شمالا صوب الجزيرة الفراتية والموصل وافلحوا في فرض سيطرتهم على المنطقة بحدود منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد.

هناك عاملان أساسان ومباشران ساعدا على نجاح العقيلين وعلى ظهور فراغ سياسي في منطقة الجزيرة الفراتية، وقد دعما موقف العقيلين كقوة سياسية مؤثرة:- أولهما انشغال أبناء ناصر الدولة الحمداني بمنازعاتهما العنيفة بهدف الحصول على النفوذ والسلطة. وهو أمر أدى إلى إضعاف مواقفهما السياسية وفشلهما في ضبط الأمن داخليا وخارجيا ضد القبائل المترحلة المتحفزة على مهاجمة المراكز الحضرية في المنطقة. وثانيهما فشل ابناء ناصر الدولة في صد طموحات وهجمات الأمير الكردي المتنفذ في الجبال والمتحفز دائماً على الهجوم على الموصل (باذ الكردي).

دفع هذان العاملان البويهيين - حكام العراق آنذاك- إلى الاعتماد على قبيلة بني عقيل لتحقيق تلك الأهداف المهمة. فكانت سنة 380هـ /990م السنة التي حقق فيها العقيليون انتصارا كبيرا على الزعيم الكردي ودفعوه عن الموصل وانتزعوا منه السيطرة على المدينة التي تركها الحمدانيون هاربين من مسرح الأحداث. فبدأ ميلاد الإمارة العقيلية وفي حكم منطقة جغرافية واسعة من الجزيرة الفراتية.

حكم الإمارة عددا من الأمراء المشهورين بصلابتهم العسكرية أولهم محمد بن المسيب المعروف بابي الذؤاد العقيلي ثم المقلد ابن المسيب ابن رافع العقيلي . الذي حكم من 386هـ/391هـ/996م-1000م، أعقبه قرواش بن المقلد المشهور الذي أفلح في توسيع رقعة إمارته سياسيا فشملت حتى المدائن والكوفة وسفي الفرات . وهو الذي دخل في تحالف مع الخلافة الفاطمية في مصر ضد االخلافة العباسية فخطب للفاطميين من على منابر الأنبار وقصر بن هبيرة والمدائن فضلا عن مناطق نفوذه الأخرى. تعقبه ابنه مسلم بن قرواش الذي حافظ على قوة الإمارة فتوسعت مناطق نفوذها لتشمل منه منبج وديار بكر وديار ربيعة والجزيرة الفراتية وحلب والموصل والأنبار وهيت وتكريت. بعد ذلك عانت الإمارة من المرض المزمن الذي اسنشرى في الإمارات الأخري ألا وهو التراعات الداخلية بين أفراد البيت العقيلي استمر حتى نهاية نفوذ الإمارة سنة 478هـ/1085م إذ استطاع السلاجقة في هذه السنة استعادة نفوذهم على المناطق التي كانت تابعة للعقيلين وأجبروهم على الهجرة من الجزيرة الفراتية.

ظلت العلاقة السياسية بين الامارة والسلطة المركزية قائمة فكان الخليفة هو الذي يمنح الشرعية السياسية لأمراء الإمارة وكانوا يخطبون باسمه من على منابر المدن التابعة لهم عدا خلال حكم قرأوش الذي تحالف مع الفاطميين في مصر.

اتخذ العقيليون مدينة الموصل مركزا لإدارتهم، واهتموا بالأعمال العمرانية في المدينة كبناء سور المدينة وتعمير محلاتها وأسواقها. وهناك آثار تدل على أعمال العقيلين في الموصل وعانة والدور - بلدة قرب تكريت- وعنوا بتطوير الأحوال الاقتصادية في الموصل والجزيرة الفراتية على حسب أوصاف الجغرافي المقدسي البشاري المتوفي سنة 390هـ/1000م كانت أحوال هذه المناطق منتعشة في الانتاج الزراعي، كالحبوب والعسل والفواكه والفحم والشحوم والألبان والحديد والقير والنواكه المقددة في سنجار ونصيبين ، واشتهرت الأخيرة بصناعة الموازين وبالفواكه والبندق، واشتهرت معلثايا والرحبة بكرمها وفواكهها وألبانها وفحمها.

وشجع العقيليون الحركة الأدبية، فكانوا - لما تمتعوا فيه من خصال عربية بدوية - محلا لتوافد الشعراء والخطباء، فضلا عن أن بعض أمرائهم كان يقول الشعر .

أما إداريا فقد استندت مؤسسات الإدارة على نظام لا يختلف عن نظام القبيلة. فالشيخ هو أمير الإمارة، وولي العهد وريثه هو الابن في الأعم الأغلب. واستعان العقيليون في إدارة إمارتهم خارج الموصل في الاغلب من أفراد البيت العقيلي. وجاء ذكر منصب الوزير زمن قرواش كما كان هناك منصب العامل- بمعنى الوالي- وناظر الديوان، والقضاة وأصحاب البريد .

واعتمد العقيليون على جيش يتكون من أفراد قبيلتهم بالدرجة الأساس وضم أيضا الأكراد والديلم، واستخدموا اسلحة غير مألوفة عند البدو كالمنجنيق والفزاغندات والأسلحة الأخرى .

بنو مزيد :

يرجع نسب المزيديين إلى قبيلة ابن أسد بن خزيمة التي نزحت من الجزيرة العربية. وعشائر بني أسد المعروفة أربع وهي : بنو كاهل وبنو صعب وبنو عمرو وبنو دودان، وبنو مزيد من بني ديدان . وقد حدد الجغرافي الأصطخري في كتاب (المسالك) منطقة وجود بني مزيد في العراق بين القادسية والشقوق ويحتمل أن بطونا أخرى من بني دودان قد استوطنت الكوفة .

تبين الروايات أن الربع الأخير من القرن- الرابع الهجري/العاشر الميلادي وعلى أثر وفاة

الأمير البويهي المشهور بكفايته الإدارية والسياسية عضد الدولة بن ركن الدولة سنة 372هـ/983م هو التاريخ الذي ظهر فيه دور القبائل العربية السياسي ومن بينهم قبيلة بني أسد وبني مزيد.

أثبت الأمير مزيد الذي أصبح اسمه رمزا لهذه البطن من بين أسد جدارة سياسية فائقة فقد أرسى دعائم الإمارة. وتفيد رواية المؤرخ ابن الجوزي أنه كان شخصية ذكية تابع الأحداث السياسية لهذه الحقبة متابعة ناجحة واستثمر نتائجها استثمارا جيدا وبالأخص النزاعات التي دبت بين صفوف الأمراء البويهيين. وكما هو الحال في تأسيس إمارة بني عقيل فقد اعتمد البويهيون عليه- مزيد- في مطاردة القبائل البدوية المقلقة للأمن أمثال بني خفاجة .

والواقع أن مزيدا وابنه علي بن مزيد أفلحا في تحقيق المشروع السياسي في توسيع نفوذ الإمارة بضمها مناطق نفوذ بني عقيل كالأنبار إلى ممتلكاقم وقد استثمرا بذلك النزاع الذي دب بين المقلد بن المسيب العقيلي وأخيه علي.

وهناك عدة عوامل سياسية هيأت المجاللمرحلة تأسيس الإمارة المزيدية منها :

- النزاعات الداخلية بين أفراد البيت العقيلي وفشلهم في ضبط الأمن من هجمات القبائل.

- النزاعات الداخلية بين أفراد أمراء البيت البويهي الحاكم في بغداد. وقد أضعف هذا النزاع المؤسسة الإدارية المركزية.

- الفراغ السياسي الذي أعقب وفاة عضد الدولة، ولاسيما عندما فضل الأمراء الذين أعقبوه ترك مدينة بغداد والتوجه بالإدارة إلى مدن المشرق. أدت هذه الظروف إلى حاجة السلطة إلى قبيلة قوية ومتنفذة في المنطقة لضبط الأمن.

- ضعف القوة القبلية المستقرة في المنطقة- أقصد بني دبيس- وتقوقع إمارتهم في رقعة ضيقة في الحويزة.

في النهاية نجح علي بن مزيد في تطبيق شروط الحماية الشرعية من السلة المركزية- البويهيون- في تأمين طرق الحجيج وإقرار الأوضاع الأمنية في المراكز الحضرية في منطقة الفرات الأوسط ، من هجمات قبيلة خفاجة. وما إن حلت سنة 407هـ/1016م حتى أضحت مناطق نفوذ بني مزيد تمتد من الكوفة على نهر الفرات حتى واسط على نهر دجلة.

أعقب علي بن مريد عددا من الأمراء المشهورين بكفايتهم وأقدامهم وطموحهم السياسي- فتولى دبيس، ولي العهد لأبيه علي،

الإمارة من سنة 408هـ حتى 474هـ /1015م-1081م ، حقق خلالها :

– التغلب على التحديات الداخلية المتمثلة بتزاع أفراد البيت المزيدي

– نجح في فرض سيطرته على القبائل المترحلة المجاورة

– توسيع رقعة الامارة فشملت مدن السندية ومطيرأباد وسورا والنيل.

– بسط نفوذ الإمارة على مناطق نفوذ بني عقيل في سواد الكوفة والأنبار وكرخ سامراء.

– أفلح في استثمار نزاعات البويهيين وسوء علاقاتهم بالخليفة العباسي فوسع سيطرته على مدن الجامعين ومنطقة نهر الملك ونهر الفضل ونهر الصلة وسواد الكوفة (117).

– استثمر الانشقاق السياسي بين العباسيين والفاطميين فمال إلى حكام مصر الفاطميين بهدف الحصول على مكاسب مادية وسياسية ، إذ قلده الفاطميون الزعامة على عرب العراق .

ومع تلك الانتصارات فإنه فشل في الحد من أطماع وتجاوزات قبيلة خفاجة فاضطر إلى الوصول إلى تسوية سياسية مفادها تقسيم السيادة والنفوذ، فتصبح سلطة المزيديين على الجانب الشرقي من نهر الفرات في حين يكون الجانب الغربي منه تحت سيطرة خفاجة.

تولى ابن علي منصور الإمارة بعد أبيه ثم أعقبه الأمير صدقة الذي حكم من سنة 478هـ حتى 501هـ 1082م-1108م وعاصر السلاجقة الذين أعقبوا البويهيين على حكم العراق. وتعد حقبة ولاية صدقة من أكثر الحقب أهمية في تاريخ الإمارة. من عدة أوجه :

– كانت علاقته جيدة مع الخليفة والسلطان السلجوقي.

– استثمر التراعات الداخلية التي نشبت بين السلاطين السلاجقة فوسع رقعة الإمارة سياسيا ؛ إذ ضمت كلاً من هيت وعانة والبصرة وقلعة تكريت والبطائح .

ثم تولى الإمارة بعد مقتل صدقة ابنه دبيس الذي حكم مدة طويلة امتدت من سنة 501هـ - 530هـ/1107-1135.

لقد تميزت المرحلة التي حكم فيها دبيس الثاني وبالأخص من سنة 512هـ حتى 530هـ/1118م-1134م بعدة متغيرات وأحداث سياسية سريعة وخطيرة. عمل دبيس أولا على إعادة هيبة الإمارة المزيدية ومكانتها بعد المعاناة التي لحقت بها على أثر مقتل والده صدقة. أثبت خلالها إقداما وشجاعة تحدث عنها

المؤرخون. ثم إنه اتخذ مواقف ونشاطات سياسية تدل على طموحاته غير المحدودة نظير دخوله في علاقات سياسية وتحالفات مع القوى الخارجية بهدف تحقيق ما يصبو إليه من مآرب في استعادة هيبة الإمارة فدخل مع نجم الدين إيلغازي بن رتق (الأرتقي) حاكم ماردين سنة 514هـ/1120م لشن حملة مشتركة على دولة الخزر في أقصى المشرق. ثم إنه دخل في حلف سياسي مع قبيلة المنتفق لغرض السيطرة على بادية البصرة. وتحالف أيضا مع إحدى القوى بهدف السيطرة على انطاكية وحلب. ودخل في مفأوضات مع بلدوين الصليبي سنة 518هـ/1124م بهدف السيطرة على حلب. وعقد تحالفا مع حاكم قلة صرخد للسيطرة على دمشق. وتحالف مع عماد الدين زنكي حاكم الموصل ضد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي. جميع هذه الفعاليات السياسية تدل دلالة لاشك فيها على قلقه السياسي واتساع طموحاته ، لكنها فشلت جميعا لتنتهي بمقتله سنة 530هـ/1135م. وبمقتله واجهت الإمارة المزيدية انتكاسات سياسية ؛ إذ فقدت وحدتها السياسية وظلت هكذا تعاني من فراغ سياسي وقيادة متوثبة إلى أن استهدفتها السلطة العباسية سنة 558هـ/1162م فأرسلت جيشا من بغداد نحو الحلة هدفه إجلاء بني مزيد وطردهم من منطقة الفرات الأوسط فطويت صفحة الإمارة تاريخيا بعد أن أدت دورا سياسيا قرابة القرنين من الزمان .

المعلومات عن دور الإمارة الحضاري أكثر وضوحا من المعلومات عن بني عقيل. فقد أسس المزيديون عدة مراكز حضرية في منطقة الفرات الأوسط أمثال سورا وقصر بن هبيرة والجامعين والنيل والكحلة ؛ إذ بنى الامير صدقة مدينة الحلة سنة 495هـ/1101م.

أما من الناحية الاقتصادية فقد نشط المزيديون في تطوير أحوال المنطقة الاقتصادية بفرض الأمن والاستقرار على الطريق التجاري البري الذي يربط بغداد بالحلة والكوفة والمدينة ومكة ، وساعد بنو مزيد على تطوير الزراعة في المنطقة كزراعة البساتين - بساتين النخيل - والفواكه وزراعة الحبوب كالقمح والشعير.

كانت الإمارة تابعة إداريا للسلطة المركزية في بغداد، وقد تمتعت الإمارة بمؤسسة إدارية مدنية فاستخدم الأمراء ولاة على المدن والمراكز التي خضعت لسيطرتهم، وعينوا الموظفين المعروفين في إدارة السلطة المركزية كالشحنة (الحاكم العسكري) والحاجب وصاحب الشرطة وصاحب الجيش أو مقدم الجيش والخازن وقاضي القضاة والقاضي ، وكان لهم جيش يتألف بشكل رئيس

من الأعراب، أعراب بني أسد ومن قبائل أخرى ومن الأكراد والديلم والأتراك.

اهتم المزيديون بإنعاش الحياة الفكرية في الحلقة وذلك بتقريبهم الشعراء والإغداق عليهم. فوفد على الحلة – مركز ادارة الإمارة– الكثير من الشعراء المشهورين ؛ وذلك لما عرف به أمراء بني مزيد من خصال الكرم والأخلاق البدوية الحميدة في الضيافة والذود عن الذين يحتمون بهم ومن أمثال هؤلاء : الشاعر مهيار الديلمي وابن الهبارية مؤلف قصيدة الصادح والباغم والسنبسي والمطاميري والبندنيجي والأبيوردي وابن الخازن ويحيى ابن التلميذ. فضلا عن ذلك عرف بعض الأمراء بإجادتهم صناعة الشعر كالأمير منصور بن دبيس والأمير مزيد بن صفوان بن الحسن بن منصور بن دبيس الذب توفي في بلدة مصياف في سوريا سنة 584هـ /1188م وخلف ديوانا يضم أربعين قصيدة.

أ.د. عبد الجبار ناجي

(جامعة بغداد)

المصادر والمراجع

- ابن المعتز ، أبو العباس
(ت.296هـ/909) ، ديوان بيروت دار صادر 1961.
- ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج
- (ت.597هـ/1200)، المنتظم في تاريخ الأمم، حققه سهيل زكار بيروت، دار الفكر 1995.
- ابن حوقل، النصيبي
(ت.367هـ/797)، صورة الأرض ، بيروت ب. ت.
- ابن خرداذبه، أبو القاسم
(ت.300هـ/941)المالك والممالك.
- ابن حزم، أبو محمد علي
(ت.456هـ/1063) جمهرة انساب العرب، بيروت دار الكتب العلمية.
- ابن الأثير، أبو الحسن
(ت.630هـ/1232) الكامل في التاريخ.
- ابن خلدون عبد الرحمن
(ت.800هـ/1406) العبر، بيروت دار الكتاب اللبناني
- ابن خلكان، شمس الدين
(ت.681هـ/1283) وفيات الأعيان.
- ابن كثير، إسماعيل
(ت.749هـ/1372)البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف.
- الصابي، أبو الحسن
(ت.448هـ/1056)رسوم الخلافة.
- الصولي، أبو بكر محمد
(ت.335هـ/946)أخبار الراضي بالله والمتقي بالله، حققه هبورت بيروت 1979.
- القلقشندي، أبو العباس
(ت. 821هـ/1418) صبح الأعشى القاهرة درا الكتب
- قدامة بن جعفر
(ت. 1337هـ/948) كتاب الخراج وصنعة الكتاب ليدن 1889.
- مسكويه ، أحمد بن محمد
(ت. 421هـ/1029) تجارب الأمم وتعاقب الهمم.
- المسعودي أبو الحسن بن علي
(ت. 346هـ/966) مروج الذهب ومعادن الجوهر بيروت دار الكتب العلمية 1986.
- المقدسي، البشاري
(ت.387هـ/997) أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم.

- الهمذاني، محمد بن عبد الملك (ت.334هـ/954) تكملة تاريخ الطبري، حققه ألبرت يوسف بيروت 1958.

2) المراجع :

- الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد 1952.
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع هجري، بيروت 1974.
- الزهراني، محمد، نظام الوزارة في الدولة العباسية : العهدان البويهي والسلجوقي.
- ناجي، عبد الجبار، "دراسة مقارنة للأحوال التجارية في الموانئ الخليج والجزيرة العربية في القرن الرابع الهجري"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت 1988، ص 173-198.

2) الخلافة الأموية في الأندلس (316-422هـ / 928-1030م)

يعود إعلان الخلافة الأموية في الأندلس إلى الأمير عبد الرحمن بن محمد المعروف بالناصر (300-350هـ/ 912م-961م) وكان الحكام الأمويون في الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر يكتفون بلقب أمير احتراماً لمبدأ وحدة الخلافة الاسلامية من ناحية ولعدم سيطرتهم على مكة والمدينة من جهة أخرى وهي التي يسميها ابن خلدون " مهد الملة ومنتدى العرب"

خلافة عبد الرحمن الثالث :

ولما أعلنت الخلافة الفاطمية في القيروان 269هـ/909م وأصبحت هناك لأول مرة خلافتان في العالم الإسلامي العباسية في بغداد والفاطمية في القيروان والمهدية فيما بعد ، وبدأت الأخيرة تنازع الأمويين في السيطرة على الأندلس اضطر عبد الرحمن الناصر إلى إعلان نفسه خليفةً هو الآخر ليواجه خطر ادعاءات وتوسع الفاطميين في غرب البحر الأبيض المتوسط.

وقد عالج عبد الرحمن الناصر خطر ظهور الفاطميين بجملة من الإجراءات نوجزها فيما يلي:-

أولاً: إعلان الخلافة في قرطبة وتلقبه بالناصر لدين الله ، وذلك للاعتبارات التالية:-

- احتفالا بانتصاره على أقوى تمرد قام ضد السلطة الأموية في الأندلس ، ألا وهو تمرد عمر بن حفصون الذي استمر حوالي نصف قرن ، وبعدها تمكّن عبد الرحمن الثالث من توحيد الأندلس تحت إدارته .

- تيمناً بأسلافه خلفاء دمشق الذين حكموا حوالي 91 سنة.

- سقوط هيبة الخلفاء العباسيين نظراً لكثرة تمرد الجند الأتراك وتدخلهم في شئون الخلافة.

- ظهور الفاطميين في المغرب العربي وتلقبهم بالخلافة كذلك.

- أراد عبد الرحمن الثالث أن يظهر أمام رعاياه الأندلسيين بأنه لا يقل مكانة عن العباسيين والفاطميين في أحقية منصب الخلافة، خاصة أن أجداده كانوا خلفاء بالمشرق ، ولإضفاء الشرعية الدينية على حكمه.

وعليه واعتباراً من 2 ذي الحجة 316هـ/929م أصبح عبد الرحمن ابن محمد يُلقب بعبد الرحمن الناصر لدين الله وبأمير المؤمنين وقد أصدر بياناً بهذا الشأن يقول فيه : "وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا

بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك. إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه منه. وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه، واسم ثابت أسقطناه. فمُر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجد مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله".

وقد أمر الناصر بإثبات اسمه الناصر لدين الله أمير المؤمنين ونقش ذلك على أعلامه ودنانيره.

ثانياً: أنشأ عبد الرحمن الناصر أسطولاً قوياً لمقارعة الأسطول الفاطمي ، ورد غاراته التي بدأ يشنها على السواحل الأندلسية.

ثالثاً: قام الناصر باحتلال مدن سبتة ومليلة وطنجة ؛ لتكون حاجزاً دون تقدم الفاطميين إلى الأندلس.

رابعاً: بدأ التدخل في شئون المغرب الأقصى فانضم إليه بعض بقايا الأدارسة وأمراء قبيلة زناتة.

خامسا: شجع المتمردين على الخلافة الفاطمية في المغرب الأوسط مثل أبي يزيد مخلّد بن كبداد المعروف بصاحب الحمار الذي تلقى دعماً مالياً وعسكرياً من الأمويين بالأندلس.

سادساً: عندما هاجم الأسطول الفاطمي مدينة المريّة سنة 344هـ /955م ردّ الناصر بهجوم قوى على افريقية فدمر منطقة سوسة وميناء الخرز سنة 345 هـ/956م.

سابعاً: تحالف مع أعداء الفاطميين مثل ملك إيطاليا هيوز Hugues 926 هـ/946م وإمبراطور بيزنطه قسطنطين السابع 911-944م ومع الإخشيديين في مصر بالإضافة إلى الحرب الإعلامية الكلامية ضد المذهب الشيعي.

- نظم عبد الرحمن الناصر إدارته فشكل مجلساً لمساعدته في الحكم من كل من:

- بدر بن أحمد أحد مواليه للحجابة والبريد وخطة الخيل .

- موسى بن محمد لخطة مدينة قرطبة .

- عبد الله بن محمد الزّجالي للكتابة

- أحمد بن محمد بن ابي عبده على قيادة الجيوش .

- قاسم بن وليد الكلبي على الشرطة العليا .

- أحمد بن محمد بن حُدير صاحب المدينة والشرطة الصغرى .

- عبد الملك بن جهور على الخزانة.

- محمد بن عبد الله الخرّوبي خزانة السلاح .

- محمد بن سليمان بن وانسوس خطة العرض.

أرسل الناصر عدة وفود إلى مختلف مناطق الأندلس يطلب الاعتراف بسلطته أميراً وخليفة على كافة الأندلس ، واستعمل في هذا سياسة الترغيب والترهيب ، وقد وافقه العديد من الولاة الذين رفضوا الاعتراف به وأرسل عدة حملات ضدهم حتى أضعفهم وأصبح حاكم كل الأندلس دون منازع.

- عالج الخليفة عبد الرحمن الناصر الأخطار الأخرى المتمثلة في الغزو النورماندي وخطر الدويلات الأسبانية في شمال الأندلس بكل حزم وشدة عزم وصرامة.

أولاً: الغزو النورماندي

بدأت غزوات النورمانديين على الأندلس منذ عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (206-238 هـ/822-852م) (انظر فصل الكيانات المستقلة في المغرب والأندلس)، ثم عاودوا الغزو في أيام الأمير محمد (238-273 هـ/862-884م) ففي سنتي 245-247هـ/859-861م هاجم الأسطول النورماندي أشبيلية ، فرد عليهم الأسطول الأموي بالنفط وأحرق 40 سفينة من مراكبهم.

اهتم الخليفة عبد الرحمن الناصر بالأسطول الأموي اهتماماً كبيراً للدفاع عن سواحل الأندلس من الأخطار الخارجية المتمثلة في النورمانديين والفاطميين في ذلك الوقت فأنشأ دوراً لصناعة السفن في طركونة والمريّة والجزيرة وملقة وميورقة ولقنت وشلب ، ويذكر لنا ابن خلدون أن عدد سفن الأسطول الأموي في عهد الناصر بلغ حوالي 200 سفينة ، وبهذا الأسطول فرض الناصر الحصار على مضيق جبل طارق ليمنع الإمدادات عن ابن حفصون التي كانت تصله من المغرب سنة 302هـ/914م وكان لهذا الأسطول الفضل في الاستيلاء على مدن طحجه ومليلة سنة 314 هـ/927م وسبتة سنة 318هـ/931م ضمن سياسة إبعاد الخطر الفاطمي عن الأندلس .

ثانياً: خطر الدويلات الأسبانية في شمال الأندلس

عندما أكمل عبد الرحمن الناصر توحيد الأندلس تحت سلطته اتجه لتصفية حسابه مع الممالك الأسبانية شمال الأندلس التي كانت تحاول الزحف نحو الجنوب على حساب أراضي الدولة الأموية. وجه الناصر أول ضرباته ضد الملك أردون الثاني (302-312 هـ / 914-924م) ملك مملكة ليون والملك شانجه الأول ملك مملكة نبرة وذلك لأن الملك أردون الثاني

كان قد هاجم سنة 302 هـ/914م مدينة يابرة الإسلامية وقتل حاكمها مروان بن عبد الملك وعدداً كبيراً من سكانها ، وفي سنة 305 هـ/917م اشتبكت الجيوش الإسلامية بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبده مع جيوش القشتاليين في موقعة بالقرب من شنت أشتين حيث انهزم المسلمون وقُتل قائدهم .

استغل الملك أردون الثاني وشانجه الأول المشاكل الداخلية التي كانت تواجه الناصر في بداية حكمه ، ولكن هذه التطورات الخطيرة في غرب الأندلس أجبرته على تعديل خططه العسكرية، فاضطر في سنة 308 هـ/920م أن يقود بنفسه حملة عسكرية كبيرة حيث وجه ضربات قاسية للأسبان واسترد المواقع التي كانوا قد احتلوها.

في سنة 311هـ/923م هاجم الملك شانجه الأول حصن بقيرة وارتكب مذبحة وحشية ضد حاميته وسكانه من المسلمين. ورداً على ذلك قاد الناصر حملة قوية ضد العاصمة الناقارية سنة 312 هـ/924 م وأوقعت بها الكثير من الدمار.

غير أن الأسبان تمكنوا في سنة 327هـ/939م من هزيمة جيش الناصر في المعركة المشهورة بالخندق بالقرب من مدينة شنت مانكش. وتختلف الروايات حول أسباب هذه الهزيمة مع أن جيش الناصر كان قويا وعدده كان يتناسب مع الجيش الأسباني ، ولكن يبدو أن الجيش الأموي كانت تنقصه الوحدة والتناغم بين العناصر المكونة له فكان التنافس على أشده بين ثلاثة قوى هي العرب والبربر والصقالبة الذين كان القائد العام للجيش منهم وهو نجدة الصقلي الذي قُتل في المعركة ، ويُرجحُ جانب الخيانة من قِبل بعض القادة العرب والبربر قبيل المعركة حيث تخلوا عن مواقعهم حتى تم القضاء على الصقالبة والدليل على ذلك أن الناصر أعدم عند عودته ثلاثمائة من فرسانه في الساحة العامة في قرطبة . وقد استعاد الأسبان عدداً من الحصون التي كان المسلمون قد استولوا عليها عند نهر تورمس.

وفي سنة 332 هـ/944م اختار الناصر أحمد بن يعلي قائداً لمنطقة الثغر الأوسط ، ووجهه للإغارة على بلاد ليون ، وولى القائد أحمد بن محمد بن الياس على رأس حملة متجهة إلى جلبقية ، ثم أمر بنقل قاعدة الثغر الأعلى إلى مدينة سالم بدلاً من طليطلة وعيّن عليها غالب الناصري الذي سنرى اسمه يبرز أكثر في عهد الحكم المستنصر وابنه هشام فيما بعد. لقد تمكّن القائد غالب من تحصين مدينة سالم وجعلها قاعدة عسكرية حصينة ، ومنها انطلق على رأس حملة عسكرية سنة 337هـ/944م نحو سلمنقة

ووصلت إلى بلدلك عاصمة جلبقية واستردوا المواقع التي كان الأسبان قد استولوا عليها بعد معركة الخندق.

وفي صيف 339هـ/950م قام القائد أحمد بن يعلي بغارة وصل فيها إلى ساحل المحيط في جلبقية وهو ما جعل الملك راميرو الثاني يطلب السلم فلا قدرة له على الاستمرار في محاربة المسلمين ولكنه توفي سنة 340هـ/951م وخلفه أردونيو الثالث الذي حاول عقد تحالفات مع ملوك وأمراء أسبان آخرين ، ولكن هذه السياسة جرّت عليه مشاكل كثيرة وحاربه بعض زملائه من ملوك أسبانيا. وقد انتهز الناصر هذه الفرصة وأغار على مملكة ليون سنة 342 هـ/953م وتمكّن قواد الناصر في سنة 344هـ/ 955م من إنزال هزيمة ساحقة بقوات أردونيو الثالث حيث قُتل من رجاله حوالي عشرة آلاف واضطر إلى طلب المهادنة والمصالحة مع المسلمين.

في سنة 344هـ/955 م قدم إلى قرطبة وفد من الملك أردون الثالث يطلب السلم مع المسلمين فعقد له بذلك. كما وفدت إليه الملكة طوطة سنة 347هـ/ 958م مع حفيدها شانجة المشهور بشانجه السّمين الذي كان نبلاء ليون وقشتالة قد عزلوه عن العرش لعدم لياقته الصحية بسبب إفراطه في السمنة. وقد أكرم الناصر وفادة الملكة طوطة وحفيدها وأرسل طبيبا لمعالجة حفيدها من السمنة وجيشاً أعاده إلى عرشه تحت اسم سانشو الأول سنة 349 هـ/960م مقابل حصون من مملكة شانجة غير أن شانجة لم يف بوعوده للناصر فاضطر ابنه الخليفة الحكم فيما بعد إلى محاربته ، وهكذا أصبحت الأندلس في عهد الناصر القوة الكبرى الوحيدة في أوروبا دون منازع وأصبح الخليفة عبد الرحمن الناصر بفضل حنكته وعبقريته السياسية والعسكرية الملجأ الوحيد للأمراء الأسبان والحكم بينهم فيما يحدث من خلافات حول عروشهم.

وقد وفد على قرطبة العديد من الوفود السياسية تطلب ود الناصر وصداقته ومساعدته من إمبراطور بيزنطة والإمبراطورية الرومانية المقدّسة في عهد أوتو الأول ومن بعض ملوك وأمراء فرنسا والإمارات الأسبانية والنورماندية وبلاد الإنجليز وغيرها.

كان عهد الناصر عهد بناء وازدهار بفضل توفر الأمن والاستقرار في الأندلس الذي انعكس في النمو السكاني والاقتصادي والرخاء ، فازدهرت المدن الأندلسية – ومنها العاصمة قرطبة – بمختلف الصناعات والمباني من قصور وجسور وحمامات وقلاع..الخ وكذلك الحياة الفكرية ؛ ولهذا فاقت

قرطبة بغداد والقسطنطينية وبلغ سكانها نحو نصف مليون نسمة. وكثرت المنازل والقصور الفخمة والفنادق والحمّامات والأسواق والمساجد الجميلة والشوارع المرصوفة.

إن أهم ما كان يثير الإعجاب مسجدها الكبير الذي أضاف إليه عبد الرحمن الناصر ووسعه وخاصة المنارة المذهّبة التي سُميت بمنارة الناصر سنة 340 هـ/951م ، فكانت شاهقة الارتفاع وغاية في الدقة.

أعاد الخليفة عبد الرحمن الناصر بناء مدين سالم التي أصبحت قاعدة عسكرية بدلاً من طليطلة تنطلق منها الحملات نحو شمال أسبانيا ضد المد الأسباني نحو الجنوب ، وشحنها بالأسلحة والمؤن والجنود الذين كانوا دائما على استعداد للانطلاق في حملات جهادية لصد أي غزو أسباني نحو الجنوب.

بدأ الناصر كذلك سنة 325هـ/936م في إنشاء مدينة جديدة بالقرب من قرطبة على بعد ثمانية كيلومتر إلى الشمال الغربي من قرطبة على سفح جبل العروس من جبال قرطبة ، وقد خططت هذه المدينة على أساس جيد لتشمل كل مرافق الدولة وأحضر المهندسين من مختلف الدول وبلغ عدد العا ملين فيها 10 آلاف عامل ومهندس وصرف عليها الناصر ثلث إيراد الدولة لمدة 17 سنة وقد أشرف على بنائها ابنه وولي عهده الحكم الثاني والمهندس مسلمة بن عبد الله وجلب إليها المياه من مسافة 80 كيلومتراً من أعلى الجبل في قنوات نحتت بطريقة رائعة.

توفي الخليفة عبد الرحمن الناصر في صدر رمضان سنة 350 هـ/961م بعد حكم دام خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ووُجد في مذكراته بخط يده أن أيام السرور التي تمتع بها دون تكدير 14 يوما فقط وتولى بعده ابنه الحكم.

ابتدأ الخليفة الحكم الثاني عهده بأن أمر بالزيادة وتوسيع المسجد الجامع بقرطبة وكلّف بذلك حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلي وكان ذلك ثاني يوم توليه الخلافة ، ويرجع السبب في هذه الزيادة إلى كثرة سكان قرطبة وتزاحم المصلين بالمسجد. كما أمر الحكم الثاني بتخصيص ربع ممتلكاته التي ورثها عن والده وجعلها وقفاً على فقراء المسلمين وضعفائهم وأشهد على ذلك القضاة والوزراء. كما أمر ببناء دار للصدقة بالقرب من الجامع وأجرى المياه النقية من أعلى الجبل إلى المسجد .

خلافة الحكم الثاني المستنصر بالله 350-366 هـ/ 961-979م :

آلت مقاليد الخلافة للحكم وهو في سن السابعة والأربعين من عمره ويعتبر عهده استمراراً

لعهد والده الناصر وذلك لمشاركة الحكم في الإدارة في أثناء حياة والده الذي كلّفه بالعديد من المهام - كما مر سالفا - مثل الإشراف على بناء مدينة الزهراء وقيادة بعض الحملات العسكرية وغيرها. وقد تمتعت الأندلس في عهده بالأمن والاستقرار وامتاز الحكم عن غيره من الخلفاء الأمويين بشغفه بالعلم والقراءة واقتناء الكتب والاهتمام بالعلم والعلماء ، ويذكر لنا ابن خلدون أن مكتبته حوت 400 ألف مجلد وأنه كان مشغوفا باقتناء نوادر الكتب وأنه دفع ألف دينار ذهب لكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ويصفه ابن الخطيب بقوله: كان عالماً فقيها بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب وكان له مراسلون يتجولون يشترون له الكتب المخطوطة .

لقد اهتم الحكم باجتذاب العلماء إلى بلاطة وبذلك وفد عليه مشاهير علماء اللغة مثل أبي علي الغالي مؤلف كتاب الأمالي وهو من ديار بكر وأصله من العراق، والعالم المغربي القيرواني محمد حارث الخشني مؤلف كتاب تاريخ القضاة بالأندلس وكتاب قضاة قرطبة. وأبي بكر محمد بن القوطية مؤلف كتاب تاريخ افتتاح الأندلس. وقد أغدق الحكم الأموال والعطاء على العلماء وشجعهم ، ويؤكد لنا ابن عذارى هذا فيقول: "ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة وأجرى عليهم المرتبات".

وقد شجع الحكم أيضا الترجمة من اللاتينية إلى العربية ، خاصة تلك الكتب التي أهداها بعض أباطرة الدولة البيزنطية للناصر، مثل كتاب التاريخ لهرشيوش وكتاب سقوريدس في الطب من اليونانية، وكذلك شجع الرحّالة وطلب منهم إعداد تقارير عن مشاهداقم ومن هؤلاء الرحّالة إبراهيم الطرطوش في أوروبا ومحمد بن يوسف الورّاق الذي زار أفريقيا وكثرت في عهد الحكم المكتبات وتنافس الناس في اقتناء الكتب حتى أصبحت تشترى لاستكمال مظهر الرقي والترف فكانت المكتبة جزءاً من مركز الرجل الاجتماعي.

وبجانب المكتبات وصناعة الكتب انتشرت صناعة الورق والتجليد والنسخ بأنواع راقية ومختلفة وكذلك أدوات الكتابة من حبر وأقلام..الخ

ترجع أسباب التقدم والازدهار والتقدم في عهد الحكم الثاني إلى الاستقرار وانتشار الأمن بفضل الرصيد السياسي والعسكري الذي تركه له والده الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حيث مهد الأندلس سياسياً وعسكرياً ، وقضى على كل المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهت حكمه.

اعتمد الحكم على وزرائه في إدارة شئون دولته وخاصة وزيره جعفر ابن عثمان المصحفي الذي منحه صلاحيات واسعة لإدارة شئون الدولة.

لم تكن للحكم مشاكل داخلية خطيرة ومن ثم ركّز جل اهتمامه على الدويلات الاسبانية التي سارع حكامها إلى التسابق لطلب وده ومرضاته طلباً للمساعدة بعضهم ضد بعض. ولكن عندما شعر الحكم بوجود تحالف ضده وجه ضربات عسكرية قوية ضد هذا الحلف الذي كان بقيادة الملك شانجه سنة 352هـ/963م وأجبر الأسبان على طلب الهدنة وقبول سلام الحدود. وفي سنة 354هـ/965م عاودت جيوش الحكم الكرة بقيادة يحي ابن محمد التجيبي وغالب بن عبد الرحمن قائد الثغر على مدن قلهرة وألبه.

العلاقات مع القوى السياسية في المغرب العربي :

إن الخطر الفاطمي الذي كان يهدد الخلافة الأموية في الأندلس فى أثناء عهد الخليفة الناصر قد خفّ كثيراً في عهد الحكم الثاني ؛ نظراً لتوجيه الفاطميين لنشاطهم السياسي العسكري نحو مصر التي سيطروا عليها سنة 358هـ/969م بواسطة قائدهم الشهير جوهر الصقلي الذي احتل الفسطاط في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ/953-975م) ومن هنا زال الخطر الفاطمي على الأندلس نهائياً .

بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة 362هـ/973م احتدم الصراع بين أهم قبيلتين في المغرب وهي صنهاجة وزناتة وكان المعز قد ولى قبل رحيله عن المغرب بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ولهذا غضبت زناتة واتجهت إلى الأمويين بالأندلس وتلقت من الحكم الثاني دعماً مالياً وعسكرياً كبيراً كان يهدف إلى تحقيق هدفين:

- الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحت سيطرة الأمويين مثل سبية ومليلة وطنجة.
- إضعاف الحكم الفاطمي في هذه المنطقة وذلك بتحقيق توازن بين القوى المتصارعة لصالح الأمويين.

لقد أدى خروج الفاطميين من المغرب إلى خلق فراغ سياسي على الزعامة وأدى إلى ظهور قوى تتصارع على الحكم مثل بقايا الأدارسة الذين كان يتزعمهم الحسن بن كنون آخر أمرائهم وزعماء زناتة الذين كان يقودهم يحي بن علي بن حمدون، وعندما ثار الأدارسة ضد الأمويين بزعامة ابن كنون لم يتردد الحكم الثاني في إرسال حملة لإخماد حركتهم بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن

رماحس الذي استولى على طنجة ثم ألحقها بقوة كبيرة أخرى بقيادة القائد الشهير غالب بن عبد الرحمن قائد الثغر الأعلى الذي كان مرابطا في شمال الأندلس يحارب القوى الأسبانية. وقد تمكن هذا القائد من هزيمة الأدارسة وأسر زعيمهم الحسن بن كنن وأخذه أسيراً مع أسرته إلى الأندلس.

الخطر النورماندي

ظل النورمانديون يظهرون من حين لآخر ويهددون الأندلس. في عهد الحكم الثاني ظهروا على الساحل الشرقي وحاصروا حصن القبطة بالقرب من مدينة المرية ، وقد اضطر الخليفة إلى الذهاب بنفسه إلى هناك ليتفقد الأعمال الدفاعية.

ويذكر لنا المؤرخ ابن عذارى أنه في سنة 355هـ/965م ورد كتاب من قصر أبي دانس يذكر فيه ظهور النورماند بالساحل الغربي للأندلس بأسطول يتكون من 28 سفينة ، وقد أدى إلى اضطراب المسلمين الذين تصدوا للمهاجمين الذين تمكّنوا من أسر بعض المسلمين وأخذوهم إلى سفنهم ، دارت بين الطرفين حرب استشهد فيها عدد من المدافعين المسلمين وقُتل فيها من المعتدين النورماند. وقد صدرت الأوامر من الخليفة إلى الأسطول الأموي الموجود في أشبيلية للتصدي للغزاة الذين التحم معهم بوادي شلب وتمكّن رجال الأسطول الأموي من تحطيم عدة مراكب من النورماند وفك الأسرى المسلمين.

وفي سنة 355 هـ/965م أمر الخليفة الحكم الثاني بصنع مراكب على هيئة مراكب النورماند ووضعها في نهر قرطبة تمهيداً لقتالهم بها على نفس طريقتهم. وقد عاود النورماند غاراتهم على الأندلس في سنتي 360-361 هـ/ 970-971م ، ولكنهم لم يستطيعوا النزول هذه المرة إلى السواحل الأندلسية الغربية بفضل يقظة الأسطول الأندلسي الذي استطاع طردهم دون صعوبة.

توفي الخليفة الحكم الثاني في 366 هـ/976م وبموته انتهى آخر الخلفاء الأمويون الأقوياء وعلى حسب وصيته خلفه ابنه الصغير هشام الثاني الذي لم يتعد عمره إحدى عشرة سنة.

الخليفة هشام الثاني 366- 399هـ/ 976-1008م

عندما توفي الحكم الثاني كان ابنه هشام الثاني وولي عهده غلاماً صغيراً لم تتجاوز سن الحادية عشر ، وبذلك حدثت أزمة سياسية حول خلافته بسبب ذلك.

لقد انقسم رجال الدولة إلى فريقين:-

الفريق الأول يتكون من العسكريين الصقالبة يتصدرهم فائق وجوذر ، وقد رأى هذا الفريق تنحية هشام لصغر سنه وتولية عمه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، أما الفريق الثاني فكان من الوزراء وعلى رأسهم الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي يسانده محمد ابن أبي عامر ووزراء آخرون رأوا التمسك بوصية الخليفة المتوفى الحكم الثاني وتولية هشام الصغير حفاظاً على سلطتهم ومراكزهم.

لقد نجح الفريق الثاني بعد أن تم اغتيال المغيرة وأنصاره وأخذت البيعة للأمير الطفل من قِبَلِ محمد بن ابي عامر وبعدها صدر أمر بتعيين المصحفي حاجباً وابن أبي عامر وزيرا. ومن هنا بدأ صراع عنيف على السلطة بين ابن أبي عامر والمصحفي أظهر فيها ابن أبي عامر براعة نادرة في كيفية التخلص من معارضيه وعلى رأسهم المصحفي وقتل بعضهم بعضاً حتى خلت الساحة السياسية له وأصبح الرجل القوي الوحيد في الأندلس. والسؤال : من هو ابن أبي عامر؟ وكيف وصل إلى السلطة وأطاعته الأندلس حتى أصبح زعيماً بدون منازع؟

المنصور بن أبي عامر:

نسبه: هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان جده عبد الملك المعافري قد جاء إلى الأندلس مع موسى بن نصير وطارق ابن زياد ، وقد ذكر في تاريخ فتح الأندلس أنه أبلى بلاء حسناً في أثناء عمليات فتح قرطاجنة وقد استقرت أسرته في الجزيرة الخضراء وأقطعت حصن طرش حيث وُلد محمد بن أبي عامر سنة 328هـ/ 940م . لقد خدم عدد من أسرة بني عامر في الدولة الأموية ، وكان عبد الله والده رجلاً فاضلاً اهتم بالحياة الدينية وتوفي في أثناء عودته من تأدية فريضة الحج ، ودُفن بمدينة طرابلس الغرب. أما والدته بريهة بنت يحيى التميمي فكانت من أسرة متنفذة تُعرف ببني البرطال وجدته لأبيه ابنة الوزير يحيى بن إسحاق وزير الخليفة عبد الرحمن الناصر.

لقد نشأ محمد بن أبي عامر في ظروف عائلية مريحة ، واقتدى بأعمامه وأخواله في مهنة القضاء فدرس الحديث واللغة والأدب في جامع قرطبة على يدي مشاهير العلماء والفقهاء ، أمثال أبي علي القالي وأبي بكر بن القوطية وأبي بكر بن معاوية القرشي وغيرهم.

عندما أتم ابن أبي عامر تكوينه العلمي افتتح دكاناً (مكتباً) لكتابة العرائض أو الالتماسات للخليفة والوزراء بالقرب من قصر الخليفة الحكم المستنصر. وكان منذ صغره شديد الطموح

والذكاء وقد ذاع صيته بسبب أسلوبه في الكتابة حتى اختارته السيدة صبح زوجة الخليفة الحكم وأم ولي العهد هشام الثاني كاتباً لها فأعجبها أسلوبه ومعاملته وقدمته للخليفة الذي ولاه دار السّكة ومنصب القضاء بكورة ريّة ، وأثبت خلال توليه هذا المنصب جدارة فائقة ثم رُقي إلى تولي منصب المشرف على الزكاة والمواريث وإدارة الشرطة بأشبيليه. ويبدو أيضا أن خاله وصهره الذي كان من كبار رجال الإدارة والقصر قد سعى له للحصول على خطة المواريث.

وفي هذا الصدد يشير ابن بسّام في كتابه الذخيرة: " فعلت حاله وعرض جاهه، وعمر بابه في حياة الحكم وهمته ترتمي به وراء ما يناله من الدنيا أبعد مرمى، وهو في كل ذلك يغدو إلى باب جعفر ويروح ويختص به ، ويتحقق نصيحته إلى أن أخطاه الجد وساعده القضاء".

أخذ ابن أبي عامر يترقى في المناصب حتى أصبح وكيلا لولي العهد فزاد مقداره ومكانته وكسب تأييد السيدة صبح والدة ولي العهد الصغير هشام وتزاحم الناس عليه طلباً لوساطته لحل مشاكلهم. ثم عيّنه الحكم قاضي قضاة بالعدوة المغربية وعيناً على العسكر هناك، وصاحب الشرطة الوسطى والسكة والمواريث سنة 361هـ/971م ، ثم عهد إليه الخليفة بأخذ البيعة لهشام بن الحكم سنة 365 هـ /975 م ، وبهذه المناسبة تم إسقاط ضريبة زيت الزيتون التي كانت مجحفة بالناس فسروا بذلك ، ونسبوا ذلك إلى ابن أبي عامر فأحبوه.

وعندما توفي الخليفة الحكم المستنصر 366هـ/976م تولى ابن أبي عامر دعوة الناس لأخذ البيعة لهشام الثاني الذي تلقب بالمؤيد و لم يختلف على البيعة أحد ، وقد رفع هذا من شأنه ومكانته وسمعته ، وقد قلد الخليفة الجديد أبا الحسن جعفر المصحفي حاجباً لدولته (رئيس الوزراء أو الوزير الأول) ومحمد ابن أبي عامر وزيراً وجعله وكيلا للحاجب. ولما أساء المصحفي التصرف في الأموال عارضه ابن أبي عامر فيما فعل. " وأخذ ابن أبي عامر يمكر به ويضرب بين حسدته ويناقضه في أكثر ما يعامل به الناس ويستعجل بالبذل وقضاء الحوائج ويتقدم من المعالي إلى ما يحجم جعفر عنه، يستخدم الرجال وجعفر يدفعهم".

وحدث أن هاجم القشتاليون قلعة رباح بعد وفاة الحكم الثاني بقليل واحتلوها وسبوا أهلها ، واستغاث الناس بقرطبة ، وتلكأ المصحفي في نجدتهم ، وهنا أسرع ابن أبي عامر وتبرع بقيادة الجيش للانتقام من القشتاليين وتمكّن في سنة 366هـ/977م من الاستيلاء على حصن

الحامّة الذي كان يتبع الملك رودميره ملك جليقية ورجع بغنائم كثيرة واستقبله سكان قرطبة استقبال الأبطال وأحبه الجند والتفوا حوله.

وبهذا النصر الذي حققه ابن أبي عامر بدأ نجمه في الصعود ونجم المصحفي في السقوط ، وقد استغل ابن أبي عامر هذا النصر أحسن استغلال في الدعاية لنفسه والحط من سمعة المصحفي وقدره وقد بدأ فعلا العمل الفعلي للتخلص منه ، وأول إجراء اتخذه في هذا الشأن هو طرد الفتيان الصقالية من القصر الخلافي واستبدالهم بمماليكه الذين أصبحوا يعرفون بالفتيان العامرية. وكان المصحفي قد وافق على طرد الفتيان الصقالبة نظراً لتأييدهم نقل الخلافة إلى المغيرة بن الناصر بدلاً عن هشام المؤيد وبهذه الطريقة تمكّن ابن أبي عامر من السيطرة على القصر الخلافي ومن فيه مثل الخليفة ووالدته السيدة صبح.

بدأ ابن أبي عامر الخطوة الثانية وهي التخلص من المصحفي مستغلاً العداء القديم بين المصحفي والقائد غالب أمير الجيوش وقائد الثغر الذي كانت له مكانة كبيرة لدى الخليفة وعند عامة الناس. حيث أخذ ابن أبي عامر يتقرب من القائد غالب ويمدحه لدى الخليفة الصغير ووالدته السيدة صبح حتى أصدر الخليفة أمراً بتقليد غالب خطة الوزارتين وقيادة الصوائف بالمشاركة مع ابن أبي عامر الذي أصبح قائداً لجيش الحضرة (قرطبة) وغالب جيش الثغر.

في سنة 366هـ/977م خرج ابن أبي عامر في غزوة ثانية والتقى فيها مع القائد غالب بن عبد الرحمن عند حصن مجريط (موقع مدينة مدريد الحالية) واتفقا على العمل سوياً للإطاحة بالمصحفي ، وسار جيشاهما نحو حصن مولة وتم الاستيلاء عليه ، وقد غنم المسلمون كثيراً من هذه الغزوة وتشير المصادر الأندلسية إلى أن الفضل في هذا الانتصار كان للقائد غالب ، إلا أن الأخير نسب الانتصار لابن أبي عامر وقال له: "سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن أبي جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه".

وبالفعل عندما عاد ابن أبي عامر إلى قرطبة محمّلا بالغنائم والسبي استمال بها العامة والخاصة وذاع صيته واستطاع إقناع الخليفة بأن يضيف إلى مسؤولياته قيادة الشرطة بقرطبة وقد كان هذا المنصب المهم حكراً على المصحفي وأسرته فكان يشغله ابنه محمد.

وبسيطرة ابن أبي عامر على جيش الحضرة بقرطبة وشرطتها أمسك بزمام الأمور بيد من حديد ، فاستتب الأمن والاستقرار في العاصمة ،

وقضى على ظاهرة الأجرام ، ولذلك أحبه الناس أكثر بفضل اطمئنانهم على أرواحهم وممتلكاتهم.

استمد ابن أبي عامر قوته من القصر الخلافي خاصة من سيدة هذا القصر صبح البشكنسية والدة الخليفة هشام المؤيد التي كانت مهيمنة على ابنها. وكانت القرارات التي تصدر عن القصر لصالح ابن أبي عامر تعطيه التغطية الشرعية لتمرير سياسته وتحقيق أهدافه فأصبح في أعين الناس المدافع عن الخلافة واستمرارها.

أما سياسة ابن أبي عامر نحو الجيش فقد اتخذ خطوة خطيرة على مستقبل الأندلس في المدى البعيد وهي إبعاد العناصر القيادية التقليدية العربية وإحلال العناصر المغاربة خاصة من العدوة المغربية من قبائل زناتة وصنهاجة وقضى على الحرس الصقلبي – كما رأينا – واستبدلهم بآخرين عرفوا بالفتيان العامرية ، وبهذه المناسبة يذكر ابن خلدون أن ابن أبي عامر: " قدم رجال زناته وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم" وتشبه هذه السياسة سياسة الخليفة العباسي المعتصم 218-227هـ/833-842م الذي أدخل الأتراك في الجيش العباسي بدلا من العنصرين العربي والفارسي اللذين كانا يتنافسان على السلطة في الدولة العباسية.

ولما رأى المصحفي تآمر ابن أبي عامر عليه وشعر بتنامي خطره حاول التقرب إلى القائد غالب بن عبد الرحمن وذلك بخطبة ابنته لابنه ، إلا أن تدخل ابن أبي عامر فسخ هذه الخطبة ، وخطب ابنة غالب لنفسه وتزوجها في احتفال كبير أقيم في القصر الخلافي ، وبهذه المصاهرة مع غالب قوي موقف ابن أبي عامر وتعززت سلطته.

في الغزوة الثالثة لابن أبي عامر مشتركا مع صهره غالب 367هـ/978م التقيا في طليطلة وافتتحا حصن رنيق وأرباض سلمنقة ورجع إلى قرطبة حيث استقبله الخليفة وقلده منصب ذي الوزارتين ، وقلد غالب الحجابة بالاشتراك مع المصحفي ، إلا ان ابن ابي عامر ظل يكيل التهم للمصحفي حتى أقنع الخليفة هشاماً بعزل المصحفي عن الحجابة سنة 367هـ/979م وأمر بالقبض عليه وعلى ولده وحبسهما في السجن المعروف بالمطبق في مدينة الزهراء ، وطالبهم بالأموال التي تصرفوا فيها ، وكلف الخليفة ابن أبي عامر بمحاسبة آل المصحفي ، فقتل منهم هشام ابن أخ المصحفي وباع قصورهم واستصفى أموالهم ، وقد استمرت نكبة المصحفي سنتين يُفرج عنه حينا ويسجن بعدها لبعض الوقت. وفي ذات مرة بقى المصحفي لعدة أيام ثم سُلّم لأهله ميتاً ، وقد قيل إنه قُتل خنقا في سجنه أو دُست له شُربة مسمومة.

ولما تخلص ابن أبي عامر من الحاجب والوزير الأول المصحفي لم يبق أمامه من المعارضين لطموحه بالسيطرة الكاملة على السلطة في الأندلس إلا صهره قائد الثغر الأعلى غالب بن عبد الرحمن الذي كان يتمتع بشهرة واسعة ونفوذ كبير بفضل موقفه كقائد للجيش وأشهر فرسان الأندلس. لذلك قرر ابن أابي عامر استدعاء قائد مغربي اشتهر بالشجاعة هو جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي وعيّنه قائداً على جيش العاصمة أو جند الحضرة والتي كان أغلب منتسبيها من المغرب خاصة من قبائل زناتة وهي قوة مدربة ومحترفة. وكان القصد من إنشاء هذه القوة حماية القصر الخلافي والعاصمة وخلق توازن مع الجيش الذي كان يسيطر عليه القائد عبد الرحمن غالب. وقد أغدق ابن أبي عامر الأموال والامتيازات الأخرى على هذه القوة وكسب بذلك ودهم ومحبتهم وإخلاصهم.

لقد بدأ غالب بن عبد الرحمن يشعر بتزايد خطر صهره ابن أبي عامر عليه ويشك في نوايا جنده ، ومن هنا بدأ سوء التفاهم بين الاثنين ولكن غالب اضطر إلى مصانعة ابن أبي عامر للعمل على التخلص منه في الوقت المناسب ، وقد استغل القائد غالب مناسبة قدوم ابن أبي عامر للمشاركة في حملة جهادية ضد ليون سنة 371هـ/981م ودعاه إلى وليمة على شرفه في حصن بالقرب من بلدة أنتيسه ، وكان القصد استدراجه إلى هناك والتخلص منه وفي أثناء اللقاء دار حديث عنيف بين القائدين تحول إلى شتائم ، وعلى أثر ذلك فاجأ غالب صهره بضربة سيف فجرحه ، ولكن ابن أبي عامر فر أمامه وبسرعة امتطى جواده وقفز من أعلى القلعة ونجا من هذه المؤامرة بأعجوبة.

ذهب ابن أبي عامر إلى مدينة سالم مقر القائد غالب بن عبد الرحمن واستولى عليها ، وهنا اضطر ابن غالب إلى الاستعداد لمواجهة ابن أبي عامر الذي سرعان ما زحف بجيشه وجرت بين القائدين معركة شديدة انتهت بمقتل غالب سنة 371هـ/981م.

ولكي يخلو الميدان السياسي والعسكري لابن أبي عامر كان عليه أن يتخلص من جعفر بن حمدون الأندلسي كذلك ، فاستعان بقائد آخر يُعرف بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبي سنة 372هـ/982م وتم تدبير مؤامرة أدت إلى مقتل الأندلسي. وهكذا أصبح ابن أبي عامر الوحيد في حلبة الأندلس دون منازع بعد أن تخلص من كل منافسيه الواحد بعد الآخر ، ولذلك سُمي منذ 371هـ/981م بلقب المنصور ، ودُعي له على المنابر وسك اسمه على العملة وتساوى مع الخليفة هشام في المرتبة.

وقد لخص لنا ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام سياسة المنصور ابن أبي عامر في الكلمات التالية: كان المنصور آية من آيات الله في الدهاء والمكر والسياسة، عدا بالمصاحفة (أي أنصار الحاجب المصحفي) على الصقالية حتى قتلهم ، ثم عدا بغالب على المصاحفة حتى قتلهم ، ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه ، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر: هل من مبارز ؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره"

سياسة المنصور الداخلية والخارجية:

اتبع المنصور بن أبي عامر سياسة تقوم على الاستبداد والانفراد بالسلطة ولم يسمح لأحد إلا مرحلياً أن يشاركه في اتخاذ القرار وأسس حزبا عرف بالحزب العامري ويتكون من فتبان تم شراؤهم من أسواق النخاسة عرفوا فيم بعد بالصقالبة العامريين استغلهم كحرس ثم اختار البارز منهم لقيادة بعض قواته. أدخل المنصور - كما مر بنا - قوة من المغرب عمادها من قبائل زناتة لتشكيل جيش الحضرة أو العاصمة لتحرس قرطبة ، وتكون قوة توازن مع الجيش الأموي المرابط في شمال الأندلس.

استبعد المنصور أبناء الأسر العريقة في الأندلس التي كان يقوم عليها نظام الحكم الأموي واستبدلها بآخرين كانوا مهمشين ، واستعان بصغار الفقهاء واصطنع آخرين من بين المغمورين ورفعهم إلى درجة القيادة في إدارة الدولة ، ومن هؤلاء جميعا كوّن أنصاره الذين أخلصوا له ولنظامه.

ومن ناحية أخرى حجر على الخليفة هشام المؤيد وجعله أسير قصره فأضعف مؤسسة الخلافة التي كانت على الدوام رباط وحدة الأندلس وقوته. إلا أن الأندلس تمتعت في عهده بالأمن والاستقرار والازدهار الاقتصادي. وكان المنصور يهتم بالأمن منذ كان قائد الشرطة في العاصمة ، وبذلك قلت الجرائم والاضطرابات في عهده.

ولكي يؤمن المنصور على نفسه قرر بناء مقر إداري خاص به في شمال شرق قرطبة سنة 368هـ/978م وقد عُرف بقصر الزاهرة ، وانتهى من بنائه سنة 370هـ/980م ، وقد شمل هذا المقر بيوت الوزراء والجنود والأتباع ومخازن السلاح والأموال وجعل فيها الحدائق وحصنها بأسوار عالية.

ومن أبرز أعمال المنصور الزيادة الكبيرة في مسجد قرطبة سنة 377هـ/987م من الجهة

الشرقية منه فانتزع ملكية البيوت المجاورة للمسجد وعوّض أهلها عنها عقاراً ومالاً، وقد استغرق العمل في هذه الزيادة عامين ونصف ،وانتهت سنة 380 هـ/990م.

أمر المنصور كذلك ببناء قنطرة على نهر الوادي الكبير سنة 378هـ/ 988م وأخرى على نهر شنيل عند إستجة وقد أنفق أموالاً كثيرة على هذه المشاريع.

أما سياسته الخارجية فقد قامت على الضغط المستمر على الممالك والإمارات الأسبانية ، وذلك من خلال اتباع سياسة جهادية وذلك ما جعل هذه الممالك في موقف الدفاع عن نفسها دائماً، ولقد قام المنصور ابن أبي عامر بـ 57 حملة و لم تهزم قواته مرة واحدة وقيل إنه كان يجمع غبار المعارك عن جسمه ويضعه في صُرة لدفنها معه عند وفاته وكان يقوم بغزوتين سنوياً واحدة في الصيف والأخرى في الخريف ، طوال مدة حكمه الذي دام لمدة 25 سنة.

جاهد المنصور الممالك الأسبانية على عدة جبهات في قشتالة وليون ونبرة وقطلونية وبرشلونة وجليقية والأخيرة اعتبرت أهم وأخطر غزواته ضد الأسبان ؛ وذلك لأنها قصدت مدينة شنت ياقب أو مدينة سنتياجو مرقد الحواري أو القديس يعقوب ، والتي كانت المعقل الروحي للأسبان ، ومنها تُشن الحملات ضد المسلمين في الأندلس، وكانت توجد في هذه المدينة كنيسة كبيرة.

استعد المنصور لهذه الحملة فجهز جيشاً برياً قوياً قاده بنفسه وزوده بالمؤن والمعدات التي حملها الأسطول الأندلسي، وتمكن بهذه القوة أن يدمّر معاقل الأسبان ، وبالذات المعقل الروحي للمقاومة الأسبانية في مدينة شنت يعقوب سنة 387هـ/997م ، ولكنه أبقى على ضريح القديس يعقوب كما هو وعاد المنصور إلى قرطبة محمّلا بالغنائم ، وقد هابته ملوك أوربا وطلبوا وده.

ولقد رفعت السباسة الجهادية للمنصور من سمعته على مستوى الأندلس وخارجه وعد من كبار أبطال الإسلام وكسب تأييداً شعبياً واسعاً وأسكت المعارضين لحكمه المطلق ، وقد أدت هذه الانتصارات العسكرية الباهرة إلى رخاء وازدهار اقتصادي في الأندلس.

أما سياسة المنصور تجاه المغرب فكانت تقوم أساساً على إبعاد الخطر الفاطمي عن الأندلس ، كما كان الحال في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الثاني تلك السياسة التي شارك فيها ابن أبي عامر شخصيا عندما كان لا يزال قاضياً بالعدوة وعيناً على الجنود هناك أيام حكم المستنصر.

ركّز المنصور على سياسة الاحتفاظ بمدن سبتة وطنجة والجزية الخضراء وهي المعبر إلى الأندلس ، فحصّنها وشحنها بالجند ، وعقد تحالفات قوية مع قبائل زناتة وقادتها.

ففي سنة 369 هـ/979م تمكّن ابن أبي عامر بمساعدة حليفه خزرون بن فلفول الذي تمكّن من السيطرة على مدينة سجلماجة ، وفي سنة 369 هـ/979م كذلك تعرضت مدينة سبتة للهجوم من قِبل بلكين بن زيري الصنهاجي ، ولكن قوات المنصور تمكنت من صد هذا الهجوم ، وفي سنة 375 هـ/985م ثار بقايا الأدارسة بقيادة أميرهم الحسن بن كنون وتحالف مع الفاطميين في مصر ولكن المنصور تمكن أيضا من هزيمته وقتله. واجهت المنصور كذلك ثورة عاتية بزعامة زيري بن عطية المغراوي أحد فروع زناتة سنة 386 هـ/996م وكان هذا الزعيم حليفاً للمنصور ، ولكنه اختلف معه وثار ضده ، ولذلك جهز المنصور قوة وضع على رأسها واضح الصقلبي قائد ثغر مدينة سالم وعبرت هذه القوة إلى المغرب سنة 387هـ/997م وتقدم إلى مدينة فاس لكنه اضطر إلى التراجع أمام هجمات زيري ابن عطية وعليه قرر المنصور إمداد قائده بقوات كبيرة وضع على قيادتها ابنه عبد الملك الذي استطاعت قواته أن هزم خصمه ابن عطية الذي جُرح في المعركة جرحاً خطيراً اضطره إلى الانسحاب مسرعاً وبالتالي استطاع المنصور أن يسيطر على المغرب الأقصى ويحمي الأندلس من هجمات أعدائه بالمغرب.

اختتم المنصور حياته غازياً بأرض جليقية ومات فى أثناء هذه الحملة في 27 من رمضان 392 هـ/1002م ودُفن بصحن قصره في مدينة سالم. وبموت المنصور غمرت الفرحة ملوك أسبانيا الذين استراحوا من ضرباته العسكرية ضدهم.

قد خلفه ابنه عبد الملك الذي تلقب بالحاجب المظفر 392-399هـ/ 1002-1009م ، وقد أصدر الخليفة هشام المؤيد مرسوما شكلياً بذلك في 3 من شوال 392 هـ/1002م وبدأ عبد الملك عهده بخطوات إصلاحية منها:

- اتّباع سياسة الرفق بالرعيّة فأطلق سراح بعض المسجونين وخفف عن بعضهم وحسّن أحوالهم وأسقط الجباية عن الناس ونشر العدل ، فأحبه الشعب وأطاعوه فقلّت الفتن والمؤامرات ضد حكمه ، وأدت هذه السياسة إلى ارتياح عام في الأندلس وعمّت الطمأنينة وانتشر الرخاء في البلاد.

- استمر عبد الملك على سياسة والده في اصطناع القبائل المغربية واستعمالها في قواته فدعا زاوي بن مناد بن بلكين زعيم قبيلة

صنهاجة وولاه منصب الوزارة ، إلا أنه رفض ذلك بحجة أنه قبِل المجئ إلى الأندلس لغرض الجهاد فقط واستقر في غرناطة.

- حافظ عبد الملك كذلك على نفس سياسة والده المنصور في استعمال قبيلة زناتة فأعاد التعاون معها واختار المعز بن زيري بن عطية المغراوي على حكم المغرب.

- اتبع عبد الملك أيضا سياسة والده الجهادية نحو ممالك الأسبان ، فقاد سبع حملات ضد هذه الممالك والإمارات واستطاع تحقيق انتصارات باهرة عليها وأجبرها على طلب الصلح والمهادنة وأصبح الحكم بينها فيما يحدث بينهم من خلافات.

- إلا أن عبد الملك غفل أو تجاهل وصية والده بعدم السماح لقيادات أو مراكز قوى بأن تأخذ مكانها في الإدارة دون علمه ، ومن هذه الأسماء التي لمعت في عهده وكان لها دور في الفتنة التي حصلت في عهد أخيه عبد الرحمن هي الفتى الكبير طرفه والوزير عيسى بن سعيد اليحصبي وواضح الفتى قائد الثغر الأعلى وعدد كبير من الفتيان الصقالبة العامريين.

توفي عبد الملك المظفر أثناء عودته من صائفة ضد قلونية سنة 399 هـ/ 1008م وقد خلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور على منصب الحجابة سنة 399 هـ/1008م.

عُرف عبد الرحمن بن المنصور بن ابي عامر بعبد الرحمن شنجول ؛ لأن أمه كانت ابنة شانجه ملك بنبلونة أهداها والدها للمنصور ابن أبي عامر فتزوجها وسماها عبدة بعد أن أعلنت إسلامها ، ويذكر ابن عذارى أن أمه كانت تدعوه في صغره بشنجول ؛ لأنه كان يشبه جده شانجه. أصدر الخليفة هشام أمراً ولى فيه عبد الرحمن شنجول الحجابة ولقبه بناصر الدولة والحاجب الأعلى والمأمون وكان شنجول شاباً مغروراً تنقصه الخبرة والحكمة فساء سلوكه وخالط سفهاء القوم وسولت له نفسه أن يستولي على منصب الخلافة وطلب من الخليفة أن يجعله ولياً للعهد و لم يحسب عواقب خطوته هذه وجرأته التي لم يتجرأ والده المنصور ولا أخوه عبد الملك على الإقدام عليها رغم ما وصلا إليه من قوة وشعبية في الأندلس.

ولما كان الخليفة هشام المؤيد ضعيفاً ولا حول له ولا قوة رضخ لطلب عبد الرحمن شنجول ، وأصدر مرسوماً عينه فيه ولياً لعهده من بعده. كانت المعارضة لشنجول وتصرفاته تزداد في قرطبة واستغل المعارضون من البيت الأموي والمضريون الذين ساءهم أن تتحول الخلافة إلى اليمنيين ، وقد

حرك هذا المرسوم الصراعات القديمة في الأندلس بين عرب الشمال وعرب الجنوب.

انتهزت المعارضة خروج عبد الرحمن شنجول في غزوة إلى قشتالة في جمادى الأولى 399 هـ/ يناير1009م وكانت العادة ألاّ يخرج المسلمون في الشتاء للغزو نظراً لشدة البرد ، ولكنه لم يقبل النصيحة وخرج فعلاً ولما وصل إلى طليطلة ثار سكان قرطبة بقيادة أموي من نسل عبد الرحمن الناصر اسمه محمد ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وبويع بالخلافة وتسمى بالمهدي واختار سليمان بن هشام ولياً لعهده واستولى على القصر وأجبر الخليفة هشاماً المؤيد على التنازل عن الخلافة لمصلحته وقتل صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر وهاجم قصر الزهرة وخربه فعمت الفوضى والاضطراب في قرطبة وانتشرت الفتنة.

عندما سمع عبد الرحمن شنجول بما حدث في قرطبة قرر العودة ، وفي الطريق بدأ جنوده يتخلون عنه حتى صار في قلة من أصحابه فتم القبض عليه مع قومس بن غرسية قريب أمه عند منزل أرملاط وعلق رأسه مع صديقه قومس على أسوار قصر الخلافة في قرطبة.

وهكذا انتهت حجابة بني عامر وسيطرتها على الخلافة الأموية ، ولكنها أوصلت الأندلس إلى منزلق خطير ، فقد نشب صراع خطير حول منصب الخلافة أضعفها وأدى في النهاية إلى سقوطها ، كما سنرى بعد قليل.

العلاقات الخارجية للخلافة الأموية :

منذ تولي عبد الرحمن الناصر الخلافة تحولت الأندلس إلى قوة كبيرة سيطرت على شبه جزيرة إيبيريا وغرب البحر المتوسط والمغرب الأقصى ، ولذلك سعت الممالك الأوربية إلى طلب ودها وصداقتها وإقامة علاقات سياسية واقتصادية وعسكرية معها.

كانت سياسة الخليفة الناصر منذ توليه السلطة في الأندلس تحاول درء الأخطار الخارجية عن بلاده خاصة الخطر الفاطمي الذي كان يتهدد الأندلس من الجنوب والشرق ، فنرى الناصر يتحالف مع البيزنطيين فيرسل وفداً من عنده ويستقبل آخر من القسطنطينية ومن ملك ايطاليا كما تشير المصادر التاريخية

لذلك تحالف الناصر مع ملك إيطاليا هيوزدي بروفانس 926 – 946 الذي كان ناقماً على الدولة الفاطمية لقيامها بغزو جنوة كذلك تحالف مع الإمبراطور قسطنطين السابع إمبراطور الدولة البيزنطية (905-959) وتشير المصادر الأندلسية إلى استقبال الناصر لرسل الروم سنتي 334 هـ/945م، 338 هـ/949م وتتحدث عن الاحتفال الفخم الذي أقيم لاستقبال هؤلاء السفراء في قرطبة.

تتحدث المصادر الأندلسية أيضاً عن علاقة الخليفة الناصر بالإمبراطور أوتو الأول إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (936م-973م) الذي أرسل رسالة شديدة اللهجة إلى الناصر يحتج على الغارات التي كان يشنها الأندلسيون على سواحل بلاده ويطلب وقفها سنة 339هـ/950م ، وبعدها أرسل الإمبراطور أوتو الأول رسالة مع الراهب دي جورزGorze الذي استُقبِل في قرطبة بحفاوة إلا أن الخليفة رفض استلام الرسالة منه ؛ نظراً لأنها كانت تحمل عبارات مهينة للمسلمين ولكن الراهب أصرّ على تسليم الرسالة فاضطر الخليفة إلى إرسال وفد إلى الإمبراطور الروماني برئاسة المستعرب رتموندو أو كما يسمى ربيع بن زيد الذي ذهب إلى مدينة فرانكفورت فوصلها سنة 956م ، وعاد السفير بتعليمات للراهب بأن لا يقدم الرسالة للخليفة الناصر ولذا استقبله الخليفة في احتفال كبير.

أما علاقة الخلافة الأموية مع الممالك الأسبانية فكانت في أغلبها عدائية وقد مر بنا الحملات التي كان يشنها الأندلسيون ضد هذه الإمارات قبل الناصر وخلال عهده وبعده ، ولكن تخللها كذلك فترات سلم ومهادنة ، ومرّ بنا عند حديثنا عن عهد الناصر أنه أصبح الحكم بين هؤلاء الأمراء والحكام في شمال الأندلس وتبادل معهم وفود الزيارات وعقد المعاهدات.

كذلك كانت العلاقة مع النورمانديين علاقة عدائية ؛ نظراً لقيامهم بالاعتداء على سواحل الأندلس الغربية والشرقية ومشاركتهم في حملات برية على الأندلس خاصة بعد وصولهم إلى شمال فرنسا في الإقليم الذي أصبح يُعرف بنورماندي.

كانت علاقة الخلافة الأموية مع الخلافة الفاطمية علاقة عدائية منذ قيام هذه الدولة في القيروان سنة 296هـ/909م ، وتبادلت الدولتان الغارات على سواحل كل منهما ، كما مرّ ذكره سابقا. وشجع كل منهما الثائرين على الطرف الآخر وقدم المساعدات لهم وقد أدى هذا الصراع إلى حرب كلامية أو إعلامية بين الجانبين وإلى أن قامت الخلافة الأموية باحتلال المغرب الأقصى خاصة مدن طنجة وسبتة ومليلة وسجلماجة.

سقوط الخلافة الأموية في الأندلس

بعد مقتل عبد الرحمن شنجول بايع أهل قرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الذي تلقّب بالمهدي ، واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام ولياً لعهده وأجبر الخليفة هشام المؤيد على التنازل عن الخلافة يوم 17 من جمادى الأولى 399 هـ/16 أكتوبر 1009م. استمد الخليفة الجديد سلطته من الفئات الشعبية التي ساندته في انقلابه ضد

العامريين ، إلا أنه فشل في إقامة توازن بين أنصاره وذلك ما أضعف موقفه وأفقده جزءاً كبيراً من أنصاره..

إن الخليفة الجديد " المهدي " لم يكن مؤهلاً لهذا المنصب ، فقد اعتمد على الفئات الشعبية التي لا خبرة لها بالحكم من سكان قرطبة والذين ساموا الناس العذاب بسياستهم الظالمة وصبوا غضبهم على العناصر المغربية من قبائل زناته وصنهاجة التي كان قد استقدمها المنصور بن أبي عامر ، وشكّل منها جيشاً قوياً كسب عدة انتصارات ضد الممالك والإمارات الأسبانية. فأهانوا زعيم صنهاجة زاوي بن زيري وقرروا طردهم من قرطبة ، ولكن هذه العناصر المغربية رفضت الخروج ، ومن هنا بدأ صراع عنيف بين الطرفين أدى إلى تخريب قرطبة والزهراء والزاهرة.

أعلن الخليفة الجديد المهدي وفاة الخليفة السابق هشام المؤيد ، ويبدو أن الهدف كان لقطع التأييد المعنوي لأنصار العامريين من المغاربة. إلا أن هذه العناصر خاضت معركة عنيفة ضد الخليفة المهدي وهزمته في معركة قنتيش إلى الشمال الشرقي من بلدة القليعة عند ملتقى وادي أرملاط. وبعد هذه المعركة دخل زاوي بن زيري قرطبة وأخرج هشام المؤيد من سجنه ، ولكنه اختار أموياً آخر لمنصب الخلافة وهو سليمان المستعين في 16 من ربيع الأول 400 هـ/ 9 نوفمبر 1009م غير أن هذا الخليفة الجديد أثبت هو الآخر عدم قدرته وأنه ليس رجل الساعة المطلوب ، وقد مارس زاوي بن زيري وأنصاره من صنهاجة وزناتة الانتقام من سكان قرطبة ، ولهذا كرهوهم كرهاً شديداً.

استطاع المهدي الاختفاء في قرطبة لبعض الوقت ، ثم فرّ ولحق بواضح الفتى العامري ، وطلب مساعدة من القطلونيين وكان حاكمهم القومس ريموند بوريل الثالث الذي وافق على تقديم المساعدة مقابل تسليم مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط التي دخلها الإفرنج وحولو مسجدها إلى كنيسة ، هذا بالاضافة إلى شروط أخرى قاسية.

التقى جيش المستعين مع جيش المهدي وحلفائه النصارى عند موقع يُعرف بدار بقر ، على بعد 20 كيلو متر شمالي قرطبة ، وعلى الرغم من أن جيش سليمان كبّد جيش المهدي وأنصاره خسائر فادحة حيث قتل الملك أرمنقد Armengd إلا أنه اضطر إلى الانسحاب والعودة مسرعاً إلى الزهراء وقرطبة وأخذ أسرته وواصل انسحابه إلى جنوب الأندلس.

أما المهدي فقد دخل قرطبة وأخذ لنفسه البيعة من جديد وارتكب مذابح ضد سكان المدينة من الأصل المغربي خاصة من زناتة وصنهاجة وشكل جيشاً كبيراً من حشود العامريين على رأسهم الفتيان عنبر وخيران وحلفاؤهم من الإفرنج

والتقوا مع قوات المستعين بالقرب من رندة في وادي أره Guadioro وانجلت المواجهة عن هزيمة منكرة للمهدي وواضح والإفرنج الذين قُتل منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف.

وفي قرطبة قتل واضح الفتى الخليفة المهدي في 8 من ذي الحجة 400هـ/ 3 يوليو 1010م وأعاد الخلافة إلى هشام المؤيد ولكن واضحاً تم اغتياله من بعض الساخطين عليه إيضاً.

عاد سليمان المستعين إلى قرطبة وقبض على هشام المؤيد الذي خلع نفسه ولكن المستعين سجنه ثم قتله فيما بعد ، أي في 15 من ذي القعدة 404 هـ / 16 مايو 1013م اعلن, أن هشام هرب إلى المرية حيث اختبأ هناك وعمل سقاءً.

قام المستعين عند رجوعه إلى قرطبة بتوزيع أنصاره على مناطق الأندلس مكافأة لهم على موقفهم معه. وفي هذا الأثناء تحالف علي بن حمود الذي كان حاكماً لطنجة وسبتة من سلالة الأدارسة مع خيران العامري ضد المستعين ، والتقى الطرفان في معركة فاصلة في 22 من محرم 407 هـ/ يوليو 1016م وأمر بإعدام سليمان المستعين بدعوى قتله لهشام المؤيد ، ثم بويع علي بن حمود في قصر قرطبة وتلقب بالناصر لدين الله ، وفي بداية عهده اتبع سياسة معتدلة ؛ لذلك استتب الأمن والاطمئنان في قرطبة وعادت الأمور إلى وضعها المعتاد. ولكنه بدّل سياسة الاعتدال هذه واستعمل أسلوب القسوة مع أهل قرطبة ففرض عليهم المغارم وتعصّب لحزبه المغربي من زناتة وصنهاجة فاشتد سخط الناس عليه فتآمر عليه ثلاثة من الفتيان الصقالبة المروانيين وقتلوه سنة 408هـ1017م. فخلفه أخوه القاسم بن حمود في 24 من ذي القعدة 408هـ/1017م الذي حاول نشر الأمن ولكنه وقع تحت تأثير العناصر المغربية من صنهاجة وزناتة وتآمر عليه ابنا أخيه علي بن يحيى ، وهما يحيى وإدريس وتمكنا من طرده من قرطبة وبايع الناس يحيى باسم المعتلي بالله في بداية جمادى الأولى 418 هـ/1027م ، حاول المعتلي بالله أن يقضي على العصبية ولكنه فشل في مسعاه فغضب عليه أهل قرطبة وخلعوه واستدعوا أخاه القاسم الذي بويع بالخلافة للمرة الثانية في 18 من ذي القعدة 413 هـ/1022م ، ولكن خلافته لم تدم طويلاً فثار عليه سكان قرطبة وأجبروه على الرحيل إلى إشبيلية في21 من جمادى الآخرة 413 هـ .

اتفق زعماء وشيوخ قرطبة على اختيار ثلاثة من الأمويين ، هم سليمان بن المرتضي ومحمد بن العراقي وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، وتم اختيار الأخير خليفة باسم المستظهربالله الذي سرعان ما غضب عليه قادة قرطبة واستبدلوا به محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الناصر الذي

لُقّب بالمستكفي بالله والذي استهل عهده بقتل ابن عمه عبد الرحمن بن هشام (المستظهر بالله). وعندما علم هذا الخليفة أن الخليفة الأسبق يحيى بن علي بن حمود كان في طريقه إلى قرطبة لاحتلالها رفض محاربته وتسلل هارباً إلى شمال الأندلس حيث قُتل في الطريق.

استعاد يحيى بن علي المعتلي بالله خلافته في قرطبة في 16 من رمضان 416هـ/1025م ، حيث مكث فيها أربعة أشهر ، ثم رحل عنها إلى مالقه تاركاً وزيره أبا جعفر أحمد بن موسى ، إلا أن ثورة قامت في قرطبة ضد الوزير فاضطر إلى الهروب. أما الخليفة المعتلي فقد قتل بالقرب من قرمونة.

بايع أهل قرطبة هشام بن محمد ابن عبد الملك المرتضى في ربيع الآخر 418هـ/1027 ، وتلقب بالمعتد بالله ، ولكنه استوزر رجلاً كان مكروهاً من سكان قرطبة يُعرف بالحكم بن سعيد القزاز الذي أسرع أهل قرطبة باغتياله للتخلص من تعسفه وظلمه.

انتهز أحد الأمراء الأمويين ويُعرف بأمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان هذا الظرف وبدأ يحرض العامة في قرطبة ضد الخليفة المعتد بالله في 12 من ذي الحجة 422هـ/1031م وحاصر قصر الخلافة ، وأخرج هشام وعائلته من القصر ووضعه في بيت بالقرب من المسجد الجامع في ظروف صعبه له ولأسرته.

اجتمع الوزراء وشيوخ قرطبة برئاسة أبي الحزم بن جهور ، وتم الاتفاق على خلع المعتد بالله وإلغاء الخلافة الأموية ونودي في قرطبة بذلك وألا يبقى من بني أمية أحداً فيها ولا يكتنفهم أحد من المدينة.

وهكذا نجد أن سياسة المنصور بن أبي عامر التي استقدمت عناصر مغربية خاصة من زناتة وصنهاجة وتكوين جيش الحضرة منهم والاستكثار من عنصر الصقالية والاعتماد عليهما دون العنصر العربي أدى إلى صراع بين هذه القوى الثلاث ، كما مر بنا ، وكذلك سياسته في الحجر على الخليفة هشام المؤيد وما أقدم عليه عبد الرحمن شنجول من تحويل ولاية العهد إليه مسئولة عن كل هذه الأزمة وما نتج عنها من كوارث وانقسامات في المجتمع الأندلسي.

انقسمت الأندلس إلى ثلاثة أحزاب رئيسة وهي:-

ويمثله أهل الأندلس الأصليون الذين استقروا في البلاد وانصهروا في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية ، ويمثل هؤلاء بنو عباد في أشبيلية وبنو جهور في قرطبة وبنو هود في سرقسطة وبنو صمادح في المرية وبنو برزال في قرمونة وبنو خزرون في أركش وبنو نوح في مورو وبنو عامر في بلنسية ..

الحزب الثاني: ويتكون من الأصول المغاربية الذين جلبهم المنصور ابن أبي عامر وأغلبهم من زناتة

وصنهاجة مثل بني زيري في غرناطة وبني حمود الأدارسة العلويون الذين كانوا يحكمون شمال المغرب طنجة سبتة ومليلة.

الحزب الثالث: تشكل من الصقالية وهم في الأصل كانوا رقيقاً جلبهم المنصور ابن أبي عامر من أصول سلاقية للعمل حراساً وخدماً وفي الجيش ودربوا على الوظائف في الدولة وترقوا إلى أعلى المناصب وبرز منهم قادة وعسكريون ووزراء وكبار المسئولين ، وقد ساهم هؤلاء الصقالية في الفتنة التي حدثت عقب مقتل عبد الرحمن شنجول ، وكان زعيمهم خيران العامري وواضح ومجاهد العامري الذي حكم مدينة دانية وجزر البليار.

كانت هذه أهم نتائج سقوط الخلافة الأموية في الأندلس الذي انقسم إلى دويلات صغيرة متصارعة ومتحاربة سعت كل منها إلى التوسع على حساب الأخرى وبلغ الحد ببعضها إلى الاستعانة بالممالك الأسبانية والتحالف معها من أجل حماية نفسها أو لغرض تحقيق التوسع على حساب جارتها المسلمة.

أهم عوامل سقوط الخلافة الأموية:

يرجع سقوط الخلافة الأموية في الأندلس إلى مجموعة من الأسباب نوجزها فيما يلي:-

- فقدان الوحدة العرقية في الأندلس حيث كان سكانها يتكونون من خليط من القوط والأسبان واليهود والعرب والبربر والصقالبة وغيرهم.

- العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب وما أدت إليه من خسائر بشرية ومادية أدت إلى استنزاف موارد الدولة وتحطيم الوحدة العرقية وكما يقول ابن خلدون " فمتى فسدت العصبية انهارت السلطة المركزية".

- سياسة البطش أدت إلى ثورات ومؤامرات ، وقد قال ابن خلدون: "إن سياسة الرفق بالرعية هي أصلح سياسة لدوام الملك ، فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيّات، وربما أجمعوا على قتله لذلك ، فتفسد الدولة ويخرب السياج وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً ، وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية، وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم، استناموا إليه، ولاذوا به وأشربوا محبته، واستماتوا دونه في محاسبة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب".

وعليه فإن ابتعاد الأمويين عن هذا المبدأ مبدأ التوسط والاعتدال يعتبر العامل الأساس الذي أدى

إلى سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ؛ وذلك لأن القوة والضعف يدفعان إلى الفتنة والاضطراب.

- تدخل الدويلات المسيحية في الأندلس باستمرار كلما أُتيحت الفرصة لذلك بدعم الثائرين ضد الخلافة الأموية في قرطبة ، ولعل أشهر مثال تمرد عمر بن حفصون. وكذلك طلب الخارجين عن الخلافة المساعدة من الممالك الأسبانية.

- إدخال عنصري الصقالية والمغاربة من زناتة وصنهاجة وإبعاد العرب عن الجيش وخلق تنافس بين هذه الفئات فأدى ذلك إلى حنق العناصر العربية على الخلافة وتعتبر هزيمة معركة الخندق في عهد الخليفة الناصر خير دليل على ذلك ، حيث تخلى العرب عن القتال في أثناء المعركة للانتقام من الصقالية.

- الصراع المستمر بين أفراد الأسرة الأموية حول تولي منصب الخلافة منذ وفاة عبد الرحمن الداخل، أدى إلى الاقتتال بين الأبناء والإخوة والأقارب.

- طبيعة الأندلس الجغرافية حيث توجد الجبال والوديان الوعرة وذلك مكن المتمردين والثائرين من الحصول على الحماية الطبيعية لحركاتهم ، فتوجد القلاع والغابات التي ساعدت على حرب العصابات ضد الدولة الأموية لمدة طويلة.

أ.د. إدريس صالح الحرير

(جامعة قاريونس)

المصادر والمراجع

1) المصادر:

1-ابن الأبار، عبد الله بن محمد (ت. 658هـ/1232)، الحُلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة الشركة العربية للطباعة والنشر 2003

2-ابن الأثير، أبو الحسن علي (ت. 630هـ/1204)، الكامل في التاريخ ج 6، بيروت دار الكتاب العربي

3-ابن بسّام، أبو الحسن علي (ت. 542هـ/1147)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهرة 1945

4-ابن الخطيب، لسان الدين (ت. 776هـ/1374)، أعمال الأعلام، حققه محمد عبد الله عنان، القاهرة 1956

5-ابن خلدون، عبد الرحمن (ت. 808هـ/1406)، تاريخ ابن خلدون، العبر، بيروت 1971

6-ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، بيروت دار الفكر دون تاريخ.

7-الفاسي، علي ابن أبي زرع (ت. 741هـ/1340)، الأنيس المطرب بروض القرطاسي، الرباط دار المنصور 1973

8-السّلاوي، أبو العباس أحمد (ت. 1315هـ/1897)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج1 الدار البيضاء 1956

9-المراكشي ، ابن عذارى (ت. 712هـ/1312) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، بيروت دار الثقافة دون تاريخ

10- المراكشي، عبد الواحد (ت. 969هـ/1271)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، حققه محمد العريان ومحمد العلي، القاهرة 1949

11- المقري، أحمد بن محمد (ت. 1041هـ/1631)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه

محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة 1968

12- مجهول (ت.القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي)، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، مدريد 1867

2)المراجع الحديثة :

1- بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، بيروت، دار النهضة العربية 1980

2- العبدي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية 1978

3- العبادي، أحمد مختار، "سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس" مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلد الخامس 1957

4- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس ج 2 ط 4 القاهرة : مكتبة الخانجي 1997

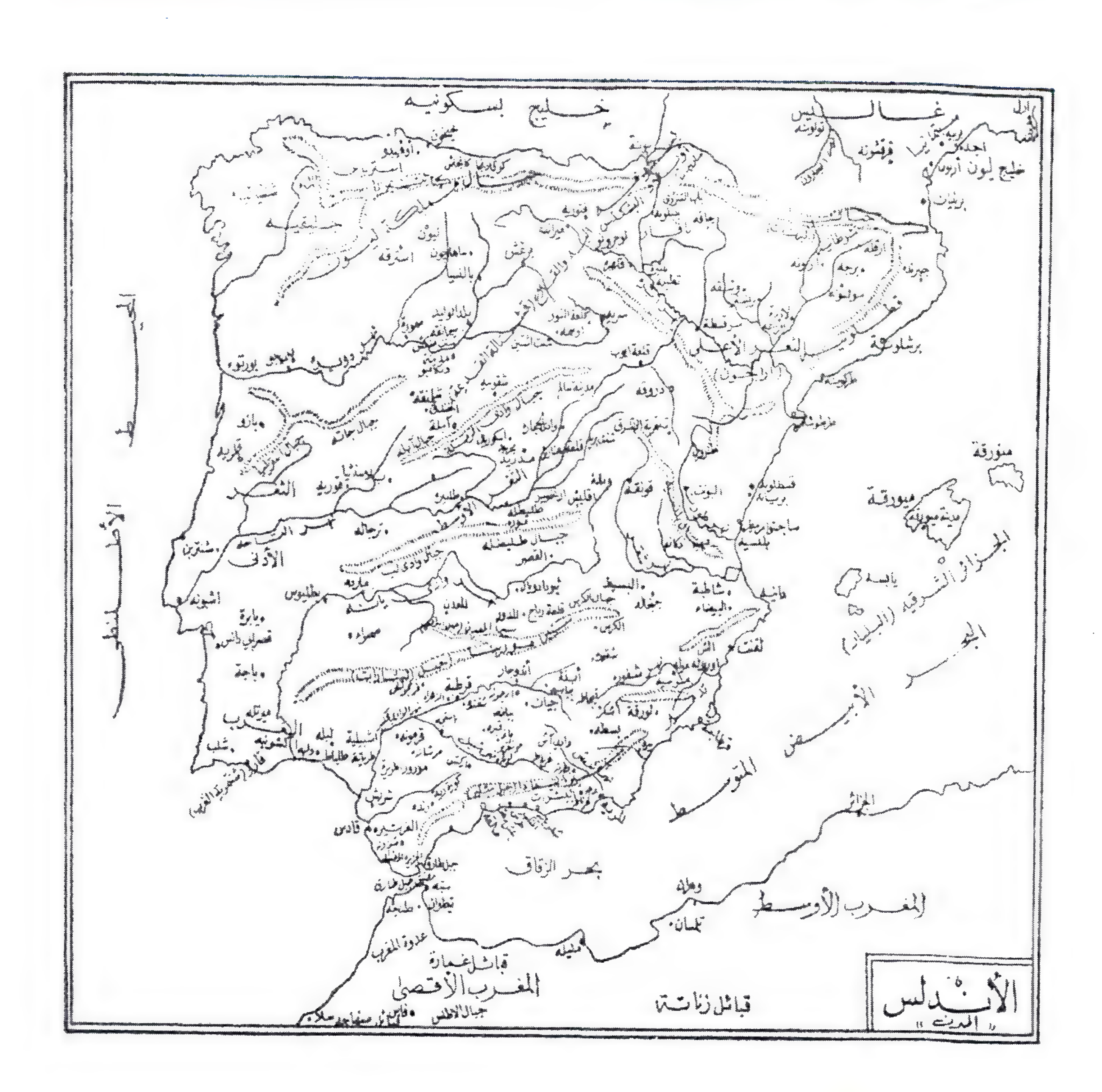
5- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت دار المعارف 1962

6- سعد، سامية مصطفى، التكوين العنصري للشعب الأندلسي وأثره على سقوط الأندلس الإسلامية، 93-422 هـ ، القاهرة دار عين للدراسات 2004

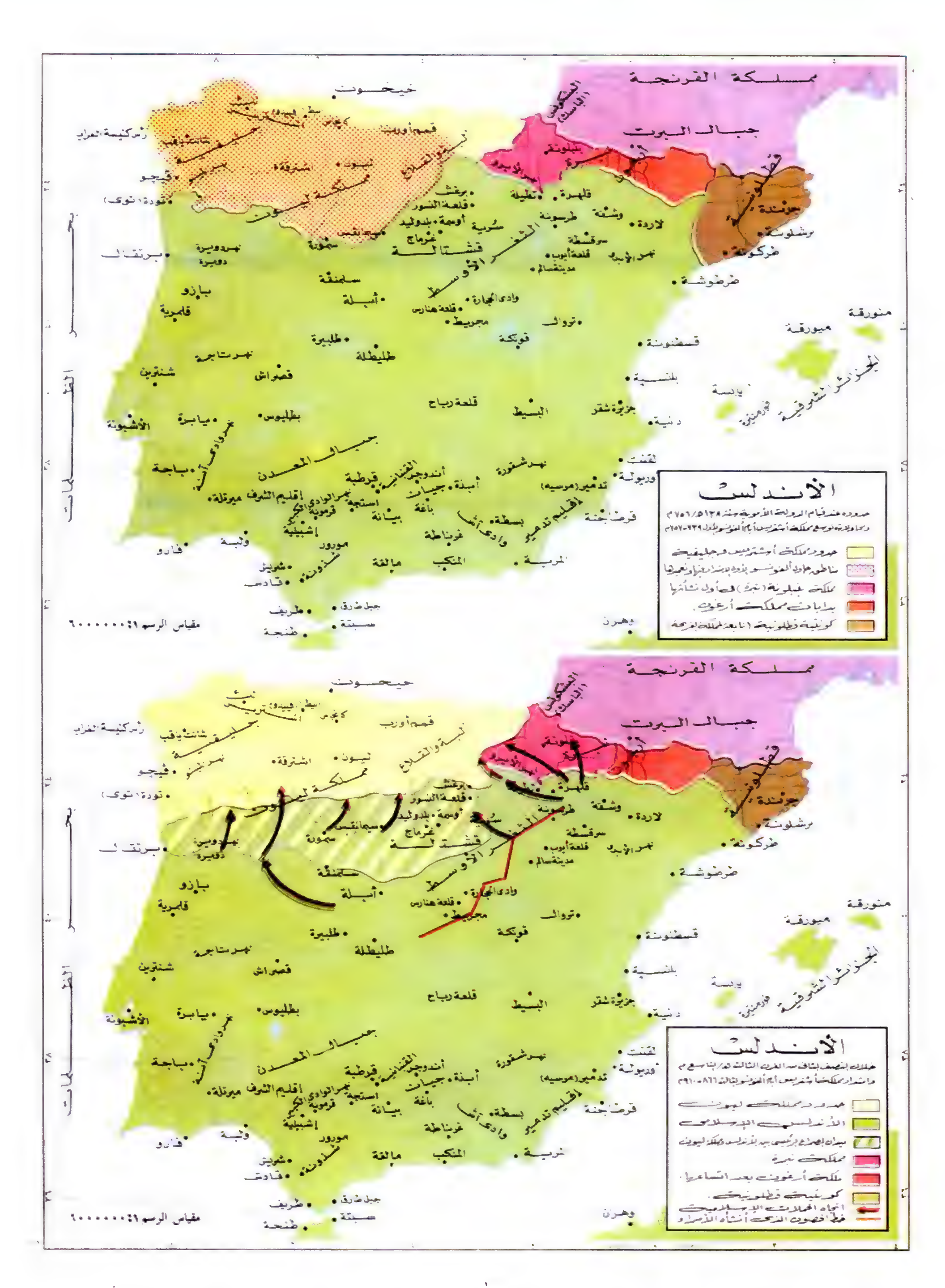
7- مؤنس، حسين، موسوعة تاريخ الأندلس ج 1 + ج2، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية 1996

8- مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس. القاهرة دار المستقبل 1980.

9- نعنعي، عبد المجيد، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي ، بيروت دار النهضة 1986



*إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، بيروت: دار النهضة العربية **1980**).



المصدر : أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984

السلجوقية، ولقد نجم عن قيام الحكم الجديد نتائج فى غاية من الخطر، فقد طويت صفحة من تاريخ العرب والإسلام وبدأت واحدة جديدة، ويمكن عدّ سنة 451هـ/1059م سنة حاسمة في تاريخ الإسلام فكرياً وحضارياً وعقائدياً، فلقد كان التركمان سنة متعصبين لسنتهم، وكانوا يعتمدون على العنف والقمع والتهديد في سبيل إعادة الناس إلى السنة وترك التشيع، فلقد حل التعصب محل التسامح في العصر السلجوقي، وأغلق باب الاجتهاد في الفكر الإسلامي، وبدأ الفكر بالتجمد وحل التقليد محل الإبداع.

وبعدما عاد طغرلبك إلى بغداد، وقام بإحياء الخلافة العباسية، شعر أنه لم يبق أمامه إلا إخضاع الشام ومصر، وقبل أن يأخذ في الإعداد ، لذلك رأى أن يرفع من مكانة نفسه، فقابل الخليفة العباسي القائم بأمر الله [422-467هـ/ 1031-1075م] فمنحه لقب سلطان، وذلك لأول مرة في تاريخ الإسلام، وطلب من الخليفة أن يزوجه ابنته.

ولقد رأى الخليفة أن من الصعوبة الاستجابة لذلك، فلقد كان الخليفة -على الرغم من خوفه من طغرلبك ورهبته – يرى فيه عبداً من عبيد الخلافة، أعجمياً لا يمت إلى العروبة بنسب، وبدوياً شبه متوحش، جديدا على الحضارة، وكان فوق هذا قد جاوز السبعين، في حين أن ابنته لم تتجاوز العشرين، وبعد وعود وتهديدات واسعة استجاب الخليفة مكرهاً لطلب طغرلبك، وأراد الخليفة أن تتم مراسيم الزواج تبعاً للعادات الإسلامية، فرفض طغرلبك، وأقيمت المراسيم تبعاً للعادات التركية، لكن طغرلبك لم ينعم طويلاً بزواجه من ابنة الخليفة، فبعد ثلاثة أشهر أو أربعة توفي دون أن يخلف ولداً يصبح سلطاناً من بعده، وكان ذلك سنة 455هـ/1063م.

سلطنة ألب أرسلان:

بعدما توفي طغرلبك، برزت مشكلة خلافته إلى الوجود، غير أن هذه المشكلة حسمت بتولي ألب أرسلان ابن أخيه جغري بك السلطنة، ويعد ألب أرسلان من أعظم حكام السلاجقة، وهو مع ابنه ملكشاه كانا أعظم سلاطنة بني سلجوق على الإطلاق.

ولقد توطدت دعائم السلطنة السلجوقية زمن ألب أرسلان، وانساح التركمان في أراضي الإمبراطورية البيزنطية، ومنها دخلوا إلى الشام، وسبب التركمان لأراضي بيزنطة خراباً عظيماً ودماراً مريعاً دفع أباطرة هذه الدولة للعمل على إيقاف التركمان ومنعهم من غزو أراضيها، وأرادت إغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الحصينة داخل الأراضي العربية، ولأجل

ذلك قام الإمبراطور رومانوس دايجينوس بقيادة ثلاثة حملات، وذلك في السنوات 461 - 463هـ/1068-1071م .

وفي سنة 462هـ/1070م تحرك السلطان ألب أرسلان على رأس جيش كبير جداً نحو حلب ، يريد احتلال بلاد الشام ، ومن ثم التحرك نحو مصر، ولقد أخفق ألب أرسلان في احتلال حلب بعدما حاصرها لمدة طويلة، فقرر العودة شرقاً إلى خراسان، وقرر عدم متابعة طريقه نحو مصر، وفي طريق العودة عام 463هـ/1071م سمع ألب أرسلان بتحرك جيش بيزنطي عظيم على رأسه الإمبراطور نفسه يريد إغلاق طرق أرمينية ومنع التركمان من الدخول إلى الأراضي البيزنطية، وعندما سمع ألب أرسلان بذلك انحرف مع قواته نحوه واصطدم به في مناز كرد قرب بحيرة وان، وفي مناز كرد قامت معركة فاصلة بين جيوش بيزنطة وجيوش ألب أرسلان، ولقد تحطمت قوات بيزنطة العسكرية في هذه المعركة ووقع الإمبراطور أسيراً، فكان أول إمبراطور بيزنطي يأسره المسلمون ، ولقد مكنت هذه المعركة التركمان من الانسياح بحرية في آسية الصغرى، وكذلك بلاد الشام، وكانت بداية تحول بيزنطة إلى تركية، ولقد أطلق السلطان سراح الإمبراطور وعاد شرقاً (19) وانشغل ألب أرسلان بعد هذا في العمل في الشرق داخل خراسان وفي منطقة ما وراء النهر، وفي أثناء عمله هناك لقي مصرعه وكان ذلك سنة 465هـ/1072م.

سلطنة ملكشاه:

وبعدما توفي السلطان ألب أرسلان ولي عرش السلطنة بعده ابنه ملكشاه، ويُعدّ هذا السلطان آخر عظماء سلاطنة السلاجقة، ولقد كانت إدارة الدولة زمن كل من ألب أرسلان وابنه في يد وزيرهما نظام الملك الحسن بن علي الطوسي، وكان نظام الملك من أعظم رجالات الإدارة والسياسة في تاريخ الإسلام، ومن الجدير ذكره أن الوزارة قد عادت إلى الازدهار زمن السلاجقة، وذلك بعدما انحط شأنها بعد قيام نظام إمرة الأمراء واستيلاء الأسرة البويهية على مقاليد الأمور في بغداد، ويرى بعضهم أن السلطنة السلجوقية تدين بعظمتها إلى وزيرين هما الكُنْدُري، وزير طغرلبك، ونظام الملك وزير ألب أرسلان وملكشاه، وبعدما اغتيل نظام الملك في سنة 485هـ/1092م، انهار صرح السلطنة السلجوقية، فتوفي ملكشاه وتفتت السلطنة السلجوقية بعده إلى عدة دول متصارعة.

ولقد بلغت السلطنة السلجوقية غاية اتساعها وعظمتها زمن ملكشاه، فلقد دانت له بالإضافة إلى خراسان والعراق وبلاد الشام كلها مع مناطق من

آسية الصغرى، وفي زمنه استطاع التركمان الانسياح في بلاد الشام، فتمكنوا من إعمال التدمير والخراب فيها بشكل مريع للغاية، وذلك كان له كبير الأثر في نجاح الصليبيين عندما وصلوا إلى مشارف الشام سنة 1098م.

ويلاحظ المرء أن الخلفاء العباسيين عادوا إلى التحرك نحو استرداد سلطاتهم زمن ملكشاه، فلقد قام صراع بين السلطنة والخلافة، وأحب ملكشاه أن يتخلص من وزيره نظام الملك، كما أراد في الوقت نفسه أن يخرج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة أو المدينة، وتآمرت أطراف النزاع هذه بعضها ضد بعض، وسقط الوزير نظام الملك أولاً، ثم لحقه بعد أمد قصير مسموماً السلطان ملكشاه في 6من شوال 485هـ/29 تشرين الثاني 1092م ، وأخيراً لم تطل أيام الخليفة – وكان لقبه المقتدي – بعد ملكشاه حيث توفي هو الآخر في سنة 487هـ/1094م. (فجأة وعمره ثمان وثلاثون سنة وتسعة أشهر).

سلطنة بركيا روق:

وعندما مات ملكشاه كان عمره (ثمانياً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً). وقد خلف عدداً من الأولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه اعتلاء عرش السلطنة الشاغر، وقام صراع بين السلاجقة من أجل خلافة ملكشاه، واحتضنت كل فئة من التركمان وحزب أحد الصبية وجهدت – باسمه – من أجل السيطرة على السلطنة.

وتم في البداية إعلان محمود الابن الأصغر لملكشاه سلطاناً جديداً، وقام صراع بين تركمان خراسان رجحت فيه كفة بركيا روق الابن الأكبر لملكشاه، وفي أثناء هذا الصراع قام تُتُش، أخو ملكشاه وحاكم دمشق بإعلان نفسه سلطاناً، وتحرك نحو خراسان، وبعدما حقق بعض النجاح لقي مصرعه في سنة 490هـ/1095م في معركة خاضها ضد ابن أخيه بركيا روق.

ولم تطل أيام سلطنة بركيا روق حيث توفي سنة 498هـ/1104، وتميز عهده بدوام الحروب الأهلية بين التركمان، وبانفراط عقد وحدة الدولة السلجوقية وتمزقها إلى عدة دول، ثم بدخول الصليبيين إلى بلاد الشام وبنجاحهم في احتلال أجزاء كبيرة منه.

سلطنة محمد طبر:

وبعدما توفي بركيا روق تقرر منصب السلطنة لأخيه محمد طبر، وكان محمد هذا قد صارع بركيا روق على السلطنة، وتدخل في الصراع أخ ثالث لهما عرف بسنجر، وقبيل وفاة بركيا روق تم الاتفاق بين الإخوة الثلاثة على أن تكون خراسان

ومنطقة ما وراء النهر إلى سنجر، وأن يكون العراق لبركيا روق، وبلاد الشام والموصل وبعض المناطق الأخرى لمحمد طبر، وحمل كل واحد من الثلاثة لقب سلطان، وأصبحنا الآن نرى بين السلاجقة نوعين من السلطنة: سلطنة عظمى تسيطر على الخلافة في بغداد، وسلطنة أدنى يسيطر صاحبها على بعض المناطق، ويدين بالطاعة الاسمية للسلطان الأعظم.

وليس في عهد السلطان محمد طبر ما يميزه على سواه، سوى أنه انشغل في حل المشاكل الداخلية، خاصة مشكلة الحشيشية – الفرقة الإسماعيلية الجديدة التي أسسها حسن الصباح – واستولت على عدد من القلاع الحصينة على رأسها أَلَموت ولَمَسَر، وشرعت تمارس الاغتيال السياسي، ولقد جرد طبر عدة حملات ضد الحشيشية، لكن جميع هذه الحملات لم تأت بنتيجة حاسمة، وتوفي السلطان محمد طبر سنة 511هـ/1117م، وبعد وفاته تجدد الانشقاق بين التركمان ، وقام صراع من أجل خلافته.

سلطنة سنجر:

لقد أوصى السلطان محمد طبر بولاية عهده إلى ابنه محمود، وكان عندما توفي أبوه في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة المستظهر بالله العباسي على ذلك، لكن السلطان سنجر صاحب خراسان وجد أن من حقه أن يعلن سلطاناً أعظم للسلاجقة وأن يعترف به الخليفة، فقام ونازع ابن أخيه وأعلن نفسه سلطاناً على جميع السلاجقة، وسبب إعلانه هذا وقوع الحرب بينه وبين محمود، ولقد هزم سنجر جيوش محمود، ثم استقبل ابن أخيه وعفا عنه وعينه نائباً له في العراق، وعاد إلى خراسان حيث شغل نفسه هناك لمدة تزيد على الأربعين عاماً.

وتأثر سنجر ومملكته بأحوال الصين آنذاك، فقد تخلصت الصين من حكم سلالة لياو Liaeo التي كانت من شعوب الخطا التركية، وتحرك الخطا غرباً مغادرين للصين فضغطوا على سواهم من قبائل الترك في منطقة ما وراء النهر، وهكذا تهددت أملاك سنجر في هذه المنطقة، وكانت القبائل التي هددت أملاكه من الغُزّ والقرلق، وفي سنة 536هـ/1141م هزم هؤلاء السلطان سنجر في معركة قرب سمرقند، واستمر الصراع بين سنجر وهذه القبائل بعدما نزلت في مناطق من خراسان، وتمكن الغُزّ من هزيمة سنجر وأسره سنة 548هـ/1153م ، وقد بقي سنجر في أسرهم ثلاث سنوات هرب بعدها، ووصل إلى مرو حيث توفي بعد قليل في سنة 552هـ/1157م.

وبموت سنجر انتهى عصر مهم من تاريخ الدولة السلجوقية، فلقد تفتت السلطنة إلى عدة سلطنات ودول أتابكية كان أشهرها: دولة

سلاجقة العراق، ودولة سلاجقة الروم، ودولة سلاجقة كرمان، وأشهر الدول الأتابكية: أتابكية الموصل، وأتابكية دمشق.

نتائج قيام السلطنة السلجوقية:

لقد استطاع السلاجقة تأسيس دولة واسعة ضمت لأول مرة منذ أمد بعيد أجزاء من الأرض لم تعرف الطاعة للعباسيين منذ أيام حكم الخلفاء. ولقد كان السلاجقة مسلمين سنة، ولقد احتفظوا بالخلفاء حكاماً اسميين، لكن قيام السلطنة السلجوقية قوى الخلافة وبعث الحياة فيها، فلقد امتد نفوذ الخليفة – ولو كان اسمياً – على مناطق جديدة، كما أن محاربة السلاجقة للشيعة قوى من مركز الخليفة العباسي السني.

وكان لقب السلطنة الذي أطلقه حكام السلاجقة على أنفسهم تطوراً لمنصب إمرة الأمراء، واستمر استعمال هذا اللقب فيما بعد من قبل الحكام وأصحاب السلطة دون الخلفاء، ولقد اعتمد السلاجقة في حكمهم وإدارتهم على طبقة من الإداريين الفرس، وكانت تقاليد السلطة عندهم مزيجاً من التقاليد التركية والفارسية التي نمت زمن الدولة السامانية ثم الدولة الغزنوية بعدها.

ولقد تطور نظام الإقطاع العسكري زمن السلاجقة، كما وجد لديهم نظام الأتابكية ودول الأتابكة، فلقد كان من عادة سلاطين السلاجقة الزواج من أكثر من امرأة، ولما كان الإسلام لا يسمح بالجمع بين أكثر من أربع حرائر، ثم لوجود عدد من الضباط سادة العشائر التركمانية بين حاشية السلطان، فقد كان السلطان يقوم بتطليق بعض زوجاته ويمنح المطلقة إلى أحد أمرائه ويعهد إليه بتربية ابنه منها، ويصبح الأمير عند قيامه بهذا العمل أتابكاً، ولفظة أتابك مؤلفة من كلمتين: أتا – وبك ، وتعني أتا: عم ، أو أب، وتعني بك أمير، فالأتابك هو الأمير العم، وأسس بعض الأتابكة دولاً كان أشهرها: دولة أتابكة الموصل التي أقامها عماد الدين زنكي، والتي اشتهر منها ابنه نور الدين رجل الحروب الصليبية الأولى.

ولقد أحدثت هجرة التركمان إلى إيران والعراق والجزيرة والشام تأثيراً بشرياً واجتماعياً كبيراً، فلقد أزالت الهجرة طبقات الأرستقراطية المحلية وأحلت محلها طبقات تركية جديدة، كما أن الهجرة جلبت أعداداً وفيرة من الترك، ولقد اختلط الترك بسكان المنطقة المحليين أو طردوهم، وأدى هذا إلى ردود فعل كبيرة تجلت في عدة مظاهر كان أبلغها وأخطرها حركة الحشيشية، وهي حركة أسسها حسن الصباح بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر في سنة 487هـ/1094م ، فلقد انقسمت الدعوة الفاطمية بوفاته إلى قسمين:

قسم أيّد نزار كبير أولاد المستنصر، وقسم آخر أيّد المستعلي ثاني أولاده، ولقد عين المستعلي على عرش القاهرة وقتل نزار في الإسكندرية، وكان حسن الصباح ممن خرج على المستعلي وقال بإمامة نزار، واستطاع حسن الصباح أن يستولي على عدد من القلاع الحصينة، ومارس الاغتيال السياسي وسيلة للقضاء على الخلافة السنية وعلى دول السنة.

وعلى الرغم من قيام حركة الحشيشية فلقد عجل قيام الدولة السلجوقية وتأسيس الوزير نظام الملك للمدرسة النظامية في انتعاش الفكر السني وإعادة سيطرته على العالم الإسلامي بعد ما كان واقعاً تحت نفوذ الشيعة، وانحسر النفوذ الشيعي وتقلص في كل مكان، وأدى الانتعاش السني مع تفتت السلطنة السلجوقية إلى انتعاش مؤسسة الخلافة وأخذ خلفاء بني العباس يعملون من أجل التحرر من نفوذ السلاجقة، وخاضوا في هذا السبيل عدة معارك سياسية وحربية واجتماعية، وحقق العباسيون نجاحات كبيرة في هذه الميادين، وبرز هذا خاصة في عهد الخليفة الناصر لدين الله [575-622هـ/1180-1225م]، فلقد شجع هذا الخليفة حركة الفتوة وأراد أن يجعل من مبادئ هذه الحركة رابطاً يوحد ممالك الدولة العباسية.

كما أن هذا الخليفة قام بأعمال كثيرة في سبيل تقوية دولته ودخل في تحالفات داخلية وخارجية.

الدولة المزيدية في الحلة:

كان لاستبداد الأعاجم بشؤون الخلافة العباسية رد فعل متنوع لدى عرب المدن وعرب الأرياف والبوادي في العراق، وأنجب رد الفعل هذا بعض الحركات الاجتماعية في المدن، وكان وراء قيام دولة مزيد الأسدية في الحلة، وأول أمراء هذه الدولة هو مزيد بن مزيد، وجاء ظهوره في منتصف القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أيام استبداد البويهيين حين عهد إليه الوزير أبو محمد المهلبي، وزير معز الدولة البويهي بحماية سورا وسوادها، ثم استفاد بعد ذلك من الخلافات بين البويهيين، ومن المحتمل أنه مات في مطلع حكم بهاء الدولة البويهي [379-403هـ/989-1012م] حيث خلفه ابنه علي بن مزيد، ويعد علي [ت408هـ /1018م] المؤسس الفعلي لحكم الأسرة المزيدية، وقد حاول التوسع على حساب العقيليين الذي كانوا يمتلكون الفرات الأوسط، لكن مشاريعه لم تكن موفقة، وإثر وفاته خلفه ابنه دبيس[408-474هـ/1017-1081م]. الذي واجه عدة تمردات من أخوته وبعض أقربائه، كما أنه عاصر قيام سلطنة السلاجقة وفتنة البساسيري، وكان له دوره فيها، وبعد وفاته خلفه

ابنه منصور الذي عرف بأبي كامل بهاء الدولة [474-479هـ/1081-1086م] وامتاز عهده بشيء من الهدوء، وكان هو يحمل مشاعر معادية للمتسلطين الأعاجم، وإثر موته خلفه ابنه صدقة [479-501هـ/1086-1108م] الذي عايش السلطنة السلجوقية في أوج قوتها، وقد نال الولاية والاعتراف من السلطان السلجوقي ملك شاه [465-485هـ/1072-1092]، وكانت علاقته جيدة معه دائماً ، لكن بعد وفاته حاول الإفادة من الصراعات بين أولاد ملكشاه، كما أن علاقته بدار الخلافة في بغداد قد تأرجحت، وحاول هو التوسع على حساب السلاجقة المتصارعين، فاستولى على هيت عام 496هـ/1102م ، ثم استولى في سنة 497هـ/1103م على عانة والبصرة، وفي سنة 500هـ/1106م، تمكن من الاستيلاء على قلعة تكريت، وفي سنة 501هـ/1108م واجه جيشاً سلجوقياً كبيراً قتله وفرق قواته، وبعد مقتله خلفه ابنه دبيس بن صدقة، وتحتاج حياة دبيس وأعماله إلى وقفة خاصة، والمهم قبل ذلك أن نذكر أن صدقة هو الذي بنى مدينة الحلة (بجوار بابل القديمة)، وحولها إلى حاضرة كبيرة.

وعرف دبيس بلقب أبي الأغر ملك العرب [501-530هـ/1107-1135م] وقد نشط في العراق وبلاد الشام، وبين السلاجقة، وتحالف حيناً مع الخلافة، وحاربها حيناً آخر، من ذلك أنه قام سنة 514هـ/1120م بنهب مدينة بغداد، ونصب خيمته بإزاء دار الخليفة العباسي المسترشد [512-529هـ /1118-1135م] ، فتعرض إثر ذلك لهجوم السلطان عليه ، فاضطر إلى التخلي عن مدينة الحلة، فتنقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى ماردين، وهناك تزوج من ابنة الأمير الأرتقي إيلغازي صاحب حلب وماردين، ثم عاد إلى الحلة، وخاض أكثر من معركة، وطمع أخيراً في الاستيلاء على حلب، فتحالف مع الصليبيين سنة 518هـ/1124م وبعض التركمان، وحاصر مدينة حلب وشدد الخناق عليها، وقاومه أهل حلب، وكانوا يصعدون فوق الأسوار وينادون "يا دبيس يا نحيس " ، وأخفق الحصار لمقاومة الحلبيين، ولقدوم آق سنقر البُرْسُقي من الموصل للتفريج عنهم، وبعد هذا ذهب إلى السلطان سَنْجر، ثم عاد إلى العراق، وفي العراق خاف من هجوم السلطان عليه، فهرب إلى بلاد الشام، وعثر عليه في صلخد، فجرى تسليمه إلى السلطات البورية في دمشق، وباعه البوريون بمبلغ خمسين ألف دينار إلى عماد الدين زنكي، واحتفظ به زنكي ليساوم عليه مع الخلافة ومع السلطنة، وبعد ذلك أطلق سراحه، ليبدأ مرحلة جديدة من الشتات، جعلته سنة

529هـ/1135م في معسكر السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه [529-547هـ/1134-1153م] قرب مراغة، عند باب خوي، وهناك جرى قتله، وبعد ذلك حمل جسده إلى ماردين فدفن فيها، وبمقتله انتهت الدولة المزيدية، وزالت من الوجود فعلياً.

ثانيا :أهم دول الجزيرة الفراتية

الدولة الحمدانية في الموصل :

اتخذ أوائل أفراد الأسرة الحمدانية من مدينة ميافارقين مركزاً، وتطلعوا في الوقت نفسه نحو الموصل، وسعوا للسيطرة عليها، فكان أن تحقق ذلك سنة 293هـ/906م ؛ إذ عين الخليفة المكتفي الأمير أبا الهيجاء الحمداني والياً على الموصل، و لم يستطع أبو الهيجاء أن يولي الموصل عنايته الكلية، بل اهتم بمشاكل الصراع في بغداد، وانجرف مع تيارات السياسة في بغداد صعوداً وهبوطاً، وهكذا قضى معظم وقته في بغداد، واضطر بسبب ذلك أن ينيب ابنه الأكبر الحسن (الذي عرف فيما بعد باسم ناصر الدولة) في إمرة الموصل.

وهنا لابد قبل الاستطراد في الحديث عن ناصر الدولة وحكمه من أن نطل، ولو بسرعة، على أهمية الموصل ومكانتها: لقد كانت الموصل بسبب موقعها الجغرافي مدينة مهمة ذات موارد اقتصادية كبيرة، كانت تأتيها من الزراعة والتجارة، وهي مدينة تقع وسط سهل خصب، يمدها دجلة بالماء، وهي قريبة من البادية وقبائلها العربية، وهي لم تكن بعيدة عن الأراضي البيزنطية، لكنها منذ قيام الدولة العباسية كانت دائماً وثيقة الصلة ببغداد ومشاكل العراق السياسية، أي أنها كانت قطعة من العراق، وقد بقيت هكذا حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس هـ/الحادي عشرم ، فعند ذاك تحولت لتصبح قطعة من بلاد الشام تشارك في مشاكلها وقضاياها.

لقد أصبحت الموصل في تلك الحقبة جسراً يوصل إلى السيطرة على شمال بلاد الشام ، ومن ثم الجنوب، ذلك أن القرن الخامس قد شهد هجرة التركمان بقيادة السلاجقة الذين جاؤوا من المشرق، فكانت الموصل المحطة الأولى للانطلاق نحو بلاد الشام والانقضاض عليها، وفي تاريخ قيام الدولة الزنكية والحروب الصليبية مثال مبرهن على صحة هذا.

ومع أن الموصل كانت قبل القرن الخامس قطعة من العراق، إلا أنها شاركت جزئياً وبشكل فعال ومؤثر أحياناً في الحياة السياسية لبلاد الشام، لكن هذه المشاركة كانت جزءاً من المشاركة في

الصراع من أجل السيادة والسلطة في عالم الخلافة العباسية.

إمرة ناصر الدولة

أصبح الحسن بن أبي الهيجاء أميراً للموصل بعد أبيه، ويمكن عده الباني الفعلي للدولة الحمدانية هناك، لكنه كان مثل أبيه قد انغمس في مشاكل الصراع من أجل السلطة في بغداد، وكان في أثناء ذلك يساعده أخوه علي، ويقود قواته، ولم يبرهن علي في جميع المعارك التي خاضها لمصلحة أخيه على تمتعه بمواهب عسكرية، ذلك أنه خسر معظم المعارك التي خاضها.

ولقد نجح ناصر الدولة لمدة قصيرة من الزمن في تسلم منصب إمرة الأمراء في بغداد، لكنه أكره على ترك بغداد والعودة إلى الموصل، وعندما وقعت بغداد في حوزة البويهيين قام نزاع بين هذه الأسرة وناصر الدولة، وقد اضطر ناصر الدولة في أثناء هذا الصراع إلى إخلاء الموصل، واللجوء إلى حلب، وفي سنة 353هـ/964م عزله معز الدولة البويهي [334-356هـ/945-967م] عن إمارة الموصل وعين مكانه ابنه أبا تغلب فضل الله، وعندما ضعف ناصر الدولة بسبب شيخوخته ضيق ابنه أبو تغلب عليه وأعرض عن مشورته، ثم قام أخيراً في سنة 356هـ/966م بسجنه في إحدى القلاع، وقد توفي ناصر الدولة في سجنه 358هـ/969م.

وقبل أن يتوفى ناصر الدولة كانت مقاليد الموصل في يد ابنه أبي تغلب الذي لقب نفسه بالغضنفر، وبعد وفاة ناصر الدولة قام صراع بين أولاده، وقد أضعف هذا الصراع قوة الأسرة الحمدانية، واستغل هذا الخلاف من قبل الدولة البويهية، ومن قبل عناصر أخرى محلية في الجزيرة، كان أبرزها قبيلة عقيل وجموع أكراد ميافارقين، وفي سنة 369هـ/979م استطاع البويهيون احتلال الموصل، وجاء هذا بمثابة نهاية فعلية للدولة الحمدانية، وفي سنة 379هـ/981م حاول الحمدانيون استعادة الموصل، وحققوا في هذا السبيل نجاحاً مؤقتاً، وأخيراً سقطت الموصل في يد قبيلة عُقَيْل وورثت أملاكها الدولة العقيلية والدولة المروانية الكردية.

الدولة العقيلية في الموصل:

حكمت الجزيرة في أوائل القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد – كما رأينا – من قبل الدولة الحمدانية في الموصل، وأيام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عقيل إلى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة في هجرة كانت لها علاقة بنشاطات القرامطة، وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة 369هـ/ 979م سهل

القضاء عليها وورثتها دولتان: واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية، وأخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العُقَيْلية.

استولى في سنة 379هـ/989م محمد بن المسيب العقيلي على نصيبين (قرب القامشلي السورية حالياً) وبلد ثم ضم بعد سنة الموصل إلى أملاكه ، وذلك بعدما قتل الأمير الحمداني أبو طاهر بن ناصر الدولة الحمداني، واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب، لكن ما لبثت أن عزلته في سنة 382هـ/992م، وباشر البويهيون حكم الموصل بأنفسهم، لكنهم فقدوها في سنة 386هـ/996م حين تمكن المقلد بن المسيب أخو محمد من الاستيلاء عليها وإقامة الدولة العُقيلية فيها. وظل المقلد بن المسيب يحكم الدولة العُقيلية حتى اغتيل في سنة 391هـ/1000م. وعقب اغتياله خلفه ابنه قرواش الذي ظل يحكم حتى سنة 442هـ/1050م حين سجنه أخوه بركة، وحكم بركة قرابة السنة، ثم توفي، وهنا أجمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران أميراً جديداً، فأخرج قريش عمه قرواش ابن المقلد من السجن ودبر قتله.

ولقد كان قرواش بن المقلد من أعظم الشخصيات البدوية لعصره، فقد كان أديباً شاعراً، نهاباً وهاباً على دين الأعراب وجاهليتهم، وقد جمع بين أختين في الزواج، فلامته العرب على ذلك ، لأنه محرم فى الإسلام، فقال: (خبروني بالذي نستعمله مما تبيحه الشريعة) وكان يقول في مجالسه: " ما على رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم، وأما الحاضرة فلا يعبأ بها الله " .

وقد استطاع قرواش أن يقيم علاقات شبه متوازنة بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لأول غارة غزية، وهو الأمر الذي أتينا على ذكره لدى الحديث عن السلاجقة.

حكم قريش بن بدران سنة 453هـ/1060م حيث خلفه ابنه مسلم بن قريش أعظم شخصيات الأسرة العقيلية، وعقب مقتل مسلم خلفه أخوه إبراهيم في سنة 478هـ/ 1085م ، ولم يطل حكم إبراهيم فقد قتل في الصراع مع السلاجقة،وتوزع إمارة الموصل ولدا أخيه محمد وعلي، وبقي الحال هكذا حتى أزال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائياً في سنة 489هـ/ 1096م .

الدولة المروانية :

لقد ذكرنا بأن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالإضافة إلى الدولة العقيلية

الدولة المروانية الكردية، فلقد سكنت المناطق الواقعة إلى شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الكردية، وغالباً ما كانت هذه القبائل تغير على الأراضي البيزنطية، ولقد ظهر من بين أفرادها عدد من الغزاة الذين تجمعت حولهم عصابات خاصة، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع هـــ/ العاشر م ، فاستغل باذ ضعف الدولة الحمدانية، ثم ضعف السلطنة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي [367-372هـــ/978-983م] فأخذ يقيم لنفسه دولة، فاستولى على أهم بلدان منطقة ديار بكر، مثل آمد، ونصيبين وميافارقين " ودخل باذ الموصل واستولى عليها، وقويت شوكته، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وإزالة الديلم عنها، وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد أصحاب الأطراف " وفى أثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل، وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان من أهمها واحدة في سنة 380هـــ/990م فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية.

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن أخته الحسن ابن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله سنة 387هـــ/ 997م، وفي زمن الحسن توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر، وبعيد مقتله خلفه أخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة 401هـــ/1011م، وهنا خلفه أخوه أحمد الذي عرف باسم نصر الدولة.

ونصر الدولة المرواني من أشهر حكام الأسرة المروانية، وقد استمر حكمه لمدة زادت على الخمسين عاماً، استطاع خلالها أن يرفع من مكانة الدولة المروانية، وأن يبسط نفوذها حتى على بعض من أجزاء بلاد الكرج (جورجيا الحالية)، ولقد أحسن استغلال الموقع الاستراتيجي لديار بكر الذي كان يتحكم بطرق المواصلات والتجارة بين العراق وبلاد المشرق الإسلامي من جهة وبلاد الشام والأناضول من جهة أخرى.

كما تمكن ببراعته السياسية وحكمته الدبلوماسية من المحافظة على دولته وعلى استمرار حكمه بين قوى متعادية قوية كان كل منها يطمح ويسعى للتوسع والسيطرة، ولقد كانت علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد جيدة، وكذلك كانت الحال مع الإمبراطورية البيزنطية، وأيضاً مع الخلافة الفاطمية حيث كانت العلاقات طيبة على الرغم من أن آل مروان كانوا سنة ، وكانت رعيتهم على العموم شوافع.

لم تكن العلاقات بين الدولة المروانية والدولة العقيلية في الموصل على العموم جيدة، ومع ذلك

فقد جهد نصر الدولة في تجنب الاصطدام المباشر أو المستمر مع عقيليي الموصل فتنازل لهم سنة 421هـ/1030م عن نصيبين، كما دفع لهم الجزية لمدة من الزمن. وكانت علاقة نصر الدولة بالدولة المرداسية في حلب طيبة بشكل عام وكذلك كانت الحال بالنسبة لعلاقاته بالقوى البدوية الأخرى التي كانت موجودة في الجزيرة كقُشير أصحاب قلعة جَعْبر (على جانب بحيرة سد الفرات، في سورية)، وقبيلة نمير أصحاب حران، ولقد استطاع نصر الدولة التخفيف من آثار مضار هجرة التركمان على بلاده، فقام بمراسلة السلطان طغرلبك واعترف له بالسلطة والسيادة وأقام الخطبة باسمه.

وكانت آمد وميافارقين وحصن كيفا أشهر بلدان الدولة المروانية، فازدهرت في عهد نصر الدولة ازدهاراً كبيراً، وشهدت قيام نهضة ثقافية وتطوراً اقتصادياً عظيماً، ويقدم لنا المؤرخ ابن الأزرق الفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافارقين) صورة جيدة عن هذا الرفاه الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح وأصول عربية إسلامية.

وبعد وفاة نصر الدولة في سنة 453هـ/1061م قسمت أراضي دولته بين أولاده، وبدأت قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار والضعف، واستمرت آخذة والاضمحلال شيئاً فشيئاً حتى تمكن السلاجقة أخيراً من القضاء عليها نهائياً سنة 478هـ/1085م.

الدولة الأتابكية الزنكية في الموصل وبلاد الشام:

بعد سقوط الدولة العقيلية في الموصل على أيدي السلاجقة، تقلب على حكم هذه المدينة عدة ولاة، كان منهم كربوغا الذي حاول إنقاذ أنطاكية من الحملة الصليبية الأولى، وكذلك مودود الذي قاد حملة كبيرة ضد الصليبيين، وتحالف مع طغتكين حاكم دمشق، ثم اغتيل بمؤامرة ربما نفذها الحشيشية في الجامع الأموي بدمشق عام 507هـ/1113م، وبعده كان أهم من ولي الموصل آق سنقر البرسقي (33) وهو الذي ساعد حلب في رفع الحصار الصليبي عنها عام 518هـ/1124م، وبعدما وحد البرسقي حلب والموصل بعامين اغتاله رجال من الحشيشية في جامع الموصل، وعانت الموصل بعد ذلك من الاضطراب، حتى ذهب وفد مثل أهلها إلى بغداد، وهناك تعاقدوا مع عماد الدين زنكي للذهاب إلى الموصل وتسلّم السلطة فيها، وحصلوا على موافقة الخلافة والسلطنة، فكان أن تسلم زنكي الولاية سنة 521هـ/1127م .

وكان زنكي بعد مقتل أبيه آق سُنْقُر قسيم الدولة قد عاش في الموصل في ظل رعاية ولاتها، ثم انتقل إلى العراق حيث تسلم عدة وظائف، إلى أن عاد إلى الموصل التي كان يعرفها معرفة جيدة، ويعرف منطقتها، كما أنه كان معروفاً من قبل أهلها وأهل الشام الشمالي.

وما إن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى نشط، فمد سلطانه إلى جزيرة ابن عمر، ثم إلى حلب وحاول السيطرة على حماة وحمص ودمشق، وفي أيامه استردت حلب عافيتها، وأخذت تتهيأ للقيام بدور قيادي ضد الصليبيين، وكانت أراضي دولة زنكي محاطة ومهددة من قبل دولة الرها الصليبية وصحيح أن زنكي شارك في أحداث الصراعات على السلطة في العراق وبلاد الشام، لكنه منح تحرير الرها جل جهوده وتفكيره، حتى استطاع أخيراً في سنة 539هـ/1144م أن يفتح الرها، ويزيل الحكم الصليبي منها، وبذلك أزال من الوجود أول دول الصليبيين تأسيساً في المشرق، وهو الأمر الذي أثار أوروبا الغربية كثيراً، ودفعها إلى تجييش الحملة الصليبية الثانية، وبعد عامين من تحرير الرها، حاصر زنكي قلعة جعبر، وكانت محكومة من قبل أسرة آل مالك العقيلية، وفى أثناء الحصار اغتيل ليلاً من قبل بعض غلمانه.

الأراتقة :

كان من بين أبرز القادة التركمان الذين ظهروا أيام السلطان ملكشاه أمير اسمه أُرتُق بن أَكْسَب، وقد شغل أدواره الأولى على رأس مجموعة عسكرية خاصة به في العراق والجزيرة، وبلاد الشام، وارتبط أخيراً بتُتُش ابن السلطان ألب أرسلان، ونتيجة لذلك منحه القدس إقطاعاً له وولاه عليها في سنة 479هـ/1086م، ليشكل خطاً دفاعياً له ضد الفاطميين، وبقي أُرتق في القدس حتى وفاته في سنة 484هـ/1091م ، وبعد وفاته خلفه في القدس ولداه: سقمان وإيلغازي، وبقيت القدس في أيدي الأراتقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى، ففى أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية عام 492هـ/1098م استقبل قادتهم سفارة أرسلها الفاطميون من القاهرة، ونتيجة لذلك تم الاتفاق على نوع من التحالف، ولدى عودة الوفد المصري رافقه وفد من نبلاء الفرنجة، وإثر ذلك جيّش الفاطميون قوة كبيرة رافقها النبلاء الفرنجة، وجرى حصار القدس وانتزاعها من الأراتقة.

وتوجه الأراتقة إلى الجزيرة، وذهب منهم إيلغازي إلى العراق، وشارك في الصراعات السلجوقية السلجوقية، في حين تمكن سقمان من الاستيلاء على بعض المناطق في ديار بكر، مؤسساً

نواة دولة أرتقية، واستطاع توسيع دولته الجديدة حتى ماردين وحصن كيفا، وتوفي سقمان في سنة 498هـ/1104م ومن بعده انقسمت دولته إلى قسمين هما: ماردين وحصن كيفا، وبعد ذلك بوقت قصير، رجع إيلغازي من العراق، حيث تمكن من الاستيلاء على ماردين.

ومن ماردين اتخذ قاعدة له، وشارك في النشاطات ضد الصليبيين، واستدعي سنة 511هـ/1117م لتولي حكم حلب ودفع خطر الصليبيين عنها، وخاض بنجاح عام 513هـ/ 1119م، معركة دانيث، أو ساحة الدم ضد أمير أنطاكية الصليبي وقواته، وظل نشطاً حتى وفاته سنة 514هـ/1120م على مقربة من ميافارقين التي كان قد استولى عليها من قبل.

وبعد وفاته استقر ابنه سليمان في ميافارقين، وأخوه تمرتاش في ماردين، فظهر آنذاك أمير أرتقي آخر هو بلك بن بهرام، استولى على حلب، ثم نشط كثيراً ضد الصليبيين، وأسر ملك القدس وكونت الرها وغيرهما من سادة الصليبيين، وتابع نشاطاته حتى قتل أمام أسوار منبج سنة 518هـ/1124م .

واستغل تمرتاش غرصة مقتله، فاستولى على حلب، لكنه آثر الإقامة في ماردين، وبذلك تقاعس عن الدفاع عن حلب عندما حاصرها الصليبيون بالتعاون مع دبيس بن صدقة، أمير الحلة، وعدد من قادة التركمان، وكان أن قدم آق سنقر البرسقي حاكم الموصل إلى نجدتها، ومن ثم تولى الحكم فيها، وذلك هيّأ السبيل فيما بعد لاستيلاء زنكي عليها، بعدما صار والي الموصل.

ولم يشكل الأراتقة دولة مركزية واحدة، ولذلك تورطوا في نزاعات، كما شاركوا في الصراعات على السلطة في الجزيرة، وكانوا يعترفون بالخليفة العباسي، وبالسلطان السلجوقي، وكانت لهم علاقات متوترة أحياناً مع زنكي ودولة الأتابكة في الموصل، كما صارت لهم علاقاتهم بالأيوبيين.

ثالثـا : أهم دول بلاد الشام

أحوال بلاد الشام :

الشام عند الجغرافيين العرب هو صقيع يحده من الشرق الفرات ومن الغرب البحر المتوسط ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل طويلاً حتى ما بعد طرسوس في تركية اليوم.

سكن أرياف الشام قبل قيام الفتوحات الإسلامية عدد من القبائل العربية كان أكثرها عدداً قبيلة كلب في جنوب الشام، وكان لهذه

القبيلة دورها المهم في العصر الأموي، كما هاجر مع الفتح وبعد معركة صفين عدد من القبائل إلى شمالي بلاد الشام، كانت غالبيتها من أصل قيسي، وأشهرها قبيلة كلاب، ونتيجة معركة مرج راهط سنة 64هـ/683م ولتطورات أخرى انقسمت بلاد الشام إلى قسمين: شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب، وتسيطر عليه، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية، وخاصة كلب، وتسيطر عليه، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة عن دارين: دار لليمن في الجنوب ودار لقيس في الشمال، وكان الحد الفاصل بين الدارين نقطة وهمية تقع جنوب حمص وغالباً ما كانت عند الرستن على نهر العاصي.

ولم نسمع بعد معركة مرج راهط بسكنى أيّ قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام والعكس هو الصحيح أيضاً، ومن الممكن الاطلاع على شواهد في تاريخ الدولة المرداسية.

ويلحظ المرء أنه منذ القرن الخامس/ الحادي عشر بات اسم الشام يطلق أحياناً ليعني القسم الشمالي منه، وكلمة الشام الأعلى لتعني القسم الجنوبي، روى غرس النعمة محمد ابن هلال " الصابيء في تاريخه بأن السلطان ملكشاه كتب في سنة 471هـ/1078م إلى أخيه تتش يتعرض إلى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب ".

لقد كانت مدينة حلب دائماً مركزاً لشمالي بلاد الشام ، وفيها قامت عدة دويلات مستقلة، ولقد كانت دمشق كبرى مدن جنوبي بلاد الشام، وأقول كبرى وليس مركزاً ؛ لأن الجنوب انقسم إلى قسمين: قسم فلسطيني ومركزه الرملة، والنفوذ فيه كان لقبيلة طيئ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقي لقبيلة كلب، ولقد كان الصراع دائماً بين دمشق وحلب، وكانت بلاد الشام ممزقة دائماً سياسياً ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها أبداً، وغالباً ما تورطت طيئ بمشاكل ذى صلة بمصر وسياستها.

الدولة المرداسية في حلب:

أسس هذه الدولة صالح بن مرداس، أمير قبيلة كلاب في مطلع القرن الخامس للهجرة، وحتى نفهم تاريخ هذه الدولة علينا أن نتعرف أولاً إلى قاعدتها القبلية في شمالي بلاد الشام والجزيرة، وقبيلة كلاب صاحبة هذه الدولة كانت إحدى مشاهير قبائل عرب ما قبل الإسلام، ولقد هاجر قسم منها بعد قيام الإسلام إلى بلاد الشام، وقطن هذا القسم شواطئ الفرات الشامية ومد نفوذه وسيطرته على شمالي بلاد الشام، لكنه لم يعمل في سبيل إقامة حكم دولة مستقلة تحكم شمال بلاد الشام حتى جاء القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، ويعود السبب الرئيس لذلك إلى أوضاع الخلافة العباسية

وقوتها آنذاك، ثم إلى التأثيرات الحضارية التي لابد أثرت في الكلابيين، إنما أصاب قبيلة كلاب منذ مجيء القرن العاشر للميلاد تغييرات كبيرة، ففي هذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاطهم في شبه الجزيرة العربية والشام والعراق والجزيرة، وصلت إلى شمالي بلاد الشام وأعالي الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة وهي: كِلاب وعُقيل ، ونُمير ، وقُشير ، وخَفاجة ، وبعد حقبة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها، حيث استطاعت بعد أمد وراثة الدولة الحمدانية في الموصل وإقامة الدولة العقيلية مكانها، أما نمير فقد اتخذت من منطقة حران مركزاً لنفوذها، وأما قبيلة قُشير فقد توطنت حول قلعة دوسر التي تبدل اسمها إلى قلعة جَعْبَر نسبة إلى جعبر بن سابق أحد شيوخ قشير الذين حكموها، ويقول ابن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة واصفاً حال الجزيرة في أيامه: "وبالجزيرة براري ومفاوز وسباخ بعيدة الأقطار تنتجع لامتيار الملح، والأشنان، والقلي، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر، أهل خيل وغنم وإبل قليلة، وأكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير، وعقيل، وبني نمير، وبني كلاب، فأزاحوهم عن بعض ديارهم ، بل جلّها، وملكوا غير بلد وإقليم منها، كحران، وجسر منبج، والخابور، والخانوقة، وعرابان، وقرقيسيا، والرحبة في أيديهم يتحكمون في خفائرها ومرافقها".

وكما استقرت قبائل عقيل ونمير وقشير في الجزيرة فقد استقر الكلابيون الجدد في شمالي بلاد الشام مع إخوانهم الكلابيين القدماء، لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر بسلام، بل إن هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعض الدمار لأراضي شمالي الشام والجزيرة، وقد هيأت الفوضى السياسية التي نشأت الفرصة لظهور عدد من المغامرين ، مثل المتنبي الشاعر، والأصفر الغازي، كما أكرهت عدداً من القبائل القديمة في الجزيرة وخاصة بقايا قبيلة تغلب على الهجرة إلى الأراضي البيزنطية، وتحدث ابن حوقل عن خروج بني حبيب " بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم وخفهم الذي يمكن بمثله النقلة، ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغضب لعقارهم في نحو عشرة آلاف فارس " إلى الأراضي البيزنطية حيث استقروا ثم "تنصروا بأجمعهم، وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم".

ذكر ابن العديم أن قبيلة بني نمير وصلت الجزيرة في سنة 309هـ/ 921م، كما روى أنه في

320هـ/ 932م وصلت كلاب إلى شمالي بلاد الشام، ويبين أن قبيلتين من هؤلاء الكلابيين الجدد وهما سبيعة وذؤيبة قد أغارتا في سنة 322هـ/933م على معرة النعمان وذلك بعد أن نخروا الشام الشمالي.

لقد تألفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجوم ، ولابد أن قدوم المهاجرين الجدد واختلاطهم بالقدماء قد أثر عليها فغير من تركيبها، إنما على العموم تميزت هذه القبيلة مثلها مثل بقية قبائل عامر بن صعصعة بتحكم روح الفوضى والفرقة بينها، فلقد آثر الكلابيون وغيرهم دائماً التمزق ولم يدينوا بإخلاص لقائد واحد، ولقد كانت لديهم (مثلهم) الخاصة في الإخلاص السياسي.

وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية، ونحن لا نعرف مدى التعلق الجدي بهذا المذهب، سوى أن بعض الأسماء شيعية، مثل، علي، عُليان، علوان، جعفر، قد تبناها بعض أفراد هذه القبائل، وفيما خلا هذه الأسماء التي كانت قليلة جداً فإن أسماء الكلابيين والقشيريين والنميريين والعقيليين كانت عربية صرفة وغير متأثرة بالأسماء التي عم انتشارها بعد قيام الإسلام، خاصة الأسماء المركبة التي تبدأ بعبد وتنتهي باسم أو صفة من صفات الله .

استولى في سنة 399هـ/1008م صالح ابن مرداس على بلدة الرحبة (البصيرة أو البوسرايا في سورية) على الفرات، وبعد ما فعل هذا، اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القاهرة، ولقد كانت الرحبة من أكثر مدن الشام أهمية نظراً لموقعها الاستراتيجي الخطر، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات، وهذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية، كما كانت قريبة من العراق غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضاً، ثم إن البادية كانت وثيقة الصلة بها، وفي البادية أقامت العشائر البدوية التي شغلت أعظم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام، وبإيجاز لقد كانت الرحبة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العربية، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام وأجزاء من الجزيرة، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس.

ولقد حافظت الرحبة على أهميتها هذه ومكانتها حتى أواخر القرن الخامس هـ/الحادي عشرم، حيث حلّت محلها مدينة الموصل، التي كانت قصبة ديار ربيعة التي كانت إحدى كور الجزيرة الثلاث: ديار بكر، وديار مضر، وديار ربيعة، والجزيرة كانت أصلاً تشتمل على البلاد التي بين دجلة والفرات Mesopotamia ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب قسماً من

البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات من بر الشام إلى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها.

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة ، وكانت دائماً متورطة في مشاكل العراق السياسية وغيرها، وقلما كان لها دورها في مشاكل الشام، وظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الحادي عشر م، عندما ازداد تدفق الغُزّ على الجزيرة والشام، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب، وكانت الموصل أول محطة لهم نحو الشام، وسبب هذا تحولاً مهما في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه بالمدينة بالتدريج جزءاً من الشام، وتورطت في مشاكله، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام، وربما على الشام بأسره، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية والدولة الأتابكية الزنكية، ما يكفي للتدليل على صحة هذا.

وبعدما احتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو حلب، فتورط من أجلها في صراع طويل أثمر في سنة 415هـ/1025م عن احتلال حلب وإقامة الحكم المرداسي فيها، و لم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام ، بل انتزع بعض أجزاء الساحل الشامي من الفاطميين أسهم في العمل من أجل طرد الفاطميين من الشام، فذهب ضحية مطامحه حيث قتل في سنة 419هـ/1029م، في معركة الأقحوانة، في وادي الأردن قرب طبرية، ومقتل صالح لم يقض على وجود الدولة التي أقامها، فقد احتفظ أولاده بحكم حلب، فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوال وهم: نصر ثم ثمال ثم عطية، ثم حكم بعد عطية حفيد صالح محمود ابن نصر، ثم نصر بن محمود، وأخيراً سابق بن محمود الذي سقطت الدولة المرداسية في زمنه.

بعد وفاة ثمال في سنة 454هـ/1062م دخلت أول جماعة غزية بلاد الشام ثم تبعتها موجات أخرى سببت تدمير بلاد الشام، كما سببت سقوط الدولة المرداسية وعملت على إزالة القوة العربية من الشام.

لقد كانت الدولة المرداسية دولة بدوية، تطبعت بالأخلاق العربية، وبالمفهوم العربي البدوي في الحكم، لذلك ازدهرت في ظلالها الحضارة العربية وثقافتها، ففي زمن المرداسيين وفي ظلهم عاش المعري وكتب نثره وشعره، وكذلك فعل ابن أبي حصينة الشاعر. وابن سنان الخفاجي الكاتب الشاعر، وأخيراً ابن حيوس كبير شعراء الشام في أواخر القرن الخامس هـ/الحادي عشر م.

ولقد كانت علاقات الدولة المرداسية بالخلافة الفاطمية سيئة بشكل عام على الرغم من أن المرداسيين اعترفوا اسمياً بسلطان خليفة القاهرة، و لم يكن لهم أىّ علاقة حتى ما قبل 1070م بالخلافة العباسية، ولكن في الوقت نفسه الذي اعترف فيه المرداسيون بسلطان الفاطميين كانت علاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية جيدة بشكل عام، وغالباً ما وضع الأمراء المرداسيون أنفسهم تحت الحماية البيزنطية ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية.

واعتادت بيزنطة أن تقيم دولاً بدوية على حدودها، لحماية هذه الحدود من غارات البدو بشكل عام، ولتكون هذه الدول حاجزاً بين بيزنطة وقوى كبرى أخرى، وعلى هذا فقد عمدت بيزنطة للعمل على حماية الدول البدوية التي أقامتها وعلى مساندتها بالمال وغير ذلك من الأسباب، أما أن تدفع دولة بدوية الجزية لبيزنطة، فلابد أن ذلك حالة شاذة لها أسباب غير اعتيادية! ويعود سبب دفع المرداسيين الجزية للإمبراطورية البيزنطية إلى وجود التهديد الفاطمي الدائم، ثم إلى طبيعة قبيلة كلاب من فوضى وتمزق وعدم إخلاص، وعدم انقياد لزعيم واحد .

دولة بني منقذ في شيزر:

ومنذ الأيام المبكرة لحكم الأسرة المرداسية، استولت أسرة بني منتذ على بلدة كفر طاب ما بين حماة ومعرة النعمان، ثم تمكنت هذه الأسرة عام 473هـ/1080م من احتلال شيزر، واتخذت قلعتها مقراً لها، وهكذا شغل بنو منقذ دوراً مهماً في أحداث بلاد الشام في القرن الخامس هـ/الحادي عشر م ، ثم في القرن السادس هـ/ الثاني عشرم، وكان من أشهر رجالاتهم في القرن الخامس علي بن المقلد، الذي كان أخاً بالرضاعة لمحمود بن نصر أمير حلب المرداسي، وشغل علي دوراً مهماً في أحداث حلب وطرابلس السياسية فى أثناء الاجتياح التركماني لبلاد الشام، وعلي هو الذي احتل قلعة شيزر، وانتزعها من أسقف البارة، الذي كان خاضعاً للإمبراطورية البيزنطية، كما أنجبت الأسرة المنقذية عدداً من الأدباء والشعراء والمؤرخين، أوسعهم شهرة أسامة بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار، وبقيت شيزر تحت حكم آل منقذ حتى تم تدميرها عام 552هـ/1157م بوساطة زلزال هائل، أباد كل من كان فيها من آل منقذ، وهنا بادر نور الدين إلى الاستحواذ على القلعة وأعاد ترميمها .

العقيليون في قلعة جعبر:

ونور الدين أيضاً تمكن عام 564هـ/1168م من الاستيلاء على قلعة جعبر، التي اغتيل والده تحت أسوارها، وكان السلطان ملكشاه قد أقطع هذه القلعة إلى سالم بن مالك

العقيلي، وكان متسلماً لقلعة حلب، فسلم القلعة إلى السلطان، مقابل قلعة جعبر، وكان ذلك عام 479هـ/1086م ، وقد بقي حاكماً لجعبر حتى سنة وفاته في سنة 519هـ/1125م ، حيث خلفه ابنه مالك بن سالم، ومن بعده تسلم الإمارة فيها علي بن مالك، وهو الذي حاصره زنكي، كما أنه هو الذي سلم القلعة إلى نور الدين، وفي عصر كانت السلطة فيه بين يدي أصحاب القلاع كان لشيزر وجعبر دور مهم بين الصليبيين والمسلمين وبين مختلف القوى المتصارعة.

دويلات ساحل جنوبي بلاد الشام:

بعدما سيطر الفاطميون على مصر، تابعوا زحفهم إلى الشام فدخل جنوبه مع سواحله في حوزتهم، وكان للفاطميين أسطولهم القوي الذي مكنهم، لبعض الوقت، مع حامية دمشق وقوات فلسطين من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا الساحل التي كان أهمها طرابلس، وصور، وصيدا، وعكا، وفي النصف الثاني للقرن الخامس هـ/ الحادي عشر للميلاد ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم ينحسر وقد أفسح هذا المجال لقيام بعض من أنواع (الجمهوريات) المستقلة في كل من طرابلس وصور.

تولى عين الدولة بن أبي عقيل قاضي صور عليها، وامتنع بها عن الاعتراف بالنفوذ الفاطمي، وعقب موته ولي صور أولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة 482هـ/1089م حيث جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم وأعادتها للحظيرة الفاطمية.

لقد كانت الدولة التي قامت في طرابلس أطول عمراً وأبعد شهرة وأكثر أهمية من دولة صور، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي أبو طالب الحسن بن عمار، الذي كان من شخصيات الشام البارزة، ومن المرجح أنه استقل بحكم طرابلس بعد سنة 460هـ/1069م ، وبعد وفاته في سنة 463هـ/1082م استبد ابن أخيه جلال الدولة أبو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس وظل يحكمها حتى سنة 492هـ/1099م ، ويعد جلال الدولة أعظم أفراد آل عمار الذين تولوا حكم طرابلس، وفي عهده ازدهرت طرابلس، ولقد استطاع جلال الدولة الحفاظ على استقلال طرابلس وحماها، ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة، وبعد وفاة جلال الدولة خلفه أخوه فخر الملك أبو علي الذي ظل محتفظاً بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة 502هـ/1159م .

الفاطميون في بلاد الشام:

بعدما استولى الفاطميون على مصر سنة 359هـ/969م، زحف جيش فاطمي على

رأسه القائد الكتامي جعفر بن فلاح نحو بلاد الشام، كي يستولي عليها، ويلحقها بالخلافة الفاطمية، وواجه هذا الجيش بعض المقاومة في فلسطين، ثم تابع زحفه نحو دمشق، ففر منها حاكمها الإخشيدي، وقام أهل المدينة بالتصدي للقوات الفاطمية، وقاد المقاومة زعيم أحداث المدينة وكان اسمه محمد بن عصودا، وبعد استيلاء ابن فلاح على دمشق، التحق ابن عصودا بالأحساء، فاستعان بأمير القرامطة الحسن الأعصم، وجاء جيش قرمطي إلى دمشق، فهزم ابن فلاح وقتله، ثم قصد القرامطة مصر بعدما عينوا والياً منهم على دمشق، وأخفقوا في الاستيلاء على مصر، لكنهم جددوا العزم على المحاولة ثانية.

ودفع الخطر القرمطي على مصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، إلى التعجيل بالقدوم من تونس إلى مصر، كما أن القرامطة تحالفوا مع قبائل طيئ التي كانت موجودة في فلسطين، وفي سنة 363هـ/973م كلف الخليفة المعز لدين الله ظالم بن موهوب العقيلي بولاية دمشق وحاول ظالم هذا أن يأخذ دمشق بالحديد والنار، فأخفق واضطر الخليفة إلى نعيين جيش ابن الصمصامة، وكان كتامياً أيضاً، على دمشق، وأخفق جيش أيضاً، وكانت طائفة أحداث المدينة أقوى منه، وكان زعيمهم في هذه الآونة اسمه ابن الماورد، وكان مركز تجمع الأحداث منطقة باب الصغير

والأحداث منظمة شامية، ظهرت إلى الوجود قبل القرن الرابع هـ/ العاشر م ، والدافع وراء ظهورها هو المشاكل الداخلية لبلاد الشام في العصر العباسي، ونشط الأحداث في جميع المدن الشامية، وخاصة في حلب ودمشق، وشكل الأحداث نوعاً من أنواع (الميليشيات الشعبية) وقفت في غالب الأحيان ضد السلطات الحاكمة، وتعاونت أحياناً مع بعض الحكام، وشهدت الحقبة المحصورة ما بين النصف الثاني للقرن الرابع هـ/ العاشر الميلادي، وأواخر القرن الخامس هـ/ الحادي عشر ميلادي ذورة نشاط الأحداث في دمشق، وحلب، وصور، وكانوا معادين بشكل عام للفاطميين وأعاقوا سيطرتهم على دمشق طويلاً، وتحالفوا مع القرامطة وسواهم للوقوف ضد الجيوش الفاطمية، ففي الوقت الذي كان فيه الأحداث يدافعون عن دمشق، وصل إلى أحواز دمشق واحد من كبار العسكريين في العراق، وعرف باسم ألبتكين (هفتكين) الحاجب، ودفعه إلى مغادرة العراق الصراع على السلطة الذي أدى إلى خلع الخليفة العباسي المطيع لله [334-363هـ/946-974م] واستخلاف ولده الطائع، وتحالف أحداث دمشق مع هذا العسكري

صاحب الخبرات القتالية والإدارية، وكانت رعامة الأحداث قد آلت إلى واحد اسمه قسام التراب، وتعاون قسام مع ألبتكين.

وفي القاهرة كان المعز لدين الله قد مات، وخلفه ابنه العزيز [365-386هـ/975-996م] وافتتح هذا الخليفة عهده بإعداد جيش كبير جرده نحو دمشق، وعهد بقيادته إلى جوهر الصقلبي قاهر مصر، وأمره أن يستعيد دمشق بأي ثمن، وأن يبعد خطر القرامطة عن بلاد الشام، مهما كلفه الأمر، وأخفق جوهر، وواجه الذل والهزيمة في أكثر من مكان، وذلك أرغم العزيز على الخروج بنفسه، وبعد جهود مضنية وبذل لكميات من الذهب لزعماء طيئ، استطاع العزيز أسر ألبتكين، ثم توظيفه لديه، وشراء رضا القرامطة وكان هذا عام 368هـ/978م ، و لم يذهب العزيز إلى دمشق، بل عاد إلى القاهرة، وبقيت دمشق تحت حكم قسام التراب، ومن جديد جهز الخليفة العزيز في عام 371هـ/981م جيشاً فاطمياً جديداً ضد دمشق، وبعد مقاومة شديدة أرغم قسام على الاختفاء ودخلت القوات الفاطمية إلى المدينة، ومع ذلك بقي الأحداث هم سادة المدينة بصورة فعلية، ودام الحال هكذا سنة 388هـ/988م، حيث بطش الفاطميون بزعماء الأحداث في وليمة غدر، وفي تلك الأثناء حاولت بعض القوات الفاطمية الاستيلاء على حلب فأخفقت .

وتوفي العزيز وخلفه ابنه أبو علي المنصور الذي شهر بلقب الحاكم بأمر الله [386-411هـ/996-1021م] ، وامتازت أيام هذا الخليفة اللغز بكثرة الاضطرابات الدينية والسياسية، أهمها في بلاد الشام محاولة إعلان خلافة في الرملة، وثورة العلاقة الملاح، فقد ثار في صور، وطرد الفاطميين منها، وأعلن استقلال صور، وضرب نقوده الخاصة، وجهزت الخلافة الفاطمية قواتها البرية والبحرية ضده، وتمكن الفاطميون من القضاء على ثورته وأسره، حيث حملوه إلى القاهرة، وهناك سلخوه حياً، وهكذا نزل بأحداث الشام ضربات قاسية جداً في أيام الحاكم بأمر الله، كادت تزيلهم من الوجود، وأدى هذا إلى حرمان الشام من قوة شعبية اجتماعية، وشكل ذلك انتكاسة كبيرة .

وظل الحكم الفاطمي لا يعرف الاستقرار، وكان الشاميون ينتهزون فرصهم للاستقلال عن الفاطميين، وأسهم في هذا المجال زعماء كبريات القبائل كثيراً، فبعد اختفاء الخليفة الحاكم، تحالف زعماء قبائل: كلب، وكلاب، وطيئ ضد الفاطميين، واتفقوا على أن يكون لطيئ دولة في الرملة بقيادة حسان بن المفرج، وواحدة في دمشق

لكلب بزعامة سنان ابن عليان، وواحدة لكلاب في حلب بزعامة صالح بن مرداس، وتمكن هذا الحلف من طرد الفاطميين، وخاض ضدهم عدة معارك، لكنْ الفاطميون نجحوا في تمزيق التجمع القبلي، وأرسلوا في الوقت نفسه جيشاً كبيراً قاده ضابط تركي اسمه أنوشتكين الدزبري، في سنة 419هـ/1028م.

وكان الفاطميون قد أعادوا تنظيم جيوشهم منذ أيام العزيز، وأخذوا يكثرون من تجنيد العناصر الشرقية من عرب ، وديلم، وأتراك وسواهم، ولذلك ارتفعت المقدرة القتالية لديهم، وعلى هذا الأساس لحقت الهزيمة عام 1029م بصالح بن مرداس، في معركة الأقحوانة في وادي الأردن، وقتل صالح في المعركة، ودخل الدزبري إلى دمشق حيث مكث عقداً من الزمن تقريباً، ثم زحف ضد حلب سنة 428هـ/1038م، وعلى الطريق هزم أمير حلب نصر بن صالح بن مرداس وقتله، ثم دخل مدينة حلب، وهكذا امتلك الفاطميون للمرة الأولى السلطة على بلاد الشام شمالاً وجنوباً، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، ففي عام 434هـ/1024م فجرّت الوزارة الفاطمية في القاهرة عصياناً عسكرياً ضد الدزبري، فهرب إلى حلب وفيها مات، ومن جديد استقلت حلب عن الفاطميين واستأنف المرداسيون حكمهم فيها.

ولم تنعم دمشق بالاستقرار، وكان عدد الولاة الذين تقلبوا على حكمها كبيراً، وازداد عدم الاستقرار إثر شروع قبائل الغز باجتياح خراسان ثم العراق، حيث وفدت إلى الشام مجموعات متمردة من الأتراك، ناصب السلاجقة العداء، ولعلها كانت موجودة قبلهم في العراق وخراسان، وعرف هؤلاء باسم الناوكية، ونشط الناوكية في جميع أطراف الشام، وهو ما مهّد السبيل أمام الغز من بعدهم، وكان أبرز الزعماء التركمان الذين نشطوا في بلاد الشام اسمه أتسز ابن أوق، فهو قد اجتاح البلاد وأحدث فيها دماراً مريعاً، وركز جهوده ضد دمشق، وأخيراً بعدما فقدت المدينة إمكاناتها دخلها أتسز عام 468هـ/1076م ، وفي دمشق أقدم أتسز على تحصين قسم من المدينة تطور فيما بعد ليكون مشروع قلعة دمشق.

وبعد دمشق احتل القدس، وزحف ضد مصر لاحتلالها فأخفق، وطاردته القوات الفاطمية حتى دمشق، فاضطر إلى الاستنجاد بتتش بن ألب أرسلان الذي كان يسعى للاستيلاء على حلب، وذهب تتش إلى دمشق، وما لبث بعدما مكن نفسه فيها أن اعتقل أتسز، وخنقه بوتر قوسه، وكان ذلك سنة 471هـ/1078م ، وبذلك فتح تتش صفحة جديدة في تاريخ دمشق وبلاد

الشام، حيث استبد الغرباء بها لمدة قاربت تسعة قرون من الزمن.

الاحتلال السلجوقي لبلاد الشام :

وصل عام 479هـ/1086م السلطان السلجوقي ملكشاه إلى حلب، وتسلمها، ثم توجه إلى أنطاكية، فتسلمها أيضاً، وقبل عودته شرقاً ترك في أنطاكية والياً عليها اسمه يغي سيان أو (يغي سغان) وهو الذي تصدى للحملة الصليبية الأولى، وترك في حلب آق سنقر قسيم الدولة، وكان من أمراء التركمان، وفي تلك الأثناء كان تتش ابن السلطان ألب أرسلان قد استولى على السلطة في دمشق، ودام حكم آق سنقر قسيم الدولة في حلب سبع سنوات، حيث أمن لها الاستقرار والأمن، وتعاون لبعض الوقت مع تُتُش لإخضاع حمص وطرابلس للحكم السلجوقي، وفي أثناء ذلك فسدت العلاقات بين تتش وآق سنقر، وتفجرت بعد وفاة السلطان ملكشاه، حيث طمع تتش بالوصول إلى عرش السلطنة، ولم يتعاون آق سنقر معه ، بل وقف ضده، وفي عام 478هـ/1049م نشبت الحرب على مقربة من حلب بين تتش وآق سنقر، حيث أسفرت عن أسر آق سنقر ثم إعدامه، وترك آق سنقر وراءه ولداً واحداً اسمه زنكي الذي سوف يؤسس الدولة الأتابكية في الموصل.

ولم يطل الأمر بتتش الذي صار سيد بلاد الشام كلها، حيث توجه شرقاً لنيل السلطنة غير أنه قتل قرب الري (ضاحية طهران الحالية) عام 488هـ/1095م ، وكان تتش قبل وصوله إلى الري بعث بابنه رضوان إلى حلب، وبعد مقتله، فاء إلى حلب ابن آخر لتتش هو دُقاق، ولم يقم دقاق طويلاً في حلب، بل هرب إلى دمشق، وبذلك عاد التمزق إلى بلاد الشام، وتصارع رضوان مع أخيه دقاق، مما زاد التمزق الشامي، حيث استقلت حمص، وتدخلت قوات الدولة الفاطمية في أكثر من مكان، وفيما كانت النزاعات بين قوى التركمان على بلاد الشام، وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى أنطاكية وشرعت في حصارها، وشارك رضوان في جيش قاده كربوغا حاكم الموصل للتصدي لهذه الحملة التي احتلت أنطاكية عام 4911هـ / 1098م، واستولى الصليبيون على كثير من ممتلكات رضوان، وتمادى هو معهم، وواجه مشاكل في حلب، ثم تمكن الصليبيون من احتلال القدس عام 492هـ/1099م حيث أبادوا سكانها جميعاً، ووقف رضوان موقفاً سلبياً من العمليات ضد الصليبيين، وظل متمكناً من حكم حلب حتى وفاته عام 507هـ/1113م، واضطربت الأحوال في حلب بعد رضوان، وتداولها أكثر من حاكم، وتعرضت لخطر الاحتلال الصليبي، ولم تعد إليها

المنعة والاستقرار إلا بعدما صار زنكي حاكماً على الموصل، حيث ضم حلب إلى دولته، وشرع بمشروعه الجهادي الكبير الذي كانت أهم ثماره تحرير مدينة الرها من الصليبيين، ولهذا مكانه الخاص، حيث نمضي إلى دمشق لمعرفة أحوالها بعدما دخلها دقاق بن تُتُش.

البوريون أتابكة دمشق:

بعد التحاق دُقاق بن تُتُش بدمشق بمدة قصيرة، وصل إلى دمشق أتابكة طغتكين، بعدما تخلص من الأسر، لأنه كان في جيش تُتُش، ودخل إلى دمشق سنة 488هـ/1095م، وكانت دمشق قد شهدت قبل وقت قصير تأسيس قلعة فيها، ولذلك أقامت الأسرة الحاكمة فيها، مثلما كان عليه الحال في حلب، وظاهرة إقامة الأسر الحاكمة في القلاع هي التي انتشرت منذ استيلاء السلاجقة على بلاد الشام، واتخذت قاعدة أيام الحروب الصليبية، وانتقلت إلى مصر، فبعدما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية في القاهرة، شرع ببناء قلعة الجبل التي صارت مقراً للسلطة، وفي الحقيقة كان عصر الحروب الصليبية عصر صراعات بين أصحاب القلاع.

وما إن دخل طغتكين إلى دمشق حتى استبد بالسلطة فيها، وتعاون مع زوجته صفوة الملك أم دُقاق، فكان أن دبرت اغتيال ابنها وكان ذلك سنة 497هـ/1104م، وفي العام التالي 498هـ/1105م، ألغى طغتكين حكم أسرة تُتُش، وأسس أسرة حاكمة جديدة في دمشق عرفت باسم "الأسرة البورية " ، أو "أسرة أتابكة دمشق" ، وأدى طغتكين دوراً كبيراً في أحداث عصره، وغالباً ما سعى للتصدي لمحاولات التوسع الصليبي، وتحالف أحياناً مع بعض الذين أرسلتهم السلطنة والخلافة، وتآمر حيناً آخر، وكثيراً ما تمادن مع الصليبيين، وحاول أحياناً التعاون مع الفاطميين، وظل سيداً لدولة دمشق التي ضمت مع الشام الجنوبي: حمص، وحماة، والرحبة على الفرات، وقد توفي سنة 522هـ/1128م، وتوافقت سنة وفاته مع تسلّم زنكي لحكم الموصل، مما كان له أبعد الآثار على بلاد الشام، وعلى حكم الدولة البورية بالذات.

وكان طغتكين قد أوصى بالملك من بعده إلى ابنه بوري (الذئب)، وهو الذي نالت الدولة اسمها منه ، وقد افتتح عهده بمذبحة كبيرة لحقت بأتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية)، وعندما عرف الإسماعيلية الذين كانوا يتحكمون ببانياس (الجولان) بالذي حدث في دمشق تخلوا عن بانياس لمصلحة الصليبيين، وطمع الصليبيون الآن بالاستيلاء على دمشق فأخفقوا، كما أن زنكي انتزع منه مدينة حماة، وسعى

للاستيلاء على غيرها، وفي سنة 525هـ/1131م تعرض بوري لمحاولة اغتيال نفذها الحشيشية ضده فكان أن توفي متأثراً بجراحاته في سنة 526هـ/1132م .

وكان بوري قبل وفاته قد أوصى بالملك في دمشق من بعده إلى ابنه شمس الملوك إسماعيل، وعهد ببقاء بعلبك وأعمالها إلى ابنه محمد، وفي البداية شب نزاع بين إسماعيل ومحمد، حسم لمصلحة إسماعيل، وإثر ذلك تخبط في مشاكل داخلية، دفعته في سنة 529هـ/1135م إلى دعوة زنكي لتسليمه دمشق، وإلا فيسلمها إلى الصليبيين وعندما علمت أمه بذلك، أمرت غلمانها بقتله ففعلوا.

وعينت بعده ابنها محمود حاكماً جديداً على دمشق، وهنا حاصر زنكي دمشق وشدد الخناق عليها، غير أنه تلقى أمراً من الخليفة العباسي برفع الحصار عنها فنفذ ذلك، وعاود زنكي أعماله التوسعية على حساب الدولة البورية، فحاول احتلال حمص فأخفق، لكنه نجح عام 533هـ/1139م بالاستيلاء على بعلبك، فعهد بحكمها إلى نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين مؤسس الأسرة الأيوبية.

وانتقل زنكي بعد هذا إلى استخدام أسلوب الدبلوماسية، فتزوج من الخاتون صفوة الملك زمرد أم محمود، وتزوج محمود في الوقت نفسه من ابنة زنكي، وتنازل له عن حمص، وما لبث محمود أن اغتيل سنة 533هـ/1139م، فآل الحكم بدمشق إلى جمال الدين محمد بن بوري، الذي فوض الحكم إلى القائد معين الدين أنر، الذي برهن أنه كان بارعاً في السياسة ؛ إذ تمكن من الحفاظ على دمشق باللجوء إلى توازن حذر بين الصليبيين في القدس وعماد الدين زنكي، وسلم بانياس إلى الصليبيين، وقد حاول هؤلاء عام 541هـ/1147م احتلال بصرى وصلخد، فأخفقوا إثر مقاومة شديدة واجهوها من عرب حوران، وكان زنكي قد اغتيل قبيل قرابة العام، وخلفه في حلب ابنه نور الدين محمود، وفي عام 543هـ/1148م حوصرت دمشق من قبل الحملة الصليبية الثانية، وأخفق الصليبيون لأنهم واجهوا مقاومة دمشقية شديدة، ولأن النجدات تقاطرت عليها من كل مكان، ولأن نور الدين قاد جيوشه لحمايتها، وتعاون مع أنر في سبيل ذلك، ومات أنر سنة 544هـ/ 1149م، وتدهورت إثر ذلك أحوال الحكم البوري، وارتفعت شعبية نور الدين، وتمكن نور الدين في عام 549هـ/1154م من دخول دمشق، وتوحيدها مع حلب، وإزالة الحكم البوري منها، وكان هذا الحدث هو الأعظم منذ قيام الحروب الصليبية، فقد انتقل المسلمون الآن من موقع الدفاع

إلى الهجوم، وخطط نور الدين لتحرير القدس، ووحد المجتمع الشامي، وشجع على نهضة علمية واسعة، وأنقذ مصر من فوصاها، ومنع الصليبيين من احتلالها، ووحدها مع بلاد الشام.

نور الدين محمود:

أدى اغتيال زنكي عام 1146م إلى انشطار دولته إلى قسمين: شامي وجزري، أما الجزري فقد شغل حكامه أنفسهم بشؤون الجزيرة، والأناضول، والعراق ومشاكل السلاجقة، لأن الخطر الصليبي قد ابتعد عنهم، وتولى الشطر الشامي نور الدين محمود، الذي يعد البطل الحقيقي للحروب الصليبية.

ومنذ أيام زنكي تناقصت أعداد التركمان في منطقة حلب، وكان التركمان يشكلون قوام القوة العسكرية لديه، ولذلك استعان ببعض العناصر الكردية، ولجأ إلى نوع من أنواع التجنيد الإجباري بين سكان حلب، كما أن المتطوعة من أهل الشام صاروا الآن من الكثرة بمكان، حتى أنهم أدوا أدواراً كبيرة، وبعد وفاة زنكي ازداد تعداد الأكراد لدى ابنه نور الدين، وتزعمهم أسد الدين شيركوه مع صلاح الدين، والأخ الأصغر لأيوب والد صلاح الدين، وفي هذا مقدمات لحلول الأيوبيين محل الأتابكة بعد وقت قصير نسبياً.

وقام نور الدين من حلب باتباع سياسة شامية استهدفت توحيد الشمال والجنوب وتوحيد المجتمع، وإزالة الطوائف، وبنى نور الدين المدارس، ورعى العلم والعلماء، كما بنى المشافي واهتم بالعدل وإلغاء الفساد واستغلال السلطة، واهتم بالجيش وتسليحه، ولشدة تقواه أولى الصوفية عناية خاصة، وبدأ سياسة جهادية مدروسة ضد أنطاكية، ولإيقاف التوسع الصليبي في مناطق الساحل الفلسطيني وضد حوران والجولان، وأسهم في إحباط مساعي الحملة الصليبية الثانية، وتمكن عام 549هـ/1154م من دخول دمشق، وتحويلها من التهادن مع الفرنجة إلى قاعدة للجهاد ضدهم.

وكان الفرنجة قد أعادوا احتلال الرها بعد اغتيال زنكي، فساق نور الدين جيشاً قوياً أعاد تحرير المدينة، وقضى على كل أمل للفرنجة بالعودة، ومن ثم تفرغ للشؤون الأخرى، ونادراً ما تدخل بشؤون الموصل، والتورط في الصراعات فيها خاصة سنة 544هـ/1149م إثر وفاة أخيه سيف الدين غازي، وتولى قطب الدين الحكم، وهو أخ ثالث لنور الدين، ولتفرغه للشؤون الجهادية الشامية، نجح عام 544هـ/1149م في إبادة قوات أنطاكية وقتل أميرها ريموند دي

بواتيه، وأسر صاحب تل باشر الذي كان من بقايا كونتية الرها.

وبعدما انتقل نور الدين إلى دمشق، يئس الفرنجة من التوسع في ممتلكاته، فاهتموا بمصر، وتشجعوا بالعزم على احتلالها بعد احتلالهم لعسقلان، وتحالفهم مع الإمبراطورية البيزنطية، وكان سباق ما بين نور الدين وعموري الأول ملك القدس، الذي اعتقد أن القاهرة باتت سهلة الاحتلال بسبب توالي الصراعات الداخلية على السلطة فيها.

وعطل نور الدين خطط الصليبيين وأحبطها، حيث أرسل شيركوه على رأس ثلاث حملات عسكرية، نجحت أخيراً في الحفاظ على مصر، وتوحيدها مع بلاد الشام، وتوجهت الحملة الأولى عام 559هـ/1164م، وحققت بعض الإنجازات ، ثم عادت إلى بلاد الشام، وأقلعت الحملة الثانية عام 562هـ/1167م وحققت المزيد من النجاح، لكنها اضطرت إلى الانسحاب عائدة إلى بلاد الشام، وفي عام 564هـ/1168م أرسل نور الدين شيركوه للمرة الثالثة، وكان برفقته في حملاته كلها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وحسم أسد الدين في هذه الحملة الأمور في القاهرة، وفي شباط 1169م صار وزير مصر وسيدها، لكنه لم يتمتع طويلاً بمنصبه ؛ فقد توفي بعد شهرين وعدة أيام، فكلف الخليفة الفاطمي صلاح الدين بالوزارة، وأعاد صلاح الدين تنظيم شؤون مصر، واهتم بالبحر الأحمر، وتوسع باتجاه برقة وطرابلس - أي ليبيا الحالية - وسيطر على اليمن، واعتنى بالحجاز، وقام في سنة 567هـ/1171م بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي، واستبدالها للخليفة العباسي.

وأراد نور الدين استغلال الطاقات الشامية المصرية لتحرير القدس، فأصدر أوامره إلى صلاح الدين بأن يلتقي به عام 568هـ/1172م أمام أسوار الكرك في سبيل حملة جهادية استهدفت تحرير القدس، وكانت آماله بالنجاح عالية، حتى إنه أمر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة التحرير، لكن صلاح الدين تقاعس، وخشي من نور الدين على سلطته، فتعطلت الخطة، وفترت العلاقات ما بين نور الدين وصلاح الدين، وكادت الأمور تصل إلى المواجهة، لكن عطل ذلك وفاة نور الدين المفاجئة عام 1174م، تاركاً الملك من بعده لابنه الصالح إسماعيل، وكان صبياً في الحادية عشرة من عمره، وجاء صلاح الدين إلى بلاد الشام، ولمدة

عقد من الزمن خاض معارك كثيرة، تمكن فيها من الاستيلاء على ميراث نور الدين، وفي عام 583هـ/1187م خاض معركة حطين وانتصر فيها على جيوش مملكة القدس الصليبية، ثم حرر القدس، وإليها حمل منبر نور الدين، وظل هذا المنبر في المسجد العمري حتى أحرقه الصهاينة عام 1969م.

أ.د. سهيل زكـــا
جامعة دمشق

المصادر والمراجع

1) المصادر:

ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي) (ت. 630هـ/1232م):

1- الكامل في التاريخ، ط. ليدن، ط. القاهرة 1348هـ.

2- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموسوعة الشاملة.

ابن الأثير الحلبي (إسماعيل): عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار المتحف البريطاني رقم، 334 Add.23 (رسالة ماجستير تحت إشرافي، قسم التاريخ، جامعة دمشق).

الإصطخري (إبراهيم بن محمد) (ت. 341هـ/952م): المسالك والممالك. القاهرة 1961.

الأصفهاني (محمد بن محمد): البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان في الموسوعة الشاملة.

الأصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب):

1- تاريخ دولة آل سلجوق، هذبه الفتح البنداري، القاهرة 1900.

2- خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شكري فيصل، دمشق، 1955-1959-1964.

3- الفتح القسي، في الموسوعة الشاملة.

4- البرق الشامي، مخطوطة المغرب.

ابن أيبك الدواداري (عبد الله): الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، حققه صلاح المنجد. القاهرة 1961.

الأيوبي (الملك الأمجد): نسب الأيوبيين، ط. بيروت 1978.

بدران (عبد القادر): تهذيب تاريخ ابن عساكر، دمشق 1913.

البغدادي (عبد الله بن محمد بن الوليد): الحرز والمنعة في بيان أمر المهدي والمتعة، تحقيقي ط. بيروت 1988.

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) (ت. 478هـ/1094): معجم ما استعجم، حققه مصطفى السقا. القاهرة 1945.

البنداري (الفتح بن علي): سنا البرق الشامي، ط. القاهرة 1979.

ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف) (ت. 874هـ/1469). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة 1929-1936.

ابن جنغل (محمد بن علي): تاريخ ابن جنغل، المتحف البريطاني DR.5912 .

ابن الجوزي (عبد الرحمن): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيقي بيروت 1995.

الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد): المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة 1361هـ.

حاجي خليفة: كشف الظنون، ليبزغ 1837.

الحسيني (أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي): أخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ)، تحقيق محمد إقبال، لاهور 1933.

الحلي (أبو البهاء هبة الله): المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، ط. عمان 1984.

الحموي (محمد): التاريخ المنصوري في الموسوعة الشاملة.

الحموي (ياقوت) (ت. 626هـ/1228):

1- معجم الأدباء، القاهرة 1907-1927.

2- معجم البلدان، بيروت 1968.

الحنبلي (أحمد بن إبراهيم): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، بغداد 1978.

ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) (ت. 367هـ/977): كتاب صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة.

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله): سفر نامه، نقله إلى العربية يحي الخشاب، القاهرة 1945.

ابن خلدون (عبد الرحمن) (ت. 808هـ/1406): العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت 1958.

ابن خلكان (أحمد بن محمد) (ت. 681هـ/1283): وفيات الأعيان، القاهرة 1310.

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف): مفاتيح العلوم، المطبعة المنيرية في القاهرة.

ابن أبي الدم (إبراهيم): تاريخ ابن أبي الدم، (ما تعلق بالحروب الصليبية في الموسوعة الشامية).

الذهبي (محمد بن أحمد):

1- تاريخ الإسلام، المتحف البريطاني OR OR50 49.

2- العبر في خبر من غبر " تحقيق فؤاد السيد " الكويت 1961.

3- دول الإسلام " المتحف البريطاني OR1558 حيدر أباد 1919.

الراوندي (محمد بن علي بن سليمان): راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ألف بالفارسية، ونقله عبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد، القاهرة، 1960.

ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة، ليدن 1891.

الزبيدي (المرتضى): ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، ط. دمشق 1971.

سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف ابن قزاوغلي): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المتحف البريطاني OR.464 مكتبة أحمد الثالث 2907س المكتبة الوطنية بباريس 1506، الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات 1056-1086، تحقيق علي سويم، أنقرة 1968، ما تعلق بالحروب الصليبية في الموسوعة الشاملة.

السمعاني (عبد الكريم بن محمد): الأنساب، طبع بالتصوير، لندن 1912.

ابن شاكر الكتبي (محمد):

1- عيون التواريخ، المتحف البريطاني OR.3005.

2- فوات الوفيات، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1951.

أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية مع الذيل، في الموسوعة الشاملة.

ابن الشحنة (محمد): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب. بيروت 1909.

ابن شداد (محمد بن علي): الأعلاق الخطيرة، قسم مدينة دمشق: دمشق 1956، قسم مدينة حلب:

دمشق 1953، تاريخ الملك الظاهر، ط. بيروت 1983.

شيخ الربوة (أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبزغ 1923.

الصابئ (إبراهيم بن هلال): كتاب التاجي مع نصوص أخرى نشرت بعنوان أخبار أئمة الزيدية في طبرستان وديلمان وجيلان، ط. بيروت 1987.

الصيرفي (علي بن منجب): الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة 1923.

الطبري (محمد بن جرير) (ت. 310هـ/922): تاريخ الرسل والملوك، ليدن 1879-1901.

ابن طولون (محمد): إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، ط. دمشق 1964.

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد):

1- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيقي، دمشق 1988.

2- الإنصاف والتحري (نشر في داخل كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء).

3- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيقي، دمشق 1997، وما تعلق بالحروب الصليبية في الموسوعة الشاملة.

ابن عساكر (علي بن الحسن):

تاريخ مدينة دمشق: مخطوطة المكتبة الظاهرية: 3368/2، 3450/6، 3372/8، المجلد الأول والمجلد الثاني، حققهما صلاح المنجد، دمشق 1951، المجلد العاشر حققه أحمد دهمان، دمشق 1963، (تراجم لشخصيات من عصر الحروب الصليبية في الموسوعة الشامية). هذا وطبع الكتاب بأكمله في بيروت من قبل دار الفكر. كما سلفت طباعة مختصرة للنويري في دار فكر دمشق.

العظيمي (محمد بن علي): تاريخ العظيمي، ما تعلق بالحروب الصليبية في الموسوعة الشاملة.

العمري (ياسين بن خير الله): الدر المكنون في مآثر الماضية من القرون، المتحف البريطاني، Add.23، 312.

ابن العميد (جرجس): تاريخ المسلمين، ليدن 1925، أخبار الأيوبيين، ط. دمشق 1958.

العيني (البدر محمد بن أحمد): ما تعلق بالحروب الصليبية في الموسوعة الشاملة.

الغزالي (أبو حامد): التبر المسبوك في نصيحة الملوك، القاهرة 1968.

الفارقي (ابن الأزرق): تاريخ الفارقي، قسم تاريخ الأراتقة في الموسوعة الشاملة.

أبو الفداء (إسماعيل بن محمد بن عمر):

1- تقويم البلدان، باريس 1840.

2- المختصر في أخبار البشر، ما تعلق بالحروب الصليبية في الموسوعة الشاملة.

الفردوسي (أبو القاسم): الشاهنامه، ترجمها نثرا الفتح بن علي البنا اري، حققها الدكتور عبد الوهاب عزام، القاهرة 1932.

ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد): رسالة ابن فضلان حققها سامي الدهان، دمشق 1960.

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت 1960.

ابن القلانسي (حمزة): تاريخ دمشق (تحقيقي)، دمشق 1983.

الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد): كتاب ديوان لغات الترك، استنبول 1333.

ابن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، القاهرة 1933.

مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمتي في الموسوعة الشاملة.

مجهول: حوادث السنين، مكتبة أحمد الثالث، 2981.

مسكويه (بن محمد): تجارب الأمم، طهران 2000.

المقدسي (محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم، ليدن 1877.

المقريزي (أحمد بن علي) (ت. 845هـ/1441):

1- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، الجزء الثالث، في الموسوعة الشاملة.

2- خطط المقريزي، القاهرة 1906-1908.

3- المقفى مجلد باريس، تراجم أعلام الحروب الصليبية في الموسوعة الشاملة.

ابن المقفع (ساويروس): تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، القاهرة 1959.

الملطي (عبد الباسط بن خليل): نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، ط. القاهرة 1987.

منجم باشي (أحمد بن لطف الله): تاريخ رئيس المنجمين، مكتبة نور عثمانية 3171.

المنصوري (بيبرس): مختار الأحبة، ط. القاهرة 1992.

المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى): سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق محمد كامل حسين القاهرة 1949.

ابن ميسر (محمد بن علي): في الموسوعة الشاملة برواية المقريزي.

النرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر): تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية: أمين بدوي ونصر الله الطرازي، القاهرة 1965.

ابن الهبارية (أبو يعلى محمد بن محمد): ديوان الصادح والباغم، القاهرة 1292هـ.

ابن أبي الهيجاء: تاريخ ابن أبي الهيجاء، المكتبة الأحمدية بتونس رقم 9514، وسوف أنشره في الموسوعة الشاملة.

ابن الوردي (عمر): تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة 1868.

ابن واصل الحموي (محمد بن سالم):

1- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، المجلد الأول حققه جمال الدين الشيال، القاهرة 1953.

2- التاريخ الصالحي في الموسوعة الشاملة.

اليافعي (محمد بن عبد الله): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، حيدر أباد 1919.

2) المراجع:

أمين (حسين): تاريخ العراق في العصر السلجوقي. بغداد 1965.

التميمي (رفيق): الحروب الصليبية، القدس 1945.

الجندي (سليم): تاريخ المعرة، دمشق 1963.

الزركلي (خير الدين): الأعلام، الطبعة الثانية، القاهرة.

زكار (سهيل): الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، صدر منها حتى الآن سبعون مجلدة، دمشق 1993-2003.

سالم (السيد عبد العزيز): طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية 1967.

سرور (محمد جمال الدين): النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، القاهرة 1964.

الضابط (شاكر صابر): موجز تاريخ التركمان في العراق، بغداد 1960.

الطباخ (محمد راغب): إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب 1923-1925.

طلس (محمد أسعد): الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب دمشق 1956.

عاشور (سعيد عبد الفتاح): الحركة الصليبية، القاهرة 1963.

العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى، ط. بيروت 1969.

عبد السيد (حكيم أمين): قيام دولة المماليك الثانية، ط. القاهرة 1967.

العريني (السيد الباز): مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة 1962.

غرايبة (عبد الكريم): العرب والأتراك، دمشق 1961.

الغزي (كامل بن حسين): نهر الذهب في تاريخ حلب، حلب 1921.

قاسم (عبده قاسم): الأيوبيون والمماليك، ط. القاهرة 1996.

كحالة (عمر): معجم المؤلفين، دمشق 1957-1961.

الكروي (إبراهيم): البويهيون والخلافة العباسية – الكويت 1982.

المعاضيدي (خاشع): دولة بني عقيل في الموصل، بغداد 1968.

المكتب المركزي للإحصاء في سورية، التقسيمات الإدارية في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1968؟

3) المراجع الأجنبية:

- Bar Hebreaus (Abu'l-Faraj Son of Aron)، History of the world،English translation by Ernest A، wallis Budge، Oxford 1932.
- Comnena، Anna، the Alexiad، English Translation by E، Dawes، London 1969.
- Mustawfi (Hammd-Allah) Nuzhat-Al-Qulob. English Translation، London 1919.
- Nizam Al-Mulk، The book of Government، English Translation by Harbert Drabe. London 1960.
- Psellus (Michael) Fourteen Byzantine Rulers (Eng. Trans. Penguin Ed، london 1966).
- Archer، T، a، The crusades، London 1894.

ناجي (عبد الجبار): الإمارة المزيدية، البصرة 1970.

- Atiya، Aziz، The crusades، Historiography and Bibliography 1962.

Barthold (W) :

1- Four studies on the history of central Asia، English Translation; Liden 1962.

2- Turkestan down to the Mongol invasion، English Translation، London، 1968.

- Bosworth (Clifford Edmend):

1- The Ghaznavids، Edinburtgh، 1963.

2- The Islamic Dynasties، Edinburtgh 1967.

- Cahen (Claude):

1- Mouvements Populaire ET Autonomisme Urbains dans I' Asie Musulmane du Moyen Age، I، Arabica vol. V.pp 225-250، 1958.

Lam (Harold)، The Crusades، Ironmen and peasant in Persia، Oxford 1969.

Lewis، B. The Assassins، London، 1967.

Millo، Clarles. The History of the crusades، Philadelphia، 1944.

Ostragosky. D. History of the Byzantine state، Eng. Trans. J. Hussey. Oxford 1968.

Pearson .J.D. Idex Islamicus، Cambridge 1961، 1962، 1967.

Penoud، Regime، The crusades، Eng. Trans. New York 1964.

Rice (Tamara Talbot). The Sljuks، London 1966.

Rosenthal، F.A History of the Muslim ،Histography، Leiden، 1968.

Runciman، Steven، A History of the crusades، Penguin Eden.

Segal، J.B. Edessa، The blessed city، Oxford 1970.

Smail، R.C. Crusading warfare، 1097-1193. Cambridge، 1967.

2- Pre Ottoman Turkey (Eng. Trans.) London 1969.

3- D. Souvaget's introduction to the History nf Muslim East، (Recast، California، 1965):

1- Cambridge Medieval History، vol .IV. Ed Jaon M. Hussey، Cambridge، 1966-67.

2- Cambridge History of Islam، Cambridge 1970.

3- Cambridge History of Iran. Vol. V. Cambridge 1968.

Cohn، Norman، The pursuit of the Millenum، London 1970.

Dunlop. (D.M): The History of the Jewish Khazars، New York.

Ederhard Wolfram، A History of China، London 1967.

Ensyclopaedia of Islam: New Eden. London 1960.

Historians of the Middle East،Ed. B. Lewis and P.m. Holt، Oxford 1964.

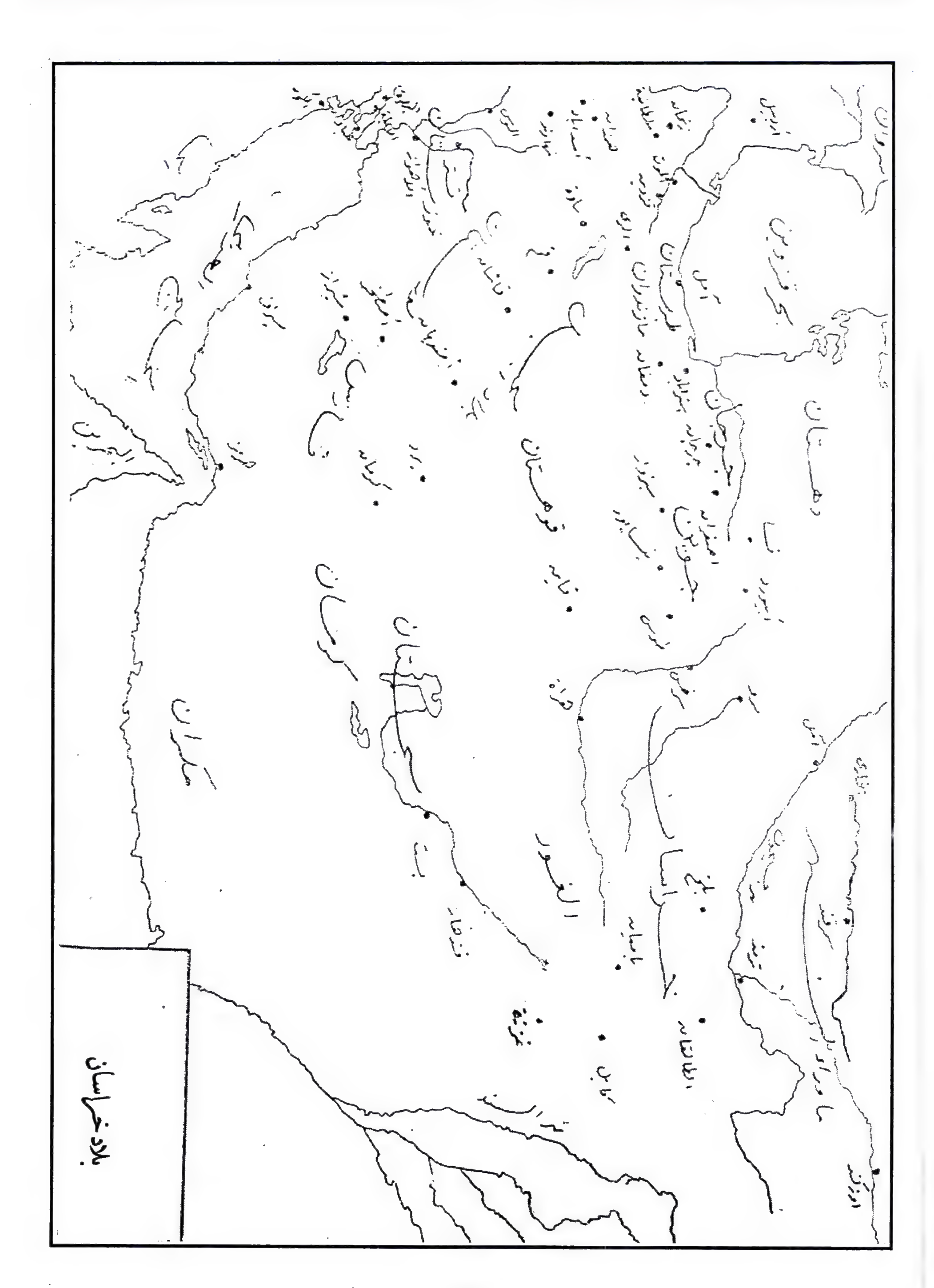
A History of the crusades، I، Ed. K.M. Setton، Philadelphia 1955.

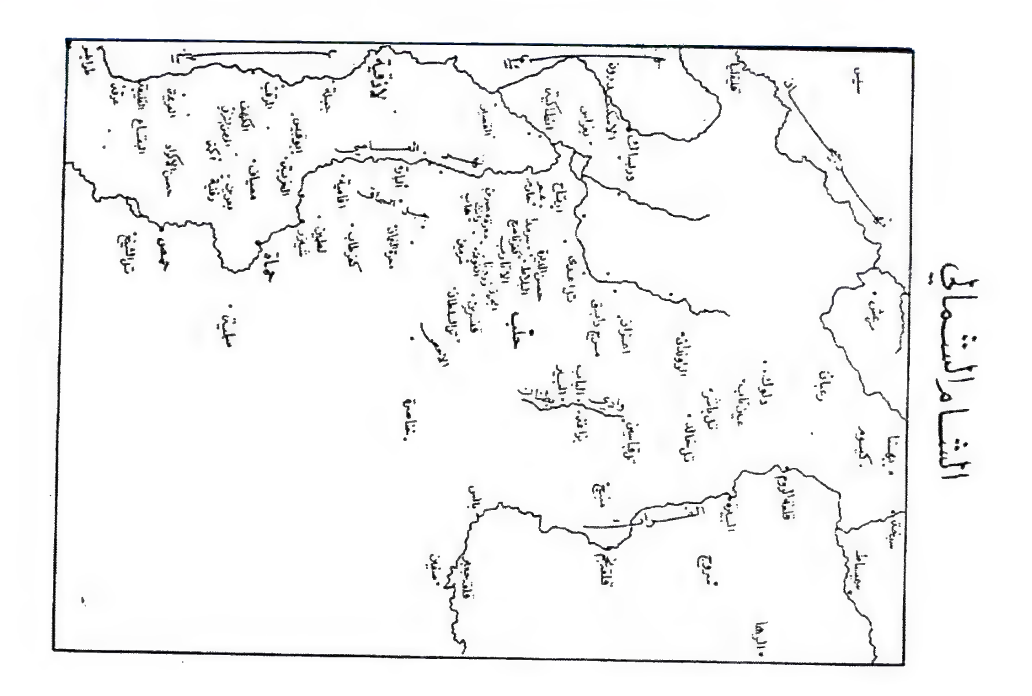
Kabir (Mafizullah). The Buwayhid Dynasty of Baghdad. Calcutta 1964.

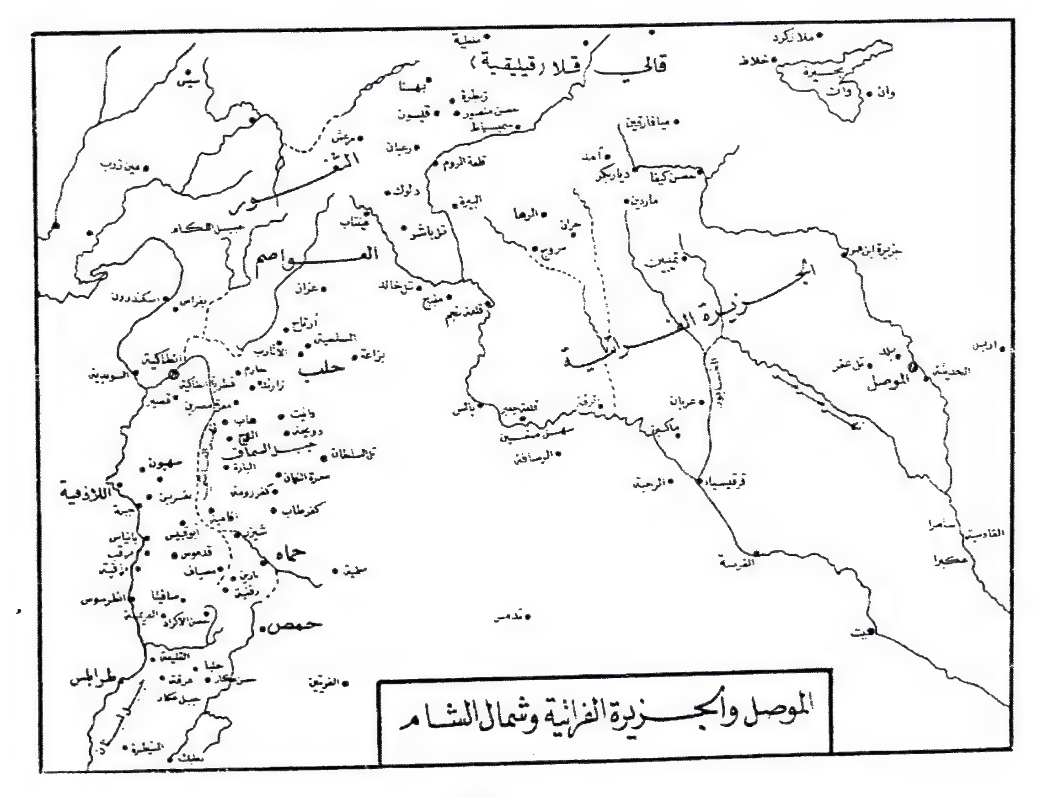
Le strage (Guy):
1- The land of the Eastern Caliphate، London 1966.
2- Palestine under the Muslim ،Beirut 1965.

Vasiliev، A، History of the Byzantine Empire، Winsconsin، 1964.

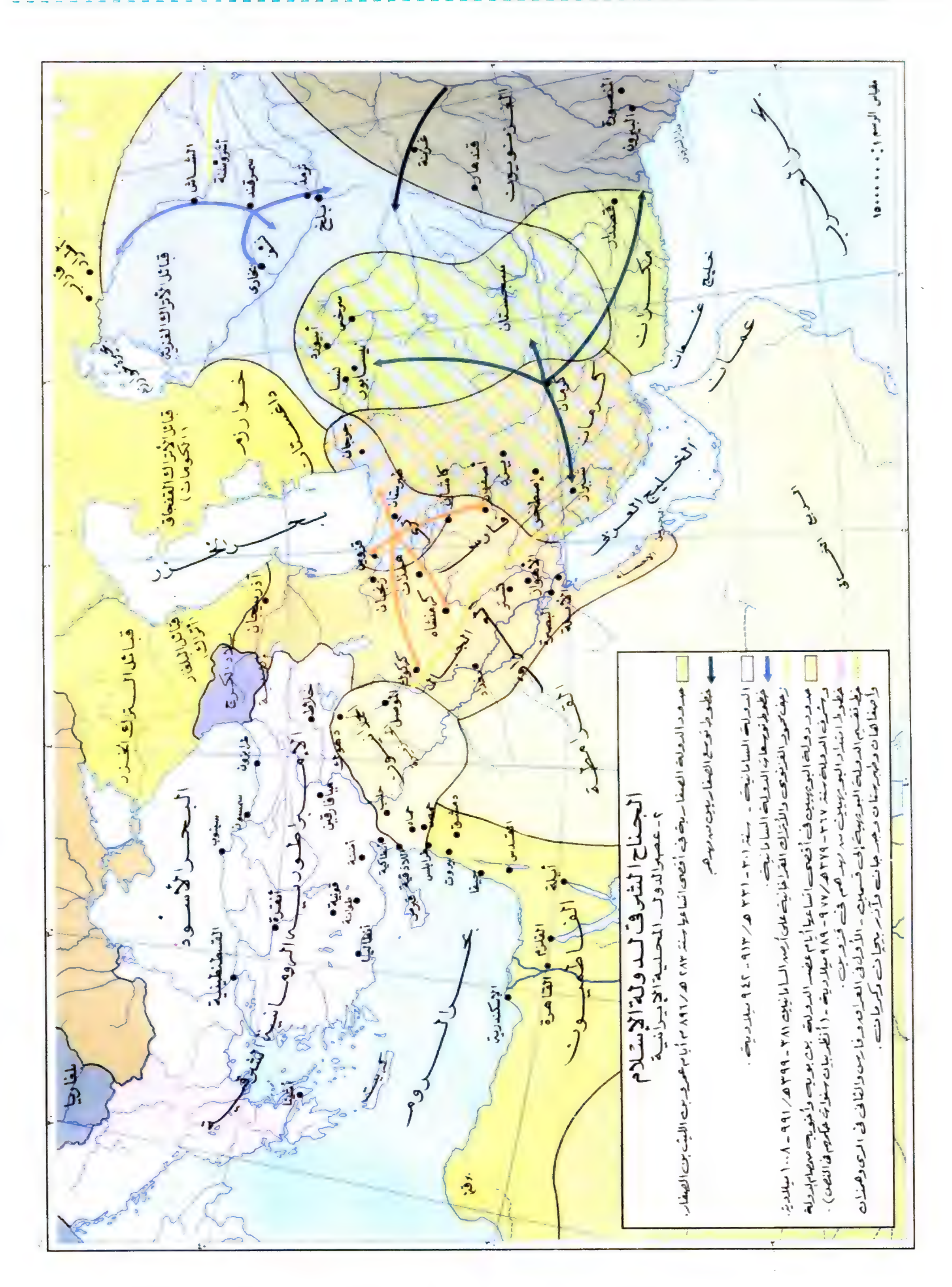
Zakkar، Suhayl، The Emirate of Aleppo، 1004، Beirut 1971.


بلاد خراسان

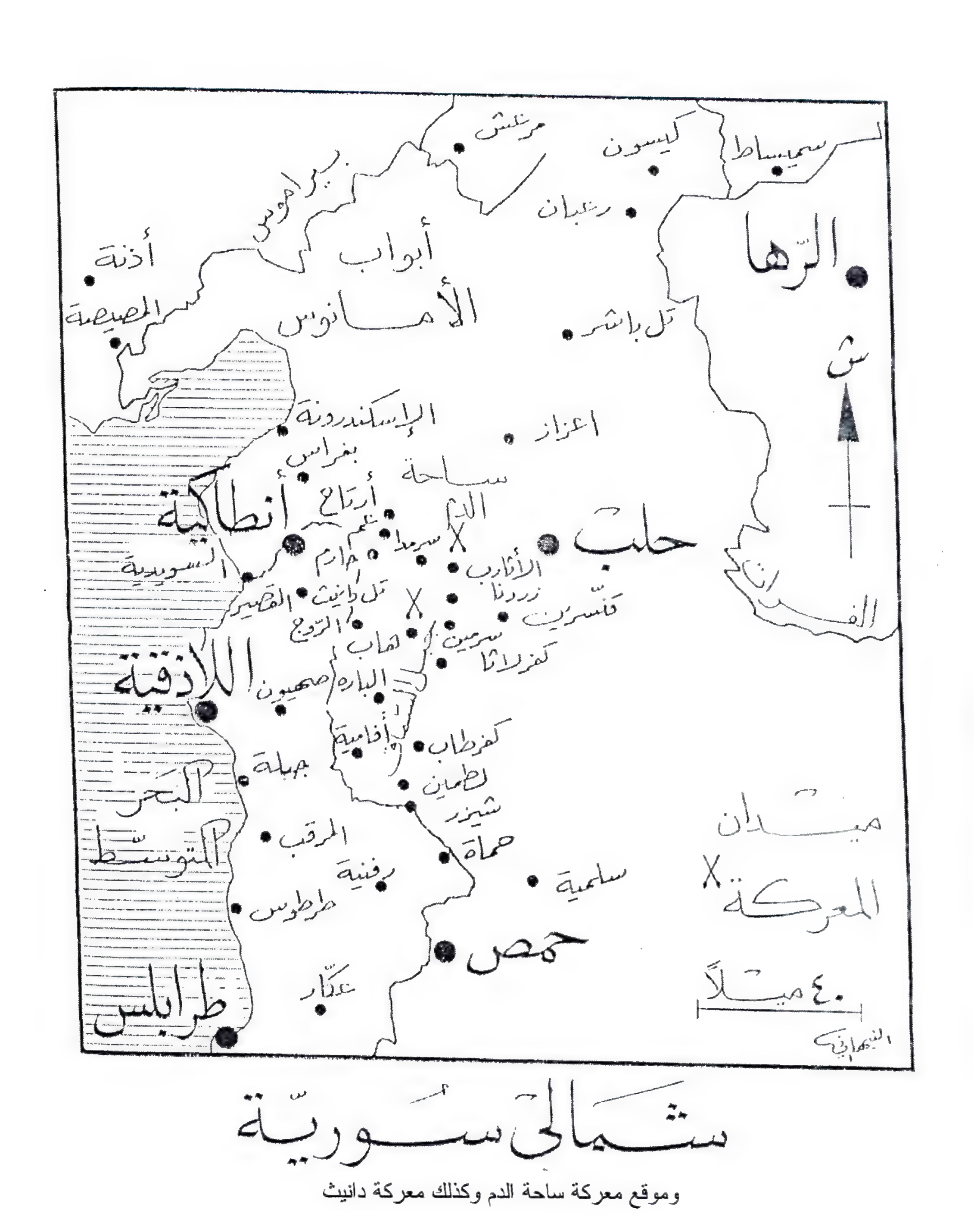




الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام

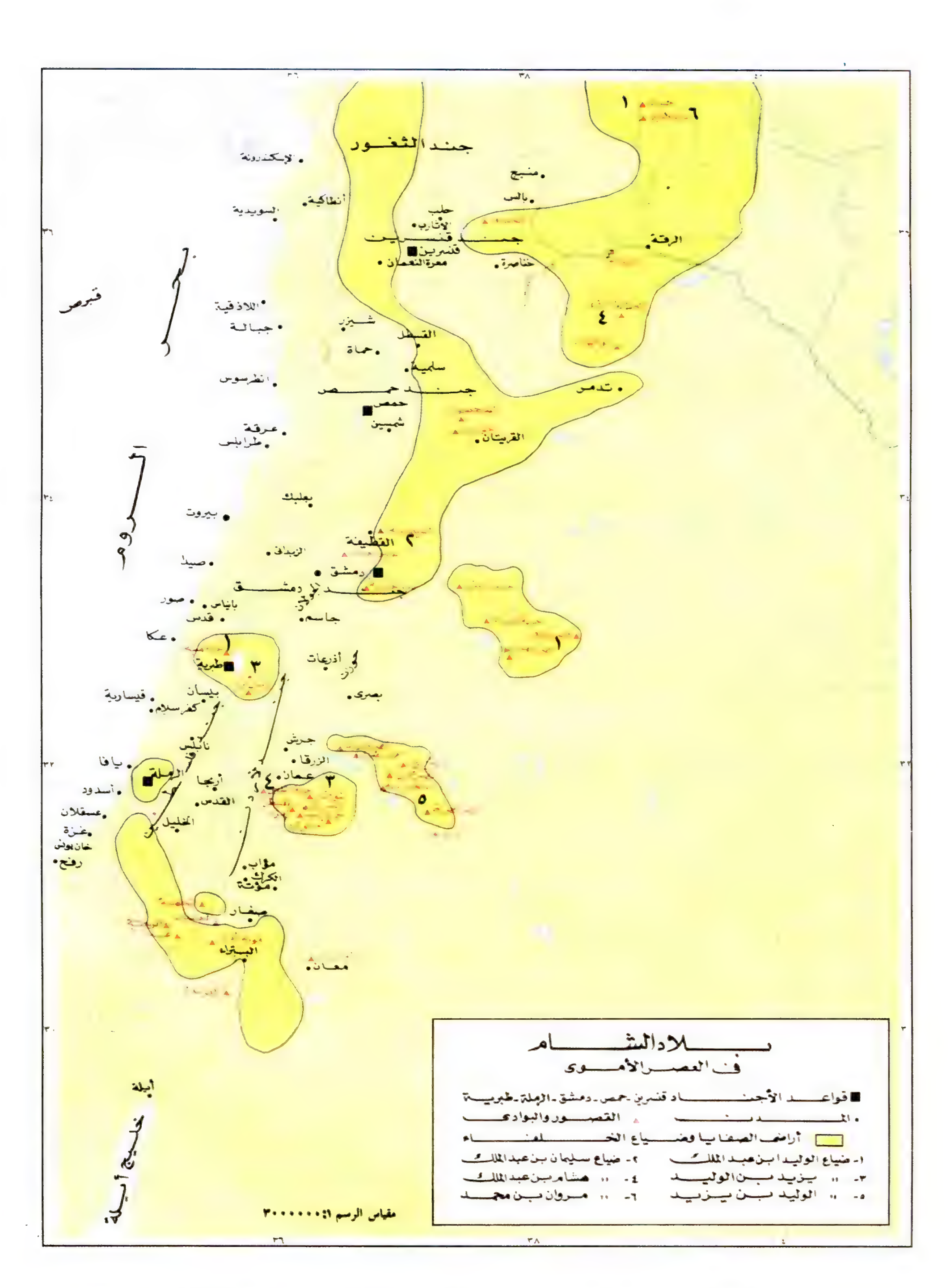


المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984



شمالي سورية

وموقع معركة ساحة الدم وكذلك معركة دانيث



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام – د. حسين مؤنس مطبعة الزهراء – القاهرة 1984

الكيانات المستقلة في الجزيرة العربية

اليمن

مقدمة:

يرجع بروز الكيانات المستقلة في الخلافة العباسية إلى نهاية القرن الثاني للهجرة/القرن الثامن م/و لم يكن ذلك نتيجة ضعف الحكم المركزي وانحلال النفوذ الخلافي بقدر ما هو تعبير عن طموح مختلف الولايات في المشرق والمغرب ، لتحقيق أهدافها الإقليمية ونزعات سكانها لممارسة النفوذ على المستوى المحلي. وقد ظهر هذا الشعور الإقليمي والذاتي في العديد من الولايات ، منها شبه الجزيرة العربية التي كانت مركز الحكم منذ نشأة الإسلام في العهدين: المحمدي و الراشدي قبل أن تفقد دورها في العهد الأموي. و يحتل اليمن موقعا متميزا في هذا الإطار على أساس أنه كان ـــ لمدة زمنية طويلة قبل الإسلام ـــ مقر عدة دول و حضارات مشهورة لا مجال لإنكارها.

وسوف نركز في دراستنا هذه على كيانين اثنين هما دولة بني زياد في اليمن الأسفل وعاصمتها مدينة زبيد ، و قد أسست في بداية القرن الثالث هـ / القرن التاسع م ، واستمرت إلى حدود القرن الخامس هـ/القرن الحادي عشر(204ـــ 409 هـ/ 819 ـ 1018م) ؛ لنحل محلها دولة بني نجاح الحبشية (412ـــ 551 هـ/ 1021 ـ 1156م).

أما الكيان الثاني فيتمثل في دولة بني يعفر في اليمن الأعلى وعاصمتها صنعاء أو شبام كوكبان، ويرجع تأسيسها إلى النصف الثاني من القرن الثالث هـ/القرن التاسع م واستمرت إلى نهاية القرن الرابع هـ/ بداية القرن الحادي عشر م (213ـ 393 هـ/ 826 ـ1002م). والجدير بالذكر أن دراستنا ستشمل خصوصيات الدولتين و تطورهما السياسي في إطار بلاد اليمن كلها وعلاقتهما مع مختلف الأطراف بما فيها الخلافة العباسية في العراق. كما لا ننسى بروز كيانات أخرى ، مثل الإمامة الزيدية في صعدة و الدولة الصليحية في صنعاء ، ثم في ذي جبلة (439-532هـ/ 1047ـ1138م)وإمارة السليمانيين في المخلاف السليماني (462 569هـ/ 1069ـ 1173م) والدولة الزريعية في عدن (473 ـ 569هـ/ 1080ـ 1173م) . لكننا لن نتعرض لها إلا بصفة غير مباشرة).

1) ا لدولة الزيادية في زبيد : (204-409 هـ/ 829 ـ 1018م):

أ) الأوضاع العامة في اليمن في نهاية القرن الثاني للهجرة / القرن الثامن م:

تؤكد كل المصادر اليمنية أن بلاد اليمن كانت في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث هـ / القرن الثامن وبداية القرن التاسع للميلاد محل صراع بين قوتين سياسيتين متنافستين هما :الولاة العباسيون في صنعاء و الزياديون في تهامة.

من ناحية كان اليمن الأعلى (منطقة الجبال) وعاصمته صنعاء ، يخضع للخلافة العباسية ، و كان يديره والٍ يعيَّن بصفة منتظمة من طرف بغداد ، ومن ناحية أخرى أصبح اليمن الأسفل تحت نفوذ أسرة حاكمة تعرف بالأسرة الزيادية ، و ذلك منذ أن قرر الخليفة المأمون سنة 204 هـ / 819م تعيين محمد بن زياد ليصبح واليه الجديد في منطقة التهائم ، و طلب منه في نفس الوقت تأسيس مدينة جديدة هي ــ زبيد ــ لتكون عاصمته.

و نضيف إلى جانب هاتين القوتين طرفين آخرين دخلا حلبة الصراع للسيطرة على البلاد -أو على قسم منها- و نقصد بني يعفر الذين كونوا سلالة حاكمة استطاعت الحصول على استقلالها من الخلافة العباسية سنة 258 هـ/871م ، وكانت عاصمتهم مدينة شبام كوكبان.

أما الطرف الآخر فيتمثل في بني الرس الزيديين الذين - تمكنوا بقيادة الإمام الهادي إلى الحق - من تأسيس ما يسمى بالإمامة الزيدية في مدينة صعدة في نهاية القرن الثالث هـ/القرن التاسع م

تشير المصادر العربية -واليمنية بوجه خاص - إلى أن بلاد اليمن كانت تشارك في جميع الأحداث السياسية والدينية التي تهم الخلافة العباسية آنذاك. ونذكر في هذا النطاق السياسة الدينية الجديدة التي انتهجها الخليفة العباسي المأمون إزاء الشيعة بتعيينه موسى الرضا وليا لعهده ، وما كان لها من انعكاسات مباشرة في اليمن ؛ إذ تم تعيين إبراهيم الملقب بالجزار واليا. والجدير بالذكر أن الوالي حمدويه بن ما هان الذي كان من المفروض أن يقبل قرار الخليفة بتعويضه رفض تسليم الحكم لمنافسه الطالبي بصنعاء ، و أعلن الثورة على المأمون ، وقام بخلعه كما أعلن استقلاله في اليمن. و رغم القضاء على هذه الثورة فإن الأوضاع في اليمن في تلك الفترة تبين مدى ارتباط هذه الولاية بما يحدث في العراق ، و في كامل الخلافة العباسية.

ب) الأوضاع في تهامة اليمن :

تشير المصادر اليمنية بصفة خاصة إلى أن الأوضاع كانت مضطربة في منطقة تهامة في بداية القرن الثالث هـ/ القرن التاسع م ، من جراء ثورة عك و الأشعريين . و تؤكد في هذا الصدد أن الخليفة المأمون أرسل ابن زياد و رفقاءه لقمع هذه الثورة وضاعف من عدد الجنود الذين كلفوا بهذه المهمة ، وأرسلوا إلى المنطقة سنة 205 هـ/ 820 م (1000 أو 2000 فارس منهم 700 أو 900 من خراسان) .

نلاحظ من خلال هذه المصادر الارتباط الوثيق بين إرسال هذه القوة العسكرية الضخمة ودعم النفوذ الزيادي في اليمن الأسفل ، و في منطقة حضرموت البعيدة التي لم تكن خاضعة آنذاك للسلطة العباسية.

من جهته ينقل لنا ابن المجاور في كتابه " صفة بلاد اليمن " بعض المعطيات المفيدة ، منها أن أرض زبيد كانت مسرحا لقلاقل يقوم بها السكان المنتمون إلى الأشاعر. وفي خلافة الأمين " خرج مشايخ القوم إلى العراق فعرفوا الخليفة حالهم وخبرهم فعين خمسة منهم لتولي الأمر بصفة متتابعة ، لكن أربعة ماتوا في طريق العودة من بغداد إلى اليمن ، وعزل الخامس نفسه خوفا من الموت، وولاها رجلا من بني عمه . ويؤكد ابن المجاور في هذه الرواية المنقولة عن عبد الرحمن بن أحمد بن الراجي " أن الرجل لما دخل البلاد جباها و أنفذ بمال من خراج البلد إلى مدينة السلام. فلما كان ما كان من قصة الأمين و قتله وتولي المأمون الخلافة ، عصى الرجل المتولي في اليمن وتغلب على البلاد وقطعها وصار يرفع الدخل إلى خزانته ".

ما يمكن استنتاجه من هذه الرواية التي لم نجد لها ما يدعمها في المصادر العربية واليمنية المتأخرة هو أن ابن المجاور الذي ألف كتابه في حدود سنة 630 هـ/ 1232م - وكان قد زار مدينة زبيد في عدة مناسبات - ربما خلط بين الأحداث ، كما أن الوالي الذي لم يذكر لنا اسمه ، لعله ابن ماهان الذي رفض تسليم منصبه لإبراهيم الجزار- و كان ثار ضد المأمون و أعلن استقلاله عن العباسيين- ومما يدعم هذه الفرضية هو أن ابن ماهان طرد بالقوة من اليمن بعد هزيمته سنة 205هـ/820م من طرف القوات العباسية بقيادة الجلودي. و الجدير بالذكر هو أن هذه الهزيمة - التي كانت نتيجتها المباشرة استرجاع السيطرة العباسية على اليمن الأعلى و تعيين وال جديد بصنعاء (إبراهيم الإفريقي) - تتزامن مع ثورة عك و الأشعريين في تهامة. و قد تواصلت الاضطرابات في هذه المنطقة بعد سنة 204هـ/ 819م بقيام ثورة علوية سنة 207هـ/ 823م يتزعمها عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب.

إجمالا يمكن القول : إن ثورة الأشعريين وعك الذين كانوا متشيعين لها علاقة وثيقة بعملية اختيار محمد بن زياد ـــ المعروف بعدائه الشديد للشيعة ـــ وإرساله إلى تهامة اليمن سنة 204هـ/ 819م ، أي مباشرة بعد موت موسى الرضا وتراجع الخليفة المأمون عن سياسته الدينية الموالية للعلويين.

كذلك يبدو أن تأسيس الدولة الزيادية في زبيد بأمر من بغداد يستجيب لعاملين اثنين: من ناحية رغبة الخلافة العباسية في القضاء على الثورات الشيعية في تهامة ، ومن ناحية أخرى العمل على إبقاء السيادة السياسية لها في بلاد اليمن التي برزت فيها منذ بداية القرن الثالث هـ/ القرن التاسع م بوادر الاستقلال الإقليمية.

ج) تأسيس زبيد:

تجمع كل المصادر اليمنية التي تعتمد على رواية عمارة علي أن محمد بن زياد شرع في تأسيس زبيد يوم الاثنين الرابع من شعبان سنة 204 هـ / 24 جانفي 820 م ، مباشرة بعد تأمين منطقة تهامة ، و قمع الثورات التي قامت بها. و من المعلوم أن زبيد مدينة شكلها مدور على غرار العاصمة بغداد ، وهي تقع بين واديين ـــ وادي زبيد في الجنوب ووادي رمع في الشمال ـــ على بعد 25 كيلو متراً من ساحل البحر الأحمر في منطقة تهامة المنبسطة ، و يبلغ ارتفاعها 141 مترا. وكان لموقعها المتميز على الطريق الرابطة بين عدن و مكة أهمية بالغة ، من حيث كونه أحد طرق الحج اليمنية من ناحية ، وكونه طريقاً تجارياً تمر منه البضائع الواردة من بلاد الهند والمتوجهة إلى البلدان المتوسطية (مصروالشام). إذ أكسبها هذا الموقع في القرنين الثالث و الرابع هـ/ التاسع و العاشر م ازدهارا اقتصاديا كبيرا. غير أن عمارة اليمني وبقية المصادر التاريخية والجغرافية اليمنية والعربية لا تورد لنا بصفة جلية أسباب تأسيس المدينة من طرف محمد بن زياد ، كما لا تذكر ظروف اختيار الموضع واستقرار السكان فيه ، و لا تعلل التسمية.

إن المؤلف الوحيد الذي نقل لنا روايات مختلفة عن هذه المواضيع المهمة هو ابن المجاور ، والذي ينفرد بإيراد ما لا يقل عن أربع روايات أو احتمالات تتعلق باسم المدينة فقال فيها : " حدثني أحمد بن علي بن عبد الله الجماعي الواسطي قال: ملك اليمن ملك من التتابعة يسمى الربا فسأل رجل آخر فقال : ما فعل الله بزبا فقال : بيد ، أي هلك ، فسمي البلد زبيد."

" و قال آخرون: إنما سميت زبيد زبيد ؛ لأن لها واديا يسمى زبيد ، فسميت البلد باسم الوادي. و قال آخر: بل كانت الإبل ترعى في العقدة و في جمع الإبل ناقة تسمى زبيد عضت الناقة في العقدة فعرف الموضع باسم الناقة. و قال

آخرون: بل كانت امرأة تسكن رأس وادي زبيد تسمى زبيدة ، قال ابن المجاور: ما أظنها إلا زبيدة بنت جعفر ابن أبي جعفر المنصور. فإن محمد المنصور بن زياد بنى لها دارا ما بين وادي زبيد و رمع وهي سعت في بناء المكان في دولة أمير المؤمنين الأمين."

يبدو من خلال هذا النص الفريد من نوعه أن الروايات المتعلقة بتسمية المدينة تشير في معظمها إلى قدم المدينة. من ناحية أخرى يتعرض ابن المجاور إلى بناء زبيد و ظروف تأسيسها ، فينقل روايتين مختلفتين في هذا الشأن. تفيد الرواية الأولى أن المدينة أسسها ابن زياد في عهد الخليفة المأمون ؛ و ذلك لوضع حد لخروج الأشاعرة عن طاعة العباسيين.

أما الرواية الثانية فجاءت كما يلي: " ولى الخليفة محمد الأمين محمد بن زياد بن منصور اليمن ، فجاء محمد بن زياد إلى أرض الحصيب ، فوجد قوما يقتتلون في كل يوم إلى ضحوة نهار ويفترقون ، فدخل بينهم و أصلح بينهم وبنى قصرا على باب غلافقة ، فسكن فيه واشترى ألف عبيد ، و يقال: بل جاء بعساكر عظيمة من العراق و قال لهم: إذا دخل القوم للضيافة فالسيف عليهم. ونادى في مشايخ البلاد و كبار القبائل من الأشاعر ، وقدم لهم طعاما قد أحضر، فلما اشتغلوا بالأكل و التناول لبست العبيد رركبوا السيف من حضر فلم ينج منهم أحد ، و ركب على من كان حولهم من العربان من أهل القرى و العمارات ، ولا زال على حاله إلى أن رجعت الخلق تستجير به ، فكل من كان في طاعته يترك على رأسه أثر وهو قلنسوة من خوص النخل... و يعطيه زوج بقر و مهار.. يعني لحرث الأرض فحرثت الخلق وعمر المكان و بقي الأثر و المهار سنة إلى الآن" .

و يورد رواية ثالثة مفادها أن ابن زياد " لما تعدى مكة صار كل مترل يترله يأخذ تراب أرضه يشمه و يبني في ذلك المترل قرية , ولا زال على حاله إلى أن قدم أرض الحصيب ، فأخذ من أرضه كف تراب فشمه ، و قال لأهل الدولة : أقيموا بناها هنا؟ قالوا: و لم ؟ قال : لأن هذه الأرض أرض نزه زبدة هذه البلاد . قالوا: و بم صح عندك ذلك ؟ قال: لأنها طيبة بين واديين يعني وادي زبيد و وادي رمع ، فلما سكن المكان بناه مدينة سماها زبيدا ، و ما اشتق زبيد إلا أنها الزبدة ، على ما جرى في اليوم الأول".

إن هذه المعطيات تكتسي أهمية بالغة بالنسبة لمعرفة ظروف تأسيس مدينة زبيد حيث إن ابن المجاور هوالمؤرخ الوحيد الذي تطرق للحديث عن ذلك ، و قدم ـــ كما أشرنا سابقا ـــ روايات عديدة لم نجد لها أثرا في المصادر الأخرى ـــ باستثناء الرواية الأولى ـــ التي نقلها عمارة و بقية المؤرخين اليمانيين الذين تلوه ، من أمثال ابن عبد

المجيد و الخزرجي و الجندي وابن الديبع .لكن هذه المعلومات تطرح العديد من التساؤلات حول أصل ابن زياد ونسبه ، ثم قضية اختياره للحصيب لإقامة مدينة زبيد .

يرجع المؤرخون أصل ابن زياد إلى العائلة الأموية ، إما عن طريق عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان ـــ والي العراق في عهد الخليفة يزيد بن معاوية وابن والي العراقين زياد بن أبيه الذي ألحق بأبي سفيان أو عن طريق يزيد بن معاوية نفسه .

أما الجغرافي المقدسي (المتوفى سنة 380 هـــ/ 990م) فينسب السلالة الزيادية إلى قبيلة همدان ، وهي معلومة ينفرد بها ، لكن المؤرخ والجغرافي والنسابة اليمني أبا الحسن الهمداني لا يذكر ذلك في مؤلفاته ، وهو أمر يثير الاستغراب حيث إنه ينتمي إلى نفس القبيلة التي خصص لها جزءا كاملا من مصنفه الإكليل. من جهته يورد الواسطي صاحب كتاب " تاج العروس " رواية أخرى مفادها أن ابن زياد هو مجرد مولى للخليفة العباسي المهدي وأن هارون الرشيد هو الذي أرسله إلى اليمن لتأسيس مدينة زبيد . إذن يصعب علينا تحديد نسب ابن زياد بصفة قطعية ونهائية لتعدد الروايات و غموضها حول هذا الموضوع.

بالنسبة لاختيار موضع الحصيب لتأسيس مدينة زبيد ، فابن المجاور يقدم لنا ابن زياد في صورة الرجل الذي قام بتأمين منطقة تهامة ، وأقام فيها مدينة جديدة سماها زبيد. في الحقيقة: إن هذه الصورة تتماشى مع ما ذكرته المصادر اليمنية ـــ ومن ضمنها عمارة ـــ التي أكدت على الاضطرابات التي عرفتها تلك المنطقة في بداية القرن الثالث هـ/القرن التاسع م ، كما أشرنا إلى ذلك.

إذن المهم في رواية ابن المجاور هو التركيز على الموقع الذي اختاره محمد بن زياد لإقامة مدينته. الحصيب هو اسم مكان قديم ذكرته المصادر اليمنية مثل الهمداني.

كما جاء في معجم ياقوت أن زبيد ـــ بفتح أوله و كسر ثانيه ـــ وهو اسم واد به مدينة يقال لها: الحصيب ، ثم غلب عليها اسم الوادي ، فلا تعرف إلا به ، وهي مدينة مشهورة أحدثت أيام المأمون.

تقع المدينة - كما أسلفنا القول - بين واديين ـــ وادي رمع و وادي زبيد ـــ في منطقة كثرت فيها المستنقعات في بداية الإسلام ، وقد استصلحت فيما بعد ، وتحولت أراضيها إلى مراع خضراء. كما كانت المنطقة مأهولة بسكان من الأشاعر وعك ، و هما قبيلتان تنتميان إلى المجموعة الجنوبية القحطانية عن طريق الفرع الحميري.

ومما يذكر أنهما قد دخلتا في الإسلام في أواخر الفترة المحمدية (السنة 9هـ/631 م) لكن المصادر التاريخية تشير إلى القلاقل العديدة التي

كانت القبيلتان تثيرانها في وجه السلطة السياسية التي تمثل الحكم العباسي في تهامة اليمن. وقد كنا ذكرنا في هذا الإطار الأعمال العسكرية التي قام بها ابن زياد في بداية القرن الثالث هـ/ القرن التاسع م ضد هذه القبائل قبل أن يشرع في تأسيس مدينة زبيد ، و يحولها إلى عاصمة الأسرة الزيادية الجديدة التي كونها.

كيف تطورت المدينة في العهد الزيادي؟

وما هي أبرز مراحل الدولة الزيادية ؟

د) بنو زياد في زبيد و تطور دولتهم:

تعتبر الدولة الزيادية من أقدم الكيانات المستقلة في اليمن وفي كامل المشرق ، ويرجع قيامها — كما أشرنا سابقا — إلى محمد بن زياد الذي تفيد جل المصادر التاريخية اليمنية أنه تولى الحكم في زبيد من سنة 204 هـ/ 819م إلى سنة 245 هـ/ 859 م .

لقد تمكن خلال هذه المدة الطويلة من السيطرة على منطقة تهامة و بعض المناطق الموجودة في اليمن الأعلى. و لا نتصور أن ما ذكره ابن المجاور وغيره من المؤرخين اليمنيين — اعتمادا على رواية عمارة — عن قيام هذا الأمير من امتلاك " إقليم اليمن بأسره من الجبال والتهائم " من الأمور المقبولة. لكن المهم هو أن ابن زياد نجح في إرساء دعائم الأسرة الزيادية التي بقيت على رأس الدولة لمدة قرنين من الزمن ، كما قام بإنشاء عدة معالم ، مثل القصر والحصون والمساجد في المدينة العاصمة زبيد. من جهة أخرى نجح في دعم الأمن في زبيد ؛ لاستقطاب السفن التجارية القادمة من الهند و شرق إفريقيا و جلبها إلى ميناء غلافقة. وقد استفاد ابن زياد دون شك من ظروف تدهور الحكم العباسي الذي كان همه آنذاك إعادة النشاط للخليج العربي الفارسي ، وفعلا أصبح ميناء عدن الذي كان تحت سيطرة ابن زياد المحور الأساس لتجارة الشرق الدولية مستغلا من ناحية الاضطرابات التي حصلت في العراق في نهاية القرن الثالث هـ/ النصف الثاني من القرن التاسع م ، ومن ناحية أخرى ظهور الدولة الطولونية في مصر سنة 254 هـ / 866 م ، كما أن ازدهار زبيد كان مرتبطا أيضاً بازدهار عدن التي كانت لها علاقات تجارية مع الهند و الحبشة و موانئ البحر الأحمر.

و بعد موت محمد بن زياد سنة 245 هـ / 859 م انتقل الحكم إلى ابنه إبراهيم الذي استغلّ أحسن استغلال ضعف الخلافة العباسية في بغداد نتيجة مقتل الخليفة المتوكل سنة 247 هـ / 861 م ثم عزل المستعين سنة 252 هـ / 866م - لإعلان استقلاله في المنطقة.

وفعلا حكم الأمراء الزياديون اليمن الأسفل منذ ذلك الحين ، وركبوا بالمظلة التي تعتبر من أهم رموز الملك والسيادة في البلاد ، كما

قاموا بضرب السكة باسمهم ، واكتفوا بذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة.

لكن ابن خالدون يعتبر أن استقلال الزياديين الحقيقي في اليمن حصل في عهد الأمير إسحاق بن إبراهيم مباشرة بعد عزل الخليفة المستعين سنة 252 هـ/866م ، وهو تاريخ يندرج ضمن عهد الأمير إبراهيم بن محمد (245ـ289هـ/ 859 ـ901م).هذا الخطأ الذي ارتكبه مؤلف المقدمة يطرح قضية شائكة تهم ضبط دقيق لتاريخ حكم مختلف أمراء بني زياد. إن القطيعة الرسمية بين بني زياد والعباسيين حدثت بصفة فعلية سنة 289ـ 290هـ/ 902م وسنرجع إلى ذلك فيما بعد.

المهم هوأن المصادر اليمنية لا تذكر شيئا عن الأمير الزيادي الثالث ـ زياد بن إبراهيم بن محمد ـ الذي لم تستغرق مدة حكمه ثلاث سنوات (289ـ291هـ/901ـ903م) . وقام بالأمر بعده أخوه إسحاق بن إبراهيم وهو المكنى أبوالجيش الذي حكم ثمانين سنة (من سنة 291 هـ/903م إلى حدود سنة 371 هـ/ 908 م). هل يمكن أن نقبل برواية المصادر اليمنية حول شخصية هذا الأمير و مدة حكمه الطويلة؟

يشير المؤرخ اليمني محمد بن علي الأكوع ، أن الأمير الذي خلف زياد ابن إبراهيم هو أبو الحسن الذي كان على رأس الدولة الزيادية من سنة 291هـ/903م إلى حدود سنة 313هـ/925م ، أي في المدة التي شهدت بداية انحلال الإمارة الزيادية و سيطرة علي بن الفضل القرمطي على الجند وزبيد. والمعلوم أن القرامطة نهبوا العاصمة الزيادية زبيد واستباحوها عدة مرات ، (سنة 293هـ/906م، ثم سنة 297هـ/909م والمرة الثالثة سنة 300هـ/ 909 م).

و قد سبى جنود ابن الفضل في المرة الثانية ما لا يقل عن أربعة آلاف عذراء من المدينة ، و تم ذبحهن جميعا في الملاحيط الذي أصبح يسمى المشاحيط.

أما الأمير الخامس فيسمى إبراهيم ابن زياد بن إبراهيم بن محمد ، وحكم زبيد و الدولة الزيادية ثلاثين سنة (من 313هـ/925م إلى سنة 343 هـ/ 954م). و قد عاصر أسعد بن أبي يعفر أمير الدولة اليعفرية التي سنتحدث عنها فيما بعد . و قد ذكره المسعودي في مناسبتين كصاحب زبيد ، ولا سيما سنة 332 هـ/ 944 م مما يبين بصفة نهائية أن أبا الجيش ـ خلافا لما ذكرته أغلب المصادر اليمنية ـ لم يملك ابتداء من سنة 291هـ/ 903م . الأقرب إلى الصواب هو أن حكمه ابتدأ سنة 343 هـ/

954م ــ أي مباشرة بعد إبراهيم بــن محمــد- واستمر إلى حدود سنة 362هــ/ 973م.

ويدعم هذا الأمر ما جاء في كتــاب الــذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ومــن أن أبــا الجيش هذا قام سنة 359 هــ/969م بتقــديم هدية إلى صاحب بغداد عز الدولــة أبي المنــصور البويهي. تتمثل في مجموعة من الطرف اليمنية. من ناحية أخرى يذكر لنا ابن حوقل في كتابه صــورة الأرض ــ الذي تمت مراجعتــه الأخــيرة ســنة 378هــ/988م ــ أن صاحب اليمن آنذاك ينحدر من سلالة أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم ، و هذا يعني أن هذا الأخير قد مات منــذ مــدة. ويضيف ابن حوقل في نفس السياق أن سليمان بن طرف الحكمي ــ صاحب عثرــ والحرامــي ــ صاحب حلي ــ كانا يعترفان بسيادته ، ويخطبان باسمه قبل أن يحولا الخطبة باسم صاحب المغرب.

وإذَنْ هذه المعطيات تبين بصفة جليــة أن حاكم زبيد الذي خلف إسحاق قبل ســنة 378 هــ/ 988م كان نفوذه قويا في اليمن إلى حــد جعل جيرانه يخطبون له ويقرون له بالسيادة. أمــا صاحب المغرب فهو الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي حَوَّلَ سنة 362هــ / 973م مقر سلطانه إلى القاهرة في البلاد المصرية.

يصبح تاريخ حكام بني زياد بعد موت الأمير إبراهيم بن محمد سنة 291هــ / 303 م على النحو التالي :

ــــ أبو الحسن بن زياد بن إبراهيم ابن محمــد بن زياد: 291 ــ 313 هــ / 903 ــ 925م.

ــــ إبراهيم بن زياد بن إبراهيم بن محمد بــن زياد: 313 – 343هــ / 925 ــ 954م.

ــــ أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد: 343 ــ 362 هــ/ 954 ــ 973م.

هذه الصياغة الجديدة لتاريخ الزياديين تتــضارب كثيرا مع ما جاء به عمارة ومن بعده بقية المؤرخين اليمانيين ، ولا سيما فِي شــأن عهــد الأمــير أبي الجيش. ويترتب علي هذا أن تراجع نفوذ بني زياد المرتبط بطول حكم هذا الأخير يتطلــب منــا أن نتوقف قليلا لتقييم الأحداث.

النقطة الأولى تهم علاقات بني زياد ببني يعفــر: أغلب المصادر تفيد أن أسعد بن أبي يعفر الحوالي كان تحت طاعة أبي الجيش ، وعندما تغلب عليــه بقي يخطب له ، ويضرب الدرهم باسمه لكنه لا ينفذ إليه هدية ولا ميرة و لا ضريبة. و قد كــان أسعد على رأس الدولــة اليعفريــة منــذ ســنة 282هــ/895م وكانت إقامته في صــنعاء أو شبام كوكبان وحصلت له معارك مختلفــة ضــد

القرامطة وبني طريف من ناحية وضد القائد العباسي جفتم – الذي أرسل من بغداد واليا على صنعاء وضد الأئمة الزيدية– من ناحية أخرى . وقد توفي سنة 332 هـ/ 943م ، ولهذا لا يمكنه أن يكون معاصرا لأبي الجيش الذي لم يرتق إلى الحكم قبل سنة 343 هـ/ 954 م كما أسلفنا ولا شك أن الأمير المقصود هو من خلفائه ، كما يؤكد ذلك ابن خلدون الذي يشير إلى انتهاء سلطة أبي الجيش نتيجة تغلب أصحاب الأطراف عليه ، ومنهم بنو طريف و بنو أسعد.

من جهة أخرى نذكر أن المؤرخ و النسابة أبا الحسن الهمداني ، كان قد أسر سنة 315 هـ/927 م بأمر من الإمام الزيدي الناصر . وأفرج عنه صاحب صعدة إثر تدخل مباشر من الأمير الزيادي إبراهيم بن زياد. فهذه المعلومة تؤكد العلاقات المتميزة آنذاك بين أسعد الحوالي والإمام الزيدي الناصر من ناحية ، وبين هذا الأخير و صاحب زبيد من ناحية ثانية. كما تبين في نفس الوقت أن أبا الجيش لم يكن سنة 315هـ/927م على رأس الدولة الزيادية ، وأن النفوذ كان بأيدي إبراهيم ابن زياد بن إبراهيم بن محمد بن زياد – أي الأمير الخامس في القائمة – من سنة 313 هـ/ 925م إلى حدود سنة 343هـ / 954 م.

تنحصر إذن مدة حكم أبي الجيش بين 343 و 362 هـ في حين تشير كل المصادر اليمنية أنه توفي سنة 371 هـ/981م. في الواقع ينفرد المؤرخ اليمني ابن جريرالطبري الصنعاني بذكر تاريخ وفاة أبي الجيش ، وذلك في 25 ذي الحجة سنة 362هـ/ سبتمبر 973 م ، ويضيف أن أخاه علي بن إبراهيم تولى الحكم في زبيد في نفس اليوم.

النقطة الأخرى تهم عمال الأطراف الذين تغلبوا على أبي الجيش ، وخرجوا عن طاعته: بنو يعفر – بنو طريف و الحرامي .

بالنسبة لبني يعفر لا يمكن أن يكون الأمير أسعد الذي توفي – كما أسلفنا – سنة 332 هـ/ 944 م– معاصرا لإسحاق (343 – 362 هـ/ 954 – 962م) ، بل الأقرب إلى الاحتمال – على حسب رأينا – هو عبد الله بن قحطان (351 – 387 هـ/ 962 – 997 م) الذي شارك سنة 351 هـ/ 962 م في الائتلاف الذي يضم الأسمر الخولاني والموجه ضد آل الضحاك – أسياد صنعاء وحلفاء صاحب زبيد (أبو الجيش إسحاق) – للسيطرة على العاصمة اليمنية التي كانت محل أطماع عدة أطراف سياسية. من جهة أخرى ورد اسم ابن قحطان في أحداث سنة 379هـ/981م بمناسبة الحملة العسكرية ضد حاكم زبيد آنذاك – علي بن

إبراهيم ـــ مباشرة بعـ ـ أن أعلـــن خلعـــه لطاعـــة العباسيين في بغداد واعترافه بالسيادة للفـــاطميين في القاهرة.

ومن المعلوم أن الحملة التي انتهت بهزيمة الأمير الزبادي في حجرة حراز. تمثل بداية انحلال الدولة الزيادية التي ستنقرض فيما بعد.

أما صاحب عثر المسمى ســـليمان ابـــن طرف الحكمي فهو ينتمي إلى قبيلـــة مـــذحج ، وتوجد بلاده ما بين الشرجة ـــ ميناء مخـــلاف الحكم ـــ وحلي من جهة الحجاز .

و يؤكد عمارة أن عمله مسيرة ســـبعة أيـــام في عرض يومين. أما عاصمته عثر التي تقع على البحر الأحمر فهي فرضة صنعاء وصعدة في نفس الوقـــت ومركز مخلاف جعفر. و كان سليمان بن طرف ـــ كما أسلفنا القول ـــ يخطب لابن زياد ويضرب السكة باسمه ويحمل إليه قدراً معيناً من المال كـــل سنة و هدايا ، و يبلغ ارتفاع أعماله خمسمائة ألف دينار عثرية في السنة. من جهته كان صـــاحب حلي ـــ الحرامي ـــ من بني حرام بطـــن مـــن كنانةـــ تابعا لابن زياد ، وكان يخطب له ويضرب باسمه السكة لكنه كان دون ابن طرف في القوة.

والافت للانتباه ما يؤكده المقدسي من أن أئمـــة صعدة الزيديين كانوا يخطبون كذلك لابن زياد . غير أن الأميرين ـــ ابن طريـــف و الحرامـــي ـــ خلعا الطاعة لابن زياد ـــ خليفة أبي الجـــيش ـــ وغيرا الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المعز وذلك قبل سنة 362 هـــ/ 972م.

إذنْ انحلت دولة بني زياد في النصف الثاني من القرن الرابع هـــ / القرن العاشـــر م و لم يبـــق لابن زياد إلا المنطقة الساحلية الواقعة بـــين عـــدن وشرجة حرض .

بعد وفاة إســـحاق ســـنة 362 هـــــ/ 972م آل الحكم إلى أخيه علي بن إبـــراهيم إلى حدود سنة 371هــ/ 981م. ولا نكاد نعرف شيئا عن هذا الأمير سوى ما ذكره مصدر مجهول لتاريخ اليمن في أحـــداث، ســـنة 368 هـــــ/ 978م عندما قام بإرسال مال إلى الشريف بـــن الهادي عن طريق صاحب صنعاء قيس ابن الضحاك الهمداني . وكان هذا الأخير قد أعلـــن ـــ ســـنة 350هــ/961م ـــ الطاعة للأمـــير الزيـــادي إسحاق في نطاق صراعه ضد منافـــسة. يوســـف الداعي و هو ما يؤكد العلاقات القديمة بـــين آل الضحاك والزياديين .

من ناحية أخرى ذكر عمارة " أن مبلغ ارتفـــاع أعمال ابـــن زيـــاد بعـــد تقاصـــرها في ســـنة 366هــ/977م من الدنانير ألف ألف دينـــار عثرية خارجا عن ضرائبه". أمـــا ابـــن خلـــدون فيعطينا رقما يساوي 1.366.000 دينارا قبل سنة 362هــ/ 972م .

ويمكن حصر هذه المـــوارد المتنوعــة في أربعة أصناف:

- الضرائب على مراكب الهنــد مـــن الأعـــواد المختلفة والمسك والكـــافور والـــصندل والسنبل والصيني
- ضرائب العنبر على سواحل باب المندب و عدن أبين و الشحر
- الضرائب على معادن اللؤلؤ
- وأخيرا الضرائب على صاحب جزيرة دهلك ، ومن بعضها ألف رأس منها رقيــق خمـــسمائة وصيفة ، ومنها خمسمائة وصيف مـــن بـــلاد النوبة والحبشة.

إذن بفضل علاقاتها التجارية مع كل مـــن إفريقيا الشرقية والهند ومدن البحر الأحمر ــ عـــن طريق ميناء غلافقة ــ ظلت مدينة زبيد عاصـــمة الزياديين مركزا مزدهرا للتجارة الشرقية في القرن الرابع للهجرة/القرن العاشر للميلاد، وذلك مـــع كل الإضطرابات وكل أعمال النهب التي تعرضت لها في أثناء تاريخها سواء مـــن جـــراء القرامطـــة أواليعفريين.

هــ) نهاية الدولة الزيادية أو فترة الوزراء النوبـــة (371 -412 هـــــ /981 ــ 1021م):

إثر وفاة الأمير علي بن إبـــراهيم ســـنة 371هـــ/981م دخلت الأسرة الزيادية في فترة ضعف و تدهور ، تميزت بغياب ورثاء من الذكور ، وأصبح النفوذ في أيدي ورراء من العبيد النوبـــة. وتذكر المصادر اليمنية بالاعتماد على عمارة أن الطفل ــ الذي تولت كفالته أخته هند بنـــت أبي الجيش و عبد لأبي الجيش أستاذ حبـــشي يـــدعى رشيدا ــ اسمه عبد الله ، وقيل إبـــراهيم ، وقيـــل زياد. لكن رشيد هلك فخلفه وصيف له من أولاد النوبةـــ يدعى حسين بن سلامة ــ كوزير لولـــد أبي الجيش ولأخته هند بنت أبي الجيش. وجـــاء في مطلع البدور لابن أبي الرجال أن الأمير الزيـــادي الذي وزر له الحسين بن سلامة يـــسمى المظفـــر. المهم هو أن الحسين بن سلامة الذي قام مقام سيده رشيد أصبح الحاكم الحقيقي لزبيد حيث تمكن من وضع حد لتدهور الدولة الريادية ــ نتيجة تغلـــب ولاة الأطراف والحصون على ما بأيديهم ــ ونجح في استرداد النفوذ من هؤلاء الذين حملوا له الإتاوة ، ودخلوا في طاعته

وتشير المصادر اليمنية أن الحسين بن سلامة كان "حسن السيرة محـــسنا إلى الرعيـــة كـــثير الـــبر والصدقة". وكان يقتفي سيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز في سلوكه وأحواله. دامت مـــدة حكمـــه حوالي ثلاثين سنة (373 ــ402 هــ/ 983 ــ 1011 م).

و قد أورد ابن جرير في تاريخ صنعاء أن ابن سلامة توفي في النصف من شهر صفر سنة 426 هـ/ 1033م.

لقد تميزت هذه الحقبة الطويلة بإنجازات عمرانية عديدة ، نذكر منها بالخصوص السور الذي أداره الحسين بن سلامة على مدينة زبيد والجوامع الكبار والمنائر الطوال التي بناها أو جددها في المدن ، مثل جامع عدن ومسجد الجند. كما حفر الآبار في المفاوز المنقطعة أنشأ المصانع و بنى الأميال و الفراسخ و البرد على الطرقات. وأشارابن الديبع أن "مبتدأ عمارة الحسين بن سلامة من حضرموت إلى مكة نحوستين مرحلة، في كل مرحلة جامع ومئذنة ومنبر".

من ناحية أخرى شهدت مدينة زبيد ازدهارا اقتصاديا وتجاريا كبيرا في عهد ابن سلامة الذي دعم العلاقات مع بلاد الهند عن طريق القوافل. وكانت الطريق القوافلية تنطلق من شبام — في حضرموت — إلى ترم — ثم تصل إلى الشحر وتسير محادية للساحل إلى عدن حتى تبلغ مكة عبر مسلكين مختلفين. المسلك الأول يصعد الجبال ويمر بالمدن اليمنية (تعز. إب, ذمار, صنعاء, صعدة) قبل الوصول إلى مدينة الطائف الحجازية. أما المسلك الثاني فهو طريق تهامة الساحلي التي تفترق بدورها إلى طريقين:

طريق ساحلي تصل إلى ميناء جدة على البحر الأحمر ، وطريق آخر بري تربط بين عدة مدن في تهامة اليمن منها حيس, زبيد والقحمة ، ثم تلتقي بالطريق السالف الذكر — على ساحل البحر الأحمر — في جيزان.

تعتبر مدة حكم ابن سلامة بمثابة "الصحوة" بالنسبة للدولة الزيادية التي استرجعت نفوذها في العديد من المناطق اليمنية ، وفرضت سبطرتها على عمال الأطراف الذين خرجوا عن طاعتها. و قد رأينا أن إصلاحات ابن سلامة في الميادين الاقتصادية والتجارية والمعمارية أسهمت كذلك في هذه الصحوة. وإثر موته ظل الحكم في أيدي الأحباش الذين حافظوا على منصب الوزارة باسم الأمير الزيادي. وولي مرجان — وهو عبد من عبيد ابن سلامة — أمر الوزارة ، وكان له عبدان فحلان من الحبشة — أحدهما نفيس الذي كان ظلوما غشوما ولاه أمر الحضرة وإدارة الدولة كنائب له ، والآخر نجاح الذي كان رؤوفا رحيما كلفه بأعمال الكدراء والمهجم ومور والوادين. وفي حين كان مرجان يفضل عبده نفيسا كان الأمير الزيادي الطفل و عمته هند الوصية عليه يميلان إلى نجاح.

لقد أدت المنافسة بين العبدين على وزارة الحضرة إلى حد جعل مرجان يقبض سنة 407 هـ/1016م على هند والأمير الطفل ،

ويسلمهما إلى نفيس الذي نكل ، بهما ثم بنى عليهما جدارا و ختمه. ويذكر الخزرجي أن نفيس لما قتل مولاه ــ آخر أمراء بني زياد ــ ركب المظلة وضرب السكة باسمه ، وبقي يحكم زبيد إلى سنة 412 هـ/1021م. واللافت للانتباه هو أن نهاية الأسرة الزيادية كانت على أيدي الأحباش سنة 407 هـ/ 1016م.

أما نجاح فقد قام بمحاربة نفيس ، وحصلت بينهما عدة وقائع منها يوم رمع و يوم فشال على نجاح ، و منها يوم العقدة ، وخاصة يوم العرق الذي قتل فيه نفيس وخمسة آلاف من الفريقين. وتضيف امصادر اليمنية أن نجاح فتح زبيد سنة 412 هـ/ 1016م ، وقبض على سيده مرجان. ثم أخرج مولاه ابن زياد وعمته وبنى عليهما في العرق مشهدا ، وجعل مكانهما مرجان ونفيس ، واستولى على البلاد ، وركب بدوره المظلة وضرب السكة باسمه وأصبح مالكا لتهامة ومؤسسا للأسرة النجاحية التي دام حكمها إلى حدود سنة 553هـ/ 1158م.

2) الدولة اليعفرية في صنعاء و شبام

كوكبان: 213ـ 393 هـ/ 828 ـ 1002 م :

تعتبر الدولة اليعفرية ثاني دولة مستقلة في اليمن ، لكن تاريخها ما يزال مضطربا. وسنحاول في هذه الدراسة تحديد بداية الدولة والتعرف على تطورها السياسي والعسكري ، مع الإشارة إلى علاقاتها الداخلية بمختلف القوى السياسية في اليمن (الزياديون في زبيد ــ الأئمة الزيدية في صعدة والقرامطة في المذيخرة) ، وكذلك إلى علاقاتها الخارجية بالدولة العباسية في العراق و بالخلافة الفاطمية في مصر.

أ) الأسرة الحوالية و بدايات الدولة اليعفرية :

ينتمي بنو يعفر إلى الفرع الحميري من المجموعة القحطانية ، ويؤكد بعض المؤلفين اليمانيين أن آل حوال من المثامنة ، أي الأذواء الأكثر شهرة ضمن قبيلة حمير ، ويرجعهم الأشرف الرسولي إلى ذي مقار- وهو أحد الأقيال الذين تقاسموا النفوذ في اليمن إثر مقتل سيف بن ذي يزن – أما الهمداني الذي ذكر قائمة الأذواء في الجاهلية ــ ومنهم 144 من حميرــ فقد أورد اسم ذي حوال ضمنهم . والجاذب للانتباه هو أن الأقيال (مفرده قيل) هم عبارة عن الأشراف الجدد الذين برزوا في المجتمع اليمني في القرنين 5 و6 للميلاد. وترجع كتب الأنساب بني يعفر إلى جدهم الأكبر، المسمى كريب ابن عثمان بن الوضاح بن إبراهيم بن ماتع بن عون بن يدرس بن عامر بن ذي حوال الأصغر بن عوسجة بن عردان الشرخي ذي حوال الأكبر بن يريم بن ذي مقار من حمير. أما المصادر اليمنية فلا تحدد بدقة بداية تأسيس الدولة اليعفرية في اليمن الأعلى. لكن الهمداني –

الذي نعتبره المصدرالأساس بالنسبة لهذا الموضوع - يؤكد أن بني يعفر حكموا اليمن الأعلى بداية من شهر رمضان 214 هـ / نوفمبر 829م.

و يشير إلى أن يعفر بن عبد الرحيم بن كريب الحوالي كان أميرا في شباام أقيان منذ عهد الخليفة العباسي المعتصم (218ــ227هــ/ 833 ــ 842م).

من جهة أخرى كان الولاة العباسيون في صنعاء في صراع متواصل ضد بني يعفر، ونذكر الوالي أبا العلاء أحمد بن العلاء العامري, الذي هزم سنة 225 هـ/840م جيشا بقيادة طريف بن ثابت مولى الأمير يعفر, وقتل ما يقارب الألف رجل. كما واصل هرثمة بن بشير مولى الخليفة المعتصم سنة 230 هـ/ 845م وخليفته محمد بن جعفر بن دينار سنة 232هـ/846م هذا الصراع ضد بني يعفر دون إخضاعهم. وقام الأمير الحوالي يعفربتحصين عاصمته شبام أقيان لحمايتها ضد هجمات الولاة العباسيين. كما انضم سنة 241هـ/855م إلى بني سعد في صراعهم ضد قبيلة خولان .

إن كل هذه الأحداث التي ذكرها الهمداني وتعرضت إليها أغلب المصادر اليمنية تبين أن بني يعفر كانوا في النصف الأول من القرن الثالث هـ / القرن التاسع م مستقلين عن بغداد وقد قاوموا بشدة كل المحاولات التي قام بها عمال الدولة العباسية بصنعاء لإخضاعهم.لكن العلاقات الودية بين الطرفين عادت إلى نصابها سنة 247هـ/861م بعد موت الخليفة المتوكل (232ـ247هـ/ 846 ـ 861م). وقد أرسل سنة 257هـ/871م أبو أحمد الموفق أخو الخليفة المعتمد (256ـ279هـ / 870ــ 892 م) إلى محمد بن يعفر عهدا يتضمن توليته لأمور اليمن. ومن يشد الانتباه أن هذا العهد أرسل مباشرة بعد أن بايعه وخطب باسمه على المنابر. ويذكر الهمداني في نفس السياق أن محمد بن يعفر تمكن في هذه الأثناء من السيطرة على الجند وحضرموت, لكنه بقي يدفع الخراج للأمير الزيادي في زبيد, ويعتبر نفسه نائبا له لعدم قدرته على مناوأته.

وظل الأمير الحوالي محمد بن يعفر مواليا للعباسيين إلى حدود سنة 262 هـ/875م, وعند توجهه إلى الحج في هذه السنة استخلف ابنه إبراهيم على صنعاء فأقره الخليفة العباسي الموفق في هذه الوظيفة.

أما في سنة 265 هـ/878م فقد قام محمد بن يعفر ببناء مسجد صنعاء لكن ابنه إبراهيم قتله فجأة سنة 270هـ/ 883م, وأدى ذلك إلى قطع العلاقات مع بغداد, وتأزم الأوضاع في اليمن.

ب) القطيعة مع بغداد و اضطراب الأوضاع في اليمن الأعلى:

تشير المصادر اليمنية إلى أن إبراهيم بن محمد بن يعفر قام سنة 270هـ/883م بقتل أبيه وعمه أحمد وزوجة أبيه في شبام بأمر من جده يعفر ابن عبد الرحيم. ويعتبر بعض الباحثين أن هذه العملية ربما كانت انتقاما للجد الذي كان أبعده ابنه محمد عن الحكم سنة 247هـ/861م فأراد العودة من جديد إلى مسرح الأحداث عن طريق حفيده. ونحن من جهتنا نميل إلى الاعتقاد بأن القضية تتعلق بسياسة محمد الموالية للعباسيين , والتي لم تكن تحظي بموافقة شق من العائلة اليعفرية يتزعمه يعفر وحفيده إبراهيم , ونتساءل في نفس الوقت لماذا ترقب يعفر طوال كل هذه المدة قبل تنفيذ عملية الاغتيال ؟ ثم هل نجح حفيده إبراهيم في سياسة المواجهة مع العباسيين ؟ المؤكد هو أن العملية التي كانت تهدف إلى استقلالية اليعفريين عن الخلافة العباسية أفرزت نتائج معاكسة تماما , إذ ضعف النفود اليعفري في اليمن الأعلى , وقامت عدة ثورات ضد إبراهيم , ومال نوابه إلى جعفر المناخي. وتذكر المصادر اليمنية في هذا الشأن ثورة الزعيم الهمداني محمد الدعام بغرق في منطقة الجوف ثم ثورة المكرمان بيبحان وثورة المفضل ابن سعد المرادي في جوف المجزر , وأخيراً ثورة ولد طريف بن ثابت ـــ غلامه ـــ بيحصب ورعين . كما تشير نفس المصادر إلى أن أهل صنعاء من الأبناء والشهابيين ـــ الذين كانوا أعداء فيما بينهم ـــ اجتمعوا على عمال إبراهيم بصنعاء و قاتلوهم ثم طردوهم و نهبوا دار أبي يعفر وأحرقوها .

إن هذه المعارضة الشديدة داخل صنعاء و خارجها كانت النتيجة الطبيعية لمقتل محمد بن يعفر. من ناحية أخرى لا يمكن لنا فهم سياسة إبراهيم هذه دون الإشارة إلى الصورة القاتمة التي رسمها له الهمداني في الإكليل ,إذ ذكر أن أمه سلمة بنت إبراهيم بن ماتع بن عون بن يدرس بن عامر الملقبة ببلقيس الصغرى لجمالها و كرمها و ورعها كانت رفضت المرة الأولى الزواج من محمد بن يعفر الذي كان تزوج من قبل أختها , ثم لما اضطرت لقبول الزواج منه تنبأت أنها ستضع له " فرعونا " يقوم بقتله. وهو ما حدث فعلاً في شهر محرم سنة 279 هـ/ أبريل 892م عندما قتل إبراهيم. و يؤكد الهمداني أن هذا الأخير كان مشهورا بثقافته الواسعة وخطابته وشعره إلى جانب حبه الكبير للخمر وميله للبطش والقتل. و فيما يلي بعض أشعاره:

حكم السيف إذا لم تجد حكما
يعدل فالسيف الحكم
لم أر الناس بذي وفق بهم
إنما المحبوب فيهم من غشهم

تعتبر عملية قتل إبراهيم ثأراً لما قام به من قبل, من أعمال تقتيل استهدفت العديد من أفراد عائلته. والدليل على ذلك هو أن عبد القاهر بن أحمد بن يعفر – ابن العم الذي قتله إبراهيم سنة 270هـ/ 883م كما أسلفنا القول – هو الذي تسلم الحكم إلى حين قدوم علي ابن الحسين المعروف بجفتم إلى صنعاء في صفر من سنة 279 هـ/ مايو 892م.

والملاحظ أن هذا الأخير هو الوالي الجديد الذي أرسله الخليفة العباسي المعتمد إلى صنعاء لقمع الثورات وإعادة الأمن إلى اليمن .

وبالفعل قام جفتم بالسيطرة على صنعاء, بعد أن هزم الدعام, وبقي في منصبه في عهد الخليفة المعتضد إلى حدود سنة 282هـ/895م – تاريخ رجوعه إلى بغداد – لكن اليعفريين استعادوا نفوذهم من جديد في صنعاء عن طريق أسعد بن إبراهيم ابن محمد ابن يعفر.

ج) أسعد بن إبراهيم و التنافس على الحكم في صنعاء:

يتميز الوضع في عهد أسعد بظهور قوتين سياسيتين جديدتين في اليمن إلى جانب بني زياد وبني يعفر وهما: القرامطة بزعامة علي ابن الفضل في حصن المذيخرة والأئمة الزيديون بصعدة. واستمر الصراع خلال الثلث الأخير من القرن الثالث للهجرة / نهاية القرن التاسع م بين مختلف هذه القوى للسيطرة على الأوضاع بصنعاء.

في سنة 286هـ/ 899م قام نائب بني يعفر بصنعاء – أبو العتاهية ابن الروية المذحجي – الذي كان منحازاً إلى أفكار الإمام الزيدي الهادي إلى الحق يحي بن الحسين بن القاسم باستقدامه من صعدة, وسلم له الأمر, فدخلها في آخر المحرم سنة 288هـ/ جانفي901م فبايعه أهلها, وضرب اسمه على الدينار والدرهم, ووجه عماله إلى المخاليف فقبضوا الأعشار. لكن بني يعفر وآل طريف الذين كان بعض منهم بسجن شبام وبعضهم الآخر بسجن صنعاء أخلي سبيلهم من طرف القبائل اليمنية وعلى رأسها همدان.

إذن طرد نائب الهادي من صنعاء كما خرج الإمام بنفسه من شبام و عاد بجيش كبير مكنه من هزيمة جيوش بني يعفر بالرحبة و الاستيلاء على صنعاء في حين انحاز بنو يعفر بقيادة أسعد بن أبي يعفر وابن عمه عثمان بن أبي الخير إلى شبام. و في شهر جمادى الثانية من سنة 289هـ/ مايو 901 م استغل بنو يعفر رجوع الهادي إلى صعدة للعودة إلى صنعاء التي دخلها مولاهم إبراهيم بن خلف.

وفي سنة 290هـ/903م عاد جفتم ثانية إلى اليمن وحاول السيطرة على الأوضاع المتردية في

صنعاء , لكنه هزم في نهاية المطاف في صراعه ضد بني يعفر ومواليهم , ثم قتل مع بعض أصحابه ومال جيشه إلى أسعد بن أبي يعفر الذي استغل الفرصة لحبس ابن عمه عثمان والاستبداد بالأمر إلى سنة 293 هـ/ 906م .

ولكي نتتبع بدقة الأحداث في اليمن وفي صنعاء في أواخر القرن الثالث هـ/ بداية القرن العاشر لا بد من الإشارة إلى العلاقات التي تربط بني يعفر بكل من الزيديين والقرامطة والعباسيين.

ـ العلاقات بين بني يعفر والزيديين:

حاول الزيديون ـ منذ تأسيس دولتهم في صعدة ـ دخول صنعاء وضمها إلى نفوذهم. و قد دخلها فعلا الإمام الهادي المرة الأولى يوم الجمعة 22 محرم سنة 288 هـ/ 16 جانفي 901 م , وتغلب على آل طريف موالي بني يعفر , واستخلف عليها ابن عمه علي بن سليمان , ثم قصد شبام في صفر سنة 288 هـ/ فيفري 901 م قبل أن يعود من جديد إلى صنعاء , ويواصل الحرب ضد بني يعفر وآل طريف. غير أنه واجه معارضة شديدة جعلته ينسحب إلى صعدة و يترك الأمر بأيدي إبراهيم بن خلف.

وفي سنة 290هـ/903م أرسل الوالي العباسي الجديد لليمن و الحجاز ـ عج ابن حاج ـ الكتب بتجديد الولاية لأسعد بن أبي يعفر و ابن عمه عثمان . وكنا ذكرنا أن جفتم عاد للمرة الثانية واليا باسم العباسيين إلى صنعاء غير أنه هزم وقتل في صراعه ضد آل طريف .

من هنا أصبحت العاصمة اليمنية محل صراع بين أطراف ثلاثة: بني يعفر ومواليهم آل طريف, القواد العباسيين وأخيرا الزيديون وانتهى الصراع في المرحلة الأولى اصالح بني يعفر. لكن الأوضاع تعقدت من جديد بظهور علي ابن الفضل القرمطي الذي سعى من جهته لتوسيع دائرة نفوذه والسيطرة على صنعاء التي كانت تعاني آنذاك من جراء مجاعة كبيرة اجتاحت اليمن وتسببت في عدد كبير من الضحايا. وقد اعتبر المؤلف الزيدي يحيى بن الحسين في كتابه غاية الأماني أن الخطر القرمطي التي أحاط بصعاء سنة 293هـ/ 906م ـ عندما دخلها علي بن الفضل و سيطر عليها ـ عقاب سلطه الله على بني يعفر ومواليهم نتيجة خيانتهم للإمام الهادي ووقوفهم ضده عندما كان بينهم في نهاية سنة 288هـ/ 901م و بداية سنة 289هـ/902م

ـ العلاقات بين بني يعفر و القرا

يعود ظهور الدعوة الفاطمية في اليمن إلى سنة 268 هـ/ 881 م ، عندما تم إرسال الداعيين ـ أبي القاسم بن حوشب إلى بلاد يافع و علي بن الفضل الجدني إلى عدن لاعة ـ لتمهيد السبيل قبل إقامة دولة شيعية إسماعيلية

مستقلة في البلاد. وقام الداعيتان بعمل دعائي علني كبير مكنهما من استمالة العديد من القبائل والمناطق اليمنية إلى الدعوة الإسماعيلية دون أن يتمكن العباسيون آنذاك من التدخل لوضع حد لنشاطيهما. ولا شك أن بعد البلاد عن مركز الخلافة وصعوبه التنقل في المناطق الجبلية منها تفسر إلى حد كبير ذلك الإخفاق. المهم هو النجاح الذي لقيه الداعيتان حيث تمكن ابن حوشب من دخول صنعاء سنة 290هـ/903م وخروج أسعد منها ليلتجئ إلى غرق بالجوف — حيث يقيم الدعام الهمداني . أما ابن حوشب فقد سيطر من ناحيته على شبام .

وفي 27 ربيع 2 سنة293هـ/ 25 فيفري 906م استغل حسان بن كحالة — مولى بني يعفر — خروج ابن الفضل في شهر المحرم إلى منطقة تهامة — لسجن أتباعه بصنعاء.

وفي شهر جمادى **2** من نفس السنة / أفريل 906م تكون ائتلاف موسع ضد العدو المشترك القرامطة — بقيادة الهادي إلى الحق — يضم بني يعفر والدعام و عدة أشراف يمانيين . وتمكن هذا الائتلاف من استرجاع مدينتي ظهر شبام غير أن ابن الفضل سيطر على الكدراء و المهجم — في بلاد حكم — ونهب زبيد في تهامة. لكن العلاقات بين أسعد و الهادي تغيرت في هذه الأثناء مما مكن القرامطة من هزيمة ابن كيالة وابن بشر — موالي بني يعفر — و السيطرة من جديد على صنعاء في شهر رجب 294 هـ/ أفريل — مايو 907م . وفي نفس الوقت توجه أسعد بن أبي يعفر إلى بلاد قدم علي حين نهب القرامطة مدينة صنعاء التي هجرها سكانها. و سيطر ابن حوشب على المخاليف الواقعة في غرب اليمن: بلاد عيان — بني ساور — ظهر— شبام حمير و جبال كوكبان. كما توصل إلى هزيمة جعفر المناخي في نخلة وافتك منه حصن المذيخرة الذي حوله إلى عاصمة لدولته. وواصل أعماله العسكرية للسيطرة على مدينتي التعكر ومنكث وبقيت صنعاء لمدة ثلاث سنوات (294ـ297هـ/907ـ910م) تحت نفوذه.

وفي صفر من سنة 297هـ/ أكتوبر — نوفمبر 909 م نهب مدينة زبيد وقام بتقتيل العديد من سكانها. لكن الهادي أرسل في غضون رجب من سنة 297هـ/مارس — أفريل 910م قوات عسكرية إلى صنعاء لطرد القرامطة منها. و أخيرا نجح أسعد بن أبي يعفر في الرجوع إلى صنعاء في العاشر من شهر ذي الحجة 297هـ/ 30 أوت 910 م قبل مغادرتها من جديد وتركها للقرامطة في 27 من رمضان سنة 298 هـ/29 مايو 911 م. وقد أعلن ابن الفضل آنذاك استقلاله الفعلي وقطع البيعة للمهدي الذي كان ينشط باسمه. غير أنه كان غير قادر على

الصمود أمام كل أعدائه والمحافظة على المناطق التي سيطر عليها في اليمن. وفي هذا الإطار بالذات عين أسعد ــ الذي كان قطع علاقاته ببغداد ــ نائبا له في صنعاء.

ويعلل الجندي هذه المصالحة بين ابن الفضل و أسعد بالوضع المصعب الذي كان يتخبط فيها هذا الأخير آنذاك (297 ــ 299 هـ/ 909 ــ 911 م) .

وتشير المصادر اليمنية من ناحية أخرى إلى أن أسعد دبر مؤامرة سم على إثرها ابن الفضل القرمطي ، و مات في منتصف شهر ربيع الثاني 303 هـ/أكتوبر 916م. واستطاع أسعد بعد ذلك ــ بمعونة سكان صنعاء والمخاليف المجاورة (جعفر والمعافر والجند) التي عانت من تصرفات ابن الفضل و أتباعه ــ محاصرة المذيخرة والاستيلاء عليها يوم 26 من رجب من سنة 304 / 23 جانفي 917م.

وبهذا توصل أسعد بن أبي يعفر بعد جهود كبيرة إلي وضع حد للنفوذ القرمطي في مخلاف جعفر وفي المناطق اليمنية الأخرى ، وهزم بقايا القرامطة في نفاش يوم 28 من شهر شعبان سنة 306هـ/918م وهذا يعني عودته من جديد إلى التبعية العباسية.

ــ العلاقات مع العباسيين في عهد أسعد:

مرت العلاقات بين الطرفين بمرحلتين مختلفتين. في نهاية القرن الثالث هـ/ بداية القرن العاشر م . كان أسعد النائب الرسمي للعباسيين في صنعاء وتمثل العهود التي كان قد أرسلها والي الحجاز واليمن عج بن حاج سنة 289 هـ/902 م إلى كل من أسعد بن أبي يعفر وعثمان بن أبي الخير لتوليتهما شؤون اليمن أحسن دليل على هذه التبعية لبغداد .

غير أن الأمور تغيرت في هذه الأثناء بحصول عدة صراعات من أجل السيطرة على اليمن بين عدة أطراف: من جهة الصراع بين بني يعفر و الزيديين, ومن جهة ثانية الصراع بين القرامطة وأعدائهم الذين توحدوا ضدهم (أسعد والزيديون) وأخيرا انضمام أسعد لصف ابن الفضل وقطعه البيعة للعباسيين قبل أن ينجح في اغتيال ابن الفضل و ينهي السيطرة القرمطية على بعض المناطق اليمنية .

نملك وثيقتين تاريخيتين تبينان أن العلاقة بين اليعافرة و العباسيين لم تنقطع في الحقيقة ، رغم كل التطورات التي حصلت في اليمن و في صنعاء. تتمثل الوثيقة الأولى في عهد كان الخليفة المقتدر بالله أرسله إلى أسعد قبل سنة 300هـ/912ـ913 م وفيه يقلده " أعمال الحرب والمعادن والأحداث بصنعاء وأعمالها".

أما الوثيقة الثانية التي يرجع تاريخها إلى سنة 304هـ/ 916 ــ 917 م فهي عبارة عن

تهنئة أرسلها أسعد إلى الخليفة المقتدر بالله بمناسبة الانتصار على ابن الفضل والسيطرة على عاصمته المذيخرة.

إذن تبرهن الوثيقتان على أن أسعد ابن أبي يعفر لم يقطع الصلة بالعباسيين في بغداد، وبقي نائبا لهم بصنعاء في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م.

ـ الأوضاع في اليمن في بداية القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م:

استمر حكم أسعد بن أبي يعفر إلى حدود سنة 332 هـ/ 943ـ 944م، وتشير المصادر إلى أنه توفي في الثامن من شهر رمضان سنة 332هـ، ودفن بقرية شاهرة غربي صنعاء، و قد رثاه أبو الحسن الهمداني بهذه الأبيات:

قد استوى الناس و مات الكمال
و قال صرف الدهر أين الرجال
هذا أبو حسان في نعشه
قوموا انظروا كيف تسير الجبال
يا ناصر الملك بآرائه
بعدك للملك ليال طوال

وقد طالت مدة حكمه التي كانت زاخرة بالأحداث مقارنة ببقية الحكام اليمانيين، غير أن الدولة اليعفرية دخلت بعد موته في فترة ضعف وانحلال أدت إلى انهيارها سنة 393 هـ/ 1002م.

د) نهاية الدولة اليعفرية في اليمن (332 ـ 393 هـ / 943 ـ 1002م):

جاء في مصدر يمني مجهول المؤلف أن أسعد خلف قبل موته بقليل كتب وصية بتاريخ 8 من شعبان 332 هـ/ 943م، وفيها أوصى إلى بني أخيه ـ أبي يعفر وأبي الفتوح و أبي حمير ـ أن يتعجلوا القدوم إلى كحلان- حيث كان يقيم - لاطلاعهم على أوامره الأخيرة.

ـ وصية أسعد:

قدم أسعد في هذه الوصية مجموعة من النصائح والمقترحات المتعلقة بطرق معاملة العشائر والأجوار والعساكر، كما أوصى بني أخيه بخاصته وخدمه وحاشيته وعماله وكل ما يهم رسوم السلطنة، وطلب منهم كذلك تقسيم كل أملاكه من أموال وعبيد وأسلحة بالتساوي بينهم، وأخيرا أكد عليهم أن ينفذوا كل ما يتضمنه الكتاب.

نتساءل: هل طبقت هذه الوصية بالفعل؟ و كيف تطورت الأمور فيما يخص خلافة أسعد؟

تفيدنا المصادر أن أبا يعفر أحمد وصل إلى كحلان بعد موت عمه، و لم يعلن عن الخبر إلا يوم 18 من شوال 332هـ/943م وذلك أتاح الفرصة لأخيه أبي الفتوح الخطاب في السيطرة

على صنعاء التي أصبحت تحت نفوذه إلى حدود سنة 344هـ/955 م. أما الطرف الثالث قحطان فقد توجه من حاز إلى ظلمان ومنها إلى بيت نعامة. وفي أواخر شهر جمادى الثانية 333 هـ/ 944م اضطر أبو يعفر إلى الانسحاب من كحلان وترك الحصن لمولاه ابن وردان الذي سيطر عليه إلى حدود سنة 350هـ/961 م .

المهم هو أن وصية أسعد لم تطبق على حسب ما أراد . فبينما كانت كحلان تحت نفوذ أبي يعفر ثم علي بن الحسين بن وردان, ظلت صنعاء في أيدي أبي الفتوح حتى سنة 344 هـ/955م ، ثم آلت إلى ابن الضحاك، ولا تذكر المصادر شيئا عن أبي حمير الطرف الثالث المذكور في الوصية.

ــ التنافس على الحكم في صنعاء:

بدءاً من سنة 344هـ/ 955م أصبحت العاصمة اليمنية صنعاء تحت سيطرة آل الضحاك الذين سلموها في السنة التالية 345هـ/ 956م إلى الأخوين ــ علي بن وردان صاحب كحلان منذ سنة 333هـ/943م وسابور. غير أن تدخل المدعو الأسمر بن يوسف بن أبي الفتوح الخولاني ــ الذي هزم اليعافرة في حراز ــ أدى بآل الضحاك والأخوين بن وردان إلى التشاور للمحافظة على صنعاء. ثم إن الأسمر الخولاني طلب المدد من أمير شبام عبد الله بن قحطان الذي تذكره المصادر لأول مرة سنة 352هـ/963 م و تشير إلى وفاته سنة 387 هـ/997 م بحيث تبقى ثغرة في تاريخ اليعافرة تقدر بعشرين سنة (من 332 هـ حتى 352هـ) لا نعرف عنها سوى حدثين اثنين: الأول يهم التخلص من أبي يعفر أحمد من طرف علي بن وردان بكحلان سنة 333هـ / 943م , والثاني سيطرة ابن الضحاك على صنعاء سنة 344 هـ / 955 م , على حساب الخطاب ابن أخي أسعد الثاني .

تفيد المصادر من جهة أخرى إلى أن علي بن وردان مات سنة 350هـ/961 م وأن أخاه سابور قتل بيد الأسمر الخولاني في السنة التالية (351هـ/ 962 م) . وحصل صراع بين كتلتين , تضم الأولى ابن قحطان و الأسمر الخولاني و الثانية آل الضحاك والأمير الزيادي أبي الجيش. وكان الهدف منه السيطرة على صنعاء التي ظلت محل تنافس بين كل هذه الأطراف (عبد الله بن قحطان وآل الضحاك وأسعد بن أبي الفتوح الخولاني) بالإضافة إلى الإمام الزيدي يوسف بن يحيى بن الناصر الذي دخل حلبة الصراع.

إذن خلال كل الفترة الممتدة من الثلث الثاني من القرن الرابع إلى بداية القرن الخامس هـ / القرن الحادي عشر كانت الأمور مضطربة في صنعاء التي كان يتنازعها الأمراء. لكن المهم هو

مصير الدولة اليعفرية في أواخر القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م.

ـ الدولة اليعفرية في أواخر القرن الرابع هـ / العاشر م وسقوطها:

لا نعرف الشيء الكثير عن حكم عبد الله بن قحطان سوى أنه قطع العلاقة مع سياسة سابقيه في الميدانين الداخلي و الخارجي , وكان يطمح إلى الاستقلال.

على المستوى اليمني الداخلي وضع الأمير اليعفري ابن قحطان حدا لسياسة الخضوع للزباديين عندما أعلن الحرب سنة 379هـ/ 989 م على الأمير أبي الجيش وغزا مدينة زبيد , كما غزا مدينة أب سنة 381 هـ/ 991 م و انتزع مخلاف جعفر من بني زياد قبل أن يعود إلى كحلان. ويمكن تفسير هذا التوجه الجديد في سياسة ابن قحطان بضعف الدولة الزيدية آنذاك , وعدم قدرتها على فرض نفوذها على المناطق التي كانت تحت سلطتها .

أما على مستوى الخلافة فقد قطع ابن قحطان العلاقة مع العباسيين ببغداد وبايع الخليفة الفاطمي بالقاهرة ـ العزيز بن المعز ـ وقد اكسبه هذا التوجه الشرعية لحكمه وضمن له دفاع الفاطميين عنه في حالة تعرضه لبطش العباسيين , فهو يرتبط في رأينا بظهور الدعوة الفاطمية في اليمن التي ستؤدي إلى قيام الدولة الصليحية سنة 439 هـ/ 1047م , على يدي علي بن محمد الصليحي.

إثر موت عبد الله بن قحطان سنة 387هـ/ 997م آل الحكم إلى ابنه أسعد في حين ظلت صنعاء تتأرجح بين الإمام الزيدي يوسف وحليفه أسعد بن أبي الفتوح و بين آل الضحاك ثم دخل طرف ثالث سنة 389 هـ/999 م يتمثل في شخص الإمام المنصور القاسم بن علي الحسني العياني الذي أزاح الإمام الشرعي يوسف وتمكن من تنصيب القاسم بن حسين الزيدي نائبا له بصنعاء. وبعد السيطرة على بلد عنس و ذمار نجح هذا الأخير في إقناع الأمير اليعفري أسعد ابن عبد الله بن قحطان بقبول سيادة الإمام المنصور و البيعة له. وخلال شهر ربيع الثاني 392 هـ/ 1002م ثم انتقل الحكم إلى أحمد بن أبي يعفر بن عبد الرحمن ابن إبراهيم الذي يعتبر آخر أمير للدولة اليعفرية التي انتهت بصفة رسمية سنة 393هـ/ 1002م.

الخاتمة العامة :

إذن خلال نصف قرن تغيرت الخارطة الجغراسياسية اليمنية بصفة جذرية.

ـــ بعد القضاء على القرامطة في بداية القرن الرابع هـ / القرن العاشر م كان النفوذ في اليمن موزعاً بين ثلاثة أطراف هم : بنو يعفر في صنعاء ومخاليفها بالإضافة إلى نواهم بني الكرندي في الجند , والزيديون في صعدة وأخيراً الزياديون في زبيد وعدن .

ـــ و في حدود سنة 410 هـ/ 1019 م تعقدت الأمور و أصبحت البلاد مقسمة بين اليمن الأعلى و اليمن الأسفل .

ـــ بالنسبة لليمن الأسفل نجد عدة كيانات :

- بنو نجاح في تهامة و عاصمتهم زبيد .
- بنو معن في عدن و لحج وأبين وحضرموت و الشحر .
- آل الكرندي في السمدان و الدملوة و صبر و ذخر و التعكر .
- و أخيرا السلطان أبو عبد الله الحسين بن التبعي الذي سيطر على بعدان و نواحيها .

ـــ أما في اليمن الأعلى فالنفوذ كان موزعا بين

- آل الضحاك في صنعاء وريدة, خلفاء أبي الفتوح الخولاني
- أبناء الإمام الداعي يوسف بن يحيى
- وأخيرا أبناء الإمام القاسم بن علي العياني في صعدة .

وفي حدود سنة 439 هـ/ 1047م قام الصليحيون بتوحيد اليمن , وذلك بزعامة قائدهم علي بن محمد الذي أسس دولة شيعية مستقلة ظلت تحكم البلاد إلى سنة 532هـ/1138م.

أ.د. راضي دغفوس

(جامعة تونس)

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

المصادر و المراجع

1) المصادر العربية :

– **ابن الأثير:** أبو الحسن عز الدين **علـــي** (ت630هـــ/1233م)

1965, الكامـــل في التـــاريخ ، دار صـــادر، بيروت.

– **الأشرف الرسولي** : أبو الفتوح عمـــر بن المظفر (ت 696هــ/1296م)

1949 , كتاب طرفة الأصـــحاب في معرفـــة الأنساب, تحقيق زترستين , دمشق.

– **الثعالبي:** أبو منصور عبد الملـــك بـــن إسماعيـــل النيـــسابوري (ت 429 هـــــ /1037م).

1867, كتاب لطائف المعارف , تحقيـــق دي يونق , بريل.

– **ابن جرير:** الطبري الصنعاني , (القـــرن الرابع هـــ / العاشر م),

دون تاريخ , تاريخ صنعاء , تحقيق عبد الله محمد الحبشي , صنعاء.

– **الجندي** : بهاء الدين ,(ت 732 هـــ / 1331 م),

1995، السلوك في طبقات العلماء و الملـــوك, تحقيق محمد بن علي الأكوع ، مكتبة الإرشـــاد , صنعاء , جزءان.

– **ابن حزم الأندلسي** : أبو علي محمـــد بن سعيد , (ت 456هـــ/ 1062م).

1971 , جمهرة أنساب العرب , تحقيـــق عبـــد السلام محمد هارون, دار المعارف , القاهرة .

– **ابن حوقل:** أبو القاسم محمد النصيبي (ت 367 هــــ/977 م)

1979 , صورة الأرض , دار مكتبة الحيـــاة , بيروت .

– **الخزرجي** : أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر (ت 812هـــ/ 1410م).

1979 , الكفاية و الإعلام فيمن وَلي اليمن و ملكها من ملوك الإسلام , مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5832/ 1 تحقيق راضي دغفوس.

– **ابن الديبع** :وجيه الدين عبد الـــرحمن بن علي (ت 944 هـــ/ 1537 م)

1977, قرة العيون بأخبار اليمن الميمون, تحقيق محمد بن علي الأكوع , القاهرة , جزءان .

1979 , بغية المستفيد في أخبـــار صـــنعاء و زبيد, تحقيق عبد الله الحبشي , صنعاء.

– **الزبيدي الواسطي**: الإمام محمد مرتضى، (ت 1205هـ/ 1790م)
1980 , *تاج العروس من جواهر القاموس* , طبعة الكويت .

– **الطبري**: أبو جعفرمحمد بن جرير , (ت **301 هـ/ 922م**)
1968 , *تاريخ الرسل و الملوك* , تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم , دار المعارف , القاهرة .

– **ابن عبد المجيد** : تاج الدين,(ت 744هـ/ 1343م)
دون تاريخ , *بهجة الزمن في تاريخ اليمن* , تحقيق مصطفى حجازي , صنعاء .

– **عمارة اليمني** : نجم الدين أبو محمد بن الحسن (**ت 569هـ/ 1174م**)
1976 , المفيد في أخبار صنعاء و زبيد, تحقيق محمد بن علي الأكوع, القاهرة .

– **القاضي الرشيد** : بن الزبير الأوساني (**ت 561 أو 562هـ/ 1165-1166م**)
1959 , *كتاب الذخائر و التحف* , طبعة الكويت .

– **ابن المجاور**: جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب (**ت 630هـ/ 1232م**).

1954, صفة بلاد اليمن و مكة و بعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر , تحقيق أوسكر لوفقرين , ليدن . بريل .

– **با مخرمة** : عبد الله الطيب (ت**947هـ / 1540م**) .
1936 , تاريخ ثغر عدن , مطبعة بريل, ليدن.

– **المسعودي**: أبو الحسن علي ابن الحسين (**ت 346هـ/ 957م**)
1966 , مروج الذهب و معادن الجوهر, تحقيق شارل بلا , بيروت .

– **المقدسي البشاري**: أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين(ت 390هـ/ 1000م).
1906 ,أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم, طبعة بريل, ليدن.

– **نشوان الحميري**: أبو سعيد ابن سعيد بن نشوان (**ت 573هـ/ 1177م**).
1916 , منتخبات في أخبار اليمن , طبعة بريل , ليدن.

– **النعمان بن محمد**: القاضي (ت 363هـ/ 974م) .
1970 , *رسالة* افتتاح الدعوة, تحقيق وداد القاضي , دار الثقافة , بيروت .

– **الهمداني** : أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت بعد سنة **360هـ/ 974م**)

1977, الإكليل , الجزء **1** , تحقيق محمد بن علي الأكوع , دار الحرية , بغداد.

1966, الإكليل , الجزء **2** , تحقيق محمد بن علي الأكوع, القاهرة .

1974 , صفة جزيرة العرب , تحقيق محمد بن علي الأكوع , دار اليمامة , الرياض .

– **ياقوت الحموي:** بن عبد الله الرومي (ت626هـ/ 1229م) .

1957 , معجم البلدان , طبعة بيروت.

– **يحي بن الحسين** : بن المنصور بالله بن القاسم (**ت 1110هـ/1688م**)

1968 , غاية الأماني في أخبار القطر اليماني , تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور , دار الكتاب العربي, جزءان , القاهرة .

1936 , إنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن , حقق منه محمد ماضي القسم المتعلق بالسنوات 280ـ 322 هـ ونشره بليبزيق.

2) المراجع العربية :

– **الأكوع** : محمد بن علي

الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332 هـ .

1976, جمع و تحقيق , دار الحرية , بغداد.

– **دغفوس** :راضي

1980 , المصادر التاريخية لدراسة تاريخ مدينة زبيد اليمنية في الفترة الإسلامية الوسيطة , الكراسات التونسية عدد 113 ـ 114 , , ص 203. ـ 227 .

– **زاهر** : رياض

1959 , دولة حبشية في اليمن , دولة بني نجاح , المجلة التاريخية المصرية , المجلد 8 , ص. 101ـ 130.

– **الزركلي** : خير الدين

1968 , الأعلام , بيروت .

– **الشجاع** : عبد الرحمن , 1993 , اليمن في عيون الرحالة, طبعة دار الفكر , دمشق.

1999, تاريخ اليمن في الإسلام حتى نهاية القرن الرابع, دار الفكر المعاصر, صنعاء.

ـــ **الشامي** : فضيلة ,

1979, الدولة اليعفرية بصنعاء و الجند و نشاطها السياسي و العسكري من عام 225 إلى 393, المؤرخ العربي , عدد 11 , بغداد, ص. 334 ـ 359 .

– **العميد** : طاهر ظافر بناء مدينة زبيد في اليمن , مجلة كلية الآداب, جامعة بغداد , 13 , ص. 340ـ 360.

– **الفقي** : عصام الدين عبد الرؤوف

1982 , اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول , دار الفكر العربي .

– **ماضي:** محمد 1950 , دولة اليمن الزيدية , المجلة التاريخية المصرية, 3, ص 15 ــ 35.

– **الهمداني:** حسين فيض الله , دون تاريخ , الصليحيون و *الحركة* الفاطمية في اليمن (286 - 626 هـ), صنعاء.

3) المراجع الأجنبية :

- **ARENDONK Van,** 1960 , *Les débuts de l'imamat zaydite au Yemen*, traduction de J. Ryckmans, Leyde.

- **CHELHOD Joseph,** *1978* ,Introduction à l'histoire sociale et urbaine de Zabid au Moyen Age, *Arabica , p.48- 88.*

- **DAGHFOUS Radhi,**
  - 1995, *Le Yaman Islamique des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes (I- IIIème s./ VII- IXèmes)*, Publications de l'Université de Tunis, Tunis, deux volumes, 1087.
  - *1980,* Pour une chronologie de l'histoire du Yemen à l'époque musulmane, *Awraq, Madrid, 3, p .3-18.*
  - *1993* La dynastie des ziyadides à Zabid (204- 407 / 819- 1016), *Cahiers de Tunisie, n° 162- 163, , p.33- 69. - 1982,* Une dynastie yéménite autonome: les Yu'furides (213- 393 / 828 -1002), *Cahiers de Tunisie, n° 119- 120, p .4 3- 121.*

- **Encyclopédie de** l'Islam, Ancienne et Nouvelle édition, Brill, Leyden.

- **GEDDES C.L,** *1963-1964* ,Al Ma'mun shi'ite policy in Yemen , *Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes n°59-60, p. 99-107.*

- **HEYD William,** 1885- 1886 , *Histoire du commerce du Levant*, traduit par F . Raynaud, Leipzig, I, p. 35 et sq .

- **KAY H.C ,** 1898, édition de " Tarikh al qaramita " de Djanadi, London.

- **LANEPOOLE S** 1925, The mohammaden dynasties, Paris .

Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée, Aix en Provence, 61.

- **SMITH, G. Rex ,**
Sans date, The political history of the Islamic Yemen down to the first Turkish invasion (1-945 / 622- 1538), *Studies in the Medieval History of the Yemen and South Arabia , p.129-139.*

- **ZAMBAUR ,E. De**,
1927, *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam,* Hanovre, p.115.

- **MAD'AJ Abd al Muhsin Mad'aj,**
1988, *The Yemen in early Islam (9 -233 / 630-847), a political history*, University of Durham, Ihaca Press, London, p.205 et sq.

- **MINORSKY,**
1937, *Hudud al 'alam* , édit de Londres.

- **ROBIN Christian**,
1991-1993 , L'Arabie du Sud de Karib 'il jusqu'à Mahomet .Nouvelles données sur l'histoire des Arabes grâce aux inscriptions,

2- عمان واليمامة والبحرين والحجاز

مقدمة :

شهدت الجزيرة العربية ــ بين منتصف القرن الثالث ومنتصف القرن الرابع للهجرة / القرنين 9 و10 للميلاد ــ العديد من الكيانات السياسية المتباينة في حجمها وفاعليتها، عاد السبب الرئيس في ظهورها إلى انقضاء عصر الخلفاء الأقوياء في الدولة العباسية الذين مثلوا العصر العباسي الأول (132-247هـ / 750-861م) , حيث ابتدأ العصر العباسي الثاني الذي تغلب فيه قادة الجند من الأتراك على مقاليد الأمور فعمت الفوضى وساد الضعف، عندها نجحت الأطراف البعيدة عن مركز الدولة في الاستقلال التام أو شبه التام عن السلطة السياسية المركزية.

وفي الجزيرة العربية كانت هذه المساعي قد تركزت في أطرافها الجنوبية الشرقية والغربية بشكل رئيس، مسفرة عن كيانات كان معظمها من حصيلة جهود الأسرة العلوية أو أنصارها ، فضلا عن الخوارج , لذا لم يكن متوقعا لها أن تدين بالطاعة والولاء للخليفة العباسي.

وفيما يأتي عرض لهذه الكيانات في عُمان ثم في البحرين وأخيرا في الحجاز .

أولا: عُمان و اليمامة :

أ) الإمامة الإباضية الثانية (135-280هـ/752-893م) :

يرجع تأسيس الإمامة الإباضية في عُمان ــ في الأغلب ــ إلى الانحدارات التي منيت بها هذه الحركة في اليمن والحجاز ، فهرب أتباعها من هناك إلى عُمان ، إلا أنهم لم ينجحوا في إقامة كيانهم السياسي إلا بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية. حيث انتخب الخوارج الجلندى بن مسعود إماما لهم في حدود عام (135هـ/752م) , أو ربما قبل ذلك بقليل، ومما ساعد ذلك ميل القبائل اليمانية إلى الاستقلال , ونفرتها من الخضوع لسلطة مركزية ، فضلا عن الطبيعة الوعرة لهذا الإقليم، مع موقع جغرافي تجاري ممتاز يتحكم في مدخل الخليج العربي.

ومنذ قيام هذه الإمامة في عُمان ، لم تشهد البلاد استقراراً حقيقياً بسبب احتدام الصراع مع السلطة المركزية، فتناوب الطرفان السيطرة على البلاد، وفي حدود عام (177هـ/792م) أخذ نفوذ الإباضية في الثبات نسبياً، غير أن الصراعات الداخلية، ولاسيما القبلية منها، أوشكت أن تقضي على هذه الإمامة ، بعد ما حكمها خمسة أئمة تعاقبوا حتى عام (274هـ/887م)

بويع للصلت بن مالك بالإمامة في عام (237هـ/851م) , ومنذ ذلك الحين شهدت

عُمان استقرارا سياسيا واضحا، فلم يعد لقوى المعارضة أثر حقيقي ، ولكن من ناحية أخرى تعرضت البلاد في عام (251هـ/ 865م) لسيول جارفة أهلكت كل شيء، اجتاحت المدن العامرة فتركتها أثرا بعد حين، فقد "قلعت السيول المنازل والأموال ، وغرقت النساء والرجال، فغرق الرجل وعياله ، وتخرب منزله وماله.... وحملت البحور أبدانهم ، وقلعت الأشجار ، فأصبح السالم الموسر منهم فقيرا يطلب الأكل والشيء اليسير".

وقد شملت هذه السيول أنحاء واسعة من عُمان , ولاسيما منطقة الباطنة، الممتدة بين مسقط حتى رأس مضيق هرمز وتشرف على ساحل خليج عُمان، فضلا عن مدن أخرى مثل سمائل وبدبد وقيقا ودما وصحار، التي تلفت فيها معالم الحياة الزراعية , في وقت عدت فيه هذه المناطق أغنى مناطق عُمان زراعة وتجارة ، ولاسيما صحار منها , فهي سوق عُمان التجاري.

أما ما تعلق بالأحوال الخارجية ، فقد شهدت هذه المرحلة فتح جزيرة سقطرى الواقعة في البحر العربي، فقد جهز الصلت بن مالك جيشا حمله أسطول بلغ تعداد سفنه المائة، ففتحت الجزيرة وطرد الأحباش منها، وكان الصلت قد أوصى جيشه بالتزام مبادئ أخلاقية سامية في القتال ومعاملة الأسرى.

إن أخطر المسائل التي واجهت الإمامة الإباضية في عمان تلك الحرب الأهلية الناجمة عن عزل الصلت بن مالك عن الإمامة، ثم قادت في آخر المطاف إلى زوال الإمامة الإباضية في عام (280هـ/893م). هذه الأحداث فسرها الإمام الصلت على أنها مثلت صراعا بين جيلين من أجيال الإباضية : الأول جيل الرواد الذي حمل المبادئ والأفكار وكافح من أجلها ، والثاني جيل الشباب الذي ضعفت فيه الهمة الروحية وبات يطلب الدنيا والرئاسة والوجاهة فيها. أما معارضوه فوجدوا الضعف ظاهرا فيه هو ، فلأجل الحفاظ على قوة الإمامة الإباضية كان لابد من اعتزاله وتنازله لمن هو أشد كفاءة منه وأكثر قدرة على ضبط الأمور ومقاليدها. فدار الصراع بين الطرفين, ووجدت القوى القبلية مدخلا لها في الأمر، فكانت الفتن والاضطرابات والفوضى قد عمت القبائل العمانية.

تولى الإمامة بعد ذلك راشد ابن النظر اليحمدي للمدة بين عامي (274-277هـ/886-890م) , وكان من أبرز الساعين في عزل الصلت ، غير أن الأوضاع العامة والإدارية بقيت كما هي دون تغيير حقيقي. ومن ناحية أخرى فإن قبيلة مهرة القاطنة في الأقسام الجنوبية من عُمان استغلت ظروف ارتخاء الأوضاع

الأمنية، فقامت بأعمال سلب وقطع للطرق، دون أن يحرك الإمام راشد حيالهم شيئا.

وتدهورت الأوضاع بشكل خطير من جديد فقادت إلى وقوع حرب أخرى أبرزها معركة الروضة , ذلك أن القوى المعارضة لإمامة راشد كانت لا تزال متمسكة بإمامة الصلت ابن مالك ، فالتفت حول ابنه شاذان ، غير أن عسكر الإمام راشد داهموا هؤلاء في المكان، وأوقعوا بهم القتل وأسروا منهم جماعة أودعوا في سجن نزوى ، أما الناجون فكانوا قلة ، فيهم شاذان . وقد تسببت هذه الوقعة في ردود فعل غاضبة بين القوى القبلية التي التفت حول شاذان نفسه، إلا أن أنصار الإمام راشد نجحوا مرة أخرى في إنزال الهزيمة بالمعارضين وشتتوهم . وقد أسهمت هذه الوقعات في إضعاف الدعوة الإباضية كثيرا في عُمان، حيث تغلبت النزعات القبلية المصلحية ، وعمقتها الخلافات بين اليمانية والمضرية هناك . حيث توجهت الأنظار صوب ضرورة عزل راشد بن النظر عن الإمامة، فَدُوهِمَ مترله ثم أخذ وأودع السجن ؛ ولأن الصراع كان ذا طبيعة قبلية ، انتصرت فيه اليمانية، وقع الاختيار على عزان بن تميم الخروصي ليكون إماما ، وجرى ذلك في عام (277هـ/890م) ؛ إذ بايعه مشايخ الإباضية . بيد أن الخلاف ما لبث أن نشب من جديد بين الإمام ومرجعيته الفكرية موسى بن موسى ، إذ لم يكن عزان مطمئنا إلى نياته. و في مواجهة عسكرية بين الطرفين قتل موسى بن موسى. لينفتح باب الاضطرابات على مصراعيه حتى تخاذلت الناس عن عزان وضعف أمره كثيرا، عندها تجمعت القبائل وقوى المعارضة ونجحت في اقتحام نزوى عاصمة الإباضية فسقطت في عام (280هـ/893م) , وفي معركة قريبة من نزوى قتل الإمام عزان مع عدد كبير من أنصاره ، ثم أرسلت رؤوسهم إلى بغداد.

وفيما يلي جدول بأئمة الإمارة الإباضية الثانية :

الإمام	مدة حكمه
1. الصلت بن مالك	237-274هـ/851-886م
2. راشد بن النضر اليحمدي	274-277هـ/886-890م
3. عزان بن تميم الخروصي	277-280هـ/890-893م

بالحركة من الأحواز إلى البصرة ، فدخلها قبل وصول المهاجمين، ثم حصنها من ناحية البر والبحر. ومن جانبهم فإن القرامطة لم يلتزموا بكامل الاتفاق المبرم، بل انسحبوا قبل اشتداد المعركة، ربما لعدم اقتناعهم بجدوى القتال ، فبقي جيش بني وجيه بمفرده، وبعد أيام من القتال المحدود ، ألحق المهلبي الهزيمة بخصمه ، فأسر عددا من جنده، واستولى على عدد من المراكب، ثم انسحب بقية الجيش. ولما تسلم عمر بن يوسف الحكم في الإمارة، بدأت مرحلة من الاستقرار السياسي في علاقته مع السلطة المركزية في بغداد، لانهماك كل طرف بشؤونه الداخلية.

أما علاقة بني وجيه بالقرامطة فترجع إلى عام (317هـ/929م) عندما هاجم هؤلاء أطراف عُمان متحاشين الاحتكاك بمناطق نفوذ بني وجيه، مقتصرين على التصدي للإباضية في وسط عُمان وغربها. ويظهر أن تجنب القرامطة لهذا الاحتكاك كان من أجل الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية، ولاسيما التجارية، فقد فرض بنو وجيه سيطرتهم على مدخل الخليج العربي بأسطولهم القوي، وهذا دلّ علي استمرار العلاقات السلمية بين الطرفين، حتى عندما هاجم الوجيهيون البصرة في عام (331هـ/942م) وحاربوا البريديين حلفاء القرامطة. ثم تطور الأمر إلى حد التحالف بينهما ضد معز الدولة – كما تقدم ذكره – ولفشل هذه الحملة المشتركة، عاد الجمود إلى العلاقات بينهما حتى عام (354هـ/965م) عندما قرر القرامطة اجتياح عُمان بعد انقراض حكم بني وجيه فيها.

أما علاقة الوجيهيين بالإباضية، فكانت عدائية، فقد كان الوجيهيون بمثابة القبضة الضاربة للدولة العباسية على هؤلاء الإباضية ، بل اشترك الطرفان في حملة ضد الإباضية أطاحت بإمامة محمد بن يزيد الكندي، خاض بعدها يوسف بن وجيه عدة حروب مع الإمام سعيد بن عبد الله في المدة بين عامي (320-328هـ/932-939م) ، انتهت بهدنة لم تستمر طويلا.

وفيما يلي :

جدول بأمراء بني وجيه

الإمام	مدة حكمه
1. يوسف بن وجيه	317-332هـ/929-943م
2. محمد بن يوسف بن وجيه	332-341هـ/943 952م
3. عمر بن يوسف بن وجيه	341-354هـ/952-965م

ج) إمارة بني الأخيضر في اليمامة (255- منتصف ق 5 هـ /870- منتصف ق 11 م):

انتشر العلويون في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي ، تحت وطأة الضربات والملاحقات التي تعرضت لها هذه الأسرة بسبب معارضتها للسلطات الحاكمة في الدولتين الأموية والعباسية . وكانت اليمامة إحدى المناطق التي استقطبت عددا من هذه الشخصيات مثل : أبو محمد الحسن بن القاسم الرسي بن إبراهيم طباطب بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وكذلك أولاد أحمد بن يوسف بن إبراهيم بن موسى. ثم محمد بن الحسن بن حمزة بن القاسم ابن الحسن بن زيد. ومنهم أيضا أولاد علي بن عبد الله بن موسى الجون وأولاد الحسين بن سليمان بن إبراهيم بن يحيى. أما أبرز الذين استقروا وتوطنوا في اليمامة من العلويين فهم بنو الأخيضر محمد بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي نجح في عام (255هـ/869م) في الاستيلاء على اليمامة وإقامة حكم بني الأخيضر فيها.

ونجاح العلويين في اليمامة يعود بالدرجة الرئيسة إلى بعد المنطقة عن سطوة السلطة المركزية، فضلا عن كون المنطقة معروفة بمعارضتها المستمرة لسلطة الدولة، وتمرد قبائلها الدائم، مع شهود المنطقة لصراعات مستمرة بين أطراف سياسية عديدة، وهذا ما مهد لظهور قوى إضافية على الساحة.

اتخذ بنو الأخيضر مركزهم في الخضرمة وفيها حصن كبير ، وهي مدينة كبيرة فيها صناعات كثيرة متنوعة . ويفهم من هذا أن المدينة كانت قد انقسمت إلى قسمين الأول هو الحصن ، حيث يفترض أن تقيم الأسرة الحاكمة وحاشيتها ومعها الحكومة أيضا ، في حين اشتمل القسم الثاني على عامة السكان . هذا و لم تتوفر معلومات مهمة حول طبيعة الصلة بين حكام هذه الإمارة وسكانها، سوى أن الحكام كانوا علويين زيديين، وأنهم كانوا يضمنون صَلاتهم قولهم : "محمد وعلي خير البشر، وحيّ على خير العمل". و لم ترد إشارة

إلي طبيعة مذهب أهل اليمامة أو طبيعة موقفهم من مذهب بني الأخيضر.

ابتدأ حكم بني الأخيضر في اليمامة بتولي مؤسسها الحكم في عام (255هـ/869م) ، ثم أعقبه ابنه يوسف بن محمد بن يوسف. ثم ابنه إسماعيل بن يوسف. ثم تبعه أخوه الحسن. ثم ابنه أحمد.

امتاز تاريخ الإمارة بحروبها المستمرة مع القرامطة في البحرين ، التي بدأت في عام (316هـ/928م) ، ومع أن القرامطة نجحوا في إلحاق الهزيمة بجيوش بني الأخيضر الذين قُتلت منهم شخصيات مهمة مثل إسماعيل (قتيل القرامطة) ، ومنهم محمد (بن يوسف بن محمد قتيل القرامطة) قتل هو وبنو أخيه إسماعيل وإبراهيم وإدريس الأكبر والحسين بن يوسف بن محمد الأخيضر بن يوسف في موقعة واحدة. ومع هذا لم ينجح القرامطة، مع قوتهم ، في القضاء نهائيا على بني الأخيضر. وهو يكشف عن خطأ ما ذهب إليه مسكويه من أن القرامطة قد تغلبوا على بني الأخيضر وأن اليمامة أصبحت منذ عام (324هـ/ 935م) ضمن أعمال أبي طاهر الجنابي. فقد أكد ناصر خسرو وجود هذه الإمارة حتى منتصف القرن الخامس للهجرة.

ويشير هذا الصراع إلى تناقض المصالح بين الحركات العلوية المختلفة ، أو الحركات ذات الولاء العلوي، إذ لم تنجح في إيجاد الوحدة بينهما، فظلت مفككة متناحرة، فضعفت وغلب عليها طابع الطموح الفردي.

تسببت السياسة الزراعية لبني الأخيضر - القائمة على نظام المقاسمة - في هجرة بني حنيفة إلى البصرة ومصر، هذا فضلا عن الجدب الذي كان يصيب منطقتهم أحيانا ودفعهم إلى هذه الهجرة، ففي عام (310هـ/922م) هاجر أهل قران إلى البصرة وهاجرت أعداد أخرى من بني حنيفة إلى مصر وسكنوا مناطق صعيد مصر وشمال السودان ، ولاسيما في منطقة وادي العلاقي ، حيث مناجم الذهب. وربما كشف هذا الأمر عن نمط العلاقة بين بني الأخيضر وبني حنيفة ، فللهجرة عادة دلالات سلبية كامنة توحي برفض ما هو قائم ، فليس يسيرا على المرء ترك وطنه إلا تحت وطأة الاضطرار . ويعكس المار من ناحية أخرى قوة بني الأخيضر وسيطرتهم على الأوضاع بحزم، حيث لم يعد لبني حنيفة ذكر في اليمامة.

جدول أمراء بني الأخيضر

الإمام	مدة حكمه
1. محمد بن يوسف بن إبراهيم	255-؟ هـ/869-؟ م
2. يوسف بن محمد بن يوسف	؟
3. إسماعيل بن يوسف بن محمد	؟
4. الحسن بن يوسف بن محمد	؟
5. أحمد بن الحسن بن يوسف	؟

ثانيا: البحرين :

أ) دولة القرامطة :

شمل إقليم البحرين المنطقة الممتدة بين البصرة وعُمان واليمامة ومياه الخليج العربي. ويتبع ذلك الجزر المواجهة لهذا الشريط الساحلي. والبحرين بهذا الامتداد ضمت العديد من المدن المهمة مثل : بينونة وجواشا والأحساء والخط ودارين والزارة والزرقاء والعقير والقطيف وقطر والشعر وكاظمة وهجر .

في عام (249هـ/863م) انتقل زعيم الزنج محمد بن علي من سامراء إلى هجر في البحرين ، معلنا فيها عصيانه وتمرده على الخلافة العباسية، وهناك وقع القتال بين الذين أيدوه والذين عارضوه، فترك هجر وانتقل إلى الأحساء وجعل منها مركزا ثانيا لحركته. فوقعت الاختلافات حوله مرة أخرى. إذ توجه صوب البادية مستغلا بساطة أهلها، مظهرا لهم مزاعم دينية باطلة. لكنه غادر بعدها إلى البصرة في عام (254هـ/868م) ، فاستقرت الأوضاع في البحرين حتى عام (281هـ/ 894م) حيث أخذ نشاط القرامطة بالظهور فيها ، وهم الذين كانوا قد ظهروا قبل ذلك في العراق بسنوات قليلة عندما أرسل عبد الله بن ميمون من مقره في سلمية – شمال بلاد الشام – الحسين الأحوازي إلى سواد العراق ونجح في اجتذاب حمدان الملقب بحمدان قرمط الذي أصبح داعية الحركة في الكوفة.

أما بشأن نشاط الحركة في البحرين ، فقد اختلفت الروايات في ذلك ، فنسب بعضها بدء الحركة فيها إلى يحي بن المهدي الذي قدم القطيف ونزل فيها على علي بن المعلى بن حمدان، حيث اشتركا في الدعوة إلى مبادئ القرامطة. وفي روايات أخرى أن عبدان صهر حمدان قرمط أرسل أبا سعيد الجنابي إلى البحرين بعد أن زوده بالأموال والكتب ، وقد يكون الذي أرسله حمدان قرمط نفسه. وبشكل عام فإن الدور الرئيس للحركة في

البحرين يعود لأبي سعيد الجنابي ربما بعد أن مهد له الأمر يحيى بن المهدي .

نجح أبو سعيد في كسب الأعراب إلى جانبه ، وقوي مركزه بينهم. كما انضم إليه بقايا الزنج هناك أيضا ، فصلا عن كسب عدد من الوجوه أمثال ابن سنبر و إخوته، وهو ما رفع من شأن الحركة كثيرا. وقد تعرض لمطاردة الوالي العباسي، حيث التجأ إلى بعض أطراف عُمان، ونجح منذ عام (286هـ/899م) في شن الغارات على قرى القطيف، التي احتلها بعد ذلك. وفي الزارة نجح في إلحاق الهزيمة بقوات الوالي العباسي، فقد فتح المدينة وألحق بها ضرراً كبيراً جداً ، بدأ بعدها نشر دعوته في البحرين على وفق تنظيم دقيق ومحكم، وكان أبرز مؤيديه الناقمين على الحكم العباسي.

أدرك الخليفة العباسي المعتضد خطورة الموقف في البحرين، فكلف العباس بن عمرو الغنوي بمحاربة القرامطة فيها بعد أن ولاه إدارة المنطقة ومعها اليمامة. وجهزه بألفي مقاتل. وانضم إليه عدد من المتطوعة، حتى قيل: إن قواته بلغت عشرة آلاف مقاتل. وقرب البصرة التقى الطرفان ، وبعد معركة محتدمة حاقت الهزيمة بالغنوي وجيشه الذي قتل معظمه، بسبب عدم قدرة المتطوعين على الثبات في القتال، وكان الغنوي نفسه قد وقع في الأسر. ثم عفا القرمطي عنه ليحمله رسالة إلى الخليفة العباسي، فلما فضها لم يجد فيها شيئا ، وقد يكون قصد من ذلك الاستهانة والاستهزاء بالسلطة المركزية ، ثم عمد بعد ذلك إلى بقية الأسرى فقتلهم قتلة بشعة.

بعد عودته من البصرة منتصرا، وجه الجنابي اهتمامه صوب هجر ، قاعدة البحرين، وكانت محصنة جيدا، فحاصرها وقطع المياه عنها حتى اضطرت إلى الاستسلام . ثم ألحق بالمدينة أذى هائلا. وبعد هذه الانتصارات أعلن الجنابي عن قيام دولته، حيث تبين له عجز الدولة العباسية عن مواجهته، وتمهيدا لتوسع دائرة نفوذه ، شن الجنابي سلسلة من الغارات المتلاحقة على جنوب العراق وقوافل الحج ، واقترب في تحركاته من البصرة، حتى أن أهلها هموا بمغادرتها لولا أن منعهم الوالي العباسي.

وبمشورة من الوزير علي بن عيسى سعت الخلافة إلى مهادنة القرامطة ، حيث وافق الخليفة على إرسال وفد لهذا الغرض. حيث تم الاتفاق في عام (301هـ/913م) على عقد هدنة بين الطرفين. شهدت على أثرها السنوات اللاحقة نوعا من الهدوء النسبي حتى عام (305هـ، 917م) وكان أبو طاهر سعيد بن أبي سعيد الجنابي قد تولى الحكم في البحرين بعد مقتل والده.

في عام (307هـ/919م) اشتد النشاط السياسي والعسكري للقرامطة مرة أخرى، حيث

تقدمت جيوشهم إلى البصرة ، فسلبت ونهبت ثم عادت إلى البصرة. وفي عام (311هـ/924م) جرى اقتحام البصرة ثانية ، فاستبيحت سبعة عشر يوما سلبا ونهبا. وفي عام (312هـ/ 924م) هاجم القرامطة قافلة للحج عائدة في طريقها إلى بغداد، فنهبت وأسر عدد من وجهائها، أما الآخرون فتركوا ليلقوا مصيرهم المحتوم جوعا وعطشا ، وقدرت الأموال التي نهبت من القافلة بمليون دينار، ومن الأمتعة ما قيمته أكثر من ذلك. أما في بغداد فكانت ردود الفعل غاضبة جدا ، فقد احتشدت العامة ونددت بالوزير ابن الفرات واصفة إياه بالقرمطي الكبير، في حين وصفت أبا طاهر سعيد الجنابي بالقرمطي الصغير.

حاول أبو طاهر الجنابي استغلال النتائج التي حققها في هجماته هذه، فعمد إلى مساومة الخليفة على الشخصيات المهمة التي أسرها . فطالب بالبصرة و الأحواز ليضمهما إلى ملكه. غير أن الخلافة رفضت الطلب، وبمبادرة غير متوقعة أطلق أبو طاهر سراح هؤلاء الأسرى. غير أن غاراته المتعرضة للقرى والمدن وقوافل الحج لم تتوقف، فقد تعرض لقافلة حج قادمة من بغداد كان على رأسها جعفر بن ورقاء الشيباني. وتعرض لقافلة أخرى كان المتولي لها ثمل صاحب البحر. دخل الكوفة بعدها وسلب ونهب لستة أيام , وهو الأمر الذي يكشف أن المبادئ الإقتصادية والإجتماعية التي ادعاها هؤلاء لم تتعد كونها شعارات زائفة كاذبة تستروا وراءها للوصول إلى مآربهم في السلطة والتملك .

وإزاء هذا الخطر المتفاقم كان لابد للخلافة من اتخاذ الإجراءات اللازمة للحد منه. لذا تقرر في عام (314هـ/926م) نقل يوسف بن أبي الساج من ولاية فارس إلى المناطق التي تتعرض لخطر القرامطة ومنحه صلاحيات مالية وعسكرية واسعة. في عام (315هـ/927م) توجه ابن طاهر الجنابي إلى الكوفة لمهاجمتها. وعلى الرغم من كل الإجراءات تمكن من أن يسبق يوسف بن أبي الساج في الدخول إلى الكوفة، مستوليا على ما فيها. أما القائد العباسي فكان قد استهان بحجم الخطر، فوقع أسيرا أبي طاهر. وهرب أهل الكوفة حفاة عراة في كل اتجاه لا يلوون على شيء. فحاولت الخلافة بإمكانياتها العسكرية محاصرة قوة أبي طاهر ومنعه من العودة إلى هجر ، فتم توجيه مؤنس الخادم إلى الكوفة ، إلا أن أبا طاهر كان قد غادرها ، متوجها إلى عين التمر – بلدة قرب الأنبار وغربي الكوفة – أرسل الخليفة على أثر ذلك خمسمائة سميرية – وهي سفن حربية صغيرة – أعقبها بقوات برية أيضا. وأتبعها بقوة عسكرية أخرى توجهت إلى الأنبار، لكن الجنابي نجح في الإفلات من كل هذه القوات. بل نجح في معركة صغيرة في السيطرة على الأنبار. وإزاء ذلك وحه

الخليفة قوة كبيرة تتكون من أربعين ألف مقاتل بقيادة نصر الحاجب للتصدي لهذه المواقف الخطيرة. حيث أنفقت على هذه الحملة أموال كبيرة. كل ذلك عبر عن القلق الشديد قبالة ما يحصل، على الرغم من أن قوة أبي طاهر الجنابي لم تتجاوز (2700) مقاتل . ثم تبلورت خطة رئيسة للدفاع عن بغداد التي اقترب القرامطة منها كثيرا ، تمثلت في قطع القناطر التي تؤدي إلى العاصمة. وذلك ما أدى فعلا إلى تراجع القرامطة إلى الأنبار والعزوف عن مهاجمة بغداد ، التي عمت فيها الأفراح وأنفق الخليفة وأمه الأموال بهذه المناسبة. أما ابن طاهر فقد تقدم إلى الرحبة – القريبة من الرقة –ومنها أغار على مناطق عديدة في أطرافها، عاد بعدها إلى هجر ليستقر فيها ويبني " دار الهجرة ".

أما أفدح ما قام به القرامطة فهو تفدمهم إلى مكة في عام (317هـ/929م) ، فهاجموا الحجيج في الثامن من ذي الحجة ، وكان أمير الحج منصور المفلحي، وعلى الرغم مما كان معه من فرسان ورجّالة ، فإن المهاجمين أعملوا سيوفهم في الناس في المسجد الحرام ، فبلغ عدد قتلاهم عدة آلاف.و قد ألقي قسم منهم في بئر زمزم، ودفن الباقون دون تغسيل أو صلاة عليهم. ولما حاول أمير مكة محمد بن إسماعيل إقناع القرمطي بالعدول عن أهدافه مقابل ما يريد من الأموال ، لم يلتفت إليه ، بل قتله ومن معه من الأشراف. ثم انتزع أستار الكعبة وقطعها ووزعها على أصحابه، كما انتزع الحجر الأسود وباب الكعبة وعاد بهما إلى هجر.

ورافق ذلك قيام القرامطة بالسلب والنهب لموجودات المسجد الحرام وبيوت الناس. ثم أخذ معه زهاء (1500) من النساء والأطفال وترك الآخرين مشردين، فقتل الجوع والعطش الكثير منهم.وبقي الحجر الأسود في هجر حتى عام (339هـ/941م).

وفي عام (319هـ/931م) هاجم القرامطة الكوفة ثانية ، فهرب اتلها متجهين صوب بغداد ، مما ثار ذعر سكان العاصمة ، هلعهم، فاحتشدوا متظاهرين، ومطالبين باتخاذ ما يلزم لوقف القرامطة عند حدهم، فأرسل الخليفة سرية من (200) فارس دخلت الكوفة ، فعاد إليهم أبو طاهر ودخل الكوفة مرة أخرى ليجهز على ما تبقى، عاد بعدها إلى هجر حاملا معه غنائمه. وفي عام (323هـ/934م) تحرك أبو طاهر الجنابي قاصدا القادسية لملاحقة إحدى قوافل الحج ، ثم تابع مسيره ودخل الكوفة مرة أخرى. فاضطربت العامة من جديد . أما الخليفة فلم يجد سوى التضرع إلى الله تعالى لدفع خطر القرامطة ، وصام من أجل ذلك عدة أيام . و هاجم القرامطة الكوفة مرة أخرى في عام (325هـ/936م) ،

وتحت مثل هذه الضغوط نجح في انتزاع إتاوة سنوية من الخلافة، مقابل تعهده بحماية قوافل الحج وعدم التعرض لها. فقد وافق الخليفة على دفع مبلغ قدره (120) ألف دينار للقرامطة تدفع سنويا. عندها هدأت طريق الحج و لم تتعرض لخطر القرامطة.

أما بشأن علاقة القرامطة مع جيرانهم الآخرين في عُمان واليمامة. فقد توافق نشاط أبي سعيد الجنابي مع إمامة عبد الله بن محمد الحداني في عُمان، الذي تحسس هذا النشاط وأدرك أبعاده، فحاول دفع الخطر بالنودد إلى الجنابي ، وبلغ الحد به أن أظهر اعتناقه لمبادئ القرامطة ، بل سمى نفسه بأبي سعيد الجنابي أيضا، غير أن أهل عُمان ثاروا عليه وخلعوه عن الإمامة ، فأرسل أبو سعيد سرية من (600) جندي، أردفهم بمثلهم، غير أن الحملة لم تحقق أي نجاح لها . بل كادت تبيد ، فلما عادوا أجهز أبو سعيد عليهم لاعتقاده بخيانتهم العهد، و لم يفكر ثانية بتوجيه اهتمامه نحو عُمان. ولما تولى أبو طاهر الجنابي حكم البحرين في عام (305هـ/917م) كانت اهتماماته محدودة تجاه عُمان. إلا أن عام (317هـ/929م) كان مفتاح مد نفوذ القرامطة إلى هناك مستغلين الحروب الأهلية التي استعرت فيها، فدخل أبو طاهر عُمان دون مقاومة تذكر حتى بلغ منطقة أدم – في نواحي عُمان الشمالية – حيث أخضع مناطق واسعة هناك ، إلى أن تولى سعيد بن عبد الله إمامة الإباضية ، فأفتى له العلماء بجواز حرق بيوت القرامطة، عندها نجح في إزاحتهم عن المنطقة. وبعد صراع بين الطرفين دام سبع سنوات.(السالمي , 224/1 و265 – المقريزي , 1967, 162).

أما بشأن اليمامة ، فيتضح من أقوال المؤرخين أنها خضعت لحكم القرامطة منذ عام (324هـ/935م) وأصبحت من أعمال البحرين. حيث بقي حكامها من بني الأخيضر في مواقعهم ، إلا أنهم دانوا بالطاعة لحكام البحرين ، فكانوا نوابا عنهم . وهذا يفهم مما ذكره ابن حزم (ت 456هـ) بشأن استمرار بني الأخيضر في حكم البلاد حتى أيامه هو ، وساعد على ذلك التكوين العلوي لبني الأخيضر الذي توافق مع التوجهات العامة للقرامطة .

كل ما تقدم يشير إلى المساحة الكبيرة التي امتد عليها نفوذ القرامطة، مستندين في ذلك إلى سياسة عسكرية دأبت منذ البدء على إدامة القتال، وبسياسات قاسية شكلت مقدماتها حربا نفسية مكنتهم من الوصول إلى الانتصارات التي حققوها.

جدول حكام القرامطة

الإمام	مدة حكمه
1. أبو سعيد الجنابي	282-301هـ/ 894-913م
2. سعيد بن أبي سعيد الجنابي	301-305هـ/ 913-917م
3. أبو طاهر سليمان ابن أبي سعيد الجانبي	305-332هـ/ 913-940م
4. أبو القاسم سعيد ابن الحسن	332-؟هـ/ 940؟م

ثالثا: الحجاز :

أ) الامارة السليمانية (301-317هـ/913-929م) :

كانت الحجاز مركزا لأنشطة علوية عديدة ، أبرزها حركة محمد النفس الزكية في حدود منتصف القرن الثاني للهجرة .إلا أن العلويين لم يلقوا نجاحا في الحجاز ، لقرب الحجاز عموما من مركز قوة الدولة العباسية ، فضلا عن أنه لم يكن سهلا غض الطرف تجاه أي مخاطر سياسية تظهر في هذا الإقليم لأهميته الكبيرة سياسيا ودينيا، غير أن الضعف الذي دب في أوصال الخلافة، ولاسيما عقب مقتل الخليفة المتوكل في عام (247هـ/861م) الذي أسفر في نتائجه المتعاقبة عن ضعف إمساك السلطة المركزية بكل أطراف الدولة، فوجد الطامحون فرصة لهم في الحجاز .

فقد نجح بعض العلويين من بني سليمان بن داوود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في الاستقلال بإمارة مكة عن السلطة المركزية. ففي عام (301هـ/913م) خلع الأمير العلوي الطاعة لبني العباس ودعا لنفسه. لقد كان لسليمان ابن داوود هذا عقب من ابنه محمد تجاوز عددهم المائتين، ولهم بالحجاز ثروة وأتباع . وهنا يصحح ابن خلدون بعض الالتباسات الذي وقع في الشخصيات بسبب تشابه الأسماء غالبا، فيقول : إنه كان على رأس هؤلاء محمد بن سليمان بن داوود، ولكنه ليس سليمان بن داوود الذي كان قد خرج على الخليفة المأمون لأن بين الاثنين زمن قدره قرابة المائة سنة.

وقال الأمير العلوي الجديد لمكة في خطبته التي ألقاها بهذه المناسبة : "الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكحل دعوة خير الرسل بأسباطه لابني أعمامه، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين، وكف عنا ببركته أسباب المعتدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين..."

غير أن الملبس في شأن هذه الإمارة أن المصادر الأساسية لم تورد بشأنها أي خبر ، بل إن بعض المصادر أشارت في حولياتها إلى أمير الحج

الذي كان يخرج من بغداد لتولي الرسم . في حين أنها أغفلت الإشارة إلى أمير مكة ، ومن يكون ؟.

وفي الأحوال كلها فإن هذه الإمارة لم تكن من القوة بحيث تتمكن من حماية الحجاج أو الأماكن المقدسة وضد المغيرين عليها . فقد تقدمت الإشارة إلى غزو القرامطة لمكة وفعلتهم الشنيعة فيها.حيث أقاموا الخطبة فيها لعبيد الله المهدي.وذلك في العام (317هـ/929م) ، وهو أقصى زمن يمكن لهذه الإمارة أن تكون قد دامت إليه.

أ.د موفق سالم نوري
(العراق – جامعة الموصل)

المصادر و المراجع

1) المصادر :

- **ابن الأثير** : عز الدين أبي الحسن (ت 630هـ/ 1233م)
1966، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت.

- **ابن تغري بردي** : جمال الدين أبي المحاسن
1963، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.

- **ابن رستة** : أبو علي أحمد بن عمر (ت حوالي 390 هـ/ 990م)
1891، الأعلاق النفيسة ، تحقيق : دي خويه ، مطبعة بريل، ليدن .

- **ابن الجوزي** : عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ / 1062م)
1937، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن.

- **ابن حزم**: أبو محمد علي بن أحمد (ت 465هـ/ 1062 م)
1962، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة.

- **ابن حوقل** : أبو القاسم النصيبي (القرن الرابع هـ / القرن العاشر م)
1979، صورة الأرض ، مكتبة الحياة، بيروت.

- **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد (ت 809هـ/ 1406 م)
1971، تاريخ ابن خلدون، الأعلمي للمطبوعات، بيروت .

- **ابن خلكان** : أبو العباس شمس الدين (ت 681هـ / 1282م)
1971، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ودار صادر، بيروت.

- **ابن رزيق** : حميد بن محمد (القرن الثالث عشر هـ/ القرن التاسع عشر م)
1977، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله ، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان .

- **ابن سنان** : أبو الحسن ثابت (ت 365هـ/ 975م)
1971، تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- **ابن طباطبا** : إبراهيم بن ناصر
1968، متنقلة الطالبية ، تحقيق محمد مهدي حسن الخراسان، المطبعة الحيدرية، النجف .

- **ابن العماد الحنبلي** : أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089 هـ 1678م)

د ت، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق كوند وغرافين ، المكتب التجاري، بيروت .

- **ابن عنبة** : جمال الدين أحمد بن علي (ت 774هـ/ 1372م)

1961، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، تصحيح محمد حسن آل الطالقاني، المطبعة الحيدرية، النجف.

- **ابن كثير** : أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت 774هـ/1372م)

1977، البداية النهاية، مكتبة المعارف، بيروت.

- **الأزهري** : أبو منصور محمد بن أحمد الهروي، (ت 370هـ/ 980م)

1967، تهذيب اللغة، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دال الكتاب، العربي، القاهرة.

- **الأصبهاني** : أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ/ 966م)

د ت، مقاتل الطالبين، النجف.

- **الأهدل** : الحسين بن عبد الرحمن (ت 855هـ/ 1451م)

تحفة اليمن بذكر سادات اليمن(مخطوط) مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، رقم(55) .

- **البغدادي** : عبد القاهر بن طاهر ابن محمد التميمي (ت 429هـ/ 1033م)

1973، الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

- **التنوخي** : أبو علي المحسن بن علي (ت 384هـ/ 994م)

1973، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، د/م.

- **الثعالبي** : أبو منصور عبد الملك ابن محمد (ت 429هـ/ 1038م)

1960، لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة .

- **خسرو** : ناصر أبو معين الدين القبادياني المروزي (ت 481هـ/ 1087م)

1970، سفر نامة، 1970، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت .

- **الذهبي**: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 748هـ/ 1347م) .

1974 ، دول الإسلام ، تحقيق فهيم محمد شلتوت و محمد مصطفى إبراهيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة .

- **زبارة** محمد بن يحيى (القرن العشرين م)

1343هـ ، إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ، صنعاء .

1376 هـ ، مختصر إنباء اليمن ونبلائه بالإسلام، المطبعة السلفية، القاهرة .

- **السالمي** : نور الدين عبد الله بن حميد (ت 1332هـ/1914 م)
1974، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم، عمان.
- **الصابئ** : أبو الحسين هلال بن الحسن (ت448هـ/ 1055م)
1958، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب، القاهرة.
- **الصولي** : أبو بكر محمد بن يحيى (ت 335هـ/ 946م)
1979، أخبار الراضي والمتقي، تحقيق هيورت، دار المسيرة، بيروت.
2000، قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي، تحقيق خلف رشيد نعمان ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- **الطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير (ت 301هـ/ 922م)
1966، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
- **القرطبي** : عريب بن سعيد (ت 368هـ/ 978م)
1966، صلة تاريخ الطبري، ملحق بالجزء الحادي عشر من تاريخ الرسل والملوك للطبري.
- **القلقشندي** : أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)
1968، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة.
- **المسعودي** : أبو الحسن على بن الحسين(م 346هـ/ 957م)
1948، مروج الذهب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
1965، - التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت.
- **مسكويه** : أبو علي أحمد بن محمد (ت421هـ/ 1039م)
1915، تجارب الأمم، مكتبة المثنى، مطبعة التمدن، القاهرة.
- **المقريزي** : تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م)
1967، اتعاظ الحنفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- **مؤلف مجهول**:
تاريخ عدن (مخطوط)، مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، رقم (45)
- **مؤلف مجهول** (القرن 4 هـ/ العاشر م)
1972، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق عمر السعيدي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - بغداد.

- **الهمداني** : محمد بن عبد الملك (ت 521هـ/1070م)
1961، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق ألبرت يوسف كنعان ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت .

- **الهمداني** : أبو محمد الحسن بن أحمد (ت بعد 360هـ/ 970م)
1925، صفة جزيرة العرب، القاهرة.

- **اليافعي** : أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت 768هـ/ 1266م)
1338 هـ ، مرآة الجنان، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن.

- **ياقوت**: شهاب الدين أبي عبد الله (ت 626هـ/1229م)
1955، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

2) المراجع :

- **بندلي**: جوزي
د.ت، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، دار الروائع , بيروت.

- **ثامر**: عارف
د.ت , القرامطة , بيروت .

- **الحديثي** : نزار عبد اللطيف
1977، إمارة بني الأخيضر في اليممة، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد، م2 ، ع1، بغداد .

- **الدوري**: عبد العزيز
د. ت، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بغداد.

- **عمر** : فاروق فوزي
د.ت، الخلافة العباسية ، بغداد .
1985، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، دار واسط، بغداد.

- **محمد** : جاسم ياسين
1986، عمان، دراسة في أحوالها السياسية والإدارية، رسالة ماجستير غير منشورة, بغداد.

3) المراجع الأجنبية

- **Bates, M.L**
1974 ,Notes and communication, Unpolished Wajihid and Buyid coins from Oman, in Arabian studies, Vol 1.

- **Wilkinson, J. C.**
1977 ,Water and tribal settlement in south – east Arabia, London .

خريطة الكيانات السياسية في الجزيرة العربية من منتصف القرن الثالث هـ/ القرن التاسع م إلى منتصف القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م

الفصــل الرابـع :

المؤسسات و تطورها من القرن الثاني هـ/ القرن الثامن م إلى أواسط القرن الخامس هـ/ القرن الحادي عشر م

1) الخلافة

2) الوزارة

3) الحجابة

4) الدواوين

5) الجيش

6) القضاء

7) الحسبة

8) الضرائب و إدارتها

مقدمة عامة:

شهد العالم الإسلامي منذ الحقبة الأولى من تاريخه بروز العديد من المؤسسات السياسية والإدارية والدينية والاقتصادية ، وكذلك المالية والعسكرية والقضائية ، ولعل الخلافة أهم هذه المؤسسات التي تمثل حجر الزاوية بالنسبة لنظم الدولة الإسلامية . وقد نشأت في اجتماع السقيفة بالمدينة إثر وفاة الرسول (ﷺ) وتبلورت في العهد الراشدي لتصبح فيما بعد وراثية .وعمت جميع أنحاء العالم الإسلامي الذي انقسم في القرن الثالث للهجرة/التاسع م بين خلافة عباسية في بغداد وخلافة فاطمية في المهدية ثم القاهرة وأخيرا خلافة أموية في قرطبة. كما ظهرت على المستوى المركزي مؤسسة الوزارة التي انتشرت في المجال الفاطمي والأموي بالأندلس ، كما تواجدت على المستوى المحلي في مختلف الكيانات المستقلة في المشرق والمغرب.

من ناحية أخرى برزت مؤسسة الحجابة التي بلغت أوجها في الأندلس على أيدي أبي عامر.وبصفة موازية شرع الخلفاء المسلمون بداية من عهد عمر بن الخطاب في تنظيم المجال الذي توسع بفضل الفتوحات الإسلامية ، وتم إرساء ما يسمى بالدواوين التي شملت جميع الميادين ولا سيما في العهد الأموي ، وكذلك العباسي ، فأصبحت بمثابة الوزارات اليوم.

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى نشأة نظم أخرى مثل نظام القضاء و الحسبة وكل ما يتعلق بالضرائب و الأمن (الشرطة) والجيش. و قد تطورت كل هذه النظم خلال القرون 3 و4 و5 للهجرة / القرون 8 و9 و10م وتحددت مهامها من طرف الفقهاء والمؤلفين الذين وضعوا كتبا عنها ، ومن هنا أصبح الباحثون قادرين على دراستها ومتابعة كل ما يتعلق بوظائف القائمين عليها من وزراء وحجاب وقضاة ومحتسبين وقواد جيش ومشرفين على دواوين وغيرهم

1) الخلافـــة:

الخلافة لغة ، مصدر خلف ، مثل فـلان خلف فلانا، وجمع الخليفة خلائف وخلفاء، ويطلق على من يتولى عملا كما يتولاه سلفه فهو خلفه .

في يوم وفاة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام سارع الأنصار واجتمعوا في مكان يعرف بسقيفة بني ساعدة ، واتفقوا على انتخاب الصحابي سعد من عبادة زعيم الخزرج أميرا" يتولى أمر المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبلغ أبو بكر (رضي الله عنه) بالأمر، فتوجه ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة عامر بن الجراح (رضي الله عنهما) إلي مكان السقيفة، وجرى نقاش بين المهاجرين والأنصار حول من يتولى الأمر بعد وفاة الرسول (ﷺ) ، وكان الأنصار يرون أنهم أحق بولاية الأمر، لأنهم الذين نصروا وساعدوا الرسول (ﷺ) وصحابته واستضافوهم وجاهدوا معهم لتثبيت قواعد الإسلام ، ورأى المهاجرون أنهم صحابة الرسول الأولون وبنو عشيرته وأولياؤه. وأشار المهاجرون إلى أن الرسول (ﷺ) قال: "الأئمة من قريش" وانتهى الجدال إلى مبايعة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) لأنه أول السابقين إلى الإسلام وشيخ المهاجرين، ويروى الطبري الكيفية التي تمت فيها بيعة أبي بكر (رضي الله عنه) إذ تقدم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال لأبي بكر : أبسط يدك أبايعك ، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، وصار الناس الذين في السقيفة يتقدمون لبيعة أبي بكر التي عرفت في التاريخ بالبيعة الخاصة، وفي اليوم الثاني حضر أبو بكر إلي المسجد النبوي وتقدم المسلمون لمبايعته بالخلافة، وعرفت هذه البيعة بالبيعة العامة .

وخطب أبو بكر في المسلمين وقال : أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له حقه والقوى ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى، ولا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم ، رحمكم الله.

واتخذ الخليفة أبو بكر عبارة خليفة "رسول الله" مدلولاً رسمياً على وظيفته الجديدة، والخلافة في نظر المشرعين المسلمين : رياسة في أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنزلة الخليفة من الأمة منزلة رسول الله من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله الرياسة في الأمور الدينية والدنيوية ، فهو إذن

الحاكم الزمني والروحي وهو الذي يرعى مصالح المسلمين جميعاً ، يقول ابن خلدون: "والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا".

ويذكر ابن خلدون أن الخليفة يُسمى "إماما" تشبيها بإمام الصلاة، وبيَّن ابن خلدون أن شروط منصب الخلافة أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل، واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي .

ويراد بالعلم، العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام الفقهية، وبالعدالة أن يكون الخليفة حسن السيرة متجنبا للمعاصي، ويراد بالكفاية أن يكون الحليفة جريئا على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبية وأحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ؛ ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح ، أما سلامة الحواس والأعضاء فالمقصود به أن يكون نقص بعضها مؤديا إلى عجزه وتقصيره بقيامه بواجباته بشكل سليم .

واستاثر موضوع الخلافة بعض الجماعات والفرق فكانت لهم آراؤهم فالعلويون أي أنصار الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) كانوا يرون أن الخلافة يجب أن تكون في آل البيت وحصرا" في شخص علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأولاده من بعده، وجعلوا للخليفة صفات دينية ، فهو مستودع العلم الشرعي ، على اعتبار أنه وحده الذي يفهم القرآن والسنة وله حق تفسيرهما ؛ ولذا لقبوا الخليفة بلقب "الإمام" ؛ لأنهم يعدونه القدوة لهم ، وأشار الشهرستاني إلى موضوع الإمامة بقوله :" ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية هو ركن الدين ، لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمع القوم بوجوب التعيين والتخصيص، وبوجوب عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر.

لهذا نرى آل البيت والحزب العلوي كانوا يرون أن علي بن علي طالب (رضي الله عنه) كان الرسول محمد(ﷺ) عينّه بعده ، ويوردون لذلك نصوصا عديدة. منها قوله (ﷺ): من كنت مولاه فعلي مولاه ، وقال فيه رسول الله (ﷺ) " أنت مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى " وقوله (ﷺ) لعلي: " أنت أخي في الدنيا والآخرة " وما من شك أن الرسول (ﷺ) كان

يؤثر عليا على كل الأقرباء والأصحاب ، بل على كافة المسلمين، إنه المجاهد الأول في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وإنه صهره وابن عمه وإنه أبلغ العرب وأشجعهم وأكرمهم وأفقههم، وأعتقد أن كل ما ورد في عبارات الرسول (ﷺ) بحق علي بن أبي طالب كان دعاء روحيا لعلي واعترافا بأفضليته وأسبقيته وبماله من خدمات على المسلمين ، إنها عبارات لم تكن صريحة بأن الرسول (ﷺ) أوصى بالخلافة من بعده لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ولكنها في الحقيقة على ما أرى مقدمات تزكية وتهيئة لشخص علي (رضي الله عنه) ليأخذ مكانه السامي في المجتمع الإسلامي ، هذا وإن الإمام علياً (رضي الله عنه) كان واثقا على ما يبدو من أن المسلمين سيتخذونه ولي أمرهم بعد وفاة الرسول (ﷺ) بدليل أن العباس بن عبد المطلب عم الإمام علي، طلب من الإمام علي الموافقة على مبايعته كما طلب منه أن يمد يده لمصافحة أبي سفيان الذي قدم مع عمه فاعتذر الإمام علي مبينا لهما أنه لا يوجد في العرب من يخالف اختياره بعد الرسول" (ﷺ) .

أما الخوارج فكانوا يرون أن الخلافة عامة، وكل مسلم أهل للخلافة وإن كان أعجميا أوعبدا حبشيا ، وهم يختلفون عن سائر المسلمين بقولهم: إن قيام الإمام ليس من الفروض الدينية، وإن الجماعة الإسلامية تستطيع في أي وقت من الأوقات أن تقوم بجميع الفروض الدينية، وأن تكون لها حكومة مدنية مستكملة لجميع الصفات الشرعية من غير أن يقوم على الإطلاق، فإذا ما رأت هذه الجماعة في ظروف خاصة أن من المستحب أن يكون لها إمام أوجبت الضرورة ذلك ، فلها أن تختار من يلي هذا المنصب فإذا تبينت أنه ليس أهلا" لهذا المنصب على أي وجه من الوجوه فلها أن تعزله أو تقتله.

واشترط الخوارج أن يكون الخليفة أشد الناس خشية لله، وأعظمهم طاعة له وأقواهم استمساكا" بالدين وإتباعاً لأحكامه، فإذا لم يف مسلكه بهذه الشرائط وقصرت سيرته عن إدراكها، جاز للأمة أن تخلعه. وذهب أبو حنيفة وأكثر المرجئة و أكثر الزيدية من الجارودية وغيرها وسائر فرق الشيعة، إلى أن الإمامة لا تجوز إلا في قريش ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "الإمامة في قريش" وقوله عليه السلام : " قدموا قريشاً ولا تقدموها".

أما المعتزلة ، فإنهم على ما يبدو أخذوا برأي الخوارج وقالوا بأن اختيار الخليفة مفوض إلى المسلمين، واختيار من الأمة ؛ وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه واختيار ذلك مفوض إلى الأمة فعليها تختار رجلاً ينفذ فيها أحكامه سواء كان قريشيا أو غيره من أهل سنة الإسلام، وأهل العدالة والإيمان، لم يراعوا في ذلك

النسب ولا غيره وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك، والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هم المعتزلة بأسرها، وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن حي ومن قال بقوله من الفرقة الزيدية المعروفة بالصالحية ، واتفقت معهم الفرقة الزيدية الأخرى المعروفة بالأبترية أصحاب كثير النوا الملقب بالأبتر، وصححوا خلافة أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) و لم يكفروهما ، وعدوهما أهلا" لذلك المقام ، وذلك أن عليا" سلم لهما الأمر، وبايعهما غير مكره وهم يقولون بإمامة الأفضل و الأزهد إذا تساوت بقية الشروط، فإذا تساويا أيضا ينظر إلى الأمتن رأيا "والأحزم أمرا" ، فإذا انفرد كل منهما في قطر وجبت الطاعة له في قومه ولو أفتى باستحلال دم الآخر.

أما الفرقة الزبدية الأخرى والمعروفة بالسليمانية وهم أصحاب سليمان بن جرير فيقولون : إن الإمامة شورى، وإنها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين وإنها تصلح في المفضول وإن كان الفاضل أفضل من كل حال ويثبتون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر(رضي الله عنه) .

ومن الجدير بالقول أن عز الدين بن أبي الحديد، الذي قام بشرح نهج البلاغة للإمام علي (رضي الله عنه) قال :" أتفق شيوخنا كافة رحمهم الله (يقصد بهم المعتزلة) المتقدمون منهم والمتأخرون والبصريون والبغداديون، على أن بيعة أبي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية ، وأنها لم تكن عن نص ، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع.

ومهما يكن من أمر فإن انتخاب أبي بكر الصديق (ﷺ) خليفة للمسلمين كان يتوافق والتقاليد العربية في انتخاب رئيس القبيلة العربية، وكانت لشيخوخة أبي بكر وقدم إسلامه وتجاربه الكثيرة في الحياة السياسية وجهاده في الإسلام وصحبته للرسول (ﷺ) وتأمير الرسول له الصلاة في أثناء مرضه الأخير الآثار الكبيرة في استقرار المسلمين على اختياره خليفة للمسلمين . ويلاحظ أن انتخاب الخليفة الأول وكذلك الخلفاء الراشدين جميعا" كانت المدينة المنورة تنفرد به دون المدن الأخرى ، وقام أبو بكر بمهمته أحسن قيام ؛ فقد سار على نهج الرسول (ﷺ) في حماية المبادئ الإسلامية والجهاد من أجل إعلاء كلمة الإسلام، ولما أحس (رضي الله عنه) بدنو أجله استشار كبار الصحابة فيمن يعهد بالأمر من بعده ، واستقر الرأي عنده أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو الشخص المناسب لتولي الخلافة من بعده ، فأثبت المسلمون إمامته بعهده . ولما طعن عمر (رضي الله عنه) ، وكانت إصابته خطيرة ، دخل عليه جماعة من كبار الصحابة وقالوا: يا أمير المؤمنين لو عهدت عهدا" ؟ فقال (رضي الله عنه)

عليكم هؤلاء الرهط الذين مات رسول الله (ﷺ) وهو عنهم راض وقال فيهم : إنهم من أهل الجنة : علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن عمر، على ألا يكون له من الأمر شيء . واجتمع الستة ، وبعد نقاش استمر عدة أيام استقر الرأي على اختيار عثمان بن عفان (رضي الله عنه) خليفة للمسلمين، واستمر عثمان مدة اثني عشر عاما"، انتهت حياته بأن قامت ضده ثورة نظمها عدد من المسلمين من مختلف الأمصار الإسلامية انتهت بقتله. وتقدم أهل المدينة وبايعوا الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) خليفة للمسلمين، وأراد علي (رضي الله عنه) أن يحكم علي وفق التقاليد التي سادت عهد النبي (ﷺ) وأبي بكر وعمر، وبادر إلى عزل الولاة الذين عينهم الخليفة عثمان ، ومنهم معاوية بن أبي سفيان الذي لم يمتثل لأمر الخليفة وبدأ التنافس بين الخليفة علي (رضي الله عنه) والوالي معاوية بن أبي سفيان والي الشام وقامت الحرب بينهما وبعد فترة قتل الإمام علي في مسجد الكوفة في رمضان سنة 40هـ/660م وبايع أهل الكوفة ولده الحسن الذي استمر خليفة لمدة ستة أشهر انتهت بإبرام صلح مع معاوية وأن يكون معاوية خليفة المسلمين يتولاها بعده الإمام الحسن بن علي، وتوفى الحسن بن علي مسموماً في صفر سنة 49هـ/ 669م وبذلك صفا الجو نهائياً لمعاوية بن أبي سفيان. (الطبري , 1966, 4/ 229).

اتجه معاوية بن سفيان اتجاهاً جديداً في حكم المسلمين ، و لم يتقيد بالتقاليد التي تقيد بها الخلفاء الراشدون تقيداً تاماً ، بل أخذ من تلك التقالبد ما يناسب العصر الذي يعيشه، وسار بالخلافة بشكل لا يعتمد على الشورى أو يستند إلى ندين، وجعلها ملكاً يقوم على أساس التوريث ، كما أصبحت الخلافة في أيام الأمويين أقرب إلى السياسة منها إلى الدين، وصار معاوية يتمتع بكل مظاهر الأبهة، فقد اتخذ سريراً للملك، وأقام الشرطة لحراسته واتخذ المقصورة في المسجد خوفاً على حياته من الاعتداء ، وصار يصلي فيها وحده بحراسة من الحرس الخاص به، وهكذا أصبحت الخلافة وراثية ذات مراسيم لم تكن معهودة أيام الخلفاء الراشدين .

وفي سنة 64هـ/ 684م بويع لمروان بن الحكم بالخلافة في الشام، وفي 65هـ/ 685م ـ، أمر مروان بن الحكم أهل الشام بالبيعة من بعده لابنه عبد الملك وعبد العزيز وجعلهما وليا" العهد.

وهذه المرة هي أول مرة في التاريخ الإسلامي أن يعهد بولاية العهد لشخصين، وهذه البادرة على ما نراه ستكون لها نتائج سلبية ، بل

ستكون من العوامل التي أضعفت كيان الدولة الأموية.

وفي سنة 132 هـ/ 750م ، انتقل الحكم إلى العباسيين الذين اتخذوا الكوفة أول الأمر عاصمة لحكمهم ، وسار العباسيون على نهج الأمويين في نظام الوراثة في الحكم وابتعدوا عن التقاليد القبلية ، وأكدوا حكمهم على أحقيتهم في الخلافة على قرابتهم من الرسول (ﷺ). نلاحظ من الخطبة التي خطبها أبو العباس السفاح في مسجد الكوفة أنه قال :" الحمد الله الذي اصطفى الإسلام لنفسه لكرمه، وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوامين به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى جعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته ، وأنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا، حريصا" علينا بالمؤمنين رءوفا رحيماً، ووضعنا من السلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" (سورة الأحزاب , الآية 33) ، وقال : " قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" (سورة الشورى, الآية 23) و قال: " وأنذر عشيرتك الأقربين" (سورة الشعراء ,الآية 214) وقال : " ما أفاء الله على رسولهِ من أهل القرى فلله ورسوله ولذي القربى واليتامى"(سورة الحشر ,الآية 7) وقال : " واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى " (سورة الأنفال ,الآية 41) فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة تكرمة لنا، وفضلا" علينا ، والله ذو الفضل العظيم.

نلاحظ أن أبا العباس السفاح في خطبته يؤكد على أحقية البيت العباسي بالخلافة على أساس أنهم من أهل البيت ومن قرابتهم للرسول ومحمد (ﷺ) ، أي أن العباسيين يؤكدون على عامل القرابة من الرسول (ﷺ) في حقهم لتولى الخلافة وعلى ما ورد من الآيات القرآنية الكريمة التي وردت في خطبة الخليفة الأول العباسي ، وتلقب الخليفة العباسي بلقب الإمام توكيدا" للمعنى الديني، لكسب طاعة المسلمين ، ونلاحظ أيضا : أن أبا يوسف كبير قضاة الدولة العباسية يؤكد هذا الجانب عندما كتب إلى هارون الرشيد في صدر مؤلفه كتاب الخراج قوله : "يا أمير المؤمنين إن الله وله الحمد قد قلدك أمرا عظيما" ، قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأحسست وأنت تبنى لخلق كثير، وقد استرعاكم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد

فيهدمه على من بناه وأعان عليه ، فلا تضيع ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة في العمل بإذن الله.

وعلى هذا الأساس صار خلفاء العباسيين يحكمون الرعية ، وما على الرعية إلا طاعتهم وتنفيذ جميع أوامرهم، كما اعتبر المنصور نفسه ، ظل الله على الأرض ، أي أنه يحكم نيابة عن الله عز وجل جميع المسلمين وأنه يمثل السلطة الإلهية، واستمرت الخلافة العباسية إلى 656هـ/1258م ، وتباينت أيامها بين القوة والضعف وبين الاستقلال والسيادة، وحالات التدخل الأجنبي وسيطرتهم مثل السيطرة التركية والاستحواذ البويهي وسيطرة السلاجقة وكان لذلك كله الأثر الكبير في ضعف الخلافة وسقوط الدولة العباسية .

وأهم امتيازات الخليفة هو اختياره للولاة الذين يحكمون الولايات الإسلامية، وأنه هو الذي يؤم المسلمين في الصلاة وبخاصة صلاة الجمعة والعيدين ، وفي الأمصار الإسلامية كان إمام المسجد وخطيبه يدعو للخليفة ، وأول من اعتلى منبر جامع البصرة هو عبد الله بن العباس الذي قال في ختام خطبته: اللهم انصر علياً على الحق، وأصبح هذا عرفا" يؤديه جميع خطباء المساجد في العالم الإسلامي. والخليفة هو الذي يختاره الوزراء والقاضي وقاضي القضاة و أئمة المساجد.

ومن خصائص الخليفة أن يكون له خاتم ينقش عليه اسم الخليفة فكان نقش خاتم الوليد بن عبد الملك "يا وليد ، إنك ميت ومحاسب"، وكان نقش خاتم الخليفة المنصور العباسي: "عبد الله ، و به يؤمن ".

ومن امتيازات الخلافة أن الخليفة ينقش اسمه على النقود ، وهناك العديد من النقود الإسلامية في المتاحف العربية والأجنبية منقوش على الدينار الإسلامي عبارة (لا إ له إلا الله وحده لا شريك له) وعلى الوجه الثاني: (محمد رسول الله) مما أمر به عبد الله هارون أمير المؤمنين وعليه سنة الضرب 191 هـ/806م وهذا الدينار محفوظ في متحف برلين برقم949 كما كان يطرز اسم الخليفة على الملابس الرسمية التي تصنع بدار الطراز ، وتوزعها الدولة على المنتسبين لها .

ومن شارات الخلافة ، أن يتحلى بوضع بردة الرسول صلى الله عليه وسلم تبركا" واقتداء بالرسول الأعظم (ﷺ) .

والخليفة هو بالتأكيد القائد الأعلى للجيش، وهو الذي يختار القادة الذين يكلفون بعمليات الجهاد والتوجه للفتوح الإسلامية والدفاع عن دولة الإسلام .

وفي العصر العباسي تميز الخلفاء بالألقاب التي ارتبطت بكلمة الله عز وجل ، مثل المعتصم بالله ، والمتوكل على الله ، والواثق بالله ، والمعتز

بالله ، والمقتفي لأمر الله ، والمستنجد بالله ، وهي تدل على الرباط الديني للخلفاء العباسيين ولكسب عطف الجماهير الإسلامية.

وتلقب أبو بكر الصديق بلقب (خليفة رسول الله) ، ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر (رضي الله عنه) تلقب بلقب (خليفة خليفة رسول الله) ، ثم اتخذ الخليفة عمر بن الخطاب لقب (أمير المؤمنين) ، ولما تولى الخلافة علي بن آبي طالب اتخذ لقب (إمام) ، وهذا اللقب الأخير يشير إلى سلطة الخليفة الدينية إضافة إلى سلطته الدنيوية ، وبهذا أفاد الماوردي أن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع.

الخليفة إذا مات فإن أهل بيته ورجالات الدولة الكبار يبايعون ولده أو أخاه وتعرف هذه بالبيعة الخاصة ، وفي اليوم الثاني ينادي المنادي في المسجد والطرقات وسائر المحلات أنه ستتم بيعة الخليفة الجديد في جامع الدولة وتعرف هذه البيعة بالبيعة العامة.

وكان العرف السائد أن الخليفة هو الوحيد في العالم الإسلامي ، ولما دب الضعف في الخلافة العباسية ، ظهرت خلافة جديدة في بلاد المغرب سنة 297 هـ / 909 م هي خلافة الفاطميين ، ثم انتقلت إلى مصر سنة 362هـ/972م ، وظهرت خلافة ثالثة ببلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث الذي أعلن نفسه خليفة وتلقب بالناصر.عندما رأى أن الأتراك قد أهانوا الخليفة العباسي سنة 317 هـ/929م ، وخلعوا الخليفة المقتدر العباسي ، وبايعوا أخاه القاهر بالله .

وأقام الفاطميون بعد انتصارهم سنة 297 هـ/909م بإعلان عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي الذي اتخذ مدينة القيروان عاصمة لخلافته و تلقب "المهدي أمير المؤمنين". و أخذ الفاطميون بالتوسع وكانت لهم محاولات لدخول مصر وقد تحقق لهم ذلك سنة 358 هـ/969م ؛ إذ دخلت الجيوش الفاطمية مصر بقيادة جوهر الصقلي, و باشر بناء مدينة القاهرة . و دخل الخليفة الفاطمي القاهرة سنة 362هـ/973م واتخذها حاضرة للدولة الفاطمية ، ثم تتابع أولاده و أحفاده في حكم الدولة حتى سنة 567 هـ/1171م.

لقد كان نظام الخلافة في عهد الفاطميين شبيهاً بنظام العباسيين, فاعتقد الفاطميون كما اعتقد العباسيون, أن الخليفة هو ظل الله في الأرض ، وحذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين في اتباع نظام ولاية العهد ، وحين أخذ الضعف الدولة الفاطمية صار القواد يتدخلون في اختيار الخلفاء ، فلم يراعوا في اختيار الخليفة الجديد أن يكون أكبر أولاده, كما فعل بدر الجمالي, وابنه

الأفضل, من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبوه المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده لأنه أكبر أولاده , أدى هذا إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى نزارية و مستعلية.

ومن الجدير بالذكر أن قيام الخلافة في الأندلس كان" تحولا كبيرا " في سياسة الدولة الأموية في الأندلس, وقد أعلن الناصر نفسه خليفة ، و بذلك صار في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء, خليفة ببغداد و الثاني في القاهرة والثالث في قرطبة, وقد حرص عبد الرحمن الناصر على جعل عاصمته قرطبة حاضرة الخلافة , وصار يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك و أبهة الخلفاء , و قامت في قرطبة حركة معمارية لم تعهدها من قبل, وكان الخليفة الناصر مشغوفا بالبنيان فخصص ثلث أموال جبايته للعمران, و بهذه الأموال – كما يذكر ابن عذاري- "أسس الأسوس , وغرس الغروس ، واتخذ المصانع والقصور".

وتولى الخلافه بعد وفاة الناصر ولده الحكم الذي تلقب بالمستنصر بالله والذي توفي سنة 366 هـ/ 976 م ، وكان عهده عهد سلم واستقرار بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس ذروتها كما بلغت قرطبة عاصمة الخلافة قمة الرقي والتقدم ، وقال عنها المؤرخ المقري : " قرطبة أم المدائن و سرة الأندلس وقرارة الملك, ونهرها أعظم أنهار الأندلس و بها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام, والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس أكبر منه".

وأخذ الضعف يدب في دولة الخلافة بسبب نظام ولاية العهد, ذلك أن هذا النظام جعل حاضر الخلافة ومستقبلها مرتبطا بشخصية رجل غامض هو ولي العهد ، إذ كثيرا ما تؤول الخلافة إلى طفل لم يبلغ الحلم, و هذا يؤدي إلى طمع رجال الدولة أو رجال القصر بالسيطرة على الخليفة الجديد الذي تعوزه الكفاءة و الخبرة . وهذا فعلا ما حصل لولي العهد الجديد هشام بن المستنصر من زوجته (صبح) وهو الأمر الذي أدى إلى صراع كانت نتيجته أن استأثر بالحكم الحاجب المنصور بن أبي عامر, الذي صار له نفوذ في قصر الخلافة وتأثيره على السيدة صبح التي اعتمدت عليه. كما كان لأطماع البربر وإثارتهم للمشاكل الدور الكبير في ضعف الخلافة إضافة إلى تحركات القوى المسيحية و سيطرتهم في النهاية على قرطبة وغيرها من حواضر الأندلس في نطاق حركة الاسترداد ، وبذلك سقطت الأندلس وانتهت الخلافة هناك.

ويكاد نظام الخلافة في الأندلس شبيها بنظام الخلافة العباسية و الفاطمية , فقد اتخذ الخلفاء الأمويون الألقاب مقرونة بذكر الله, فقد تلقب عبد الرحمن بالناصر لدين الله ، وتلقب ابنه الحكم بالمستنصر بالله, كما أدخلوا المظاهر التي

كانت سائدة في البلاطين : العباسي والفاطمي، كما اتبعوا نظام الوراثة في الحكم .

وفي الحقيقة استمرت الخلافة العباسية تحمل صفتها التي تعارف عليها المسلمون، وبسقوط الدولة العباسية فقدت الخلافة الإسلامية هيبتها ، وصار لقب خليفة يتخذه الكثير من الحكام في العالم الإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن الخلافة العباسية بعد مقتل آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله سنة 656هـ/1258، انتقلت إلى مصر ، وذلك أن أحد العباسيين من بيت الخلافة - ويدعي أحمد بن الإمام ظاهر - كان قد نجا من المغول واستطاع الوصول إلى مصر بدعوة من الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، وعند لقائه للأمير العباسي استقبله بحفاوة ، وبايعه بالخلافة ، ثم بايعه الناس على اختلاف طبقاتهم، ونقش اسم الخليفة على السكة إلى جانب اسم الملك الظاهر بيبرس ، كما أمر بالدعاء للخليفة في خطبة صلاة الجمعة قبل الدعاء له .

إن مبادرة المصريين إلي إقامة الخلافة في مصر إنما أريد بها كسب عطف العالم الإسلامي وإسباغ الشرعية على نظام حكم المماليك، إذ لم يمارس الخليفة العباسي في مصر أي عمل من أعمال الدولة، و لم يكن إلا رمزا" اعتباريا" .

وفي سنة 923 هـ/1517م دخلت الجيوش العثمانية إلى مصر بقيادة السلطان سليم الأول وفيها الخليفة العباسي المتوكل ، وادعى العثمانيون بعد فترة أن الخليفة تنازل للسلطان العثماني عن الخلافة ، إلا أن السلاطين العثمانيين لم يتلقبوا بلقب الخليفة إلا في القرن الثامن عشر، واستخدموه لأغراض سياسية في صراعهم مع المسيحيين في أوروبا ، وظهر هذا اللقب بشكل رسمي في دستور مدحت باشا سنة 1877 ، وصار السلطان عبد الحميد الثاني يتلقب بلقب خليفة المسلمين، وزالت الخلافة نهائياً في سنة 1924م بعد قيام نظام الحكم الجمهوري في 29 أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1923م ، وانتخب مصطفى كمال رئيسا" لها، وفي 2 من مارس (آذار) سنة 1924م ألغت تركيا نظام الخلافة .

إن زوال الخلافة الإسلامية كان نتيجة تضافر القوى الأجنبية, فكانت الدول الأوروبية وفي مقدمتها بريطانيا عاملا مهما في تحطيم الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية, و سقوط عبد الحميد الثاني كان سببه الأول أن رفض أن "يبيع جانبا من فلسطين لليهود ليتخذوه وطنا " قوميا " بدعم من بريطانيا", و كانت لليهودية العالمية دورها الفاعل في رعاية القادة الأتراك الذين خلعوا السلطان عبد الحميد سنة 1909م وتوجيههم كان هذا هو العامل الكبير في ضعف الخلافة ، بل وإزالتها نهائياً سنة 1924م .

2) الوزارة

من المناصب الرفيعة في الدولة العربية الإسلامية التي تلي مرتبة الخلافة، وهي بشكل رسمي لم تكن معروفة أيام الرسول محمد (ﷺ) ، كما لم تكن معروفة أيام الخلفاء الراشدين كما ظهر بوضوح أيام الدولة الأموية ، إلا أنها ظهرت بشكل رسمي في بداية قيام الخلافة العباسية أول أمرها في مدينة الكوفة سنة 132هـ/749م .

أول وزير أختير هو أبو سلمة، حفص بن سليمان المعروف بالخلال الذي حمل لقب (وزير آل محمد) والذي صار وزيراً للخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح.

اختلف اللغويون حول أصل كلمة وزير ، هل هو عربي أم غير عربي، وأعتقد أن الكلمة عربية تعني معنيين ، فالوِزر بكسر الواو وسكون الزاي تعني الثقل أو التعبْ ، والوزر ، بفتح الواو والزاي تعني الملجأ أو المعتصم، ولفظة الوزير وردت في القرآن الكريم في عدة مرات· "واجعل لي وزيراً من أهلي" (سورة طه، آية 29) ، "ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً " (سورة الفرقان، آية 35) .

وذكر ابن الطقطقي أن الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها ، إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً , وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً .

من هذا النص الذي أورده ابن الطقطقي يتبين لنا أنه قبل قيام الدولة العباسية، كان الكاتب هو الذي يساعد الخليفة أيام الراشدين والأمويين ويقوم مقام الوزير أيام العباسيين ، كما كان الخليفة أيام الراشدين يعتمد على أصحاب الكفاءة والعلم في دراسة الأمور واتخاذ القرارات المهمة فكان الخليفة عمر(ﷺ) من مستشاري الخليفة الأول وكان الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) من مستشاري الخلبفة عمر (ﷺ) ، فالمستشار هنا هو الذي يقدم النصيحة الخالصة خدمة للإسلام والمسلمين ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) يقول : لولا علي لهلك عمر ، وقال اللهم لا تبقي معضلة ليس لها أبو الحسن ، وكان الخليفة عمر (ﷺ) كثيراً ما يرجع إلي الإمام علي (ﷺ) في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من كبار الصحابة الذين عرفوا بالعلم والحكمة .

ويلاحظ أن معظم وزراء الدولة العباسية في عصورها الأولى من الفرس ويبدو أن العباسيين أشركوا الفرس في قيادات الدولة جزاء تعاونهم مع العباسيين والإفادة من خبراتهم الإدارية والسياسية،

وروعي في اختيار الوزراء من العنصر الفارسي من عُرف بالكفاءة في الكتابة والإدارة وكان الخلال، ممتعاً في حديثه، أديباً، عالماً بالسياسة والتدبير, و ذكر ابن خلكان أن الوزير جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، كان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة , كما كان الوزير الفضل أبن سهل وزير المأمون من أخبر الناس في علم النجوم وأكثرهم إصابة في أحكامه.

ويلاحظ أيضاً أن معظم من تولى الوزارة في العصر العباسي الأول كانوا كتاباً مثل يحيي بن خالد البرمكي , والفصل بن الربيع في عهد هارون الرشيد , والفضل بن سهل , والحسن ابن سهل , وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، كما اشتهر محمد بن عبد الملك الزيات في عهد الواثق , وغيرهم كثيرون، ويبدو أن فكرة الوزارة العباسية واشتراك الفرس في السلطة أدى بمرور الزمن إلي ظهور نظام الوزارة على صورته الكاملة، وإلي رسوخه كأساساً للإدارة العباسية.

والوزارة منصب مهم، وهي تأتي بالمرتبة الثالثة بعد النبوة والخلافة. يذكر الجليلي "أن أعلى المناصب وأفضل الرتب، النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة, وأن جميع الملوك والسلاطين يحتاجون إلي الوزراء حتى الأنبياء والرسل مع علو شأنهم وسمو سلطانهم يحتاجون إليهم , وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم , وفي كتاب كليلة ودمنة " لا يصلح السلطان إلا بالوزارة والأعوان "، وفي الأمثال: " نعم الظهير الوزير".

ولأهمية هذا المنصب في الدولة العباسية اهتم الخلفاء العباسيون بالصفات الحميدة التي يجب توافرها فيمن يختارونه لمنصب الوزارة، وينبغي لذلك أن يختار الخليفة وزيره اجتمعت فيه الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة وعرف بالآراء السديدة وجودة التدبير وصواب الآراء المفيدة، فتكون فيه العدالة والنزاهة، والشجاعة والسياسة , وإذا كان زمان السلم والهدنة يصلح أن يكون الوزير حليماً ساكناً، وإذا كان زمان الفتن والحروب يصلح أن يكون شجاعاً صارماً.

وذكر المؤرخون أن شروط الوزارة خمسة:

- أولها: العدل ليكون منصفاً في حكمه، وتسلم الرعية من ظلم غيره وظلمه.

الأمانة ليفي ما عليه ويستوفي ماله ولا يختزل لنفسه فتسير عماله بسيرته.

- الثالث: الكفاية، وهي العلم بالأعمال الديوانية، والتصرفات ووجوه تثمير الأموال، والاستخراجات، فيضع الأمور في مواضعها ويرتب الأعمال على قواعدها.

- الرابع: السياسة، فيعرف مداراة الجند، وتأليفهم وجمعهم وتفريقهم ويكون خبيراً بالمكائد الحربية، والخدع وحفظ البلاد والثغور والقلاع.

- الخامس: أن تجتمع فيه الخشونة واللطف ، فيخشن على القوى حتى يُلين عريكته ، ويلين للضعف حتى ينال من الإنصاف بغيته ، ويكون بذلك مقدماً على المخاوف ، جسوراً على الأهوال أن اضطر إليها محجماً عن التغيرات ، إن منع الرأي السديد عنها .

أما الماوردي فيرى أن يراعى في اختيار الوزير سبعة أوصاف :

- الأمانة حتى لا يخون فيما قد أؤتمن عليه ولا يغش فيما قد استنصح فيه.

- صدق اللهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤدي ويعمل على قول فيما ينهيه.

- قلة الطمع حتى لا يرتشي فيما يلي ولا ينخدع فيتساهل.

- أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء ، فإن العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف .

- أن يكون ذكوراً لما يؤديه إلي الخليفة وعنه لأنه شاهد له وعليه .

- الذكاء والفطنة حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه، ولا تموه عليه فتلتبس , فلا يصح مع اشتباهها عزم ولا يصاح مع التباسها حزم .

- ألاّ يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلي الباطل و يتدلس عليه المحق من المبطل ، فإن الهوى خادع الألباب وصارف له عن الصواب، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم " حبك الشيء يعمي ويصم " .

ويشير إلي ذلك ابن الطقطقي فيقول : "الوزير وسيط بين الملك ورعيته , فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ، والصدق رأس ماله ...والكفاءة والشهامة من مهماته، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته، ولا يستغنى عن أن يكون مفضالاً مطعاماً ، ليستميل بذلك الأعناق ، وليكون مشكوراً بكل لسان ، والرفق والإنارة والتثبيت في الأمور والحلم والوقار والتمكن ونفاذ القول مما لابد له منه .

ويعين الوزير بمرسوم يأمر به الخليفة، ويحمل هذا المرسوم أميران من أمراء الدولة العباسية ، وحين يستلم الوزير المرسوم يتجه إلي دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد ويقف الوزير عند باب مكان الخليفة وحين يأذن الخليفة بدخول الوزير عليه ، ويتقدم الوزير ببالغ الطاعة والاحترام ويتبادل الكلام مع الخليفة لفترة قصيرة، بعدها يتجه إلي مكان آخر في قصر الخلافة فيرتدي الخلع التي هي زي الوزارة ثم يعود لمقابلة الخليفة مرة أخرى فيقبل يد الخليفة وينصرف، فإذا بلغ الباب وجد فرساً من الصنف الممتاز وهو من النوع الفاره النادر بمركب مذهب فيمتطيه إلي

دار الوزارة ويسير في موكبه كبار الموظفين وقادة الجيش والأمراء وموظفو البلاط والحجاب وخدم الخليفة والحرس، فإذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال وجلس يتقبل التهاني بالمنصب الوزاري، ثم يقرأ على الناس مرسوم الخليفة بتقليده مهام هذا المنصب.

والوزارة في العهد العباسي نوعان:

أ . وزارة التفويض : وهي أن يستوزر الامام من يفوض إليه تدبير الأمور وإمضاءها على اجتهاده ، وفي رأي الماوردي أنه يشترط في تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده لأنه ممضي الآراء ومنفذ الاجتهاد ، فاقتضى أن يكون على صفات المجتهدين ويحتاج إلي شرط زائد على شروط الإمامة هو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمري الحرب والخراج , وله خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما.

ولوزير التفويض أن يحكم بنفسه , وأن يقلد الحكام , كما يجوز ذلك للإمام ؛ لأن شروط الحكم فيه معتبرة ، ويجوز أن ينظر في المظالم ويقضي فيها لأن شروط المظالم فيه معتبرة، ويجوز أن يتولى الجهاد بنفسه وأن يقلد من يتولاه , لأن شروط الحرب فيه معتبرة ، ويجوز أن يباشر تنفيذ الأمور التي دبرها وأن يستنيب في تنفيذها , لأن شروط الرأي والتدبير فيه معتبرة ، وكل ما صح من الإمام صح من الوزير إلا ثلاثة أشياء:

أحدها : ولاية العهد فإن للإمام أن يعهد إلي من يرى وليس ذلك للوزير .

والثاني : أن للإمام أن يستعفى الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير .

والثالث : أن للإمام أن يعزل من قلده الوزير وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام .

ب ـ وزارة التنفيذ : وهذه الوزارة حكمها وشروطها أضعف وأقل من وزارة التفويض ووزير التنفيذ هو الوسيط بين الخليفة والرعية والولاة ، ولا تفتقر وزارة التنفيذ إلي تقليد، وهو معين في تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولا متقلداً لها.

يتبين لنا أن وزارة التفويض عامة ووزارة التنفيذ خاصة , وأن وزارة التفويض تحتاج إلي عقد ولاية ووزارة التنفيذ لا تحتاج ذلك . وأن وزير التفويض يؤاخذ بما يطرأ من خلل ؛ لأنه مستبد بالتدبير ، ووزير التنفيذ لا يؤاخذ بذلك لأنه عبد مأمور ويجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ودفع ما يجب فيه , وليس ذلك لوزير التنفيذ ، ويجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحرب وليس ذلك لوزير التنفيذ ، ويجوز لوزير التفويض أن يختص بتقليد الولاة وليس ذلك لوزير التنفيذ .

إن نظام الوزارة في العصر العباسي الأول كان يسير بالشكل الذي يريده الخلفاء العباسيون أنفسهم ، لكننا نلاحظ أن هذا النظام أصابه شيء من الخلل في العصر العباسي الثاني , بسبب تحكم الأتراك وسيطرتهم على مراكز القوة في الدولة، وبلغ بهم الأمر أن صاروا يتدخلون في تنصيب الخلفاء وعزلهم وقتلهم، فهم الذين نصبوا الخليفة المستعين وانقلبوا عليه فخلعوه سنة 252هـ/866م , ونصبوا أبا عبد الله المعتز خليفة , ولما لم يتمكن الخليفة المغلوب على أمره من إرضاء الأتراك وتحقيق أطماعهم ، أمسكوا به وأهانوه إهانة كبيرة وأمروه بخلع نفسه ، ومن ثم دفع إلي من يعذبه فمنع عنه الماء والطعام ثلاثة أيام , ثم ادخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات . وكذلك فعلوا بالخليفة المهتدي ، فإن الأتراك شغبوا عليه وهاجوا وأخذوه أسيراً وعذبوه ليخلع نفسه ، فلم يفعل فخلعوه هم ومات سنة 256هـ/870 م .

وهكذا كان حال الخلافة في هذا العصر، حال ازدراء وإهانة وخلع وقتل , وفي هذه الظروف والأحوال عاش الوزراء العباسيون مع خلفائهم , فدب في نفوسهم الضعف والخوف , واختير لهذا المنصب من لا أهلية له، بل اتبع بعض الوزراء سياسة التفريق بين الخليفة وجنده كما فعل ذلك الوزير ابن مقلة الذي عزل أخيراً وحبس بعد أن قطعت يده اليمنى .

وفي سنة 334هـ / 946م دخل البويهيون بغداد على عهد الخليفة العباسي المستكفي بالله ، واستبد البويهيون بالحكم وألحق أمراؤهم إهانة كبيرة للخلفاء ، وعلى سبيل المثال لم تمض إلا أيام معدودات وانقلب الأمير البويهي معز الدولة على الخليفة المستكفي بالله ، حيث سحب من مكانه واقتيد إلي دار معز الدولة واعتقل فيها ونهبت دار الخلافة.

وبذلك اضطربت أحوال الخلافة ، ولم يبق لها رونق ولا وزارة ، وتملك البويهيون وصارت الوزارة من جهتهم، ولم يبق للخليفة وزير , إنما كان له كاتب يدير أقطاعه وإخراجاته لا غير ، وصارت الوزارة للأمير البويهي معز الدولة يستوزر لنفسه من يريد.

وفي سنة 447هـ / 1055م دخل السلاجقة بغداد ، فعاد نظام الوزارة ، وأخذ الخليفة في تعيين وزير له ، ووزر للخليفة القائم بأمر الله فدخل السلاجقة بغداد في عهد فخر الدولة محمد بن جهير بعد وزارة أبي الفتح محمد بن منصور بن دارست وبالرغم من هذا فإن السلاجقة الذين سيطروا على أجهزة الحكم كانوا يتدخلون في نصب الوزير وخلعه ، ومثال ذلك أن السلطان جلال الدولة ملكشاه طلب من الخليفة

العباسي المفتدى عزل وزيره ابي شجاع ظهير الدين محمد الهمذاني فامتثل الخليفة لطلب السلطان السلجوقي ملكشاه , وخرج توقيع الخليفة بعزله .

ونلحظ أن من بين الوزراء العباسيين من كانت له المواقف المشرفة إزاء تصرفات السلاطين السلاجقة ، فقد وقف الوزير أبو علي الحسن بن صدقة وزير الخليفة المسترشد بالله العباسي ، موقفاً حازماً من تحركات السلطان سنجر السلجوقي الذي أراد التوجه إلي بغداد متوعداً الخليفة المسترشد ، فكتب الوزير أبن صدقة إلي سنجر ما نصه : والله لئن تحركت لأقطعن جميع ما وراءك عنك واقطعك عنه ، ولئن سرت فرسخاً لأسيرن إليك فرسخين.

فالوزارة كتنظيم إداري ـــ كما لاحظنا ـــ كانت معروفة ومعمولاً بها في الدولة العباسية قبل دخول السلاجقة بغداد ، ولكن الذي حصل أن السلاجقة عندما دخلوا العراق ، تنفس الخليفة العباسي الصعداء ، واسترجع الكثير من سلطانه واختصاصاته ، وبخاصة حقوقه في اختياره وتعيينه لوزرائه

واتخذ **السلاطين السلاجقة** وزراء لهم ، فالسلطان طغرلبك كان من وزرائه أبو القاسم الكوباني وأبو أحمد الدهستاني وعميد الملك الكندري ، ويعد منصب الوزارة أعلى مقام في الدولة السلجوقية ، وكان الوزير يعرف باسم (الصدر) أو الدستور، والوزير السلجوقي كان هو المساعد للسلطان , يقدم النصح والمشورة له ، وكانت له سلطات واسعة إذ يشرف على جميع الدواوين في الدولة السلجوقية وأخذ الوزراء العباسيون في العصر السلجوقي يتلقبون بألقاب تضاف إلي أسمائهم و لم يكن وزراء بني العباس من قبل قد ألفوا هذه الظاهرة ، فمعظم الوزراء العباسيين كانوا يعرفون بأسمائهم دون لقب إلا الوزير الأول في الدولة العباسية الذي لقب بوزير آل محمد والوزير الفضل بن سهل وزير الخليفة العباسي المأمون الذي ألحق به لقب ذي الوزارتين. ولكن في العصر السلجوقي صار الوزراء تلحق بهم ألقاب كثيرة ، فابن جهير وزير المقتدي لقب فخر الدولة ، وهبة الله بن محمد وزير الخليفة المستظهر بالله لقب بأبي المعالي ، وتلقب أبو علي الحسن بن صدقة وزير المسترشد بألقاب عديدة ، منها جلال الدين ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب. وتلقب وزراء السلاجقة بألقاب منها : نظام الملك وعميد الملك وفخر الملك وتاج الملك. ومن الجدير بالذكر أنه ظهر منصب جديد له علاقة بمنصب الوزير، ذلك هو منصب نائب الوزارة ، ففي سنة 325هـ/936م استوزر الخليفة الراضي بالله العباسي أبا الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، طلب ابن الفرات أن يكون عبدالله بن النفري نائباً عنه ببغداد ، ليحتفظ ابن الفرات

بمنصبه على مصر والشام : لأهمية المنصب , وبقي النفري نائباً حتى وفاة ابن الفرات سنة 327هـ/938م وحتى أواخر العصر العباسي صار هناك وزير وآخر نائب للوزارة ، وقد تسند نيابة الوزارة إلي رجل يشغل منصباً آخر ، فقد عين طلحة بن علي الزينبي نائباً للوزير إضافة إلي منصبه كنقيب النقباء , كذلك عين صاحب المخزن الحسن بن نصر بن الناقد نائباً للوزارة أيام الخليفة الناصر لدين الله . واستناب الناصر العباسي أبا الحسن ناصر بن محمد العلوي ثم قلده الوزارة, وقد يوجد النائب مع وجود الوزير , كما حدث للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الذي جعل ولده عز الدين محمد نائباً عنه طول أيام وزارته , ولم يعزل إلا بعد وفاة والده سنة 561هـ/1165م.

ونيابة الوزارة نظام استحدث في العصر العباسي الأخير، ويقوم نائب الوزير بمساعدة الوزير في حال وجوده , والنائب يرتب كترتيب الوزير ، إلا أنه لا يخلع عليه خلع الوزارة ليشغلها إلي حين اختيار وزير جديد. إن الشخص الذي يختار وزيراً يسكن في دار الوزارة التي تكون مكان إقامته إضافة إلي مقر عمله الرسمي، وهي في بغداد قبالة باب النوبي , وهي من أبواب دار الخلافة العباسي وقد أشار أبو هلال بن المحسن الصابي، إلي أن من رسوم الوزارة أن تكون للوزير دار مفردة في دار الخلافة, يجلس فيها وينظر في الأعمال . ومن تقاليد الوزارة أن يضرب عم البوق عندما يركبون للخروج إلي أعمالهم ، ويبدو أن الوزير كان يحضر دار الخلافة ويتابع أمور الدولة مع الخليفة أيام الجمع ، وكانت هذه عادة الوزير العباسي نصير الدين ابن الأزهر أحمد بن الناقد المتوفي سنة 643هـ/1245م.

وكان الخليفة يبعث إلي وزيره مطالعاته بواسطة موظف مسؤول يعرف بالمطالعاتي، لأنه كان يحمل المطالعات من الخليفة إلي الوزير ، أما مطالعات الوزير إلي الخليفة فكانت توضع في كيس إبريسم أسود مختوم يحملها مملوك الوزير إلي باب الحرم .

أما راتب الوزير ، فقد ورد أن راتب الوزير علي بن عيسى كان خمسة آلاف دينار في كل عام , ثم زيدت إلي سبعة آلاف، كما كان يمنح كل ولد من أولاد الوزير مبلغاً قدرة خمسمائة دينار ، وكان تصرف للوزير إضافة إلي الراتب مخصصات من الشمع والملح والثلج ، وأغدق البويهيون على وزرائهم من الإقطاع ما يدر عليهم خمسين ألف دينار، أما السلاجقة فجعلوا لوزرائهم عُشر غلات البلاد ، ويذكر المؤرخون أن الوزير نظام الملك السلجوقي كان يتقاضى راتباً سنوياً قدره عشر دخل الدولة السلجوقية ، وكان هذا الراتب لمعظم وزراء الدولة السلجوقية,

وكانت مشاهرة الوزير ابن هبيرة أيام المقتفي العباسي في كل سنة مائة ألف دينار.

من الملاحظ أن بيوتات معروفة في العصر العباسي استأثرت بمنصب الوزارة وعلى سبيل المثال فإن أربعة وزراء في آل خاقان تولوا الوزارة خلال سبعين عاماً ، كما تقلد أربعة وزراء من آل الفرات خلال خمسين عاماً ، كما تولى أربعة من آل وهب الوزارة ، ومن أشهرهم سليمان بن وهب بن سعيد وزير المهتدي , وأخوه عبد الله بن سليمان الذي ولي الوزارة للخليفة المعتمد وكان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب.

كما ظهر في العصر العباسي الأول آل البرامكة وآل سهل وآل الربيع الذين استأثروا بمنصب الوزرة أيام المنصور والمهدي والرشيد والمأمون، ومن الملاحظ أن أبناء الوزراء ورثوا مناصبهم عن آبائهم، فقد خلف الوزير ابن مقلة ابنه وكان في الثامنة عشرة من عمره ، وتولى أبو الفتح ابن العميد الوزارة بعد أبيه وله من العمر إحدى وعشرون سنة.

وكثيراً ما تعرض الوزراء إلي العزل، لأسباب مختلفة ، ويلاحظ أن معظم الوزراء كانوا يعاقبون أشد العقاب، بالسجن أو القتال ومصادرة أملاكه وأمواله ، ونجا من ذلك عدد قليل ، مثل الوزير علي بن جهير الذي ابلغ شفاهاً بعزله سنة 500هـ / 1106م وفي سنة 567هـ / 1171م ، دخل نجاح الخادم على الوزير ابن رئيس الرؤساء ومعه خط من الخليفة يذكر أنه استغنى عنه ، وقبض على ولده أستاذ الدار وبعد يومين نهبت دار الوزير ودار ولده ، كما عوقب الوزير ابن البلدي ، فقد جيء به إلي دار الخلافة وضربت عنقه ورميت جثته في نهر دجلة ، هذه نماذج لما يتعرض له الوزراء العباسيون بسبب ظلمهم ومخالفتهم للشرع وغيرها من الأسباب .

وخلاصة الموضوع أن الوزراة كانت في العصر العباسي الأول ذات هيبة وسطوة وتستمد قوتها من قوة الخلفاء العباسيين ، إلا أن الوزارة فقدت هيبتها نتيجة التسلط التركي في العصر العباسي الثاني ، وازدادت الوزارة ضعفاً أيام السيطرة البويهية والسلجوقية ، إلا أنها أعادت أنفاسها بالمواقف الجريئة التي وقفها الخلفاء العباسيون الذين قاوموا الإحتلال السلجوقي ، وظهر بعض الوزراء الأقوياء ولعل من أشهرهم الوزير ابن هبيرة والذي ساند الخلافة في خلاصها من السيطرة السلجوقية . ونلاحظ أيضاً أن معظم الوزراء كان مصيرهم المصادرة أو الحبس والقتل .

ومن الجدير بالذكر أن قامت نظم للوزارة **أيام الفاطميين** في مصر **والأمويين** في الأندلس ، ولا تكاد معظم النظم تختلف عن نظم الوزارة في العصر العباسي ، كما تعرضت تلك النظم إلي

الضعف بسبب المشاكل التي واجهت الدولة الفاطمية والأندلسية .

ومن الجدير بالذكر أن الوزارة **في الدولة الفاطمية** في أيامها الأولى كانت وزارة تنفيذ ، ذلك أن الخلفاء الفاطميين كانوا من القوة والقدرة على تدبير أمور الدولة بأنفسهم ، كما نلاحظ أن هناك عدداً من الذين تولوا الوزارة في العهد الفاطمي كانوا من أهل الذمة من اليهود والنصارى ، مثل يعقوب بن كلس , وكان هذا يهودياً ، ولد ونشأ ببغداد وكان على ما يبدو يمتلك ذكاءً وفطنة , اتصل بالملك كافور الإخشيدي ونال ثقته وتولى بعض المناصب المهمة في دولة الإخشيديين ، وأعلن إسلامه في شعبان سنة 366هـ/977م , ولزم الصلاة وقراءة القرآن الكريم .

وتولى الوزارة للمعز الفاطمي وهو أول من وزر للفاطميين في مصر , وتولى الوزارة للحكم الفاطمي ، عيسى بن نسطورس وكان نصرانياً , ثم تولى الوزارة للحاكم أيضاً زرعة أخو عيسى بن نسطورس وتلقب بالشافي , ولعل من أشهر وزراء مصر أيام الفاطميين ، أمير الجيوش بدر الجمالي أصله من أرمينية ، استوزره المستنصر الفاطمي , وفوض إليه أمور مصر والشام وجميع ممالكه. وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه ، وتوفي الوزير بدر الجمالي سنة 487هـ/1094م.

وممن تولى الوزارة في مصر أيام الفاطميين بهرام الأرمني , الذي اضطر الخليفة الفاطمي إلي تعيينه وزيراً مع أنه نصراني فأثار سخط المصريين ، وازداد نفوذ بهرام هذا فأحضر إخوته وأهله وسمح لأبناء جلدته من الأرمن بالإقامة في مصر فأساءوا إلي السكان أدى ذلك إلي حصول اضطرابات كانت من أسباب نقمة المصريين وعدم رضاهم على الفاطميين ، ثم عزل عن الوزارة سنة 531هـ / 1136م . وعين الخليفة الفاطمي رضوان الريحيني. ولقب بالملك , وهو أول وزير فاطمي لقب بالملك، ثم عزله الخليفة الفاطمي ، ولم يستوزر أحداً وباشر الأمور بنفسه إلي أن مات .

أما في الأندلس فلم يكن لفظ الوزارة شائعا كما في دولة بني العباس أو الدولة الفاطمية، و كان يطلق اسم الحاجب على من يتولى مهمة الوزير ، وكان يطلق اسم الوزير على من يتولى تلك المهمة في بعض الأحيان ، كما أطلق اسم ذي الوزارتين عليه بعض الوقت . ويذكر ابن خلدون في موضوع الوزارة ، "أن حكام بني أمية بالأندلس أنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة , ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفرزوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيرا , وللترسيل وزيراً ،

وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً , وللنظر في أحوال الثغور وزيراً , وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك، كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحدا منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ... فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب ".

و هذا يدل على أن كلمة حاجب في الأندلس تعني الوزارة و الذي له الامتياز بالدخول على الخليفة , وهو الوسيط بين الخليفة و بقية الوزراء , ولما دب الضعف في الدولة الأموية في الأندلس ازداد نفوذ الحاجب حتى نجح ابن أبي عامر في أن يكون الحاكم الرئيسي في الأندلس , وصار بيده كل شيء ، وصار يدعى له على المنابر, وضربت السكة باسمه بعد اسم الخليفة هشام ابن الحكم ، وصار يلقب بالحاجب المنصور.

3) الحجابة :

الحجابة وظيفة مهمة ظهرت بوضوح في خلافة معاوية بن أبي سفيان بعد محاولة اغتياله من قبل الخوارج ، ذلك أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يستقبل من أراد مقابلته في المسجد النبوي في أي وقت يكون فيه الرسول (ﷺ) حاضراً في المسجد دون استئذان ولا يمنعه أحد، كما سار الخلفاء الراشدون على نهجه (ﷺ), لا يمنعون أحداً وأبوابهم مفتوحة لكل زائر وصاحب حاجة .

واتخذ معاوية بن أبي سفيان حاجباً له ، لا يدخل عليه إلا بعد استئذان خاص من معاوية بن أبي سفيان , كما اتخذ الحرس وجعل له مقصورة خاصة في الجامع عند حضور صلاة الجمعة أو العيدين ، وهذا يعني أن معاوية بن أبـي سـفيان كـان لا يؤم المسلمين في الصلاة , بل ينيب أحد المسلمين للقيام بإمامة المسلمين في الصلاة ، لأنه كان يصلي منفرداً مع بعض خاصته في مكان خاص بحراسة من جنده ، مخافة الإعتداء عليه.

ومن الجدير بالذكر أن معاوية بن أبي سفيان ومن خلفه في الحكـم من بعده اهتموا بموضوع وظيفة الحجابة التي صارت تنظم دخول الناس على الخليفة كما تنظم مواعيد لقائهم بالذين يرغبون مقابلة الخليفة لأمور مختلفة ، كما اتخذت هذه الوظيفة لتلافي الازدحام على أبواب الخلفاء ، ومن أشهر حجاب معاوية بن أبي سفيان سعد مولاه ونلاحظ أن معظم الحكام الأمويين اتخذوا الحجاب من مواليهم

ووظيفة الحجابة من الوظائف المرموقة أيام الأمويين وهي أشبه ما تكون اليوم " بوظيفة رئيس التشريفات " في رئاسة الجمهورية ، أو ما يسمى" بكبير الأمناء " في مصر , وسار على هذا

المنهج الخلفاء العباسيون ولكنها أخذت في التوسع والتعدد ، فصار للخليفة حاجب ، كما صار للوزراء حجاب وكذا لكبار رجال الدولة ويلاحظ أن اختيار الحاجب في العصر العباسي كان يراعي فيه أن يكون الحاجب من العوائل المعروفة في المجتمع ، وأن يتصف بالأخلاق العالية كما يكون من طبقة الأدباء والعلماء , ذلك أن الحاجب عليه أن يتعامل مع فئات مختلفة ومتفاوتة من طبقات المجتمع.

وزخرت مصادر التاريخ بالعديد من أسماء الحجاب الذين تولوا الحجابة للخلفاء والوزراء وغيرهم من موظفي الدولة الكبار، ومن الذين تولوا الحجابة في صدر الدولة العباسية الربيع بن يونس بن محمد، وكان حاجباً للخليفة أبي جعفر المنصور ، ثم استوزره وولده الفضل بن الربيع الذي اتخذه هارون الرشيد العباسي حاجباً ، ثم ولي الوزارة للرشيد ولولده الأمين . ومن أشهر حجاب المأمون العباسي عبد الحميد بن عيسى وحميد بن قحطبة كما تولى الحجابة أيام المعتصم والواثق، وصيف التركي.

ويبدو أنه بسبب سوء الأوضاع في الدولة العباسية بسبب التدخل التركي في شؤون الخلافة استأثر بعض الحجاب بمنصبهم، مثال ذلك أن محمد بن ياقوت الذي تولى الحجابة سنة 322هـ/933م أدخل يده في تدبير أعمال الخراج والضياع , ونظر فيما نظر فيه الوزراء ، وطالب أصحاب الدواوين بحضور مجلسه و ألا يقبلوا بولاية ولا صرف ولاغير ذلك من سائر الأحوال إلا بعد أن يوقع فيه بخطه، وكان الوزير محمد ابن علي المعروف بابن مقلة أشبه بالمتعطل وتحمل كل ذلك ، ولازم منزله ويجيئه أبو إسحاق القراريطي كاتب الحاجب محمد بن ياقوت فيطالعه بما يجري وما يعمل.

وفي عهد **السيطرة البويهية** كان من الحجاب، أحمد بن خاقان الذي كان حاجباً الخليفة المستكفي بالله ، وتولى الحجابة للخليفة المطيع لله، أبو الحسن بن أبي عمرو ، وتولى الحجابة في أواخر أيام البويهيين للخليفة العباسي القادر بالله ، أبو منصور بن بكران ، الذي استمر حاجباً إلي أيام الخليفة القائم بأمر الله وفي أيامه سيطر السلاجقة على بغداد .

أصبحت الحجابة أيام **السيطرة السلجوقية** من الوظائف المهمة، وكان الذي يتولى هذه الوظيفة يطلق عليه (الأمير الحاجب الكبير)، وهذا الموظف هو الذي يتصل بالسلطان ، ويكون صلة الوصل بينه وبين الوزير، وهو وحده الذي يتلقى أوامر السلطان الشفهية، وهو وحده أيضاً الذي يستطيع أن يوصل الأوامر والنواهي السلطانية إلي الوزير للقيام بتنفيذها، أي أنه الشخص الوحيد المخول بنقل مطالب

السلطان، معنى ذلك أن كلام الحاجب هو كلام السلطان ، وعلى الوزير وغيره من موظفي الدولة تنفيذ أقواله .

ويبدو أن هناك مساعداً للحاجب الكبير يسمى نائب الحاجب , فقد أرسل علي بار — الذي كان الحاجب للملك محمود السلجوقي — نائبه أبا القاسم الأنسا باذي إلي السلطان سنجر، ملتمساً المعذرة على لسان الملك محمود .

ولم يكن الحاجب ليتخذ من قصر السلطان أو الملك مقراً دائماً له، بل كان — على ما يظهر من مجريات الحوادث وأدلة النصوص التاريخية — يسهم مع السلطان في حروبه خارج عاصمته ، وكثيراً ما كان الحاجب يقود الجيوش لمحاربة أعداء السلطان.

فقد سار الأمير الحاجب الكبير نصرة الدين بهلوان، حاجب السلطان أرسلان بن طغرل بك بن محمد و الأمراء الذين كانوا في حضرة السلطان إلي الري ، لمحاربة وإلي الري، فدارت معارك عنيفة انتهت بانتصار الحاجب نصرة الدين بهلوان ومقتل وإلي الري ، وأسند السلطان أمر الري إلي الأمير الحاجب البهلوان.

وظهر بين من تولى الحجابة ، من ناهض السلاطين وخالفوا أوامرهم ، بل عملوا على قلب السلطنة السلجوقية والقضاء عليها، ولم يعد منصب الحجابة ليصلح في خضم الحوادث العنيفة المتعاقبة التي واجهتها الدولة السلجوقية ، وفي جو المنازعات والمؤامرات التي تعرضت لها في عصورها المتأخرة بخاصة ، وكان صاحب ذلك المنصب مصدر خطر على السلطان، نتيجة المنافسات الشديدة على منصب الحجابة .

وصارت الحجابة مصدر ثراء لمن يتولاها ، فالحاجب خاص بك كان في الأصل صبياً من التركمان , قربه السلطان مسعود وولاه الحجابة وصار له من المال ما لا يحصى ، وكانت له تركة عظيمة في جملتها سبعون ألف ثوب أطلس.

وممن تولى الحجابة للخلفاء العباسيين **أيام السلاجقة**، أبو عبدالله المردستي وأبو منصور المعوج ، وقد وليا الحجابة في عهدي الخليفتين المقتدي بأمر الله والمستظهر بالله العباسيين ، وصار بعض الحجاب يتدخل في شؤون الخلافة العباسية ، كما صارت تحدث منافسات بين الحجاب والوزراء ، فقد حدثت نفرة بين الوزير ابن هبيرة والحاجب محمد بن عبدالله المعروف بابن المسلمة ، والذي اتهم بوضع السم للوزير ابن هبيرة، ذلك السم الذي كان سبب وفاته سنة 560هـ/1164م .

ومن أهم الحجاب في الدولة العباسية حاجب الديوان العزيز ، الذي كان هو الحاجب الكبير ولازم الخليفة . ومن هؤلاء أبو العباس أحمد بن يوسف بن الزوال الهاشمي ، وكان سيداً جليلاً ،

وقد استحجب بالديوان العزيز , وتولى نقابة العباسيين والنظر في أمورهم سنة 568هـ / 1172م وبقي في منصبه إلي أن عزل سنة 583هـ / 1187م .

ومن حجاب الديوان العزيز محمد بن عبد الله بن الحسين بن السكن أبو سعيد بن نصير بن المعوج المتوفي سنة 573هـ/ 1177م، ومحمد بن عبد الباقي أبو الفتح ويعرف بابن الدريج , الذي نقل إلي وظائف متعددة آخرها نيابة الوزارة ، ثم عزل عنها سنة 580هـ / 1184م . ومن كبار حجاب الديوان العزيز محمد بن طلحة بن علي الهاشمي أبو المظفر ، وكان نائباً لنقابة العباسيين ثم تولى الحجابة بالديوان العزيز، وكان له وضع خاص لمكانة عائلته ولشرف نسبه العباسي ، وكان يحضر أيام الجمع مع الخطيب في المقصورة المخصصة لكبار رجال الدولة ويحمل سيفه، وقد عزل قبل وفاته سنة601هـ / 1204م ، ومن مشاهير من تولى الحجابة للخليفة الناصر لدين الله العباسي ، أبو القاسم قثم بن طلحة بن علي بن محمد الزينبي وفي عهده حصلت فتنة ببغداد بين أهالي محلتين من محال بغداد، فركب ليسكن الفتنة فلم تسكن فأخذ بيده حربة وحمل على إحدى الطائفتين ونادى ياالهاشم وتداركه الشحنة حتى سكنت الفتنة فعيب عليه وقيل : أردت خرق الهيبة ، لو ضربك أحد العوام فقتلك , فعزل عن الحجابة.

وكان يتولى حجابة دار الخلافة من يقف على أبوابها، ولدار الخلافة أبواب عديدة من أشهرها باب العتبة , ويعرف أيضاً بباب النوبي وباب المراتب، والحاجب الذي يتولى حجابة باب المراتب ، يعد من الشخصيات الكبيرة ، ويقول الحموي : إن هذا الباب من أجل أبواب دار الخلافة وأشرفها ، وكان حاجبه عظيم القدر ونافذ الأمر. وقال ابن عبد الحق: " داخله محلة كبيرة كان يسكنها الأكابر والتجار والأشراف وذو البيوتات القديمة , وكانت الدور بها غالية , لها قيمة".

ولباب النوابي وهو من أبواب دار الخلافة ذكر في كتب التاريخ ، وهو من الأبواب المهمة ، وكان لحاجبه أهمية كبيرة , وممن تولى حجابة هذا الباب الحسن بن نصر بن علي بن الناقد , وبقى في منصبه إلي وفاة والـده سنة 592هـ/1195م ، وكان والده يتولى صدرية المخزن، فنقل الحسن إلي النظر بالمخزن المعمور ، ومن حجاب هذا الباب الفضل بن يحيى بن عبد الله العلوي الموصلي ، ومن الذين تولوا حجبة باب النوابي أبو الفتوح علي بن هبة الله بن الحسن بن الدوامي ، وهو من الشخصيات البارزة في العصر العباسي الأخير ، فقد تولى عرض الجيش العباسي سنة 631هـ / 1233م وهي كرتبة مدير الإدارة في الجيش , ثم

نقل إلي صدرية ديوان إربل , وخلع عليه , وجعل بعد ذلك صدراً للمخزن ، وصدرية المخزن كمديرية التجهيزات العامة للدولة العباسية ، وفي سنة 634هـ/1236م تولى حجابة باب النوابي وأمر الشرطة , وكان هذا الحاجب قد رافق الوزير العباسي لمقابلة هولاكو عند حصاره لبغداد وطلب منه هولاكو أن يتولى تدبير الأعمال الفراتية فلم تطل أيامه , وتوفي قبل عود السلطان هولاكو إلي بلاد الجبل.

مما تقدم عرفنا أن منصب الحجابة من المناصب المهمة في الدولة العربية والإسلامية وبخاصة أيام العباسيين فقد صار للخليفة حجاب , وبكل مرفق من مرافق الدولة حجاب , ينظمون دخول طالبي لقاء الخليفة أو الوزير أو الوالي وغيرهم من مسؤولي الدولة العباسية .

واتخذ **الفاطميون** نظام الحجابة ولكن لم يكن للحاجب من النفوذ والسلطة ما كان للحاجب في دولة العباسيين ، وبالتأكيد فإن الخلفاء الفاطميين اتخذوا نظام الحجابة ولكن على شكل محدود، ويؤكد لنا هذا ما ذكره القلقشندي،عند انعقاد مجلس الخليفة فيقول : " إن صاحب المال والحجاب والأمناء كانوا يأخذون أمكنتهم عند الأبواب , في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم".

وفي **الأندلس** كان للحاجب دور كبير في شؤون الدولة ، يقول ابن خلدون : " كانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم ، فكانت في دولتهم رفيعة غاية، كما نراه في أخبارهم، كابن حديد وغيره من حجابهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفه، فكان المنصور بن عامر وأبناؤه كذلك".

ووردت طرائف لطيفة حول الحجابة والحاجب ، ذكر صاحب العقد الفريد أن زياد ابن أبيه قال لحاجبه : " وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع : هذا المنادي إلي الله في الصلاة والفلاح، لا تخرجنه عني فلا سلطان لك عليه . وطارق الليل لا تحجبه، فشر ما جاء به ولو كان خيراً به تلك الساعة . ورسول الثغر ، فإنه إن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، فأدخله علي وإن كنت في لحافي. وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد " .

ووقف رجل بباب أبي دلف العجلي المشهور بالكرم والجود، فقام به حيناً لا يصل إليه ، فتلطف في رقعة وأوصلها إليه وكتب فيها :

إذا كان الكريم له حجابٌ
فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه :

إذا كان الكريم قليل مالٍ
و لم يعذر تعذر بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات
فلا تستعظمن حجاب بابي

وقال خالد بن عبدالله القسري أمير العراق لحاجبه :" إذا أخذت مجلسي فلا تحجبن عني أحداً، فإن الوالي يحتجب عن الرعية لإحدى ثلاث : إما بعَيب يكره أن يطلع عليه، و إما لبخل يكره أن يسأل شيئاً، وإما لريبة لا يحب أن تظهر منه" .

وقيل: " لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب لأن الرعية إذا وثقت بسهولة الحجاب أحجمت عن الظلم، وإذا وثقت بصعوبته هجمت على الظلم". قال عمر بن العزيز لابنه:"من بالباب ؟ فقال: رجل يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسـول الله صلى الله عليه وسلـم" و يقول: "من ولى شيئاً من أمور المسلمين ثم حجب عنه، حجبه الله يوم القيامة ، فقال لحاجبه : " الزم بيتك، فما رئي على بابه بعده حاجب ".

ومن وصايا الخلفاء لحجابهم، أن الخليفة العباسي المنصور ولى حجابته الخصيب فقال : إنك بولايتي عظيم القدر، وبحجابتي عظيم الجاه ، فَبَقِّها على نفسك ، ابسط وجهك للمستأذنين , وصن عرضك عن تناول المحجوبين، فما شيء أوقع بقلوبهم من سهولة الإذن وطلاقة الوجه.

خاتمة :

من كل هذا يتضح لنا أن الحجابة وظيفة مهمة من وظائف الدولة العربية الإسلامية , وأن الحاجب يختار من الشخصيات المرموقة التي تتصف بالأدب والعلم والصيانة , ومن البيوتات المعروفة ، وأن يكون من ذوي الأخلاق النبيلة ومعرفة بمكانة الناس وطبقاتهم ومنازلهم . وكان لبعض الحجاب واجبات منها أن يعني بأمر أصحاب المناطق البعيدة الذين يردون الخلافة ، ووظيفته أشبه ما تكون بموظفي التشريفات في قصور رئاسة الجمهورية , أو بالتشريفات الذين يعملون في وزارات الخارجية وعليهم استقبال ومرافقة الوفود التي تزور دار الخلافة أو الوزارة .

وصارت لبعض الحجاب صلاحيات عسكرية إضافة إلي وظيفته , كحاجب باب النوابى حيث صارت له صلاحية حفظ الأمن ببغداد , وصار صاحب الشرطة مرتبطاً به . وكان للحاجب أعوان يكلفهم بمهام مختلفة ، وكان للحاجب رئيس يعرف برئيس الحاجب، فقد ورد اسم علي بن محمد بن محمد أبو الحسن الوكيل أنه كان حاجب الحجاب أيام الخليفة المسترشد بالله العباسي.

أ.د. حسين أمين
(جامعة بغداد)

المصادر و المراجع

1) المصادر العربية :

- **الأبشيهي**، شهاب الدين محمد ابن أحمد (ت 850هـ 1446 م)
1982، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة.

- **ابن الأثير** : أبو الحسن عز الدين علي بن محمد (ت 630هـ/ 1232م)
1353، الكامل في التاريخ، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

- **الإربلي** : عبد الرحمن بن إبراهيم سنبط قنيتو (ت 717 هـ / 1317 م)
د ت , خلاصة الذهب المسبوك ، طبعة مكتبة المثنى ، بغداد.

- **الأشعري** : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 330هـ/ 941 م)
1963، مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين، إصدار جمعية المستشرقين الألمانية.

- **ابن أبي الحديد** : عز الدين أبو حامد بن عبد الحميد المدائني (ت 655هـ/ 1257م)
1959، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية.

- **ابن تغري بردي**: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ن 654 هـ/ 1256 م)
1963، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب، القاهرة.

- **الثعالبي** : أبو منصور عبد الملك محمد ابن إسماعيل (ت 429هـ/ 1037م)
1977 1978، تحفة الوزراء ، تحقيق حبيب علي الراوي وابتسام الصفار، مطبعة العاني، بغداد.
19561978، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، مطبعة السعادة، القاهرة.
1979

- **الجليلي**: أحمد محمود (د ت)
منهاج الوزراء في النصيحة، مخطوط في مكتبة آيا صوفيا، إسطنبول، رقم 2907.

- **الجهشياري** : محمد بن عبدوس الكوفي (ت 331هـ/ 1038م)
1958، كتاب الوزراء و الكتاب، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي،مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

- **ابن الجوزي:** أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/ 1200م)
1939 , المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند.

- **ابن حجر العسقلاني:** شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ / 1448 م)
1939، الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة مصطفى محمد القاهرة.

- **ابن حزم:** أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي(ت 456 هـ/ 1064م)
1899، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة.

- **الخطيب البغدادي:** أحمد بن ثابت (ت 463 هـ/ 1070 م)
1931، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة.

- **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1406م)
1988، المقدمة، طبعة دار الهلال بيروت.
1971، العبر وديوان المبتدأ و الخبر، بيروت.

- **ابن خلكان:** أبو العباس أحمد بن إبراهيم (681هـ / 1282 م)
1948، وفيات الأعيان و أبناء الأعيان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، القاهرة.

- **ابن الدبيثي** : الحافظ لجمال الدين محمد بن سعيد (ت 639هـ/ 1241م)
التاريخ المذيل على تاريخ بغداد للسمعاني. مخطوط في مكتب الدراسات العليا، بغداد.

- **الذهبي** : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله بن محمد (ت 748هـ/ 1348 م)
1951،المختصر المحتاج إليه، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف القاهرة.

- **الراوندي** : محمد بن علي بن سليمان (بداية القرن 7 هـ/ القرن 13 م)
1960، راحة الصدور و آية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، مطابع دار القلم، القاهرة.

- **الشهرستاني** : محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ/ 1153م)
1955، الملل والنحل، مطبعة الأزهر، القاهرة.

- **الصابي:** أبو الحسين هلال بن المحسن (ت 448هـ/ 1055م)
1904، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء طبعة بيروت.

1964، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد.

- **الصولي:** أبو بكر محمد بن يحيى (ت 335هـ/ 946 م)

1979، أخبار الراضي و المتقي، تحقيق هيورت، دار المسيرة، بيروت.

- **الطبري:** أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/ 922 م)

1987، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، القاهرة.

- **ابن طباطبا(شهر بن الطقطقى):** تاج الدين محمد بن علي (ت 709هـ/ 1309م)

1927، الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية، المطبعة الرحمانية، القاهرة.

- **ابن عبد البر:** أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت463 هـ/ 1070م)

1939، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، طبعة مصر، على هامش الإصابة .

- **ابن عبد الحق:** صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت 739 هـ/ 13338 م)

1954، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

- **ابن عبد ربه القرطبي الأندلسي :** شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 329 هـ/ 940م)

1940، العقد الفريد. مطبعة الاستقامة، القاهرة.

- **ابن العماد الحنبلى :** أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089هـ / 1678 م)

1350، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكنبة القدس، مصر.

- **ابن عنبة الأصغر :** جمال الدين أحمد ابن علي بن الحسين(ت 828هـ/ 1424م)

1961، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف.

- **ابن الفوطي** ، أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشباني (ت 723هـ/ 1322م)

1351، الحوادث الجامعة، مطبعة الفرات، بغداد.

1967، تلخيص مجمع الآداب، المطبعة الهاشمية، دمشق.

- **ابن قتيبة :** عبد الله بن مسلم الدينوري (276 هـ/ 889 م)

1904، كتاب الإمامة و السياسة، طبعة القاهرة.

- **القلقشندي،** أبو العباس أحمد (ت 821هـ / 1418 م)

1913- 1917 م، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة .

ابن الكازروني : أبو الحسن علي بن محمد بن محمود البغدادي (ت 697هـ/ 1297م)
1970، مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، المطبعة الحكومية، بغداد.

– **الماوردي** : علي بن محمد بن حبيب البصري (ت 450 هـ /1058 م)
1978، الأحكام لسلطانية و الولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت.

– **المسعودي:** أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ/ 957 م)
1938، مروج الذهب و معادن الجوهر، طبعة الرجاء، بغداد.

– **مسكويه** : أبو علي أحمد بن محمد (ت 421هـ/ 1030)
1914، تجارب الأمم ،مطبعة التمدن, القاهرة.

– **المقري** : أحمد بن محمد التلمساني (ت1041 هـ/ 1632 م)
1862، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، طبعة بولاق، القاهرة.

– **المقريزى**، تقي الدين أبو العباس أحمد (ت 845هـ/ 1441م)
1853، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة.

– **ابن النجار** : محب الدين محمد بن محمود ابن محاسن البغدادي(ت 643هـ/ 1245م)
التاريخ المجدد لمدينة السلام، نسخة مصورة عن باريس برقم 575، محفوظة في مكتبة الدراسات العليا ببغداد .

– **النوبختي** : أبو محمد الحسن بن موسى (ت 302هـ/ 914 م)
1931 , فرق الشيعة , طبعة إسطنبول.

– **النويري** : شهاب الدبن أحمد بن عبد الوهاب (ت 723هـ/ 1322 م)
1954، نهاية الأرب مطابع كوستاتسوماس وشركاؤه، القاهرة.

- **ياقوت** الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ/ 1229م)
1923، معجم الأدباء، مطبعة هندية بالموسكي، القاهرة .
1965، معجم البلدان، طبعة طهران.

– **أبو يوسف** : يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ/ 798م)
1352، كتاب الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة.

2) المراجع العربية و المعربة:

- **البنداري** : الفتح علي بن محمد
1900، تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات، بغداد.

- **جولد تسهير**: أجناس
د ت، العقيدة و الشريعة في الإسلام، طبعة دار الكتاب العربي ، القاهرة.

- **حسن إبراهيم**: حسن
1964, تاريخ الا ولة الفاطمية, طبعة النهضة المصرية، القاهرة.

- **حسن إبراهيم وعلي إبراهيم** : حسن
1959، النظم الإسلامية، طبعة النهضة المصرية، القاهرة.

- **الدوري** : عبد العزيز
1945، العصر العباسي الأول، بغداد .

- **الصالح** : صبحي
1968، النظم الإسلامية : نشأتها و تطورها، دار العلم للملايين، بيروت.

- **عباس** : إقبال
1338، وزارت عهد السلاطين برزك سلجوق، بالفارسية ، طبعة إيران.

- **فريد بك**: محمد
1977، تاريخ الدولة العلية العثمانية، طبعة دار الجيل، بيروت .

- **كحالة**: محمد رضا
1958، العا لم الإسلامي، المطبعة الهاشمية، دمشق.

- **لي سترانج** :
1954، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير زنسيس، مطبعة الرابطة، بغداد.

- **مجموعة من المؤرخين العراقيين**
1988، تركيا المعاصرة، إصدار مركز الدراسات التركية، جامعة الموصل.

- **النقشبندي** : ناصر السيد محمود
1953، الدينار الإسلامي، مطبعة الرابطة، بغداد.

المراجع الأجنبية:

ARNOLD Thomas W
1924, The Caliphate, Oxford.

LEVY PROVENCAL E
1932, L'Espagne musulmane au Xème siècle: Institutions et vie sociale, Paris.

MUIR W
1924, The Caliphate , its rise, decline and fall , Edinburg.

SOURDEL D
1960, Le vizirat abbasside de 749 à 936, Institut Français de Damas, 2 vol.

4) الدواويـــــــــــــــــــــــــــن :

مقدمة:

حفلت الفترة من 132هـ - 447هـ/ 749 - 1055م بأحداث كثيرة تناوبت الدولة العباسية فيها بين القوة والضعف ، وبين سلطة عباسية وتسلط أجنبي أو عسكري.

كما ضمت حكم 26 خليفة بدءا بأبي العباس وانتهاء بخلافة القائم بأمر الله.وفي الفترة من 132-218هـ/ 749 -833م ، وهي العصر العباسي الأول عصر الازدهار السياسي والحضاري ، ويعتبر " العصر الذهبي بكل ما فيه من مظاهر الحضارة ودلالات الازدهار منعطفاً جديداً في تاريخ الخلافة العباسية ".

"وكانت قوة الدولة أيام أبي جعفر المنصور" الذي أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد" ، وانتهى دور البناء في الدولة العباسية بوفاة المنصور؛ لأن الضعف دب في جسم الدولة أيام الخليفة هارون الرشيد الذي يُعَدُ عصره بدء التفسخ السياسي في الدولة ، لانفصال أجزاء من جسم الدولة ومنها المغرب الأقصى (الدولة الإدريسية) و إفريقية (الدولة الأغلبية) . إلا أن في عصره تقدمت العلوم والحضارة ، ولكن أوج بغداد كان في القرن الثالث الهجري، كما أن اكتمال الحضارة والمؤسسات كان في دور متأخر.

ومن الأحداث التي أضعفت الخلافة ما حصل من خلاف بين الأمين والمأمون وهو الخلاف الذي أدى إلى اختلال التوازن بين العرب والفرس ، وتعاظم النفوذ الفارسي لدرجة خطرة على سلامة الدولة.

وبنهاية عصر المأمون انتهى العصر العباسي الأول ، وجاء المعتصم بالله (218هـ/ 883م)، وبمجيئه انتهى التعاون بين الخراسانيين والعباسيين ودخل عنصر جديد هو العنصر التركي، وهم غلمان جلبهم من أشروسنة وفرغانة ، كما كون فرقا من المصريين سماهم المغاربة.

وبمرور الزمن تزايد عدد الأتراك في الجيش وأساءوا إلى الناس ، فاضطر المعتصم إلى إبعادهم إلى سامراء. وقد وضح خطر هؤلاء الأتراك أيام المتوكل ؛ إذ زادت تدخلاتهم في السياسة ، وبدأ الصراع بين المؤسسات العسكرية المتمثلة في القادة الأتراك والمؤسسات المدنية.

وقد حاول المتوكل الحد من نفوذ الأتراك باتخاذ عدد من الإجراءات، منها نقل العاصمة والدواوين إلى دمشق، إلا أنه لم ينجح وذهبت حياته ثمنا لتسلط الأتراك.

ثم جاءت فترة التسع سنوات أو فوضى الأتراك ، واستمرت 247-256هـ/ 861-869 م وكانت فترة محنة للدولة العباسية ، اختبرت فيها قوتها الكامنة ودرجة رسوخها ،

فخرجت منها بنصر مؤقت بعد جراح وتقطيع أوصال.

و تشمل هذه الفترة خلافة أربعة خلفاء ، هم : المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي ، وتتميز باستبداد الترك حتى أصبح الخلفاء ألعوبة بأيديهم؛ يولوهم ويعزلوهم علي حسب أهوائهم. يقول صاحب الفخري: " إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ مقتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه."

كذلك كانت فترة نضال بينهم وبين الخلفاء حاول فيها الخلفاء مقاومة الترك ، بل إضعافهم وكسر شوكتهم ، ومنها محاولات المنتصر والمهتدي ، وقد انتهت هذه الفترة القصيرة بانتصار الترك وكادت سلطة الخلفاء تنهار نهائيا في وسط خصومات الجيش وفوضاه ، ولكن القواد الأتراك توقفوا عن إثارة الاضطرابات أيام المعتمد الذي جاء إلى الخلافة . وواجه أخطر حركة هددت كيان العباسيين هي ثورة الزنج ، فضلا عن الميول الانفصالية عند بعض الأمراء، منهم الطاهريون والصفاريون والسامانيون .

كان المعتمد دون مستوى الأحداث فإن السلطة كانت بيد أخيه الموفق طلحة الذي استطاع أن يدير الأمور. ولما انتهت خلافة المعتمد 279هـ/ 892م جاء إلى الحكم المعتضد بالله ، فكانت محاولاته الجادة لإعادة هيبة الخلافة حتى لقب بالسفاح الثاني يقول صاحب العيون، " وكانت الخلافة قد ضعفت ووهي أمرها، فأعزها الله بالمعتضد وكان يقال له السفاح الثاني.

استقرت الإدارة في زمن المعتضد، بالله ، وخاصة الدواوين ، حتى أنشئ في عهده ديوان الدار ؛ ليشرف على الدواوين المختلفة التي تنظر في الأمور المالية. وفي عهده ساد الوئام بين الإدارة والجيش فساعد ذلك في استرجاع هيبة الخلافة ، وتوقف تدخل القادة في السياسة. ولكن بذهاب المعتضد ومجيء المكتفي عادت الخلافة إلى الاضطراب ، وفي هذا العصر كان الخليفة يمارس سلطته بواسطة الوزير ، وتختلف سلطة الوزير حسب قوة الخليفة وضعفه ، ويساعد الوزير عدد من الدواوين وكما ظهرت دواوين مهمة في هذه الفترة سنشير إليها فيما بعد ، واستعادت الإدارة أهميتها وفعاليتها ، وتوقف الجيش عن التلاعب بالسياسة. وما إن جاء المقتدر بالله حتى بدأ عهد جديد من الضعف ؛ إذ كان المقتدر صغير السن وضعيفا ، فعاد الجيش إلى التدخل في السياسة ، وسيطر عليه القادة الأتراك ، إضافة إلى فعاليات القرامطة ، حتى كان عصره المرحلة الأخيرة في انهيار أسس الخلافة العباسية.

ومما تميزت به هذه الفترة ظهور المنافسة بين الكتاب ، وظهور كتاب عباقرة أمثال آل الفرات وآل الجراح ، ولابد من الإشارة إلى أن التيار الرئيس هو دور الوزراء والكتاب وما ساد من انقسامات ودسائس بينهم وهو ما أضعف الإدارة.

هذا الضعف والانقسام سهل المجال للجيش للتدخل وازدادت الإدارة ضعفا . ولا مجال للدخول في تفاصيل الصراع بين الوزراء والخلفاء وتدخلات القادة العسكريين ؛ لأن مصادرنا التاريخية أسهبت في وصف ذلك. ولعل من أقدر الوزراء في هذه الفترة الوزير علي بن عيسى قال عنه مسكويه : " فساس الدنيا أحسن سياسة ورسم للعمال الرسوم الجميلة ، وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ، ودبر أمر الوزراء والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصن ، فباتت بركته على الدنيا. واستقام أمر السلطان وعادت هيبة الملك ، وصلح أمر الرعية " .

فما إن تولى الوزارة سنة 315هـ/ 927 م ، حاول إشغال الدواوين ، واستخدم كتابا قديرين وزعهم على الدواوين ، وكانت علاقة علي بن عيسى حسنة مع القائد التركي مؤنس إلا أن علي بن عيسى استقال ، لأن المقتدر أفسد عليه تدابيره المالية حين منح الجيش أرزاقا إضافية. ولكن الأزمة المالية بقيت واستبداد الجيش كذلك .

واستمر شغب الجيش في هذه الفترة ، ونهبوا وسرقوا وطالبوا بالأرزاق ، وقد اضطربت الأمور بعد استقالة علي بن عيسى ، وزاد الأمر سوءا بسبب عدم دفع رواتب الجيش ، واستعان المقتدر بوالدته فادعت أنها لا تملك شيئا ، وهكذا انهار أساس الدولة المالي ، ولقي المقتدر حتفه .

جاء القاهر بالله إلى الخلافة ، وكان ضعيفا وفقيرا ، وكان الوضع المالي سيئا والجيش يطالب بالأرزاق ، ولم يستطع القاهر معالجة الوضع ، فذهبت حياته ضحية طغيان الجيش وتكالب رؤسائه وجشعهم ، وبويع لأبي العباس بن المقتدر ولقب "الراضي بالله". وظلت الأزمة المالية قائمة ، ولم يستطع الوزير حلها. وفي هذه الأثناء ظهر قائد عسكري هو ابن رائق الذي تعهد للخليفة بتجهيز النفقات العامة ودفع رواتب الجيش إن عهدت إليه القيادة والإدارة العامة. وافق الخليفة على هذا العرض ولقب ابن رائق أمير الأمراء. ونظام إمرة الأمراء يعتبر جديدا بين مؤسسات الدولة العباسية ، ولكن شخصيات سياسية – وخاصة من بين الوزراء – ظهرت قبل ابتداء إمرة الأمراء ، وجمعت بين الاختصاصات المدنية والعسكرية إذ كان يطلق عليهم أصحاب السيف والقلم ، ويعتبر منصب إمرة الأمراء من

هذه الناحية تطورا لهذا الجمع بين الحرب والإدارة، فقد جمع أمير الأمراء ، رئاسة الجيش والخزينة المالية والدواوين. وهكذا أصبح هذا المنصب فوق الوزارة ، بل إنه أبطلها ؛ إذ لم يكن هناك حاجة لوجودها وأصبح أمر الجند ونفقات الخليفة والإدارة عامة بيد أمير الأمراء الذي كان غالبا من القادة العسكريين.

وشملت هذه الفترة ثلاثة خلفاء : الراضي والمتقي والمستكفي من 329- 334هـ/ 946-1005م ، وفي خلال فترة إمرة الأمراء تخرب نظام الري وتدهورت الزراعة وقلت الواردات.

جاء البويهيون عام 334هـ/ 945م ، وكانت فترتهم فترة فوضى واضطراب ، وكان الجيش البويهي ضعيفا بسبب الخصومة المستمرة بين أفراده للتنافس على الامتيازات ، وكذلك سوء سياسة الأمراء البويهيين تجاه الجيش بإثارة فرق الجيش بعضها ضد بعض ، وزادت الضرائب ، ثم ظهرت ضرائب إضافية أدخلها البويهيون ، وكانت كثيرة ومرهقة ، وهكذا تدهور الوضع المالي في العراق وانحط مستوى المعيشة ، وانتشرت الفوضى وتأخر الإنتاج. لذلك يقول المقدسي يصف العراق : " إنه بيت الفتن والغلاء، وهو في كل يوم إلى وراء ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء مع ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤن ثقيلة ".

في هذا الوضع المضطرب والحافل بالأحداث تأثرت المؤسسات الإدارية والعسكرية في الدولة ، وسوف نعرض للدواوين والجيش ، وما أصابهما من تطور من خلال الأحداث المارة الذكر.

الدواوين :

ظهرت الدواوين - كبقية المؤسسات - نتيجة لحاجة العرب إلى التنظيم العسكري والإداري والمالي ، وبدأت بسيطة محدودة ، ثم نمت وتعددت وتفرعت على حسب تطور الضرورات والأحوال.(انظر المجلد الثاني, الفصول المتعلقة بالدولة الأموية).

ورث العباسيون الدواوين الأموية فطوروها على حسب ظروفهم ، وزادوا في المركزية ولاسيما بعد أحداث منصب الوزارة ، وأحدثوا دواوين جديدة ، ووسعوا سلطة الوزير لتشمل الإشراف على جميع الدواوين .

والديوان : لغة لفظة عربية من دَوَّنَ وتعني السجل، أو مجتمع الصحف أو الكتاب الذي يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية. والديوان جريدة الحساب، ثم أطلق على الحساب ، ثم على موضعه، كما أطلق على الدفتر ، ويرى القلقشندي أن الديوان اسم مركب من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء. أما الديوان فاسم للموضع الذي يجلس فيه الكتاب.

و يعرف الماوردي الديوان بأنه موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيش والعمال . ويرى الكتاني أن

الديوان هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء على القبائل والبطون. أما ابن خلدون فيعرفه بأنه وظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام بأعمال الجبايات وحفظ ما يتعلق بحقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في أوقاتها .

وهناك رأي لبعض الكتاب المحدثين أن أصل كلمة ديوان من كلمة (دب) الأشورية التي تعني سجلات الحساب العامة – أصلا – لكلمة ديوان العربية ، وهذا تأكيد على أصلها العربي. وهكذا تطورت هذه اللفظة من السجل والدفتر لتصبح مؤسسة من مؤسسات الدولة العربية المهمة. ومع أن هذه الفترة فترة ضعف سياسي كما ذكرنا فأنها فترة ازدهر فيها التأليف في الإدارة والرسوم حيث أعطت هذه المؤلفات صورة إدارية متطورة ، وضحت فيها الخطوط العامة للإدارة ، وقدمت مادة جديدة في موضوع الإدارة لم تذكر في مصادرنا المألوفة ، ومن هذه الكتب كتاب "البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب (القرن الرابع هـ/القرن العاشر) من أسرة آل وهب التي عرفت بخبرتها الإدارية ، ثم مخطوط "جوامع العلوم" لأبي الحارث محمد بن أحمد بن فريغون (ت401هـ/1010م) أمير الجوزجانية حيث قدم مادة قيمة في مجال الإدارة بكافة جوانبها, ثم كتاب " مواد البيان" لعلي بن خلف الكاتب (كان حيا عام 346هـ/957م) والذي اعتمد عليه القلقشندي في صبح الأعشى اعتمادا كبيرا, ثم كتاب " أدب الوزراء" لأحمد بن جعفر بن شاذان (ق7هـ/13م). أظهرت هذه المؤلفات صورة إدارية حضارية متطورة شملت الدواوين وتطورها وعمالها والكتابة وآدابها ورسومها. وقد تطورت الدواوين في العصر العباسي(332-447هـ /749-833م) فبالإضافة إلى الدواوين الموروثة من العصر الأموي استحدث دواوين جديدة منها : ديوان الشرطة، وديوان القضاء وديوان المصادرات، والمظالم، والحسبة، والتوقيع، وبيت المال، والصوافي، والضياع، والأزمة وديوان الموالي والغلمان. وظلت هذه الدواوين طوال العصور العباسية إضافة إلى ديوان الجند وديوان الخراج وديوان البريد. ولعل أهم الدواوين ديوان الجند والخراج والمصادرات والبريد ؛ لأنها هي التي تتردد طوال الأحداث أكثر من بقية الدواوين ، ولا بد من التعريف بهذه الدواوين وبيان أنواعها وواجباتها . ونبدأ بالدواوين الموروثة :

- ديوان الخراج:

الخراج هو العمود الفقري لميزانية الدولة العربية الإسلامية في كل العصور. جاء العباسيون فورثوا دولة واسعة مترامية الأطراف ، فكان لا بد لهم من تطوير النظم السابقة واستحداث نظم جديدة تتناسب مع المرحلة الجديدة ، فاهتموا بالخراج ، وعملوا على تنظيم ديوان الخراج وتطوير العمل به والمحافظة على سجلاته حيث إن تطور الأوضاع في الحاضرة الجديدة بغداد ومرونة العباسيين في سياستهم الإدارية استلزم حدوث تطورات في المؤسسات الإدارية. وكان ديوان الخراج مسؤولا عن جمع الضرائب وأعمال الجباية في العراق والأمصار الأخرى بعد سد حاجة تلك الأمصار وإرسال الفائض إلى الديوان المركزي . يقول الماوردي عن ديوان الخراج : إنه موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال. "والخرا ج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها ".

وكانت الأراضي مسجلة في ديوان الخراج المركزي في حاضرة الخلافة ، كما كانت مسجلة في دواوين الخراج المحلية ، كل في إقليم ؛ إذ كان في كل أقاليم الدولة ديوان خراج خاص به يكون بمثابة خزينة الدولة ضمن ذلك الإقليم.

وكانت ضريبة الخراج تخضع للزيادة والنقصان ، وكان صاحب الخراج يراعي عدة أمور في فرض ضريبة الخراج على الأرض منها: جودة الأرض، ونوع الزرع ، وطريقة السقي سيحا من الأنهار أو ما تسقيه السماء أو ما سقي بالآلات ، ثم قرب الأراضي الزراعية من البلدان والأسواق.

ومن الأمور التي أدت إلى انخفاض ضريبة الخراج ظهور نظام القطائع في العصر العباسي ، وهو أن يقطع الخليفة رجلا أرضا فتصير له رقبتها، وتسمى الأرضون قطائع تكون لعقب مالكها بعده ، حيث كان لهذا النظام الأثر البالغ في خفض واردات الدولة ، وكان الخراج المدفوع عن هذه الإقطاعات تحدد قيمته باتفاق بين صاحب الإقطاع والحكومة .

كما ظهر نظام آخر في العصر العباسي لضمان الخراج ، فزاد التدهور وكانت بعض المناطق يضمنها أفراد يدفعون قدرا معينا من المال ، وتطلق أيديهم في الجباية. وكان أصحاب النظام يعذبون دافعي الخراج عند تراكم الأموال عليهم ، فيذكر اليعقوبي أن الرشيد أمر أن يرفع العذاب عن الناس، سنة 184هـ/ 800م فارتفع في تلك السنة وكانت المخالفات والشدة والقسوة من قبل الولاة وعمال الخراج تبدو أكثر خارج إقليم العراق ومن ذلك ما حصل في مصر في الأعوام

191هـ /806م و198هـ/ 813م - 216هـ/831م .

واستمرت الثورات خارج العراق ضد تعسف الولاة وجباة الخراج حتى أصبحت هذه الأمور مصدرا للثورات والاضطرابات . وثقلت الضرائب على الناس حتى إن المقدسي يقول: " ولا تسأل عن ثقل الضرائب وكثرتها " ويمكن أن نستخلص مما تقدم مدى الإجحاف بحق الناس في جباية الخراج في الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة من قبل الجباة والولاة ، مستغلين بعدهم عن حاضرة الخلافة وضعف مراقبة أجهزة الخلافة لهم .

وكان صاحب ديوان الخراج يشرف عليه الوزراء مباشرة ويتمتع بمكانة كبيرة قد تصل إلى مساواته مع الوالي ، وكان إلى جانب صاحب ديوان الخراج عدد من الكتاب يساعدونه في أداء مهامه. ومن المهمات التي يضطلع بها الديوان حفظ السجلات في كمية ضريبة الخراج وأنواع الجبايات المفروضة على الأرض ، مثل الضياع والجوالي والزكاة وغيرها.

واستعملت سجلات في ديوان الخراج يطلق عليها قانون الخراج ، ومنها سجل يسمى " الأوراج " ويسجل فيه ما استوفى من الشخص من ضريبة الخراج وما تبقى عليه من ديون متراكمة في حالة عدم دفعه ضريبة الخراج ، وسجل يسمى "الدروزن" تسجل فيه مساحة الأراضي ، وسجل يسمى "الروزنامج" يسجل فيه مقدار الجبايات لكل يوم وما يصرف من النفقات.

ويفصل ابن فريغون في صفات وواجبات كاتب الخراج فيرى أن كاتب الخراج يجب أن يكون كاتب رسائل ؛ لأنه بحاجة إلى

- كتب عهود خراجية
- كتب ضمانات و قبالات
- كتب الاستحثاثات والاستبطاءات
- كتب الاستغلاق
- كتب المطالبات والاحتجاجات
- كتب الاستبطاء والاستقصاء في عمل الاستخراج والتتبع والمطالبة بالحساب ورفعه .

- كما يحتاج إلى معرفة الفقه والشروط والأحكام السلطانية وما يجب فيها حقوق السلطان .
- كما يجب أن يكون على علم بأساليب الزراعة ومعرفة أوان زراعة كل صنف وغرسه لئلا يتأخر عن وقته وما يحتاجه كل صنف من الماء وطرق الادخار ، كما أن عليه أن لايولي الأرض إلا صاحب ضيعة أحسن عمارتها.
- كما أن عليه أن يعرف المستخرج والحاصل في بيت المال ومعرفة خراج كل كورة .

- ديوان الجند:

مهمة هذا الديوان تسجيل أسماء الجند، وحفظ جميع المعلومات المتعلقة بهم في سجل خاص يحوي أسماء الجند وأنسابهم وأجناسهم وأوصافهم ومبالغ أرزاقهم وموعد استحقاقها وسائر أحوالهم. وكانت السجلات التي تستعمل لذلك صحف متفرقة ، وأصبحت أيام أبي العباس (132-136هـ /750-754م) في دفاتر ، وكانت الأرزاق التي تصرف للجند تقدر في الديوان ، ويذكر الخوارزمي أن هناك مواعيد لدفع حساب الجند تختلف باختلاف الأمصار . و يذكر الصابي أن شهر العطاء يتجاوز الثلاثين يوما فقد كانت أرزاق الفرسان من الأحرار تصرف لهم كل 90 يوما ، وأرزاق الغلمان كل 40 يوما. و من مسؤوليات ديوان الجند اختيار الأفراد القادرين على دخول الجندية وقد حدد الماوردي هذه الشروط وهي :

- البلوغ : حيث لا يجوز استخدام الصبيان
- الإسلام : يجب أن يكون المقاتل مسلما وإذا ارتد يسقط اسمه من الديوان
- أن يكون سالما من العاهات والأمراض - يتميز بالشجاعة والإقدام والقدرة على التحمل
- التفرغ للعمل في الجندية .

وقد اهتم العباسيون بأمر الجند من أجل خلق جيش قوي متماسك ؛ لأن الجند أساس الملك. أما صاحب ديوان الجند فيجب أن يكون من أعلى الناس قدرا وأوسعهم صدرا وأطيبهم أصلا , وأن يكون عارفا خبيرا في الجيش والعرض ومعرفة الرجال وأقدرهم , وأن يصرف عنايته إلى تفقد أحوال الديوان على أساميهم وعدتهم وأسامي أصحاب القيادات و النقباء و العرفاء والباقي من أرزاقهم , أن يلزم الجنود حضور الأقبية بعدتهم نوبا يتداولونه فيما بينهم لتكون محرزة, وأن يعرف أنواع الأسلحة وأصنافها وأساميها والجيد منها والمسترذل , وأن يعرف الخيل وصفاتها وألوانها و شياتها ونعوت فراهتها , وأن يعرف أن الجند قسمان أهل شهامة وحنكة بالحرب وخلص مخبرون , وأن يعرف كتابة الرسائل إلى القادة يشرح أحوالهم من الفتوح والأسباب السلطانية , وأن يعرف رسوم العرض والاثبات والإعطاء والحلى والشيات والمهارة في رفع الحساب والإقامات و القبوض والبواقي.

وكان يتولى الإشراف على ديوان الجيش كاتب من خيرة الكتاب ويطلق عليه اسم صاحب ديوان الجيش ، أو صاحب الجند. و قد استعملت في ديوان الجيش أو الجند اصطلاحات كثيرة منها "الجريدة السوداء" ، وهي سجل خاص بأسماء الجند وأوصافهم وأنسابهم أجناسهم ومقدار عطائهم وموعد استحقاقه. ويذكر قدامة بن جعفر أن ديوان الجيش يتألف من عدة مجالس هي:

مجلس الإنشاء، ومجلس التحرير ومجلس النسخ ومجلس التقدير ومجلس المقابلة. ومن المجالس الأخرى " مجلس الإسكدار" ، يقوم بتنظيم الأوامر والكتب الصادرة والواردة. أما مجلس التقدير فيختص بتحديد رواتب الجند وأوقات أعطياتهم وإحصاء النفقات الأخرى من سلف وزيادة. ويقوم مجلس الاعطاء والتفرقة بتوزيع العطاء والرزق على الجند بمختلف مراتبهم .

وهناك الكثير من القواعد المتبعة في ديوان الجند منها : إذا تأخر عطاء الجند له حق المطالبة به كديون مستحقة, وإذا أراد أحد الأفراد إسقاط اسمه من الديوان له الحق في ذلك, وإن مات أحدهم أو قتل فيعطى موروثا لذريته ,وإن نفقت دابته أو تلف سلاحه فإنه يعوض عن ذلك. وقد تطور الجيش في العصر العباسي تطورا يتناسب مع التطور الذي شمل مؤسسات الدولة الإدارية كافة ومنها ديوان الجيش وقد اهتم العباسيون اهتماما كبيرا به ويبدو ذلك من أسماء الوزراء والكتاب الدين أسندت إليهم إدارة ديوان الجند. وقد ذكر الجهشياري عددا من هؤلاء. ولا بد من الإشارة إلى أن أهم تطور أصاب ديوان الجند هو استبدال مبدأ تسجيل الجند في الديوان على أساس القبائل والأنساب كما كان سابقا ؛ وذلك لكثرة الموالي والأتراك والسودان والمغاربة. وأصبح تسجيلهم على حسب الجنس أو البلد.

ديوان البريد:

ديوان مختص بالكتابة إلى السلطان بأخبار الحكام والعمال والولاة. اهتم العباسيون بالبريد حتى إن المنصور اعتبره أحد قوائم الملك الأربعة وهي: القاضي ، وصاحب الشرطة ، وصاحب الخراج ، وصاحب البريد.

و زاد المنصور في ارتباط عمال البريد بالعاصمة رأسا ، وجعلهم غير خاضعين لنفوذ الولاة ، فأحكم بذلك الرقابة على أقاليم دولته. كما أن اتجاه العصر العباسي نحو المركزية زاد من ارتباط ولاة البريد بالعاصمة مباشرة وجورهم من نفوذ العمال حتى إن المهدي نفسه كان خاضعا لرقابتهم حينما ولي على غربي إيران. وساعد ولاة البريد على استتباب الأمن وضبط أركان الدولة ؛ إذ كانوا عيونا للخلفاء وعونا على الإشراف على أمور الدولة ، وأدى البريد وظيفة بارزة خلال الاضطرابات، ففي أيام الفتنة بين الأمين والمأمون استطاع المأمون أن يقطع البريد عن الأمين ويحاصره ، كما ساعد عمال البريد في اكتشاف حركات التمرد ضد الخلافة ، وذلك برفع الأخبار أولا بأول إلى الخليفة لكي يتخذ الإجراءات الضرورية والمناسبة. وقد كان لهذا الديوان إدارة مكونة من صاحب البريد الذي يشرف على إدارة الديوان ويتولى إنفاذ ما يصدر من الخليفة إلى

العمال في الأقاليم ومراقبة عماله وموظفيه وإجراء أرزاقهم وتعيين الموظفين.

وقد ذكر قدامة اختصاصات صاحب البريد فقال: "يحتاج في البريد إلى ديوان يكون مفردا ، وتكون الكتب المنفذة من جميع النواحي مقصودا بها صاحبه ؛ ليكون هو المنفذ لكل شيء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ، ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة أو عمل جوامع لها ، ويكون إليه النظر في أمور الفروانقيين والموقعين والمرتبين في السكك وتنجز أرزاقهم وتقلد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار.

وكان لصاحب البريد عمال منتشرون في الأقاليم هم بمثابة العيون المبصرة والآذان السامعة للتعرف من خلالهم على أهم الأحداث وإيصالها إلى الحاضرة بأسرع وقت ، وهم أصحاب الأخبار. وكان على صاحب البريد أن يجري النفقات على عماله في الأقاليم ويوسع النفقة عليهم حتى يكونوا محقين في نقل الأخبار ، ويشدد العقوبة على من يكذب منهم.

ويعين صاحب البريد عمالا يندسون مع الصبيان والنساء في مجالس الوعظ والولائم وفي الأسواق ومع أصحاب الحرف لتعرف الأخبار. وقد اتسع عمل البريد في العصر العباسي فبلغت المحطات نحو ألف محطة وكان لكل محطة رئيس لمراقبة سير السعاة والخيالة وكانت المحطات تسمى السكك.

أما موظفو ديوان البريد فهم :

- المرتبون: وهم حملة الرسائل في حقائب من مركز إلى مركز ويسكنون في عشش ، ويعتنون بالحيوانات ومهمتهم تسلم الرسائل و إرسالها.
- الموقعون: مهمتهم الإشراف على محطات البريد وتسجيل الوقت الذي يصل فيه البريد.
- الفروافقيون: وعملهم يشبه عمل المفتشين في الوقت الحاضر ومهمتهم ملاحظة سير البريد وخالة المحطات.

كما كان لصاحب ديوان البريد الحق في تعيين عمال على الولايات ، وكانت مهمة عامل الولاية جمع المعلومات عن الأحداث والشؤون العامة في ولايته ورفعها إلى متولي الديوان في عاصمة الخلافة الذي يعرضها على الخليفة أيضا. وهناك وكلاء ومخبرون ، مهمتهم مساعدة عامل البريد عن طريق تزويده بالأخبار. وكان للخلفاء عناية بمحطات البريد والطرق والسكك وذلك يؤكد أهمية هذا الديوان وخطورته وكونه من الدواوين المهمة لسعة أعماله ونشاطه. وكان منصب صاحب البريد من المناصب البعيدة المنال ؛ لذلك وضع صاحب "جوامع العلوم" آدابا خاصة لكاتب البريد هي :

- يستعطف الملك على عماله بل يستصلحهم ويبصرهم مكان التقصير

- يتطلب عادة إغرائه بعماله وإغراء صدره عليهم .

- لا يني من تعرف ما يحتاج إلى تعريفه سلطانه من أمور عماله ورعاياه

- تقسيم ما ينهي من الأخبار إلى قسمين: أخبار سلامة الناحية، وأخبار خاصة بأنباء الحوادث التي يحتاج الملك إليها.

- تكون له شفقة ونصيحة وأمانة وقصد لما ينفع الملك ويكون له حظ وافر في الحساب وتأليفه.

- يؤدي الأخبار التي لا يحسن استقبال الملك بها بألفاظ تقوم مقامها ولايقبح فتحها وينهي الأخبار المقلقة على صورة تهون عليه الخطب .

- يكون له حظ من بلاغة الرسائل .

ديوان الخاتم :

استمر ديوان الخاتم في أداء مهمته في العصر العباسي وما كان يعد من الدواوين الكبرى حتى أواسط العصر العباسي فألغي وتحولت أعماله إلى الوزراء والسلاطين وغيرهم .

وكانت المراسلات والكتب تختم بخواتيم الخلفاء بعدما يغمس الخاتم بطين مداف بالماء يعرف بطين الختم الذي هو مخصص لهذا الديوان. وكان ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة ، وكان يشرف عليه الوزير مباشرة ، ويتم رزم الكتب وختمها بحضور الوزير الذي يختمه بخاتم الخليفة ، وكانت تحفظ نسخة من الرسائل والكتب الموجهة من مركز الخلافة إلى الأقاليم في سجل خاص بالديوان بعد ختمها.

وكان الهدف من حفظ النسخ من الكتب لتحفظ كأوليات للرجوع إليها عند الحاجة. ومثل ما كان للخلفاء خواتيم كان لولاة الأمصار خواتيم خاصة بهم. وكان ديوان الخاتم لايقلد إلا لمن كان يتمتع بقدرة على حفظ الأسرار وأن يكون أهلا للثقة من الوزراء والكتاب.

ديوان الصدقة :

كان ينظر في أمور الصدقات ومواردها وتوزيعها على مستحقيها. وقد ورد أول ذكر له في خلافة هشام بن عبد الملك. ويتولى أموره عدد من العمال وكان عمال الصدقات على صنفين: عامل تفويض وكان له الحق في تقدير قيمة الزكاة ويجب أن يكون حرا مسلما عادلا عالما بأحكام الزكاة. وهناك عامل تنفيذ وكان عليه تنفيذ الأمور الصادرة له من الخليفة أو الوالي في جباية الزكاة ويكون بمثابة جابٍ للزكاة دون أن يكون له حق التدخل في تقدير قيمتها. وكانت أرزاق عمال الصدقات تصرف لهم من أموال الصدقات. وكان عامل الخراج نفسه يتولى جباية الصدقات لذلك أوصى أبو يوسف - في كتابه "الخراج"- الخليفة هارون الرشيد أن يعين موظفين مستقلين لجباية

الصدقات ، وأن يكون الشخص المعين ثقة مأمونا. وهناك إشارات إلى أن أموال الصدقات تدخل ضمن إيرادات بيت المال إلا أنها لا تعد من الموارد المالية للدولة بالمعنى الكامل ، وإنما هي أموال تؤخذ من الأغنياء الموسرين توزع على الفقراء. و في الوقت نفسه تنفق الدولة جزءا من هذه الأموال في إصلاح المجتمع بدرجة معينة.

وقد اهتم العباسيون اهتماما كبيرا بديوان الصدقة ، ويبدو أن هناك فروعا لديوان الصدقة في الأمصار تفرق أموال الصدقات على مستحقيها.

ديوان النفقات :

هو ديوان الأمانة والحاشية ، وهو أرفع الدواوين بعد الوزير والنظار ، وإليه ترجع أمور الدواوين وحساباتها ليستوفى عليها ويطالب بالأموال. ومن واجبات هذا الديوان النظر في حاجات دار الخلافة ونفقاتها ونفقات الدواوين المركزية. كما أن عليه تأمين الرواتب وإصلاح القصور وشراء المواد الغذائية والخيول وكل ما يتطلبه سكان القصور. وتقوم دواوين الخراج في الولايات مقام ديوان النفقات ، إضافة إلى جباية الخراج والضرائب الأخرى ، ويصرف منها حاجة الولاية ثم يرسل الباقي إلى العاصمة. وقد كثرت أعمال هذا الديوان وتنوعت واجباته ، ولهذا قسم إلى مجالس لكل منها عمل خاص ، وهذه المجالس هي:

- مجلس الجاري ، واجبه صرف نفقات المرتزقة على حسب أصنافهم وتثبيت استحقاقاتهم من الرواتب ، وتدوين ذلك في سجلات تسمى الجرائد.

- مجلس الإنزال ، يشرف على محاسبة التجار الذين يقيمون الوظائف كالخبز واللحم والحلوى والفاكهة والزيت وما إلى ذلك ، وعلى هذا المجلس معرفة المصطلحات الخاصة بالأسعار ومقادير الأرزاق وأصنافها.

- مجلس البناء وهو مجلس يشرف على الأبنية ، وتختلف صلاحيته على حسب كثرة وقلة البناء ، وصاحب هذا المجلس يجب أن يكون على معرفة بالهندسة وأمور الحساب.

- مجلس الإنشاء والتحرير ، واجبه تحرير الكتب الصادرة عن ديوان النفقات والمحالة من المجالس الأخرى ، ويجب أن يكون القائم بذلك متمكنا في اللغة ودقيقا في اختيار اللفظ المطلوب.

- مجلس النسخ ، يقوم باستنساخ عدة صور من الكتاب و الاحتفاظ بنسخة.

- مجلس الحوادث ، يعالج نفقات الأمور الطارئة التي لا تدخل في اختصاص المجالس الأخرى.

- مجلس الكراع ، واجبه الإشراف على شراء الإبل والبغال والحمير وما يتعلق بعلف الحيوانات ومحاسبة العلافين.

- مجلس بيت المال ، يقوم بتنظيم حسابات ديوان النفقات.

ويذكر الصولي ديوانا يسمى ديوان زمام النفقات ، ويشرف على الناحية المالية ومراقبة حسابات ديوان النفقات ، وله أهمية ، لأن متولي هذه الوظيفة أهم في بعض الأحيان من صاحب ديوان النفقات. ويرى متز أن تقلص نفوذ الخلافة كان سببا في تقلص أعمال ديوان النفقات الذي أصبحت أكبر مهماته - في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري / القرنان التاسع و العاشر للميلاد - حاجات ديوان الخلافة . و كان يشترط في صاحب ديوان النفقات أن يكون عارفا بالحساب والقسمة والمكاييل والأوزان والأسعار وبقية الأمور السلطانية ، ويسمى صاحب هذا الديوان المستوفي ، ويساعده عدد من الكتاب باختصاصات متعددة.

ديوان الطراز:

وهو الديوان المعني بإنتاج الطرز والملابس للخلفاء، كما كانت دور الطراز تنتج مجموعة من المنسوجات التي لا تتعلق بملابس الخلفاء أو الموظفين. بل لأمور أخرى ، منها كسوة الكعبة. ومن العادات المتبعة أيام العباسيين إهداء الأثواب المحلاة بالطرز لكبار موظفي الدولة بعد تعيينهم بمنصب جديد مرتين في السنة ، في الشتاء والصيف. وكان الطراز في الدولة العربية دليلا على أبهة الملك. ففي أيام العباسيين كان يطلب من ممثلي الخليفة " أن يلبسوا أثوابا رسمية ذات أشرطة مطرزة وأصبحت صناعتها مهمة معتبرة ، لكنها كانت ذات صبغة رسمية ، لأن تلك الخلع المطرزة لم تكن من بضائع التجارة ، وكانت أسماء الخلفاء تطرز على الثياب فكان إذا تولى الحكم خليفة جديد أثبت اسمه على كتابات الطرز ، وهي من الامتيازات المهمة التي يهتم بها الخلفاء .

ديوان الرسائل:

يختص هذا الديوان بموضوع صياغة الرسائل السياسية والأوامر الإدارية وإعدادها وتحريرها ، وتلقي الرسائل التي ترد على الخليفة من الأقاليم والمكاتبات الرسمية مع الدول الأجنبية ، وكان لمتولي هذا الديوان مكانة كبيرة لدى الخلفاء العباسيين ، ويلقب المشرف على هذا الديوان صاحب ديوان الرسائل ، أو متولي ديوان الرسائل. و كان المسؤول عن هذا الديوان الوزير ، ولما تعددت واجباته أصبح تحت إشراف كاتب يعتمد على ما يرد من ديوان الوزارة. وكان لصاحب هذا الديوان كتاب يساعدونه في أعماله التي ذكرها الصيرفي ، وهي فض الكتب والرسائل والرقاع الواردة إلى الخليفة ، والتي تخص الشؤون الإدارية من قبل كتاب الديوان وترتيبها وعرضها على الخليفة في مجلسه والبت فيها، وكتابة الرد والتوقيعات على هذه الكتب وإثبات المعلومات عن

تاريخ وصول الرسالة وتاريخ الرد عليها ، وكل ذلك يثبت في سجل خاص. وكان يحضر المجالس العامة حيث كان الخليفة يستمع إلى شكاوي الناس، وبعد اتخاذ القرار بشأنها يسلم إلى صاحبها نسخة من ذلك القرار ويحتفظ بالأصل في سجل خاص.

وقد اشترط في صاحب هذا الديوان عدة شروط منها : الأمانة والورع والذكاء والدقة في اختيار الألفاظ , والمعرفة بأخبار القدماء والأمم , وحفظ الأشعار وحذق اللغة ، وكان يساعد صاحب هذا الديوان عدد من الكتاب ، لكل منهم عمل معين في الديوان ، فمنهم من يعنى بترتيب الكتب وتلخيصها ، وآخر يختص بكتابة التقليدات والأحداث الكبار ، وثالث يختص بمكاتبة الملوك ، ويجب أن يكون ملما بلغة الملك المراد مراسلته، ورابع يختص في مكاتبة رجال الدولة وأعيانها. إضافة إلى موظف يعنى بحفظ السجلات في الديوان تثبت فيها الكتب الصادرة وألقاب الملوك وحفظ أصل المراسلات والكتب الواردة إلى الديوان.

وقد استعملت في هذا الديوان ألفاظ متعددة يختص كل لفظ منها بجزء من إدارة الديوان ، ومن هذا الألفاظ : "الإنشاء" وهو عمل نسخة يعملها الكاتب لتعرض على صاحب الديوان و"التحرير" ، أي نقل الكتاب من المسودة إلى المبيضة . و الإدارة وهي ما يثبت في آخر الكتاب. أما "الاسكدار" فهو مدرج يكتب فيه جوامع الكتب المنفذة للختم ، ويكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة و أسامي أصحابها. والتاريخ أي أن يثبت تاريخ إصدار الكتب النافذة أو الواردة.

وقد اهتم العباسيون بديوان الرسائل منذ إعلان دولتهم. فقد أنشأ أبو مسلم الخراساني ديوانا للرسائل بعدما أظهر الدعوة. وقد تولى هذا الديوان خيرة الكتاب و الوزراء. و ذكر الصولي نسخا من العهود و نماذج يحتذي بها كتاب ديوان الرسائل وعدد من مكاتبات الناس إلى المسؤولين.

هذه الدواوين الموروثة من العصر الأموي تطورت تبعا لتطور المرحلة التاريخية وظروف الدولة الجديدة ، وبلغت الدولة العربية الإسلامية أيام العباسيين قمة الازدهار السياسي والفكري والإداري وخاصة في عصرهم الأول ؛ إذ أدت الظروف الجديدة إلى ظهور تنظيمات إدارية جديدة ودواوين اقتضتها حاجة الدولة . فكان عدد من الدواوين وذلك يدل على وضوح معالم الإدارة ومواكبتها التطور السياسي والفكري ، فظهرت دواوين عديدة لتفي بمتطلبات وحاجات الدولة.

ومن هذه الدواوين المستحدثة :

ديوان الشرطة :

بدأ هذا النظام قبل العصر الأموي باسم العسس وكانت مهمته الطواف ليلا ، وكانت مهمة الشرطة أول نشأتها مساعدة الحكومة في تنفيذ الأحكام.

تطور هذا النظام أيام الأمويين وتكامل ، وفي أيام العباسيين استمر تطور هذا النظام حتى أفرد مكانا خاصا للشرطة أيام المعتصم بالله سماه محبس الشرطة ، والحبس الكبير. وكان يطلق على مكان الديوان تسمية مجلس الشرطة. وكان رئيس الشرطة يتمتع بامتياز خاص ، حيث تعادل مرتبته مرتبة الحاكم أو الوالي. وكان يعمل في الديوان مجموعة من الموظفين هم أصحاب أرباع والمصالح والأعوان والسجانون وأصحاب الطواف و الماصرون.

ولهذا الديوان علاقة بالدواوين الأحرى. ويذكر القلقشندي أن متولي الديوان هو صاحب الشرطة ، ومن الصفات التي يجب أن تتوفر فيه :

- أن يكون حليما مهيبا، دائم الصمت طويل التفكير، غليظا على أهل الريب، نزيها عارفا بمنازل العقوبة، قليل التبسم ذا نظر ثاقب ، وينفذ القانون على العام والخاص من أهل البلد. وأن يكون ثقة أمينا صارما في إقامة الحدود، وعليه رعاية المصالح العامة في المدينة.

- كما يجب أن يكون من أهل الكفاية والاستقلال والشهامة والأمانة والفقه والديانة والعقل والأصالة.

وكانت الشرطة تابعة للقضاء تساعد في الإثبات والتنفيذ ، وأخذت بالاستقلال تدريجيا في بداية العصر الأموي ، حيث توسعت صلاحياتها مما مهد لها الإستقلال واتخاذ العقوبات السريعة.

وقد تطور عمل صاحب الشرطة في العصر العباسي واتسعت اختصاصاته القضائية ، فصار ينظر في الحدود والدماء بإطلاق بعد أن أفردوها من نظر القاضي ، ونظرا لسعة صلاحياتهم في العصر العباسي أضيف إليهم القضاء في بعض الأحيان.

ديوان القضاء: (انظر الفصل المتعلق بالمؤسسات).

يطلق عليه ديوان الحكم .اهتم العرب بالقضاء في كل مراحل دولتهم ، فقد اهتم الرسول (ﷺ) ومارسه وزاد الاهتمام به في العصر الراشدي، واكتسب في العصر الأموي مكانة مرموقة في الدولة ، وارتفعت مكانة القاضي وأصبح أكثر استقلالا وأكبر شأنا. وكان القضاة ينظرون في القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية من مواريث وزواج وطلاق أو شؤون اليتامى والأرامل أو المعاملات في الأسواق. وتطور القضاء في العصر العباسي واعتبر من أركان الحياة الإدارية. وكانت ولاية القضاء من الولايات الدينية . يقول عنه ابن خلدون " أما القضاء فهو من الوظائف الداخلة

تحت الخلافة ، لأنه منصب الفصل بين الناس حسما للتداعي وقطعا للتزاع ".

وديوان القضاء يضم الخرائط التي فيها نسخ السجلات والصكوك والمحاضر وكتب الأوصياء. وكان القاضي يتقلد مسؤولية مهمة القضاء بأمر مباشر من الخليفة ، ويبدأ مهمته في القضاء في قبض المحاضر من ديوان القاضي المعزول. أما ديوان الحكم فالمقصود به جميع الخصوم من المحاضر والسجلات وكتب الوقوف ؛ لأن الحكام يستظهرون في حفظ الحقوق على أربابها بحفظ حججهم ووثائقهم في نسختين ، يتسلم المحكوم له إحداهما وتكون الأولى في ديوانه حجة يرجع إليها إذا احتاج. ويعتبر هذا الديوان القاعدة التي يرتكز عليها القاضي الجديد في مهام عمله ، ففيه " قوام المعاملات ، وبه تحفظ الشهادات والوقوف والمداينات وأوقاف القضايا وتواريخ أزمان السجلات والمحاضر".

أما شروط من يتولى القضاء فقد حددها الماوردي بعدة أمور منها: البلوغ والذكورية والحرية، وأن يكون مسلما عادلا عالما بالأحكام الشرعية.

ديوان المصادرات:

استحدث هذا الديوان في العصر العباسي الأول ، وكان من رسم هذا الديوان أن يسجل فيه أسماء من صودرت أموالهم مع مقدار الأموال المصادرة. و هناك من يقول : إن هذا الديوان استحدث في أوائل عصر الخليفة المقتدر بالله (295- 320هـ /907-932 م) لكثرة المصادرات. والواقع أن المصادرة لم تكن وليدة العصر العباسي ، فقد كانت تشكل جزءا مهما من واردات الدولة قبل ذلك . فقد صادر معاوية بن أبي سفيان أموال عمرو بن العاص بعد وفاته سنة 43هـ /663 م.

أما عوامل المصادرة فهي عديدة وفي مقدمتها معاقبة الموظفين المقصرين من وزراء وكتاب عقوبة لهم على الخيانة والاختلاس. و في أيام الواثق بالله (227-232هـ/842-847م)أصبحت المصادرة موردا إضافيا لخزينة الدولة. وهناك إشارات في كتب التاريخ إلى عدد من هذه المصادرات. وقد كثرت المصادرات حتى أصبحت شبه ضريبة على الموسرين والتجار ؛ ولذلك أنشئ هذا الديوان للإشراف على استيفاء أموال المصادرات التي كانت تقرر بعد أن يتعهد الأشخاص المصادرين بدفعها. وكان صاحب هذا الديوان يقوم بتقديم السجلات الخاصة بالمصادرات للوزير وكانت الوثائق التي يدفع

بمقتضاها في هذا الديوان تكتب على نسختين إحداهما للديوان والأخرى للوزير ومطالبة المصادر منهم الأموال بما عليهم من أموال.

أما الأموال المصادرة فإنها توجه إما إلى بيت مال الخاصة أو العامة تبعا لرأي الخليفة، ويعتقد الدوري أن ـهابها إلى خزينة الدولة يعني إعادة توزيعها كرواتب للموظفين. و قد اهتم الخلفاء اهتماما كبيرا باختيار صاحب هذا الديوان فكان يختار من المقربين إلى الخليفة أو الوزير أو من الثقاة.

ديوان المظالم :

عرف الماوردي المظالم بأنها " نظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ". وكانت سلطة صاحب المظالم أعلى من سلطة القاضي ؛ ولذلك يقول ابن خلدون : " هي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم هيبة , تقمع الظالم من الخصمين، وتزجر المعتدي وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ".

نالت هذه المؤسسة في العصر العباسي اهتماما كبيرا من قبل الخلفاء الذين مارسوا خلالها سلطة قضائية واسعة. وكان جلوسهم لها ينسجم مع سياستهم الدينية ؛ ويتمشى مع أحكام الشريعة التي دعوا إلى التمسك بها.

و قد اتسع النظر في المظالم في أيام العباسيين ؛ نظرا للظروف الحياتية في الدولة العربية الإسلامية وتشعبها واتساعها، وأصبح ناظر المظالم منصبا قضائيا مهما، ينظر في تعدي أو فساد في الدواوين المركزية أو الإدارة المحلية بما يعجز القاضي عن النظر فيه ؛ ولذلك نرى أن الذي كان ينظر فيه هو الخليفة أو من ينوب عنه من رجال الدولة. ويشير المؤرخون إلى أن هذا الديوان أنشئ أيام المهدي بالله (158-169هـ/775-785م). وهو عبارة عن مؤسسة تشبه القضاء المستعجل وتتجاوز إشكالات التنفيذ والإجراءات القضائية الروتينية . وقد أخذت بالنظر في تظلم الناس بشكل مباشر وفوري .وراعى الخلفاء العباسيون هذه الحاجة وأسرعوا في الإستجابة لها بأنفسهم. وقد كان لصاحب المظالم مجلس يحدد يوما في الأسبوع للنظر فيها ؛ إذ كانت لديه مسؤوليات وظيفية أخرى يراجعه فيها المتظلمون والمتنازعون، إلا إذا كان مفرغا للنظر في المظالم. فإنه ينظر في كل أيام الأسبوع . ولا يتم انعقاد جلسات المظالم، إلا بحضور أصناف خمسة لا ينتظم المجلس إلا بوجودهم وهم : الحماة والأعوان، و القضاة والحكام، والفقهاء والكتاب والشهود، وكان لكل واحد منهم اختصاص معين في مجلس المظالم.

وينظر صاحب المظالم في عشرة أمور : تعدي الولاة على الرعية، وجور العمال في جباية الأموال، ومراقبة كتاب الدواوين ، والنظر في تظلم الموظفين في حالة عدم صرف أعطياتهم ، ورد المغصوب من الأراضي والأملاك، وتنفيذ أحكام القضاء في حال عجزه ؛ والنظر في الحسبة ، والفصل بين المتشاجرين مع مراعاة عدم الإخلال في شروط العبادات.

أما هيئة المظالم فكانت تتألف من :

– صاحب الديوان ، وهو المسؤول عن رفع الظلامات إلى الخليفة أو من يقوم مقامه.

– كاتب تثبيت يقوم بتسجيل الشكوى وكل ما يتعلق بها .

– كاتب نسخ . هو الذي يكتب الظلامات والرقاع .

– كاتب إنشاء ، ينشئ الكتب على قصص المتظلمين الموقعة من الناظر في المظالم .

– كاتب تحرير ، يقوم بتحرير الكتب الصادرة من الديوان ، وكان يحتفظ بصورة من الدعاوي الموقع عليها في الديوان من أجل إخراجها وقت الحاجة .

وقد أعطى كل من قدامة بن جعفر والحسن بن عبد الله صورة ناظر المظالم وهي:

– أن يتولى الديوان رجل له دين وأمانة وفي خليقته عدل ورأفة ؛ ليكون ذلك منه نافعا للمتظلمين.

– أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، قليل الطمع، كثير الورع، عارفا، عاقلا، أمينا.

– أن يكون صاحب سيف وسطوة وتمكن من الدولة .

أما كاتب صاحب المظالم فهو الرجل الثاني ، وهو مشابه لكاتب القاضي. وهناك علاقة بين المظالم والشرطة ؛ لأن المظالم على علاقة وثيقة بصاحب الشرطة ؛ ذلك أن جلسات المظالم لا تعقد إلا بحضور من يحمي الأمن بعدد من الحماة والأعوان ، ويجب أن يكونوا على جانب من القوة حتى يستطيعوا تنفيذ أحكام القضاء. ويرى ابن وهب الكاتب أن صاحب الشرطة نصب لمعونة الحكام وأصحاب المظالم والدواوين في حبس من أمروه بحبسه ، وإطلاق من رأوا إطلاقه ، وإشخاص من كاتبوه بإشخاصه ، وإخراج الأيدي وإقرارها والشد عليها ؛ لذلك جعل له اسم المعونة وهؤلاء الحماة كان أكثرهم من رجال الشرطة .

ديوان الحسبة : (انظر الفصل الخاص بالمؤسسات)

إن الأسس الأولى للحسبة وجدت منذ قيام الدولة العربية الإسلامية واستمرت تحت اسم عامل السوق منذ صدر الإسلام ، وشهد العصر العباسي تطورا فى نظام الحسبة .وكان المحتسب ينظر في المصالح العامة وفي أبواب أخرى كثيرة ، و لم يقتصر الأمر على وجود هذه المؤسسة في بغداد ،

بل انتشرت في مدن أخرى في العراق مثل واسط والبصرة.

أما اختصاصات المحتسب فهي :

- الأمر بالمعروف ويشتمل على ثلاثة أقسام رئيسة:

- الأمر بالمعروف فيما يتعلق بحقوق الله تعالى ، وما يتعلق بحقوق الآدميين ، وما هو مشترك بينهما.

- النهي عن المنكر ويشتمل على ثلاثة أقسام أيضا: نهي عن المنكر فيما يتعلق بحقوق الله تعالى وما يتعلق منها بالعبادات والمعاملات المنكرة, ونهي على المنكر المتعلق بحقوق العباد ، وأخيرا كل ما يهم الحقوق المشتركة بين حقوق الله وحقوق الآدميين.

وللمحتسب مكانة كبيرة في الدولة فهو عند صاحب "جوامع العلوم" ضمن الكفاة الذين تمتحن الدولة باختيارهم.

أما صفات صاحب هذا الديوان فيجب أن يكون : خطيرا شريفا في نفسه, شهما تخاف صولته , نزيها عن الطعم الخبيثة , دينا محتسبا للثواب , غير مهتم بقصد منفعة ,عارفا بأسباب الصناعات التي يقع فيها .

وهناك موضوع لا بد من الإشارة إليه ، وهو صلة الحسبة بالقضاء. فالحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم ، والحسبة تتفق مع أحكام القضاء.

أما أوجه قصور الحسبة عن أحكام القضاء ، فأحدهما قصورها عن سماع عموم الدعاوي الخارجة عن ظواهر المنكرات ، وثانيها أن الحسبة مقصورة عن الحقوق المعترف بها ، أما الحقوق التي يقع عليها التنازع فلا يجوز للمحتسب النظر فيها ؛ لأنه لا يجوز للمحتسب أن يسمع بينة على إثبات حق ولا يحلف يمينا على نفي حق .

أما أوجه زيادة الحسبة على أحكام القضاء ، فيجوز لناظر الحسبة أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف وينهي به عن المنكر وإن لم يحضره خصم يستعدي ، وليس للقاضي أن يتعرض لذلك إلا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه ، فإن تعرض القاضي لذلك خرج عن منصب ولايته. أما الوجه الثاني فإن لناظر الحسبة من السلطة فيما يتعلق بالمنكرات ما ليس للقضاة ؛ لأن الحسبة موضوعة للرهبة، أما القضاء فموضوع للمناصفة.

ديوان التوقيع :

يعرّف ابن خلدون التوقيع بقوله : " هو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها بأوجز لفظ وأبلغه. وكان صاحب هذا الديوان يعلق على الطلبات والرقاع إلى الخليفة بعد أن يكون الوزير قد راجعها وأمضى

الطلب ، وبعد أن يأخذ صاحب الديوان رأي الخليفة يوقع عليها في ديوان التوقيع بأبلغ ما يستطيع من الكلام وأجزله .

وكان يُبْعث من ديوان التوقيع كتاب إلى صاحب ديوان الدار يتضمن أمر الخليفة حول الموضوع والطلب بتنفيذ الأمر ، وبعد أن تستكمل الشروح عليها ترسل إلى صاحب الديوان المعني.

و كان اختيار صاحب ديوان التوقيع دقيقا، ويجب أن يكون من أرفع طبقات الناس و أهل المروءة والعلم والبلاغة والتخلق بالفضائل ؛ لأنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك. كان عمل هذا الديوان ضمن اختصاص صاحب ديوان الرسائل . ثم استقل وأصبح هذا الديوان كغيره من الدواوين يعمل به مجموعة من الكتاب فهناك كاتب للإنشاء ، وثان للتحرير ، وثالث للنسخ. وقد شارك الوزراء الخلفاء في البت في أمور الرقاع المرفوعة والتوقيع عليها نظرا لكثرتها.

وكان الفصل في أمر الرقعة يكتب على الرقعة نفسها توقيعا من الخليفة أو كاتبه. وقد انتظم أمر ديوان التوقيع أيام الرشيد وهوما يدل على أن هذا الديوان أنشئ أيامه . وكانت التوقيعات تتسم بالبلاغة والدقة والوضوح في التعبير ، وكان التوقيع يتم في قصور الخلافة أو منزل الوزير بحضور صاحب التوقيع ، وكان يعاون صاحب التوقيع كاتب لتنظيم العمل في هذا الديوان.

ديوان الصوافي :

الصوافي هي الضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته ، وهي الأرض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لهم. كانت مهمة هذا الديوان النظر في أمور الأراضي التابعة للخليفة وتخضع بشكل مباشر له ، وكان يهبها لمن يشاء وينتزعها ممن يشاء ، وكان ديوان الصوافي يشرف على جباية هذه الضريبة من أراضي الصوافي التابعة لهؤلاء الأشخاص ، مع الإحتفاظ بسجلات تثبت فيها هذه الأراضي.

ديوان الضياع:

ينظر هذا الديوان في إدارة ضياع الخليفة الخاصة وضياع أسرته ، وهي كثيرة جدا وواسعة ومنتشرة في العراق والشام ومصر وأقاليم الخلافة. وكان يطلق عليها اسم "الضياع السلطانية" أو "ضياع الخلافة ". وأول ذكر لهذا الديوان كان زمن الرشيد ، وتعطى هذه الضياع بالمزارعة وعلى حسب الإتفاق الذي يعقد بين الزارع والديوان ، وأصل هذه الضياع الأراضي المصادرة من الأمويين، ثم توسعت بطرق مختلفة. ويبدو أيضا أن الضياع كانت تمنح للوزراء والقواد والولاة وكبار الموظفين. ولما كان هذا الديوان ينظر في ضياع

الخليفة لذلك فإن وارداته تدخل بيت مال الخاصة بالخليفة.

ومن يعمل في كتابة الضياع يجب أن يلم بعدة أمور منها : معرفة الحساب وتأليف وجوهه من الارتفاعات و الإستقرارات و البيوع و الحواصل والبواقي .ر يعمل في الديوان : كتبة الرسائل إلى الوكلاء والأمة والأمناء والمساح والخزان والطواف والمتصرفين في هذه الأعمال وكتبة الضمانات والقبالات على أصحاب المقاطعات والمصادرات .

ولا بد من الإشارة إلى أن للدواوين المركزية هناك دواوين صغيرة في كل ولاية ؛ ففي أيام الرشيد كان بالإضافة إلى ديوان الخراج المركزي ديوان خراج للبصرة وآخر للكوفة وثالث لخراسان ورابع لمصر. و لكن بعد تسلط الأتراك على الخلافة صار لكل ولاية ديوان خاص ينظر في شؤونها. ثم جمعت هذه الدواوين أيام المعتضد (279-289هـ/ 892-902 م) في ديوان واحد سمي ديوان الدار أو الديوان الكبير. ثم فصلت أمور الولايات الشرقية وجعل لها ديوان المشرق، كما فصلت الغربية وجعل لها ديوان المغرب.

أما أمور السواد فعهدت إلى ديوان السواد.أما ديوان الدار فقد بقي دائرة مركزية لهذه الدواوين. وفي أيام الوزير علي بن عيسى أنشئ ديوان البر والصدقات ومهمته إدارة الأوقاف التي وقفها الخليفة في العراق . ويصرف وارده على الحرمين الشريفين وحماية الثغور. ولقد شهد القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي انتكاسا في المؤسسات الإدارية وتقلصا لسيادة الأتراك ، وإن كانت المؤسسات الإدارية عاد لها بعض رونقها في خلافة المعتضد والمكتفي والمقتدر ، لكنها أصيبت بضربة قاصمة في فترة إمرة الأمراء ؛ وتضعضعت كثيرا في عصر التسلط البويهي.

ديوان بيت المال : (يعرف بالديوان السامي):

يشرف هذا الديوان على ما يرد من الأموال ، وما يخرج من ذلك في وجوه النفقات و الإطلاقات. و مقره العاصمة بغداد ، وللديوان فروع في الولايات ، وكان مقره دار الإمارة أو المسجد.

و كانت هذه الفروع عبارة عن بيوت أموال ، تخزن فيها الأموال الباقية من الولاية بعد الإنفاق على مصالحها. وكانت هذه البيوت بمثابة خزينة الدولة تصرف منها النفقات وأعطيات الجند ، ثم يرسل الباقي إلى بيت المال المركزي.

حرص العباسيون على جمع الأموال و الاهتمام بإنماء بيت المال منذ وقت مبكر ، يظهر ذلك من وصية المنصور للمهدي بقوله : " إنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا". وكانت

الموارد المالية في بيت المال مصدرها الضرائب والغنيمة والصدقة والمبالغ المصادرة من الموظفين والمصادرات الأخرى بأنواعها.وكان الوزير يشرف على رؤوساء الدواوين باختلاف اختصاصاتها ومنها بيت المال ، حيث يتولى الوزير وأحد أو أكثر من تلك الدواوين. ويساعد الوزير كاتب على ديوان بيت المال.

أما مهام الديوان فهي الإشراف على الأمور المرسلة إليه من الولايات والنظر في وجوه النفقات المنتفعة في المصالح العامة. و لأهمية ديوان بيت المال قيل : إنه أصل الدواوين ومرجعها إليه ، ووظيفته أن يثبت في جرائد جميع أمور الأموال السلطانية على أصنافها من عين وغلال وفيء وغنائم وأعشار وأخماس. أما وظيفة بيت المال فهي وظيفة مهمة لايتولاها إلا من هو من ذوي العدالة الظاهرة .

أما اختصاصاته فهي النظر في جميع ما يتعلق بالشؤون المالية قبل توجيهها إلى الدواوين الأخرى وختمها والتوقيع عليها ، ولا يعتمد الوزير الكتب التي ترد دون توقيع أو ختم متولي ديوان بيت المال ، ويشرف هذا الديوان على ضبط النفقات وما يحمل من الأموال إلى بيت المال من النواحي والأمصار ، كما أن على صاحب ديوان النفقات مباشرة ديوان بيت المال ؛ ليدخر عنده التواقيع الثابتة الدالة على صحة مصروفات النفقات.

و كان صاحب الديوان يتسلم أمرا بالصرف من الخليفة أو الوزير فقط ، حيث كانت الأموال تصل إلى بيت المال عن طريق الوزير الذي تربطه علاقة وثيقة بصاحب الديوان. وقد وردت عدة تسميات تعد فروعا لبيت المال المركزي مثل بيت مال العروس أو بيت مال المظالم.

ويرى الدوري أن سيطرة الأتراك في الثلث الثاني للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وسوء تصرفهم بالأموال ، أدت إلى تمييز بيت مال الخاصة عن بيت المال ، وأصبح الوزير يشرف على بيت المال ، والخليفة يسيطر على بيت مال الخاصة وينفق منه.

أما أصناف الأموال التي تثبت في الدواوين فهى أيضا فروع بيت المال المركزي. فكان ديوان الخزانة وديوان الإهراء الذي توضع فيه الغلال وديوان خزائن السلاح تحفظ فيه الأسلحة والذخائر. واشتق من بيت المال " ديوان الجهبذة " ويشتغل فيه الكتاب المختصون بالأمور المالية أو الجهابذة وأعماله تدقيق الواردات وتحقيق الصرف.

ومن واجبات رئيس هذا الديوان أن يقدم في آخر كل شهر حسابا يدعى ختمة وفي آخر كل سنة حسابا يسمى "ختمة جامعة " وهو بالوارد والمصروف يرفعه لبيت المال. ويشير صاحب "جوامع العلوم" إلى موضوع كتابة الخزن للزين والعدة وهي : مال صامت كورق وعين ،

وجواهر ثمينة من لؤلؤ وياقوت وأصناف الأسلحة و أنواع الثياب من فرش وكسوة ، و أصناف طرف من أوانٍ وآلات .

أما آداب هذه المهنة فهي كما يذكرها في " جوامع العلوم " : معرفة المناور و الأخبية من السيوف والخلع والحملانات وعيوبها , وترتيبها بعبارة مفهومة مستحسنة , ومهارة بالعبارة عن صور للأشياء وأسمائها وهيئتها ومعداتها التي تجلب منها , وأن يكتب كل ما يدخل ويخرج في وقته , وأن يكون شديد التيقظ فيما يباشره مع الحفظ من أبواب السهو والغفلة ، وأول كتابة الخزن أداء الأمانة ولزومها.

ديوان الأزمة :

ظهر هذا الديوان نتيجة لاستقرار المؤسسات الإدارية ونموها وهو ما استوجب إيجاد أنظمة إدارية متطورة مهمتها مراقبة أعمال الدواوين وخاصة الأعمال الحسابية ، فأنشئت لهذا الغرض دواوين سميت دواوين الأزمة. وقد ذكر البلاذري أن أول من اتخذ ديوان زمام وخاتم زياد بن أبي سفيان ، إلا أن المصادر التاريخية ترى أن إنشاء هذا الديوان كان زمن المهدي عام 162هـ/ 778م ، ومعنى الأزمة أن يكون لكل ديوان زمام ، وهو رجل يضبطه ليستقيم الحساب ، ومهمة هذا الديوان الإشراف على أعمال الدواوين الرئيسة ومراقبة الجوانب المالية . ويعبر استحداث هذا الديوان عن الاتجاه المركزي الذي اتخذه المهدي لتنظيم الدواوين. و ديوان الأزمة والزمام يجمع الدواوين كلها إلى رجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان فكان هناك زمام لديوان الجند وآخر للنفقات وغيرها.

ويسمى المشرف على هذا الديوان صاحب ديوان الأزمة ، ومن اختصاصاته جمع الضرائب النوعية. فهذا الديوان ظهر نتيجة الحاجة وتطورمتطلبات الحياة دونما تأثير أو اقتباس من مصادر أجنبية ، وقد عهد في بعض الأوقات بإدارة هذه الدواوين إلى مؤسسة الوزارة.

ديوان الموالي و الغلمان :

كان المعتصم يحب جمع الأتراك وشرائهم من أيدي واليهم حتى اجتمع عنده 4000 اعتنى بهم وألبسهم ملابس خاصة ، وقد استخدم المعتصم الغلمان والجواري في خدمة البلاط ، ولما كثر عددهم أنشأ لهم ديوانا خاصا ، سماه ديوان الموالي والغلمان . أثبت المعتصم أسماء الموالي في هذا الديوان ، وخصص لهم الأرزاق ، واقتصر هذا الديوان على النظر في أمور الموالي والغلمان الذين كان يتم اختيارهم بإشراف الخليفة وعلى وفق شروط يحددها هو ، وقد عظم شأنهم وعملوا في الإدارة ، وأصبحوا بعد ذلك قسما مهما في الجيش العباسي . و يذكر اليعقوبي أنه في أيام المتوكل في الجعفرية أنشأ ديوان الموالي والغلمان للنظر في

شؤون الخدم والموالي المتصلين بالبلاط ، ويسمى ديوان الجند والشاكرية .

هذه أهم الدواوين الموروثة والمستحدثة التي استمرت في الفترة 132هـ- 447هـ مع التفاوت في أعمال كل منها ونشاطه ، ولعل أكثرها نشاطا هو ديوان الجند والخراج والبريد وبيت المال.

5) الجيـــش :

الجيش في اللغة من جاش جيشا البحر وجيوشا وجيشانا : هاج لا يركب, ومنه : جاشت الحرب ، والجيش الجند السائر للحرب أو غيرها. والجمع جيوش , وهو من ألف إلى أربعة آلاف ، والجيش هم أعضاد السلطان وأعوانه .

تشكل النظم العسكرية جانبا من جوانب الحضارة العربية الإسلامية ، وقد كان للعرب دور وإسهام واضح في تطوير فنون الحرب والقتال يوازي دورهم فيما أحدثوه من تطور في كافة مناحي الحياة.

وكان للجيوش العربية الإسلامية دور بارز في خوض معارك التحرير منذ عهد الرسالة ، واستمر حتى العصور العباسية .

شهد مجيء العباسيين تغيرا كبيرا في تنظيم الجيش العربي الإسلامي وكانت الفترة من 132-447هـ/749-1055م مليئة بالأحداث الكبيرة التي كان الجيش عنصرا أساسيا فيها. ويبدو دور الجيش واضحا فيها خاصة في الفترة ما بين 132-218هـ/447-833م ، وهي ما اصطلح على تسميتها بالعصر العباسي الأول عصر الازدهار السياسي والحضاري، العصر الذي يعتبر منعطفاً جديداً في تاريخ الخلافة العباسية. في هذا العصر أصبح الجيش يتألف من عناصر عديدة وجنسيات مختلفة ، على عكس العصر الأموي ، حيث كان العنصر الأساس في الجيش هم العرب ، إذ فسح العباسيون المجال لمختلف العناصر للدخول في الجيش فساعد عملية التجنيد وزيادة عدد الجيش ، وذلك بدخول أنواع جديدة من المرتزقة والأعاجم. ومما لاشك فيه أن مجيء العباسيين كان فاتحة عهد جديد لتوغل الأعاجم في المؤسسات العسكرية ، وأول من دخل هم الفرس ، وقد بلغوا أوج قوتهم أيام البرامكة وهذا ما دعا الخليفة هارون الرشيد إلى وضع حد لتسلط البرامكة حفاظا على سياسة الدولة وهيبتها . ولعل أهم حدث شارك فيه الجيش العباسي في العصر الأول الفتنة بين الأمين والمأمون التي استمرت لمدة 5 سنوات ، أضعفت الدولة وأرهقت الجيش ، وأخلت بالتوازن بين عنصري العرب والفرس .

وازداد دخول الفرس في الجيش أيام الطاهرين حتى سيطروا على أهم المرافق العسكرية.وحين جاء المعتصم بالله (218-227هـ/833-841م) تحول العباسيون إلى الأتراك الذين جاءوا عن طريق

السبي باعتبارهم جزية يقدمها الأمراء المحليون أو عن طريق الشراء . وكانت القيادة العليا بيد العرب ، ولما حصل الصراع بين الأمين والمأمون أظهر جند خراسان العداء للمعتصم ؛ لذلك فكر بالاعتماد على الأتراك ورفعهم إلى مناصب القيادة ، وبهذا تحول العباسيون إلى الأتراك . ولهذا التحول أسباب عدة منها: أن الدولة مهددة بحركة بابك الخرمي ، وهي حركة فارسية ، ومنها ظهور خطر البيزنطيين على الحدود ، فضلا عن خلافات وتذمر القبائل العربية في بلاد الشام ومصر.

استمر دخول الأتراك بشكل واسع وأصبحت لهم مكانة وأدّوا دورا كبيرا في هذه الفترة أثر في إضعاف الدولة وانشغالها في إخماد حركات الشغب والفتن المستمرة التي يبثها الجند.

مع أن هذه الفترة شهدت هذا الإضطراب فأنها تميزت بظهور مؤلفات جديدة وضحت كل ما يتعلق بالمؤسسات العسكرية والحرب وما يتعلق بتدبير العدد والعُدد والتعبئة وصناعة الحرب ثم ديوان الجند وواجباته. وأشهر هذه المؤلفات "جوامع العلوم" لابن فريغون (ت 401هـ/ 1010م) ، وكتاب "مواد البيان" لعلي بن خلف (ق4هـ/ ق 10م) .

وازدادت تصرفات الجيش سوءا أيام المتوكل الذي ذهب ضحية لتسلطهم ، ثم جاءت فترة التسع سنوات (247-256هـ/861-869م) التي ازداد فيها تدخل الجيش بالسياسة. وحصلت آنذاك أحداث حاسمة هي حركة الزنج التي استمرت 14 عاما ، أنهكت الدولة ماديا ومعنويا ، ثم شارك الجيش في قمع الحركات الإنفصالية في الدولة كالطاهريين والسامانيين والطولونيين .

واستمر الجيش في التدخل حتى ظهور منصب أمير الأمراء الذي زاد من تسلط الجيش وأعطاه القيادة العليا والتدخل في شؤون الخليفة ، حتى لم يبق بيده شيء . واستمر الأمر سوءا حتى مجيء البويهيين أيام الخليفة المستكفي بالله الذي دامت خلافته سنة واحدة وأربعة أشهر وكان مغلوبا على أمره من قبل أمير الأمراء توزون. وبويع المطيع (343ـ363هـ /954 - 973م) بالخلافة ، وازداد أمرها سوءا ، ولم يبق للخليفة من الأمر شيء. ومما تميزت به فترة التسلط البويهي ضعف الخلافة ، ولم يبق بيد الخليفة أمر ولا نهي ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر. وتعطلت الدواوين وضعفت الكتابة والعمالة ، وشغب الجند الديلم بسبب قلة الأموال ، وأغلقت أراضي السواد وهجرها العمال وبطلت أكثر الدواوين وبطلت أزمتها ، وجمعت الأموال في ديوان واحد ، وصار الجند يأخذون الإقطاعات ، فإذا خربت ودثرت ردت ويأخذون عوضا عنها من حيث يختارون ، فأتلفت الأراضي وبطلت العمارات وانغلقت الدواوين . واستمر الوضع

هكذا حتى انتهت سيطرة بني بويه وقامت الدولة السلجوقية ، و لم تكن هذه الفترة تختلف عن سابقتها ، فقد تدهورت الأوضاع السياسية تدهوراً أدى إلى تدهور اقتصادي وفساد إداري دب في الدولة .وكانت بيوت الأموال فارغة ، وتلاعب الأتراك بمقا رات الدولة حتى وصل الحد بهم إلى عزل الخلفة وتولية آخر مكانه ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

إن عجز الدولة عن سد نفقات الجند أدت إلى شغبهم المستمر حتى أصبحت سمة للعصر ؛ لذلك يذكر صاحب "العيون والحدائق" في محاورة مع أحد الثوار حيث قيل له لماذا يثور: " أنت لست بطالبي فتترع إلى الملك ولا جندي تطلب الأرزاق "

وأصبحت المناصب الإدارية لا يتولاها من عرف بقدرته الإدارية والكتابية ، بل من يملك الأموال لسد حاجات الجند. وصار كل من يدفع الأموال سواء بطريقة الضمان أو المصادرة ينال ما يريد من ولاية. وبذلك استطاع العمال شراء المناصب الإدارية ، فضعفت الوزارة وفسدت الأحوال وانحلت القواعد وتغيرت النيات وتأخرت أرزاق الجند واستمر شغبهم .

حكم في هذه الفترة عدد من الخلفاء، أكثرهم ضعاف دون مستوى المسؤولية ، وإن حاول البعض منهم النهوض بالخلافة لفترة قصيرة لم تستمر لكثرة المشاكل المحيطة بالدولة ، حيث شمل الضعف والاضطراب كافة نواحيها ومؤسساقما الادارية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية . كما امتازت هذه الفترة بأن السلطة العسكرية لم تكن حكرا على العسكريين ، بل شارك فيها الكاتب والوزير ، فمن الكتاب من قاد الجيوش لإخماد الاضطرابات الداخلية كما فعل ذلك صاعد بن مخلد عام 265هـ/878م حين توجه قادة الأتراك نحو بغداد وعبروا الجسر ، وحاول الموفق منعهم ، فلم يرجعوا ونزلوا صرصر ، فمضى إليهم صاعد بن مخلد فردهم ، وكان يقوم بقيادة الحملات العسكرية الخارجية ، حارب الصفاريين وغيرهم ، وكذلك عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد بالله (279-289هـ/892-901م)حين حارب القائد ابن أبي دلف في أصفهان وأجبره على الدخول في الطاعة. وممن قاد حملة عسكرية الوزير علي بن عيسى حيث سار بنفسه لغزو الصائفة في ألفي فارس مساعدة لوالي طرسوس ، فلم يتيسر الغزو صيفا فغزوا شتاء فغنموا , فضلا عن أن الكتاب والوزراء كانوا يشرفون على ديوان الجند .

إن التطور الذي حصل على نظام الجند في هذه الفترة ظهر في فرقهم فكانت أهم الفرق هي:

- أولا : المرتزقة : و المقصود بهم الذين اتخذوا من القتال حرفة لطلب الرزق ، وهم الجند المثبتون في الديوان ولهم أعطيات ، وقد طغت هذه

الفرقة على الجيش الغباسي وأكثرهم من الأتراك, والذين كانوا على شكل فرق سميت بأسماء مختلفة منها : "الساجية" نسبة إلى ابن أبي الساج من قواد المعتصم والذي حارب بابك الخرمي سنة 222هـ/836م ، وقام بعدة أعمال ، وخلف ولدين هما محمد ويوسف تولى محمد الحرمين وطريق مكة بعد وفاة أبيه، أما يوسف فكان أول أمره واليا على مكة ، ثم ولي طريق الموصل سنة 280هـ/893م ولكنهما أظهرا العصيان على الدولة مستغلين سوء الأوضاع السياسية. وحاربتهم الدولة ، وأدى استمرار الحرب معهم ومع غيرهم إلى فقدان الأمن ونقص الأموال. وهكذا بدءوا أمرهم قوادا للعباسين ، واستخدموا في جبهات مختلفة من أطراف الدولة العباسية . أما الساجية كفرقة ، فكان لهم تأثير كبير في أحداث هذه الفترة ، فقد وقفوا بجانب المقتدر ضد مؤنس ، كما كان لهم دور في خلع الخليفة القاهر بالله، و بايعوا لمحمد بن المقتدر ، وضعف شأنهم أيام الراضي بالله وحبسهم في واسط. أما من بقي منهم فالتحقوا بالحسين بن حمدان في الموصل فأحسن إليهم .

ثم "الحجرية": ظهروا أيام الخليفة المعتضد بالله عندما استخدم جماعة من الأتراك لخدمته في القصر ووضعهم في حجرات خاصة ، فسموا الحجرية ، ومنعهم من الخروج و الركوب . ويقول الصابي : كانت هناك ألوف من الغلمان الحجرية في دار الخلافة ، و لم تكن أرزاقهم ثابتة ، بل كانت قابلة للزيادة والنقصان بحسب موقف الخليفة منهم. وقد عد الصابي أرزاقهم مع أرزاق الخدم فكانت في " كل شهر أيامه خمسون يوما" سبعة وثلاثون ألف وستمائة و أربعة دنانير. ازداد نفوذ الحجرية أيام المقتدر وتجاوزوا واجباتهم الأساسية في خدمة الخليفة ، فقد استخدموا كفرقة عسكرية وأعطيت لهم واجبات عديدة ، واشتركوا في كثير من الحروب ، وتدخلوا في شؤون الدولة فتضايق منهم الأمراء ، إلا أن المقتدر كان بجانبهم .

كما كان لهم دور في عزل القاهر بالله وامتد نفوذهم إلى النواحي الإدارية ، ورأس بعض قوادهم إدارة بغداد ، فولي الجانب الشرقي اثنان من قوادهم .

بدأ دورهم بالأفول بظهور ابن رائق واستفحال شأنه ، ولكنهم قرروا سنة 329هـ/940م الالتحاق بابن البريدي في البصرة ، وهذا مما أغضب الخليفة فأباح دمه . وهناك فرقة أخرى تألفت من الغلمان وعرفت بأسماء الغلمان الأصاغر والحجرية والرجال و الركابية. والغلمان مختصون بالأمير أو الخليفة لخدمته الشخصية ، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص. وقد تحولت بعض فرق الغلمان إلى فرق عسكرية ، مثل قوات الجيش الأخرى كالحجرية والرجالة. وهناك فرق أخرى منها "الهارونية" نسبة إلى هارون غريب الخال ،

و"النازوكية" نسبة إلى نازوك وغيرها. ويبدو أن هذه التسميات لفرق تابعة للجيش النظامي سميت بأسماء قادتها .

– ثانيا: المتطوعة : هم الجند الذين انضموا إلى الجيش العباسي ، حبا في الجهاد ودفاعا عن الإسلام ، وأغلبهم من سكان البوادي والأمصار ، يخرجون للقتال كلما دعى داعي الجهاد . وكان لهم دور كبير في حماية الثغور الإسلامية، وبخاصة في الصوائف والشواتي . ويمثل العرب الأغلبية الساحقة من المتطوعين .

واجبات المتطوعة غير واجبات الجيش النظامي ، فكانوا إما أن يجعلوا جناحي الجيش النظامي فتكون واجباتهم الإحاطة بجناحي العدو دون أن تختلطوا بالجند النظاميين المدربين ، كما أنهم لم يكونوا مثبتين في الديوان ، وتعطى لهم الأرزاق خلال مدة تطوعهم فقط ، وكان الخلفاء يستعينون بهم كلما دعت الحاجة إلى محاربة الخارجين عن تعاليم الإسلام والقضاء على جميع أنواع الزندقة .

ـــ ثالثا: البعوث : قد تدعو الحاجة إلى إرسال قوت كبيرة إلى جهة معينة ، وإذا لم يكن هناك العدد الكافي فإن الخليفة يأمر بفرض البعوث على سكان بعض الولايات ، ويحدد العدد الذي يفرضه على كل ولاية ، فتتجمع البعوث وترسل إلى الجهة المقصودة ، وهو ما يشبه النفير الخاص أو التعبئة ، وتعطى لمن يفرض في البعوث الأرزاق والرواتب طوال مدة بقائه في الخدمة ، والأمثلة على ذلك كثيرة : فعندما اشتد خطر القرامطة سنة 293هـ/905م دعت الحاجة إلى الاستعانة بالأعراب لحربهم ، فتمت تعبئة الأعراب بالبوادي وديار مضر وطريق الفرات ، وفعلا جاءوا و أدوا دورهم. ويختلف هذا القسم عن المرتزقة والمتطوعة ، لأن دعوة الأشخاص تكون إجبارية ، ولا يجوز التخلف عن الدعوة، ويشكل العرب الغالبية العظمى من البعوث.

أما أصناف الجيش فكانت من الفرسان والرجالة والنشابين ، ثم أضيف إليها أصناف أخرى تبعا لتطور الجيش والمرحلة التاريخية. ونظرا لاصطدام العرب الحربي المستمر مع أعدائهم من بيزنطيين وغيرهم تطورت وسائل القتال، وظهر نوع من التخصص في أصناف الجيش ، نذكر منها المقاتلة والملحقة.

فمن الأصناف المقاتلة :

1) الفرسان أو الخيالة ، ويؤلفون الصنف الأساس في الجيش ، وباعتماد العباسيين على الأتراك زادت أهمية الفرسان ، ويعلق الجاحظ على ذلك بالقول: إنهم "لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة, و لاغرس ولا بنيان ولا شق أنهار ولا جباية غلات ، و لم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل " .

وقد لقي الفرسان اهتماما خاصا من قبل العباسيين ، وكانوا يتسلحون بالسيوف والرماح والأقواس والدروع والخوذ .

أما واجباتهم فهي :

– حراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد ، ويسمى ذلك بالبذرقة أو الخفارة.

– حماية الجيش في أثناء المعركة .

– الهجوم والإغارة على العدو.

–المطاردة ، وتسمى القوة التي تقوم بالمطاردة بالمدد.

– الاستطلاع أو الاستكشاف ، وكان يختار أهل التجربة للقيام بهذه المهمة.

2) المشاة و الرجالة : يؤلفون القسم الأكبر ، ويقاتلون وهم راجلون ويقع عليهم عبء الاصطدام المباشر مع جيش العدو وجها لوجه ، ولباسهم الخوذ التي تقي الرأس والدروع التي تقي الصدر ولها أجزاء للساعدين والساقين ، وكان أمراء وحدات المشاة يركبون الخيول ، وقائد الرجالة لا يكون إلا فارسا.

3) النشابون : وهم الرماة الذين يحملون، الأقواس والنشاب ، ويسمون الناشبة والرامية ، ورماة النبل ، وهم يؤلفون صنفا مهما من صنوف الجيش ، ولهم دور في المعارك .

4) المنجنيقيون : الذين يرمون حصون الأعداء بالمنجنيق عند الهجوم أو عند رمي المهاجمين ، وهم من الأصناف الفعالة في الجيش ، وقد شاركوا في معارك حاسمة.

5) النفاطون : وهم الذين يرمون جيوش الأعداء بالنفط الملتهب ، وكان رامي النفط يلبس ثوبا خاصا يسمى لباس النفاطين حتى لا يصاب بأذى، ويقال : إن مخترع هذا الثوب جندي عراقي ، هو محمد بن يزيد ، ارتداه عندما اقتحم نيران مدينة هرقلة ، حين وقعت في أيدي الجيش العباسي أيام هارون الرشيد. والنفاطة هي الآلة التي تقذف النفط ، كما استخدموا السفن الحربية لرمي مواقع الأعداء بالنفط ، كما استخدم أيضا قوارير النفط ، وهي زجاجات تملأ نفطا سريع الالتهاب ، ترمى على الشخص فيحترق .

6) الدبابون : وهو صنف قائم بذاته ، استعمل دبابات كبيرة تسع كل واحدة منها 10 رجال ، وتسير على عجل لغرض الاقتراب من الأسوار لاقتحامها. وجنود الدبابات أول من يقترب من مواضع العدو ويسبقون المشاة في التقدم لتأمين الحماية لهم ، وواجبهم الأساس قذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أوالنبال من داخل الدبابة ، أو يقومون بثقب الأسوار أو تسلقها. وكان قادة الجيش يجعلون عددا من الجنود يسيرون خلف الدبابة لتسوية الطريق وإزالة العوائق التي يضعها العدو.

أما الأصناف الملحقة فهي:

1) المهندسون : وكان يطلق عليهم اسم الكلغرية. واجبهم إصلاح الطرق وقطع الأشجار وإقامة المعابر والجسور وحفر الآبار ، وهي من الوظائف المهمة في الجيش.

2) الكوهبانية : وهم أصحاب الأخبار المكلفون بنقلها بين فرق الجيش وإعطاء الإشارات ، وقد ورد ذكرهم في حرب بابك وموقعة عمورية . ومن واجباتهم الأخرى كشف الكمائن والدوريات التي يرسلها العدو ، كما استخدموا كأدلاء لمرافقة الجيش .

3) الأطباء : أعطى قادة الجيش للأطباء أهمية خاصة ، وذلك بأنهم كانوا يرافقون الجيش لمداواة الجرحى .

ويضاف إلى ذلك الواجبات التي يحرص عليها قائد الجيش ، وأهمها تأمين المؤونة من ماء وزاد في أثناء المعركة ؛ لئلا يضعف الجند ويترك المعركة .

. إن هذه التقسيمات التي مرت بدأت في العصور العباسية المبكرة ، واستمرت حتى الفترة 447هـ/1055م ، ولكن بشكل أقل تخصصا ؛ نظرا لظروف الفترة القاسية وللاضطراب الذي شمل كل مرافق الحياة وأثر في كل النظم . لكن المهم في الموضوع أن هناك خطوطا واضحة في السياسة العسكرية وفي صناعة الحرب وضعها مؤلفون مارسوا الإدارة ، فكتبوا عن الجهاد والتعبئة وصناعة الحرب وتدبير العدد والعدد وسياسة الحاكم في أثناء الحرب وبعدها، وصفة المجتمع في الحالين. وقد أوضح ذلك بشكل جيد وجديد صاحب "جوامع العلوم" حيث تكلم بشكل واضح عن كل ما يتعلق بالحرب بدءا بالجهاد وقال : " الجهاد أصوله وأركانه ثمانية :

- أولها: تصنيف أعداء الدين ، و منهم أهل الكتاب الذين يقاتلون بعد الدعوة إلى الإيمان و بذل الجزية.
- ثانيهما : عبدة أوثان يقاتلون حتى يقروا.
- ثالثها: الدعاء إلى ما تشتمل عليه الفرائض من مراشد الدين .
- رابعها : حكم ما يقع بين أهل الدين.
- خامسها : حكم الفرض عند الظفر بهم بعد الإثخان بهم من المن والفداء
- سادسها: الحكم في أموالهم التي تفئ إليهم من قسمتها في اليتامى والمساكين وأبناء السبيل بعد رفع الخمس لله سبحانه. - سابعها: حكم المرتد بعد دخوله في الدين واستتابه كاستتاب الكافر.
- ثامنها: الحكم بين داري الإسلام والحرب.

ثم يستمر في الكلام عن الحرب ويقول : "الذيادة عن المدن ، وهو القول في أسباب الحرب .والحرب إما في دار تسمى فتنا ، وإما بين

أمم متنازعة الأوطان وتسمى حربا ، وقد تكون مرة للغارات ومرة لطلب الثارات .

والحرب عنده علم و عمل :

– العلم تدبير ما يحتاج إلى مباشرته من أسبابها : ما يدبره في أمر نفسه , وما يدبره في أعوانه أي عدده , وما يدبره في عدته المستظهر بها , وما يستعمل في أسباب الحرب قبل وقوعها وعند نشوبها وبعد انقضائها .

– أما العمل : فهو ما يقتضيه الفعل من تدبير ، وعنده أن الحرب يجب أن تكون لنصرة الدين , ويجب أن تكون الحرب باختيار, وألا تكون لنصرة الدين رغبة في مملكة عدو أو ماله ، لأنها مفسدة من جهة سفك دماء يجب على العاقل حقنها إلا عند العجز عن الاستصلاح . يجتهد في تحصيل موقع الرأي الصواب فيما يقدم عليه من أسبابها ويحذر من جناية التهور ؛ لئلا يقع في ملامة ولا تقصير في الرأي ، لأن في الخطأ إتلاف أنفس وإفقار أعوان ، فليأخذ بالحزم وليشاور النصحاء ، ويتوكل على الله ، ويتبرأ من الحول والقوة. ويستمر في الكلام عن القائد ومراقبة جيشه فيقول : " يقبل على عرضه بكل عناية ليله ونهاره، ويتعظم عن المتعة واللذة ليضع الأشياء مواضعها ، ولا يخلط أفعال قوة بقوة أخرى لا تجانسها " .

أما تدبير العدد والعُدد فيقول : يجب عليه أن يختار نجباء عسكر عليهم يعتمد, تخير قوم لهم دربة القتال , وتكون لهم شجاعة مختبرة و شفقة على ساستهم , تكون كلمتهم وأيديهم مجتمعة على نصرته ، بلا تحاسد ولا تنافس ولا اختلاف يدعو إلى تخاذل كما يعرض في الأخلاط إذا لم تجمعهم صلة نسب ولا بلد ، ولاختلاف أهوائهم يقتني منهم عددا يتهيأ ضبطهم واحتماله مؤونتهم .وحتى يكون الجيش في صف الحاكم يقول : يجب عليه أن : لا يخلي طبقة وإن صغرت من بره وجميل وعده ؛ لتقوى قلوبهم ويديم عرضهم على نفسه كل وقت ليشاهد مواكبهم وأسلحتهم ليلم شعثها , ويأخذهم بالاحتراس ليلا ونهارا ومجانبة الروع ومفارقة الأسلحة ؛ لئلا يعدموه وقت الحاجة , ويبالغ في ضبطهم عن الفساد ، لتقل وطأة الجيش على النواحي , ويزيح علتهم في أطماعهم عن استحقاقاتهم ، لبسط يده في تقويمهم, ويترلهم منازلهم ويكثر مجازاتهم في كل ما يريد مباشرته تجتمع له خلال يحتاج إليهن:

– يحصل له أنس المفاوضة , وتظهر له هواجس كانت خافية عليه, ويتألف بتعريفهم أنه لا يستغني عن مشورتهم ، ولا يترفع عنهم بالاستبداد , ويقف على تدبير كل منهم, ويجمع بين رأيه ، ورأيهم فإن وافق قوى عزمه وإن كان رأيهم أفضل ركن إليه ؛ إذ قد يجوز وجود رأي أصيل عند من لا يأبه له ولا يغير بمن يختار رأيه ؛ لئلا يوحش المتروك رأيه إذا لم

يكن عليه غير النصح و الاجتهاد ؛ لئلا يستطيل عليه صاحب الرأي الجيد .

أما تدبير العُدد فهي عنده

- خيل وسلاح وعدة قوية : أموال مدخرة لاحتمال مؤنهم وجسيم طمعهم وهو الركن ؛ إذ لا حرب إلا برجال ومال, وحين يفسر من أين تأتي الأموال يقول: "مصارف الخزانة ثلاثة : قضاء الوطر من الشهوات ولا غاية للذة, واكتساب المحامد والثواب ولا غاية للإحسان إلى الناس ".

ويستمر في الكلام عن أسباب معرفة العدو لمواجهته فيقول:" يحتاج السائس إلى معرفة 7 معان من أسباب العدو وهي: الجيش، والعوض، والزمان، والمكان ، والآلة ، والرجال ، والمال .

وعنده أن صناعة الحرب تنقسم إلى قسمين : قسم يستعمله بقوة بدنه وشجاعة قلبه ودربته باستعمال آلاتها , وقسم يستعمل بتدبيراته اللطيفة المأخذ على سبيل لايشعر به عدوه. ثم يعطي احتمالات الحرب فيقول : من قصد بجيش لم يكن له بد من العمل بأحد وجوه ثلاثة هي : التماس صلح على فدية ، أو مراجعة طاعة ، أو وسع في حكم الساسة أن يفعله , وصناعة كأسوار وخنادق يستظهر بها أو بحصاناتها بآلات رمي كالمنجنيق ونقب كالدراجات والدبابات، وارتقاء إلى أعالي الأسوار وقدما للنضاحات والوراقات , وحصون طبيعية كجبال شاهقة أو بطون شعاب أو جزائر بحور وأودية كبار. وهو في كلامه عن صناعة الحرب - كما سماها - يعطي تعليلا لكل ما يتعلق بها.

ففي المكان يقول :

- اختلافهم من قبل المكان ، فإن كان كثير الرقعة لايمكن الإحاطة بها بجيوش كثيرة العدد فيتهيأ لأهلها استكثار القوت إلى حين يطول ، وإن كان ضيق الرقعة يمكن الإحاطة من جميع جهاته يعارضهم بالمصابرة دون المحاربة ومنع المير حتى يختلفوا بالجهد.

- يعارضهم بآلات الفتح وقطع المرافق لاستخراجهم للحرب ، لا يتقصى عند بروزهم ليطمعهم في جنده ، فإذا خرجوا عن الصحن مال عليهم ميلة, إذا قرب العدو واختار معسكرا جيدا إلا أن يضطر إلى النزول والاختيار نه أن تتهيأ المصابرة لمتوسط العمران ما لاتتهيأ لمن أقبل من مفازة وراء ظهره عدم المياه والأقوات .

أما **التعبئة** فهي التهيؤ والاستعداد للحرب ، ووضع الخطط العسكرية ، وتوزيع الجيش والأسلحة والمؤن بشكل يسهل النجاح في المعركة ، ويرى ابن فريغون أن الأصول التي تبنى عليها التعبئة ثلاثة :

- نظم : إذا كان في فضاء سوى ساقة وميسرة وميمنة ومقدمة وقلب تسمى خميسا .

- ترتيب: أي ترتيب كل طبقة في الموضع الذي هو أصلح له ، الأشد مراسا والأظهر شوكة في الموضع الأهم.

- تميز: أي أن يجعل حشوة الأجناد والأتباع ويوكل بهم من يجمعهم ويجعل الشجعان والأقوياء في مقدمتهم .

ويرى أن هذه الأركان تكون في حالتين :

- إن فضله في عدده وعدته

- إذا كان مناوئه شجاعا ذا دربة ودهاء،

ولا يقتصر كلامه على التعبئة فقط ، بل يتكلم في حال نقص التعبئة فيقول: "أن يكون من جيشه ويفرقهم على العدو من جهات مختلفة ؛ ليسدد نظامهم إن وثق، بهم وإن لم يثق بهم لم يفرقهم ، ويخرج عليهم كمينا من نواحي لايحتسبوها " . ويحصن عساكره بخنادق ويمنعهم من البروز إلا في أوقات ، فإن علم أنهم لا يعجلون عاجلهم بغير تأخير ، ثم يحصنهم، ويشحذ نياقم ؛ لأن مادة الحياة تضعف عند الحرب فتحرك بالتحريض .

ثم يتكلم عن ملاك المحارب وهو: التحفظ وانتهاز الفرص وتذكية قوة الشجاعة وقطباها الصبر والثبات ، ولا يأتيان إلا بعلاج بدني من تناول شراب قوي من غير إفراط ، أو بعلاج نفسي يفكر عما يكيد به عدوه وبما يقاتله.

وهو لا يحث على الحرب ويقول في موضع آخر: " فإن لم تتهيأ له أسباب الحرب تخلص بنفسه وماله وكل ما قدر عليه ، فليربط جأشه ويحارب حرب من يجمع بين الإقدام والإحجام ، وليعلم أنه يلحقه عار في أمر لا يقدر عليه ، ولينحي على العدو ولا يلين فيه كإقامة الحد ، ولا يقاتل ببذل الحياة خوف العار والإدبار إذا لم ير للثبات وجها " . ويكفي بالكلام على الحرب بل ما بعد الفراغ منها فيقول: "فإذا فرغ من الحرب دبر أربعة أصناف: منهزم عن المعركة تابع أو متبوع, ومأسور, ومستأمن من وقت الحرب وقبلها وبعدها, ونكث العقد . ويفتح باب ضرر عظيم على سلطانه إذا وسم به وينشر عنه قولة قبيحة ولا ينشر رأيه فيما سبق منه ، ويعلم أن الاتصال بالملوك صناعة كسائر الصناعات, لا يلزمهم خيانة الملوك ، إن نكروا فلن تتحمل لهم مؤونة الإنجاز ، وإن كفروا كانوا زينة في الظاهر. إن كان رئيسا لم يجز الإطلاق عنه ، بل يجب معرفة حاله التي صار إليها من الأولى عطفا ورحمة.

هذا ما يخص القادة والجنود. أما ما يخص **الرعية بعد الحرب** فقد قال: " أما الرعية الذين استولى عليهم فهم : إما أن يكون عدوه استولى عليه و لم يكن من حيز سلطانه ، إما جانية أو غير جانية, وإما أن يكون من بقعة مملكة غلب عليها ثم ارتجعه ، وهي إما جانية في أسباب سلطانية ، وإما غير جانية . يؤمن الرعية إيمانا عاميا ، ولا يطلق فيهم يدا غير يده إذ لا صورة أقبح في الحس والعقل من

إطلاق الأيدي والأنفس والحزم والأملاك، ثم يتبع الجناة ليطهر المملكة من غوائلهم, ثم يدبر في أمر جنوده ورعيته تدبيرا بالاصلاح والاستصلاح وإيناس المستوحشين وتسكين النافر وتسلية المصاب وتعويض المنكوب ؛ لتجتمع على الطاعة والمحبة قلوب الجميع. ثم يتحمل أمره بالجهد, ثم يظهر الشكر سيرته وعامته وخاصته بالعدل والتطول والتكرم.

إدارة الجيش :

إن من أول الإجراءات الإدارية للجيش إنشاء ديوان الجند – كما مر سابقا – وديوان الجند يتولى إدارة عدة أمور ، وهي كما حددها ابن خلدون: "القيام على أعمال الجبايات ، وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج ، وإحصاء العساكر بأسمائهم ، وتقدير أرزاقهم ، وصرف أعطياتهم".

وكان يدير هذا الديوان كاتب ، وله دور كبير في وظائف الدولة ؛ لذلك يقول صاحب مواد البيان: "خطر منزلة كاتب الجيش بمقتضى خطر ما ينظر فيه من أمور الرجال الذين هم أعضاد السلطان وأعوانه". ثم يعدد صفاته وما يحتاج إليه فيقول :

- يحتاج إلى الاستقلال وكثير من الحساب ، وإلى معرفة شيات الخيل وأسنانها وعتاقها وأوصافها المحمودة والمذمومة وعيوبها الأصيلة والحادثة .
- المعرفة بالأسلحة وأنواعها والسيوف وجواهرها ومياهها والرماح وأجناسها والقسي والسهام والدروع وما يجاريها من الآلات .
- ويحتاج إلى أن يكون قد تأدب بالفروسية ، وأخذ بطرف من العمل بالسلاح.
- أن يكون فيه حسن مداراة وجميل ملقى وصبر على مر أخلاق من عامله، فإنه مدفوع إلى سياسة طوائف عدة.
- أن يبني أمره على النزاهة عن الطمع وليحذر وضع الأعلى ورفع الناقص .
- أن يأخذ بالحزم والأمانة .
- أن يكون له حظ من الترسل ؛ لأنه قد يحتاج إلى المكاتبة بخبر الفتح وغيره مما يعرض له .

وقد فصل صاحب " جوامع العلوم" في **آداب كاتب الجند** فقال :

- أن يصرف عنايته إلى تفقد أحوال الديوان على أساميهم وعدهم وأسامي أصحاب القيادات و النقباء و العرفاء وبمنازل أرزاقهم وأوقات استقبالهم والإقامة لهم والباقي من أرزاقهم وأطماعهم وعامتهم والمخل بمركزه .
- أن يعرف أن الجند قسمان أهل شهامة وحنكة بالحرب.
- أن يؤدي الأمانة فيما يستكفى متضاعفة ؛ لئلا يقدم من يجب تأخيره ويؤخر من يجب تقديمه .

- يلزم الجنود حضور الأقبية بعدهم نوبا ، يتداولونه فيما بينهم لتكون محرزة.

- يعرف أنواع الأسلحة وأصنافها وأساميها والجيد الرائع والرث والمسترذل.

- يكون معه قسط من الفروسية ومعرفة الخيل وصفاتها .

- يكون معه قسط من كتابة الرسائل إلى القادة ، بشرح أحوالهم من الفتوح والأحوال السلطانية .

- معرفة رسوم العرض والإثبات والإعطاء والحلي والشيات والمهارة برفع الحساب والإقامات والقبوض والبواقي.

وكان ديوان الجند يتألف من مجالس أو هيئات ومنها : مجلس التقارير : ويقوم بجميع الأعمال المالية كالأرزاق وتحديد أوقات الصرف وبقية النفقات, ومجلس المقابلة : ويتولى الأمور الخاصة بإثبات الجند في سجلاتهم ونقلهم وإسقاطهم والإشراف على صاحب نفقات الجيش, ومجلس الإعطاء والتفرقة وهو الذي يشرف على عملية توزيع الأرزاق. وتعطى الأرزاق بعد أن يقدم المجلس كشف حساب بالمبالغ التي تم صرفها إلى صاحب ديوان الجيش ، ويدعى هذا الكشف بالرجعة .

و أشار الخوارزمي إلى مجلس آخر سماه مجلس الاسكدار : وهو الذي يقوم بتنظيم الكتب التي تصدر عن صاحب ديوان الجيش ، ولديوان الجيش علاقة بالدواوين الأخرى ، مثل ديوان الخراج، وديوان النفقات ، وديوان خزانة السلاح. وهناك مصطلحات خاصة بديوان الجيش أوردها الخوارزمي في مفاتيح العلوم وهي:

- الرجعة : وهي كشف حسابي يرفع إلى صاحب ديوان الجيش .

- الرجعة الجامعة : وتعني الحساب الذي يرفعه صاحب ديوان الجيش إلى الوزير.

- الجريدة السوداء : وهي أهم سجل في الديوان ، تحوي أسماء الرجال وأوصافهم ورواتبهم وكل ما يتعلق بهم .

- الجريدة المسجلة : وهي عبارة عن سجل مختوم يحق لصاحبه استلام نفقته في كل مكان.

- الفهرست : دليل يضم أسماء السجلات والدفاتر

- الإثبات : أي تثبيت اسم الرجل في الجريدة السوداء ويفرض له الرزق.

- الزيادة : وهي أن يزاد الرجل في رزقه.

- التحويل : تحويل الرجل من جريدة إلى أخرى.

- النقل : أن ينقل رزق شخص إلى آخر.

- الساقط : الرجل الميت أو المستغنى عنه.

- المخل : الذي أخل بمكانه و لم يوضع بعد.

- المتأخر : الذي يتأخر عن مجلس العطاء وقت التفرقة .

- أن يلحق اسمه فيوضع عن الجريدة.

- الفك : أن يصحح اسمه ورزقه في الجريدة بعدما وضع.

هذه المصطلحات التي كانت موجودة في العصور الأولى وكانت متبعة ، إلا أنه ليس هناك ما يشير إلى أنها مستعملة في هذه الفترة ؛ نظرا لاضطراب الأوضاع العامة ، وكثرة شغب الجند حول الأرزاق وقلة الموارد المالية.

أما **نفقات الجيش** فكانت تكون جزءا كبيرا من نفقات الدولة ، وتستهلك معظم وارداتها. وتشير الأحداث التاريخية ، وخاصة في الفترة 334-447هـ/ 945 - 1055م إلى أن نفقات ورواتب الجند أرهقت مالية الدولة، وسببت لها الكثير من المشاكل.

إن السمة التي تميز الفترة هي قلة الرواتب والاستمرار بالطلب في زيادتها مع تأخير صرف الرواتب وهذا أثر تأثيرا سيئا على سياسة الدولة ، وأدى إلى حصول الفتن والشغب ، كما أدى إلى الخلافات المستمرة بين الجند أنفسهم وبينهم وبين قادتهم .ومن السمات البارزة أيضا تلاعب القواد وكتاب الدواوين بأرزاق الجند والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومن الأمور التي لها صلة بعمل الجند **طرق المواصلات والبريد:** اهتم العباسيون وعنوا عناية شديدة بحراسة الطرق العسكرية وتأمينها وصيانتها. وكانت سعة الحدود الإسلامية وكثرة أعداء الدولة قد حملتهم على إقامة مراكز عسكرية لصد الأخطار ، وتسمى المسالح. وأقيمت هذه المسالح لحماية الطرق من تسلل الأعداء ولحماية الجيش، ولتكون عيونا ترصد حركات الأعداء. ومما يتصل بهذا الأمر **البريد العسكري** وكانت من واجبات صاحب البريد: معرفة طرق الأعداء, ومعرفة حيل الجواسيس في الدخول و الخروج , وإخبار سلامة الناحية وهدوئها واستقامة أمورها , وما يقوم به بغاة الدول من انتهاز الفرص للوثوب على السلطان , وسير العمال ومعاملاتهم التي تجري بينهم وبين الرعية , وأخبار خاصة بأنباء الحوادث التي يحتاج الملك إليها . وقد استخدم العباسيون الإشارات في الحرب، كما استخدموا العيون والجواسيس. أما ما يتعلق **بالسلاح** ، أي الآلة التي يحارب بها الجندي ، فقد استعمل العباسيون في حروبهم أنواعا مختلفة من الأسلحة كالدبابة ورأس الكبش والمنجنيق وعملوا الحصون والخنادق والحسك الشائك ، كما استخدموا السفن والزوارق النهرية في الحرب ، وقد تفنن العباسيون في صناعتها ، وأطلقت على هذه السفن أسماء منها: السميريات، والشذاءات، والحراقات، والبوارج، والزبازب، والزلاليات، والحديديات، والشبارات، والطرادات، والطيارات وغيرها .

وكانت **رواتب الجند** علي حسب أصنافهم ، ومن المناسب أن نشير إلى القائمة التي أوردها الصابي عن مقدار رواتب الجند في سنتي 279هـ /892م و306هـ/ 918م وهي :

الرواتب سنة 279هـ/892م

الصنف	أيام الشهر	الرواتب
الرجالة أصحاب النوبة (البوابون)	30	30،00 0دينار
المفليحة ،الديالمة،الطبرية،المغاربة	30	21،000دينار
السودان	30	9،000 دينار
النوبة ومن الزنج المستأمنة	30	خبز يميزون بها لقاء رزقهم
الغلمان الخاصة	60	
وهؤلاء كانوا يقبضون كل 40 يوما ، ثم صار 50 يوما ، ثم 60 يوما		
الفرسان ، عسكر الخاصة	90	135،000دينار
الفرسان عسكر الخدمة في طريق خراسان	120	60،000دينار
المماليك الناصرية البغائية	70	42،000 دينار
المرتزقة برسم الشرطة في بغداد	120	6،000 دينار
الغلمان والخاصة من الذين أعتقهم المنتصر	50	لكل واحد من الأصاغر 5 دنانير ، وللأكابر 10 ، ثم زيدوا 2 ، فسموا الإثني عشر، ثم أصبحوا أيام المكتفي 16 دينارا

الرواتب سنة 306 هـ/918م

الصنف	عدد أيام الشهر	مجموع الراتب
الأتراك في المطابخ	30	44،070 دينار
أرزاق المرتزقة	37	8،200 دينار
الرجالة في الشذآت	40	102 دينار
الغلمان الحجرية ، الموكبية الصناع في خزائن السلاح والفرش	50	14،560 دينار

يبدو من القائمتين ما يلي :

- أيام الشهر غير ثابتة فهي ما بين 50 ، 30 ، 120 ، 70 يوما ؛ ويبدو أيضا أن صرف الرواتب يتوقف على مقدار المال الموجود في الخزينة.

- مقدار الراتب يتناسب مع أهمية الجند عند الخليفة .

- مدة أيام الشهر تقل كلما ارتفعت مكانة الجند عند الخليفة .

- البعض من الجند كانت لهم أرزاق عينية وليست نقودا

- لم ترد إشارة إلى مقدار راتب كل فرد، بل كانت عامة لكل الجند.

- قسم من أصناف الجيش كانت تصرف لهم الأموال من نواح وقرى على دفعتين في السنة.

إن هذه التقسيمات كانت في فترتها ، أما في الفترة 334-447هـ /945-1055م فليس هناك وضوح ولا إشارة إلى مقادير الرواتب لما تميزت به هذه الفترة من تدهور في كافة المجالات، ومنها الاقتصادية. وهكذا كان الجيش في الأيام الأولى للدولة العباسية عربيا إسلاميا ، مع وجود بعض العناصر الأعجمية ، وكان جيشا قويا استطاع أن يحمي الدولة ويقمع الفتن والاضطرابات في الداخل والخارج ، ولكن بعد العصر العباسي الأول دخلت عناصر جديدة في الجيش أعني بهم الترك ، أساء إلى هذه المؤسسة العسكرية وأضعف سلطة الدولة، وزادت انقسامات الجيش ، ومنازعاته ، خاصة في فترة ضعف الخلافة. ولكن الشيء الذي لايمكن إنكاره أن الجيش العربي الإسلامي بلغ في هذه الفترة درجة كبيرة من الرقي في التنظيم والتسليح وفي طرق المواصلات

العسكرية وفي الأساليب التعبوية في القتال.

أ. د . نبيلة عبد المنعم داود

(جامعة بغداد – العراق)

المصادر و المراجع :

1) المصادر :

- **ابن الأبار** : أبو عبد الله محمد (ت658هـ/1259م)

1961، إعتاب الكتاب تحقيق صالح الأشتر، مطبعة اللغة العربية ، دمشق.

- **ابن الأثير** ، عزالدين أبو الحسن علي ابن أبي الكرم (ت630هـ/1232م)

1961، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت.

- **ابن أبي الدم:** شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله (ت642هـ/1244م)

1975، أدب القضاء، تحقيق محمد مصطفى، مجمع اللغة العربية، دمشق.

- **ابن أبي الربيع** : شهاب الدين أحمد ابن محمد (ت في أواسط القرن السابع / الثالث عشر م)

1980، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي دار الأندلس، بيروت .

- **ابن الأزرق** : أبو عبد الله (ت 896 هـ/1490م)

1977، بدائع السلك في طبائع الملك تحقيق علي النشار، دار الحرية، بغداد.

- **البلاذري** : أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/892م)

1983، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد ، دار الكتب العلمية، بيروت.

1936، أنساب الأشراف ج 4 و ج 5 تحقيق جوياتين ، مكتبة المثنى .

- **التنوخي** : أبو علي المحسن بن علي (ت384هـ/994م)

1955، الفرج بعد الشدة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

- **الجاجرمي** : المؤيد بن محمد (ق7هـ / ق 13 م)

2000، نكت الوزراء، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت .

- **الجاحظ:** أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/868م)

1979، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة.

- **ابن الجوزي** . أبو الفرج عبد الرحمن (ت597هـ/1200م).

1357، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم

حيدر آباد الدكن .

- **الجهشياري** : أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت331هـ/942م)
1938، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة .

- **الحسن بن عبد الله** : العباسي (ت708هـ/1308م)
1295، آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق ، القاهرة.

- **ابن خرداذبة** : أبو القاسم عبد الله (ت300هـ/912م)
1886، المسالك والممالك، مطبعة بريل ليدن .

- **ابن خلدون**: عبد الرحمن (ت808هـ/1405م)
1961، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من السلطان الأكبر، بيروت.
1978، المقدمة، دار القلم، بيروت.

- **ابن خلف**: علي (ق4هـ / ق 10م)
مواد البيان، مخطوطة مصورة في معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا .

- **الخوارزمي** : أبو عبد الله محمد (ت387هـ/997م)
1342، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق القاهرة.

- **السمناني** : أبو القاسم علي بن محمد (ت499هـ/1106م)
1984، روضة القضاة وطريق النجاة، تحقيق صلاح الدين الناهي، بيروت.

- **السيوطي** : جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ / 1505م)
1987، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد, طبعة أوفسيت، بغداد .
د ت، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية، القاهرة.

- **الصابئ**: أبو الحسن هلال بن المحسن (ت448هـ/1056م)
1958، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة.
1964. رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العاني، بغداد.

- **الصولي** : أبو بكر محمد بن يحيى (ت335هـ/946م)
1341، أدب الكاتب، تحقيق محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة.
1979، أخبار الراضي والمتقي، تحقيق ج هيورث ، دار المسيرة، بيروت .

1982، أخبار الشعراء المحدثين، تحقيق ج هيورث ، دار السيرة، بيروت .

- **الصيرفي** : تاج الرياسة أبو القاسم علي (ت542 هـ/1147م)
1950، قانون ديوان الرسائل، مطبعة الواعظ ، القاهرة .

- **ابن طباطبا** : محمد بن علي (ت709هـ/1309م)
1927، الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة .

الطبري:محمد بن جرير (ت310هـ/ 922م)
1965، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة .

- **الطرطوشي** : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد (ت520هـ/1126م)
1935، سراج الملوك، المطبعة المحمودية ، القاهرة.

- **ابن طيفور** : أبو الفضل بن طاهر الخراساني (ت280هـ/893م)
1949، بغداد تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة .

- **ابن عبدربه** : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت328هـ/939م)
1952، العقد الفريد، تحقيق محمد أمين وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة .

- **الفراء** : أبو يعلى محمد بن محمد بن الحسين (ت458هـ/1065م)
1357، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة.

ابن فريغون : أبو الحارث محمد بن أحمد (ت401هـ/1010م)
جوامع العلوم (مخطوط مصورة من معهد تاريخ العلوم العربية و الإسلامية، فرانكفورت)، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود. (تحت الطبع) .

- **ابن قتيبة** : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت276هـ/889م)
1930، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة.
1934، المعارف، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، المطبعة الإسلامية، القاهرة .

- **القلقشندي** :أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ/ 1418 م)
1925، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطابع كوسطا توماس، القاهرة.

- **ابن مازة** : عمر بن عبد العزيز (د ت)

1977، شرح أدب القاضي، تحقيق محيي هلال السرحان، بغداد .

- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد ابن حبيب (ت450هـ/1058م)
د ت، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، المكتبة المحمودية، القاهرة .
د ت، أدب القاضي، تحقيق محيي هلال السرحان ، بغداد.
1986، نصيحة الملوك، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الحرية، بغداد .

- ابن مماتي : شرف الدين أبي المكارم (ت606هـ/1209م)
1943، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال ، القاهرة .

ابن منقذ : أسامة الأمير الشيروي (ت584هـ/1188م)
1935، لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية، القاهرة.

- مجهول : مؤلف (القرن الرابع هـ / العاشر م)
1972، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، المجلد الرابع ،ج1، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود مطبعة النعمان، النجف.

1973، المجلد الرابع، ج2، مطبعة الإرشاد، بغداد.

- المسعودي : علي بن الحسين (ت346هـ/957م)
1978، مروج الذهب ومعادن الجوهر, تحقيق يوسف أسعد داني، بيروت.

- مسكويه : أحمد بن علي (ت420هـ /1029 م)
1915، تجارب الأمم وتعاقب الهمم طبعة شركة التمدن الصناعية، القاهرة.

- المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله البشاري (ت380هـ/ 990م)
1876، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم , تحقيق دي غويه، ليدن .

- المقريزي : أحمد بن علي (ت845هـ/1441م)
1321، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المسمى الخطط المقريزية، مطبعة النيل، القاهرة .

- ناصر خسرو : أبو معين الدين القبادابابي المروزي (ت481 هـ / 1087 م)
1970، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت .

- الهرثمي : أبو سعيد الشعراني (ت بعد 234 هـ/ 848 م)

1964، مختصر سياسة الحروب, تحقيق عبد الرؤوف عون، الموسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر، القاهرة

- **الهمداني** : محمد عبد الملك (ت521هـ /1127 م)
1959، تكملة تاريخ الطبري, بيروت.

- **وكيع القاضي** : محمد بن خلف بن حيان (ت306هـ/918م)
1947، أخبار القضاة، تحقيق عبد . العزيز الميرغني، مطبعة السعادة، القاهرة .

- **ابن وهب**: إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب (ق4هـ)
1969، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حفني محمود شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة.

- **اليعقوبي** ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت292هـ/904م)
1957، البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف .
1974، تاريخ اليعقوبي، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف.

- **أبو يوسف** : يعقوب بن إبراهيم (ت182هـ/798م)
1984, الخراج , تحقيق محمود الباجي، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع, تونس .

2) المراجع :

- **الأنباري** : عبد العزيز علي
1977، النظام القضائي في بغداد، النجف .

- **الباشا** : حسن
1975، دراسات في الحضارة الإسلامية, دار النهضة العربية، القاهرة.

- **ثابت** : نعمان
1939، الجندية في الدولة العباسية، بغداد.

-**الجنابي** : خالد جاسم
1989، تنظيمات الجيش في العصر_العباسي الثاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

- **حسن** : إبراهيم حسن
1973، تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة.

- **الدوري** : عبد العزيز
1948، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بغداد.
1945، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد .
1945، العصر العباسي الأول ،بغداد.
1950، النظم الإسلامية، بغداد.

- **رفاعي** : أنور
1973، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، بيروت.

- **زعين** : حسن فاضل
1981، سياسة المنصور الداخلية والخارجية، دار الحرية للطباعة، بغداد.

- **زكي** :عبد الرحمن
1956، السلاح في الإسلام، القاهرة.

- **زيدان** : جرجي
تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال, القاهرة.

- **زيات** : حبيب
1949، معجم المراكب والسفن، مجلة المشرق .

- **زيادة** : نقولا
1962، الحسبة والمحتسب في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية , بيروت.

- **السمرمد** : قيس عبد الفتاح
د ت، الدواوين في العصر العباسي الأول (رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة)، كلية التربية ابن رشد، بغداد.

- **الصالح** : صبحي
1982، النظم الإسلامية: نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت.

–**عثمان** : فتحي
1966، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة.

- **العلي**: صالح أحمد
1969، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، دار الطليعة . بغداد.
1988، معالم بغداد الإدارية والحضارية، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

- **فلهاوزن** : يوليوس
1958، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

- **فوزي** : فاروق عمر
1973، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية, مطبعة دار السلام، بغداد .
1982، العباسيون الأوائل، عمان .

- **كرومان**
مادة طراز، دائرة المعارف الإسلامية طبعة الشنتناوي وآخرون.

- **ماجد** : عبد المنعم
1973، تاريخ الحضارة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

- **ماكدونالد**

مادة إنشاء، دائرة المعارف الإسلامية طبعة الشنتناوي و آخرون.

- **متز** : آدم

1967، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري , ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت .

- **المدور** : جميل نخلة

1936، حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية، القاهرة.

3) المراجع الأجنبية :

- **Encyclopédie de l'Islam**, Nouvelle édition Brill, Leyden.

- **Harold Bowen**

1928 , The life and times of Ali B Isa, Cambridge.

6) القضاء :

القضاء في اللغة له معانِ ودلالات كثيرة ، فقد جاء بمعنى الحكم أي المنع ، ومنه سمي القاضي حاكماً لمنعه الظالم من ظلمه. وقد وردت كلمة (قضى) في القرآن الكريم في صيغ عديدة، بلغت ثلاثاً وستين صيغة . وبمعنى فصل الأمر قولاً أم فعلاً، وكل واحد منها على وجهين إلهي و بشري ، ومنه قوله تعإلي "وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعْبدُوا إلا إياهُ" أي حكم وأوجب .(سورة الإسراء، الآية 23).

وقد جاءت كلمة قضى أيضاً بمعنى الأداء ، كما في قوله تعإلي " فَإِذَا قَضيتُم مَنَاسِكَكُمْ " أي أديتم. وقصى عبد الله دينه أي أداه. (سورة البقرة، الآية 200).

وجاءت بمعنى الإنهاء والتبليغ كما في قوله تعإلي"وَقَضَينَا إلي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ" أي أفهمناه إليهم وبلغناه إياهم، لأن الخبر ينتهي إلي من يبلغه.(سورة الإسراء،الآية 4). وقد تعني الهلاك والفراغ كما في قوله تعإلي " فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيهِ"(سورة القصص،الآية 15).

وقد تعني المضى كما في قوله تعإلي " ثم اقْضَوا إلي ولا تُنْظِرُون" (سورة يونس، الآية 71) أي امضوا. وقد تعني الصنع والتقدير كما في قوله تعإلي " فَقَضَاهُنَّ سَبعَ سَمَوات فِي يَوْمَين" (سورة فصلت، الآية 12). أي صنعهن وقدرهن وخلقهن . ويقال قضاه ، أي صنعه وقدره . وجمع قضاء أقضية وقضايا ، وقيل سمي قاضياً لإيجاب الحكم على من يجب عليه .

والواقع أن معاني القضاء في اللغة تعود كلها إلي معنى واحد وهو إمضاء الشيء وإحكامه ، وإتمام الشيء والفراغ منه قولاً وفعلاً .

ومن الطبيعي أن يأتي التعريف الاصطلاحي لمعنى القضاء مختلفاً. فابن خلدون يقول: "إنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع " . وهو عند الفقهاء مختلف بحسب وجهة نظر كل منهم، فبعضهم نظر إليه من خلال ولاية القضاء باعتبارها السلطة التي تفرض على من يتولاها الفصل في الخصومات، ومنهم من نظر إلي الحكم الصادر عن القاضي أنه بواسطته يتم الفصل في الخصومة فعرَّفه . وفريق آخر نظر على أثر الحكم فعرَّفه، ولكل فريق وجهة فيما ذهب إليه.

وعلي كل حال فإن القضاء أمر لازم في تعامل الناس وتبادلهم المنافع فيما بينهم، وقيام الأمم وسعادتها وحياتها حياة طيبة، ولنصرة المظلوم، وقمع الظالم، وقطع الخصومات، وأداء الحقوق إلي مستحقيها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللضرب على أيدي العابثين من أهل الفساد ، حتى يسود النظام في المجتمع ، ويأمن كل فرد فيه على نفسه وماله ، وعلى عرضه وحريته، وما يترتب على ذلك من إصلاح حال المجتمع وتقدمه.

وقد اشترط فيمن يتولى القضاء عدد من الشروط : أولها البلوغ ثم العقل ثم الحرية ثم الإسلام.

ولسنا بصدد التفصيل في كل شرط من تلك الشروط التي اتفق عليها الفقهاء : أو الشروط الأخرى التي اختلفوا حولها مثل سلامة الحواس وغيرها.

وفي كل الأحوال ، فإن القضاء كما يقول ابن خلدون: "من الخطط الدينية الشرعية المندرجة في الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، فكأنها الإمام الكبير، والأصل الجامع، فهو متفرع عنها وداخل ؛ فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم، والقاضي نائب ممثل للخليفة أو الوالي الذي هو الرئيس الديني والدنيوي للدولة الإسلامية، وفي شخصه كل القوى الضرورية للحكم في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فكل هذه الوظائف

- ومن بينها القضاء - إنما هي بالنيابة عنه مباشرة أو بطريق غير مباشرة أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها ، وحمل الناس عليها ، وأما سياسة الدنيا فبمقتضى مصالحهم من العمران البشري ، والعمران ضروري للبشر ورعاية مصالحه كذلك".

إن القضاء عند العرب قبل الإسلام كان صورة لنظام الحكم عندهم ، فلم يكن القضاء منتظماً ، وإنما كانوا أمة بلا أرض محددة ، وبلا سلطة سوى سلطة رؤساء القبائل ، وكل ما كان عندهم هو العادات والتقاليد التي اصطلحوا عليها وكانوا يقضون بها ، فقد كان بنوسهم هم أصحاب الحكومة في قريش قبل الإسلام، وكانت هذه الأسرة الكبيرة في مكة تتقاسم بينها الأعمال الاجتماعية ، وأعمال الموسم في الحج كالسقاية والرفادة والحجابة، ويبدو أن بني سهم كانت لهم هذه الوظيفة، وهي تشبه القضاء في الخصومات التي قد تحدث في مكة في المواسم والأسواق التي تقام بها؛ ولذا كانوا يحتكمون في خصوماتهم إلي محكمين من الكهان ، والعرافين ، وكذلك كانوا يحكمون القرعة ، كما كانوا يعتمدون على شهادة الشهود .

ويورد الماوردي قصة مفادها أن خلافاً وقع بين العاصي بن وائل ورجل من زبيد ، اشترى منه العاصي سلعة وماطله في دفع ثمنها، فلما عيل صبر الرجل جاهر بظلامته حوّل الكعبة بين رجال قريش، فاجتمعت قريش في دار عبد الله بن جدعان ، حيث قرروا على أن ينصروا المظلوم من الظالم، فسمى هذا الحلف "الفضول"، وقد شهده النبي صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه .

ومع بدء البعثة النبوية المباركة، وما لقيه الرسول الكريم صلى الله وعليه وسلم من أذى قريش وصلفها فإن هجرته إلي يثرب (المدينة المنورة) كانت إيذاناً بتطبيق الشرع الإسلامي الحنيف في كل مظاهر الحياة الدينوية والدينية، مع استمرار العرب بعوائدهم الأولى، إذ لم يكن هناك ما يدعو إلي تغيير العادات القائمة أو إيجاد قاعدة جديدة، وإنما أخذت تلك العادات تتطور وتتغير حسب قواعد الدين الجديد، وكان هدف الرسول الكريم هو تعليم الناس وإرشادهم إلي ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم. ونجد أن هذه الفكرة أثارها في مشروع " العفو"، ولكن الأحداث هي التي ألزمت الرجوع إلي القواعد القانونية .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، استمر في الحكم بين المسلمين على حسب الطريقة العربية الأولى المتبعة قبل الإسلام، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعإلي: ﴿ "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِما قَضَيْتَ وَيُسلمُوا تَسْلِيماً " (سورة النساء، الآية 65). وهكذا كانت هذه الآية التي حوت لفظ القضاء إيذاناً ببدء القضاء في الإسلام، وأن الرسول محمدا (ﷺ) بهذا المعنى كان أول قاض في الإسلام ، مؤيداً بما يوحى إليه في الحكم في بعض القضايا، واجتهاده في قضايا أخرى . فقد روى عنه قوله (ﷺ) عندما جاء رجلان ليقضي بينهما: "إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر مثلكم ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أنا أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار".

وقد جاء في بعض الروايات أنه عليه السلام استقضى بعض الصحابة، منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو موسى الأشعري. وبالرغم من اختلاف الرواة فيمن بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي اليمن وطبيعة إيفادهم على وجه التحديد ، - فبعضهم يرى أنهم أرسلوا ولاة ، والبعض يرى أنهم للصلاة وتعليم الناس. وعلى أي حال - يمكن أن نستنتج أن القضاء كغيره من وظائف الدولة الإدارية لم يكن موجوداً على وجه محدد، وكل ما هناك أن إيفاد بعض الصحابة كان نيابة عن الرسول في أمور تتعلق بشؤون الأمة، كالإمارة على الجيش ، أو العمل على جباية المال ، أو للإمامة في الصلاة وتعليم القرآن ، و لم يبعثهم قضاة، وإنما كان ذلك ضمن مهامهم .

كان القرن الأول الهجري أهم حقبة في تاريخ التشريع الإسلامي؛ ففيه استبدل كثير من طرق التحكيم المأخوذة من العادات والتقاليد بما يتلاءم والنصوص الصريحة في القرآن الكريم، وكان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم (11-40هـ /632-

661م) هم القادة السياسون بعد وفاة الرسول، وإن لم يكونوا المحكمين للناس، وكان بعضهم يلجأ إلي كبار الصحابة للتحكيم في الخصومات بين الناس، و لم يثبت أهم استقضوا قضاة ، وقد جاءت روايات على أن الولاة الذين عينهم الخلفاء ، كانوا مثل الخلفاء يباشرون كل الأعمال من قضاء وغيره. قال مالك: "ما استقضى أبو بكر ولا عمر قاضياً ، وما كان ينظر في أمور الناس غيرهم".

ومن ثم يمكن القول: إن الخلفاء في المدينة كانوا يباشرون القضاء بأنفسهم – مع استشارة كبار الصحابة – وإنهم لم يكن لهم قضاة، و لم تقم في هذا العهد إدارة قضائية.

ومن الطبيعي هنا أن نشير إلي الرسالة القضائية التي بعث بها الخليفة عمر بن الخطاب (13-23هـ/634-643م) ، إلي أبي موسى الأشعري الوالي على البصرة ، والتي اعتبرها بعض الكتاب أساساً لبناء أصول الحكم والشهادة في القضاء الإسلامي والتي جاء فيها : "أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك ؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . واس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك، الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك ويشكل عليك مما لم يترل في الكتاب ، و لم تجر به سنة ، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعضها ببعض ، فانظر أقربها إلي الله ، وأشبهها بالحق فاتبعه، واعمد إليه، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك فإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، أو بينة عادلة فإنه أثبت للحجة وأبلغ في العذر، فإن أحضر بينة على ذلك الأجل أخذ بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، إن الله تعالي تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشبهات. وإياك والغلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصم في مجالس القضاء التي يوجب الله فيها الأجر، ويحسن منها الدخر، من حسنت نيته وخلصت فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس، والصلح جائز فيما بين الناس إلا ما أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شأنه الله ، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل دنيا وآجل آخرة ، والسلام ".

وإذا ألمحنا بشيء من الإيجاز إلي عصر بني أمية في عاصمتهم دمشق نجد أنهم قد خطوا الخطوة الأولى في تعيين القضاة ، ولعل ذلك يرجع إلي حاجة المجتمع الجديد باتساع حركة الفتوح الإسلامية، و لم يعد التحكيم كافياً ، ولذا استبدلوا الْحَكَم بالقاضي، فكانت السلطات القضائية منوطة بالوالي

الذي كان يعين القضاة، وكان القاضي نائباً له واحتفظ الوالي بحقه في عزله. وكان قضاء القاضي مقصوراً على المسلمين وحدهم ، أما غيرهم من الرعايا فقد احتفظوا بتقاليدهم الدينية و القضائية.

وكان من الطبيعي أن القضاة الذين مارسوا أعمال القضاء في العصر الأموي، هم الذين مهدوا بآرائهم الشخصية طريق الحياة الإسلامية، فقد حملوا الفقه والتشريع الأفكار الدينية والأخلاقية وأخضعوه لمبادئ الدين، وقد حققوا بهذا العمل عملاً تفصيلياً لما حققه الرسول بالقرآن بالنسبة للمجتمع الإسلامي الأول بالمدينة .وكان من الطبيعي جداً أن تزداد الدائرة القضائية اتساعاً، وأن يلجأ القضاة إلي تدوين أحكامهم ، فقد روى الكندي أن قاضي مصر سليم بن عتر(سنة39هـ/660م) اختصم إليه بعض الورثة في ميراث لهم فقضى بينهم، ولكنهم تناكروا ورجعوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه بعض الشيوخ ، فكان بذلك أول قاض سجل أحكامه. ويرى البعض أن عصر بني أمية قد تميز في مجال القضاء بإنشاء محكمة للنظر في المظالم ، وهي تعادل المحكمة العليا ، أو " المحكمة الاستئنافية العليا " في عصرنا الحاضر. والواقع أنها كانت جامعة لاختصاص القضاء وهيئاته المختلفة ، فقد كان يرأسها الخليفة نفسه. وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65 - 86هـ / 680 - 705م) أول خليفة أنشأ ديوان النظر في المظالم ، وحدد يوماً معلوماً في كل أسبوع للنظر فيما يرفع إليه من قضايا عجز القضاة عن ردع أصحابها ، نظراً لقربهم من الخليفة ، أو لشغلهم مناصب كبيرة في الدولة . و لم يكتف الخليفة بإصدار الأحكام ، ولكنه ألزم أصحابها التقيد بما صدر من أحكام مهما كانت مكانتهم في الدولة أو قرابتهم من الخليفة .

ثم جلس لولاية المظالم من بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-720م) ، الذي ردَّ مظالم بني أمية عن المظلومين بعد أن عجز القضاة عن إنصافهم. وقد كانت محكمة النظر في المظالم تعقد في المسجد الجامع علي وفق ترتيبات خاصة لإدارتها .

وهكذا خطا القضاء خطوات مهمة في عصر دولة بني أمية ، مستفيداً من ذلك التراث الذي ورثه عن عصر النبوة والخلافة الراشدة.

وفي العصر العباسي(132-656هـ/750-1258م) الذي يعتبر العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية المتجددة، وهو عهد ازدهارها وثرائها ونضوجها وإنتاجها في مختلف شؤون الحياة وميادينها، وفيه وضعت قواعد القضاء ونظمه واشتهر أفراد من رجاله، وتكاتفت قوى العرب والمسلمين العقلية والمادية على مواصلة الإبداع في الميادين العقلية ، كالعلم والسياسة والنظم الإدارية،

وكانت المساجد الجامعة في المدينة ومكة والكوفة والبصرة وبغداد ودمشق ومصر والقيروان وقرطبة معاهد تموج بحركة علمية، أنتجت للمسلمين أفضل العلماء وأجود المؤلفات .

وبطبيعة الحال فقد تأثر النظام القضائي في العصر العباسي واتسعت دائرته اتساعاً لم يسبق له مثيل من قبل ، فقد أضافوا إلي النظر في المنازعات الجنائية والخلافات المدنية التي كان يشتمل عليها نظام القضاء في العصر الأموي، أضافوا إلي ذلك الفصل في دعاوى الحبوس (الأوقاف) وتنصيب الأولياء ، وربما أسندت إلي القاضي بعض الاختصاصات الأخرى مثل ولاية الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة وسك نقود بيت المال ، بل كان يضاف إليه في بعض الأحيان قيادة الجيوش . فقد جمع بن خلدون صلاحيات القاضي في هذا العصر قائلاً: "استقر منصب القضاء في عصر العباسيين على أن يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، بالنظر في أحوال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامي عند فقد الأولياء ... والنظر في مصالح الطرقات والأبنية، وتصفح الشهود ".

وعلى أي حال فإن القضاء في العصر العباسي عامة قد تعقد بسبب ما طرأ على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من تغيير في أساليب الحياة ، فضلاً عن ظهور المذاهب الأربعة ، والتزام القضاة بأحد هذه المذاهب ، فكان القاضي في العراق يقضي علي وفق المذهب الحنفي في حين ساد المذهب الشافعي في مصر، والمذهب المالكي في الشام والأندلس والمغرب. ونتج عن ذلك أن أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة .

ومنذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (136-158هـ/ 753-774م) ظهر ما يلفت النظر في النظام القضائي ، وهو إيجاد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضي ، يقول الكندي في ذلك : " كان القضاة إذا شهد عندهم أحد ــ وكان معروفاً بالسلامة ــ قبله القاضي، وإن كان غير معروف بها أوقف ، وإن كان الشاهد مجهولاً لا يُعرف ، سئل عنه جيرانه ، فما ذكروه من خير أو شر عمل به ، حتى كان غوث بن سليمان في خلافة المنصور ، فكان أول من سأل عن الشهود بمصر في السر ، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزور في زمن غوث ، وكان من عدل عنده قَبلَهُ ، ثم يعود الشاهد واحداً من الناس ، ولم يكن أحد يوسم بالشهادة ولا يشار إليه بها . ثم جاء القاضي العمري على قضاء مصر من قبل الرشيد ، فاتخذ الشهود وجعل أسماءهم في كتاب ، وهو أول من قبل ذلك ودونهم وأسقط سائر الناس ، ثم فعلت القضاة ذلك بعده حتى اليوم.

إن التثبت في شهادة الشهود والمبالغة في المسألة عنهم والفحص عن وجوه عدالتهم والبحث عن حالتهم من أهم واجبات القاضي.

ومنذ مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، أصبح الشهود من العمال الثابتين بعد أن كانوا في أول الأمر من حاشية القضاة الأمناء الذين يوثق بشهادقم ، وكانت جلسات القضاء علنية ، حيث يجلس القاضي في مكان لا يمنع أحد من المسلمين من الدخول إليه ، وهو المسجد الجامع ، متصدراً بجانب أسطوانة من أساطينه وربما جلس القاضي في داره ، وربما في مناسبات أخرى تكون جلسة القاضي في غير الأماكن المشار إليها ، فقد خاصم الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ / 813-834م) رجلاً مرة ، وأذن المأمون للقاضي يحيي بن أكتم في القضاء بينهما في دار الخلافة .

إن صلاحيات القاضي واختصاصه تكون كثيرة إذا كانت ولايته عامة ، أما إذا كانت خاصة فإنها تكون مقصورة على خصوصها ، ولايجوز له أن يتعداها ، ومن هؤلاء من قلد القضاء في داره أو المسجد ، وهو ما يسمونه " قاضي المسجد " الذي كان لا يتعدى موضعه ويحكم فيما قدر له من القضايا الصغيرة .

وفي عصر الخليفة هارون الرشيد(170-193هـ/786-808)، استحدث منصب قاضي القضاة ، الذي له الرئاسة على جميع القضاة ، فضلاً عن استنابتهم عنه في الأقاليم . وأول من تولى هذا المنصب القاضي أبو يوسف يعقوب ، صاحب أبي حنيفة وذلك لعلمه ودرايته بالشؤون القضائية ، فكان أبو يوسف أفقه أهل زمانه ، وكان في غاية العلم والحلم والرياسة والقدر والجلالة، وهو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وقد ولاه الخليفة الهادي (169-170هـ/ 785-786م) القضاء ثم الخليفة هارون الرشيد .

أما النظر في المظالم ، فقد طورت هذه الهيئة في العصر العباسي، وأصبح لها نظام وهيئة خاصة ورجال مخصوصون لحضورها، كما أن الخلفاء العباسيين زادوا من عدد أيام انعقادها ، فبعد أن كان الخليفة الأموي يجلس يوماً واحداً في كل أسبوع ، صار الخليفة العباسي يجلس يومين فأكثر من كل أسبوع، وأول من جلس للنظر في المظالم من خلفاء بني العباس الخليفة محمد المهدي (158-169هـ/ 774-785) ، وقد سار على نهجه من جاء بعده من خلفاء بني العباس في رد الحقوق إلي أصحابها ، والتي اغتصبها منهم ذوي الجاه والسلطان . فنرى الخليفة عبد الله المأمون العباسي أنصف امرأة جاءت شاكية من ولده العباس ، فأمر برد ما أخذه منها ، وعوضها عما فقدته، وعنفه على رؤوس الأشهاد حتى إن

القاضي لفت نظر المرأة إلي أن صوتها يعلو بحضرة أمير المؤمنين، فرد عليه أمير المؤمنين بقوله: " دعها ؛ فإن الحق أنطقها وأخرسه ".

وفي سنة (429هـ/1037م)، زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله، استحدث منصب "**أقضى القضاة**" وتولاه الماوردي، وكان هذا المنصب دون مترلة قاضي القضاة في بغداد . وقد قُلد الماوردي هذا المنصب اعترافاً بجهوده في دعم الخلافة العباسية "**السنية**" منذ خلافة القادر بالله العباسي، إذ حمل لواء الخلافة ضد السيطرة البويهية الشيعية.

إن منصب القاضي مثل بقية المناصب الإدارية الأخرى في الدولة ترتقي وتزدهر وتنتكس في فترات أخرى ، فقد ارتفعت مترلة القضاة في عهد الخليفة عبد الله المأمون ،ومن بعده أخيه المعتصم بالله (218-722هـ/833-841م) ، فقد عهد المأمون إلي قاضيه أبي محمد يحي بن أكتم بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء وأهل العلم في بغداد ، كذلك رفع المأمون من مترلته ، فكان إذا ركب المأمون في سفر ركب معه بمنطقة وقباء وسيف بمعاليق وشاشية، وإذا كان الشتاء ركب في أقبية الخز وقلا نس السمور والسروج المكشوفة.

وبلغ من أهمية القاضي بن أبي داود أن الخليفة المعتصم لم يكن يبت في أمر إلا برأيه ، ونتج عن تطور القضاء في هذا العصر أن أصبحت سلطة القاضي واختصاصاته كثيرة . فبعد أن كان ينظر في الخصومات المدنية والجنائية أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء، وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والحسبة ودار السكة وبيت المال. وكان لكل ولاية من ولايات الدولة العباسية قضاة يمثلون المذاهب المختلفة ؛ حسماً لتراع ، وفضاً للخصومات.

أما في بلاد المغرب وبخاصة في إفريقية (**تونس**) التي كانت تحت سيطرة بني الأغلب منذ أن قلد هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب ولايتها سنة (184هـ/800م)، وحتى سقوطها على يد الفاطميين عام (296هـ/909) ، فإن قبول منصب القضاء من جانب بعض العلماء لم يكن أمراً هيناً، وثمة أمثلة عديدة عنه في كل فترة .

ولعل أهم أسباب رفض بعض العلماء منصب القضاء ما ورد في القرآن الكريم ، وفي عدة أحاديث نبوية شريفة ، من عبارات تحذير حول الموضوع ، مثال ذلك الآية الكريمة : "وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ"(سورة المائدة، الآية 47) وفي الحديث النبوي الشريف: "من ابتغى القضاء وسأل ، وَكِّلَ إلي نفسه ، ومن أكره عليه ، أنزل الله عليه مَلَكاً يسدده ". ومن أفضل الأمثلة على ذلك الفقيه الشهير سحنون بن سعيد التنوخى الذي ولى القضاء في القيروان سنة (234 هـ/ 849 م)

علي غير إرادته كما يبدو ، فقد روى الدباغ و ابن ناجي في كتابهما " معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان " ، ذلك بالقول : " ولي سحنون القضاء بعد أن أدير عليه حولاً وأغلظ عليه أشد الغلظة ، وحلف عليه محمد بن الأغلب بأشد الأيمان . وقال سحنون: " لم أكن أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير ضمينان : أحدهما [أنه] أعطاني كل ما طلبت ، وأطلق يدي في كل ما رغبت ، حتى إني قلت له : " أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانهم فإن قِبَلَهم ظلامات للناس وأموال لهم منذ زمن طويل ؛ إذ لم يجترئ عليهم من كان قبلي فقال لّي : نعم ، لا تبدأ إلا بهم ، وأجر الحق على مفرق رأسي ... لما تمت ولاية سحنون تلقاه الناس فرأيته [المتكلم سليمان ابن سالم] والكآبة في وجهه ما يتجرأ أحد أن يهنئه . فسار حتى دخل على ابنته خديجة ، وكانت من خيار الناس، فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين. فعلم الناس قبوله القضاء.

وعلى أي حال فإن ما قاله سحنون لابنته خديجة : ذبح أبوك بغير سكين إشارة إلي الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم:" من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين" .

ومن الجدير بالذكر أن التردد في قبول منصب القضاء لا نجده منذ أقدم الأزمنة إذا تجاوزنا رفض الإمام أبي حنيفة قبول هذا المنصب في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور . ويبدو أن أول من أبدى تحفظاً في الأمر كان عبد الله بن فروخ الذي حاول روح بن حاتم أن يوليه القضاء حوالي سنة (173هـ/ 789م)، وقد رفض بن فروخ تولى المنصب رفضاً تاماً ، و لم يرضخ إلا عندما كان روح بن حاتم على ـ ما يبدو ـ يوشك أن ينفذ تهديده بطرحه من سقف الجامع، وبالرغم من ذلك فإن الأمر احتاج إلي إجلاسه بالقوة في الجامع للقيام بواجباته ، ولما تقدم إليه خصمان، أجهش بن فروخ بالبكاء، وأخيراً رجا الخصمين إعفاءه من المهمة ففعلا إشفاقاً عليه ، وحيال هذا التصرف وجد الأمير روح بن حاتم نفسه مضطراً إلي البحث عن قاض آخر ، وتطالعنا كتب التراجم والطبقات المتخصصة في أمور القضاء والقضاة بعدد كبير من القضاة الذين ترددوا أو أكرهوا على قبول منصب القاضي، ومن ثم الاستدلال بها مجرد نموذج لنوع الرفض الذي أبدياه.

وفيما يختص بتولي القضاة وعزلهم، ينبغي ألا يغيب عن البال التمييز في الدولة الإسلامية بين كبير القضاة في الدولة ومن دونه من القضاة. إذ إن جميع السلطات يتقلدها الخليفة من الناحية النظرية الذي يحق له وحده أن يخولها لنواب عنه يمارسون في ميدانهم الخاص جميع سلطات الخليفة. وفي الميدان القضائي يمارس السلطة كبير القضاة الذي حاز لقب " **قاضي القضاة** " ـ كما سبقت الإشارة إلي أبي يوسف قاضي قضاة الخليفة هارون

الرشيد ـــ وفي بلاد المغرب فإن اللقب المقابل له عادة هو " قاضي الجماعة " ؛ إذ يذكر المقري ذلك صراحة بأن قاضي الجماعة يقابل قاضي القضاة عند المشارقة .

ومن المرجح أن التسمية " قاضي الجماعة " من أصل أندلسي؛ إذ يقول الخشني " أنه لما دخل عبد الرحمن الداخل قرطبة سنة (138هـ/755م) ألفى فيها يحيى بن يزيد قاضياً فثبته على القضاء و كان من قبل ذلك يقال له وللقضاة قبله: فلان قاضي الجند . فلما امتنع [يوسف بن عبد الرحمن] الفهري بغرناطة ، واضطره الأمير عبد الرحمن إلي النزول اشترط حضور القاضي يحيى ، فحضر وكتب في كتاب المفاوضات، وذلك بمحضر يحيى بن يزيد قاضي الجماعة. قال محمد [بن حارث الخشني] : هكذا أبلغني ، وقد رأيت سجلاً عقده محمد بن بشير قاضي الجند بقرطبة . وأن تسمية القاضي بقاضي الجماعة اسم محدث لم يكن في القديم.

ومن ثم يمكن أن نستنتج أن تسمية قاضي الجند ظلت تستعمل حتى حوالي سنة (140هـ/757م)، وبعدها بدأ استعمال تسمية قاضي الجماعة، ومع ذلك فإن هذه التسمية لم تبطل استعمال تسمية قاضي الجند لعدة سنوات بعد ذلك، ولعله يبدو أن قضاء الجند انتهى العمل به بعد بن بشير (ت198هـ/813م) ، فإنه يمكن الافتراض– على وجه التقريب – بأن تسمية قاضي الجماعة أخذت تستعمل دون غيرها بعد حوالي سنة (200هـ/815م) .

وهذه الدرجة من التنظيم قد يبدو أنها جاءت متأخرة نسبياً ، مع أنها تقابل ما أدخله العباسيون من دعم ومركزية في الإدارة ، ونهاية سلطة الخليفة في المغرب معاصرة تقريباً لتعيين هارون الرشيد لقاضي القضاة في بغداد، ولذلك فإنه يجب ألا يتوقع بأن قضاة إفريقية يلتزمون بالقواعد التي تقررت في بغداد فيما بعد .

وبعد سيطرة الفاطميين على إفريقية والقضاء على الدويلات المنتشرة في بلاد المغرب ، كدولة الأغالبة ودولة بني مدرار ودولة بني رستم ، وتهديد الأدارسة بين حين وآخر (انظر الدراسة الخاصة بهذا الموضوع)، فإن الفاطميين لم يولوا القضاء إلا للقضاة الشيعة الذين اشتطوا في أحيان كثيرة في تعاملهم مع العامة ، وبخاصة الذين كانوا على مذهب الإمام مالك وهم أغلب السكان وفيهم العلماء ، الذين رفضوا تولى القضاء في عهد الدولة الفاطمية ؛ لأن الفاطميين لا يعينون – وبخاصة في القيروان– إلا قاضياً شيعياً، ومع ذلك فإنه كان من الممكن أن يلي القضاء عالمٌ مالكي المذهب ؛ إذ أن محمد بن أبي المنصور قد أكره على قبول منصب القاضي علي غير إرادته وقد توفي وهو لا يزال يلي القضاء في سنة (337هـ/948م). وكذلك في

سنة(386هـ/996م) نسمع عن قاض للقيروان هو محمد بن عبد الله بن هاشم الذي كان مالكياً ، على الأرجح ، وقد عرض منصب القضاء علي قاسم بن خلاء الواسطي بعد أن دعوه إلي التشريق [أي أن يصبح شيعياً] ووعدوه بقضاء باجة ، فلما شرق قيل له : قد استغنينا عن قاض لباجة ، ويفهم مما أورد الخشني أن أحمد بن بحر كان لتشرقه الفضل في توليه المناصب القضائية التي انتهت بتعينه قاضياً للقيروان .

ومن المناسب جداً أن نوضح منصب قاضي الجماعة بالمدلول الصحيح. ففي الأزمنة الأولى كان القاضي في المدينة الرئيسة بحكم منصبه قاضي الجماعة ، وهو ما ينطبق على قاضي القيروان بالرغم من أن القيروان لم تكن دائماً هي المدينة الرئيسة . فالأغالبة أقاموا في رقادة منذ عام (263هـ/876م)، وهي في الواقع ليست بعيدة عن القيروان، وأقام الفاطميون في المهدية إلا أن كبير القضاة في عهد هاتين الدولتين كان قاضي القيروان. ولعل الكثافة السكانية في هذه المدينة كان لها دور في ذلك .

ولا شك أن القضاة الذين يورد بعض المؤلفين أسماءهم عند ذكر سلطان ما على أنهم " قضاته " إلي جانب كتابه وحُجابه ، ينبغي أن يعتبروا قضاة الجماعة لاعتبارات ، أهمها أنه يعين مباشرة من قبل رئيس الدولة أو نائبه، ومن هذه الناحية يجب أن يعتبر قاضي الجماعة من كبار موظفي الدولة إلي جانب الوزير والكاتب اللذين يستمدان سلطيتهما من السلطان مباشرة ، لا بل تعيين قاضي الجماعة بمثابة إعلان الحاكم لاستقلاله كسك العملة وذكر اسم الحاكم في الخطبة .

من جهة أخرى فإن قاضي الجماعة هو الذي يعين صغار القضاة فسحنون مثلاً عين عبد الله ابن سهل القيرياني قضاء قسطيلية ، وولى شجرة بن عيسى قضاء مدينة تونس . ومع أن الحالات التي يتدخل فيها السلطان مباشرة لتعيين القضاة قليلة إلي حد ما لكن مثل هذه الحالات احتفظت لنا بها بعض كتب السير والطبقات. فالأمير إبراهيم الثاني بن أحمد الأغلبي (261-290هـ/874-902م) ، ولى شخصياً قاضين لمدينة طرابلس الغرب هما أحمد بن وهب وموسى القطان، كما ولى قاضياً لمدينة قسطيلية هو بن البناء ، ولكن يبدو أنه حتى هذا السلطان لا يول دائماً اهتماماً شخصياً للأمر ؛ إذ إن بن طالب أحد قضاة الجماعة في عهده ذكر أنه ولى عبد الله ابن هارون قاضياً لمدينة تونس .

وفي عهد الفاطميين (296- 361هـ / 909 - 971م)، يمكن أن نذكر على سبيل المثال علي بن منصور الصفار ، الذي ولى قضاء ميلة ، لا من قبل السلطان ، بل من قبل كاتبه أبي جعفر البغدادي .

كما كان من بين اختصاصات قاضي الجماعة تعيين صاحب المظالم ويبدو أن سحنون هو الذي استحدث هذه الخطة في إفريقية ، إذ إن أول مرة يرد فيها ذكر الخطة سنة (237هـ/851م) حينما ولى الخطة حبيب بن نصر التميمي.

أما صلاحيات قاضي الجماعة فإنها متشعبة وغير واضحة المعالم ، وربما كانت تلك سمة عامة في أعمال الإدارة عموماً قبل أن تحدد الاختصاصات وتحدد بدقة بعد ذلك لأننا نجد أن عدداً من الاختصاصات التي كان يمارسها القضاة قد آلت إلي المحتسب وصاحب الشرطة أو صاحب المظالم . والجدير بالذكر أنه قلما نجد على ما يبدو ميداناً ليس لقاضي الجماعة دور فيه مثل السياسة المالية والعسكرية .

يقول المالكي : إن الأمير إبراهيم بن أحمد فوض إلي بن طالب أمر النظر في الولاة والجباة والحدود والقصاص والعزل والولاية ، وأمره بقطع المنكر والملاهي من القيروان، فضلاً عن واجباته العادية من إصدار الأحكام وإدارة شؤون اليتامى والزواج وما في حكمه .

وهذا الغموض في الصلاحيات كان من شأنه أن يفسح للقاضي مجالاً أرحب للتأثير بشخصيته ، فنجد مثلاً فقهاء قضاة أقوياء وشهيرين كسحنون ابن سعيد التنوخي وأسد بن الفرات ، فسحنون كان مضرب المثل ، ويذكر كمجدد لشخصية القاضي واختصاصاته ، إذ يورد الدباغ وابن ناجي قائمة بالسنن التي أقامها، وهي جديرة بالإشارة إليها ، فأولاً كان سحنون أول قاض فرق حلق أهل البدع من الجامع، وكانوا فيه حلقاً من الصفرية والإباضية والمعتزلة يتناظرون فيه ويظهرون زيغهم، وعزلهم أن يكونوا أئمة للناس أو معلمين لصبيانهم، وأدب جماعة منهم بعد ما خالفوا أمره ، وثانياً كان سحنون أول قاض جعل في الجامع إماماً يصلي بالناس ، وكان ذلك للأمراء ، وثالثاً جعل الودائع عند الأمناء ، وكانت قبل في بيوت القضاة . فهل يعني أن القاضي تنازل عن بعض سلطاته الخاصة بالودائع؟ أو أنهم كانوا فقط مسئولين عن حفظ الأمانات ؟ ، ورابعاً كان أول من قدم الأمناء في البوادي ، فكان يكتب إليهم، وكان من قبل يكتب إلي جماعة الصالحين منهم، فأخذت القضاة بهذه السيرة بعده". ويبدو أن في هذا إشارة إلي طريقة اتساع سلطان القاضي حتى يشمل المناطق الريفية وهي سنة يقيمها القاضي سحنون بن سعيد هنا بطريقة أكثر دقة وانتظاماً ، وخامساً كان من عادة سحنون أن يجلس في بيت في الجامع كان بناه لنفسه ، فكان لا يحضر عنده غير الخصمين ومن يشهد بينهما في دعواهما . ويضيف الدباغ وابن ناجي بأن الجلوس في ذلك البيت ظل سنة عند قضاة المالكية بعد وفاة سحنون

، فإن تولى القضاء حنفي هدمه ، وعاد ضمناً إلي الطريقة السابقة ، وهي حضور المتخاصمين في جلسة علنية في الجامع.

إن كل المعلومات التي يمكن تجميعها عن القضاة تتصل بطبيعة الحال بالقضاة المشاهير الذين ولوا منصب قاضي الجماعة، وينبغي أن نعتبر الملاحظات السابقة وتجاوز الاختصاصات في القضاء لا تنطبق إلا عليهم ، ولمن أعطى صلاحيات واسعة من قضاة الجماعة .

كان القاضي في أغلب الأحيان يتلقى تدريباً في القيام بعمله كموظف أو قاض صغير ، فقد كان عبد الله بن هارون كاتباً لسليمان بن عمران، ثم ولى القضاء في مدينة تونس. وكان بن الخشاب كاتباً لابن طالب ولحماس بن مروان، وصاحب المظالم لعيسى بن مسكين ، كما كان قاضياً في رقادة . وهذه الأمثلة في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد .

إن الفترة المشار إليها تمثل فترة تطور في اختصاصات القضاة وصلاحياتهم ، ذلك أن القضاة الأول في القيروان لم يجدوا أمامهم مسئوليات تنوء بأعباء كواهلهم . ولم تكن لهم مبانٍ خاصة ، وكانوا في الغالب يجلسون في المسجد للنظر في الخصومات، ولكننا نسمع عن عقد جلسات على عتبات منازلهم ، أو حتى في الطريق . وقد كانت هذه بمقتضى السنة التي عليها بعض كبار الصحابة.

وهناك ملاحظة أخرى تميز بها القضاء في بلاد المغرب ، وهي أنه يشترط القاضي عند تعيينه ألا يأخذ أجرة من السلطان ، فكان عليه أن يكسب رزقه من عمل يحترفه فضلاً عن عمله في القضاء . فحماس بن مروان أبي أن يقبل راتباً ، كما أبي كل من عيسى بن مسكين ، وسحنون بن سعيد . ويستهدف هذا الشرط أن يكون القاضي مستقلاً عن السلطان في أحكامه، وبنفس الطريقة كان كثير من القضاة يعرضون أملاكهم أمام الناس، لكي يستطيعوا أن يروا بأنفسهم ما إذا كان سيزيد من في ثروته أثناء ولايته ، وثمة العديد من الحكايات في هذا الصدد، وهي في مجموعها تنم عن صفاء النية ، ولها دلالات وإن كانت مشكوكاً في صحتها . فقد أورد النباهي أنه بعد أن ولى ميمون بن عمرو القضاء في صقلية وقبل إقلاعه من سوسة قال: " يا أهل سوسة، هنا كسائي وجبتي وخُرجي بكتبي، وهذه السوداء تأخذ مني معها كساؤها وجبتها ، بهذا خرجت وانظروا بأي شيء أرجع " ، وبالطبع فإن ميمون يعود بممتلكاته دون زيادة ، فقد كان يعيش من غزل جاريته .

ويُذكر أن كل هؤلاء القضاة كانوا يتحلون بدرجة عالية من العدل والنزاهة وعدم المحاباة والتردد كثيراً قبل إصدار الأحكام ، فالقاضي الورع كانت هذه سمته ؛ لأنه يعلم أن حكماً غير صائب ربما ألقى بنفسه في التهلكة، وفي اختيار

قرار من بين عدة قرارات في قضية معينة ربما تكون جديدة غير قابلة للقياس عليها. فإن القاضي سحنون بن سعيد فكر مرة في قضية عرضت عليه، وقد أخبر سحنون السائل ، وقد نفد صبره، بأنه في حيرة ؛ لكثرة الآراء المتعلقة بالمسألة فقال السائل : "وأنت أصلحك الله لكل معضلة" فأجابه سحنون : " هيهات يا بن أخي ، ليس بقولك أبذل لك لحمي ودمي للنار ما أكثر ما لا أعرفه " .

ويلاحظ أن القاضي يجب أن يعطي حكمه في الحال ، وعلى أي حال فإن سلطة صاحب المظالم في أرجاء النطق بالحكم هي أحد الجوانب التي يختلف فيها عن القاضي ، ولعل ذلك يرجع إلي أن أحكامه قطيعة ولا يجوز الطعن فيها .

إن الأحكام التي كان يصدرها القاضي كانت تدون وتختم بختمه. وختم القاضي رمز مهم لمنصبه، وكثيراً ما يرد ذكره ، فقد رفع إلي إبراهيم بن الأغلب أن القاضي أبا محرز في وقت وضوئه كان يترع خاتمه من إصبعه ويطرحه في بيته، فيطبع به أهله ما أحبوا ، فوجه إليه إبراهيم خادمين فوجداه في هيئة الوضوء ، فقالا له : يقول لك الأمير أين خاتمك ؟ فقال لهما : ها هو ذا ، فإذا هو في عنقه معلق في خيط .

وعلى مستوى آخر فإن عهود الدول الأقل شهرة في بلاد المغرب، كبني مدرار، والرستيمون ، وبني زيري بن عطية ، فلا يعرف عن تنظيماتهم القضائية شيئاً .

أما أهل الأندلس فقد اعتبروا خطة القضاء من أعظم الخطط عند الخاصة العامة ، ولعل ذلك يرجع إلي تعلقها بأمور الدين، وتطبيقها على كل شرائح المجتمع بما في ذلك ولاة الأمر إذا اقتضى الأمر بذلك. وقد تطورت خطة القضاء في الأندلس تطوراً كبيراً ، ففي عصر الولاة (95- 138هـ/713- 755 م) الذي شهد حركة جهادية كبيرة، فضلاً عن الصراعات الداخلية، ومعنى هذا أن صفة الجندية كانت غالبة على أهلها ، ولهذا سمي قاضي تلك الفترة بقاضي الجند .

وتطالعنا المصادر بعدد من قضاة الجند ، لعل أشهرهم ثلاثة هم القاضي مهدي بن مسلم ، وهو من أبناء المسالمة ، والقاضي عنترة بن فلاح ، والقاضي يحي بن زيد التجيبي .

وخلال هذه الفترة كان والي الأندلس هو الذي يعين القاضي ، وإن كانت بعض المصادر تشير إلي أن يحي بن زيد التجيبي قد عينه الخليفة عمر بن العزيز(99-101هـ/ 717-719 م).

وقد وُصف هؤلاء القضاة بالورع والتقوى فضلاً عن براعتهم في الخطابة والبلاغة، وأنهم كانوا يرجعون الحق إلي أصحابه ، وكانوا يتقبلون النقد من الآخرين ويعملون على إصلاح ذاتهم، وقد

وجد تقليد أندلسي خلال هذه الفترة – عصر الولاة – أن الوالي هو الذي يعين القاضي. وقد اتسمت هذه الفترة القضائية بالتلطف مع الخصوم، والاستماع لكل ما يقولون ، وهو تقليد إسلامي بدأ منذ فجر الإسلام . ولعل ما أورده الخشني، والنباهي عن سيرة قضاة هذه المرحلة – عصر الولاة – يشير إلي أن مجالس القضاة كانت تقام في المسجد، وأن هناك وظائف تابعة لمنصب القاضي ، منها الفتيا والمشورة مع أعوان القاضي المعينين، وكذلك الشهود والمزكون (الذين يزكون حُجج الخصوم) .

وقد بقى منصب قاضي الجند بالأندلس ، وتولاه محمد بن بشير (ت198هـ/ 813 م). وبطبيعة الحال فإن أهل الذمة من اليهود والنصارى قد وجدوا الحرية الكاملة في تعيين قضاتهم وفض المنازعات التي تقع بينهم وفقاً للقوانين الخاصة بهم، ولذا وُجد قاضي العجم أو القومس . وعندما يقوم خصام بين مسلم وذمى فإن القاضي المسلم يقوم بالفصل في المنازعات، وعندها كان القاضي يجلس في رحبة المسجد لكي يتمكن أهل الذمة من الوصول إليه بسهولة.

وفي عصر الإمارة (138- 316هـ/ 755 -928م) شهد القضاء في الأندلس تنظيماً جديداً بفعل فترة الاستقرار التي شهدتها ، إذ نلاحظ أن عبد الرحمن الداخل (138 – 172هـ/ 755 -788م) وأبناءه من بعده قد حرصوا على اختيار القضاة من ذوي الكفاءة العلمية الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، ولذا فإن كتب التاريخ الأندلسي عند إشارتها لكل أمير أندلسيّ تشير إلي أهم قضاته.

ومن المناسب جداً أن نوضح مزايا نظام القضاء في عصر الإمارة وطبيعة توزيع القضاة:

1- قاضي العاصمة قرطبة يسمى قاضي القضاة أو قاضي الجماعة، وكانت سلطته لا تتجاوز حدود العاصمة؛ إذ إن قضاة الأقاليم يمارسون اختصاصاتهم دون الرجوع إلي قاضي الجماعة ، ومع ذلك فإن الأمير قد يستشير في بعض الأحيان قاضي الجماعة في تعيين ولاة الأقاليم، أو أن يقوم بالتحقيق مع قضاة الأقاليم إذا كلفه الأمير بذلك. وقاضي الجماعة يقيم في قرطبة ، في حين بقى منصب قاضي الجند أو قاضي العسكر قائماً لمرافقة القاضي للجند في أثناء الغزوات ، وربما جمع قاضي الجماعة بين منصبه ومنصب قاضي الجند ، عند خروجه مع العسكر في الغزوات التي يقودها الأمير ، مثل القاضي يحي بن زيد التجيبي.

2- امتناع عدد كبير ممن تولوا القضاء في الأندلس – في عصر الإمارة – عن أخذ راتب للقضاء، حيث كان بعضهم يقتات من عمل يده أمثال محمد بن إسحاق بن السليم ، كان يصيد الأسماك في نهر قرطبة ويقتات من ثمنها ، ولا يأخذ رزقاً من

الدولة . ومنهم من امتنع عن أخذ الأجور يوم العطل والجمع والأيام التي لم ينظر فيها للقضاء ؛ لانشغاله بأمور أخرى ، أمثال القاضي سليمان بن أسود الغافقي، وعمر بن شرحيل وغيرهم ، ومنهم من بقى على حاله أمثال القاضي محمد بن سلمة الذي كان يسكن داراً بالإيجار.

3- اتباع نظام المناوبة على منصب القضاء في الأندلس في عصر الإمارة، وبخاصة منصب قاضي الجماعة بقرطبة ؛ إذ يتولاه القاضي عاماً ، ثم يتولاه غيره .فقد تناوب على هذا المنصب القاضي معاوية بن صالح الحضرمي، والقاضي عمر بن شرحبيل المعافري، وإذا نسى الأمير عملية المناوبة ذكره القاضي صاحب الدور بهذا الأمر.

4- اتسم القضاة في عصر الإمارة بسمة الورع والتقوى والصلابة في إصدار الأحكام وتنفيذها ولو على حاشية الأمير. فنرى مثلاً القاضي نصر بن طريفة اليحصبي يقف بصلابة أمام الأمير عبد الرحمن الداخل حول قضية حبيب القرشي. وكذلك القاضي المصعب بن عمران قاضي الأمير الحكم الذي حكم حكماً عادلاً في قضية ضيعة أحد أهالي جيان متحدياً الأمير وقريبه العباسي بن عبد الملك الذي اغتصب هذه الضيعة . وكذلك القاضي محمد ابن بشير المعافري الذي اشترط على الأمير الحكم عند توليه القضاء شروطاً منها : أن أحكامه تطبق على الجميع من الأمير إلي حارس السوق، وقبل الأمير منه ذلك وله عدد من الأحكام التي أصدرها ضد إرادة الأمير.

5- كان قاضي الجماعة بالأندلس إذا أشكل عليه أمر قضائي استعان برأي زملائه من قضاة المشرق، وهو ما يجعلنا نعتقد بأن الصلات الفكرية المتبادلة بين العلماء تتجاوز حدود الخلافات السياسية ، فقد كان القاضي يحى ابن معمر قاضي الأمير عبد الرحمن الداخل إذا أشكل عليه أمر كتب إلي القاضي أصبغ بن الفرج وزملائه في مصر ، وكذلك فعل القاضي محمد بن بشير المعافري قاضي الأمير الحكم بن هنمام ، إذا أشكلت عليه مسألة قضائية كتب إلي القاضي عبد الرحمن بن القاسم . هذا فضلاً عن الرحلات المتبادلة بين العلماء — القضاة — إلي المشرق كرحلة القاضي عامر بن معاوية قاضي الأمير المنذر.

6- شهد عهد الإمارة بالأندلس أيضاً رحلة بعض قضاة المشرق إلي الأندلس ، فقد ذكر النباهي أن زيد بن الحباب رحل من الكوفة إلي الأندلس، وأخذ عن القاضي معاوية بن صالح الحضرمي حديثاً كثيراً.

7- وبحسب ما تردده بعض المصادر فإن نظام القضاء في الأندلس في عصر الإمارة كان مكتمل الجوانب، فهناك مجلس شورى أو المشاورة الذي يدعوه الأمير في أمر جلل ويشمل قاضي الجماعة وفقهاء الأندلس ، وسمي هذا المجلس في الأندلس

"مجلس النشمة " والذي نظر في بعض القضايا المهمة . وكذلك كان للقاضي أعوان يسمون "أعوان القاضي" ، ومهمتهم استدعاء الخصوم إلي مجلس القضاء في المسجد الجامع.

وقد كان للقاضي أمناء يعتمد عليهم في الإشراف على التركات والودائع. فضلاً عن كاتب مخصص له ، وكذلك يتبعه السجن لمعاقبة المخالفين وربما ساعد القاضي موظف عُرف بصاحب الوثائق الذي يقدم وثائق الدعاوى ؛ لكي ينظر فيها القاضي.

وقد استمرت تلك القواعد العامة المعمول بها في القضاء الأندلسي خلال فترة الخلافة (316 – 422هـ / 928 - 1013 م). فالخلفاء كانوا يختارون أفقه الناس لمنصب القضاء وأكثرهم ورعاً وتقوى ، ولعل القاضي المنذر بن سعيد البلوطي مثالاً لأولئك القضاة ، فقد تعرض للخليفة عبد الرحمن الناصر(300 – 350 هـ/ 912- 961 م) وانتقده علناً على إسرافه في بناء مدينة الزهراء، وكل الذي فعله عبد الرحمن الناصر أنه أقسم ألا يصلي وراءه في مسجد الزهراء، فكان يذهب إلي قرطبة ويصلي في مسجدها.

وقد أعطيت للقاضي خلال عصر الخلافة صلاحيات واسعة ، فكان عبد الرحمن الناصر إذا خرج من العاصمة ترك على قصره القاضي أسلم بن عبد العزيز ، فضلاً عن تكليف القاضي بمهمة السفير إلي كبار الأمراء ، والإشراف على الثغور ، وقيادة الجيوش إلي الشمال الأسباني ، كما هو حال القاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى ، والقاضي الحسن بن عبد الله الجذامي.

ومن سمات القضاء في عصر الخلافة الأموية بالأندلس :

1- إسراف بعض القضاة في معاقبة الجناة ، أمثال القاضي أسلم بن عبد العزيز. ويبدو أن تلك الظاهرة قد استهجنها بعض القضاة ؛ فلهذا نرى أن القاضي أحمد بن بقى بن مخلد، والقاضي محمد بن يبقى بن زُرب لم يستعملا السياط إلا لمن استحق ذلك من الفسقة والمارقين.

2- أضيفت إلي مهمة القاضي في هذه الفترة مهمة مطاردة أصحاب المذاهب الفلسفية، وبخاصة مطاردة أصحاب مدرسة بن مسرة الفلسفية المشهورة. وتولى هذه المهمة القاضي محمد بن يبقى بن زُرب بمتابعة أتباع هذه المدرسة ، ومحاججتها فكرياً ، وكذلك وضع كتاب يرد فيه على آراء بن مسرة. كما تولى بعض القضاة في قرطبة محاربة الملاهي ومجالس الطرب ، ويأمر أتباعه بكسر أدواتهم.

3- وفي فترة حجابة المنصور محمد بن أبي عامر ، فقد سمي قاضي الجماعة بقرطبة بقاضي القضاة. وأول من تسمى بذلك القاضي أبو العباس أحمد بن ذكوان ، وكان يشارك المنصور في كل غزواته ،

كما أمر له المنصور ببيت داخل القصر لكي يكون قريباً منه ويشاوره في معظم أموره .

4- وقد أضيف إلي القاضي بن ذكوان منصب الوزارة ، وولاية المظالم التي أعطيت إلي القاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد ابن فطيس، مع خطة الوزارة والصلاة ، وهي صلاحيات واسعة .

وخلال فترة الفتنة (399 – 422 هـ/ 1008- 1031 م) نلاحظ أن نظام القضاء قد أصابه الخلل الذي عم سائر نظم الأندلس، فقد تميزت هذه الفترة بما يلي:

1- انتهاك حرمة القضاء والتعدي على القاضي الذي أصبح أضحوكة بأيدي الغوغاء ، كما حصل للقاضي يحيى بن وافد الذي كاد يُصلب وقا سجن ومات في سجنه عام (404هـ/ 1013 م).

2- تعطيل خطة القضاء أكثر من ثلاث سنوات وبخاصة في عهد حكم سليمان بن الحكم (المستعين 403 – 407 هـ/ 1012-1016م) ، غير أن بني حمود أعادوها من جديد ، وعهدوا بها إلي القاضي عبد الرحمن بن بشر.

وعندما سقطت الخلافة الأندلسية عام (422 هـ/1031م) كان للقضاة نصيب في تركتها. فأبو حزم بن جهور قاضي الجماعة في قرطبة أسس دولة بن جهور. وكذلك فعل القاضي إسماعيل بن عباد قاضي إشبيلية الذي أسس إمارة بني عباد بها.

وبالرغم من أن تيار الفتنة قد جرف عدداً من القضاة الذين ركضوا وراء أهوائهم ، فأيدوا الانقسام والفرقة ، وكانوا سنداً لملوك الطوائف مبررين ظلمهم وطغيانهم ، وفي ذات الوقت فإن عدداً من القضاة الصالحين كانوا يدعون إلي وحدة الأندلس خشية إنهاء الوجود العربي الإسلامي فيها . ويأتي في مقدمة هؤلاء القضاة القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي وشاركه في هذا التوجه بن حزم الأندلس بنقده اللاذع لملوك الطوائف وشاركه في ذلك بن حيان الأندلسي.

وهكذا فإن القضاء في الأندلس قد أدي دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية الأندلسية العامة منذ الفتح ، كما شهد تطوراً سريعاً حتى سقوط الدولة الأموية عام 422 هـ/1031م . وما تبع ذلك من تدني منصب القضاء بسبب الفوضى التي سادت، وإن كان القضاة قد استعادوا مكانتهم في دعوتهم للوحدة الأندلسية في عصر ملوك الطوائف.

مرتبات القضاة :

كان الخليفة عمر بن الخطاب أول من خصص راتباً للقضاة ، ففرض للقاضي بن ربيعة خمسمائة درهم في كل شهر، وجعل لشريح قاضي البصرة مائة درهم ومؤنة من الحنطة. واستمرت رواتب القضاة على هذا النحو، زمن الخفاء الراشدين، ثم ارتفعت في عهد الدولة الأموية كغيرها من رواتب الجند والعمال، تبعاً لزيادة موارد الدولة.

وإذا كلف القاضي بمهام أخرى إلي جانب القضاء زاد دخله الشهري، فقد كان عبد الرحمن بن حجيرة قاضي مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان، يتقاضي مائتي دينار عن القضاء، ومائتي دينار عن القصص، ومثلها على بيت المال، كما كان عطاؤه مائتي دينار، وجائزته كذلك، فكان يأخذ ألف دينار في السنة. ولكن معظم القضاة زمن الخليفة عمر ابن العزيز (99-101هــ/717- 719م) كانوا لا يأخذون راتباً على القضاء ، لأنه رأى أنه لا يجوز للقاضي أن يتقاضى أجراً مقابل هذه الخدمة الدينية . وبلغ راتب القاضي في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد عشرة دنانير في الشهر ، كما ثبت من براءة وُجدت في ديوان مروان كانت قد صدرت إلي خازن بيت المال، بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه الشهري في ربيع الأول سنة (131 هــ/ 748م).

وقد زادت رواتب القضاة زيادة ملحوظة زمن العباسيين ، فكان عيسى بن المكندر قاضي مصر في عهد المأمون يتقاضى 270 دينارا في الشهر، وهو أكبر ما عُرف من رواتب القضاة زمن العباسيين . على أنه يرجح أن يكون هذا الراتب راتباً خاصاً . ومن الغريب أن القضاء قد تأثر بضعف الدولة العباسية ودخل عليه نظام الالتزام ، فكان القضاة يدفعون مبلغاً معيناً من المال ، ثم يقومون هم بجمع دخل القضاة لأنفسهم ، وهي طريقة عقيمة فرضتها ظروف الدولة واختلال إدارتها.

إن رواتب القضاة كانت تعطى حتى لا يضطر القاضي إلي قبول الرشوة فيحيد عن الصواب في إصدار الأحكام.

أما بالنسبة للقضاة في **دولتي المرابطين** (448-540هــ/1056-1145م) **والموحدين** ، فالمعلومات حول القضاء لا تزيد عن الفترات السابقة لهم إلا قليلاً جداً ، ولقد حظي الفقهاء بنفوذ كبير في عهد المرابطيين، وطبقوا مالكية من النوع الصارم جداً، وكان علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هــ/1106-1148م) لا يقطع أمراً في جميع مملكة دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يوصيه به ألا يقطع برأي ، ولا يصدر حكماً في صغيرة أو كبيرة من الأمور إلا بمحضر أربعة من الفقهاء. و لم يصلنا أسماء قضاة المرابطين المغاربة إلا ما أشار إليهم عبد الله بن بلقين ، وهما بن الأحسن السجلماسى ، وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودي .

وما يمكن أن نستخلصه عن القضاء في الدولة العربية الإسلامية أن اختصاصات القضاة لم تكن واضحة في بداية الأمر، ومع مطلع القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي أخذت دائرة اختصاص القضاة تتسع؛ لما لهذه المهمة من أثر فعال في الفصل

في المنازعات واستتباب الأمن وراحة المجتمع، ومن جهة أخرى فإن اختصاصات القضاة تتفاوت بين فترة وأخرى وبين قاض وآخر وبين سلطان وأخر ولكنهم جميعاً متفقون على أهمية القضاء ودوره في حياة الإنسان وتنظيم المجتمع .

7) الحسبة :

الحسبة لغة : العدد ، ويقال حسب الشيء عَدَّهُ ، واحتسب بكذا : إذا اكتفى به ، واحتسب على فلان الأمر : إذا أنكره عليه واحتسب الأجر على الله ، بمعنى ادخره لديه ، والحسبة مصدر احتسب والأجر على الله : نقول فعلته حسبة ، واحتسب فيه احتساباً. والاحتساب : طلب الأجر، والاسم الحِسبة (بكسر الحاء) بمعنى الأجر والاحتساب من الأعمال الصالحات ، واحتسبت فلاناً اختبرت ما عنده ، واحتسب فلان على فلان : أنكر قبيح عمله ، وفي الاصطلاح الفقهي فإن الحسبة : هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله ، تحقيقاً لقوله تعإلي " وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَةَ يَدْعُونَ إلي الْخَيْر وَيَأْمُرونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوَنَ عنْ الْمُنكَرِ وأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ"). سورة آل عمران ، الآية 104).

فالأمة الإسلامية هي أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه لا تستقيم أمور الأمة بدونهما ولا تتهذب نفوس أفرادها ، ويُصان الدين من الضياع ، وبها تحفظ المحارم والأعراض .

وقد كان من أهم خصائص الرسول عليه السلام أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر كما أن الله عز وجل قد خص الأمة الإسلامية بتلك الخاصة في قوله تعالي: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤمِنَات بَعْضُهمْ أَوْلِيَاء بَعضْ يَأْمُرونَ بالْمَعروفِ وَيَنْهَوَنَ عنْ الْمُنكرِ". (سورة التوبة، الآية 71).

و جعل ترك تلك الخصائص أو العمل بخلافها من صفات المنافقين في قوله تعإلي: "الْمُنَافِقُونَ والْمُنَافِقَاتُ بَعْضَهم مِنْ بَعضْ يَأْمُرون بالْمُنكَرِ وَيَنْهَونَ عنْ الْمَعرُوفِ".(سورة التوبة، الآية 67) .

والراجح أن وظيفة الحسبة قد ظهرت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما مرَّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال: أصابته السماء يا رسول الله ، قال: " أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غشنا فليس منا ".

وروى كذلك أنه في عهده كلف سعيد بن العاص بمراقبة سوق مكة، كما تولت نفس الوظيفة سمراء بنت نهيك الأسدية ، وهي تحمل سوطاً بيدها ، ولعلها كانت لأمور تتعلق بالنساء .

ويرى بعضهم أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي أوجد نظام الحسبة في الإسلام ، ووضع له قواعده وأصل له أصوله في الدولة ، فقد عرف عنه أنه كان يجوب الأسواق ودرته بيده ، وأنه استعمل عبد الله ابن غنبة ، وأم الشفاء الأنصارية على السوق في المدبنة ، ولعلها لأمور تتعلق بالنساء أيضاً . وفي العصر الأموي استمر نظام الحسبة معروفاً ، فقد نقلت لنا الروايات تعيين بعض

المحتسبين ، منهم سمرة بن جندب في ولاية زياد بن أبيه على البصرة ، الذي كان يستخلفه في غيابه، كما أشرف على سوق الأهواز ، وفي عهد يزيد بن عبد الملك (101-105هـ / 719-723م) شغل كل من مهدي بن عبد الرحمن ، ثم إياس بن معاوية حسبة الكوفة ، ثم تولى عاصم الأحول أمر الحسبة في الكوفة بعد ذلك .

ولعل الاهتمام بأمر الحسبة حتى نهاية العصر الأموي يرجع إلي المشاكل الناجمة عن المعاملات والسوق والصناعات، فإن السوق أصبحت مكاناً ثابتاً ومهماً في العراق منذ زمن الخليفة هشام بن عبد الملك(105-125هـ/723- 742م)، على الأقل – حيث أنشأ خالد القسري السوق في الكوفة ، وأنشأ بلال بن أبي بردة السوق بالبصرة ، كما أنشأ إسماعيل بن خالد سوق المدينة . ويبدو أن المشكلة الرئيسة التي كانت تبرز في الأسواق هي مشكلة المكاييل والموازين، ذلك أن الأقاليم التي كانت تضمها الدولة الإسلامية تستعمل منها أشكالاً محلية لها أسماء خاصة ، وهي موروثة من القديم ، كالإردب في مصر وفي بلاد الشام ، والصاع في الحجاز ، والقفيز في العراق ، فلما جاء الإسلام وأباح حرية التنقل ، كل ذلك أدى إلي نوع من الإرباك في عمليات البيع والشراء ، وبخاصة في المكاييل والأوزان والقياسات ، فضلاً عن أن المكيال الواحد لم يبق ثابتاً ، ويوضح ذلك قول الجاحظ : "والأمراء تتحبب إلي الرعية بزيادة المكاييل، ولذلك اختلفت المكاييل كالزيادي ، والفالج ، والخالدي حتى صرنا إلي هذا الملجم اليوم".

ومن الطبيعي جداً أن نشير إلي أن الحسبة في مفهومها الاصطلاحي والتطبيقي قد بدأت في عهد الرسول$ ثم أرسى قواعدها الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، إلا أن أول إشارة إلي الحسبة والمحتسب في كتب التاريخ الإسلامي ترجع إلي أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، على أساس لفظ الحسبة والمحتسب.

ومن جهة أخرى فإنه يمكن القول : إن وظيفة المحتسب نشأت متصلة في الدولة الإسلامية بالمكاييل والموازين في أول أمرها، ثم إن اختصاصات صاحبها قد ازدادت حتى شملت المشاكل الناجمة عن الصناعات والسوق، والاختصاصات التي تعقدت بتعقد الحياة الاقتصادية، وبازدياد الذين كان خلقهم أضعف من الثبات على ممارسة سلوك المسلم الصادق في تعامله مع غيره من بني البشر ، فضلاً عن كثرة أهل السوق، وأثرهم في الحياة العامة وفي توجيه الأخلاق ، ولذا فإن وظيفة المحتسب أخذت تدريجياً تمد مسئولياتها إلي ضبط الأخلاق العامة والإشراف، وبالنظر للصلة الوثيقة بين الأخلاق العامة والدين الإسلامي اعتبر الباحثون المتأخرون

أن هذه الوظيفة تجمع بين الدين والدنيا . ولعل ما أورده أبو الحسن علي بن محمد الماوردي يمثل التطور في اختصاصات صاحب الحسبة ، فقد أشار إلي أن من واجب المحتسب مراقبة السوق ، والتأكد من أن شروط البيع لا غش فيها وأن المشترى لابد أن يعلم بمواصفات البضاعة من حيث الجودة وعدمها، فضلاً عن مراقبة عملية البيع والشراء والوزن والكيل. وبإمكان المحتسب تعين نواب عنه وأعوان عند الحاجة والضرورة. على أنه من مهمات المحتسب أيضاً الرأفة بالحيوان ، وهو ما يوضح جانباً أخلاقياً في الحسبة . وفي وظيفة المحتسب جانب إجرائي يصل إلي حد فرض العقوبة أو التعزير ، مع ذلك فإن عليه ألا ينسى أن من مهامه القيام بمهمة التوعية والتثقيف في الأسواق والتجمعات درءاً للخطأ المحتمل الوقوع . وهو مسئول أيضاً عن حماية البيئة من التلوث وسلامة الطرق ونظافتها ، وعليه أن يطبق الشريعة الإسلامية على الأفراد دونما استثناء بغض النظر عما يتقلدون من وظائف وعلى المحتسب أن يكون قدوة في الشكل والمنظر والعناية بالنفس ، فضلاً عن الشروط الأخرى.

وفي كل الأحوال ، فإن كل ما تقدم يقوم دليلاً على أهمية الحسبة وفاعليتها في المجتمع وفي السوق، وأن للناس أيضاً آراءهم في المحتسب غير الجدير بالمسؤولية ؛ إذ أن منصبه له خطورته في اتخاذ الإجراء ونوعه والمحافظة على الشريعة الإسلامية وثوابتها الأخلاقية ، وأن الآداب العامة تأخذ حيزاً مهماً من واجبات المحتسب ويولونها أهمية كبيرة .

إن الدارس لكتب الحسبة يستشف عدداً من الواجبات التي توكل إلي المحتسب، والتي على أساسها يتم اختياره.

وكان من الطبيعي جداً أن يشهد العصر العباسي تطوراً في وظيفة الحسبة بسبب كثرة الفتوحات الإسلامية واتساع الحضارة ووجود المدنيات التي لم يكن للعالم عهد بها، فضلاً عن انتشار المذاهب الهدامة ، بالإضافة إلي الكوارث والآفات الطبيعية من أوبئة وقحط وما ترتب عليها من احتكار التجار للأرزاق وتحين الفرص لبيعها بأغلى الأسعار مما أوجب على الدولة حماية الناس .

ولقد أدت هذه الأسباب إلي زيادة أهمية الحسبة ورقي نظامها رقياً كبيراً جعل الولاة والحكام يعنون بها عناية خاصة، فقاموا بتنظيمها، ووضعوا قواعدها ، وحددوا اختصاصات ومسؤوليات متوليها، إذ كانت غالباً ما تسند إلي مشاهير الأئمة ، والذين لا تأخذهم في الله لومة لائم .

وفي كل الأحوال ، فإن نظام الحسبة بدأ بسيطاً ، ثم أخذ في التوسع والرقي حتى أصبحت له صلاحيات واختصاصات متعددة، ولعل هذا

الاتساع بدأ مع بداية الدولة العباسية ؛ إذ يشير بن الأثير في حوادث (157هـ/773-774م) أن المنصور قد ولى الحسبة في مدينة بغداد وأسواقها رجلاً يقال له : أبو زكريا يحيى بن عبد الله ، إلا أنه غضب عليه ؛ لا متغوائه العامة والسفلة فقتله.

وكان الخليفة أبو جعفر المنصور (136 - 158هـ / 753 - 774) يتصدر في أول النهار للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل والنظر في مصالح العامة، فكان يطلب من عمال البريد أن يكتبوا إليه يومياً " بسعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكول لتلافي المجاعات وبكل ما يعمل به الوالي ، وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث .

ويقال إن الخليفة المهدي (158-169هـ / 774-785) أنشأ هذا المنصب وتبعه في ذلك من جاء بعده من خلفاء بني العباس.

وجاء في المختصر: "أن نافع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم كان محتسباً للخليفة الهادي"، وبلغ الخليفة العباسي المعتضد بالله (279-289هـ/892-901م)، أن قطاناً قال في السوق: ليس للمسلمين ناظر في أمورهم، وأمر أن يؤتى به ، ولبس قباءه ، وأخذ حربة وجلس كالمغضب حتى فزع من كان يأنس به، وأدخل إليه شيخ ضعيف ، فقال له بصياح شديد : أنت القطان الذي قلت بالأمس ما قلت؟ فغشى على القطان ، فأمر به فعزل ناحية ، فلما جاؤوا به ، قال له: ويلك . مثلك يقول : ليس للمسلمين ناظر في أمورهم ، فأين أنا؟ ، وأي شغل شغلي ؟ قال: يا أمير المؤمنين ، أنا رجل سوقي ، لا أعرف غير الغزل والقطن ومخاطبة النساء والعامة ، وإنما اجتاز بنا رجل بايعناه شيئاً كان معنا فوجدنا ميزانه ناقصاً، فقلت هذا الكلام وعنيت به المحتسب لا غيره ، وأنا تائب أن أتكلم بما يشبه هذا، فقال الخليفة : يحضر المحتسب ويبالغ في الإنكار عليه لما غفل عن إنكار من هذا ؟ ويؤمر بتغييره ، وتتبع الطوافين وأهل الأسواق عليهم.

وتولى أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخي(ت 286هـ/899م) الحسبة في عهد الخليفة المعتصم بالله.

وفي سنة (321هـ/933 م)، تقدم والي الحسبة إبراهيم بن محمد بن علي بن بطحاء التميمي إلي الخليفة القاهر بالله (320-322هـ/932-933 م) بالمنع من القيان والخمر والنبيذ، ومنع أصحاب الزلابية أن يعيروا قدورهم لمن يطبخ فيها التمر والزبيب للأنبذة ، وقبض على المغنين من الرجال والنساء والحرائر والإماء، وقبض على جماعة من الجواري المغنيات ، وتقدم بيبعهن على أنهن سواذج.

وتولى أبو سعيد الإسطخري سنة (328هـ/939م) أمر الحسبة في بغداد ، وكان زاهداً ناسكاً عابداً ، ولي القضاء بقُمْ ثم حسبة

بغداد ، فكان يدور بها ويصلى على بغلة وهو دائر بين الأزقة .

وتقلد عبد الله أبو العباس بن الحسين بن أبي الشوارب أمر قاضي القضاة ببغداد، وهو أول من ضمن القضاء ثم الحسبة والشرطة .

وتولى أبو عبد الله الحسين (ت 391هـ/100)، حسبة بغداد في أيام عز الدولة بختيار بن بويه .

أما في مصر ، فإن الخليفة الحاكم بأمر الله (386-411هـ/ 996-1020 م) منع اللهو والغناء كما منع بيع المغنيات ، ومنع الاجتماعات بالصحراء ، كما أمر بمنع النبيذ، وحمله ، وألقى في النيل منه الشيء الكثير، ومنع النساء من زيارة القبور، كما منعهن من الاجتماع بشاطئ النيل.

وكان إبراهيم بن عبد الله بن حصن ابن أحمد بن حزم (ت 404هـ/1013 م) محتسباً في دمشق، ومن أعماله أنه كان بدمشق رجل يقلي القطائف ، وكان المحتسب يريد أن يؤدبه فإذا رآه القطائفي قد أقبل قال بحق مولانا امض عني فيمضي عنه ، فغافله يوماً وأتاه من خلفه وقال له : وحق مولانا ، لابد أن تنزل ، فأمر بإنزاله وتأديبه فلما ضرب بالدرة قال : هذه في قفا عثمان ، فقال المحتسب : أنت لا تعرف أسماء الصحابة ، والله لأصفعنك بعدد أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، فصفعه بعدد أهل بدر وتركه فمات بعد أيام من ألم الصفع ، وبلغ الخبر إلي مصر فأتاه كتاب الملقب بالحاكم يشكره على ما صنع وقال هذا جزاء من ينتقص السلف الصالح .

وفي سنة (412هـ/1021م) قلد أبو جعفر أحمد بن محمد السمناني الحسبة والمواريث ببغداد .

وفي عهد المقتدي بأمر الله تولى الحسبة أبو جعفر بن الخرقي ويروى عنه أنه كان يؤدب كل من يفتح دكانه يوم الجمعة ويغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم ، قائلاً : هذه مشاركة لليهود في حفظ سبتهم .

ولعل أكمل وأشمل مرسوم يبين وظائف المحتسب ذلك المرسوم الذي أصدره الخليفة العباسي المسترشد بالله ، عندما قلد علي بن الحسين الزيني ولاية القضاء مضافاً إليها ولاية الحسبة ، ومما جاء في سجل توليته : "وأمره بمراعاة أمر الحسبة ، فإنها أكبر المصالح وأهمها وأجمعها لنفع الناس وأعمها وأدعاها إلي تحصين أموالهم وانتظام أحوالهم وحسم مواد الفساد وكف يده عن الامتداد، وأن يتقدم إلي المستناب فيها بمداومة الاطلاع على كمية الأسعار والفحص عن مادة المخلوقات في الانقطاع والاستمرار ، ومواصلة الجلوس في أماكن الأقوات ومظائها، ليكون تسعيرها بمقتضى زيادتها أو نقصانها ، غير خارج في ذلك عن حد الاعتدال ، ولا مائل إلي ما يجحف بالفريقين من إكثاروإقلال، وأن يراعي عيار

المكاييل والموازين ، ليميز ذوي الصحة من المطففين ، فيقول لمن حسن اعتباره : مرحى ، ويقابل من ساء اختياره مما يجعله لأمثاله رادعاً يزن بالقسطاس المستقيم ، ويتجنب التطفيف بقلب من إضمار المعاودة سليم . قال الله تعالي " وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وإِذَا كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ". (سورة المطففين، الآيات 1-3).

وفي إطار الحسبة فإن العصر العباسي قد تميز بدقة التنظيم في أعمال الحسبة، فقد كان للمحتسب دار خاصة به ، تسمى دار الحسبة ، يقيم بها ويصرف منها جميع أعماله فضلاً عن استعانته بعدد من الموظفين منهم العرفاء والأعوان والنواب والشرطة.

إن مهمة عرفاء الحرف والصناعات هي مساعدة المحتسب الذي لا يمكنه القيام وحده بمهمة الكشف عن حالات الغش والتدليس في الأسواق، فضلاً عن أن العرفاء يختارون من أصحاب الحرف والصناعات ، فهم أدرى في معرفة أصول الحرفة وأسرارها وما يطرأ عليها من الغش والتدليس، ومن ثم يقومون بتزويد المحتسب بمعلومات كثيرة عن السلع الواردة والتسعيرة وحركة البضائع .

أما بالنسبة **لنواب المحتسب** على الحدود والسواحل والموانئ ، فإنهم يقومون بإمداده بمعلومات عن البضائع الواردة والصادرة، فضلاً عن الإشراف على مخازن التجار في حالة الرغبة في حجزها إلي وقت الحاجة إليها. ولعل الهدف من ذلك هو حماية الناس عند الأزمات الاقتصادية التي قد تتعرض لها الدولة. وقد يستعين المحتسب بالشرطة لتنفيذ قراراته بالقوة.

أما مكان المحتسب في مراقبة الأسواق ، فإنه يجلس على دكة مرتفعة بارزة يمكن للناس مشاهدته معلق بجانبه الأسواط والدُّرر، وهي عدة المحتسب في إيقاع العقوبة على المخالفين.

وهكذا فقد وصل نظام الحسبة زمن العباسيين خلال الفترة (132-447 هـ /750- 1055م) إلي ذروته دقة وتنظيماً ، ونال عناية الخلفاء والفقهاء لما قدمه من خدمة للصالح العام .

وإذا ما انتقلنا إلي **نظام الحسبة في الأندلس والمغرب** ، فإن هذا النظام قد عرف منذ وقت مبكر، وإن كان المصطلح المستخدم هو اسم " أحكام السوق " حتى فترة متأخرة ، إذ ينص بن بشكوال الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في ترجمة أحد المحتسبين بقوله: إنه ولى أحكام الحسبة المدعوة عندنا "بولاية السوق" ، وقد حفظت لنا المصادر تراجم لبعض من ولوا السوق في الأندلس خلال القرنين الأولين من حياتها الإسلامية.

ويتضح لنا من خلال هذه التراجم مدى ما أولاه الأندلسيون للسوق من عناية واهتمم منذ فترة مبكرة، إذ يذكر بن الفرضى في ترجمته لقرعوس بن العباس بن قرعوس القرطبي (ت220هـ/ 835م) ، أحد تلاميذ الإمام مالك بن أنس أن أباه كان يتولى السوق بالأندلس ، فكان قاسياً في معاملة أهل الريب ، ويضرب الناس ضرباً شديداً، وقد ظلت شدته تقلق ضمير ابنه قرعوس حتى سأل الإمام مالكاً فيما إذا كانت قسوة أبيه تلك ستحسب عليه من سيئاته يوم القيامة. ويبدو فيما حفظه لنا بن الفرضي من أخبار العباس بن قرعوس هذا أنه كان من قوة الهيبة والنفوذ بحيث إن أحكامه كانت تسرى حتى على الأمير الأموي في عصره ، حتى إنه عندما اشتكى بعض خاصة الأمير من عنف قرعوس وتعامله حتى مع خاصة الأمير أجاب الأمير : هذا قوة لملكنا.

ولعل من مظاهر اهتمام الأندلسيين بما يتعلق بالمعاملات أن بعض مشاهير الفقهاء كانوا يختصون بفتوى أهل السوق ، مثل محمد ابن فيصل الحداد القرطبي (ت327هـ/ 938م). وقد كان اعتماد الأندلسيين في الأعم والأغلب على موطأ مالك في أحكام المعاملات ، إلا أن الموطأ لم يكن ليستوعب كل المسائل التي يحتاجها الناس في تنظيم معاملاتهم في السوق، فلم يكن لهم بد من اللجوء إلي تلاميذ مالك من بعده وبخاصة عبد الرحمن بن القاسم (ت 191هـ/806م)، وعنه أخذ علماء المالكية في الأندلس وبلاد المغرب.

ولعل أول من ألف من الأندلسيين في المعاملات والبيوع هو عيسى بن دينا (ت 212هـ/827 م)، من تلاميذ بن القاسم الأندلسي، وأكثرهم عناية بتلقي العلم عنه، وألف " كتاب الهداية " في عشرة أجزاء، ويهمنا من هذه الموسوعة الجزء الذي يتناول فيه عيسى "**البيوع**" فقد كان مثار إعجاب العلماء في عصره، وبعد ذلك بزمن طويل . وينص بن الفرضى على أن أحد تلاميذ عيسى – وهو أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم (ت258هـ/871م) – خرج إلي المشرق بكتاب البيوع فعرضه على الفقيه المالكي بن الماجشون تلميذ الإمام مالك، وقرأه عليه فصلا فصلاً، فأبدى هذا إعجابه الخالص بالكتاب وثناءه على مؤلفه. وتحدث بن حزم عن هذه المجموعة الفقهية، واختص بالذكر كتاب البيوع من بينها.

إن فقهاء الأندلس من أمثال عبد الملك بن حبيب (ت238هـ/852 م)، صاحب الواضحة والعتبي (ت 255هـ /868م) صاحب المستخرجة أو العُتّبية، ويحي بن إبراهيم بن مزين (ت259هـ/872م) صاحب تفسير الموطأ ، ومالك بن القطني(ت268هـ /881م) ، صاحب المختصر الذي وضعه في الفقه ، وهي كتب تناولت أحكام المعاملات

والبيوع في بعض أبوابها ، وهي في صحيح التأليف في الحِسبة في دورها الأول. ونقل عنها من جاء بعد ذلك من العلماء ، فإذا نظرنا إلي رسالة بن عبد الرؤوف في " أدب الحسبة والمحتسب " تدلنا على ذلك فالمصدر الأساسي له هو كتاب الواضحة " لابن حبيب .

أما في أفريقية وبلاد المغرب عموماً ، فإن القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي قد شهد ظهور علماء من أمثال سحنون بن سعيد التنوخي (ت240هـ/854م)، ومدرسته الفقهية المالكية، حيث تتلمذ على بن القاسم ولازمه ، ثم ألف كتاب "المدونة أو المختلطة" في الفقه المالكي ، ويكفي للتدليل على أهمية هذا الكتاب ما ذكر المقري من أنه كان من شروط الفقيه الذي له حق الفتيا في الأحكام أن يكون حافظاً للموطأ والمدونة .

والأبواب التي تتناول المعاملات من المدونة يمكن اعتبارها كذلك، من العناصر الأساسية لما كُتب عن الحسبة فيما بعد ، ولاشك فأن كل من ترجموا للإمام سحنون يهتمون بإبراز هذه الناحية ، إذ يقولون : "إنه أول من نظر في الأسواق، وكانت قبل ذلك من عمل الولاة لا القضاة ، فنظر فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع، وكان يجعل الأمناء على ذلك، ويؤدب على الغش، وينفي من الأسواق من يستحق ذلك، وهو أول من نظر في الحسبة من القضاة وأمر الناس بتغيير المنكر".

على أن كل ما كتب في "**أحكام السوق**" أو "**الحِسبة**" ، كما سميت بعد ذلك في جميع الكتب المتقدمة في الأندلس وبلاد المغرب لم يفرد في كتاب مستقل ، ولكنه ورد مختلطاً بالمباحث الفقهية العامة المتعلقة بالمعاملات والبيوعات ، وهو ما يمكن اعتباره الدور الأول لكتب الحسبة واختصاص المحتسب .ثم بعد ذلك ظهرت كتب تجسد الحسبة وعمل المحتسب فيما عُرف "بأحكام السوق"؛ إذ يعتبر كتاب يحيى بن عمر (ت901/289م)، أول كتاب مفرد يحق أن يكون على رأس مرحلة جديدة متيحاً بذلك الفرصة لمن ألفوا بعده ، وارتقوا في تهذيب هذا اللون ووصفوا أصوله على ما جاء في رسائل ابن عبدون، والسقطي ، وابن عبد الرءوف والجر سيفى .

وكتاب يحيى بن عمر في أحكام السوق يصور الحياة الاقتصادية بشكل دقيق للغاية خلال منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، على أنه يمكن أن نفترض أن الحياة الأندلسية في هذا العصر لم تكن تختلف كثيراً عن حياة المغاربة ؛ إذ يرى بن عمر أنه يجب على الوالي إسناد وظيفة صاحب السوق إلي أوثق الناس وأجلهم مكانة

وعلماً، إذ أن أول واجب يطلع به صاحب السوق هو مراقبة العُملة المتداولة في البلد ، فإذا رأى فيها غشاً ، كأن تكون مخلوطة بالنحاس مثلا ، أي أنها لا تكون ذا عيار سليم فعليه أن يتعقب المزيفين ويعاقبهم بكل قسوة ، كذلك عليه مراقبة المكاييل والموازين ، وأن تكون لها مقادير معروفة متساوية بالرغم من أن يحيى بن عمر لم يفصل في بيان طرق التزييف أو غش المكاييل والموازين كما فعل السقطي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وهذا أمر طبيعي تفرضه ظروف التطور وتعقد الحياة، فكل من ألف في الحسبة إنما يتحدث عنها من خلال معايثته لها، وهو لا يكاد يترك سلعة ولا حرفة دون أن يتحدث عنها، وهو في ذلك يتناول مسائل اقتصادية عامة مثل التسعير، والاحتكار والتخزين، وعقوبة المدلّس أو المطفّف، كما تحدث عن مسألة توحيد الأسعار بأسواق البلد المختلفة على أساس أسعار الحاضرة، وهو يرى أن الصواب في أن تنفرد كل بلد بأسعارها خلافاً لبعض متقدميه من الفقهاء .

ويشير يحيى بن عمر في كتابه إلي ما يتعلق بسلامة السكان ونظافة المدينة وشوارعها والقيم الجمالية فيها، وعلى المحافظة على الصحة العامة وهو يحمل سلطة البلد المسؤولية عن ذلك ويعني صاحب السوق " المحتسب ".

ومن خلال كتاب يحيى بن عمر يلاحظ أن الاهتمام بأمور السوق لا يقتصر على المدن دون القرى، فهو يتحدث عن المعاملات بين المزارعين في القرى أو البوادي، كما بتحدث عن القادمين من القرى إلي المدن لبيع بضائعهم وما ينبغي عليهم فعله.

وما يمكن أن نستشفه من وظيفة الحسبة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه أن الحسبة وظيفة إسلامية ابتكرها العرب وطوروها من غير تأثير خارجي، إذ يرجع تاريخ العمل بها منذ عهد الرسول (ﷺ) ، ثم الخلفاء الراشدون من بعده ، حتى كان عصر بني أمية عندها خطت الحسبة خطوات إلي الأمام لأسباب فرضتها ظروف العصر، على أن قمة النظام في الحسبة وأهميتها من الناحية التطبيقية العملية كان في العصر العباسي في المشرق والمغرب والأندلس على حدٍ سواء. ففي خلال هذه الفترة ألفت الكتب العديدة في الحسبة أشرنا إلي الكثير منها في ثنايا هذا البحث ، مثل كتاب يحيى بن عمر " أحكام السوق " ثم كتاب الماوردي " الأحكام السلطانية" الذي أفرد فيه باباً لولاية الحسبة كما عاصرها في الدولة العباسية .

وكتاب أبي يعلي محمد بن الحسين الفراء "الأحكام السلطانية" ، وكتاب بن بسام المحتسب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة"، وغيرها من كتب الحسبة دليلاً على أهميتها في الإدارة الإسلامية ، حماية من الاستغلال والاحتكار ، وتنبيهاً للقيم الإسلامية السامية.

أ . د. بشير رمضان التليسي

(جامعة طرابلس)

المصادر والمراجع

1) المصادر :

- القرآن الكريم .

- ابن الأثير ، أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/1232 م) 1988، الكامل في التاريخ ، دارالكتاب العربي ، بيروت .

- ابن بسام المحتسب (د ت)

1968 ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، مطبعة المعارف ، بغداد.

- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر(ت 279هـ/ 892م)

1936 ، أنساب الإشراف ، تحقيق جواتين ، مكتبة المثنى (أوفست عن طبعة القدس) ، بغداد.

- ابن بلقين : عبد الله (د ت)

د ت ،كتاب التبيان ، حقق المخطوط وقدم له ، وعلق عليه ، أمين توفيق الطيبي ، منشورات عكاظ ، المغرب.

- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255 هـ/ 868م)

د ت ، البيان والتبيين ، الجزء الأول، دار الفكر ، بيروت.

- ابن الجوزي :أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ/ 1200م)

1357، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، مطبعة دائر المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن، الهند.

- الخشني : محمد بن حارث بن أسد (ت بعد 366 هـ/ 976 م)

1372 ، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني ، القاهرة .

- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1406م)

د ت ، المقدمة ، دار العودة ، بيروت .

- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد (ت 681هـ/1282 م)

1968، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق ، إحسان عباس ، دارالثقافة ، بيروت.

- الدباغ : أبو زيد عبد الرحمن محمد الأنصاري (ت 696 هـ/ 1296 م) ، وابن ناجي : أبو القاسم ابن عيسى(ت 839 هـ/ 1435 م)

1978 ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، الجزء الثاني ، تحقيق ، محمد الأحمدي أبو النور ، ومحمد ماضور ، مكتبة الخانجى بمصر ، والمكتبة العتيقة ، تونس.

- الرازي : محمد بن أبي بكر عبد القادر (ت 666هـ/1267 م)

1995 ، مختار الصحاح ، الجزء الأول ، تحقيق محمود خاطر ، مكتبة لبنان ، بيروت .

- ابن عبد الحكم: أبو محمد عبد الله (ت 257 هـ/870 م)

1967، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه ، تحقيق ، أحمد عبيد ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- **ابن عذاري** : أبي عبد الله أحمد بن محمد المراكشي (ت أواخر القرن 7 هـ/ بداية القرن 14 م)
1980 ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة ج . س كولان و ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت .
- **ابن عساكر**: أبي القاسم علي بن الحسن الدمشقي (ت 571 هـ/1176 م)
1979، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، الجزء الثاني، دار المسيرة ، بيروت.
- **ابن عمر** : يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي (ت289هـ/ 901م)
1956، كتاب أحكام السوق ، تحقيق محمود علي مكي ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الرابع ، العددان 1 و 2 .
- **أبو الفداء** : عماد الدين إسماعيل ابن محمد (ت732هـ/ 1331 م)
1956 ، كتاب المختصر في أخبار البشر ، دار الفكر ، بيروت .
- **ابن الفراء** : أبي يعلى محمد بن الحسين الحنبلي(ت 458 هـ/ 1066م)
1994 ،الأحكام السلطانية بخدمتها تصحيح ، محمود حسن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- **ابن فرحون** : برهان الدين إبراهيم (ت 799 هـ/1396 م)
1996 ،الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق مأمون ابن محي الدين الجنان ، دار الكتب العلمية ، بيروت - **ابن الفرضي** : أبي الوليد عبد الله ابن يوسف الأزدي (ت 1954 ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، الجزء الأول ، نشر وتصحيح وطبع عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ،القاهرة.
- **ابن قتيبة** : أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276 هـ/ 889 م)
د ت ، كتاب عيون الأخبار ، تحقيق محمد الإسكندراني ، المجلد الأول ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- **قدامة** : أبو الفرج بن جعفرالكاتب البغدادي (ت 337هـ/948م)
1981 ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق محمد حسين الزبيدي ، سلسلة كتب التراث ، دار الرشيد للنشر، بغداد.
- **الكندي** : محمد بن يوسف (ت350 هـ/ 961 م)
د ت ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت.
- **المالكي** : أبو بكر عبد الله

(ت 474 هـ/ 1081 م)
1983 ، رياض النفوس ، تحقيق البشير البكوش ، ومحمد العروسي المطوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .

- **الماوردي** : أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي
(ت 450 هـ/ 1058 م)
2002 ،الأحكام السلطانية ، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت .

- **المقري** : أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ/ 1632 م)
1949 ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الجزء الرابع ، تحقيق ، محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة القاهرة.

- **ابن منظور** : جمال الدين أبو الفضل محمد (ت711 هـ / 1311م)
1997 ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .

- **النباهي** : أبو الحسن عبد الله بن الحسين (ت
1948 ،المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار الكتاب المصري ، القاهرة .

- **النووي** : أبي زكرياء يحي بن شرف (ت 676 هـ/ 1277 م)
د ت ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، تحقيق أسامة صلاح الدين منيمة، مكتبة المنار ، تونس.

2) المراجع :

- **الحصان** : عبد الرزاق
1946، الحسبة في الإسلام ، بغداد.

- **الشيباني** : عبد الكريم
1979 ، نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، مؤسسة الروبية ، الرياض .

- **الشهاوي** : إبراهيم دسوقي 1962 ، الحسبة في الإسلام ،مكتبة دار العروبة ، القاهرة.

- **عبد الباقي** : محمد فؤاد
د ت ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة .

-**الكتاني** : عبد الحي بن عبد الكبير
د ت ،التراتيب الإدارية و العمالات و الصناعات و المتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

- **مهدي الرحيم** : عبد الحسين
2001 ، **تاريخ** الحضارة العربية الإسلامية ، الجامعة المفتوحة ، طرابلس .

- **موسى** : فاروق عبد العليم
د ت ، القضاء في الشريعة الإسلامية ، القاهرة.

- **مولوي** : حسين
1958 ، الإدارة العربية ، مكتبة الآداب ، القاهرة .

8) الضرائب و إدارتها

تمهيد :

إن أعظم ما شغل المسلمين بعد مشكلة الخلافة في صدر الإسلام، هو مشكلة الضرائب ومعاملة المغلوبين، والمتتبع لموضوع الضرائب في دولة الخلافة يلاحظ وقفات مهمة طبقت في الموضوع ، وصارت مع الأيام قاعدة يسير بهديها المسلمون، أبرزها إصلاحات الرسول (ﷺ) ، ثم ما قام به الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) من وضع نظام للضرائب متمشيا مع تدابير الرسول (ﷺ) في الزكاة والجزية .

وأمر آخر مهم جدا سنّه الخليفة العادل عمر بن الخطاب وهو عدم تقسيم الأراضي المفتوحة واعتبارها فيئا للمسلمين (للأمة).

كان النظام الضريبي في الفترة الأموية استمرارا لنظام الراشدين ومتمماً له ، وهو أيضا ممهد للنظام العباسي اللاحق ، فلا طفرة ولا انقطاع.

غير أننا نجد في تدابير الأمويين المالية بروزا للعرف المحلي، كهدايا النيروز والمهرجان . وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65-86 هـ/685- 705م) الذي أعاد توحيد دولة الخلافة بعد تغلبه على خصومه السياسيين، قام بتعريب الدواوين والنقد وكان ذلك خطوة مهمة في تأكيد كيان الخلافة.

إن أخطر ما حدث زمن الأمويين هو أخذ الجزية والخراج من المسلمين الجدد، فحين تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة و ضع حلا راعى فيه المبادئْ الإسلامية ، حيث ميّز بوضوح بين الجزية والخراج، فعّد الجزية ضريبة يدفعها غير المسلم و تسقط بإسلامه ، وأكد أن الأرض الخراجية ملك للأمة ، وأن الخراج إيجار للارض، يدفعه كل من يزرعها ذميا كان أو مسلما، عربيا أو مولى، ولكن سياسة عمر توقفت بوفاته.

الضرائب وإدارتها في الفترة العباســـية

إن ما تّم في صدر الإسلام من تنظيم للجباية وسّن للضرائب، أصبح هو القاعدة المتينة التي سارت عليها أمور الضرائب وإدارتها في الفترات العباسية اللاحقة ، مع مراعاة الأوضاع والتطورات الجديدة. حاول العباسيون في عصرهم الأول إعادة النظر في بعض الضرائب وفي أساليب الجباية ، مع التأكيد على المبادىء الإسلامية في ذلك ، فوضعت لهم كتب الخراج، وكانت المحاولة الأولى في مجال إدارة وتنظيم الخراج هي ما قام به بن المقفع (142هـ/ 759م) في "رسالته في الصحابة" التي رفعها للخليفة المنصور، وأشار فيها لضرورة تنظيم الخراج وضبطه في دفاتر ، يحصل بمقتضاها ويحفظ أصلها، واقترح لإصلاح ذلك : " أن تمسح الأرض، ثم يفرض عليها المال المناسب، ويعرف كل مالك ما عليه ، ويدّون ذلك في

سجلات تحفظ أصولها في دواوين الدولة ؛ ففي هذا "صلاح الرعيّة وعمارة الأرض وحسم لأبواب الخيانة وعسف الجباة". وشعر ابن المقفع بصعوبة هذا العمل فقال : " إن موؤنة ذلك شديدة ورجاله قليلون، ونفعه متأخر" ، وختم مطالبه في إصلاح الخراج " بتخيّر الذين يتولون هذا العمل ".

ثم إن وزير الخليفة المهدي (158-169هـ/775-785م) معاوية ابن يسار، هذا الوزير القدير، قد صنّف كتابا في " الخراج" ذكـر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده، غير أن الكتاب لم يصلنا ، بيد أن قدامة بن جعفر استعان به في مؤلفه "الخراج وصناعة الكتابة".

أما كتاب الخراج العظيم لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم فقد كتبه بطلب من الخليفة الرشيد (170- 193هـ/786-809م) ، وذلك لرسم الأسس السليمة في الخراج وطرق الجباية.

مع انتقال مركز الخلافة إلي العراق زمن العباسيين زاد اهتمام الخلفاء به، وخاصة بقسمه الجنوبي، المعروف بالسواد، فأحسنوا نظام الرّي القديم ونظموه وكروا الترع، وحفروا قنوات جديدة ، ولاسيما في منطقة بغداد .وتشير المصادر العربية الإسلامية إلي أعمال الري الجديدة عند البطيحة حيث قام أبو الأسد قائد المنصور بحفر نهر عرف ب "نهر أبي الأسد" ، كذلك أمر المهدي بحفر نهر في أعمال واسط وعرف بـــ"نهر الصلة" ، ويذكر الجهشياري "أن الرشيد احتفر القاطول واستخرج نهرا سمّاه "أبا الخيل". كان الرشيد أول من حفر هذا النهر ، وبنى على فوهته قصرا سمّاه "أبا الجند" لكثرة ما كان يسقى من الأرض ، وجعله لأرزاق الجند، وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم.

ويتعرض أبو يوسف نفسه إلي أعمال الري هذه فيقول: "وإذا احتاج أهل السواد إلي كري أنهارهم العظام، التي تأخذ من دجلة والفرات، كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال، ومن أهل الخراج". وأمّا الأنهار التي يجرونها – الزّراع – على أراضيهم ومزارعهم وما أشبه ذلك، فكريها عليهم خاصة، ليس على بيت المال، فأما البثوق والسيبنات – التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام – فإن النفقة على هذا كله من بيت المال، ولا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء. ويشرح أبو يوسف السبب ويقول: " لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة، لأنه أمر عام لجميع المسلمين، فالنفقة من بيت المال، لأن عطل الأرضين من هذا وشبهه، إنما يدخل الضرر من ذلك على الخراج، ويقول الدوري : "فلا عجب في أن أصبح السواد مغطى بشبكة واسعة من القنوات، مكتسيا بالمزارع والقرى، ومن هذا ندرك أهمية الخراج أو ضريبة الأرض، التي كانت المورد الرئيس لبيت المال.

لقد ازدادت في الفترة العباسية أنظمة الدولة تشعبا وتنوعا، وسيّما تلك المتعلقة بالخراج، وأنواع الضرائب القديم منها والجديد ، والتي استحدثت زمن العباسيين، حيث فرضها تطور المجتمع الإسلامي وتقدمه، ونلاحظ أن العرب وخلال الفترة الأموية، امتدادا، رأوا في الأرض مصدرا للثروة ، فمالوا إلي اقتناء الأراضي والضياع ، يستغلونها ويكثرون من اقتنائها، وخير مثال على ذلك الخليفة هشام بن عبد الملك وأخوه مسلمة ، ووزيره خالد القسري، فهؤلاء كانوا من أكبر ملاّكي عصرهم، وتبعا لذلك بدأ دور اقتصادي جديد، وهو دور الإقطاع، بدلا من دور الأرستقراطية العربية العسكرية – التي أرادها عمر بن الخطاب لتجاهد لإعلاء شأن الإسلام – فأخذ العرب وفي مختلف أمصار أرض الخلافة يقتنون الأراضي الواسعة ويشتغلون باستثمارها، ويسكنون عليها ، وقوي هذا الاتجاه في الفترة العباسية ، وذلك لعدة أسباب يذكرها الدوري ومنها :

- نكبة الأرستقراطية الأموية وإشراك الأعاجم في الحكم والاختلاط بالفرس وتقدم المجتمع في مدارج الحضارة، وضعف الروح البدوية، وكل ذلك أدّى إلي دخول المجتمع الإسلامي في دور زراعي .

يذكر البلاذري أنه من أهم غنائم الحرب التي استولى عليها العباسيون، ضياع آل مروان، فقد آلت إليهم أملاك الأمويين وكانت كثيرة، ومما قاله البلاذري: "فلما مات مسلمة (بن عبد الملك) صارت بالس وقراها لورثته، فلم تزل في أيديهم إلي أن جاءت الدولة المباركة (يقصد العباسية) وقبض عبدالله بن علي، أموال بني أميّة، فدخلت فيها ، فأقطعها أمير المؤمنين أبو العباس، سليمان بن علي، فصارت لابنه محمد بن سليمان.

ويشير البلاذري أيضا في كتابه "الفتوح" إلي أن حصلت له (مسلمة بن عبد الملك) أرضون من طساسيج متصلة، فحفر السيبين، وتآلف الأكرة والمزارعين ، وعمّر تلك الأرضين (وذلك في البطائح)، وألجأ الناس إليها ضياعا كثيرة، للتعزز به، فلما جاءت الدولة المباركة وقبضت أموال بني أميّة، أقطع جميع السيبين داود بن علي. ثم أتبع ذلك من ورثته بحقوقه وحدوده فصار من ضياع الخلافة.

وهكذا آلت إلي العباسيين هذه الأراضي الواسعة ، وسميت "ضياع الخلافة" ، وأخذت تزيد بعد ذلك بطريق (إحياء الموات) أو الإلجاء أو بالشراء. قال الجهشياري: "وقلّد أبو العباس عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن العباس ضياع مروان وآل مروان". وكانت "ضياع الخلافة" أراض واسعة ومتفرقة في مختلف أرجاء بلدان الخلافة في الشام ومصر والعراق وفي اليمامة وطبرستان وفي خراسان وفارس وغيرها ، وأنشيء لها ديوان خاص عرف "بديوان الضياع" ،

وكانت هذه الضياع تعطى بالمزارعة علي حسب اتفاق يعقد بين الزرّاع والديوان. ذكر الإصطخري في حديثه عن فارس "أن الضياع السلطانية خارجة عن المساحة، وأنها تؤخذ من السلطان بالمقاسمة أو المقاطعة .

يقول آدم متز : "مهما بدا التشريع الإسلامي في أمر الضرائب واضحا وبسيطا، في كتب الفقه، منذ عهد القاضي أبي يوسف إلي أيام الماوردي، وفيما جمع من كتب الحديث ، فإنه في الواقع متشعب مع غزارة وصعوبة ؛ ذلك لأنه كانت هناك نظم أخرى في الضرائب يختلف بعضها عن بعض في الشام ومصر وشمال إفريقيا قبل ظهور الإسلام، كما كانت ثمة فروق بين النظم المالية، في العراق وخراسان وجنوب فارس . ولم تكن في الخلافة الإسلامية كلها ضرائب ثابتة ونافذة على نحو واحد إلاّ الضرائب الإسلامية الخالصة ، وهي - ضريبة رؤوس أهل الذمّة من اليهود والنصارى ، والزكاة المفروضة على المسلمين . فلا غرابة إذن أن نجد تباينا واسعا بين آراء الفقهاء وأحكامهم، هذه الأحكام التي جاءت تالية للتدابير والتنظيمات العملية والممارسات الفعلية.

لقد جاء في كتاب " تاريخ العراق الاقتصادي" ما يعطي فكرة مركّزة وواضحة تكفي كإطار نظري لآراء الفقهاء البارزين لنظام الضرائب، والذي طبقّه العباسيون. فعند الصولي المتوفى (335 هـ/946م) في كتابه "أدب الكتّاب" ؛ إذ كان الصولي من حاشية الراضي والمتقي بالله ، وقد صنّف مصادر الجباية بطريقة سهلة وواضحة لفائدة كتّاب الدواوين، ولكتاب الصولي أهمية خاصة، لأهمية عصره (القرن الرابع الهجري/ القرن العاشرم) وموطنه (العراق)، ولأنه لم يكن كاتبا نظريا، بل كان له اطلاع واسع ودقيق على شؤون الدولة. آخذا في الاعتبار أن الخلافة كانت تستقي مواردها بنظر الفقهاء من الفيء ، وهو ما يؤخذ من المشركين دون قتال ، ويشمل ثلاث ضرائب:

أ- الخراج

ب- الجزية

ج - الغنائم

أما بالنسبة للضرائب على الأرض والإنتاج الزراعي ، فالأمر مرتبط بطبيعة ملكية رقبة الأرض أو استغلالها، إضافة إلي ارتباطه بمجموعة حقائق أخرى متعددة تتصل بمدى خصوبة الأرض وإنتاجها وأجناس إنتاجها والجهد المبذول في زراعتها وإروائها طبيعيا أو صناعيا، وقربها وبعدها عن الأسواق، وإلي اعتبار الأسعار وسائر العوارض . كما أن هناك أراضي تمثل نفعا عاما لا يمكن تملكها فلا ينبغي أن تستوفى عنها أي ضرائب ، منها الأراضي التي تجري فيها الأنهار العظام مثل دجلة والفرات وضفافها، وطرق المسلمين، والحمى والمراعي، والمحتطب، والمقابر،

وساحات الأسواق، ومبارك الإبل والبيوت .

ومنها كذلك الأرض الموات التي ليس لأحد فيها حق، والتي لا تفرض عليها ضريبة، إلا بعد إحيائها، مع ملاحظة أن الأصل فيها أن تصبح أرض عشر، تملّكها صاحبها بالإحياء – فمن أحيا أرضا مواتا فهي له – حديث شريف – وبقدر ما يتعرض الأمر بمجالات الضرائب على الأرض والنتاج الزراعي، فإن بالإمكان تصنيف هذه المجالات ضمن ثلاث مجموعات :

1 – الضرائب الأساسية 2– الضرائب الإضافية

3– الضرائب والجبايات التعسفية

1)الضرائب الأساسية:

هي تلك التي أجمع الفقهاء على قبولها بشكل عام، وإن كان قد حصل بينهم الكثير من الاختلاف في التفاصيل والتفريعات. يقول أبو يوسف مخاطبا الخليفة الرشيد: "ولكني قد بينّت لك من ذلك ما أرجو أن يكتفي به من جباية الخراج (والعشور والصدقات والجوالي) الجوالي: جمع جالية وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطنا آخر ومنه قيل لأهل الذمّة الذين أجلاهم عمر عن جزيرة العرب جالية ، ثم نقلت هذه اللفظة إلي الجزية التي أخذت منهم ، ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه).

أولا: الخـــــــراج :

إن العمدة في زيادة الثروة إنما هي على الخراج، حتى إنهم سمّوا مجموع الجباية "خراجا" بإطلاق البعض على الكل. فقد ظّل ديوان الخراج ذا شأن خطير في الفترة العباسية ، شأنه في الفترة الأموية السابقة، وبقي لرئيسه – صاحب الخراج – مقام رفيع حيث يبقى الخراج من أكبر الموضوعات الاقتصادية في التاريخ العربي الإسلامي . ولنبدأ بشيء من التفصيل بضريبة الخراج لأهميتها القصوى ، في أمور المال في الدولة .

إن أول جباية للخراج في الإسلام بدأت في عصر الرسول (ﷺ) فالرسول الكريم هو الذي فرض الخراج على أهل هجر ، فلمّا كان عمر ابن الخطاب فرض الخراج على أهل السواد وما إن استهّل القرن الأول للهجرة حتى أصبحت كلمة "خراج" تدل بخاصة على الضريبة التي تجبى على الأرض المملوكة في مقابل " الجزية" التي لا تستعمل إلا بمعنى "خراج الرأس" ، وأصبحت إجراءات الخليفة عمر بن الخطاب هي النموذج الذي يحتذى به في الغالب الأعم.

إلا أن المتتبع يلمس بسهولة بعض التداخل في استعمال كلمتي "جزية وخراج " في الولايات، و لم يكن ذلك نتيجة ارتباك في ماهية الضرائب، بل كان ذلك من رواسب الإرث المحلي، فقد كانت كلمة "خراج" تستعمل في بعض الولايات الشرقية، (مثل إيران) بمعنى الجزية الجماعية المفروضة على منطقة أو مدينة في العصر الساساني

قبل أنوشروان ، كما كانت تعني ضريبة الأرض. و كانت كلمة "جزية " في مصر تستعمل لمجموع الوارد من الضرائب في القرى التي يتولّى رؤساؤها جمع الضرائب. في حين استعملت بمعنى ضريبة الرأس، حيث كانت الضرائب تجبى مباشرة من قبل الإدارة كما في منطقة الإسكندرية.

وهكذا يتبين أنه قد وضعت في الولايات كافة - ومنذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب - ضريبتان : الأولى على الرؤوس، والثانية على الأرض (جزية وخراج) .

إن كلمة خراج عند أبي يوسف ذات معنى عام ومعنى خاص، فحين وضعها عنوانا لكتابه "الخراج" فقد قصد بها المعنى العام، وهي إنما تعني الأحوال العامة أو إيراد الخلافة، وهذا هو المعنى الذي يفهم حين تذكر قوائم الخراج للعصر العباسي أو الأموي. أمّا أبو عبيد فقد رأى أن كلمة خراج مرادفة لكلمة "الأموال" فجعل الأخيرة (الأموال) عنوانا لكتابه الذي يماثل كتابي "الخراج" لأبي يوسف ولابن آدم. أما المعنى اللغوي للكلمة، فقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة (خراج) منقولة عن كلمة آرامية وكلمة مماثلة يونانية CHAREGIA ومعناها الضريبة وجاء في لسان العرب : "الخرج والخراج الإتاوة" تؤخذ من أموال الناس.

ويقوم نظام الخراج على كل أن مساحة معينة من الأرض الزراعية مبلغا معينا من المال أو مقدارا معينا من المحصول أو كليهما، ومن هنا لابد أن تسبق عملية فرض الضريبة بعملية قياس لمساحة الأرض الخراجية، ليقرر بعد ذلك نوع المحصول الذي يزرع عادة في تلك الأرض، ومقدار الضريبة علي وحدة المساحة الواحدة ، ذلك أن أول شيء يرفع إلي الديوان "ديوان الخراج" ذكر المسالح، ومن ثمّ ينفذ الكاتب إلي المستخدمين "الجرائد " بما على البناء وأصحاب الضياع من الخراج. أما الأرض التي يجبى منها الخراج فهي على ثلاثة أصناف:

- أولا: الأراضي التي فتحت عنوة ثم جعلت وقفا للمسلمين (للأمة) ويتفق الفقهاء على جعل السواد مثلا في هذا الصنف.

جاء في كتاب " الخراج" ليحيى بن آدم القرشي ما يلي: قال يحي : قال حسن: "وأما سوادنا هذا، فإنا سمعنا أنه كان في أيدي النبط ، فظهر عليهم أهل فارس، فكانوا يؤدون الخراج، فلما ظهر المسلمون على أهل فارس تركوا السواد ومن يقاتلهم من النبط والدهاقين على حالهم، ووضعوا الجزية على رؤوس الرجال، ومسحوا عليهم ما كان في أيديهم من الأرض، ووضعوا عليها الخراج، وقبضوا على كل أرض ليست في يد أحد فكانت صوافي إلي الإمام".

- أراض تخلى عنها أصحابها خلال فترة

الفتوحات، فانتقلت إلي المسلمين - إلي بيت المال- ويبقى هذا الصنف من الأراضي مع الصنف السابق أراضي خراج، ويعتبر الخراج المفروض على الأرض إيجارا لها، يدفعه المزارع سواء أكان مسلما أم غير مسلم.

- ثانيا : الأراضي التي خضعت للمسلمين صلحا أو - أرض الصلح - وهذه أما أن تنقل ملكيتها، علي حسب شروط الصلح إلي المسلمين فتصير وقفا دائما لهم ، أو تبقى ملكا لأصحابها، وفي الحالة الثانية تعفى من الخراج متى أسلم أصحابها، وتدخل بعض أراضي السواد - مثل سواد الحيرة - في هذا الصنف ، فإن "أهل الحيرة إنما صولحوا على ما يقتسمونه ".

لقد اهتم الخلفاء العباسيون بتنظيم الخراج وتطوير طرق جبايته، فعند قيام الدولة العباسية، كان خالد بن برمك في عسكر قحطبة بن شبيب الطائي - قائد المسوّدة- يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من الكور، وتقلّد الغنائم وقسمّها بين الجند ، فكان يقال: "ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد ومنّة ، ذلك لأن خالدا قسط الخراج فأحسن فيه إلي أهله، وكان مما اخترعه في أثناء ولايته أنه كان أول من جعل ما يثبت في الديوان في دفاتر بعد أن كان سبيله أن يسجل في الصحف. وكان خالد أول من سمّى المستميحيين ومن يقصد العمّال لطلب البرّ (الزوّار) ، وكانوا يسمون قبل ذلك (السّوال) ، فقال خالد " إنا استقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف" وفي ذلك يقول بعض زوّاره :

حذا خالد في جوده حذو برمك
بجودٍ له مستطرف وأثيل
يسمون بالسّوال في كل موطن
وإن كان فيهم تافه و جليل
فسمّاهم الزوّار سترا عليهم
فأستاره في المجتدين سد ول

ثم في أيام المهدي استخلف خالد ولده يحي بدلا عنه عاملا على فارس " فقسّط الخراج على أهلها ووضع عنه خراج الشجر، وكانوا يلزمون خراجا ثقيلا.

كما أن المنصور (136-158هـ/ 754-775 م) ، هذا الخليفة القدير ، قد شرع في الإصلاح المالي بعد القضاء على أعدائه وخصومه السياسيين. ومن الإجراءات التي بادر في اتخاذها أنه أمر بتعديل "السواد " من أجل إعادة النظر في مقادير الضرائب، والوظائف المربوطة على الكور ، قلّد ذلك "حمّاد التركي" وأمر بمنع تحويل الأراضي الخراجية إلي أراض عشرية (كما فعل عمر بن عبد العزيز) يذكر الطبري "أن المنصور كان يخصص جانبا من يومه للنظر في الخراج، والنفقات، وكان يعتبر صاحب الخراج الذي يستقصي ولا يظلم الرعيّة من أركان أربعة تقوم عليها الخلافة". فكان

لاهتمام المنصور وعنايته الكبيرة بالخراج أثره في حالة الازدهار التي شهدتها الخلافة والأموال الوفيرة التي جمعها في بيت المال، كما أنه في نفس الوقت كان مهتما كل الاهتمام بالحال المعيشية للرعيّة .

وفي أيام الخليفة المهدي (158 - 169هـ/775-785م) حدث تطور خطير في أمر الخراج، وهو أن الدولة قررت العدول عن نظام "المساحة " - الذي كان معمولا به منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب - وإبداله بنظام " المقاسمة" . فنظام المساحة يعني أن يكون خراج مقرر معين على مساحة محدودة من الأرض تجبيه الدولة - كل عام مثلا- أما نظام المقاسمة فالثلث مثلا للدولة والثلثان للمزارعين دون اعتبار للمساحة ، فيتغير الخراج بطبيعة الحال بتغير المحصول الذي ينتج ، ولكن في النظامين فوائد ونواقص . هذا وإن نظام المقاسمة نظام قديم يرجع تاريخه إلي العصر الفارسي الساساني وقد أحياه الخليفة المنصور ، وطبّقه الخليفة المهدي ، بإشارة من وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، ففي أيام " المهدي" ظهرت أبهة الوزارة بسبب كفاية وزيره أبي عبيد الله ، فإنه جمع له حاصل المملكة ورتّب الديوان وقرر القواعد .... وكان مقدما في صناعته فاخترع أمورا منها أنه نقل الخراج إلي المقاسمة ، وكان السلطان يأخذ الغلاّت خراجا مقررا ولا يقاسم، فلما ولي أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر . وصنّف كتابا في الخراج - كما سبقت الإشارة - ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنّف كتابا في الخراج وتبعه الناس بعد ذلك ، فصنّفوا كتب الخراج ، وقد تمّ الأخذ بنظام المقاسمة منذ عام (160 هـ/ 777م) في أوائل خلافة المهدي ، وإذا قارنا - بإجمال - بين النظامين فإنّا نجد أن نظام المساحة يكون في صالح المزارعين، إذا كانت الغلاّت غالية الأسعار ، لأنه لا يكون على المزارع إلا أن يدفع خراجا محددا - نقدا في الغالب - ويبيع هو غلاّته فيستفيد من غلاء الأسعار، وذلك بشرط أن تكون الوظيفة - أي الضريبة الخراجية - حددت بعدل. فروعيت فيها حالة الأرض من حيث نسبة المساحة وقدرتها الإنتاجية ، وأن تظل الوظيفة ثابتة، وإلا فإن نظام المقاسمة يكون أفيد للمزارعين، إذا كانت الأسعار رخيصة، أو تكون نسبة الخراج النقدي ثقيلة بالمقارنة إلي ما يجنيه الزرّاع من إيراد. أو إن كان في إمكان الحاكم أن يزيد الوظيفة الخراجية النقدية بحسب هواه . وتدل رسالة بن المقفع - التي أشرنا إليها سابقا - على أن هذه المساوئ أو بعضها ، كانت موجودة في أوائل عهد بني العباس فقد قال "إن الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وإنها غيّرت مرارا، وإن العمّال كانوا يسلبون الزرّاع ثمرات اجتهادهم" .

وقد حدد أبو عبيد الله الذي قام بتنفيذ النظام نسبة المقاسمة فكانت كما يلي : أن تجعل أرض الخراج مقاسمة بالنصف إن سقي سيحا، وفي الدوالي (الدلو) على الثلث وفي الدواليب على الربع ، لا شيء عليهم سواه . ويعلّق جرجي زيدان على ذلك بالقول: "فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلّته تقريبا ، لأن أكثره يسقى سيحا، وهو خراج ثقيل ، ولكن الناس عدّوه يومئذ فرجا ورحمة " .هذا وقد رفع المهدي حصة بيت المال إلي نسبة 60% من الحاصل ، وفي أيام الرشيد خفّضت هذه النسبة بأن يقاسم من زرع الحنطة والشعير من أهل السواد جميعا على الخمسين للسيح منه ، وأما الدوالي فعلى خمس ونصف، وأما النخيل والكروم والرطاب والبساتين فعلى الثلث، وأما غلاّت الصيف فعلى الربع. وفي سنة 172 هـ/ 788م، أنقص الرشيد مقدار الخراج في السواد بحذف العشر الذي كان يؤخذ بعد النصف ، واستمر ذلك إلي آخر القرن الثاني للهجرة / القرن الثامن م .كما أن الخليفة المأمون (198- 218 هـ/813-833م) خفّض حصة بيت المال من المقاسمة ، حين أمر "في سنة 204هـ/819م بمقاسمة أهل السواد على الخمسين، وكانوا يقاسمون على النصف". وقبلها في العام 203 هـ/818م، حين وفد المأمون "الرّي" أحسن إلي أهلها بإسقاط ألفي ألف درهم من الخراج المفروض عليها، كما حّط عن خراسان ربع الخراج ، وإن عامله عبد الله بن طاهر في محاولته تهدئة الحال في الشام حطّ عن بعضها الخراج حوالي عام 210 هـ/825م، وفي عام 214هـ/829م أقام المأمون بدمشق لمسح أراضي الشام وجاء بالمسّاح من العراق ... فعدّل أرضها (دمشق والأردن) الخراجية وحمّل كل أرض ما تستحقه، وفي عام 218هـ/ 833م، أوصى المأمون عمّاله في الشام بحسن السيرة، وتخفيف المؤنة وكف الأذى.

أما تقدير الخراج فيترك إلي رأي الإمام، وفي التطبيق فإن لعمّال الخراج دورا فاعلاً فيه عند الجباية، وذلك بعد أن تؤخذ قابلية الأرض بعين الاعتبار. ويضيف الشيباني أن "مالك أرض الخراج إن عجز عن زرعها، أو أهملها، أو تركها، فللإمام أن يأخذها منه. وتتم جباية الخراج بطريقة من الطرق الثلاث التالية:

- يفرضه على وحدة المساحة من الأرض الزراعية، كما فعل عمر بن الخطاب في السواد.
- يفرضه على وحدة المساحة من الأرض المزروعة.
- يأخذ نسبة معينة من الحاصل ، أي بالمقاسمة .

وجاء عند الماوردي ما يلي : "فإذا تقرر الخراج بما احتملته الأرض راعى فيها أصلح الأمور من ثلاثة أوجه؛ إحداها أن يضعه على مسائح

الأرض، والثاني أن يضعه على مسائح الزرع، والثالث أن يجعلها مقاسمة. فإن وضعه على مسائح الأرض كان معتبرا بالسنة الهلالية، وإن وضعه على مسائح الزرع كان معتبرا بالسنة الشمسية، وإن جعله مقاسمة كان معتبرا بكمال الزرع وتصفيته ".

ويؤخذ الخراج نقدا وعلى المساحة، زرعت الأرض أم لم تزرع، علي حسب الأسس التي وضعها الخليفة عمر – في السواد- ويدعى هذ النوع خراج الوظيفة ، ولكن ضريبة الخراج لم تكن ثابتة ، بل تغيرت تبعا للظروف، ففي زمن المهدي وضع عنهم – المزارعين – خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجا ثقيلا. كما أن نسبة المقاسمة تغيرت، إذ أضيف العشر إلي النصف فصارت الضريبة 60% من الغلّة؛ والراجح أن هذا حدث في أواخر أيام المهدي لكثرة نفقاته وإفلاس خزائنه.

ثانيا : الجـــــــــزية

أما الضريبة المهمة الأخرى التي سنتعرض إليها فيما يلي، فهي الجزية، فقد باشر الرسول (ﷺ) بفرض الجزية في جملة مجموعة من تدابير عملية تتصف بالمرونة ومراعاة مقتضى الحال ، فقد راعى طريقة خضوع البلاد له بالقوة أو بالصلح، وراعى أهلها عربا أو غير عرب، ففرض الجزية على النصارى واليهود ، ثم ألحق بهم المجوس، من أهل البحرين وأقرّهم على مجوسيتهم. ولاحظ حالة الناس المعيشية إن كانت لهم أراض أم لا، وبضوء ذلك وضع تدابيره التي صارت سوابق أخذ بها المسلمون. كما أخذ الرسول جزية مشتركة من أهل تيماء وصالح أهل أذرح على مائة دينار ، كما فرض الرسول الجزية على من بمكة والمدينة من أهل الذمّة ، بعد رجوعه من تبوك سنة 9هـ/630م ، وفرض على الرجال دينارا ونحوه وليس في ذلك النساء ولا الصبيان .

قلنا : إن الجزية في الإسلام تؤخذ من أهل الكتاب ، وتجبى مرّة واحدة في السنة من العقلاء الأحرار، البالغين من الذكور، ويذكر الطبري "أن تكون حالتهم المادية حسنة، ويستثنى الفقراء والشيوخ ".

جدير بالذكر أن كلمة جزية "قرآنية" وتشير إلي ما يلزم فرضه على غير المسلمين، لتدل على ضريبة الرأس التي تفرض على كل ذمّي، أو لتعني جزية مشتركة أو مجموع ما يفرض على جماعة. وفي زمن الخلفاء الراشدين وردت الجزية "في العهود" بمعنى ضريبة الرأس، أما في أوراق البردي، في مصر فتشير بوضوح أن "ضريبة الجزية الإسلامية مختلفة تماما من حيث مبرر فرضها وتطبيقها على المكلفين عن ضريبة الرأس اليونانية. ففالح حسين يؤكد أن الجزية ضريبة إسلامية محضة، فرضت بناء على نص قرآني، وطبقت من عهد الرسول (ﷺ) مع أن الوثائق اليونانية التي

تعالج الضرائب بمصر، استخدمت المصطلحات اللغوية اليونانية للدلالة على الجزية الإسلامية، لضرورات الأراضي المفتوحة. وتدفع الجزية في مصر بإيصالات، وفي أوقات مختلفة من السنة ، بينما كانت جباية الخراج بعد الحصاد باستمرار، فالعرب المسلمون هم الذين أوجدوا ضريبة الجزية في مصر كبقية أنحاء الدولة الإسلامية، وقبل بداية خروجهم إلي خارج الجزيرة العربية في عهد الرسول (ﷺ) اعتمادا على الآية الكريمة "أن يعطوا الجزية." (سورة التوبة ، الآية 29).

تشعر بعض الروايات أن القادرين على القتال من غير المسلمين هم المكلفون بالدفع ؛ لذا تسقط عمن يشترك منهم مع المسلمين في قتال عدوّهم، كما فعل حبيب بن مسلمة الفهري مع الجراجمة .

جاء عند البلاذري :" فغزا (حبيب بن مسلمة) الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنّهم طلبوا الأمان والصلح، فصالحهم على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام، وألّا يؤخذوا بالجزية". كذلك فعل سراقةبن عمر في سنة 22 هــ/ 642م حينما أسقط الجزية عمن اشترك من أهلها معه في القتال، فأقرّ الخليفة عمر بن الخطاب فعله وحسّنه.

وهناك حالة خاصة من الجزية فمعروف أن قبيلة تغلب المسيحية، التي كانت قصبة منازلهم بين قرقيسيا ونصيبين تدفع الصدقة مضاعفة، فالمسلمون قد صادقوا القبائل العربية لكسب جانبهم ؛ وذلك لأهميتهم البشرية والحربية. ويذكر الماوردي أن عمر بن الخطاب قد ضاعف الصدقة على تنوخ وبهراء - زيادة على بني تغلب. وحيث إن الجزية في العرف الإسلامي ضريبة شخصية تفرض على الرؤوس والبالغين من الذكور، فكان لا بدّ من إحصاء الفئة العمرية التي يقع عليها التكليف، ولذلك قامت عمليات إحصاء للسكان رافقت إجراءات تنظيم الضرائب في الأمصار المختلفة ، بعد استقرار عملية الفتح.

أما مقدار الجزية فيختلف الفقهاء في تقديرها فيجعلها أبو حنيفة ثلاث درجات: 48 درهما على الموسرين، 24 على المتوسطي الحال، و12 درهم على الفقراء . أما الشافعي فيجعل الحد الأدنى 12 درهما ويترك ما فوق ذلك للإمام - ويتفق مالك والشافعي على أنه متى عيّن مقدار الجزية فلا يمكن تبديله.

كانت الجزية تتغير تغيرا يسيرا بسبب تغير العملة ، فكانت في البلاد التي عملتها الذهب دينارا أو دينارين أو ثلاثة ، ويعلّق آدم متز : "وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار ... على أن غالبية دافعي

الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى . لقد بلغت الجزية في مصر في القرن الأول الهجري ثلث دينار ونصف دينار وديناراً وديناراً ونصف وديناراً وربع وديناريَن وربع وفي النادر كان المبلغ يزيد على الدينارين. وكانت الحكومة في مصر في أول القرن الثالث الهجري تكتفي بأخذ نصف دينار، وفي سنة 390 هـ/1000م اضطر البطريرك جورجيوس المصري أن يدفع ديناراً ونصف بعد أن كان يدفع ديناراً واحداً .

صار العباسيون في السواد على سنّة عمر بن الخطاب في جباية الجزية، وبحسب قانون العراق، يذكر الدوري عن ديونيسيوس حوالي (200 هـ/-815م) بأن الغني يدفع 48 درهماً والمتوسط 24 والفقير 12 درهماً - كما سبق أن ذكرنا - وهذا ما يقرّه الإمام أبو حنيفة. كما أن شروط الجزية التي يذكرها الفقهاء كانت متبعة (نظرياً) لدى الخلفاء ، فجاء في عهد الخليفة الطائع بتاريخ 366 للهجرة 976م إلي جباة جماجم أهل الذمّة، أن يأخذوا منهم الجزية، بحسب منازلهم في الأموال وذات أيديهم في الأعمال ....ولا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال، ولا ذي سن عالية، ولا ذي عاهة بادية، ولا فقير معدم، ولا راهب متبتل".

وهذه العهود - وإن كانت متأخرة - تنطبق على نظرة الخلفاء في العصر العباسي الأول .

لم يكن التقويم في جباية الجزية أو الجوالي واحدة، لأن الجوالي بسّر من رأى ومدينة السلام وقصب المدن المشهورة، كانت تجبى على شهور الأهلة، وما كان من جماجم أهل القرى... كان يجبى على شهور الشمس، واستمر هذا حتى زمن المتوكل، إذ نقل سنة (241-242هـ/585-856م) وعندئذ جبيت الجوالي والصدقات لسنة 241 وسنة 242 في وقت واحد، ومعنى ذلك دفع جوالي إضافية، وإذا جددت الكتب إلي العمال، بأن تكون حساباتهم الجوالي على شهور الأهلة، فجرى الأمر على ذلك. (المقريزي، 1326، 2/ 44).

أما في خراسان فالوضع يختلف فقد فرضت هناك ضريبة واحدة أول الأمر، وكانت تدفع نقداً، إذ سبق لأمراء خراسان أن عقدوا اتفاقيات مع العرب تعهدوا فيها أن يدفعوا لهم جزية سنوية معيّنة، فكانت الضرائب توزع على رؤوس الأهلين، لا على مساحة الأرض - إذ لو فرضت على الأرض لوقع أكثرها على الدهاقين - فلقد استفاد الدهاقنة أن جعلوا الضرائب توزع على رؤوس الآهلين ، ويذكر الطبري أن خراج خراسان على رؤوس الرجال، وهكذا عاد الدهاقنة فنالوا الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية بزوال خطورتهم السياسية .

لقد بقي وضع الجزية في خراسان على هذه

الصورة حتى مجيء العامل نصر بن سيّارالذي توفي سنة 131هـ/ 748م ، فحاول الإصلاح فوضع حلا عادلا ومتمشيا، وذلك بأن أعفى المسلمين من الجزية، و لم يجد صعوبة بذلك، إذ وجد ثلاثين ألفا يدفعونها وثمانين ألف رجل من المشركين رفعت عنهم، فأعاد عليهم الجزية، وعفا ، المسلمين ، ولكن تدابير نصر بن سيّار جاءت متأخرة .

لم يكن المترهبون المسيحيون يعفون من الجزية إلا إذا كانوا مساكين – وفقراء- فيتصدق عليهم كباقي المساكين . في مصر فرضت الجزية على الرهبان على أنها ضريبة شخصية باعتبارهم أفرادا وليسوا جماعات ، هذه الضريبة التي فرضت زمن ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر (65-85 هـ/ 684 - 704م) والوثائق البردية تبيّن أن مقدارها كان دينارا واحدا، واعتبرت أول جزية تؤخذ في الإسلام من الرهبان . لقد شددت المصادر وكتب الفقه على عدم تكليف الذميّين بما لا يطيقون، وإنما أجاز الفقهاء حبس أهل الذمّة حتى يؤدوها ، أي الجزية.

وكانت العادة إعطاء براءة لمن يدفع الجزية، ويروى أنه في الأوقات السيئة كانت تعلق على رقبة أهل الذمة علامة البراءة وتختم أيديهم.

ختم الحب لها في عنقي

موضع الخاتم من أهل الذمم وكانت تكتب لأهل الذمّة في القرن الرابع الهجري/ العاشرم براءة مختومة عند أدائهم للجزية. وكانت الجزية تؤخذ على أقساط، ستة أو خمسة، وأحيانا أربعة أو ثلاثة أو اثنين، ولما جاء القرن الخامس هـ/ القرن 11م كان الخلفاء العباسيون يجبونها في المحّرم من كل سنة، على غرار ما أقرّه الخليفة الطائع (363-381هـ/ 934- 991 م).

ومن أمثلة ذلك أن الخليفة القائم بأمر الله أمر سنة 434 هـ/1042م أن تؤخذ الجزية في أول محرّم ، وكذلك فعل الخليفة المقتدي سنة 479 هـ/ 1086م أن تجبى في نفس الميعاد . وملاحظة أخيرة كانت الجزية في صدر الإسلام كثيرة ثم تناقصت بدخول الناس في الإسلام، وكذلك الزكاة كان لها شأن كبير، في أول الإسلام ثم قلّ ذلك.

كانت الجباية في أوائل الهجرة مقصورة على الزكاة ، ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى، ثم الجزية على من صالح على نفسه من نصارى جزيرة العرب ويهودها، وتولّى الرسول (ﷺ) مصادر الجباية، والزكاة، والغنائم والجزية. فلما كانت الفتوح في الشام والعراق ومصر، وضعوا الخراج والعشور على الأراضي والمكس على التجارة وانقضت خلافة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على ذلك في أيام بني أمية مع ما فرضوه من ضرائب إضافية – غير قانونية – وما زالت مصادر الجباية – الضرائب- تزداد وتتفرع حتى أصبحت أيام العباسيين عديدة

يرجع أبرزها وليس جميعها إلي :

1 - الصدقة أو الزكاة
2 - الجزية
3 - الخراج
4 - المكوس
5 - الملاحات و الأسماك
6 - أعشار السفن
7 - أخماس المعادن - المناجم
8 - المراصد
9 - غلّة دار الضرب
10- المستغلاّت
11- ضرائب الصناعة وغيرها.

الصدقات- الزكـــــاة والعشـــــــور

الصدقات من واردات بيت المال، وهي الزكاة، فكانت تطلق الصدقة على الزكاة، كذلك تطلق الزكاة على الصدقة، والزكاة في اللغة بمعنى النماء، وترد بمعنى التطهير ومعلوم أن الزكاة عبادة من العبادات، وهي ركن من أركان الإسلام، ولقد أجمع الفقهاء على أن ضريبة الزكاة من الضرائب الأساسية ، وتغيرت مقادير الزكاة على مر الأيام ، إلا أنها تتعين دائما بالرجوع إلي الفقه ، والزكاة على العموم تبلغ 2،5% من الأصل التي تجبى منه. والزكاة أو الصدقة تجبى من الأموال المرصدة للنماء إما بنفسها وإما بالعمل فيها ، ويقوم عمّال الحكومة بجباية زكاة الأموال الظاهرة كالمواشي والمنتوجات الزراعية .

أما زكاة الأموال الباطنة كالذهب والفضّة فتترك إلي الفرد .

وتصنّف الأموال التي تجبى فيها الزكاة إلي الأصناف التالية :

1- المواشي
2- الزروع و الثمار
3 - الذهب و الفضة

و لم تظهر عند العرب في مصر ضرائب على المواشي والأسماك إلا في أواسط القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع ، باسم المراعي والمروج و المصائد.

كانت جباية الصدقات تترك عادة إلي عمّال الخراج الذين لم يحسنوا التصرف دائما ، وقد اقترح أبو يوسف على الخليفة الرشيد تعيين موظف خاص بالصدقات فقال مخاطبا أمير المؤمنين : "فمر يا أمير المؤمنين العاملين عليها - الصدقات - بأخذ الحق .. فقد بلغني أن عمّال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ، ويأتون ما لا يحلّ ولا يسع". وقد كرّس أبو يوسف بابا خاصا بالصدقات، يتحدث فيه عن العشور كذلك فيذكر "مما يؤخذ من المسلمين من العشور سبيله سبيل الصدقة ".

ويحدد الخوارزمي العشر بأنه: " ما يؤخذ من

زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها والتي أحياها المسلمون من العارضين". هذا وتقسم الأراضي في حوزة الدولة الإسلامية إلي نوعين:

أ - أراض عشرية

ب - أراضي خراج

وقد سأل الرشيد أبا يوسف بيان الحد بينهما، فأوضح ذلك بدقّة فقال: "إن كل أرض أسلم أهلها عليها، سواء كانت من أرض العرب أو العجم فهي لهم وهي أرض عشرية، مثل المدينة ، حين أسلم أهلها عليها؛ أما أرض الخراج، فهي أرض العجم التي فتحت عنوة ، وتركها الإمام بين أيدي أهلها، فلم يقسمّها - وقد سبق الحديث في هذا. وهنا أفرد مكاناً للضمان والإيغار والإلجاء ذلك لارتباط هذه الأمور ارتباطاً وثيقا بالضرائب، ولصلتها بالأراضي وملكيتها والخراج وطرق جبايته وتحصيله.

و بعدها نواصل الحديث عن ضرائب المستغلات وغيرها ولنبدأ بالضمان.

الضمـــــــان

الضمان هو التقبل ويعني أن يجعل شخص قبيلا ، أي كفيلا، بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه، وهو ما عرف فيما بعد باسم "نظام الالتزام" فيستفيد السلطان بتحصيل المال ويستفيد المتقبل الفرق بين ما دفعه وما حصّله ولقد وردت إشارة للضمان في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/24-743م) ؛ إذ إن فرّوخ أبا المثنّى "كان يتقبل أراضي هذا الخليفة، ثم زاد عليه حسّان النبطي ألف ألف درهم فسلّمت الأرض إليه، فبدايات الضمان ترجع إلي العصر الأموي ، ولكنّه أخذ ينتشر ويتوسع في العصر العباسي، حيث نسمع أخبارا عديدة عن ذلك، فمثلا نسمع أن أبا جعفر المنصور كتب إلي نوفل بن الفرات عامل خراج مصر (141هـ/758م) أن يعرض على محمد ابن الأشعث ضمان خراج مصر.

وقد أخذ نظام الضمان ينتشر بالرغم من أن الفقهاء صرّحوا بمخالفته لمبادئ الشريعة، وقد حمل القاضي أبو يوسف صاحب الخراج بشّدة عليه ، لأنه يؤدي إلي ظلم الفلاح، وشرح ذلك قائلا: "فرأيت ألّا تقّبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد، فإن المتقبّل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج ....والمتقبّل لا يبالي هلاكهم بصلاح أمره في قبالته، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبّل به فضلا كثيرا، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية ... وإنما أكره القبالة، لأني لا آمن أن يحمل هذا المتقبّل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم، فيضر ذلك بهم فيخرّب ما عمّروا فينكسر الخراج".

وكان من خبر أراضي مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع

معاشا وكسبا، وانقياد جمهور القبط إلي إظهار الإسلام، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين – أن : "متولّي خراج مصر، كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات ، وكتّاب الخراج بين يديّ متولّي الخراج، يكتبون ما ينتهي إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبّلها من الناس، وكانت البلاد يتقبّلها متقبّلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار، وغير ذلك، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبّل أرضا وضمها إلي ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر، وجوه أعمالها ، ويحمل ما عليه من الخراج في إبانه على أقساط، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها، بضرابة مقدّرة في ديوان الخراج.

لقد كان إعطاء خراسان وأعمالها إلي آل طاهر في القرن الثالث هـ/ القرن التاسع م بطريقة الضمان أيضا. وفي مطلع القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م انتهت بالتدريج طريقة جبي الضرائب من قبل موظفين خاصين، وخلفتها طريقة الضمان، والتي بموجبها – كما أسلفنا- يتعهد شخص بدفع مبلغ معيّن للخزينة سنويا مقابل السماح له بجباية ما يستطيع من أهل ولايته، وإذا لم تكن الولاية مهمة بحيث يعين لها أمير، فالضامن أهم موظفيها، وبذلك يتسنى له جمع كميات كبيرة من الهدايا والمرافق، وكان البعض من هؤلاء المتضمنين يدفع مبلغ الضمان مقدّما عند إصدار عقد ضمانه وتعيينه، ثم يوالي إرسال مبلغ الضمان سنويا من ولايته . وحيث إن الضامن يأمل في تحقيق أكبر قدر من الأرباح لنفسه ، فلا بدّ أنه كان يتفنن في ابتكار مناسبات الجباية ، مثل النيروز والمهرجان والمطالبة بالهدايا لتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب. وكان الضمان متبعا بصورة خاصة خارج العراق ، فبعد اضطرابات 183هـ/ 799م في مصر زمن الرشيد ، خرج ليث – والي مصر – إلي الرشيد وسأله أن يبعث معه بالجيوش لأنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الأحواف إلا بجيش، فرفع محفوظ بن سليمان أنه يضمن خراج مصر عن آخره ، بغير سوط ولا عصا فولاّه الرشيد الخراج .

مما تقدم نفهم أن نظام الضمان كان شائعا بصورة خاصة في مصر، ولم ينتشر في العراق إلا أواخر القرن الثالث وفي القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م أيضا.

هناك نوع ثان من الضمان، وهو أن يضمن رجل موسر عن أهل المنطقة خراجها، برضى منه، فذلك يستحسنه أبو يوسف، على أن يعين الخليفة مع الضامن "أمين من قبل بيت المال

يوثق بدينه وأمانته، ويجري عليه من بيت المال، فإن أراد ظلم أحد من أهل الخراج أو تحميل شئ لا يجب، منعه الأمير من ذلك أشدّ المنع". وهذا الضمان يطلق عليه لفظ الإيغار ،كما سيأتي.

يظهر أن نظام الضمان أصبح شائعا في القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع م، حيث يروي بن خرداذبه عن الفضل بن مروان قوله: " وخبرّني الفضل بن مروان أنه قبل الأهواز بتسعة وأربعين ألف ألف درهم، وأنه أنفق على مصالحها سبعين ألف درهم.

(ابن خرداذبه، 1967 ، 42- 43). وعن الضمان يعطينا مسكويه صورة فيها كثير من الوضوح فيقول : " ففي إمارة معز الدولة البويهي (334-356 هـ/945-966م) أطلقت الدولة أيدي أصحاب الإقطاع وأهل الضمان فلم تهتم الحكومة بمعرفة الطريقة التي يعامل بها الزرّاع من جور أو نصفة ، فنتج عن ذلك ظهور جبايات تحدث على غير رسم، ومصادرات ترفع على محض الظلم، وإضافات إلي الارتفاع ليست بعبرة ، وحسابات في النفقات لا حقيقة لشيء منها، ومتى تكلم كاتب من الكتّاب في شيء من ذلك فكان ذا حال، ضمن ونكب واجتيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف .

ويجدر أن نذكر أن القروض التي احتاجت إليها الخلافة هي الدافع للعمل بتضمين الخراج وأخذه بطريقة القروض ، ففي عهد الخليفة المعتضد (279-289 هـ/892-901م) حدّث أبو القاسم عبد الله بن سليمان وزير المعتضد أحد أصحابه فقال له : " قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر، وبيننا وبين الافتتاح مدّة - افتتاح الخراج - ولابدّ لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاقتصار والتجزئة، فإن كنت تعرف وجها تعيننا فأرشدني إليه .. فأشار صاحب الوزير بإطلاق ابني الفرات من سجنهما .... فخاطبا أحد الأغنياء في أن يضمن جزءا من أرض العراق، على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار، فأعطى خطة بذلك وعرف الوزير الأمر فاستطير هو والخليفة سرورا لهذا الحل الجديد بما انطوى عليه من مهارة ، ونجد في ثبت خراج 303 هـ/ 915 م أن خراسان والأهواز وواسط وغيرها، كانت ضمانا إلا الضياع . وفي سنة 306 هـ/918م ضمّن الخليفة خراج مصر بثلاثة آلاف ألف دينار، وفي سنة 308 هـ/920 م ضمّن الوزير حامد ابن العباس خراج العراق وخوزستان وأصفهان للمقتدر، فارتفعت الأسعار ببغداد. وخلال أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين/ القرن العاشر م كان أمراء الأطراف في معظم الأحوال

يظهر أمرهم بأن يكونوا ضامنين للبلاد التي يحكمونها .

جاء عند الصابئ : " قال محمد بن جعفر - من عمّال الحسن بن الفرات - : كان أخي أبو الحسن علي بن عيسى فيما ضمنّه من طساسيج طريق خراسان الجارية في الخاصّة، فاستوفى عليه استيفاء تشدّد فيه، واجتهد في إصلاح نيته وقبول مبرّته بكل ما يجتهد مثله مع مثله ، وأخي يمتنع ويقول : "يا هذا الرجل إن ما بيننا أمر هذا الضمان فإن وفيّت به، وخرجت منه فأنت أجلّ الناس عندي، وأقربهم مني، وإن أقمت عليّ أمرك في المغوارة والمدافعة فأنت أبعدهم من قلبي وأشقاهم بي ".

ففي سنة 453 هـ/1061 م في خلافة القائم بأمر الله ضمنت أعمال الوكلاء التي لخاص الخليفة بستة آلاف كر غلّة، ومائة ألف دينار، كما ضمنت جميع ضياع الخليفة في نفس السنة من واسط إلي صرصر - قرب بغداد - مدة سنة واحدة بستة وثلاثين ألف دينار وسبعة عشر ألف كر وسبعمائة كر.

الإيغـــــــــــــــار

هو ضرب من استهلاك الخراج ومعناه في الأصل "استيفاء" فيقولون: "أوغر العامل الخراج : أي استوفاه، ثم استخدمها المسلمون بمعنى الإعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الأرض مرّة واحدة. ولذلك قالوا : "أوغر الملك الرجل الأرض، جعلها له من غير خراج، وهو يؤدي الخراج إلي السلطان الأكبر فرارا من العمّال ، ويسمّى ضمان الخراج إيغارا". وكان للإيغار معنى آخر، يقول قدامة ابن جعفر : "الإيغار هو أن تحمي الضيعة من أن يدخلها أحد من العمّال ، وأسبابهم بما يأمر الإمام من وضع شيء عليها يؤدى في السنة إما في بيت المال أو في غيره .

ويعطي الخوارزمي في كتابه " مفاتيح العلوم " مفهوما مماثلا للإيغار وهو — الحماية - بأن يضمن صاحب ضيعة أو رجل من قرية خراجها برضى من أصحابها ، فيدفع مبلغ الضمان إلي الحكومة على ألا يدخلها عامل أو جاب " . الإيغار هو الحماية وذلك أن تحمي الضيعة أو القرية فلا يدخلها عامل ويوضع عليها شيء يؤدى في السنة لبيت المال في الحضرة أو في بعض النواحي. وبهذا المعنى يكون الإيغار بأن يهب الخليفة أرضا، يعفى مستلمها من الضريبة، وبذلك يكون في وضع ممتاز، ولا يسمى الإيغار إيغارا حتى يأمر السلطان بحمايته فلا تدخله العمّال بمساحة خراج ولا مقاسمة غلّة، ثم صار المألوف أن يطلق الإيغار على ضياع يتمتع بها صاحبها بتخفيف كبير من الضرائب، وهنا يتداخل الإيغار بالتسويغ ويعرّف الخوارزمي التسويغ بقوله: "التسويغ هو أن يسوغ الرجل من خراجه في السنة" .

ويظهر أن الإيغار كان شائعا في العصر العباسي الأول فيقول أبو يوسف : "وإن جاء أهل طسوج - منطقة زراعية - أو مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال : أنا أضمن عن أهل هذا الطسوج أو أهل هذا البلد خراجهم، ورضوا هم بذلك فقالوا: هذا أخفّ علينا، نظر في ذلك فكان أصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم إذا استطاعوا إلي ذلك سبيلا.

ومن الايغارات المشهورة في الدولة العباسية، إيغار (يقطين) وأصلها أن رجلا اسمه يقطين -وكان من وجوه دعاة بني العباس - أوغرت له ضياع من عدة طساسيج، ثم صار ذلك إلي السلطان، فنسب إلي إيغار يقطين. وجاء في معجم البلدان لياقوت" والإيغار : اسم لعدة ضياع من عدة كور، أوغرت لعيسى ومعقل ابني أبي دلف العجلي، وقيل لها، (الإيغاران) أي إيغارا هذين الرجلين.

وجاء في كتاب "الوزراء" للصابىء أن الخليفة المقتدر بالله ردّ عليه - علي بن الفرات في وزارته الثانية - "ما كان قبض عنه وعن أهله وكتّابه وأسبابه من الضياع والأملاك، فارتجع ما كان حصل في أيدي الناس القوّاد وخواص المقتدر من ذلك، ووقع بأن يوغر حق بيت المال في جميعه بألف درهم في السنة كل على استقبال سنة أربع وثلاثمائة " .

ومن هذا يتضح أن الخليفة قد تجاوز عن جلّ الضرائب علي ضياع بن الفرات ، واقتصر على مبلغ محدود وزهيد. يبدو أن هذا الأسلوب قد استمر عبر القرن الرابع هــ/ العاشر ميلادي، وأن الإيغارات كانت تدفع مبلغا محددا ، كما وسبق أن " أوغر المعتصم ضياع هارون بن المعمّر كي لا تدفع الخراج.

وخلاصة القول أن الغرض من الإيغار هو حماية صاحب الأرض أو أصحاب المنطقة من تعسف الجباة ، وفيه كذلك محاباة من الخليفة أو أولي الأمر لمن تعطى له الأراضي والأملاك بطريقة الإيغار، وهو أقلّ تعسفا بل أهون ضررا من الضمان.

الاِلجاء

عرّف بن الفقيه الإلجاء بما يلي: "أن يلتجأ صاحب الأرض إلي بعض الكبراء فيكتب ضيعته أو ضياعه باسمه ، فلا يتجرأ الجباة بعد على العسف ، به فتصبح تلك الضيعة بتوالي الأعوام ملكا للملجا إليه .

إذن الظلم في الجباية هو الذي دفع أهل الخراج إلي الاحتماء باسم أحد كبار رجال الدولة كالوزير ، فيدفع المزارع له مقابل ذلك مقدارا من المال في السنة، بعد أن يسجل أرضه باسمه ، وهذا ما يسمى بالإلجاء. وهكذا صارت التلجئة اصطلاحا قائما بذاته بين مواضعات الكتّاب في دواوين

الخراج في الدولة، والتلجئة: أن يلجىء الضعيف ضيعة إلي قوي ليحامي عليها. وقد يكون الإلجاء للتخفيف من الضرائب المفروضة. وكان الإلجاء مألوفا في أواسط العصر الأموي، فقد ألجأ الكثيرون أراضيهم أو قراهم إلي مسلمة ابن عبد الملك في بالس والبطائح ومروان بن محمد في أذربيجان حيث يعتبر مسلمة بن عبد الملك أحد كبار أصحاب الإلجاء في العصر الأموي، بل إن اسمه هو الأكثر بروزا عند الحديث عن الإلجاء عموما، والشخص الثاني الذي يبرز اسمه في قضية الإلجاء هو مروان بن محمد والي الجزيرة وأذربيجان - الذي أصبح خليفة فيما بعد .

حيث قام أصحاب الأراضي في مختلف نواحي أذربيجان بإلجاء أراضيهم إليه وكتبوها باسمه فابتناها وتآلف وكلاؤه أهلها للتعزز وعمروّها، فكانت هذه الأملاك من ضمن ما صودر من ضياع بني أمية فيما بعد على يد العباسيين.

أما في العصر العباسي فقد زاد الإلجاء وانتشر ، تحت ضغط الولاة وتجاوزهم على الزرّاع ، وساعد الإلجاء على توزيع الملكيات الكبيرة، وعلى ظهور سادة ملاّكين شبه إقطاعيين في كل من العراق وفارس والجبال وغيرها ، ذلك أن بعض من ألجئت الأراضي إليهم كانوا يستولون عليها فعلا. فكانت ملكية الأراضي تنتقل عادة إلي الحماة فيتحول المالكون الأصليون إلي مزارعين عندهم.

يذكر التنوخي أن أحد المالكين شكا إلي المنصور سوء معاملة العمّال له، وقدّم للخليفة ربع حاصل الأرض، إن رضي الخليفة بتسجيلها باسمه.

جاء عند الجهشياري "أن من أهل الخراج من يلجىء أرضه وضياعه إلي خاصة الملك وبطانته لأحد أمرين:

إما لامتناع من جور العمّال وظلم الولاة ، فتلك مترلة يظهر بها سوء أثر العمّال . وإما لدفع ما يلزمهم من الحق والكسر له ، فهذه خلّة يفسد بها أدب الرعيّة. ويعطي الجهشياري مثلا واضحا للإلجاء إذ يقول : "جاء رجل من أهل الأهواز إلي أبي أيوب وهو وزير المنصور فقال له : إن ضيعتي بالأهواز قد حمل عليّ فيها العمّال، فإن رأى الوزير أن يعيرني اسمه أجعله عليها، وأحمل إليه كل سنة مائة ألف درهم، فقال :" قد وهبت لك اسمي...وحال الحول فأحضر الرجل المال ودخل على الوزير أبي أيوب - وهو لا يعرفه - فجلس إلي أن خفّ الناس ثم دنا وقصّ عليه قصته، وأعلمه أنه قد انتفع باسمه ، وأنه قد حمل المال ".

وتذكر المصادر العربية الإسلامية قصصا وحوادث أخرى كثيرة قام بها أهل الخراج من المزارعين بالاحتماء بذوي السلطان عن طريق الإلجاء لأراضيهم.

وجاء في أنساب الأشراف إلجاء أراض واسعة للخليفة المهدي في كل من واسط والبطائح، و في أيام الخليفة هارون الرشيد ، فيذكر البلاذري في الفتوح "أن القاسم بن أمير المؤمنين الرشيد حين ولّي جرجان وطبرستان وقزوين ألجأ إليه أهل زنجان ضياعهم، تعزيزا به ودفعا لمكروه الصعاليك وظلم العمال عنهم، وصاروا مزارعين له، وأصبحت أراضيهم في الضياع". وذكر البلاذري أيضا: "أن أهل الشعبيّة من الفرات جعلوها لعلي بن أمير المؤمنين الرشيد في خلافة والده، على أن يكونوا مزارعين له فيها ويخفف مقاسمتهم، فتكلم فيها فجعلت عشرية، من الصدقة ، وقاسم أهلها على ما رضوا به. وهكذا كان الإلجاء وسيلة للتخلص من عسف الجباة والعمّال ومن إرهاقهم ، كما أن نفوذ الحامي قد يجعل الجباة والعمّال يتغاضون عن جباية جزء من الضرائب المستحقة، وبمرور الزمن كان الحامي يصبح المالك الحقيقي للأرض في حين يتبدّل المالك الأصلي إلي حالة مزارع في الأرض . وكان يحدث أيضا أن يرغب صغار أرباب الضياع من الإفلات من عبء الخراج العادي فاعتادوا أن يلجئوا ضياعهم إلي الكبراء الأقوياء ، فكانت تجري بأسمائهم ويخفّف عن أهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط ، كما هو الحال في الاقطاعات ، ولكنها - الضياع - تبقى في أيدي أهلها يتبايعوها ويتوارثوها ، وإن كانت بأسماء من أجأ وها إليهم .

ويبدو أن الإلجاء للقادة الأتراك كثر في أواسط القرن الثالث هـ/ التاسع م لدرجة قللت الوارد مما دفع الأجناد الأتراك إلي المطالبة سنة 256هـ/869م بإلغاء التلاجؤ. وذكر مسكويه أن كثيرا من الملاّك في العراق جعلوا أراضيهم سنة 358 هـ/968م ملاجىء لابن شيرزاد وهذا يدل على تملّك رؤساء الديلم الكثير من الضياع والأراضي عن طريق الإلجاء .

مما سبق نرى أن ظاهرة الإلجاء والتوسع في الإقطاع قد ازدادت كثيرا في العصر العباسي وخاصة في ظل البويهيين، فكثر إلجاء الأراضي من جلّ الملاّك إلي المقطعين العسكريين تجنبا للابتزاز والإرهاق ، كما هرب البعض وترك الأراضي لهم وفي المناطق التي خصصت لرؤساء الديلم، وكان هؤلاء يتصرفون بها وكأنه ملك خاص بهم، يتمتعون بها طول حياتهم، واستمر ذلك زمن عضد الدولة (338-372هـ/949 -983 م) الذي فرض سلطته في الإقطاعات الكبيرة وحقق جباية الضرائب اللازمة منها.

أما في مصر فيشير آدم متز إلي أنه " في عام 415 هـ/ 1024م اعتبر الملجئون في مصر بحكم القانون موالي تابعين للأقوياء الذين اهتموا بهم، ولكنهم لم يصيروا إلي هذه الحالة قط في فارس.

المكوس و المراصد

جاءت مكس مرادفة لكلمة العشر أو عشور تجارة ، لأنها كانت في الأصل تؤخذ في الأسواق العربية من التجار الذين يمرون بها. ويقول المقريزي: "المكس: هو العاشر وأصل المكس في اللغة: الجباية"، و يعّرف صاحب مفاتيح العلوم بأنه "ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد"، ويذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوئل" لفظ الإتاوة ثم تركوها، وقالوا الخراج والمكس، ثم تركوا ذلك و قالوا: الضريبة ". وقد شكا بعض الشعراء من المكس قائلا :

أ في كل أسواق العراق إتاوة
وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وأما المكوس والمراصد فهما تقابلان الجمارك والعوائد في هذه الأيام، فقد كان الحكام المسلمون يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة في البحر أو البر، مهما يكن نوعها من المحصولات أو المصنوعات أو الأنسجة أو الرقيق أو غيره، وكان يحصل لهم من ذلك مال كثير.

ويشير جرجي زيدان "إلى أن هذه الضرائب وأمثالها لم تكن لها رواج في أوائل الخلافة العباسية، ولا كانت غلتها تستحق الذكر، ولكن دخلها تعاظم في عصر الاضمحلال، أي العصور العباسية المتأخرة .

وتتصف المكوس بصفتين رئيستين : الأولى أنه ليس لها حد معين، والثانية أن جبايتها كانت تعتمد على أهواء المسؤولين من جهة وعلى الوضع العام من جهة أخرى.

أما متولي الجباية فهو صاحب المكس الذى يتولى جباية عشور التجارة التي تمر بالمراصد والمآصر – مراكز تفتيش –وكانت الضرائب تفرض في البصرة على البضائع المحمولة في السفن والمجلوبة بحرا إليها، وتدعى هذه الضرائب بالمكوس، وتدعى محلات جبايتها بالمراصد.

قال الخوارزمي: " المكس: ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد"، و كان المسلمون يدفعون 40/1 أو 2،5% ضريبة، ويدفع التجار الهنود والصينيون 10/1 أو 10%.

ويخبرنا بن خرداذبه أن التجار الروس وهم جنس من الصقالبة كانوا يحملون جلود الخزّ وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلي البحر الرومي ليعشّرهم صاحب الروم ... حتى يصلوا بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة، ويدعّون أنهم نصارى فيؤدّون الجزية .

وورد في جريدة علي بن عيسى (306هـ/918م) أن ضرائب السفن كانت تساوي 575،22 دينارا، وبلغ واردها سنة 339 هـ/ 950 م مبلغ 200 ألف دينار. جاء عند مسكويه: "وتضاعف الارتفاع للسلطان ، وزالت عن البصرة تلك الرسوم وصار يرتفع عن

المراكب ما يعدل ألفيْ ألف درهم، ... فكان هذا من الآثار الجميلة ".

في العراق كانت المراصد كثيرة في البر والبحر والنهر، وكانت البصرة مشهورة بتفتّش صعب، وشوكات منكرة، ويذكر المقدسي أنه كان على باب البصرة- عند حدود مملكة الخليفة من حدود بلاد القرامطة- ديوان للقرامطة وديوان آخر للديلم، حتى لقد كان يؤخذ عن الغنيمة الواحدة أربعة دراهم - أي ضعف ثمنها - فمما ذكره المقدسي يتبين أن رسوما جمركية كانت تفرض على الموانىء وكان لصغار ملوك العرب على اختلافهم مراصد بحرية تدفع إليها الضرائب على تفاوت القيمة . وفي بغداد كانت المكوس تفرض على البضائع التي يأخذها الحجاج، أو يأتون بها، ويفتخر عز الدولة في كتاب أرسله إلي حاجبه، سبكتكين سنة 363 هــ/ 973 م إذ يقول : " ورفعنا عنهم ما كان يؤخذ منهم لك ولنظرائك من ضرائب الغنم المجلوبة ، والأمتعة التي يأخذها الحجيج صادرة وواردة .

كما ألغى علي بن عيسى في وزارته الأولى (300-304هــ/912-916م) المكوس الثقيلة التي كانت تجبى في حصن مهدي وفي نهر سدرة. وكانت أنشئت دور خاصة للمكوس في أماكن مختلفة، خاصة على ضفاف الأنهار، وكان يمدّ حبل أو سلسلة بين الضفتين عبر النهر ليمنع عبور السفن قبل أن تجبى الضريبة منها، وهذا ما يدعى بالمصر، وجمعها مآصر، هذا ويطلق لفظ المصر على الضريبة نفسها .

ومما ذكره بن رسته: "من واسط إلي هذا الموضع كلها شرق دجلة وبالحوانيت السيّارة والمآصر من قبل السلطان ، والمآصر: أن تشدّ سفينتان من إحدى جانبي دجلة، وسفينتان من الجانب الآخر، وتشدّ رأسها إلي السفن؛ لئلا تجوز السفن في الليل.

وكان بن رائق (324-326هــ/935-937م) أول من وضع المآصر على الطريق من بغداد إلي واسط في دير العاقول على دجلة وفي واسط. وكانت المكوس في بعض الحالات ثقيلة ، فقد فرض على سفينة محملة بالحديد والجرار أن تدفع ثمانية آلاف درهم في واسط .

وذكر بن حوقل أنه: "كان يتحصل مما يخرج من أذربيجان إلي نواحي الريّ ولوازم على الرقيق والدواب وأسباب التجارات كلها من الأغنام والبقر مقاطعة هذا المرصد دائما مائة ألف ألف درهم في السنة، وليس له ولما يجتاز به شبه في جميع أقطار الأرض. ومما شاهده شمس الدين المقدسي بنفسه في مصر في أواسط القرن الرابع الهجري/ القرن العاشرم من الضرائب التي كانت تؤخذ في تنيس ودمياط قال :" وأما الضرائب فثقيلة ، بخاصة في تنيس ودمياط، وعلى ساحل النيل، وأما الثياب

الشطوية فلا تباع إلا على يد سماسرة ... ثم على باب الفرضة – الميناء- يؤخذ شيء من الجمارك ...ثم تفتش المراكب عند إقلاعها، ويؤخذ بتنيس على زقّ الزيت دينار ومثلها هذا وأشباهه على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ... ورأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالسا قباله .... يجمع في كل يوم ألف دينار ومثله عدّة .. ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم ".

وجدير بالذكر أن العصور المتأخرة من الفترة العباسية تتميز باضطراب الخلافة وبتسلط عناصر أجنبية – تركية أو فارسية – عليها، وبتقلص رقعتها دون أن يحدث تقلص في مكانتها الإدارية، هذا مع ارتفاع مستوى المعيشة، وإذا أضفنا إلي ذلك قلّة الرقابة على العمال، فهمنا سوء التصرف والسعي إلي إحداث ضرائب جديدة، ومنها المكوس التي نتحدث عنها، إضافة إلي الزيادات في الضرائب القديمة – في الخراج وفي العشر – ثم إحداث ضرائب جديدة – كما سيأتي – ويبيّن البوزجاني الذي كتب في العصر البويهي أن ارسوم التي تفرض في المآصر مختلفة في النواحي علي حسب ما يراه السلطان ويرسمه، فقد تكون جزءا من ثمن البضائع المارّة مثل الأعشار، وقد تكون ضريبة على الوحدة علي حسب نوع البضاعة .

و لم يكن البويهبون وحدهم هم الذين أثقلوا كاهل الرعيّة بالضرائب والمكوس، بل إن السلاجقة الذين خلفوهم في الحكم كانوا أشدّ وطأة منهم. وقد ذكر الراوندي: "أن السلطان سنجر أمر عماله في العراق بأن يأخذوا الضرائب من كل مدينة من مدن العراق"، وكان الخليفة العباسي يتدخل أحيانا ويستخدم سلطته الدينية في التخفيف من وطأة هذه الضرائب أو إسقاطها، ففي عام 480هـ/990م أصدر الخليفة المقتدي بأمر الله منشورا برفع بعض الضرائب، وكتبت ألواح ألصقت على الجوامع بتحريمها؛ كما أن بعض السلاطين كان يلجأ إلي رفع الضرائب والمكوس كتدبير سياسي للتقرب من العامّة، وكسب عطفهم، ومن أمثلة ذلك أن السلطان محمد أمر برفع الضرائب والمكوس، فكثر الدعاء له. وكثيرا ما عبّر الفقهاء والوعّاظ عن سخط العامة وتذمرهم من هذه الضرائب التي أثقلت كاهلهم . حيث كان مكس البيع مناشد الضرائب وقعا على الناس في العصر السلجوقي، ومما يروى أن الواعظ بن العبّادي، خاطب السلطان مسعودا فى رفع ضريبة بقوله : " يا سلطان العالم أنت تهب في ليلة لمطرب بقدر هذا الذي يؤخذ من المسلمين ؛ فاحسبني ذلك المطرب وهبه لي واجعله لله بما أنعم عليك، فأجاب ونودي في البلد بإسقاطه وطيف بالألواح التي نقش عليها ترك المكوس.

المستغلات

المستغلات هي الضرائب التي تفرض على

الدور والأسواق والطواحين التي ابتناها الناس على أرض تربتها للسلطان، فيؤدي عنها أجرة ، ويبدو أن ضرائب المستغلات قد بوشرت في الخلافة الأموية ، فإلي جانب جباية الخراج كانت تجبى ضرائب المستغلات ، لإيجاد موارد جديدة للدولة، فكانت تمثل إيرادات الأراضي المملوكة للدولة وما يقام عليها من أبنية وحوانيت وطواحين ونحو ذلك. في عهد الوليد بن عبد الملك 86-96هـ/705-715م نسمع عن ديوان جديد هو ديوان المستغلات بدمشق ، ويكتب له نفيع بن ذؤيب مولى الوليد، ويقول الجهشياري : إن اسمه مكتوب في لوح في سوق السرّاجين بدمشق، كما يشير السامرائي نقلا عن القاضي وكيع إلي مستغلات تولّى العامل على السوق في الكوفة جبايتها أواخر الدولة الأموية.

أما في العصر العباسي، فالضرائب على المستغلات قد ازدادت وتشعبت، وسوف نذكر كل ضريبة بمفردها للتعرف عليها . ففي ظل عهد الخليفتين الواثق والمتوكل بلغت ضريبة المستغلات في سرّ من رأى عشرة ملايين درهم في السنة، ويذكر بن خرداذبه أن غلاّت الأسواق والأرحاء، ودور الضرب بمدينة السلام بلغت ألف ألف وخمسمائة ألف درهم.

ويحدد الدو، ي السنة 272هـ/885م كما يذكر الدوري أيضا: أنه سنة 300هـ/912م بلغت واردات مستغلات بغداد 13000 دينارا في السنة مستعينا بابن الأثير مصدرا له.

ضرائب على الطواحين – الأرحاء

ومن المستغلات هناك الضرائب التي تفرض على الطواحين – الأرحاء- وقد بدأت في العصر العباسي الأول، غير أن المصادر لم تذكر – علي حسب علمي – مبالغ الضرائب المفروضة عليها، ولا كيفية استيفائها. يذكر اليعقوبي أن – رحا الطريق – المشهورة والتي أقيمت على نهر دجلة شمال بغداد كانت تغلّ مائة ألف درهم سنويا . أما في مدينة الحديثة فإن غلّة الطواحين بها قد بلغت خمسين ألف درهم في السنة، ويذكر بن حوقل كذلك أن أعدادا كبيرة من الطواحين على امتداد الفرات في إقليم الجزيرة- وخاصة في منطقة بازيدي- كانت غلتها تشكّل نسبة عالية من مبالغ ارتفاعها .

أما في العصر البويهي، فقد وضع عضد الدولة يده الثقيلة على جميع الأرحاء وجبى ارتفاعها، و لم يترك لأهلها إلا شيئا قليلا. وقد استمر تذمر الناس من ذلك إلي آخر أيامه. وفي أيام صمصام الدولة، أعيد النظر في ذلك، وأزيلت أسباب التذمر، وأعيد للملاّك حقوقهم .

ضريبة الأسواق والحوانيت

ومن ضرائب المستغلات الضرائب على

الأسواق، وأول من فرض ضريبة على الأسواق هو الخليفة المهدي ، وذلك عام 167هـ/ 783م، وقد قدّر اليعقوبي هذه الضرائب ب 000.900 .11 درهم سنويا. وبلغ وارد أسواق الغنم في بغداد وسامراء و واسط والبصرة والكوفة في جريدة علي بن عيسى سنة 306هـ/918م مقدار 579.160 دينارا سنويا. ويخبرنا بن حوقل أن ما يقبض في القصبة - نصيبين - والضياع المقبوضة والمشتراة، وغلاّت العقار المسقّف من الخانات والحمامات والحوانيت والدور والطواحين ستة عشر ألف دينار وذلك سنة 358 هـ/968م . ويقول الدوري: هذا يدل على أن الحمامات كانت تدفع ضريبة أيضا.

وفي مدن فارس كانت أراضي الأسواق وشوارعها ملكا للحكومة تأخذ عنها أجرا، وكذلك أجرة الدور التي يعمل فيها ماء الورد، أما الدور فكانت ملكا لأصحابها. ويتحدث الإدريسي (توفي 560هـ/1164م) في نزهة المشتاق عن "كثرة الأموال وأعمال التجارة في سوق الأهواز وتسمى - سوق الأربعاء" - كما يذكر "الحركة التجارية في مدينة خاجندة من أرض خراسان، فقد كان فيها سوق في رأس كل شهر وهي سوق مشهورة. ويتحدث يحيى ابن عمر (توفي 289هـ/901م) في كتابه "النظر والأحكام في أحوال السوق" عن مهام صاحب السوق في مراقبة التلاعب بالأوزان ومراقبة عيار النقد ، وكان يلزم الباعة بإخلاء السوق يوما لأحدهم، والمحافظة على نظافة الأسواق، ثم يذكر ما يأخذه صاحب السوق من الباعة أجرا له، ويمكن هنا ذكر ضريبة العرصة أي أجرة العرصة، وهي تمثل بدل إيجار عن الأراضي التي تعود ملكيتها لبيت المال، والتي أقيمت عليها بنايات خاصة بالأفراد .

ويذكر التنوخي قصة تفيد أنه كانت توجد ضريبة على الدور كانت تسمى "أجرة العرصة"، وأن واردها كان كثيرا في خلافة المقتدر، ويفهم من التنوخي أنها كانت تفرض على البنايات المنشأة على أراض حكومية.

الضرائب على المنسوجات

ومن الضرائب التي توسعت أيام البويهيين ضريبة "بيع المنسوجات" القطنية منها والحريرية في بغداد . وقد جعل صمصام الدولة (375 هـ/985م) مقدارها 10/1 من الثمن فأدى ذلك إلي حصول فتنة وشغب في بغداد حتى ألغيت الضريبة. وفي سنة 389 هـ/998م) أعاد الوزير أبو نصر فرض العشر على المنسوجات الحريرية والقطنية المعمولة في بغداد، فثار عليه سكان محلّة العتابية ومحلّة باب الشام، إلا أن الثورة أخمدت وثبت هذا الرسم، ورتّبت جبايته، واستمر الحال حتى أيام عميد الجيوش أبي عبي 390هـ/ 999م الذي أسقطه وأزال رسمه.

ضريبة المراعي

لقد توسع البويهيون في ضريبة المراعي، وبيوع المواشي، خاصة أيام عضد الدولة، حيث تدخل ضريبة الراعي في الرسوم التي أحدثها هذا الأمير، وقد فرض عضد الدولة ديوانًا خاصا سمي - ديوان المراعي - ضمّ إليه عمّالا وكتّابا وجهابذة، وكانت مهمة الجهبذ في هذا الديوان ضبط عوائده التي زادت في "السواد" على ألف ألف درهم في السنة ، وقد ألغيت هذه الضريبة في (سنة 379هـ/989م) بعد ثماني سنوات من إقرارها، وذلك بأمر من بهاء الدولة. وكان قد فرض ناصر الدولة (317 - 358 هـ/929 - 968 م) الضرائب على بيوع الأغنام والدواب والبقر والفواكه حتى بلغ الوارد خمسة آلاف دينار في السنة. في حين ظهرت ضريبة المراعي في مصرفي أواسط القرن الثالث الهجري باسم - ضَريبة المراعي والمروج والمعايد .

الركاز – المعادن

لقد اختلف العلماء في تحديد المقصود من الركاز، فذكر أبو عُبيد القاسم بن سلام: "أن الناس قد اختلفوا في معنى الركاز، فقال أهل العراق: هو المعدن والمال المدفون كلاهما، في كل واحد منهما الخمس، وقالوا: الركاز هو المال المدفون من دفائن الجاهلية، وقالوا: إن المعدن ليس ركازا ولا خمس فيه، وإنما فيه الزكاة فقط". ويرى أبو يوسف " أن الركاز هو الذهب والفضة اللذان خلقهما الله في الأرض يوم خلقت ، ولبيت المال فيه الخمس" .

وجاء في كتاب التمدن الإسلامي أن المعادن كانت في الفترة العباسية على ضربين: ظاهرة وباطنة، والمعادن الظاهرة: ما كان جوهرها المستودع بارزا كمعدن الكحل والقار والنفط، فهذه لا يجوز إقطاعها، لأنها كالماء والناس فيه سواء ؛ يأخذه من ورد إليه – ومن قبيل ذلك أراضي المراعي والكلأ والآجام. أما المعادن التي في باطن الأرض فهي: ما كان جوهرها مستكنا فيها، فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها، ولها الخمس مما يخرج منها.

ونظرا لسعة الدولة العباسية فقد كانت فيها المناجم عديدة ... وكانوا يقطعون هذه المعادن إقطاعا أو يضمّنوها تضمينا بمال معين (انظر الضمان) .وقد يكون ذلك المال كثيرا، مثل معادن الفيروز في نيسابور بلغت ضمانتها في أواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادى 758.720 درهما. وكان يرد على بيت المال أخماس المعادن من مدن الذهب على حدود الحبشة، فإنها كانت تستثمر فيدفع عنها الخمس إلي بيت المال، حتى زمن المتوكل، إذ طرد البجّة أصحاب المناجم وأرهبوهم، فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان،

بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن ... ولكن المتوكّل دحر البجّة فرجع المسلمون إلي استثمار هذه المناجم .

الأخماس وسيب البحر

كانت تستوفي الأخماس من عدة أوجه، منها سيب البحر والمعادن والركاز، ويعرّف الخوارزمي سيب البحر بأنه: "عطاء البحر كاللؤلؤ والمرجان والعنبر ونحوه".

وقال أبو يوسف بأخذ الخمس من سيب البحر ، أمّا بن سلام فيرى "أنه إذا ما بلغ ثمن الخارج من البحر مائتي درهم تؤخذ منه الزكاة". ويخلص آدم متز إلي ما يلي: "من وجوه الأموال التي تغذي بيت المال أخماس المعادن والركاز والمال المدفون من دفائن الجاهلية، وخمس سيب البحر مما يقذف به ويستخرج منه مثل العنبر والحلية، ومنها أثمان الآباق من العبيد، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يأت لذلك طالب يستحقه "..

ضريبة الإرث

ومن وجوه الأموال التي ترد إلي بيت المال ... ما يؤخذ من مواريث من يموت ولا يخلّف وارثا له. وكان لا يؤخذ لبيت المال إلاّ من ميراث المسلمين. لقد تجادل الفقهاء كثيرا ، واختلفت اجتهاداتهم في مسألة ردّ التركة إلي بيت المال، بدلا من ردّها إلي الأباعد من ذوي الأرحام

...حيث ذهب بعض الفقهاء إلي أن بعض الأقارب الأدنين لا يجوز أن يحوزوا أكثر من الأسهم المفترضة لهم في القرآن الكريم ، أما ما يفضل عن ذلك فهو من نصيب بيت المال. هذا ولا يتوارث أهل ملّتين، فإن السنّة جرت بأن أهل كل ملّة يورثون من هم منهم إذا لم يكن له وارث من ذوي رحمه . هذا وإن ضريبة الإرث لم تكن من الضرائب المشروعة بل يراها البعض بدعة حيث أثقلت كاهل الناس.

وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع م أنشيء ديوان خاص يسمى "ديوان المواريث" وذلك في عهد الخليفة المعتمد(256-279هـ/869-892م) وكان هذا الديوان مجالا واسعا لظلم الناس، والإعنات في مواريثهم وأخذ ما لم تجر به السنّة، وقد استمرت ضريبة الإرث طوّال القرن الرابع الهجري/العاشرم، وكانت موردا مهما للخزينة بل كانت المواريث أو التركات في نهاية القرن الرابع الهجري والقرن الخامس الهجري/ القرن 11م من الموارد التي أولاها البويهيون والسلاجقةاهتمامهم فجعلوها من جملة الموارد. ففي سنة 390هـ/999م أمر الأمير بهاء الدولة البويهي سابور بن أردشير أن يحمل إلي خزانة الدولة خمسين ألف دينار من تركة محمد بن عمر العلوي نقيب الطالبيين .وفي سنة 455 هـ/ 1063 م أصدر السلطان طغرل بك، أمرا بحمل التركات إلي

خزائنه، كما أن السلطان مسعود حين اختلف مع الخليفة المقتفي (530-555هـ/ 1135-1160م) أمر أن تحمل أموال التركات إلي خزائنه، وفي عام 463هـ/1070م توفي الخطيب البغدادي وكان قبل وفاته يقول: "إذا مت كان مالي لبيت المال، وكان مقدار ما يملكه البغدادي مائتي دينار".

ضرائب إضافية وفروض متفرقة:

هناك ضرائب كثيرة متنوعة ومتعددة عانى منها أهل الخراج وعامة الناس نجدها متفرقة ومثبتة في كتب الفقه والمصادر التاريخية والأدبية. ونذكرفيما يلي بعضاً منها:

- الرواج :

الرواج هو رسم مرتبط باستيفاء الضرائب النقدية التي يتولى الجهابذة جمعها من المزارعين، وقد أوضح أبو يوسف أن المقصود من استيفاء الرواج هو أن يقتطع الجهبذ لعدد من الدراهم عند محاسبة كل واحد من دافعي الضريبة النقدية المقررة تحوطا من الخطأ في حساب سعر الصرف، عندما يكون الدفع بنقود مغايرة، ولعل فرض رسم الرواج كان بسبب شيوع الغش والتزييف والبهرجة في النقود.

- الأيين

وهي ضريبة أخرى يقوم بها الجهابذة وتسمى "الأيين" أو "حق الجهبذ"، وهي جباية تستوفى من المزارعين، لتمثل أجرة الجهبذ وتستوفى بنسبة مئوية من إجمالي أثمان الحاصلات التي تنتجها الأرض الخراجية. ويبدو أن استيفاء الأيين من المزارعين أصبح قاعدة ثابتة. وكان يستوفى على أساس وحدة المساحة المزروعة، بعد تخمين معدلات الجباية وذلك بنسبة 3 %. وذكر الدوري أن الأيين فروض عرفية تدفع للمسّاح بمقدار عن كل جريب. إن ما يستوفى من المزارعين تحت مسمى الأيين يمثل بدل خدمات الجهبذ - كما أسلفنا - وإن مبالغ الجباية كانت تمثل إيرادا لبيت المال، ويبدو أن مال الجهابذة هذا قد تأخر ظهوره في الإدارة المالية للدولة العباسية حتى أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد وصفها الوزير علي بن عيسى بأنها "بلاء على الناس".

بما أن ضريبتي الرواج والأيين تتعلقان بعمل الجهبذ ، فيستحسن إيراد كلمة تعريف بسيطة بالجهبذ وبعمله. يعّرف الجهبذ بأنه صرّاف، وأنه النقّاد الخبير، وقد ارتبط اسم الجهبذ بديوان الدولة، وقد يعيّن في المركز في إطار ديوان الخراج، ثم لاحقا يظهر الجهبذ تاجرا يقوم بتسليف النقود وقبول الودائع. أما عمله فيتمثل بأنه يقدم حسابا شهريا يسمى "الختمة"، وهو سجل رسمي يعرف ب "أوراج" ويتضمن قوائم بالوصولات والدفعات الضريبية، والنفقات الخاصة لكل مدينة ومقاطعة وإقليم، يرفعه الجهبذ إلي الديوان ليختم به حساب

الشهر، ويقدم الجهبذ حسابا سنويا يسمى "الختمة الجامعة"، ويصدّر الجهبذ إلي جانب الكشوفات اليومية والشهرية والسنوية براءات أو وصولات تتضمن معلومات عن نوع الضريبة وتاريخ دفعها.

رزق العامل

وهو من الرسوم الإضافية، فكان العمّال والجباة ، يأخذون- علاوة على حصة المقاسمة- رسوما إضافية، يشير إليها أبو يوسف كرزق عامل وأجر مدي أو أجور الكيّالين ونزوله وحموله طعام للسلطان وثمن صحف وقراطيس. بالإضافة إلي كل هذا يطلب من المزارعين أحيانا كري القنوات على نفقتهم .

ضريبة الأحداث

ومن الموارد الإضافية "الأحداث" وهي الغرامات التي تأخذها الشرطة عن الجنايات التي تقع في المجتمع. يقول الجهشياري: "قلّد الخليفة المهدي عمارة بن حمزة الخراج بالبصرة، فكتب هذا للخليفة يسأله أن يضم الأحداث إلي الخراج، ففعل ذلك وقلّده الأحداث مضافة إلي الخراج.

ضريبة الجعل

الجعل من أكثر الجبايات التعسفية إثارة لدافعي ضريبة الخراج على أساس أن عمّال الجباية كانوا يبعثون عند حلول مواعيد تسديدها رجلا من أعوانهم إلي من عليه الخراج ، ليأتي به من أجل مطالبته بما استحق عليه من الضريبة، وفي مقابل هذه – الخدمة – فإن عامل الجباية "يجعل" لرسوله هذا "جعلا" يطالب به كما بالخراج، وربما يكون مقداره أكبر من الضريبة الأساسية المستحقة. و قال أبو يوسف ثم يبعث – عامل الخراج – رجلا من هؤلاء الذين وصفت لك أنهم معه، إلي رجل ممن له عليه الخراج، ليأتي به فيأخذ منه الخراج ، فيقول له : قد جعلت لك أن تأخذ منه كذا وكذا، حتى بلغني أنه ربما وظّف له أكثر مما يطالب به الرجل من الخراج، فإذا أتاه ذلك الموجّه قال له : أعطني جعلي الذي جعله لي الوالي، فإن جعلي كذا وكذا ، فإذا لم يعطه ضربه وعسفه، وساق البقر والغنم وما أمكنه من ضعفاء المزارعين، حتى يأخذ ذلك منهم ظلما وعنوانا . ويعلق السامرائي على ضريبة الجعل هذه أنها ضرر خطير؛ لأنها تضعف قدرة دافعي الضريبة وتسبب نقص الايرادات .

ضريبة الملح

وهي من الضرائب التي فرضت في العهد البويهي، ويبدو أن الناس كانت تتعرض لكثير من الأذى بسببها، ففي عام 435هـ/1043م خاطب الدنيوري الزاهد الأمير البويهي؛ جلال الدولة في غلاء تلك الضريبة، وأعلمه بتأذي الناس فيها ، فأجاب الأمير طلبه وأمر بإلغائها وكتب منشورا بذلك، قرئ في الجوامع، وكان ارتفاعها ألفي دينار في السنة .

ضريبة الزيت

في سنة 330 هـ/941 م فرض أبو الحسن البريدي ضريبة على الزيت، كما فرض ضريبة أخرى باهظة بلغت سبعين درهما على كرّ الحنطة.

خاتمــــــة :

تناولت هذه الدراسة الضرائب وإدارتها وأنواعها ومسمياتها ثم طرق جبايتها، واجتهد الباحث أن يحدّد الكيفية التي سارت عليها الجباية وحدودها.

لم تكن في دولة الخلافة الإسلامية كلها ضرائب ثابتة ونافذة على نسق واحد، إلاّ الضرائب الإسلامية الخالصة و هي:

- ضريبة رؤوس أهل الذمة .
- الزكاة المفروضة على المسلمين وكانت دولة الخلافة تستقي مواردها من الفيء: وهو ما يؤخذ من غير المسلمين (دون قتال) ويشمل ثلاث ضرائب :
- الخراج – الجزية و الغنائم (على تجار المشركين).

أما بالنسبة للضرائب على الأرض والإنتاج الزراعي، فالأمر مرتبط بطبيعة ملكية الأرض وطريقة استغلالها. وبالإمكان تصنيف الضرائب على الأرض كما يلي :

- الضرائب الأساسية .
- الضرائب الاضافية .
- وأخيرا الضرائب والجبايات التعسفية.

إن العمدة على زيادة الثروة، إنما هي على الخراج، حتى سمّوا مجموع الجباية "خراجا" بإطلاق البعض على الكل.

لقد تكرر في هذه الدراسة، تعبير عسف الجباة ، وظلم الحكّام. إن الظلم الذي وقع في أساليب الجباية، جاء بشكل رئيس من الضرائب الإضافية، ومن ضرائب المكوس. وكثيرا ما نرى أن الإصلاحات التي كان يقوم بها هذا الخليفة، أو ذلك العامل، بين حين وآخر، لا تطبق بغير زمنه، ولا يلتزم بها من يأتي للحكم بعده، وهذا الأمر انتبه إليه المسلمون، فكانت عدة اقتراحات لسنّ قوانين لتنظيم جباية الضرائب ووضعها في دفاتر .

كما أن الدراسة ، قد أشارت إلي جهود العلماء المسلمين في تصنيف كتب الخراج والأموال، وما شاكل، والتي وصلنا من جملتها كتاب "الخراج" للقاضي أبي يوسف الذي كتبه بطلب من الخليفة هارون الرشيد.

أ.د. صالح خلف الحمارنة

(جامعة عمان– الأردن)

المصادر والمراجع

1) المصادر:

- القرآن الكريم

- **ابن الأثير** :علي بن أحمد
(ت 630 هـ/ 1238 م)
1987، الكامل في التاريخ،دار الكتب العلمية، بيروت.

- **ابن آدم** : يحيى القرشي
(ت 203 هـ/-818 م)
1384، كتاب الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة .

- **الإصطخري** : أبو إسحق إبراهيم
(309 هـ/ 921 م)
1967 ،المسالك والممالك - المكتبة الجغرافية العربية، ليدن .

- **ابن الجوزى** : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي سبط (ت 597 هـ/ 1200 م)
1990، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد، الدكن.

- **ابن خرداذبه** : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
(ت 300هـ/ 912 م)
1967 المسالك والممالك،المكتبة الجغرافية العربية،ليدن .

- **ابن طبا طبا** :محمد بن علي الطقطقى (ت 709 هـ/ 1309م)
1380،الفخري في الآداب السلطانية ، دار صادر، بيروت .

- **البلاذري** :أحمد بن يحيى بن جابر
(ت 279 هـ/ 892 م)
1968، فتوح البلدان ، تحقيق دي جويه،المكتبة الجغرافية العربية،بريل، ليدن .

- **التنوخي** : القاضي أبو علي
(ت 384 هـ/ - 994 م)
1904 ، الفرج بعد الشدّة ، جزءان ، القاهرة .
1930 ، نشوار المحاضرة أو جامع التواريخ ، عدة أجزاء ،طبعة دمشق.

- **الجهشياري** : أبوعبد الله محمد بن عبدوس(ت 331 هـ/ 933 م)

1980، الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقّا وآخرين، القاهرة.

- **ابن حوقل** : أبو القاسم محمد النصيبي (ت 367 هـ/ 977 م)

1939 ، صورة الأرض ، طبعة بريل ، ليدن.

- **الخوارزمي** : أبو عبدالله محمد بن أحمد الكاتب (ت 387 هـ/ 997 م)

1981 ، مفاتيح العلوم ، القاهرة .

- **الإدريسي** : الشريف محمد بن عبد الله (ت 560 هـ/ 1164 م)

1893 ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ،نشره دوزي و دي خويه ، ليدن.

- **السيوطي** : **جلال الدين** عبد الرحمن (ت 911 هـ/ 1505م)

1987، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بغداد.

- **الصابي**: أبو الحسن هلال بن المحسن (ت 448هـ/ 1056 م)

1958، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة.

- **الطبري** أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ/ 922 م)

1988 ، تاريخ الرسل والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

1933، اختلاف الفقهاء، نشره ي شاخت، ليدن.

- **ابن عبد الحكم**: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت257 هـ /871 م)

1922 ، فتوح مصر و أخبارها ، تحقيق شارلز توري ، بريل ، ليدن.

- **أبو عبيد** : القاسم بن سلام (ت 224 هـ/ 838 م)

1353 ،الأموال ، القاهرة .

- **العسكري** : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 395 هـ/1005 م)

1975، كتاب الأوائل ، طبعة دمشق.

- **ابن الفقيه** : الهمذاني أحمد بن محمد (ت حوالي 289 هـ/ 902م)

1866 ،مختصر كتاب البلدان ، طبعة بريل، ليدن.

- **قدامة** : أبو الفرج بن جعفرالكاتب

(ت 337 هـ/ 948 م)

1889،الخراج و صناعة الكتابة، المكتبة الجغرافية العربية ،طبعة بريل، ليدن .

- **الماوردي**: أبو الحسن علي بن محمد

(ت 450 هـ/ 1058 م)

1982 ، الأحكام السلطانية ،القاهرة .

- **مسكويه** : أبو علي أحمد بن محمد

(ت 421 هـ/1030 م)

1914، تجارب الأمم ، مطبعة التمدن، القاهرة .

- **المقدسي** :أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت 390 هـ/ 1000 م)

1906 ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة بريل ، ليدن.

- **المقريزي** : أبو العباس تقي الدين أحمد (ت 854 هـ/1450 م)

1270 ، الخطط والآثار ،جزءان ، بولاق ، القاهرة .

- **ابن منظور** : جمال الدين أبو الفضل محمد (ت 711 هـ/ 311م).

1956 ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .

- **اليعقوبي** : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت 292 هـ/ 904 م)

1957 ، البلدان، المطبعة الحيدرية . النجف.

- **أبو يوسف** :يعقوب بن إبراهيم

(ت 182 هـ/ 798 م)

1302 ،الخراج ، بولاق، القاهرة .

2) المراجع العربية:

- **أمين** : أحمد

1935 ، ضحى الاسلام ، القاهرة .

- **الدوري** : عبد العزيز

1974، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بغداد.

1988، العصر العباسي الأول، الطبعة الثانية، بيروت.

1969 ،مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطليعة ، بيروت.

- **دينيت** : دانيال

1960 ، الجزية والإسلام ، ترجمة فوزي فهيم جاد الله ، دار مكتبة الحياة، بيروت.

- **زيدان** : جرجي

1931 ، تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال ، القاهرة .

- **الريس** : محمد ضياء الدين

1969، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية الطبعة الثالثة ،القاهرة .

- **السامرائي** : حسام الدين

1990 ، مجالات الضرائب عن الأرض ، ضمن كتاب الإدارة المالية في الإسلام ، عمان.

- **فالح** : حسين أحمد

1988 ، حول الجزية و الخراج في مصر، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، عدد 30 ، الكويت .

- **كاتبي** : غيداء

1999، الجهبذة في العراق و تطورها حتى القرن الرابع الهجري، مجلة دراسات، المجلد 26، الجامعة الأردنية، عمان .

- **متز** : آدم

1967، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلي العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت

3) المراجع الأجنبية :

Donner, Fred
1981 , The Early Islamic conquests , Princeton University Press، New Jersey.

Encyclopedia of Islam , New Edition, Leiden.

Lokkegaard, F
1950, Islamic Taxation in classical Period, Copenhagen

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	1
قائمة المؤلفين	3
الفصل الأول .الطور الأول	
أولاً : الثورة العباسية وارتقاء العباسيين الخلافة	7
ثانياً : التطور السياسى للخلافة العباسية	10
ثالثاً : أهم حركات المعارضة الداخلية	26
رابعاً : العلاقات الخاصة	67
الفصل الثانى .الطور الثانى	
أولاً : الخلافة العباسية واستخدام الأتراك	101
ثانياً : الخلافة العباسية فى النصف الثانى من القرن الثالث	110
ثالثاً : قيام الكيانات المستقلة	
أ . فى المشرق	127
ب. فى الشام والجزيرة العربية ومصر	158
ج. فى المغرب والأندلس	203
رابعاً : الخلافة الفاطمية وإقامة الدولة فى المغرب	247
الفصل الثالث : الطور الثالث	
أولاً : الخلافة العباسية والبويهيون	259
ثانياً : الخلافة الأموية فى الأندلس	340

ثالثاً : الكيانات فى العراق والجزيرة والشام 369
رابعاً : الكيانات فى الجزيرة العربية (اليمن ــ عمان ــ الحجاز) 415

الفصل الرابع : تطور نظم الحكم ومؤسساته

أولاً : الخلافة 467
ثانياً : الوزارة 478
ثالثاً : الحجابة 487
رابعاً : الدواوين 499
خامساً : الجيش 522
سادساً : القضاء 545
سابعاً : الحسبة 565
ثامناً : الضرائب وإدارتها 577